الفتوح الإلهية

في نقد

الطبيعية المنهجية

سلسلة محاضرات في التعليق
على مقال لألفين بلانتينغا
في نقد الطبيعية المنهجية
Methodological Naturalism

أبو الفداء ابن مسعود



مؤسسة إقناع

الفتوح الإلهية في نقد

الطبيعية المنهجية

سلسلة محاضرات

في التعليق على مقال "الألفين بلانتنغا"

في نقد الطبيعية المنهجية

Methodological Naturalism

على قناة إقناع

أبو الفداء ابن مسعود

المقدمة والتمهيد

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

أما بعد، فقد سألني أحد الإخوة الأفاضل جزاه الله خيرا، في التعليقات على محاضرة من المحاضرات، عن الفارق بين الطبيعية المنهجية Methodological Naturalism والمنهجية العلمية Scientific Method، فأجبته قائلا:

الطبيعية المنهجية هي أن يجري الباحث بحثه معتنقا مسلمات ما تسميه بالفلسفة الطبيعية، كما بينت ذلك في مقدمة سلسلة بيان منهج أهل السنة في التجريبيات. فصاحبه يطرد الأقيسة والاستقراءات على طريقة الفلاسفة الميتافيزيقيين في استيعاب كل موجود بلا اعتبار لشيء في الغيب أصلا، وجميع ما في الوجود عنده مفتوح للتنظير الطبيعي، لأنه لا يرى في الوجود موجودا إلا ما هو طبيعي، ولا سببا إلا ما هو طبيعي. ولهذا سميت بالطبيعية المنهجية، وليس منهج البحث في الطبيعيات، فتنبه. الطبيعية Naturalism أن تكون طبيعيا في منهجك المعرفي، مستعملا آلة البحث التجريبي بناء على ذلك. ولذا يجتمع في صاحب هذا المنهج أن تراه يطبق الطريقة العلمية تطبيقا صحيحا فينتج علما تجريبيا معتبرا، وتراه هو نفسه يطبق الطريقة نفسها في موضوعات أخرى فينتج بها خرافات محضة وميثولوجيا دهرية صرفة، كما تراه في تطبيقات القوم للمنهج التجريبي في قضايا أصل الكون ونشأة الأنواع الحية كلها على الأرض. وكثيرا ما ترى في مصنفات الفلاسفة المعاصرين واللاهوتيين ومن شاكلهم خلطا في هذه القضية، تراهم يفرقون بين ما يسمونه بالطبيعية المنهجية والطبيعية الأنطولوجية، وكأن هذه

الأخيرة ليست هي الأساس الذي تقوم عليه الأولى في مبدأ انتقاء موضوعات البحث التي يصح أن تطبق عليها آلة البحث التجريبي أولا، ثم في المسلمات الوجودية التي ينطلق منها الباحث في وضع الفروض النظرية ثانيا، ثم في حدود القياس وطرد الاستقراء القانوني في جهات الزمان والمكان ثالثا. وهذا مدخل للتلبيس كبير، هو السبب في تكلفنا ما نحن فيه من بيان مسألة حدود وضوابط النظر الطبيعي هذه من الأساس، والله الموفق للرشاد.

أجبته بهذا الجواب الموجز، ثم رأيت أن القضية تحتاج إلى مزيد من البسط والبيان والتفصيل، نظرا لأن كثيرا من المسلمين المشتغلين بالطبيعيات يخلطون بين المفهومين، ويتصورون أن الإسلام إنما يتعارض مع الاعتقاد الطبيعي أو الطبيعية الفلسفية أو الأنطولوجية كما يسمونها، وليس مع الطبيعية المنهجية! وما ذاك إلا لأنهم في الأعم الأغلب لم يقرؤوا عن الطبيعية المنهجية إلا في كتب من يروجون لها على أنها هي الطريقة العلمية نفسها، وأنها لا تزيد على أن يكون البحث في الطبيعيات مقصورا على التجريب والمشاهدة ودلالة الحس وحسب، دون التطرق في الفروض التفسيرية إلى شيء من الأسباب الغيبية أو العلل الغائية أو ما يتعلق بها، على أساس أن مطلوب الباحث الطبيعي من البحث في الطبيعة على أي حال، إنما هو أن يتمكن من الوقوف على أسباب مشاهدة يمكنه تتبعها واستقراؤها والتنبؤ بها والتحكم فيها لخدمة مصالح البشر!

فإذا سمع الباحث المسلم أمثال هذه التعريفات التلبيسية، تهيأ له الظن بأن الطبيعية المنهجية لا تتعارض مع الإسلام! إذ نحن على أي حال نبحث إذا بحثنا في الطبيعيات ونحن نعتقد أن جميع ما نقف عليه من القوانين والسنن السببية في استقراءاتنا وتجاربنا إنما هو بخلق الله جل وعلا وأمره وتدبيره، ولا يخرج شيء عن ملكه البتة. وإذن فنحن نستكشف الأسباب

المحسوسة، مع كوننا نؤمن بأن وراءها أسبابا غيبية، بلا تعارض. وهذا صحيح ولا شك، هذا ما يجب على المسلم المشتغل بالتجريبيات والطبيعيات أن يعتقده قطعا.

ولكن تصوير الطبيعية المنهجية على هذه الصورة الاختزالية، تلبيس محض في الحقيقة!

فالذي ينتهج هذا المنهج في التنظير التفسيري وفي بناء التصورات الوجودية بشأن الطبيعة وما يجري فيها، لا يرى حدا لموضوع البحث الطبيعي ينتهي عنده، ذلك الموضوع الذي شرط على نفسه ألا يخوض فيه إلا بالأسباب الطبيعية! فمهما طُرح سؤال بشأن حادث ما أو نوع ما من أنواع الحوادث، في أيما زمان أو مكان، وجب عنده وجوبا منهجيا صارما ألا يوصف في تفسيره قول من الأقوال بأنه "علمي" - خلافا لما هو دجل وخرافة - إلا ما كان تفسيرا طبيعيا Scientific Explanation = Natural Explanation! فإذا كان الباحث يعتقد سلفا أنه مهما حدث حادث ما في أيما زمان أو مكان، فلابد أن له تفسيرا طبيعيا ما، يوصل إليه بالقياس، بصورة ما أو بأخرى، على ما اعتدناه من نظام العالم ومن طبائعه وسننه الرتيبة، فإنه يلزمه ضرورة أن يعتقد أنه ليس في الوجود إلا نوع الحادث الطبيعي، فلا يتصور لشيء أن يحدث البتة إلا عن أثر الطبائع والأسباب الطبيعية! وهذا هو اعتقاد الطبيعيين الدهرية، الذي يقال له في أدبيات الفلاسفة، الطبيعية الميتافيزيقية أو الطبيعية الفلسفية أو الأنطولوجية! فلا يكون هذا هو الموقف الإبستمولوجي المختار فيما يتعلق بأسباب الحوادث وتفسيراتها، إلا عند من سبق منه اعتقاد أنه لا سبب (أنطولوجيا) إلا السبب الطبيعي!

وإلا فمن كان يعتقد أن وراء عالم الشهادة عالما غيبيا عظيما، بل عالمِين، كما هو اعتقاد المسلمين، وأن للطبيعة (التي هي طبائع الأشياء المحسوسة كما اعتدناها) حدا مكانيا تنتهي عنده، فيكون من ورائها من غيب هذا العالم ما لا نعلم كيفيته ولا ما خلق الله فيه ولا بأي نظام

يحكم ولا على أي حال هو، وأن من فوق هذا العالم ربه وباريه صاحب الأمر والنهي فيه، وأن له ملائكة يحفظون في مواده وموجوداته طبائعها، فتجري الأسباب والآثار ومتولداتها بتصريفهم على ما يؤمرون به من فوق سبع سماوات، ما عهدناه منها وما لم نعلمه، وأن الأرضين والسماوات إنما خلقها خالق عليم، هو الذي ركب فيها نظامها وقضى فيها أمرها حال خلقها كما أراد سبحانه، لا أنها نشأت وتطورت جريا على ذلك النظام نفسه ونواميسه، من كان يعتقد ذلك كله، فهذا لا يقبل أبدا إطلاق القول بأنه ما من حادث يقع في الوجود، في الماضي والحاضر والمستقبل، وفي أيما مكان وفي أيما جهة، إلا لزم أن يكون متولدا عن أسباب طبيعية جارية على ما دلتنا عليه عادتنا البشرية من سنن الطبائع ونظمها! بل يؤمن بأنه لابد له من تقييد صارم منضبط لعالم الشهادة الذي هو محل العادة، وإلا لزمه نفي الغيب وما فيه بالكلية! وهنا مربط الفرس، فأنت إذا اعتقدت ذلك، إذا اعتقدت ذلك القيد الواجب عقلا وشرعا، إذا اعتقدت أن من الأسباب ما لا يكون طبيعيا، ومن أنواع الحوادث ما لا يجوز أصلا أن يقال في سببه إنه كان طبيعيا أو ناشئا عن جنس الطبائع المعتادة، كحوادث خلق السماوات والأرض وخلق الحياة على الأرض، خرجت بذلك على الطبيعية المنهجية، على ما تقدم من بيان معناها!

فواقع الأمر أننا معاشر المسلمين نثبت غيبا مطلقا في هذا العالم نفسه، فضلا عما وراء الحيز الواقع تحت الحس والعادة منه، فضلا عما وراءه هو نفسِه بكليته، ونثبت غيبا مطلقا في الزمان الماضي فيما قبل ما يطاله سجل التاريخ المدون، وغيبا مطلقا في المستقبل كذلك! هذه الغيوب المطلقة لا يثبتها من يدعوا الطبيعية المنهجية ولا يؤمنون بها، فلا يحد أحدهم لنفسه حدا يمنعه من اقتحامها بقياس الغائب على الشاهد على نفس الطريقة المسلوكة في بحث وتفسير

أنواع الحوادث والسنن الكونية الواقعة تحت العادة! من هنا اعتقدوا بأن جميع ما في الغائب كما في الشاهد نوعا، باطراد واتصال مطلق لا يجد أحدهم في دينه ما يوقفه أو يخرمه! ولهذا رجع الفارق الجوهري بيننا وبين من يقولون بالطبيعية المنهجية إلى قضية الإيمان بالغيب، إجمالا وتفصيلا! فمن كان يؤمن بالغيب (وجوديا أو أنطولوجيا)، فلن يجعل الطريقة الطبيعية هي السبيل الوحيد لاكتساب أي معرفة "علمية" صحيحة بشأن الواقع الخارجي وما يجري فيه، ولن يجعل التفسير الطبيعي هو التفسير الوحيد المقبول معرفيا لكل حادث! وخلاف الفلاسفة في هذه القضية، قضية الطبيعية المنهجية هل تقتضي الطبيعية الفلسفية أو الأنطولوجية (التي نسميها نحن بالدين الطبيعي) أم لا تقتضيها، إنما هو عند التتبع خلاف بين فلاسفة طبيعيين أقحاح من جانب، وفلاسفة متشربين بأكثر أصول الدين الطبيعي مع كونهم، في نفس الوقت، لديهم ما يدعوهم لاعتقاد سببية غير طبيعية بصورة ما أو بأخرى! أو بعبارة أخرى، لديهم إيمان بسبب غيبي ما، لا يخضع لسنن الطبيعة ونواميسها، فهم مضطربون في تحرير كيفية الجمع بين المصدرين، مصدر تلقي المعرفة بالغيبيات عند الطبيعيين، ومصادر تلقيها عند أهل ملتهم! وهذا الصنف الأخير سنضرب عليه المثل بأستاذ الفلسفة واللاهوت الأمريكي الكبير، ألفن بلانتنغا، معلقين على مقال له في مفهوم الطبيعية المنهجية، والعلاقة بينها وبين الاعتقاد الديني.

فكثير من فلاسفة الإبستمولوجيا المعاصرين، سواء الدهرية منهم أو المنتسبون إلى أهل الكتاب، من يزعمون أن الطبيعية المنهجية محايدة ميتافيزيقيا Metaphysically Neutral، بمعنى أنها لا تقوم على اعتقاد غيبي معين، بحيث إذا وجد ذلك الاعتقاد، جاز أن توجد في صاحبه، وإن عدم لم يجز! وإنما هي بزعمهم الطريقة الوحيدة الصحيحة لممارسة العلم الطبيعي

والتجريبي عامة. ثم يزيد بعضهم فيقرر أن استعمالها على النحو الذي جرت عليه العلوم الطبيعية في القرون الأخيرة، يفضي لا محالة إلى اعتناق الطبيعية الفلسفية أو الميتافيزيقية كما يسمونها، ولكن ليس اقتضاء قبليا A-priori وإنما اقتضاء بعديا A-posteriori. بمعنى أنك إذا مارست العلم التجريبي على الطريقة الصحيحة وطالت ممارستك، فلابد أن تصل في النهاية إلى اعتقاد أنه ليس للحوادث أسباب إلا السبب الطبيعي، وليس وراء الطبيعة شيء يؤثر فيها فضلا عن أن يكون حاكما عليها!

وهذا ولا شك تلبيس عظيم، إذ كما تقدم، لا يعتنق الإنسان الطبيعية المنهجية، إلا وقد حصل في نفسه الاعتقاد السابق بأنه ليس وراء وقوع الحوادث في الواقع إلا الأسباب الطبيعية، أي المتعلقة بطبائع العالم المشهود، الجارية تحت العادة، وما يقاس عليها في فرض المنظر الطبيعي ووهمه. وإلا فإذا اعتقد فيما يعتقد أن وراء العالم المحسوس غيبا ما، محايثا له (كعالم الجن والملائكة)، وغيبا متجاوزا له مكانيا (كما فوق السماء الدنيا القريبة، وما تحت الأرض الأولى القريبة)، لرسم لنفسه حدا لا يتجاوزه في موضوعات البحث الطبيعي من الأساس، وكذلك لو اعتقد أنه قد خلقه في الماضي خالق غيبي متجاوز له، بائن منه، لا قياس له على شيء من خلقه، ولا يخضع في أفعاله لما تخضع إليه موجودات العالم من سنن طبيعية هو من خلقها على نحو ما شاء واختار! وإذن لعلم متى يجوز أن يطلب السبب الطبيعي ومتى يمنع من ذلك، ولعلم ما حدود سببيته وتأثيره، وأن القانون الطبيعي لا يستقل بالتعليل ولا يخلق حوادث العالم، وأن جميع حوادث العالم التي يجوز أن تدخل في موضوع بحثه، من أسبابها ما هو مشاهد محسوس نوعا، يطلب العلم به باستقراء العادة، لمصلحة معتبرة، ومن أسبابها ما

هو غيبي محض، لا يتم التعليل السببي إلا به! وإذن لكان من أشد الناس عداوة لقول الطبيعيين: "لا تفسير إلا التفسير الطبيعي"!

فالاعتقاد الدهري الطبيعي (وهو الاعتقاد بأنه لا سبب إلا السبب الطبيعي) هو أساس الطبيعية المنهجية لا محالة، لا قيام لها في نفس أحدهم إلا عليه. ولأن عامة النصارى الغربيين في زماننا، قد تشبعوا بأصول الدين الطبيعي من حيث لا يشعرون، إذ كانوا لا يثبتون في دينهم غيبا إلا ما كان من اعتقاد وجود صانع ما بالغيب (فيما يصرحون بأنه اعتقادهم، وإلا فحقيقة الأمر العدمية والسلوب المحضة كما حررناه في التعليق على مناظرة ويليام كريغ وشون كارول)، قبل أكثرهم القول بأن الطبيعية المنهجية لا تقوم على الاعتقاد الدهري الطبيعي (أو الطبيعية الفلسفية) بالضرورة! فلا يعترضون على شيء من نظريات الطبيعيين البتة، أيا ما كان موضوعها، ومهما كان مغرقا في الغيبيات المطلقة زمانا ومكانا! اللهم إلا أن ترى منهم من يلتمس، على استحياء، إثبات "مصمم ذكي" في أصل الأسطورة الداروينية يعلل به نشأتها وانطلاقها المزعوم، لا أكثر! فهذا من قد تراه يعترض على الطبيعية المنهجية نفسها، كما سترى في مسلك بلانتينغا وسبب اعتراضه على الطبيعية المنهجية! ومع هذا فلن تجد هذه القضية تطرح في الأدبيات الغربية أصلا إلا في إطار وعلى أثر ما يسمى بنظريات التصميم الذكي Intelligent Design Theories لا غير! ليس لأنهم عزموا على تقييد الآلة التجريبية نفسها بما يتعين تقييدها به من قيود موضوعية في الزمان والمكان عند الممارسة والتطبيق، ولكن لأن القوم بدعوا طريقة فاسدة في تطبيق آلة العلم التجريبي بما يجوّز اتخاذ "مصمم ذكي" كعامل تفسيري يمكن إثباته تجريبيا! فحتى من رأى منهم فساد الطبيعية المنهجية من حيث الإطلاق، كألفين بلانتينغا، فهو متلبس بها في الحقيقة من حيث لا يشعر، غارق فيها

إلى أذنيه! فهو قد سلم قياد أمره في الاعتقاد بما في الواقع الخارجي، غيبه وشهادته على السواء، لما تأتي به نظريات الطبيعيين بلا قيد ولا شرط، إلا اشتراط أن يجوزوا في تطبيق الطريقة التجريبية أن يوضع من بين الفروض التفسيرية فرض وجود مصمم ذكي ما، يمكن إثبات تصميمه وخلقه بطريقة السبر والاستبعاد التفسيري Explanation by Elimination! وهذا وأيم الله هو الخذلان بعينه!

وأما قول أولئك الفلاسفة إن الطبيعية المنهجية هي الطريقة الوحيدة الصحيحة المفيدة للعلم عند ممارسة البحث في الطبيعيات، هذا تلبيس محض، لأنها ليست طريقة أصلا فضلا عن أن تكون هي الطريقة الوحيدة. الطبيعية المنهجية ليست هي الطريقة التجريبية Scientific Method، وانتبه، وإنما هي اعتقاد إضافي في شرط استعمال الطريقة التجريبية! هي بإيجاز اعتقاد أنها (أي الطريقة التجريبية) هي الطريقة الوحيدة الصالحة لاكتساب المعرفة بشأن العالم وما فيه، وما كان عليه في الماضي وما يكون عليه في المستقبل! فليس اعتناقها شرطا لممارسة البحث التجريبي والانتفاع منه على الحقيقة، وإنما هو شرط في مبدأ طرح الأسئلة حول العالم بكليته، ولطريقة التوصل إلى أجوبتها، في غيبه وشهادته على السواء، عند من لا يؤمنون بالغيب أصلا، لا جملة ولا تفصيلا! لا يقول: يطلب العلم بما يغيب عنا من الموجودات والحوادث بقياسها على ما في الشهادة، هكذا بلا حد ولا شرط، إلا من سبق منه اعتقاد أن جميع الموجودات والحوادث، لم تزل ولن تزال من نوع واحد ومن جنس واحد إجمالا، وهو النوع الطبيعي! وهذه هي المسألة الجوهرية التي لم نزل ندندن حولها في هذا الباب، ونرجو ممن يسمع هذا الكلام ويريد أن ينتفع به، أن يتدبر فيها مليا. فإن المسلم يجب أن يؤمن إيمانا جازما بأنه ليست جميع الحوادث التي حدثت في الماضي أو تحدث في الحاضر أو ستحدث في

المستقبل، في أيما مكان وفي أيما جهة، هي من نوع ما يقال له عند الطبيعيين: حادث طبيعي Natural Event، وليست تلك الطبائع التي نراها في الأشياء من حولنا، ونتتبع آثارها فيما يقال له القانون الطبيعي، مطردة في كل مكان وفي كل زمان كما يعتقده الطبيعيون! كل من يؤمن بالغيب، يتعين عليه أن يكون موقفه جازما صارما في هذه القضية، لا تساهل فيه!

وأما قولهم إنها، أي الطبيعية المنهجية، تفضي إلى الطبيعية الفلسفية باستقراء المسائل بعديا a-posteriori، وأن هذا معناه أن ممارسة العلم الطبيعي نفسه توصل لا محالة إلى الاعتقاد الغيبي الطبيعي ولو بعد حين، فهذا دوران ومصادرة، لأنه إذا تحقق لدينا أنما هي ثمرة ناشئة عن الاعتقاد الدهري الطبيعي بالأساس، لم يجز أن يقال إنها كانت هي السبب في انتهاء الدهرية الطبيعيين إلى دهريتهم! وإنما كانت هي السبب في حصول ما تحصل لديهم من ميثولوجيا غيبية مفصلة لم يسبق دهرية القرون السالفة إلى نظير لها في تفصيلها وتعمقها، ولم يستطيعوه! أي كانت هي السبب في تفصيل الاعتقاد لا في أصله وأساسه عند صاحبه! فنحن المسلمين إذ نؤمن بأن لنا ربا بالغيب، وأنه أرسل رسولا بالخبر والأمر والتكليف، فنؤمن تأسيسا على هذا بأن ما جاء به الرسول هو المصدر الوحيد المقبول في المعارف الغيبية وفيما يجب أن يكون عليه الإنسان من عمل وسلوك حتى ينجو في الآخرة! وإذن نستمد تفصيل الاعتقاد والعمل من ذلك المصدر المعرفي، الذي قام تمسكنا به واشتراطنا إياه على أنفسنا، على أساس اعتقادنا بوجود رب العالمين وبأن محمدا صلى الله عليه وسلم هو رسوله إلى العالمين! وكذلك يقال في دين الطبيعيين! فإنهم لما سبق منهم الاعتقاد الجازم بأنه ليس في الوجود إلا الطبيعة التي يعيشون في جزء منها، أو بعبارة كارل ساغان المشهورة: الكون هو كل ما كان وكل ما يكون وكل ما هو كائن أبدا، سقط مبدأ التلقي المعرفي عن الأنبياء والمرسلين عندهم

رأسا، ولم يبق إلا أن يقولوا إنه لا معرفة ترجى أو تطلب أو تعتبر بشأن الواقع الخارجي إلا ما كان مؤسسا على طريقتنا المعتمدة في بحث عالم الشهادة وتتبع طبائعه وأحواله وكيفياته وأسبابه، فلا نتطلع لمعرفة ما غيّب عنا تغييبا مطلقا، في الزمان والمكان، إلا بأن نقيسه على ما في عادتنا بصورة ما أو بأخرى، إذ ليس فيما هنالك إلا مثل ذلك!

فإذا كان ذلك كذلك، لم يكن ما يؤسسه الطبيعيون على استعمال الطريقة التجريبية من نظريات في الغيبيات المطلقة إلا ضربا من الخرف والرجم بالغيب ضرورة، وفيما يجب أن يعتقده كل مسلم يؤمن بالغيب كما تقدم. وإذن لم تكن الزيادة منه زيادة في العلم Natural Science على التحقيق، وإنما زيادة في المحتوى الأسطوري الميتافيزيقي الطبيعي Naturalistic Mythology، مهما اتفقت الأكاديميات الغربية المتخصصة في الطبيعيات على قبوله واعتماده كعلم طبيعي! فهو وإن كان من حيث الطريقة بحثا تجريبيا أو يشبه أن يكون كذلك، إلا أنه ليس معرفة أو علما على الإطلاق. فلا يقال إن الاستزادة من العلم التجريبي والتوسع فيه تفضي إلى الدهرية الطبيعية، وإنما الاستزادة من نظريات الدهرية الطبيعيين في الغيبيات المحضة هي التي توصل إلى ذلك، لأنها تشبع النفس بالتسليم المبدئي بالطبيعية المنهجية، التي هي ركن الطبيعية الفلسفية كما تقدم، ولأنها تسلخ صاحبها من الاعتقاد الغيبي الموروث عن الأنبياء والرسل تدريجيا من حيث لا يشعر، حتى لا يبقى له فيما جاء به النص من خبر الغيب إلا إثبات العدميات والممتنعات!

فإن قال بعض متفلسفة المسلمين إن الطبيعية المنهجية إنما تعني أننا إذا بحثنا في الطبيعة الشاهدة، لم نفترض في تفسير ظواهرها سببا غيبيا، وإنما اكتفينا باقتراض الأسباب المشاهدة المباشرة، أو القابلة نوعا للإخضاع للحس المباشر، على أساس أن السبب الغيبي لا طريق

لإثباته أو نفيه بالحس على أي حال، ولا تحصل المنفعة المرجوة من البحث التجريبي والحالة هذه، قيل لهم إن هذا مردود من وجوه. فأما أولا، فليس البحث في الطبيعة الشاهدة المحسوسة وحدها، بهذا القيد، هو موضوع الطبيعية المنهجية، فقد تقدم أنها تقوم على تصور وجودي غيبي مفاده أن جميع ما في الغيب مماثل في الكيفيات والحقائق وجملة النظام الطبيعي العام لما في الشاهد، فليس في الوجود إلا الطبيعة وأسبابها وسننها! بل لا نبالغ إن قلنا إنك لا تكون طبيعيا في منهجيتك حتى تجيز للقوم وضع النظريات في مسألة النشأة Question of Origins، نشأة العالم ونشأة الأنواع الحية على الأرض، وفي هيئة العالم بكليته، وطبيعته بكليته، ما نراه منه وما لا نراه! وأما ثانيا: فمن الواضح بداهة أن افتراض سبب غير محسوس ولا قابل للإدخال في الحس البتة، هذا لا دخول له تحت آلة البحث التجريبي، إذ لا يوصل إلى إثباته أو نفيه أو قياسه على نظيره من طريقها! ولكن واقع الأمر أن الطبيعية المنهجية تقتضي نقض هذا الشرط، لأنها لا تقبل في الغيبيات المطلقة من الحوادث والموجودات التي تفترضها النظريات، إلا التفسير الطبيعي وحده دون غيره! وأما ثالثا: فعلى جعل الطبيعية المنهجية بهذا المعنى، فهي تظل مرفوضة لدى من يؤمنون بالغيب، لأن جميع الحوادث الواقعة تحت عادتنا اليومية لها أسباب غيبية كما أن لها أسبابا معتادة نوعا! ومنها ما لا ينتفع الباحث فيه إلا بالتنقيب عن السبب الغيبي، كما في قضايا التلبس بالجن مثلا، وكما في إثبات معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء، وكما في العين والحسد والسحر! تلك القضايا التي لا يقبلها من يعتنق الطبيعية المنهجية بحال من الأحوال، بل يوجب على الناس أن يفرضوا التفسير الطبيعي الجاري على الطبائع المعتادة في جميع ما نجزم نحن أو نرجح بظن قوي أنها ترجع إلى تلك الأسباب الغيبية التي ذكرنا، بصورة ما أو بأخرى! فهذه الأسباب وإن كانت مغيبة تغييبا مطلقا، إلا

أن لها قرائن وآثارا تعرف بها إجمالا، دل النص الشرعي عليها! وليس إثباتها داخلا في الآلة التجريبية أصلا، وإن كان الحس والمشاهدة والعادة من مستندات الإثبات، ولا يلزم أن يدخل!

وأما رابعا: فالمنفعة الدنيوية لا تحصل على أي حال إلا باقتراض تفسيرات وعوامل سببية يمكن إخضاعها للتتبع والتجريب مبدئيا، وهو ما لو تقيد به القوم في منهجهم وتطبيقهم الآلة التجريبية ما قالوا بالطبيعية المنهجية أصلا، لأنه معلوم أن أسباب الحادث الواحد التي ينبغي أن تقع قبله حتى يقع، لا تنحصر في معرفة البشر، حسبك أن تعلم، على سبيل المثل، أنك من أجل أن يتهيأ لك أن تسمع هذه المحاضرة الآن، قد اجتمع من الأسباب ما لا تحصيه مهما حاولت ذلك! متولدات تقع قبل سماعك، يكون السماع مترتبا على مجموعها، وموانع سببية تنتفي، وشروط سببية تتحقق، مما لا يحصيه إلا الله تعالى! فإذا كان ذلك كذلك، تعين ألا يكون اشتغال الباحث التجريبي في تتبع العلاقات المطردة النظامية بين الأسباب وآثارها، إلا مشروطا بما تحصل به المنفعة من أنواع الأسباب!

فإذا أسقطنا مسلمات الاعتقاد الطبيعي الدهري في استيعاب الغيب بكليته بنظريات الطبيعيين، وفي استعمال آلة التجريب من أجل التغلب على الموت وتخليد البشر وخلق الوعي البشري في الروبوتات وغير ذلك من زبالة الدهرية، لم يبق إلا التنظير من أجل المصلحة التطبيقية المظنونة في تتبع الأسباب واستقرائها، وهو ما حاصله الخروج من الطبيعية المنهجية جملة وتفصيلا، في دواعي ومقاصد استعمال الآلة التجريبية، ومن ثم في أنواع الأسباب المتوجه إليها بالافتراض التفسيري عند البحث، فتأمل!

فالطبيعيون ما يريدون الاكتفاء بالتطبيق العملي النافع لما يستقرئونه من سنن طبيعية مطردة في عادتهم، وإنما يريدون بناء الدعاوى المعرفية العريضة التي تستوعب العالم بكليته وجميع ما فيه وما وراءه، إن كان له وراء! وجميع ما كان قبله إن كان قبله شيء، وجميع ما يكون بعده إن كان بعده شيء، فلا يشار إلى حادث أو موجود في الماضي أو في الحاضر أو في المستقبل أو في الواقع الخارجي بإطلاق إلا استوعبته نظرياتهم وجوبا! هم يريدون أن يشيدوا لأنفسهم صرحا اعتقاديا "علميا" يستوعب عالم الغيب كما يستوعب عالم الشهادة، فلا يأتي أتباع الرسل بدعوى عن الغيب وما فيه إلا قوبلوا بذلك الصرح المشيد، واتهموا إذا خالفوه – وهم مخالفوه لا محالة – بالجهل وخفة العقل واتباع أساطير الأولين! فلولا هذا الطمع الدهري الخبيث في تأسيس الأكاديمية الغربية على أيدي فلاسفة اليونان المدرسيين القدماء، ما جرت نظرياتهم على المقياس والصفة التي لم تزل تجري عليها، وما وجدت الطبيعية المنهجية أصلا ولا عرفت في أي عصر من العصور، حتى يختلف الناس عليها! لو قدر أن تأسست الأكاديمية الطبيعية حيث نشأت، من أول يوم، على اعتقاد أن فيما وراء العالم غيبا عظيما لا يجوز اقتحامه بالقياس بأنواعه، وإنما يؤخذ العلم به وبما فيه من كلام الأنبياء والمرسلين، فلا يكون تجاوز حجب الغيب بالقياس إلا ضربا من الخرف والبناء الميثولوجي الصرف، لا يقال لصاحبه إنه على علم أو معرفة أصلا، وتأسست كذلك على اعتقاد أن لخالق السماوات والأرض غاية وقصدا من خلقنا في هذا العالم وتسخيره لنا وتمكيننا فيه من تتبع أسبابه وسننه وطبائعه والانتفاع منها، يتحدد في ضوئها مصير الواحد منا في الآخرة بعد موته، وأنه يجب إذن الانضباط في ذلك المسعى الاستكشافي، منهجيا، على ما يحبه الخالق سبحانه ويرضاه من عباده، دون إفراط ولا تفريط، لو تأسست الأكاديمية الغربية يوم تأسست على هذا الاعتقاد،

لرأيت المحتوى النظري المتراكم عند الطبيعيين على هيئة غير هذه الهيئة، ولوجدت النظريات تطلق فيه في حدود عالم الشهادة (الذي هو تلك السماء القريبة والأرض القريبة) دون تجاوز لما وراءه، ولوجدت مطالب البحث الطبيعي تنصب بجهود أصحابها وأموالهم وأوقاتهم فيما ينفع الناس نفعا محققا أو مظنونا، على معيار صحيح في تقرير ما ينفع وما لا ينفع، معيار سالم من مسلمات الاعتقاد الطبيعي الدهري وخرافات أصحابه وأوهامهم، ولرأيته لا يتعارض البتة مع ما جاء به الوحي إلا فيما شذ وندر، وقوبل صاحبه بالنكير الأكاديمي المستفيض! ولكن ما هكذا أراد رب العالمين لأهل الأرض، وليس هذا ما اقتضته حكمة الابتلاء في تقديره جل في علاه! بل قضى سبحانه ألا تكون أسباب العلو في الأرض وتسخير مادتها وطبائعها لأغراض الناس إلا فتنة للعباد! وهي ولا شك من أعظم الفتن في هذا الزمان! يقال لك: لو لم تكن الطبيعية المنهجية هي الحق وهي الصواب، لما ركبنا اليوم السيارات والطائرات والغواصات، ولما استعملنا الإنترنت والجي بي إس، ولما كنت أنت اليوم تجلس أمام صندوق صغير تتلقى منه العلم بالصوت والصورة والنص المكتوب! فما أكثر ما تدخل تلك الشبهة السخيفة على المفتونين، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

فبسبب ذلك الخلط والتلبيس القديم في حقيقة ما يراد بالطبيعية المنهجية، يظن كثير من المسلمين أن الطبيعية المنهجية إنما نشأت فيما يسمى بعصر التنوير الأوروبي قبل بضعة قرون من الزمان، كما يزعمه أكثر من يكتبون فيه من الفلاسفة والنظار الغربيين، والواقع كما بينا أن هذا غير صحيح البتة! بل نشأت على أيدي آباء الأكاديمية الفلسفية اليونانية قبل ثلاثين قرنا أو يزيد! نشأت يوم قرر فيلسوف دهري مستكبر مغرور بعقله، أن يتناول كل سؤال بشأن العالم بكليته والسماوات وما هي عليه وما يكون بعدها أو فوقها، وما كان قبل العالم إن كان قبله

شيء، وبنية كل موجود في العالم وتركيبه، والكيفية التي بها يحدث كل حادث فيه إذا حدث، يتناول ذلك كله بقياس ما في الغيب على ما في الشاهد، ثم يقول إنه قد أحرز بذلك "علما" بما هنالك، وأنه لا يخالف ذلك "العلم" إلا صاحب الجهل والخرافة!

ولهذا نقول إن مطلب استنقاذ وانتزاع الطريقة العلمية Scientific Method من براثن الطبيعية المنهجية Methodological Naturalism، وإعادة بنائها على قواعد إبراهيم، ليس بالعمل الهين. وفيه تفصيل لما نريد أن ننتهي إليه منه يجب أن يفهمه المهتمون بهذه العلوم من المسلمين فهما دقيقا، حتى لا يقال إننا نطالب بإسقاط جميع العلوم الغربية حتى نأتي من أكياسنا بما نجعله في محلها! فليس هذا ما ندعو إليه على التحقيق، كما لم نزل نكرر ونعيد في بيانه مرة بعد مرة وفي كل مناسبة. وإنما نريد أن يتعلم المسلم المضطر إلى استيراد العلوم الغربية لينتفع بها المسلمون في بلاده، المسلم القائم على تلك الأكاديميات العلمية التي تدرس تلك العلوم للمسلمين، العلوم الطبيعية خاصة والتجريبية عامة، هذا يجب عليه وجوبا عينيا أن يتعلم كيف يفرق فيها بين الغث والسمين، وكيف يحقق المنهج الصحيح في انتقاء الموضوعات البحثية المقبولة أكاديميا عند المسلمين، وترك ما سواها، حتى لا تبذل أموال المسلمين وجهودهم وأوقاتهم في تقرير الجهل والضلال والزيغ وتوسيع دائرته، من حيث يحسبون أنهم ينفعون أنفسهم وبلادهم وأنهم يحسنون صنعا!

فلا يجوز على سبيل المثل، أن يستثمر المسلمون أموالهم في البحث فيما يقال له الذكاء الاصطناعي العام Artificial General Intelligence، فهذا ما يبلغ الذكاء الاصطناعي عنده أن يكون الحاسوب الموصوف به عقلا بشريا كامل الأركان، بوعي بشري كامل! أي أن يكون روحا كروح بني آدم، ينفخها المبرمج في الكمبيوتر فتصير بشرا ولكن في ماكينة أو

روبوت! هذا باب لولا الاعتقاد الدهري الطبيعي عند أصحابه ما استجازوا تطلبه والبحث فيه أصلا! الطبيعية المنهجية تجيز البحث في هذا الباب، لأن أصحابها يعتقدون أن الوعي البشري عملية طبيعية، أسبابها كيميائية وفيزيائية صرفة، وأنه ليس في الإنسان شيء يقبض حال موته، وإنما عمليات بيوكيميائية تتوقف فيهلك الإنسان ويصبح ترابا كأنه لم يكن! لماذا يتمتع الإنسان بما يقال له الوعي البشري والوعي الذاتي، ولا يتمتع به الحاسوب في الوقت الحالي؟ لأننا لم نصل بعد إلى اكتشاف الأسباب الطبيعية التي تخلق في الإنسان وعيه! وإذن، يستجاز استعمال آلة البحث التجريبي والرياضي في تلك المسألة، فيما يقال له "الطبيعية المنهجية"!

وإلا فلو اعتقد القوم أن في جسم الإنسان نفسه غيبا مطلقا هو الروح التي نفخها فيه ربه وخالقه وهو في بطن أمه، وبقبضها يحصل الموت لبني آدم، ما استجازوا اعتقاد أن السنن الطبيعية وأسبابها قد تمكنهم يوما من الدهر من صناعة ماكينة ترى نفسها إنسانا له وعي بشري ونفس بشرية كاملة الأركان! ولا يجوز أن يستثمروا أموالهم في أبحاث محاربة الموت أو تجميد البشر لإعادة إحيائهم في المستقبل، أو تركيب الإضافات التكنولوجية على أجسامهم لرفع قدراتها فوق قدرة البشر، كما هو مسعى رجل الأعمال المستقبلاني المعروف إيلون ماسك، صاحب شركة SpaceX المعروفة، فيما أعلن أخيرا أنه على وشك التمكن منه! يريد أن يغرس حاسوبا صغيرا في جسم الإنسان، فيما لا نجد له وصفا إلا أن يكون كما حكاه رب العالمين من كلام إبليس إذ قال: ((وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللّهِ)) الآية [النساء : 119]! ولا يجوز أن يعتقد المسلم صحة كثير من المسلمات الاعتقادية التي يظن أكثر المسلمين أن العلم الحديث يقوم عليها ولا يمكن الانتفاع به إلا باعتقادها! كل هذا يجب أن يتعلمه المسلمون في أكاديمياتهم التجريبية بصرف النظر عما إذا

كانوا مطالبين ببناء نظريات جديدة في محل النظريات المعتمدة حاليا أم لا (وليس هذا ما نطالبهم به من حيث الأصلُ كما بيناه مرارا وتكرارا)!

ومع هذا، فلا نرتاب في أن مطلبا كهذا من شأنه أن يجلب على طالبه من نقمة الطبيعيين الدهرية القائمين على أكاديميات البحث الطبيعي وتسفيههم وعداءهم ما لا يحصيه إلا الله. ولكنه مع ذلك قد بات مطلبا ملحا، بل أزعمه قد بات فرضا من فروض الكفايات على المسلمين في هذا الزمان، والله المستعان.

سيقولون "أعداء العلم" وسنتهم بمعاداة العلم Anti-science لمجرد أننا نطالب العقلاء بأن يضعوا تلك الآلة في موضعها الصحيح، بعيدا عن الاختزالية الوجودية Ontological Reductionism التي تنفي عن الواقع كل ما هو مغيب تغييبا مطلقا، بحيث لا يقبل القياس على ما هو محسوس في عادتنا وتجربتنا البشرية، ولكن الحق أحب إلينا من أن نبالي! نقول احصروا الطبيعة التي هي موضوع تلك الآلة في حدود المكان والزمان الداخلين في إطار تجربتنا البشرية التراكمية بصورة مباشرة، لأن هذا هو الحيز الذي حصلت فيه تلك التجربة نفسها، فلا تقتحموا ما وراء ذلك الحيز بأقيستكم وفرضياتكم، ونحن نتوقع أن يقال لنا أنتم سفهاء تحبون الجهل والتخلف ولا تريدون للعلم أن يتقدم! نقول إن الاستقراء البشري في المحسوسات محدود بحدود ذلك الحيز الوجودي الذي يطاله حسنا وعادتنا البشرية من هذا العالم، فلا أساس ولا مستند لادعاء استيعابه لجميع أنحاء العالم، ونحن نتوقع أن نتهم بأننا نسقط منطق الاستقراء نفسه وننفي مطلق إفادته العلم (على سبيل الظن الراجح) في تتبع سنن الطبيعة ونواميسها!

فالله نسأل أن يوفق المسلمين إلى ما فيه رشادهم وسلامتهم من مداخل الزندقة والإلحاد، إنه ولي ذلك والقادر عليه، والحمد لله أولا وآخرا.

الجزء الأول

في يناير من عام 1997 الميلادية، نشر ألفين بلانتينغا، الفيلسوف النصراني الأمريكي، مقالا بعنوان "الطبيعية المنهجية؟" Methodological Naturalism? في دورية علمية بعنوان "الأصل والتصميم Origins and Design"، أسسها بول نلسون وويليام دمبسكي وستيفن ماير وجوناثان ويلز، رواد نظرية التصميم الذكي، بغرض الدعاية والترويج للنظرية في الأوساط العلمية والفلسفية. وكتب في مستخلص المقال [1]:

يـنص المذهب الفلسفي المسمى بالطبيعية المنهجية Methodological Naturalism على أنه من أجل أن ترقى أي دراسة بشأن العالم وما فيه، لأن يقال لها "علمية" Scientific، فلا ينبغي أن يشار فيها إلى خالقية الإله (أو إلى نوع من أنواع الفعل الإلهي). الطرق العلمية، فيما يدعى، لا تخدمنا في التنظيرات الثيولوجية، حتى وإن كانت هذه الأخيرة صحيحة في

[1] *The philosophical doctrine of methodological naturalism holds that, for any study of the world to qualify as "scientific," it cannot refer to God's creative activity (or any sort of divine activity). The methods of science, it is claimed, "give us no purchase" on theological propositions--even if the latter are true--and theology therefore cannot influence scientific explanation or theory justification. Thus, science is said to be religiously neutral, if only because science and religion are, by their very natures, epistemically distinct. However, the actual practice and content of science challenge this claim. In many areas, science is anything but religiously neutral; moreover, the standard arguments for methodological naturalism suffer from various grave shortcomings. [This is the first part of a two-part article.]*

نفسها، والثيولوجيا من ثم لا ينبغي أن تؤثر في التفسيرات العلمية أو في تبرير النظريات العلمية. ومن ثم يقال إن العلم science محايد دينيا، لأن العلم والدين، مستقلان إبستمولوجيا، على الأقل، بالنظر إلى طبيعتهما الموضوعية. ومع ذلك فإن الممارسة الفعلية والمحتوى الفعلي للعلم يخالف هذا الزعم. ففي كثير من المجالات، لا يكون العلم محايدا دينيا، زد على ذلك أن الحجج التقليدية في الانتصار للطبيعية المنهجية تعاني من معايب كبرى كثيرة. (هذا هو الجزء الأول من مقال على جزئين).

قلت: هذا التعريف للطبيعية المنهجية قاصر جدا في الحقيقة واختزالي للغاية، غير جامع، أي يخرج من الطبيعية المنهجية ما هو منها في الحقيقة. فهو يعرف الطبيعية المنهجية على أنها اعتقاد أن البحث لا يكون علميا ولا يفيد المعرفة إلا إن كان خاليا من الإشارة ولو من بعيد لخالقية الباري خاصة ولأفعاله عامة. وهذا غير صحيح، فالمنهجية الطبيعية تمنع من التفاسير كل ما هو غيبي أو خارج عن نوع الأسباب الطبيعية بعموم، سواء كان هو الباري أو شيء مما دونه، كالملائكة والجن وغير ذلك من الأسباب التي لا توصف نوعا بأنها "طبيعية" natural! والسبب في ذلك راجع، كما بسطنا الكلام عليه في غير موضع، إلى كون الطبيعية المنهجية هذه ركنا من أركان الدين الطبيعي، القائل بأنه لا موجود في الخارج إلى الطبيعة ولا سبب إلا السبب الطبيعي. ويراد بالطبيعي في هذا السياق، أي الناشئ عن الطبائع الواقعة تحت الحس بالفعل أو بالقوة Observable natures. وهو ما يقال له عند الفلاسفة المعاصرين الحتمية الطبيعية أو السببية الطبيعية المغلقة Closed Natural Causation. ولهذا لا علم عندهم ولا معرفة إلا ما كان مبنيا على آلة العلم الطبيعي، لأنه ليس فيما خلا الطبيعة شيء يعرف أصلا! هذه كلها كما ترى عبارات متباينة لتقرير نفس المعنى: أنه لا موجود بحق إلا الطبيعة، وإذن فليس

ثم ما يعرف أصلا إلا ما كان طبيعيا! ولكن على دين بلانتينغا واعتقاده، فليس ثمة غيب يتجاوز الطبيعة إلا ذات الباري وأفعاله! ذلك أنه قبل مذعنا، كما أذعنت أكثر طوائف النصارى في بلاد الغرب في القرون الخمس الأخيرة، عدوان الطبيعيين على غيوب العالم وما وراءه، وقبل كما قبلت أكثر الكنائس الكبرى مبدأ التساوي الكوزمولوجي الكوبرنيكي، ومبدأ عدم التغير الزماني uniformity، المؤسسان أصالة على اعتقاد أنه لا موجود إلا الموجود الطبيعي في أي زمان وفي أي مكان. هم لم يرفعوا رأسا بما في نصوصهم من خبر الغيب، لا غيب الزمان ولا غيب المكان، ولم يزالوا يحرفون دينهم في كل عصر، خضوعا للتيار الفلسفي والاعتقادي السائد في عصرهم، كما أسس إمامهم بولس الكنيسة الرومية بتلبيس دين المسيح بدين الوثنيين الروم تلبيسا! ومن ثم وقعوا في ذلك التناقض المنهجي العظيم الذي لم نزل نحذر شباب الدعاة المهتمين بالإلحاد وما يتعلق به، من الوقوع فيه على أثرهم، ومن الدخول في ذلك الجحر نفسه خلفهم. هم لما كانت لهم الغلبة والبطش السياسي في بلاد الغرب، كانوا يذعنون للسلطة الفكرية للفلسفة اليونانية والمنطق الأرسطي ولميتافزيقا الجوهر والعرض وما يتعلق بها.

فهما حاول بعض الفلاسفة العدولَ عن تلك النظرية إلى غيرها مما يجري على نفس المنهج الدهري اليوناني الخبيث في تجاوز حدود الغيب واقتحامه بالعقل والنظر والقياس، أوقفوه بالقوة، وحاكموه بتهمة إفساد الدين! مع أن أحدهم إذن لم يزد على أن جرى على نفس الأصول المنهجية التي تأسست عليها مدرسة أرسطو التي صيرتها الكنيسة هي أساس الدين وقاعدة الملة! فلما انقلب الناس عليهم وعلى سلطانهم الإكليروسي، وقام في الأكاديميات الفلسفية الغربية نظام ميتافزيقي جديد، لم يجدوا إلا أن يذعنوا له كما أذعنوا لسابقه من قبل!

فانقلبوا إلى الميتافزيقا الكوبرنيكية الجديدة، وتقرمطوا على جميع ما يخالفها من النصوص عندهم، حتى صيروا سفر التكوين كله، من أوله إلى آخره، كتابا مجازيا لا يراد فيه تقرير وقائع تاريخية حقيقية، يجب على النصراني عندهم أن يعتقدها، على ما يجدها عليه! فلما كان ذلك كذلك، لم يبق من أمور الغيب المطلق ما يرون أنفسهم مضطرين للتشبث به إلا القول بوجود صانع ما لهذا العالم! حتى القول بأنه لا يقع شيء في العالم إلا بخلقه وفعله ومشيئته، هذا كانوا من قبل قد ضيعوه بقدريتهم، وباعتقادهم أن العبد هو خالق أفعاله! فلما أظهر الطبيعيون تقرير السببية الطبيعية المغلقة، وظهر نفع ميكانيكا نيوتن في كل مجال طبقت فيه، افتتن القوم فتنة جديدة فوق فتنتهم، وفرطوا في المزيد من دينهم، واضطربوا في مسألة "الفعل الإلهي" Divine Action غاية الاضطراب، حتى صيروا القانون الطبيعي فاعلا خالقا للحوادث من دونه، وهو لا يزيد على أن يكون صانع تلك الماكينة الكبرى، ماكينة الخلق والضبط والتدبير الذاتي، الذي "يتدخل" من آن لآخر لضبطها إن احتاجت لذلك، أو لإحداث الخوارق التي أجراها على أيدي المسيح عليه السلام، فيما صاروا يقولون له: Divine Intervention.

لهذا لم يجد بلانتينغا شيئا يعترض عليه في الطبيعية المنهجية، إلا إصرار أصحابها على طردها على جميع الموجودات بموجب الاعتقاد الذي منه نشأت عندهم أصالة. أي بعبارة أخرى، لا مانع من إعمال جميع مسلمات الطبيعية المنهجية وتأسيس العلوم عليها، إلا في تلك المواطن التي يفضي فيها ذلك إلى نفي وجود الباري ونفي "تدخله" بالفعل والخلق أحيانا! فهو اعتراض على تبعة من تبعات الطبيعية المنهجية في الحقيقة، وليس اعتراضا على مبدئها الدهري، فانتبه!

والمراد من هذا الموضع بيان أن الفلاسفة والنظار الذين لم يتلبسوا بالطبيعية المنهجية تلبسا تاما، إنما يقررون ما يجوز اقتحامه بآلة النظر الطبيعي من أنواع المسائل وما يمنع فيه ذلك، بناء على ما يجده الواحد منهم في دينه الموروث من اعتقاد غيبي يراه مضطرا للبقاء عليه والانتصار له، ويرى أن من نظريات الطبيعيين ما يصادمه. فعندما يقول بلانتينغا إن العلم الطبيعي يكون محايدا دينيا في مسائل، وغير محايد في مسائل أخرى، فإنما يتوقف ذلك على دينه هو بطبيعة الحال، واعتقاده هو، ومصادر التلقي المعرفي بالغيبيات عنده! والحال أنه ليس عنده غيبيات أصلا إلا ذات الباري، وبعض الأفعال التي غرق الثيولوجيون في القرون الأخيرة في محاولة تحرير نسبتها إليه على نحو لا يتعارض مع السلطان الأكاديمي الطبيعي المعاصر لهم. فالرجل مشكلته الأساسية التي من أجلها كتب هذا المقال، إنما هي في نفي الدراونة للفعل الإلهي في علم البيولوجيا!

تلك المشكلة التي وجد في نظريات دمبسكي وأصحابه علاجها: كيف تجري آلة البحث الطبيعي على مسألة الأصل والنشأة (نشأة الأنواع الحية) من غير أن تضطر لنفي وجود الباري بالكلية؟! فهو من حيث الأصلُ يقر القوم على مبدأ النظر في هذه البابة ونحوها من أبواب الغيبيات المطلقة، وإنما يريد أن يجد لثيولوجياه متسعا في نظرياتهم لا غير! ولهذا لما تناول أصحاب التصميم الذكي نظرية داروين، وأضافوا إليها – كما هي – آلية ثالثة إضافية هي آلية التصميم، ثم انتصروا لتلك الآلية بأنواع معينة من المخلوقات الحية قالوا إنها لا يمكن تفسيرها إلا بالتدخل الإلهي، وجد في ذلك أخيرا ما يوافق دينه واعتقداه في مسألة الفعل الإلهي (الذي تقدم بيانه بإيجاز فيما مر)، ولا يضعه في خانة يصل فيها مبلغ التهمة الموجهة إليه (في مسألة مخالفة العلم الحديث وكذا) إلى ما يتهم به القائلون بالأرض الفتية Young Earthers وغيرهم ممن

تمسكوا بشيء من نصوص سفر التكوين في طوائف القوم! فالخلق في نظرية التصميم الذكي، كما بسطنا الكلام عليه في كتاب المعيار، وكما يأتي بيانه في محاضرات قناة إقناع لاحقا إن شاء الله تعالى، منسوب عند دمبسكي وأصحابه إلى خالقين ثلاثة: الطفرة العشوائية والنظام الطبيعي والمصمم الذكي! وهو بطبيعة الحال يرى أن الخالقين الآخرين هما من خلق ذلك المصمم بالأصالة، وهكذا اعتقاد بيهي ودمبسكي وغيرهما من أصحاب التصميم الذكي، ولكن القصد أن تلك الآليات عند القوم مستقلة بالخلق والتعليل!

يقول بلانتينغا في صدر البحث [2]:

---

[2] *According to an idea widely popular since the Enlightenment, science (at least when properly pursued) is a cool, reasoned, wholly dispassionate 1 attempt to figure out the truth about ourselves and the world, entirely independent of ideology, or moral convictions, or religious or theological commitments. Of course this picture has lately developed some cracks. It is worth noting that 16 centuries ago, St. Augustine provided the materials for seeing that this common conception can't really be correct. It would be excessively naïve to think that contemporary science is religiously and theologically neutral. Perhaps parts of science are like that. The size and shape of the earth and its distance from the sun, the periodic table of the elements, the proof of the Pythagorean Theorem--these are all in a reasonable sense religiously neutral. But many other areas of science are very different. They are obviously and deeply involved in a clash between opposed religious world views. There is no neat recipe for telling which parts of science are neutral with respect to this contest and which are not; what we have is a continuum rather than a simple distinction. But here is a rough rule of thumb: the*

وفقا لفكرة قد اتسع انتشارها منذ عصر التنوير، فإن العلم (إذا سعينا في طلبه بصورة صحيحة)، هو محاولة عقلية باردة ومجردة تماما من الميول القلبية، للتوصل إلى معرفة الحقيقة بشأن ذواتنا وبشأن العالم من حولنا، وأنها مستقلة تماما عن الأيديولوجيا، أو القيم الأخلاقية، أو الالتزامات الدينية أو الثيولوجية. ولا شك أن هذه الصورة قد ظهرت فيها مؤخرا بعض التصدعات. فمما تجدر الإشارة إليه أنه قبل ستة عشر قرنا، قدم القديس أوغطسين مادة تفيد في بيان أن هذا التصور السائد لا يمكن أن يكون صحيحا على الحقيقة. فإنه يكون من السذاجة المفرطة اعتقاد أن العلم المعاصر محايد دينيا وثيولوجيا. ربما كانت بعض أجزاء العلم كذلك. حجم الأرض وهيئتها وبعدها عن الشمس، الجدول الدوري للعناصر الكيميائية، إثبات مبرهنة فيثاغورس، هذه كلها مما يعقل أن يقال إنها محايدة دينيا. ولكن كثير من المجالات الأخرى للبحث في العلم تختلف اختلافا كبيرا، إذ يكون من الواضح جدا دخولها بعمق في صراع بين تصورات للعالم متعارضة دينيا. ليس ثمة وصفة نظيفة تخبرنا أي جزء من أجزاء العلم محايد بالنسبة لذلك المحتوى، وأيها غير محايد، فالذي لدينا هو متصل متدرج، وليس تقسيما سهلا. ولكن ثمة قاعدة مجملة هنا: مدى اتصال أي مبحث من مباحث العلم بهذا الصراع، يتوقف على مدى قرب تعلق ذلك المبحث بمحاولتنا الوصول لفهم أنفسنا كبشر.

---

relevance of a bit of science to this contest depends upon how closely that bit is involved in the attempt to come to understand ourselves as human beings. Perhaps there is another variable: how "theoretical" the bit in question is, in the sense of being directed at understanding, as opposed to control.

ولعل ثمة متغيرا آخر، وهو مدى "نظرية" ذلك المبحث نفسه، من حيث كونه متوجها إلى محاولة الفهم وليس محاولة التحكم.

قلت: قوله "وفقا لفكرة قد اتسع انتشارها منذ عصر التنوير، فإن العلم (إذا سعينا في طلبه بصورة صحيحة)، هو محاولة عقلية باردة ومجردة تماما من الميول القلبية، للتوصل إلى معرفة الحقيقة بشأن ذواتنا وبشأن العالم من حولنا، وأنها مستقلة تماما عن الأيديولوجيا، أو القناعات الأخلاقية، أو الالتزامات الدينية أو الثيولوجية. ولا شك أن هذه الصورة قد ظهرت فيها مؤخرا بعض التصدعات. فمما تجدر الإشارة إليه أنه قبل ستة عشر قرنا، قدم القديس أوغطسين مادة تفيد في بيان أن هذا التصور السائد لا يمكن أن يكون صحيحا على الحقيقة."، قلت إذا كان أوغسطين قد حرر ما يرد به على هذا الزعم الدهري، فكيف يقال إن هذه الصورة قد تصدعت مؤخرا؟؟ تصدعت مؤخرا عند من؟ بل لم تزل تلك الدعوى واهية متهافتة عند من بصره الله بتهافتها من يوم أن ظهرت! فليس في حياة الإنسان العاقل سوي النفس عمل – أيا ما كان – يصح أن يستقل أو ينفصل عن قيمه الأخلاقية أو عن اعتقاده في الغاية التي من أجلها خلق! فمن الواضح الجلي عند كل من جعل الدين هو حاديه وزمام أمره في يومه وليلته، بطلان هذا الكلام جملة وتفصيلا! ولكن ليست الاستقامة على الدين وتعظيم أمره على هذا المعنى المستغرق لجميع أعمال الإنسان، مما يوجد عند أحد من أهل الملل إلا عند المسلم الموحد، بفضل الله ومنته! فهم من امتن الله عليهم بشريعة محفوظة إلى يوم الدين، لم تدع خيرا إلا دلتهم عليه ولا شرا إلا نهتهم عنه، ولا عملا يأتيه الإنسان إلا أعلمتهم بحكم الرب فيه، جل شأنه، مهما كان هينا لا يلتفت إليه الناس، حتى إن المسلم إن أراد الإحسان لنفسه غاية الإحسان، لأمكنه بفضل الله أن يوطن نفسه على ألا يحك رأسه إلا بأثر! ولكن

تقدم أن أهل الكتاب قد حرفوا كتابهم وبدلوا دينهم وضيعوا شريعة الرحمن، فلا عجب من أن يخفى عليهم بطلان هذا التقرير!

ونقول إن كل من قال لنا لا "تؤدلجوا العلم"، لمجرد أننا نضع ديننا (إيماننا بالغيب وبالشريعة التي بعث الله بها رسولنا) معيارا معرفيا وميزانا قيميا للقبول والرد، هذا متلبس بالطبيعية المنهجية الدهرية، شعر بذلك أم لم يشعر! فإن الإنسان لا يفعل شيئا أصلا، صغر أو كبر، إلا تأسيسا على قيمه الأخلاقية ومسلماته الكبرى في الاعتقاد الغيبي! فليس عمل من يعتقد أن الله يراه، كعمل من لا يعتقد ذلك، وليس عمل من يعتقد أن له آخرة تحصى عليه فيها أعماله، كعمل من لا يرى ذلك، كل يؤسس حياته وعمله على ما يعتقد. فإن كان هذا هو المقصود بالأيديولوجيا، فليست ممارسة البحث الطبيعي منعزلة عن أيديولوجيا أصحابها، سواء ما كان منها جمعيا اتفاقيا، أو ما كان فرديا عند كل باحث بحسبه، حتى يقال لنا لا "تؤدلجوها"!

والواقع أن كلام أوغطسين الذي أشار إليه بلانتينغا لا يغني عنهم شيئا، بالنظر إلى فقدانهم السند المتصل في نصوصهم نفسها أولا، وفي تأويلها وفهمها الصحيح ثانيا. فقد نص أوغسطين في بعض كتبه على قاعدة تشبه قانون الرازي عند التعامل مع ما ظاهره التعارض بين العقل (وهو في هذه الحالة التنظير العلمي الطبيعي) والنص الكتابي. فقال ما حاصله إن الواجب أولا التحقق من صحة الدعوى العلمية التي تظهر منها مخالفة النص، فإن لم يكن من الممكن إبطالها، تعين المصير إلى قبولها، ومن ثم إعادة تأويل النص المخالف بما يوافقها، على أساس أن كلام الرب ما كان ليتعارض مع الحقائق التي خلقها الرب في العالم. وهذا مسلك حسن ولا شك، لولا أن القوم قد سبق منهم أن ضيعوا النص بالفعل ولم يحفظوه كما هو حقه، فدخلت إليهم عقائد الوثنيين والفلاسفة ولم تزل النصوص يعاد تأويلها مرة بعد مرة بما يوافق

ذلك، بلا قيد ولا شرط يمكن لأحدهم أن يحتج به على مخالفيه احتجاجا ملزما، كما نحتج نحن على المبتدعة بإجماعات السلف على ما أثر عنهم من تأويلات النصوص! وإنما يبقى الأمر رهن الرأي والنظر، كل أحد يذهب بالنص حيثما أراد. ولهذا وصل الأمر بهم إلى ما تقدم التعليق عليه من تعريف اختزالي واه للطبيعية المنهجية عند أكبر فيلسوف من فلاسفتهم المعاصرين، ألفين بلانتينغا، الذي أنزله بعضهم منزلة أوغسطين نفسه في هذا الزمان! فهو تعريف من قد أجاز للفلاسفة بالفعل أن يخوضوا بالنظر الطبيعي في كل موجود بلا حد ولا قيد، ومن ثم قبل منهم مبدئيا جميع أنواع الأدلة التي استدلوا بها في جميع الأبواب التي خاضوا فيها بالتنظير الطبيعي، من غير أن يكون للغيب عنده حمى ينهض لحمايته وحدودٌ يحرص على حفظها، اللهم إلا أن يشترط عليهم ألا ينفوا وجود الصانع بالغيب لا غير، ثم يجلس منهم مجلس التلميذ من أستاذه إذا علموه ما من شأنه أن يغير اعتقاده في صفات ربه وأفعاله بالكلية مع كل نظرية! أي أنه لا غيب عنده يحجز الطبيعيين عن تناوله بنظرياتهم إلا ذات الرب سبحانه! فإذا جاء القوم، مثلا، بفلسفة كوبرنيكية جديدة تقول إن العالم ليس مركبا من سماوات بعضها فوق بعض كالقباب الكروية كما كان هو المعتقد قديما، وإنما هي سماء واحدة متصلة تملؤها النجوم والمجرات المنتشرة في جميع أنحائها على السوية، عد ذلك كلاما علميا لا مدفع له، ولا مناص من إعادة تأويل كل نص تظهر منه مخالفته في كتبهم، ومن إعادة النظر في الصفات الإلهية وفي مبدأ الفعل الإلهي في هذا العالم تبعا لذلك، ولم يحجزه عن ذلك حاجز من فهم سلفي موروث أو أثر متصل الإسناد إلى من كتبوا ذلك النص وعلموه للناس! لماذا؟ لأنه لا يجد سندا سلفيا متصلا في التأويل يلزمه بإثبات مغيبات معينة في الزمان أو في المكان، إثباتا صارما لا تلاعب فيه ولا يستسيغ النزاع عليه، فلا يرى مانعا من

الجريان على مسلمات الملة الطبيعية في طرد النظريات والأقيسة الجديدة في جهات الزمان والمكان بلا حد ولا قيد، وقبول الطريقة التي اعتمدوها واتفقوا عليها فيما بينهم في الاستدلال عليها، ثم ينظر فيما يستجد على أثر ذلك من مقتضيات في التأويل وفي تفصيل الاعتقاد (ثيولوجيا)، يراه مضطرا لقبولها حتى لا يتهم بالجهل ومحاربة "العلم"! وهو إذن (أي العلم) كل ما أجمعت الأكاديمية الطبيعية المعاصرة له على عده كذلك!

فسواء منهج التعامل مع النص الموروث، والمنهج الذي يقال به في نظرية من النظريات إنها معرفة طبيعية ثابتة لا مدفع لها وفي أخرى إنها ليست كذلك، كلاهما فاسد فسادا لا رجاء في إصلاحه عند القوم، بسبب تضييعهم ما ضيعوا من الدين! فإن أصل الإيمان بالغيب من أعظم الأصول التي جاء بها الرسل، وليس المراد به الإيمان بالله واليوم الآخر وحسب، بل والإيمان كذلك بجميع ما في الغيب من حقائق لا يوصل إلى معرفتها إلا بالسمع، بإجمال حيث أجمل الوحي، وبتفصيل حيث فصل، سواء غيب الزمان أو غيب المكان! فلو بقي عندهم هذا الأصل كما كان حقه أن يبقى، وحفظ كما كان حقه أن يحفظ، وتربى القوم عليه عبر قرون تاريخهم الطويل، لوجدت اليوم فيهم طائفة تقول بنظير ما نقول به نحن أهل السنة من تفصيل في ضوابط القبول والرد، ومن قيود منهجية للنظر الطبيعي وطرد الفروض والأقيسة والاستقراءات في أنحاء الزمان والمكان، وقيود على أنواع المسائل التي يجوز للباحث في الطبيعيات أن يطرحها للنظر من طريقه ابتداء، من جانب، ومن قيود وضوابط لتأويل النص وتحقيق فهمه الصحيح، الجاري على مراد الرب سبحانه منه لا على أهواء الناس، من الجانب الآخر! وإذن لجرت قاعدة أوغسطين هذه مجراها الصحيح، ولما خرج تطبيقها عندهم عن إطار الفهم الذي يعلمون إذن أن سلفهم الأول كان عليه، لأن ما ثبت من حقائق بشأن

العالم، لا يمكن، كما قال أوغسطين، أن يناقض ما جاء في كلام الرب! ولكن لا هذه هي الحقائق الثابتة بشأن العالم، ولا هذا هو كلام الرب، على الأقل كما كان حقه أن يفهم، إذ لم تقتض حكمة رب العباد أن يجعل دين المسيح هو الدين الخاتم المحفوظ في الأرض إلى قيام الساعة! وإنما اقتضت ابتلاءهم بتضييعه، ثم برسول خاتم يأتي من بعد المسيح من غير بني إسرائيل، وأن يبتلي بهم أتباع ذلك الرسول عليه وعلى سائر المرسلين الصلاة والسلام! ولولا أن منّ الله تعالى علينا بحفظ الدين والسنة في فرقة من فرق أهل القبلة، لكنا اليوم أمثالهم، لا سند عندنا بما صح وما لم يصح من كلام رسولنا، وبما كان عليه حواريو الرسول عليه السلام من فهم لكلامه، وإذن لضيعنا الإيمان بالغيب كما ضيعوه، ولما بقي لنا إلا الإيمان المجمل بوجود صانع للعالم، يؤخذ العلم بصفاته وأفعاله مما تقتضيه نظريات الطبيعيين، التي إذن يكون لها السلطان الأعلى على فهمنا لنصوصنا! فالحمد لله الذي عافانا مما ابتلى به غيرنا، وفضلنا على كثير ممن خلق تفضيلا.

قوله: "فإنه يكون من السذاجة المفرطة اعتقاد أن العلم المعاصر محايد دينيا وثيولوجيا. ربما كانت بعض أجزاء العلم كذلك. حجم الأرض وهيئتها وبعدها عن الشمس، الجدول الدوري للعناصر الكيميائية، إثبات مبرهنة فيثاغورس، هذه كلها مما يعقل أن يقال إنها محايدة دينيا. ولكن كثير من المجالات الأخرى للبحث في العلم تختلف اختلافا كبيرا، إذ يكون من الواضح جدا دخولها بعمق في صراع بين تصورات للعالم متعارضة دينيا" قلت: فأولا عبارة "تصورات العالم" World Views هذه عبارة فلسفية مجملة ومميعة للغاية، فإن أصل النزاع بين أهل الملل كافة إنما هو الاعتقاد بما في الغيب، مع ما يتعلق بالإلهيات من قضايا، وليس تصور هذه الطائفة أو تلك "للعالم" بهذا الإجمال! ثم إن هذا الكلام فيه تفصيل ولا شك. فقد

ذكر فيما تقدم أن الطبيعية المنهجية تخرج الدين بالكلية من البحث الطبيعي، سواء في جانب العقائد الغيبية (الالتزامات الثيولوجية) أو في جانب القيم الأخلاقية. بمعنى أن الباحث الطبيعي المتعلق بهذا المذهب، لا يجوز له أن يقول إن ديني يمنعني من البحث في هذه المسألة أو تلك، بصرف النظر هل كان المانع اعتقادا غيبيا مخالفا لأصل الموضوع، أو كان قيمة تشريعية تجرم البحث في هذه المسألة أو تلك شرعا. فقوله "ربما كانت بعض أجزاء العلم كذلك" يستدعي السؤال: كأي شيء؟ ما هو المشار إليه في قوله "كذلك"؟ تحرر بعض أجزاء العلم الطبيعي من حكم الدين بالكلية؟ هذا لا يتصور إلا في دين ليس فيه شريعة ولا قيم أخلاقية ملزمة لأتباعه على الإطلاق. والحال أن النصرانية، على ما وقع فيها من تعطيل وتضييع لشريعة المسيح عليه السلام، لا يصح أن يقال إنها على ما هي عليه الآن، خالية تماما من القيم الأخلاقية والتشريعية الملزمة للنصراني، بحسب الكنيسة التي ينتمي إليها! فمعلوم ما عند طوائف منهم في أمريكا خاصة من تشدد في مسألة تحريم الإجهاض تحريما مطلقا، مثلا. فعلى دين هؤلاء، لا يجوز للباحث التجريبي أن يبحث في أي مجال من مجالات العلوم فيما لا نفع يرجى منه إلا في هذه المسألة: إجهاض الأجنة! ولكن الأمر الذي يجب أن ننتبه إليه هاهنا، هو أن أمثال بلانتينغا وكريغ وغيرهما من الفلاسفة واللاهوتيين والمتكلمين الكتابيين، إذا قالوا إن "الدين" يمنع من كذا أو يجيز كذا، فإنما يتكلم كل واحد منهم عن دينه هو الذي يؤمن به، ويؤمن بأنه يتفق مع أهل الملل الأخرى في كذا وكذا، ويخالفها في كذا وكذا! وقد بينا أن القوم قد اصطنعوا لأنفسهم في هذا العصر دينا جديدا سموه بالإثباتية Theism ليس في حقيقته إلا اعتقادا طبيعيا مخلوطا بالنصرانية، يعبد فيه صانع موصوف بالمعنى ونقيضه معا، كما أطلنا النفس في الكلام عليه في غير موضع!

فقول بلانتينغا إن حجم الأرض وهيئتها وبعدها عن الشمس، الجدول الدوري للعناصر الكيميائية، إثبات مبرهنة فيثاغورس، هذه لا علاقة لها بالدين، أو "محايدة دينيا"، هذا إنما يصح على دينه هو، الراجع إلى مذهبه الفلسفي ابتداء، بصرف النظر عن صحة ذلك الدين في نفسه من عدمها. ولكن على عادة الفلاسفة، يحرص بلانتينغا على أن يكون كلامه عاما كونيا، يشمل كل ما يصح أن يقال له "دين"! مع أن الفلسفة الطبيعية نفسها دين مكتمل الأركان كما حققناه في المجلد الأول من كتاب المعيار، وكما أرجو أنه بات واضحا جليا لكل من تابع تعليقنا على مناظرة كريغ وكارول الذي لم نزل ماضين في نشر أجزائه على هذه القناة بعون الله وتوفيقه!

ولكن من جديد نقول: أي دين؟ دينك أنت أم ديني أنا أم دين الدهرية الطبيعيين أم دين من على وجه التحديد؟ تكلم عن دينك أنت ما شئت، أما الكلام فيما يجب وما لا يجب على أهل الملل الأخرى، بهذا الإجمال الفاحش في قولك "محايدة دينيا"، فمن أين لك هذا، ومن الذي منحك هذا السلطان المعرفي والتشريعي؟ القصد أنه من الغلط العظيم أن تنصب المفارقة والمفاصلة والموازنة بين الطبيعية المنهجية من جانب، وبين "الدين"، بهذا الإطلاق المجمل، من الجانب الآخر! فدينك أنت يا بروفيسور بلانيتنغا، قد تسربت إليه بالفعل كثير من مسلمات الطبيعية المنهجية بالفعل من حيث لا تشعر! أنت تجيز للطبيعيين منهجيا أن يقتحموا قضايا الأصل والنشأة (نشأة العالم ونشأة الأنواع الحية على الأرض بعد أن لم تكن) بالتنظير الطبيعي، وهذا تجويز لا قيام له على نصرانيتك البتة، وإنما قام عند أصحابه على الدين الطبيعي والطبيعية المنهجية على التحقيق! النصرانية التي تتكلم باسمها ليس فيها ما يجيز لك تلقي المعرفة بحوادث خلق العالم من غير سفر التكوين، بصرف النظر هل انتهيت من ذلك المصدر الآخر

إلى موافقة ما في الكتاب أم إلى مخالفته! ولكن لما صارت الكنيسة تابعا مضطرا للخضوع لإملاءات الأكاديمية الفلسفية ذات السلطان الفكري والمعرفي في هذه القرون الأخيرة، لم يبق لأي نصراني يجادل عندكم في تلك الازدواجية المعرفية التي تعانون منها، إلا التسفيه والاتهام بخفة العقل والجهالة المحضة!

ولهذا لم يجد دمبسكي وبيهي وأصحابهما طريقا لإدخال مجرد فكرة أن يوجد صانع "ذكي" له ولو شيء من "التدخل" في ذلك البناء التنظيري الدهري المحض، إلا أن يجعلوه آلية إضافية لآليات داروين تتخلق عنها بعض المخلوقات لا غير! تلك المخلوقات التي استدلوا لإثبات أنها لا تكفي لخلقها الآليات الداروينية! ومع ذلك فالصراع محتدم بين هؤلاء وبين الأكاديمية الطبيعية الرسمية في أمريكا إلى حدّ وصل بهم إلى الصراع القضائي في المحاكم كما هو معروف! مسألة هل التصميم الذكي علم أم ليس بعلم، بلغ الصراع عليها أن صدرت فيها أحكام قضائية تمنع كثيرا من المدارس الأمريكية من تدريسها على أنها "علم" Science! ففي ظل هذا التطرف والغلو الطبيعي الفاحش في الأكاديمية الغربية المعاصرة في عصرنا هذا، وبالنظر إلى ما قدمنا بيانه من اعتقاد بلانتينغا، لم يكن من المستغرب أن يتخذ الرجل موقفا متعاطفا مع أصحاب التصميم الذكي وأصحاب التطور الموجه، على تنوع مشاربهم في ذلك، وأن يجعل قضيته ونزاعه ضد الطبيعية المنهجية متوجها إلى ذلك الصراع. وإنما نستغرب ونأسف غاية الأسف، عندما نرى طائفة من أهل القبلة يتعاطفون مع هؤلاء، على أساس أن انتصارهم لهم إنما هو انتصار "للدين" (هكذا) على "الإلحاد" هكذا!

مع أن واقع الأمر أن دبمسكي وأصحابه ليست معركتهم معركة "للدين" هكذا ضد الطبيعية الدهرية، إذ إن معنى الدين يشمل جميع الملل بما فيها الدين الطبيعي نفسه كما بينا! وليست

معركة للنصرانية (لا الكاثوليكية ولا البروتستانتية ولا غيرهما من الملل النصرانية المعروفة) ضد الطبيعية الدهرية! وإنما هو صراع بين دين طبيعي محض ينفي أصحابه الصانع بالكلية، ومذهب طبيعي آخر يثبت أصحابه صانعا ربوبيا له "تدخل" في نظام الطبيعة ببعض التصاميم، فتفسر به بعض الظواهر البيولوجية لا غير، ولا يزيد على أن يكون حمولة إضافية على أنطولوجيا الدين الطبيعي وميثولوجياه الداروينية المستقرة أكاديميا عند القوم، المكتفية تفسيريا في الحقيقة (بالنظر إلى أصل المنهج الذي تقوم عليه)، مع كون أصحاب ذلك المذهب ينتسبون إجمالا إلى النصرانية!هم عند التحقيق، وكما أطلنا النفس في الكلام عليه في كتاب المعيار، وكما يأتي الكلام عليه في بعض سلاسل هذه القناة في وقته إن شاء الله تعالى، هم يثبتون مصمما خاضعا لنظام الطبيعة وللسببية الطبيعية، لا محل له في أنطولوجيا القوم إلا أن يكون نوعا من المخلوقات الفضائية الذكية (إي تي) جاء إلى الأرض وصمم تلك التصاميم ثم تركها للطبيعة لتعمل عملها! وهذا المعنى صرح بتجويزه بيهي نفسه كما نقلنا عنه من كتبه في كتاب المعيار! وهم مضطرون إلى أن يكون الصانع الذي يدخلونه في نظريتهم نازلا تلك المنزلة المنحطة وجوديا، بالنظر إلى المنهج الذي اعتنقوه في التنظير، وانتهوا منه إلى وضعه "كفرضية تفسيرية" يرجى لها أن تحظى بنفس القوة التفسيرية التي حظيت بها آليات داروين في اعتقاد القوم، فيما سوى تلك الظواهر التي فسروها بها! ولهذا سمى بيهي كتابه الأشهر بصندوق داروين الأسود! فالنظرية من حيث الأصل مقبولة كلها، ولكن فيها مواطن شهد داروين بأنه لا يرى لنظريته قدرة على تفسيرها، ومن ثم يأتي المصمم الذكي ليقدم ذلك التفسير ويفتح صندوق داروين الأسود، مكملا النقص في تلك النظرية!

فهذه هي حقيقة ذلك الصراع حول ما يقال له التصميم الذكي، وهي ما لأجله أنكرنا أشد النكير ولم نزل، على إخواننا الذين سارعوا إلى كتب تلك الطائفة ليترجموها وينقلوها إلى المسلمين على أن فيها الجواب الدامغ لنظرية داروين وإلحاد الدراونة والله المستعان! ففي جميع الأحوال لا نقبل أن يقال إن ذلك الصراع هو صراع بين "الدين" و"الإلحاد" بهذا الإطلاق المجمل! وإنما هو مذهب طبيعي جديد حاربه الطبيعيون الغلاة القائمون على الأكاديمية الغربية المعاصرة لما لاحظوه من كونه يفتح الباب لطوائف من النصارى في أمريكا ليجعلوا ذلك المصمم هو الرب الذي يؤمنون به، وليجعلوا تلك النظرية هي الاعتقاد الواجب على النصراني المعاصر أن يعتنقه ديانة، في محاولة باهتة لإرضاء أكاديمية دهرية لن ترضى عنهم حتى يتبعوا دينهم، ويبرؤوا من الملل الكتابية كلها جملة واحدة، والله المستعان!

قوله: "ليس ثمة وصفة نظيفة تخبرنا أي جزء من أجزاء العلم محايد بالنسبة لذلك المحتوى، وأيها غير محايد، فالذي لدينا هو متصل متدرج، وليس تقسيما سهلا. ولكن ثمة قاعدة مجملة هنا: مدى اتصال أي مبحث من مباحث العلم بهذا الصراع، يتوقف على مدى قرب تعلق ذلك المبحث بمحاولتنا الوصول لفهم أنفسنا كبشر. ولعل ثمة متغيرا آخر، وهو مدى "نظرية" ذلك المبحث نفسه، من حيث كونه متوجها إلى محاولة الفهم وليس محاولة التحكم." قلت: هذا الكلام المجمل للغاية الذي لا يسمن ولا يغني من جوع، في تقرير قضية مهمة وخطيرة كقضية العلاقة بين الدين الطبيعي (المتمثل في الطبيعية المنهجية) وغيره من الملل، راجع إلى جميع الأسباب التي تقدم بيانها. فأولا قوله "ليس ثمة وصفة نظيفة تخبرنا" لا يظهر ما المراد فيه من النظافة neatness، هل المقصود أنها غير منضبطة مثلا؟ طيب غير منضبطة عند من؟ الضمير في "تخبرنا" هذا يرجع على من؟ نحن المسلمين نزعم بفضل الله تعالى أن عندنا ضوابط محكمة

إجمالا، من حيث الأصل الذي تقوم عليه في ديننا، للفرقان بين ما هو أمر غيبي لا يجوز طرحه للبحث الطبيعي، وما لا يدخل في ذلك النوع، وإن كان في تفصيل النظريات الطبيعية عند عرضها على ذلك المعيار مسائل أوضح من مسائل بطبيعة الحال ولا شك! وعندنا كذلك، في الجانب الذي أغفلته أنت بالكلية، ضوابط شرعية محكمة توصلنا إلى أحكام فقهية وأخلاقية دقيقة بشأن أنواع المطالب البحثية التي لا يجوز أن تطرح للبحث الطبيعي من مبدأ النظر، لمصادمتها شريعة رب العالمين. فقولك " مدى اتصال أي مبحث من مباحث العلم بهذا الصراع، يتوقف على مدى قرب تعلق ذلك المبحث بمحاولتنا الوصول لفهم أنفسنا كبشر" هذا كلام في غاية الإجمال، لا ينبني عليه حكم ولا فصل في أي مسألة، حتى ما كان الأمر فيه جليا ظاهرا عندنا كمسألة النظر في الكيفية التي خلق بها العالم بعد أن لم يكن، هذه عندكم لا دخول لها في دائرة الصراع! جميع أهل الملل يجب عند الطبيعيين أن يسلموا بمبدأ التنظير الطبيعي في تلك القضية، بصرف النظر عما يخترعه القوم فيها من أساطير، ثم هم بعد ذلك مطالبون بإعادة تأويل جميع النصوص المتعلقة بذلك الأمر عندهم على ما يوافق أحدث نظرية بدعوها في نفس الأمر أيا ما كانت! إما هذا وإما يتهموا بالجهل ومحاربة العلم وخفة العقل وما شئت من مثل ذلك! وإذن فالواجب على اللاهوتي أن يتفلسف بأمثال هذه المجملات الموهمة حتى لا يأتيه الفيلسوف الدهري من مقاتله! ما معنى "مدى اتصال المبحث يتوقف على مدى وثاقة أو قرب تعلقه بمحاولتنا الوصول لفهم أنفسنا كآدميين"؟؟ وما تصريف هذا الكلام عند التطبيق؟؟ أليس البحث في الكيفية التي يعمل بها الجسم البشري، مثلا، مقارنة بغيره من أجسام المخلوقات الحية، مما "نفهم به أنفسنا كبشر"؟ بلى! فإن قال أنا إنما أقصد المسائل المتعلقة بالأسئلة الوجودية الكبرى، التي تعرفنا أجوبتها معاشر بني آدم بالغاية

من وجودنا في هذا العالم، قلنا أخبرنا إذن بنظرية واحدة رددتها أنت لكونها تجري في ذلك الإطار؟؟ بل تقبل النظرية أولا ثم نتفلسف في تخليصها من أصولها التي قامت عليها عند أصحابها وأوصلتهم إليها، بدعوى تخليصها من لوازمها ومقتضياتها الثيولوجية الفاسدة، كما اجتهدت في تخليص الداروينية من الطبيعية الدهرية التي تقوم عليها في حجتك المعروفة ضد المذهب الطبيعي، التي سميتها بالحجة التطورية ضد الطبيعية Evolutionary argument against Naturalism، تلك الحجة التي افتتن بها أناس من بني جلدتنا بكل أسف، من أصحاب "المراكز" المتصدرة للنشر في مسائل الإلحاد، وترجموها على أن فيها جوابا دامغا ضد الدين الطبيعي!! وقد انتقدناها نقدا وافيا في كتاب المعيار بفضل الله ومنته، فلتراجع ثم. والقصد أن كلامك هذا يا بروفيسور بلانتينغا كلام أدبي مرسل لا يتقوم به منهج واضح المعالم عند التحقيق، ولا يدري الواحد من أتباعك ماذا يصنع به عند التطبيق! ونظير ذلك يقال في "المتغير" الآخر الذي ذكرته بعدُ في قولك: " ولعل ثمة متغيرا آخر، وهو مدى "نظرية" ذلك المبحث نفسه، من حيث كونه متوجها إلى محاولة الفهم وليس محاولة التحكم"، فيقال: ما معنى "محاولة الفهم" على وجه التحديد؟؟ هل كل نظرية تفسيرية يرد عليها أن تدخل تحت قولك "محاولة الفهم"، في مقابل ما يكون من استقراءات وقوانين مطردة تدخل في معنى "محاولة التحكم"؟ وما معنى "مدى نظرية النظرية" Theoreticality؟ وأهم من هذا، ما الحد الذي عنده تنقلب النظرية، من فرط نظريتها، إلى أن تكون محاولة للفهم "غير محايدة" دينيا (على تسليمنا بأنك قد عرفتنا بأي دين هو أصلا الذي نتكلم بالنسبة إليه)؟؟

هذا الكلام يشعرك بأن أمثال هذا الرجل يعلمون ما تعانيه الأكاديميات الطبيعية المعاصرة من أزمة عقلية ومعرفية عظيمة، ولكن لا يجرؤون على الصدع بالحق من حيث هم غارقون في

تلك الأكاديميات نفسها، متربعون على كراسيها ومناصبها العلمية! ثم إن الواحد منهم لا يجد ما يدعوه إلى رفع عقيرته بموقف كهذا أصلا، إذ قد سقطت حجية نصوص القوم تاريخيا في قضايا الغيب وغيرها من قبل أن تجمع في تلك الكتب الأربعة أساسا، ولا يملك أحدهم ما به يلزم أحدا من الناس بنص معين وبفهم معين لذلك النص، حتى يقول: هذا هو مستندنا المعرفي في تلك البابة التي نمنعكم من ولوجها بالتنظير الطبيعي أو غيره! فهذا موقف لا يملكون نهوضا به أصلا حتى لو اجترؤوا على تحمل تبعته وعاقبته الاجتماعية والأكاديمية!

ثم بناء على ما تقدم بيانه، فإنه ليس كل ما يكون مقصورا على معنى "محاولة التحكم" في الأسباب والسنن الطبيعية، يكون مشروعا أو مقبولا أخلاقيا! فليس في شيء من هذا الكلام ما يصلح أن يكون معيارا يستعمله أحد من أهل الملة التي ينتسب إليها الرجل في استبيان ما قد يصادم دينهم ولو مبدئيا، ولا ما يمكنهم به تطبيق قانون أوغسطين الذي أومأ بالإحالة عليه!

ثم يقول بلانتينغا [3]:

---

[3] *In this article I begin by pointing to three examples of the religious non-neutrality of scientific claims or hypotheses. I shall then argue that a Christian academic and scientific community ought to pursue science in its own way, starting from and taking for granted what we know as Christians. (This suggestion suffers from the considerable disadvantage of being at present both unpopular and heretical; I shall argue, however, that it also has the considerable advantage of being correct). Now one objection to this suggestion is enshrined in the dictum that science done properly necessarily involves "methodological naturalism," or (as Basil Willey*

في هذا المقال، أبدأ بالتنبيه إلى ثلاثة أمثلة لعدم الحيادية الدينية في الدعاوى والفروض العلمية. ثم أنتصر للقول بأن المجتمع الأكاديمي والعلمي النصراني ينبغي أن يطلب العلم الطبيعي بطريقته الخاصة، بحيث يبتدئ بالتسليم بصحة ما نعلمه نحن النصارى. (هذا الاقتراح يعاني من مشكلة كبيرة وهي كونه معدودا من قبيل الهرطقة وكونه غير مشتهر في الوقت الحالي، ومع ذلك فسأبين أنه يتمتع بمزية كبيرة وهي كونه هو الصواب). فالآن، من جملة الاعتراضات التي توجه لهذا الاقتراح، اعتراض متأصل في المذهب القائل بأن العلم إن مورس بصورة صحيحة، فإنه يجري بالضرورة على الطبيعية المنهجية، أو كما يسميها باسل ويلي "الإلحاد الشرطي". وهو الفكرة القائلة بأن العلم، في كل ما تصح تسميته بهذا الاسم، لا يصح أن يشتمل على اعتقادات دينية أو التزامات دينية. فهدفي الرئيس في هذه الورقة البحثية هو أن أستكشف وأفهم وأناقش وأقيم هذا الزعم والحجج التي يقدمها أصحابه في الانتصار له.

قلت: إذا كان بلانتينغا، على تعريفه الاختزالي الهزيل للطبيعية المنهجية كما مر معك بيانه، يعد مطلبه هرطقة في نظر الأكاديميين الغربيين، فكيف بمطلبنا نحن إذن؟ لابد أن يكون عند الطبيعيين هو الكفر الذي لا يعلوه كفر، وعداوة العلم التي لا تدانيها عداوة!

وهنا تعريف جديد للطبيعية المنهجية مجمل كذلك، إذ يقول إنه اشتراط ممارسة البحث العلمي بمعزل تام عن الاعتقادات الدينية والالتزامات الدينية، ولكن تقدم أن من الأديان والملل ما ليست تفرض فيه أي التزامات أخلاقية على الباحث الطبيعي على الإطلاق، ولا تقوم

---

calls it) "provisional atheism."2 This is the idea that science, properly so-called, cannot involve religious belief or commitment. My main aim in this paper is to explore, understand, discuss, and evaluate this claim and the arguments for it.

لدى أصحابه أي اعتقادات غيبية موروثة ذلك المقام الذي يوقع أصحابها في نزاع معه أو في حرج من قبول بضاعته، مهما جاءت نظرياته بدعاوى غيبية ما عرفوها هم من قبل وما سمعوا بها! أي أن من الأديان والفرق والنحل العصرية من ابتلعوا الطبيعية المنهجية بتمامها، ومنهم من ابتلعوها كلها إلا قليلا، كما في دين بلانتينغا نفسه، دين الفلاسفة اللاهوتيين الإثباتيين النصارى Christian Theists، كما بينا فيما مر معك، ويأتي مزيد بيان عليه إن شاء الله تعالى. فالكلام بأمثال هذه المجملات في مقام كهذا غير مقبول البتة!

الجزء الثاني

تحت العنوان الفرعي "هل العلم محايد دينيا" ?Is Science Religiously Neutral يشرع بلانتينغا بعد ذلك في ضرب أمثلة ثلاث لم يكن "العلم" فيها محايدا على هذا المعنى المجمل الذي تقدم التعليق عليه. فبدأ أولا باستعراض بحث للنفساني الأمريكي "هربرت سيمون" بعنوان "آلية للانتخاب الاجتماعي والإيثارية الناجحة" A Mechanism for Social Selection and Successful Altruism.

فقال [4]:

[4] *This article is concerned with the problem of altruism: Why, asks Simon, do people like Mother Teresa do the things that they do? Why do they devote their time and energy and indeed their entire lives to the welfare of other people? Of course it isn't only the great saints of the world that display this impulse; most of us do so to one degree or another.*

How, says Simon, can we account for this kind of behavior? The rational way to behave, he says, is to act or try to act in such a way as to increase one's personal fitness; i.e., to act so as to increase the probability that one's genes will be widely disseminated in the next and subsequent generation, thus doing well in the evolutionary derby.5 A paradigm of rational behavior, so conceived, was reported in the South Bend Tribune of December 21, l991 (dateline Alexandria (Va.)). "Cecil B. Jacobson, an infertility specialist, was accused of using his own sperm to impregnate his patients; he may have fathered as many as 75 children, a prosecutor said Friday." Unlike Jacobson, however, such people as Mother Teresa

and Thomas Aquinas cheerfully ignore the short- or long-term fate of their genes. What is the explanation of this behavior?

The answer, says Simon, is two mechanisms: "docility" and "bounded rationality":

Docile persons tend to learn and believe what they perceive others in the society want them to learn and believe. Thus the content of what is learned will not be fully screened for its contribution to personal fitness (p. 1666).

Because of bounded rationality, the docile individual will often be unable to distinguish socially prescribed behavior that contributes to fitness from altruistic behavior [i. e., socially prescribed behavior that does not contribute to fitness--AP]. In fact, docility will reduce the inclination to evaluate independently the contributions of behavior to fitness. .... By virtue of bounded rationality, the docile person cannot acquire the personally advantageous learning that provides the increment, d, of fitness without acquiring also the altruistic behaviors that cost the decrement, c. (p. 1667).

The idea is that a Mother Teresa or a Thomas Aquinas displays bounded rationality; they are unable to distinguish socially prescribed behavior that contributes to fitness from altruistic behavior (socially prescribed behavior which does not). As a result, they fail to acquire the personally advantageous learning that provides that increment d of fi tness without, sadly enough, suffering that decrement c exacted by altruistic behavior. They acquiesce unthinkingly in what society tells them is the right way to behave; and they aren't quite up to making their own independent evaluation of the likely bearing of such behavior on the fate of their genes. If they did make such an independent evaluation (and were rational

يدور ذلك المقال حول مشكلة الإيثار Altruism: لماذا، يتساءل سيمون، يفعل أناس من أمثال الأم تيريسا الأشياء التي يفعلونها؟ لماذا يهبون وقتهم وطاقتهم وحياتهم بأسرها لصالح أناس آخرين؟ بالطبع ليس يظهر هذا الميل عند العظماء من قديسي العالم وحسب، بل أكثرنا

---

enough to avoid silly mistakes) they would presumably see that this sort of behavior does not contribute to personal fitness, drop it like a hot potato, and get right to work on their expected number of progeny.

No Christian could accept this account as even a beginning of a viable explanation of the altruistic behavior of the Mother Teresas of this world. From a Christian perspective, this doesn't even miss the mark; it isn't close enough to be a miss. Behaving as Mother Teresa does is not a display of bounded rationality--as if, if she thought through the matter with greater clarity and penetration, she would cease this kind of behavior and instead turn her attention to her expected number of progeny. Her behavior displays a Christ-like spirit; she is reflecting in her limited human way the magnificent splendor of Christ's sacrificial action in the Atonement. (No doubt she is also laying up treasure in heaven). Indeed, is there anything a human being can do that is more rational than what she does? From a Christian perspective, the idea that her behavior is irrational (and so irrational that it needs to be explained in terms of such mechanisms as unusual docility and limited rationality!) is hard to take seriously. For from that perspective, behavior of the sort engaged in by Mother Teresa is anything but a manifestation of 'limited rationality'. On the contrary: her behavior is vastly more rational than that of someone who, like Cecil Jacobson, devotes his best efforts to seeing to it that his genes are represented in excelsis in the next and subsequent generations

يظهر لديه ذلك الأمر لدرجة ما أو لأخرى. يقول سيمون، فكيف يمكننا أن نفسر ذلك النمط من السلوك؟ فإن الطريقة العقلانية للسلوك، بحسبه، هي أن نعمل أو نحاول أن نعمل بحيث يزيد أحدنا من لياقته، أي أن نعمل بحيث نزيد من احتمالية أن تنتشر جينات الواحد منا انتشارا واسعا في الجيل التالي، ومن ثم نؤدي أداء حسنا في سباق التطور. مثل هذا التصور في مفهوم السلوك العقلاني، سجلته جريدة South Bend Tribune في 21 ديسمبر 1991، "سيسيل بي جيكوبسون"، متخصص في علاج العقم، اتهم باستعمال منيه في تحبيل مرضاه، ولعله ولد له خمس وسبعون وليد، كما قال المدعي الجنائي في الجمعة الماضية." ولكن خلافا لجيكوبسون، فإن أناسا كالأم تيريسا وثوما الأكويني يتجاهلون بسعادة مصير جيناتهم، على المدى القريب والبعيد. فما تفسير ذلك السلوك؟ يقول سايمون إن الجواب في آليتين: الانصياع، والعقلانية المحدودة: فإن الشخص المنصاع، يميل لأن يتعلم ويصدق ما يريد منه الآخرون في المجتمع أن يتعلمه ويصدقه. وإذن فمحتوى ما يتعلم لن يكون مقصورا على ما يخدم لياقته الفردية. وبسبب العقلانية المحدودة أو المقيدة، فإن الشخص المنصاع سيكون غير قادر عادة على التفريق بين السلوك المحبب اجتماعيا الذي يفيد في مسألة اللياقة، والسلوك الإيثاري (أي السلوك المحبب اجتماعيا الذي لا يساهم في تحقيق اللياقة). وفي الحقيقة فإن الانصياع سيقلل من الميل لتقييم مساهمات السلوك في عملية اللياقة بصورة مستقلة. وبفضل العقلانية المقيدة، فإن الشخص المنصاع لا يستطيع أن يتحصل على التعلم النافع له فرديا، الذي يمده باللياقة الإضافية، دون أن يكتسب كذلك تلك السلوكيات الإيثارية التي تكلفه نقصا في اللياقة.

فالفكرة هي أن الأم تيريسا وتوما الأكويني يظهران عقلانية محدودة ومقيدة، فهما غير قادرين على التفريق بين السلوك المحبب اجتماعيا الذي يفيد في تحقيق اللياقة الشخصية، وبين السلوك الإيثاري (المحبب اجتماعيا مع كونه لا يفيد في ذلك). ونتيجة لذلك، فإنهما يفشلان في تحقيق التعلم المفيد شخصيا بزيادة اللياقة، دون أن يعانيا، بكل أسف، من انخفاضها على أثر السلوك الإيثاري. فهما يخرطان بلا وعي في أيما سلوك يخبرهما المجتمع بأنه هو السلوك الصحيح، مع كونهما غير قادرين على بناء تقييمهما الخاص المستقل للتأثير المترجح لمثل هذا السلوك على مصير جيناتهما. ولو أنهما تكلفا مثل هذا التقييم المستقل (وكانا عقلانيين بما يكفي ليتجنبا الأخطاء السخيفة)، فسيتبين لهما على الأرجح، أن مثل هذا السلوك (الإيثاري) لا يفيد في تحقيق اللياقة الشخصية، ومن ثم يتخليان عنه بالكلية، وينخرطان في العمل لصالح نشر الجينات.

لا يمكن لنصراني أن يقبل هذا التفسير ولو كبداية لوضع تفسير مستساغ للسلوك الإيثاري عند مثيلات الأم تيريزا في العالم. فمن وجهة النظر النصرانية، فإن هذا ليس يفشل في إصابة الهدف وحسب، بل إنه ليس حتى قريبا من أن يكون فشلا في الإصابة. فإن السلوك على نحو ما تفعل الأم تيريزا ليس عرضا ناشئا عن العقلانية المقيدة، وكأنها لو فكرت في الأمر بمزيد من صفاء الذهن والتدقيق، فستكف عن هذا النوع من السلوك، وتصرف انتباهها إلى التكاثر. فإن سلوكها يعكس روحا شبيهة بروح المسيح، فإنها تعكس، في قدرتها البشرية المحدودة، العظمة الفائقة لتضحية المسيح على الصليب (وهي بلا شك تكنز لنفسها مع ذلك كنزا في السماء). وإذن فهل ثمة فعل من أفعال الإنسان يمكن أن يكون أكثر عقلانية مما تفعل؟ فمن المنظور النصراني، فإن فكرة وصف سلوكها باللاعقلانية (لا عقلاني إلى الحد

الذي يجعله يفسر بأمثال تلك الآليات، كالخنوع غير المعتاد، والعقلانية المحدودة!) من العسير أن يحمل على محمل الجد. فإنه من ذلك المنظور، فإن سلوكا من هذا الصنف الذي انخرطت فيه الأم تيريزا، لا يمكن أن يكون تجليا للعقلانية المحدودة. بل على العكس، فإن سلوكها أكثر عقلانية بكثير، من سلوك شخص كسيسيل جيكوبسون الذي كرس جهده من أجل أن يرجى جيناته تظهر في الأجيال التالية بانتشار واسع.

قلت: هنا يستعرض بلانتينغا بحثا يرى فيه بجلاء مصادمة التفاسير التطورية الداروينية للسلوك البشري (في إطار ما يقال له علم النفس التطوري Evolutionary Psychology) لاعتقاده النصراني، ولكنه كما سيأتي يخفق في تقرير أصل الآفة في الطبيعية المنهجية، والسبب الفعلي في كونها تنشئ أمثال تلك المهازل المنسوبة إلى العلم زورا وبهتانا. فإنه لو كان غاية ما تعانيه تلك المنهجية من خلل هو في كونها تنفي وجود الرب واليوم الآخر، لما أمكنك يا بروفيسور بلانتينغا أن تنهض بنقض هذا الكلام كما فعلت، لأنه ليس فيه نفي لوجود الرب ولا لليوم الآخر كما هو واضح، وليس هو مما يقتضيه ذلك النفي بخصوصه عند القوم. هو يقول إن الآليات الارتقائية تفسر ذلك السلوك كما تفسر غيره عندهم، فيفرض أن يكون السبب في انشغال تلك المرأة ونظيراتها عن الجماع وتكثير الذرية إنما هو خلل ذهني ما، أدى إلى انصراف عقلها عن السلوكيات المؤدية إلى نشر الجينات، وانشغالها بغيرها! فلو أردت أن تنقض على الرجل كلامه كما حقه أن ينقض، لوجب أن تقول إنه ليس ثمة شيء اسمه الآلية الارتقائية أصلا حتى يقال إن تكثير الجينات هو محرك السلوكيات البشرية بعموم، سواء عند تيريزا أو غيرها! ولكنه للأسف يريد أن يلتمس محلا وسطا بين إسقاط النظرية بكليتها، وبين قبولها

بكليتها، فيكتفي بالاعتراض على أمثال تلك المصادمات الصارخة للمشاعر والقيم النصرانية، مع أنها ليست ناشئة عند أصحابها في الحقيقة من مجرد نفي وجود الباري واليوم الآخر كما قال، وإنما نشأت عن تجويز طرح قضية النشأة الأولى للنوع البشري نفسه ولغيره من الأنواع الحية، للتنظير الطبيعي، تأسيسا على اعتقاد دهري مفاده أن أسباب ذلك كله إنما هي أسباب طبيعية نوعا بالضرورة!

فلولا اعتقادهم أنه لا سبب إلا السبب الطبيعي، في أي زمان أو مكان، ما اعتقدوا جواز أن تكون لديهم نظرية طبيعية Scientific Theory في تفسير هذا السلوك بعينه، الذي كرهت منهم أن يفسروه بذلك التفسير المهين الذي انتهى إليه صاحب البحث! فالذي دعاك للاعتراض في الحقيقة إنما هو مبدأ التفسير الدارويني نفسه، واستجازة أصحابه لحرمة الغيب وما يتعلق به من معارف لا تحصُّل لها إلا من طريق السمع! أما أن يقال إن الطبيعية المنهجية هي التنظير تأسيسا على اعتقاد مفاده أنه لا وجود للباري ولا لليوم الآخر، فإنه من المتصور لإنسان أن يكون معتقدا في وجود الباري وفي اليوم الآخر، ومع ذلك يكون معتقدا أن العقلانية تكمن في تقديم مطلب التكاثر وتكثير النسل والذرية على كل ما سواه، وأن هذا بالضبط هو ما يريده الرب من الناس، ولهذا خلقهم، وعليه يكافئهم في الآخرة، وإذن يكون سلوك تريزيا لا عقلانيا في دينه كما في نظريته على السواء! دع عنك أن اعتقاد الفداء بالصلب هذا نفسه ليس من العقلانية في شيء أصلا، ولكن القصد أنك على هذا التعريف الذي وضعته للطبيعية المنهجية، لن تملك أن تدفع مثل هذا التنظير دفعا منهجيا كليا، وإنما غايتك أن تقول إن هذا البحث بعينه، يصادم ذاك الاعتقاد بعينه عندك، وإذن فلا يجوز للنصراني قبوله، مع أنك قدمت الكلام بأن مشكلتك مع الطبيعية المنهجية نفسها! فلو أننا فرضنا أن

جاء باحث آخر بتفسير دارويني آخر لنفس تلك المسالك، يجعله عقلانيا من حيث أنه يقوي من فرص التناسل والتكاثر في المجتمع بعموم، مثلا، بصرف النظر عن تناسل تيريزا نفسها وانتشار جيناتها، أي يقول إن الطبيعة انتخبت سلوكها ذاك، لأنه يزيل آلام كثير من الناس ومن ثم يسهل لهم أسباب التناسل والتكاثر وانتشار الجينات، للزمك أن تقبله منه، لأن سبب الاعتراض عندك إنما هو اتهام ذلك السلوك بعينه باللاعقلانية! فإن قلت: بل أرفضه كذلك لأني لا أوافق على جعل مبدأ تكثير النسل وانتشار الجنيات هو معيار العقل والعقلانية في البشر، قلنا لك فإن هذا يلزمك معه نقض النظرية بكليتها، لأن الداروينية تنفي الغائية الإلهية بإطلاق، فلا يجوز فيها للإنسان أن يكون لأفعاله أو أفكاره أو مشاعره أي دافع أو سبب إلا ما كان ناشئا عن آليات التطور الدارويني وعملها المزعوم في جينومات الأنواع الحية، جريا على الطبيعية المنهجية! فلا يسعك أن ترد الطبيعية المنهجية لهذا السبب الكلي، دون أن ترد معها نظرية داروين بكليتها، وهو ما لا تجرؤ عليه! فلو صدقت لتوجهت بنقدك إلى مبدأ التنظير الدارويني والتفسير الدارويني من أصله الكلي، وليس إلى تفسيرهم هذا السلوك بعينه، وكأن الطبيعية المنهجية إنما أوقعتهم فيه وفي مثله من التفسيرات، دون ما سوى ذلك من التفسيرات الداروينية!

يقول بلانتينغا [5]:

[5] *Simon suggests or assumes that the rational course for a human being to follow is to try to increase her fitness. Rationality, however, is a deeply normative notion; the rational course is the right course, the one to be recommended, the one you ought to pursue. Simon, therefore, seems to be making a normative claim, or perhaps a normative assumption; it is a vital and intrinsic part of what he means*

to put forward. If so, however, can it really be part of science? Science is supposed to be non-evaluative, non-normative, non-prescriptive: it is supposed to give us facts, not values. Can this claim that the rational course is to pursue fitness then be part of science, of a scientific explanation, or a scientific enterprise?

But perhaps there is a reply. What, exactly, does Simon mean here by such terms as 'rational' and 'rationality'? At least two things; for when he says that the rational course, for a human being, is to try to increase her fitness, he isn't using the term in the same way as when he says Mother Teresa and people like her suffer from bounded rationality. The latter means simply that people like this aren't quite up to snuff when it comes to intelligence, perspicacity, and the like; they are at least slightly defective with respect to acuteness. It is because of the lack of acuity that they fail to see that the socially prescribed behavior in question is really in conflict with their own best interests or the achievement of their own goals. This limited rationality is a matter of running a quart low, of playing with less than a full deck, of being such that the elevator doesn't go all the way to the top floor. When he says that the rational course for a human being is to strive to promote fitness, he presumably means something different by the term 'rational', namely, that a properly functioning human being, one not subject to malfunction (one that isn't insane, or retarded, or reacting to undue stress, or in the grip of some other malfunction or dysfunctional state) will as a matter of fact have certain goals, try to attain certain conditions, aim to bring about certain states of affairs. Presumably survival would be one of these goals; but another one, says Simon, is promoting or maximizing fitness.

And there are two things to say about this claim. In the first place, we might ask what the evidence is that, as a matter of fact, properly functioning human beings do indeed all or nearly all display this goal. It isn't easy to see precisely how to answer this question. One suspects that a study done by way of the usual polling and questionnaire techniques wouldn't yield this result; most of the properly functioning people I know, anyway, wouldn't give as one of their main goals that of increasing their fitness. (Perhaps you will retort that this is because most of the people I know are past childbearing age, so that directly increasing their genetic representation in the next generations is no longer a live option. Of course they could do their best to see that they have a lot of grandchildren--judiciously distributed bribes, perhaps, or arranging circumstances so that their daughters will become pregnant, or encouraging their younger relatives to drop out of school and have children). But obviously there is always another option: we can say that the goals or aims in question aren't conscious, are not available to conscious inspection. They are rather to be determined by behavior. It is your behavior that reveals and demonstrates your goals, no matter what you say (and, indeed, no matter what you think).

Well, perhaps so. It would still remain to be shown or argued that properly functioning human persons do as a matter of fact display in their behavior this goal of increasing their fitness--where, of course, we couldn't sensibly take their displaying this goal as a criterion of normality or proper function. As a matter of fact, Simon doesn't proceed in this way; his procedure, with respect to this question, is a priori rather than a posteriori. He doesn't tell us what it is that leads him to think that properly functioning human beings will have this goal, but one suspects his answer would be that human beings acquire this goal somehow by

يقترح سايمون أو يدعي أن المسلك العقلاني للإنسان هو أن يحاول زيادة لياقته الجينية. ولكن العقلانية في الحقيقة مفهوم معياري عميق، فالمسلك العقلاني هو المسلك الصحيح، المسلك الذي ينبغي أن نشجعه، والذي يتعين عليك أن تسلكه. لهذا فسايمون يبدو وكأنه يقرر دعوى معيارية، فهذا جزء حيوي وأساسي من المعنى الذي يقدمه هنا. ولكن إذا كان ذلك كذلك، فهل يمكن حقا أن يكون ذلك جزءا من "العلم" Science؟ العلم يفترض فيه أن يكون غير تقييمي، غير معياري، ألا يقدم وصايا للناس: يفترض فيه أن يعطينا حقائق لا قيم. فهل يمكن إذن أن يكون هذا الزعم بأن المسار العقلاني هو ما تطلب فيه اللياقة، جزءا من العلم أو تفسيرا علميا، أو مسعً علميا؟

ولكن ربما ثمة جواب ما. فما هو، بالضبط، ما يقصده سايمون هنا من قوله "عقلاني" و"لاعقلاني"؟ على الأقل شيئين اثنين: فعندما يقول إن المسار العقلاني للإنسان، هو أن يحاول زيادة لياقته، فليس يستعمل المصطلح بنفس الطريقة التي يستعمله بها عندما يقول إن الأم تيريزا وأمثالها يعانون من العقلانية المقيدة. فإن هذا الأخير يعني أن أناسا كهؤلاء ليسوا على المستوى (اللائق بالنوع البشري) فيما يتعلق بالذكاء والحكمة وما شاكل ذلك، ففيهم، على أحسن الأحوال، تشوها أو نقصا في دقة النظر. وبسبب ذلك النقص، يفشلون في أن يروا أن تلك السلوكيات المحببة اجتماعيا هي في حقيقة الأمر منافية لمصلحتهم العليا أو لتحقيق

---

virtue of our evolutionary history. I suspect he thinks it would follow from any proper evolutionary account of human beings (and for many other species as well) that they have maximizing fitness as a goal. How exactly this story would go is perhaps not entirely clear; but for the moment we can ignore the difficulties.

أهدافهم الخاصة. هذه العقلانية المحدودة إذن إنما هي قضية نقص في القدرة وعدم تحقق للوظيفة العقلية على ما يرام. فعندما يقول إن المسلك العقلاني للإنسان هو أن يعمل على زيادة لياقته الجينية، فهو على الأغلب يقصد شيئا بخلاف المصطلح "عقلاني"، وهو على وجه التحديد، أن الإنسان الذي يعمل بصورة طبيعية، الذي لا يعاني من عطب ما (ليس ذاهب العقل أو متخلفا عقليا أو يخضع لضغط فائق للاحتمال، أو يعاني من أي عطل أو عطب آخر)، سوف يكون لديه، في الحقيقة، أهداف وغايات معينة، وسيحاول أن يحقق شروطا معينا، ويستهدف جلب أحوال معينة. وعلى الأرجح فإن البقاء سيكون واحدا من تلك الأهداف والغايات، ولكن منها أيضا، كما يقول سايمون، تعزيز وزيادة اللياقة.

ولدينا أمران نقولهما بشأن هذه الدعوى. فأولا، قد نتساءل عن الدليل على أن اتخاذ تلك الأهداف والغايات، هو في الحقيقة ما يفعله جميع البشر الأسوياء، أو الذين يعملون بشكل "طبيعي"، أو أكثرهم. فليس من السهل أن نرى كيف يمكن الإجابة عن هذا السؤال. ونرتاب في أن دراسة تجرى بالطريقة المعتادة في سؤال الناس وآليات الاستبانة قد توصل إلى تلك النتيجة، فإن أكثر البشر الذين أعرف أنا عنهم أنهم يعملون بشكل طبيعي، لن يفيدوا في أجوبتهم عن الأهداف الأساسية لديهم بأن منها مسألة زيادة اللياقة الجينية هذه. (لعلك هنا تعترض بأن أكثر من أعرفهم أنا قد تجاوزوا سن الإنجاب، بحيث لم يعد العمل على زيادة التمثيل الجيني لهم في الأجيال التالية لم يعد خيارا مطروحا. قد يبذلوا قصارى جهدهم في تطلب أن يكون لديهم أحفاد كثيرون، كأن يوزعوا رشاوي بطريقة ماكرة، مثلا، أو يرتبوا الظروف بحيث تحبل بناتهم، أو يشجعوا صغار السن من أقاربهم على أن يتركوا الدراسة ويتفرغوا للإنجاب). ولكن من الواضح أنه سيظل دائما ثمة خيار آخر: يمكننا أن نقول إن

تلك الأهداف والغايات لا تقع في العقل الواعي، أي ليست خاضعة للفحص العقلي الواعي. وإنما يقررها السلوك. أي أن سلوكك وعملك هو الذي يكشف عن تلك الأهداف، بصرف النظر عما تقول (بل وبصرف النظر عما تفكر).

حسن، لعل الأمر كذلك. ولكن سيظل مطلوبا بيان أو إثبات أن الإنسان السوي أو الذي يعمل بشكل طبيعي، يظهر في سلوكه، بالفعل، هدف زيادة اللياقة الجينية هذا، ومع ذلك لن يكون من المعقول أن نعد إظهارهم ذلك الهدف في سلوكهم معيارا للسواء أو للعمل الطبيعي للعقل البشري. ولكن في الحقيقة فإن سايمون لا يواصل بحثه على هذا النحو، فإن عمله فيها عمل قبلي A-priori وليس A-posteriori. فليس يخبرنا ما الذي أدى به إلى الظن بأن الإنسان سوي العقل والنفس ستكون لديه هذه الأهداف، ولكن نظن أن جوابه هنا سيكون أن الإنسان يتحصل على هذه الأهداف بموجب تاريخنا الارتقائي. أتصور أنه يظن أنه مما يقتضيه أي تصور ارتقائي صحيح للنوع البشري (ولأنواع أخرى كثيرة كذلك) أن يكون تعظيم اللياقة التناسلية من جملة أهدافهم. كيف على وجه التحديد يمكن أن تجري تلك القصة، لعل هذا ليس واضحا تماما، ولكن دعونا نتجاهل الصعوبات في الوقت الحالي.

قلت: هذا الاعتراض الذي يتوجه به بلانتينغا إلى كلام سايمون، يرجع إلى مسألة محورية في العلوم الإنسانية الغربية المعاصرة، لا سيما علم النفس Psychology، الذي يدخل تحته موضوع بحث سايمون هذا، وهو موضوع معيار السواء البشري / Human Normalcy Criterion of Human Normalcy. والمقصود بالسواء البشري، معيار الصحة النفسية والعقلية والسلوكية والمعرفية للإنسان، بالنظر إلى دوائر وموضوعات البحث عند النفسانيين، ذلك المعيار الذي يستجاز بالتأسيس عليه أن يوصف إنسان ما بأنه مجنون أو مخبول أو فاسد

العقل، أو مصاب بأي صورة من صور السايكوباتية أو المرض النفسي Psychopathy، ومن ثم يتعين علاجه نفسيا وعقليا، أي العمل على تحويله إلى حالة السواء التي "ينبغي" أن يكون عليها البشر عامة. وقد تكلمنا على هذه المسألة بشيء من طول النفس في كتاب "الكشاف المبين لنفوس المعرضين والمكذبين" الذي نرجو أن يصدر قريبا بإذن الله تعالى. وهي مسألة مهمة لأن علم النفس الغربي تأسس – بكل أسف - على التسليم فيها بالموقف الطبيعي الإنساني الصرف Naturalist / Humanist attitude. فأنت عندما تعتقد أنه لا موجود إلا الطبيعة والنظام الطبيعي، وأن عقلك الذي في نفسك إنما هو ملكة نشأت في نوعك عن آليات طبيعية ارتقائية صرفة، وأنه لا يزيد على أن يكون عمليات فيزيائية وكيميائية معينة تجري في المخ والجهاز العصبي، لا أكثر ولا أقل، فلابد أن يكون اعتقادك في الغاية العليا التي من أجلها وجدنا في هذه الحياة الدنيا، والهدف الذي يتعين على الإنسان أن يتخذه لنفسه وأن يجعل سلوكه كله منصبا في خدمته والعمل على تحقيقه، لابد أن يكون اعتقادك في ذلك اعتقادا شهوانيا تحكميا، تنتقيه لنفسك إما لما تمليه عليك أهواؤك وشهواتك أنت، أو ما تميل إليه الميول الجمعية للمجتمع الذي أنت جزء منه، وتسوغه لك شهواتك أنك كذلك، بالنظر إلى حرصك على موافقة مجتمعك القريب وكراهيتك لمخالفته ومنافرته. وإذن يصبح مصدر تلقي المعرفة بالقيم الأخلاقية والمعايير الاجتماعية والسياسية والتشريعية وجميع ما يتعلق بالقضايا المعيارية بعموم وبلا استثناء (ما يجب أن يكون، ما يجوز وما يحرم وما يستحسن وما يستقبح وما يستحب وما يكره .. إلخ) هو الميل والهوى والشهوة البشرية، سواء على مستوى الفرد أو الجماعة. وهذا هو المذهب الإنساني ومنشأه بإجمال، كما بيناه في كتاب معيار النظر. الناس تشتهي في هذا العصر أن تكون على كذا وكذا، وتحب أن تتصف بكذا وكذا، وأن تستمتع بكذا وكذا، فهذا

هو ما يتعين تجويزه وتسويغه وقد يقال بفرضه وإيجابه اجتماعيا وسياسيا، والناس تكره أن ترى كذا وكذا وتخاف في هذه الدنيا من أن يقع للواحد منهم كذا وكذا، فهذا ما يتعين منعه وتحريمه وقد يبلغ أن يعد جريمة يعاقب عليها القانون الوضعي. فإذا قيل هو جريمة في حق من؟ قالوا في حق "الإنسانية" أو في حق "الإنسان" هكذا، من حيث هو إنسان! وقد يقال في حق "المجتمع" على أساس أنه هو الذي اتفق على ما اتفق عليه من تشريع يحاسب به كل مجرم وكل مخالف! وإذا سئل هذا الفعل أو ذاك مستحسن أو مطلوب على أمر من أو على سلطان من؟ قالوا هو ما تمليه مصلحة "الإنسانية" أو "مصلحة الإنسان" أو "حقوق الإنسان" أو ما شاكل ذلك! فالمذهب الإنساني العلماني على اختلاف صوره وتنويعاته الفلسفية ومدارس فلاسفة الأخلاق فيه، هو الجانب القيمي في الدين الطبيعي والمنهج التشريعي الذي لا يرتضي الطبيعيون الدهرية منهجا سواه، بطبيعة الحال. إذا لم يكن في الغيب ما يملي علينا ما يجب أن نعيش من أجله، فلابد أن يأتي ذلك من اتفاق الناس على ما يشتهون وما يحبون أن يكونوا عليه!

فعندما شرع فلاسفة الأكاديمية الغربية في أوروبا في القرن الثامن عشر الميلادي، على منهجهم الجدلي السفسطائي، في البحث في مسألة النفس البشرية والعقل البشري، وما يعتريه من أحوال وتغيرات وما تفسر به تلك الأحوال والتغيرات تفسيرا وصفيا (وهو ما صار يعرف بداية من القرن التاسع عشر الميلادي بعلم النفس، وليس فلسفة العقل كما كان هو السائد في تسميته)، كانت القيم الإنسانية العلمانية على هذا المعنى الذي حررناه آنفا قد صارت هي النهضة وهي التنوير وهي الحضارة وهي ما يجب أن تتفق المجتمعات البشرية على كل تشريع يحفظه ويحققه. من هنا، أصبح معيار السواء والسلامة العقلية والنفسية عند هؤلاء، هو ما اتفق المجتمع على وصفه بأنه الحالة السوية الصحيحة عقلا ونفسا وشعورا وميولا، كيفما كان

ذلك. وبالنظر إلى المنهج السفسطائي الذي هم متشبعون به، لم يقم للفطرة قائمة عندهم ولا حجية معرفية، بحيث يستجاز أن يقال، مثلا، إن المجتمع الفلاني قد فسدت نفسه كله، وصار بكليته يعاني من مرض كذا أو من انحراف في تصور كذا وكذا! فإن البديهيات والضروريات نفسها إنما يرجع تعريفها عند القوم إلى الاتفاق المجتمعي الحالي كيفما كان، بالنظر إلى كونها (أي الضروريات) كلها عندهم نسبية، يجوز - على منهجهم - أن يعترض أي أحد على أي قضية منها، شريطة أن يكون قادرا على شفع اعتراضه ذاك ببرهان فلسفي نظري من النوع الذي يقبله القوم ويوقرون صاحبه!

وقد ضربنا المثل في غير موضع بمسألة فعل قوم لوط، أو ما كان إلى وقت قريب يقال له "الشذوذ الجنسي"! فاليوم صار يقال له "الميل الجنسي" أو "التوجه الجنسي"، لأن الميل المجتمعي العام أو المزاج الغالب في بلاد الغرب General Zeitgeist لم يعد يستشنع تلك الحالة الخبيثة الشاذة كما كان عليه الحال فيما مضى. فلما كان ذلك كذلك، لزم أن يتغير معيار السواء Normalcy عند النفسانيين الغربيين من معيار يعد تلك الحالة والفعلة الشنيعة انحرافا نفسيا وسلوكا قبيحا لا يجوز قبوله والسكوت عليه، إلى معيار يرى فيها تنوعا مقبولا مستساغا في ميول الإنسان الجنسية، فلا يعامل معاملة المرض أو الانحراف ولا يجوز أن يبدي أحد من الناس استشناعه لذلك الفعل، لألا يؤذي من يتلبس به ويرى أن هذا هو ميله الجنسي الذي ولد به ومن حقه أن يعيش عليه!! فمع أن الفطرة السوية تستشنع ذلك الفعل وتستقبحه غاية الاستقباح، إلا أن الأكاديمية الغربية لا تثبت معرفة فطرية أصلا في نفوس البشر، حتى تجعلها مستندا في تقرير حالة السواء النفسي والسلوكي! ولا ترى الضرورة العقلية rational necessity إلا فيما هو في حقيقة الأمر ضرورة اتفاقية contextual Necessity أو

اجتماعية Social Necessity، بمعنى أن الإنسان يتضرر في مجتمعه الذي هو فيه إن خالف ذلك المعنى أو أنكره، حتى إنه قد يسلب عنه اسم العقل وتنفى عنه الصحة العقلية في عرف المجتمع! ومن الأمثلة الواضحة على ذلك في الفلسفة الأكاديمية نفسها، مذهب فلسفي يقال له Solipsism، وهو اعتقاد الإنسان أنه ليس في الوجود غيره هو، وأن العالم الخارجي ليس إلا وهما في ذهنه. هذا المذهب كان له أنصار في الأكاديمية الفلسفية الغربية إلى وقت قريب، حتى ظهر ذلك المعتقد عند بعض رواد الفضاء الذين يقضون أوقات طويلة (تصل إلى سنة كاملة أو يزيد) في الفضاء الخارجي في حالة من العزلة والوحدة! فبدأت تعرف تلك الحالة باسم Solipsism Syndrome، لماذا؟ لأنها أصبحت تتعلق - في غير الفلاسفة الأكاديميين الذين اعتنقوها كمذهب فلسفي - بشعور سلبي مكروه فرديا واجتماعيا، وهو الشعور بالعزلة والانقطاع عن العالم. مع أن من يعتقد أن العالم كله ليس إلا وهما في خياله، هذا يعتقد شيئا بالغا في السفاهة والجنون غايته، وإن كان فيلسوفا معظما! وهو اعتقاد يمكن أن يستجاز معه كل شيء، إذ لو صح عندي أنه ليس في الوجود غيري، وأن كل ما سواي ليس إلا وهما في ذهني، فأي مانع يمنعني إذن من أن أقترف جميع الفواحش والمنكرات وأنا لا أرى أن علي شيء، لأنه لا وجود لأحد غيري على أي حال؟؟

فالفكرة نفسها جنون ومرض نفسي بموجب الفطرة السوية، حتى إن بلانتينغا نفسه يسخر منها بطرفة يكررها في كثير من محاضراته، يضرب بها المثل على السخافة التي قد يصل إليها الفلاسفة في مذاهبهم واعتقاداتهم، يقول إنه التقى ذات يوم بطبيب يعتقد ذلك الاعتقاد، ووجده شخصا ودودا ولطيفا وكذا، ثم لما التقى بزميل له، قال له: "إياك أن تغضب الدكتور فلان، فنحن نحرص على ألا نغضبه أو نضايقه، لأنه لو ذهب، ذهبنا كلنا معه!!" فيضحك بلانتينغا

ويضحك الحضور، ولا ينتبهون إلى فداحة الواقع الفكري والأكاديمي الذي تدل عليه تلك القصة، وما بلغه القوم من انحطاط عقلي على التحقيق! الفطرة والبداهة والنفس السوية يجب أن تتهم صاحب رأي كهذا، إن لم تودعه في مصحة نفسية، كائنا من كان! ومع ذلك لم يزل إلى الآن يوجد فلاسفة وأكاديميون وأناس محترمون في المجتمع الغربي يقولون بهذا القول، ولا يتهمون بشيء من أجله ولا ينكر عليهم قولهم ذاك (وإن سخر بعض الناس بقوله في مجالسهم الخاصة)، لمجرد أنهم لا يصدر عنهم أفعال وسلوكيات يتأذى منها الناس أو يتضررون منها، ولا يظهر على الواحد منهم شيء من الأحوال التي اتفق المجتمع على استقباحها، كالعزلة والانقطاع وكذا، مما لا يعد ذلك الاعتقاد انحرافا نفسيا (وإلى الآن لم يسجل في اتحاد النفسانيين الأمريكيين على أنه مرض نفسي) إلا إذا اقترن به، كما في أحوال رواد الفضاء الذين أشرنا إليهم.

فوجود العالم الخارجي نفسه لا يعد ضرورة عقلية ونفسية في الأكاديمية الغربية إلا بحسب الاتفاق الاجتماعي Contextually! إذا كان القائل بنفي تلك المسألة فيلسوفا محترما، يجادل وينافح عنها كمذهب فكري له حججه الفلسفية عنده وارتباطاته الفكرية مما أسسه الرجل في أبحاث منشورة ومحكمة وكذا، من غير أن يظهر منه ما يكرهه الناس، لم يجرؤ أحد على إدانته به أو اتهامه بالجنون والسفاهة من أجل مذهب كهذا! وأما إذا كان القائل غير معدود من جملة الفلاسفة والمفكرين الكبار، فهذا قد نشكك في قواه العقلية إن صرح به في يوم من الأيام، فنأخذ في تتبع أحواله وسلوكياته مع المقربين إليه، حتى إذا وقع منه ما يكرهه الناس، أدخلناه المصحة العقلية!

هذه الحالة الاجتماعية المنكرة، والازدواجية المعيارية الفادحة، أو إن شئت فقل: النسبية المطلقة في مفهوم الضرورة العقلية والسواء النفسي، هي من تبعات وثمرات المنهج الجدلي السفسطائي ولا شك، ذلك المنهج العبثي الذي عليه قامت الأكاديمية الغربية يوم نشأت في اليونان قبل ثلاثين قرنا، وبه يكتسب الفيلسوف والمتفلسف حصانة اجتماعية أو اتفاقية من كل تهمة على العقل أو النفس Social Contextual Immunity، مهما جاء بالسخافات والخرافات في الأقوال والعقائد، ما لم يأت بما يؤذي الناس أو بما يرون أنه يضرهم بصورة ما أو بأخرى!

لهذا صارت الضرورة النفسية، التي هي حالة السواء العقلي التي يقبل من الإنسان سلوكه إن كان جاريا على موافقتها، ويرد عليه إن خالفها، مسألة راجعة عند الفلاسفة إلى الاتفاق الاجتماعي العام، من غير أن ترى أي نظرية فلسفية معيارية معينة من نظريات فلاسفة الأخلاق تعامل على أنها هي المرجع في مسألة السواء السلوكي أو الضرورة السلوكية إن شئت أن تسميها Behavioral Necessity / Normalcy، الذي يرى النظار وجوب تقديمه ومحاكمة الناس إليه سواء قبلته الكافة أم لم يقبلوه، لأنه هو الحق في نفسه! وإنما يعتبر باتفاق الدهماء (عامة الناس، أو عموم المجتمع) على ما يرونه سلوكا مقبولا أيا ما كان، وما يعدونه حالة سيكوباتية لا يجوز قبولها، لأن سبب الضرورة لعلاج تلك الأحوال إنما هو نفور الناس منها وتضررهم وتأذيهم لا غير.

وهذا ولا شك من ازدواجية المعيار التي نشأت عن الطريقة السفسطائية اليونانية كما تقدم، إذ صحيح أن الضروريات ليست كلها مطلقة (بمعنى أن الإنسان يكون متهما في عقله وفي سلوكه مطلقا إذا خالفها)، إلا أنها كذلك ليست كلها نسبية (بمعنى أنها قد تظهر لبعض

الناس وتخفى على بعضهم)، ومن ثم يعذر من تخفى عليه دون أن يتهم في عقله وسلامة نفسه. ولهذا كان مذهب أهل السنة في التحسين والتقبيح العقليين التوسط بين من غلوا فجعلوا العقل قادرا على الحكم بالتحسين والتقبيح في كل شيء، وأنه تقوم به الحجة الأخلاقية على الإنسان مطلقا (ومن ثم استحقاق الجزاء في الآخرة) حتى من قبل مجيء الشرع، وهم المعتزلة والكلابية ومن وافقهم، وبين من غلوا في المقابل فقالوا إن العقل لا يعرف الحسن والقبح معرفة مطابقة للواقع إلا من الشرع وحده، وهم الأشاعرة ومن وافقهم! فالحق أن في الإنسان فطرة وجبلة يعرف بها حسن الحسن وقبح القبيح في كثير من المسائل، ومن ذلك ما هو بديهي ضروري كعلم العقلاء الأسوياء كافة بحسن العدل والحكمة وقبح الظلم (وضع الشيء في غير موضعه)، وحسن الدفاع عن المظلوم ومناصرته، وقبح قتل النفس بلا وجه حق، وحسن الصدق والأمانة وقبح الغش والغرر، وحسن التبرع بالأموال للمحتاجين والمحرومين، وقبح غصب أملاك الناس وأكل أموالهم بالباطل، وغير ذلك!

ولكن على الطريقة اليونانية السفسطائية، فلا يكون لأحد حجة على أحد في باب التحسين والتقبيح أصلا، ولا في غيره، إلا عند من يوافقه على التسليم بما سلم هو به من مقدمات! يختلف الفلاسفة ما بدا لهم في مبدأ التحسين والتقبيح نفسه، وفيما هو حسن وما هو قبيح، تبعا لنظرياتهم الميتافزيقية، دون أن ينكر عليهم شيء مما اختلفوا فيه!

ولولا أن اضطر المتكلمون على اختلاف طوائفهم لتكفير من يرونه قد نقض أصلا من أصول الملة من مخالفيهم، لما كفروا أحدا من أقرانهم بقول قاله أبدا، ولما أدانوه ولا اتهموه في عقله أو في دينه! فهم أصحاب صنعة تقوم بالأساس على التسليم بمعقولية موقف الفيلسوف الذي يزعم أنه لا يرى سببا كافيا لاعتقاد أن العالم مخلوق وأن له خالقا بالغيب يجب عليه أن

يعبده، ولولا هذا ما أجابوه لطلبه الدليل النظري الفلسفي في إثبات ذلك! فكيف تسلم بمعقولية موقف من يزعم أن وجود الباري يخفى عليه، ومع ذلك تتهم من يخالفك من المتكلمين الذين اتفقوا على إثبات وجوده بالفعل، بالكفر والزندقة في هذا القول أو ذاك مما يقولون؟؟ هذا تناقض ولا شك، يأتي من ازدواجية الموقف في التعامل مع الاتفاقات الاجتماعية المختلفة التي يتعامل معها المتكلم. فهو ينسب نفسه إلى مجتمع ما عند ممارسته الكلام والنظر الفلسفي، وإلى مجتمع آخر عند خوضه في علوم الدين وانخراطه مع أصحابها! وهو يحرص على إرضاء المجتمعين معا، مع أن أحدهما يسفه الآخر ويتهمه في العقل والدين، مجتمع علماء الشريعة من جانب، ومجتمع الفلاسفة الأكاديميين الذين اعتنقوا الطريقة السفسطائية واشترطوا على أنفسهم ألا يتهموا أحدا بالجحود والسفاهة والمكابرة، فضلا عن الكفر والزندقة، مهما قال ومهما اعتقد، ما دام يقدم لقوله ذاك بمقدمات فلسفية نظرية وأقيسة عقلية من جنس ما اتفقوا على استعماله في كل مسألة! ولهذا نفى القوم المعرفة الفطرية جملة واحدة، وأوجبوا النظر في وجود الباري على كل مكلف، بل جعلوه أول واجبات المكلفين، مع أن مبدأ الضرورة الدينية التي يكفرون بها مخالفهم في أصول الملة (بأنه ينفي معلوما من الدين بالضرورة) إنما يقوم على اصطحاب المعارف الفطرية كلها وجوبا، التي منها وجود الباري وصحة دين التوحيد! ولكن لما صارت الضرورات نسبية مطلقا، وصار مبدأ الضرورة نفسه أمرا اتفاقيا اجتماعيا، بمعنى أن ما يكون ضرورة في جماعة من الناس، لا يلزم أن يكون ضرورة عقلية في غيرهم، لم يشعر القوم، على اختلاف طوائفهم، بالتناقض المعرفي في موقف كهذا!!

ولهذا ترى أشباه المتكلمين في عصرنا هذا يفرقون بين من ألحد "لسبب نفسي" ومن ألحد "لسبب فلسفي أو علمي"، مع أن كلاهما جاحد للفطرة والبداهة، مكابر فيما هو أوضح من

قرص الشمس في كبد السماء، ولا يكون المرؤ على هذه الحالة إلا لأهواء أمرضت نفسه، بداهة وضرورة! فكلا النوعين إنما ألحد لهوى عظيم في نفسه لا محالة! ولكن الضرورة مسألة اتفاقية عندهم! فالملحد الذي انخرط في الفلسفة، لا يضره من جحد البداهة ما يضر غيره، لأن مجتمع الفلاسفة والنخبة المثقفة يرى مثله طالبا للحقيقة، مكافحا من أجل تحقيق الدليل العقلي الكافي لأن يؤسس العاقل إيمانه عليه إن كان فاعلا! أما الذي لم يتفلسف يوما من الدهر ولم يمر على كلام الفلاسفة، وإنما ألحد بسبب أن أباه أساء معاملته في صباه مثلا أو بسبب ثورته الشبابية الطائشة على سلطة المجتمع عليه، أو نحو ذلك مما يفسرون به إلحاد كثير من الشباب، فهذا من يقال في إلحاده إنه راجع إلى مرض نفسي! فمن الذي أخرج الفيلسوف الملحد من أن يكون مريضا نفسيا، خلافا لمن يلحد من غير أن يتفلسف؟؟ إنه من سبق منه التلبس بالمنهج الجدلي السفسطائي وباتفاقية الضرورة العقلية والنفسية تحت ذلك المنهج، شعر بذلك أم لم يشعر!

والقصد أن العلوم الإنسانية الغربية إنما تعاني من نسبية الحقيقة المعيارية ونسبية القيمة الأيديولوجية، بالنظر إلى قيامها على هذا المبدأ الجدلي السفسطائي اليوناني القديم!

ولأن النفسانيين في الأكاديمية الغربية، قد اعتمدوا الطريقة التجريبية في البحث في الأسباب والعلل والتفسيرات، على ما تقدم بيانه من مسلماتهم الاعتقادية والمنهجية، لم يكن من عجب أن اختلط النظر الوصفي التفسيري عندهم بالنظر المعياري، فأصبح كل ما يدلهم الاستقراء على أنه هو حال الكثرة الكاثرة من جماهير الناس في بلادهم، كيفما اتفق له أن يكون، في السلوك والشعور والميل النفسي وكذا، فهو يدلهم بمجرد ثبوته على الحالة السوية Normal case للإنسان، وإذن على ما يجب أن تكون عليه معياريا! وهو ما يترتب عليه أن يكون ما يخالف

ذلك هو الحالة المرضية Psychopathic. فالفرد المخالف للجماعة، كما يدل عليه الاستقراء التجريبي، هو الفرد المريض نفسيا أو غير السوي سلوكيا، وجوبا وضرورة، وهو من يلزم معالجته حتى يصبح على مثل ما عليه الناس! أما أن يقال إنه هو المحق المصيب، والواجب على الأكثرين أن يكونوا على ما هو عليه، فهذا لا يقوى عليه المنظر السيكولوجي الغربي ولا يجترئ عليه، لأنه لا حجة لرأي على رأي ولا لميل على ميل في الأكاديمية الغربية، ولا وجود في اعتبارهم لشيء اسمه الفطرة، بحيث يقال فيمن شذ عنها إنه مريض النفس والقلب، ولا لشريعة منزلة من رب العالمين بحيث يقال في مخالفها إنه آثم فاسق مستحق للعقوبة. فقول بلانتينغا: " حسن، لعل الأمر كذلك. ولكن سيظل مطلوبا بيان أو إثبات أن الإنسان السوي أو الذي يعمل بشكل طبيعي، يظهر في سلوكه، بالفعل، هدف زيادة اللياقة الجينية هذا، ومع ذلك لن يكون من المعقول أن نعد إظهارهم ذلك الهدف في سلوكهم معيارا للسواء أو للعمل الطبيعي للعقل البشري. " نقول له: ما تعترض به هنا صحيح ولا شك، ولكن لا قيمة لهذا الاعتراض، منهجيا، حتى تبين سبب ذلك الموقف وأصل الفساد فيه، إن أردت للباحثين أن يجتنبوا الوقوع فيه مستقبلا. فالطبيعية المنهجية والأصول التي قامت عليها عند أصحابها هي التي أجازت لهؤلاء أن يجعلوا مجرد استقراء ما عليه الجماهير، حجة معيارية فيما ينبغي أن يكون جميع الناس عليه في الحالة النفسية والشعورية وغير ذلك مما يعتني النفسانيون بدراسته من أحوال البشر! فالأمر عندهم وكأنما نستقرئ سلوك نوع من أنواع الطيور مثلا، فنجد أنه يهاجر كل عام من مكان إلى مكان، ليضع البيض ويرجع، فإذا رأينا بعض الطيور من ذلك النوع لا تفعل ذلك، حكمنا فورا بأن فيها أمرا "غير طبيعي" أو أنها تسلك سلوكا غير سوي! فنحن وعامة البهائم والدواب والوحوش عندهم لا عمل لنا ولا غرض من وجودنا في هذا

العالم إلا أن نتناسل وننشر الجينات، ونعمل على الزيادة من أسباب اللذة ما دمنا أحياء، واجتناب أسباب الألم والحزن ما استطعنا، كما تحركنا به الدواعي الغريزية التي تحرك عامة أنواع الدواب في الأرض، وهو ما فسره داروين بمصلحة حفظ النوع (أو اللياقة الجينية كما سماها سايمون)، ولا مزيد على ذلك! فلا عجب إذن أن يعاملونا كما يعاملون الجرذان والقردة والخنازير في معاملهم! والقوم عندهم بالفعل مدرسة تسمي بالسلوكية Behaviorism لم تزل إلى الآن تصر على معقولية استنباط سلوك البشر بالقياس على سلوكيات الجرذان في التجارب المعملية، والله المستعان! يعامل السلوك معاملة الظاهرة الطبيعية التي لا فرق فيها بين الأنواع الحية التي تمارس ذلك السلوك، في التأثر بما يتأثر به من الأسباب والعوامل المحسوسة! فإذا رأيت الجرذ يواصل السير في المتاهة الخشبية التي صنعتها له في المعمل، كلما قابله جدار، رجع ليمشي في الجهة الأخرى، مثلا، فلك أن نتوقع أن يكون هذا هو سلوك جميع الأنواع الحية القادرة على الحركة والانتقال، إذا وضعت تحت نفس هذه الظروف! لماذا؟ لأن السلوك ليس إلا ظاهرة حركية تظهر من الكائن المتحرك ذي الشعور Sentient Animal، ونتأثر بما في العالم من مؤثرات خارجية تأثرات نظامية ثابتة Regular كما نتأثر كل ظاهرة طبيعية! دع عنك أن للإنسان عقائد وقيم وترجيحات عقلية وخلفيات تربوية وأمور تؤثر في سلوكه كما لا يكون مثله لغيره من الأنواع الحية! هذا كله لا التفات إليه في تلك المدرسة!

وصحيح إن المذهب السلوكي هذا ليس هو المذهب الوحيد في الأكاديمية الغربية فيما يقال له علم النفس، إلا أننا أردنا هاهنا أن نضرب مثلا لنبين فداحة ما عليه القوم من اختزالية كبرى في الظواهر الإنسانية بعموم، وأن هذا كله إنما يرجع إلى الأصول الكلية نفسها للأكاديمية

الغربية، تلك الأصول التي لم يتمكن بلانتينغا، للأسف، من بيانها كما ينبغي، على الرغم من اقترابه من ذلك كما لم يقترب غيره من علماء أهل الكتاب.

غاية ما نجده يختتم به التعليق على بحث سايمون هذا، أنه يكتفي بتقرير أنه إن كانت القوة المعيارية التي انطلق منها في بحثه، هي مما سماه بالأداء الوظيفي الطبيعي Proper Function، أي كما نقول في الماكينة التي تعمل عملا طبيعيا إنها تعمل كما "يجب" أو "كما ينبغي"، مثلا، أو في الجسم البشري الذي إذا جرح، تجلط الدم في موضع الجرح، إنه يعمل كما ينبغي، ونقول إنه يكون معطلا أو لا يعمل كما ينبغي إن لم يقع منه ذلك، إن كان هذا هو الاعتبار المعياري الذي يستند إليه سايمون في تقريره ما يقرر، فلا نملك إلا أن نقبل إدخاله في مفهوم العلم التجريبي Science من هذه الجهة، لأننا لو أخرجناه لأخرجنا معه علوما كثيرة من كونها علما، وإذن نستطيع أن نقول إن العلم ليس محايدا دينيا، وأنه يجب على النصارى ألا يسلموا "للعلم" بكل ما يقول لمجرد أنه علم!

وهذا ولا شك تضييع لأصل القضية كما تقدم بيانه، فأنت توصف عند النفسانيين بأنك مجنون أو فاسد العقل أو مريض النفس إن جئت بقول يتفق جماهير الناس في مجتمعك على نكارته، ويتأذون بظهوره فيما بينهم! وتدفع عنك التهمة بفساد النفس إذا كان سلوكك الذي تستهجنه الفطرة وتفسق الشريعة فاعله، سلوكا مستساغا مقبولا اجتماعيا، يتأذى الناس في مجتمعك إذا منعوا منه! المعيار العلمي المعتمد أكاديميا في مثل ذلك هو هذا! فمسألة "يعمل كما ينبغي" هذه لا يجوز أصلا أن تقال في الإنسان كما تقال في الماكينات والدواب وما شاكل ذلك، بهذا القياس البارد الذي جوز بلانتينغا بكل سهولة أن يقال فيه إنه "علم" Science لمجرد أن الواقع الأكاديمي يجعله كذلك!

والرجل في كلامه في هذا الموضع تردد واضطراب في الحقيقة، فيما إذا كان الصواب أن يعد هذا النظر المعياري من العلم أو لا يعد، مع أنه يدعو قراءه من النصارى لأن يكون لديهم معيارهم الخاص بهم، المستمد من دينهم واعتقادهم وفهمهم لنصوصهم! والسبب في ذلك أنه جوز أصل القياس، قياس الإنسان على الماكينة والحيوان، ولكن مع موازنة ما يفضي إليه ذلك القياس موازنة احتمالية مع ما في النصوص الدينية!

وهذا تلبيس ولا شك، بل الصواب أن يقال إن مبدأ النظر المعياري نفسه في الأكاديمية الغربية يحتاج إلى مراجعة كلية، وإلى أن ينزع من الطبيعية المنهجية ومن الجدلية السفسطائية في أصل الأمر عند كل ممارسة بحثية، من قبل أن يذهب البحاث التجريبي إلى وضع الفروض واختبارها معمليا! أما أن يقال إن هذا علم معتبر Science ولكنه غير متوافق مع الدين ويجب إصلاحه من أجل أن يكون علما موافقا للدين، فهذا مما يورث الاشتباه والالتباس على أصل القضية، إذ جماهير الناس تطلق لفظة Science وهي تقصد العلم، الذي هو المعرفة المطابقة للواقع، سواء بقطع ويقين أو بأرجحية احتمالية معتبرة! فعندما يقال إن هذا "علم" ولكنه علم مخالف لديننا، فإن هذا يجلب دينكم نفسه للمساءلة، وليس ما سبق لك أن أنزلته منزلة العلم، ولو بالاصطلاح! بل يقال هو علم زائف Pseudo-science أو ممارسة علمية تقوم على فلسفة فاسدة تحتاج إلى إصلاح.

الجزء الثالث

ينتقل بلانتينغا بعد ذلك للتعليق على المثال الثاني في بحثه لما يعده "علما غير محايد دينيا"، فيتكلم عما يسميه بأسطورة التطور الكبرى، The Grand Evolutionary Myth، وهو ما تسمعه أنت فتتوهم بادي الرأي ولأول وهلة أنه يعد النظرية من جملة الأساطير، على المعنى المعهود في استعمال الناس!

يقول [6]:

---

[6] *Since I have dealt with this example elsewhere (in the essays referred to in footnote 3) I can be brief here. Consider the Grand Evolutionary Myth (GEM). According to this story, organic life somehow arose from non-living matter by way of purely natural means and by virtue of the workings of the fundamental regularities of physics and chemistry. Once life began, all the vast profusion of contemporary flora and fauna arose from those early ancestors by way of common descent. The enormous contemporary variety of life arose, basically, through natural selection operating on such sources of genetic variability as random genetic mutation, genetic drift and the like. I call this story a myth not because I do not believe it (although I do not believe it) but because it plays a certain kind of quasi-religious role in contemporary culture. It is a shared way of understanding ourselves at the deep level of religion, a deep interpretation of ourselves to ourselves, a way of telling us why we are here, where we come from, and where we are going.*

Now it is certainly possible--epistemically possible, 7 anyway--that GEM is true; it certainly seems that God could have done things in this way. Certain parts of this story, however, are, to say the least, epistemically shaky. For example, we hardly

have so much as decent hints as to how life could have arisen from inorganic matter just by way of the regularities known to physics and chemistry.8 (Darwin found this question deeply troubling;9 at present the problem is enormously more difficult than it was in Darwin's day, now that some of the stunning complexity of even the simplest forms of life has been revealed).10 No doubt God could have done things that way if he had chosen to; but at present it looks as if he didn't choose to.

So suppose we separate off this thesis about the origin of life. Suppose we use the term 'evolution' to denote the much weaker claim that all contemporary forms of life are genealogically related. According to this claim, you and the flowers in your garden share common ancestors, though we may have to go back quite a ways to find them. Many contemporary experts and spokespersons--Francisco Ayala, Richard Dawkins, Stephen Gould, William Provine, and Philip Spieth, for example--unite in declaring that evolution is no mere theory, but established fact. According to them, this story is not just a virtual certainty, but a real certainty.11 Now why do they think so? Given the spotty character of the evidence--for example, a fossil record displaying sudden appearance and subsequent stasis and few if any genuine examples of macroevolution, no satisfactory account of a mechanism by which the whole process could have happened, and the like12--these claims of certainty seem at best wildly excessive. The answer can be seen, I think, when we realize that what you properly think about these claims of certainty depends in part on how you think about theism. If you reject theism in favor of naturalism, this evolutionary story is the only game in town, the only visible answer to the question: Where did all this enormous variety of flora and fauna come from? How did it all get here? Even if the fossil record is at best spotty and at worst

disconfirming, this story is the only answer on offer (from a naturalistic perspective) to these questions.

From a theistic or Christian perspective, however, things are much less frantic. The theist knows that God created the heavens and the earth and all that they contain; she knows, therefore, that in one way or another God has created all the vast diversity of contemporary plant and animal life. But of course she isn't thereby committed to any particular way in which God did this. He could have done it by broadly evolutionary means; but on the other hand he could have done it in some totally different way. For example, he could have done it by directly creating certain kinds of creatures--human beings, or bacteria, or for that matter sparrows13 and houseflies--as many Christians over the centuries have thought. Alternatively, he could have done it the way Augustine suggests: by implanting seeds, potentialities of various kinds in the world, so that the various kinds of creatures would later arise, although not by way of genealogical interrelatedness. Both of these suggestions are incompatible with the evolutionary story.

A Christian therefore has a certain freedom denied her naturalist counterpart: she can follow the evidence14 where it leads. If it seems to suggest that God did something special in creating human beings (in such a way that they are not genealogically related to the rest of creation)15 or reptiles or whatever, then there is nothing to prevent her from believing that God did just that. Perhaps the point here can be put like this: The epistemic probability of the whole grand evolutionary story is quite different for the theist and for the naturalist. The probability of this story with respect to the evidence together with the views a theist typically holds, is much lower than its probability with respect to evidence together with the views the naturalist typically holds. So the way in which the theory of evolution is not

بما أني قد تناولت هذا المثال في محل آخر (في مقالاتي التي عزوت عليها في الحاشية 3) فيمكنني أن أوجز الكلام هنا. فلنتأمل في أسطورة التطور الكبرى. فوفقا لتلك القصة، فإن الحياة العضوية قد نشأت بصورة ما أو بأخرى من المادة الميتة بطريق طبيعية محضة، وبعمل النظاميات الأساسية للفيزياء والكيمياء. وما أن بدأت الحياة، نشأت جميع أنواع الحيوان والنبات المعروفة في عصرنا من تلك الأسلاف الأولى بطريق النزول من أصل مشترك. فقد ظهر ذلك التنوع العظيم في الحياة على الأرض، بصفة أساسية، من طريق الانتخاب الطبيعي الذي يعمل على مصادر التنوع الجيني المتمثلة في الطفرات الجينية العشوائية، والانحراف الجيني وما شاكل ذلك. وأنا أسمي هذه القصة بالأسطورة لا لأني لا أؤمن بها (مع أني لا أؤمن بها)، ولكن لأنها تلعب دورا شبه ديني في الثقافة المعاصرة. فهي طريقة مشتركة لنفهم أنفسنا على المستوى الديني العميق، أي هو ترجمة عميقة عن أنفسنا لأنفسنا، طريقة نخبر بها أنفسنا لماذا نحن هنا، من أين جئنا، وإلى أين نحن ذاهبون.

فالآن من الجائز – معرفيا – ولا شك، وعلى أي حال، أن تكون تلك الأسطورة حقا، فإنه يبدو ولا شك أن الإله قد فعل الأشياء على هذا النحو. ولكن بعض أجزاء تلك القصة، مهتزة معرفيا على أقل تقدير. فمثلا، لا نجد حتى ولو إشارات بعيدة معتبرة للكيفية التي يمكن أن تكون الحياة قد نشأت بها من مادة غير عضوية، فقط من طريق النظاميات المعروفة في الفيزياء والكيمياء. وقد وجد داروين هذا السؤال مزعجا للغاية، واليوم المشكلة أضخم بكثير

---

religiously neutral is not, as with Simon's explanation of Mother Teresa, that it is straightforwardly incompatible with Christian teaching; it is rather that the view in question is much more probable with respect to naturalism and the evidence than it is with respect to theism and that evidence.

جدا مما كانت عليه على عصر داروين، بعدما انكشف التعقيد البالغ حتى في أبسط الأنواع الحية). فلا شك أن الإله يمكن أن يكون قد أجرى الأمر على هذا النحو، إن اختار أن يفعل ذلك، ولكن يبدو فيما يظهر حاليا أنه لم يفعل.

فلنفرض أننا سنترك جانبا تلك الدعوى بشأن أصل الحياة نفسها. لنفرض أننا سنستعمل مصطلح التطور للكلام على الدعوى الأضعف كثيرا التي تنص على أن جميع أنواع الحياة المعاصرة مرتبطة ببعضها البعض برابط النسب والمصاهرة. فعلى هذه الدعوى، تكون أنت والأزهار في حديقتك منحدرين من سلف مشترك، وإن كنا نحتاج إلى أن نضرب في عمق الماضي لمسافة بعيدة جدا حتى نجد ذلك السلف. وكثير من الخبراء المعاصرين المتحدثين باسم النظرية كفرانسيسكو أيالا وريتشارد دوكينز وستسفن جاي غولد وويليام بروفاين وفيليب سبيث على سبيل المثال، قد اجتمعوا على إعلان أن التطور ليس مجرد نظرية، ولكن حقيقة مستقرة. فعلى كلامهم، فإن هذه القصة ليست مجرد يقين افتراضي، وإنما هي يقين محقق. فلماذا يرون الأمر كذلك؟ فالنظر إلى الطبيعة المهترئة لأدلة النظرية -- فمثلا، سجل أحفوري يعرض ظهورا مفاجئا واستقرارا لاحقا (للأنواع) وأمثلة قليلة - إن وجدت على الإطلاق - للتطور الكبروي، ولا ظهور مرض لآلية معينة يمكن أن تكون العملية كلها قد حدثت من خلالها، ونحو ذلك - هذه الدعاوى باليقين تبدو على أحسن الأحول ضربا من المبالغة المفرطة. والجواب يمكن أن يظهر فيما أرى، عندما ندرك أن التفكير الصحيح بشأن دعاوى اليقين القطعي تلك يتوقف جزئيا على موقفك من الإثباتية Theism. فإن كنت ترفض إثبات صانع ما، لصالح الطبيعية، فإن هذه القصة التطورية ستكون هي اللعبة الوحيدة المتاحة بالنسبة لك، والجواب الوحيد الظاهر للسؤال: من أين جاء ذلك التنوع الواسع في الحيوان والنبات

على الأرض؟ كيف ظهر كله؟ فحتى مع كون السجل الحفري ممخرقا على أحسن الأحوال، وغير مؤكد للنظرية على أسوئها، فإن هذه القصة هي الجواب الوحيد المتاح (من وجهة نظر الطبيعيين) لأمثال تلك الأسئلة.

وأما من وجهة النظر الإثباتية أو النصرانية، فإن الأمور أقل تطرفا وتحيزا بكثير. فإن المثبت يعلم أن الإله خلق السماوات والأرض وما فيهما، وهو لذلك يعلم أنه بشكل ما أو بآخر فإن الإله هو الذي خلق جميع ذلك التنوع الواسع للحياة الحيوانية والنباتية على الأرض. ولكن بالطبع فإنه غير ملزم بالقول بطريقة معينة يكون الإله قد خلق بها ما خلق. فمن الممكن أن يكون قد فعلها بطريقة تطويرية مجملة، فمثلا، قد يكون فعلها بخلق بعض الأنواع المعينة من المخلوقات خلقا مباشرا، كالإنسان أو الباكتيريا أو حتى العصافير والذباب - كما آمن به كثير من النصارى عبر القرون. وقد يكون فعلها بالطريقة التي اقترحها أوغسطين، بغرس بذور في العالم للأنواع المختلفة تنشأ منها فيما بعد، وإن كان ذلك على غير اتصال فيما بينها بطريق النسب. كلا هذين الاقتراحين لا يتوافقان مع القصة الارتقائية.

ولذلك، فالنصراني لديه نوع من الحرية قد حرم منه نظيره الطبيعي: فبوسعه أن يتبع الدليل حيث يقوده. فإن ظهر من الدليل أنه يفيد بأن الإله قام بشيء مخصوص في خلقه الإنسان (بحيث أنه ليس له علاقة قرابة أو نسب بالأنواع الأخرى)، أو الزواحف أو غير ذلك، فلا شيء يمنعه من اعتقاد أن الإله قد فعل ذلك. ولعل النقطة هنا تكتب على هذا النحو: إن الاحتمالية المعرفية لصحة قصة الارتقاء الكبرى بكليتها، تختلف اختلافا كبيرا عند المثبتين للصانع، عنها عند الطبيعيين. فإن احتمالية هذه القصة بالنسبة للدليل، إلى جانب الآراء التي يعتقدها المثبتة عادة، هي أقل بكثير منها بالنسبة إلى الدليل نفسه إذا اجتمع إلى الآراء التي

يعتنقها الطبيعيون عادة. فالطريقة التي يقال بها إن نظرية الارتقاء غير محايدة دينيا، ليس من حيث كونها، كما في شرح سايمون لمسألة الأم تيريزا، مناقضة صراحة للتعاليم النصرانية، ولكن من حيث كون التصور محل البحث (قصة الارتقاء الدارويني) يكون أكثر احتمالية بكثير عند الجمع بين الأدلة وبين النحلة الطبيعية، مما يكون عليه عند الجمع بين الإثباتية (إثبات الصانع) ونفس الأدلة.

قلت: يبدأ بلانتينغا الكلام هنا بإدخال نظريات نشأة الحياة في المادة الميتة Abiogenesis تحت دائرة نظرية التطور الدارويني، وهذا مما ينازع فيه البيولوجيون الدراونة نزاعا لا طائل تحته، لا سيما تلك الفئة من النصارى الذين لا يرون مانعا من قبول التطور الدارويني مع اعتقاد أن الرب إنما خلق الحياة في المادة الميتة في أول الأمر ثم ترك الخلق ليجري على أسطورة داروين. فصحيح إن نظرية داروين إنما وضعها الرجل في ظهور الأنواع الجديدة بآلية التحول الطبيعي المزعوم من نوع إلى نوع، ولم يتناول الكيفية التي نشأ بها أول نوع حي وقع عليه التحول إلى نوع آخر إلا بإشارات عابرة حاصلها أن الأمر ليس مما يتصور هو طريقا لوضع نظرية فيه، إلا أن كل من يقول بالتطور الدارويني فإنه يلزمه قبول مبدأ التنظير الطبيعي في مسألة نشأة الحياة نفسها، لأن المسلمات المنهجية التي يقوم عليها تجويز النظر في أصول الأنواع كلها، هي نفسها التي يقوم عليها تجويز النظر في أصل الحياة. ولا معنى للنظر في أصل الأنواع كلها دون أن يتناول صاحب ذلك النظر أصل النوع الأول، الذي هو أصل الأنواع كلها في نظريته، فالفصل بين القضيتين معرفيا ضرب من العبث في الحقيقة! ولكن لا أظن أن هذا هو السبب في إدخال بلانتينغا تلك القضية (قضية أصل الكائن الأول المزعوم) في

أسطورة التطور، وإنما أدخله من أجل أن يتمكن من تكثير المسائل التي سيحكم بإبطالها، مما له تعلق ما بالنظرية، دون أن يصل إلى إسقاطها بالكلية!

يقرر بلانتينغا بعد ذلك أن نظرية التطور تأتي في منزلة من عدم المحايدة الدينية كما يسميها، أدنى من منزلة كلام ذلك الباحث الذي قال إن الأم تيريزا إنما تركت التناسل والتكاثر وانشغلت عنه لتخلف في عقلها، مع أن نظرية التطور هذه هي الأساس الفلسفي الذي عليه بنى ذلك الباحث هذا الهراء، ولم يزل أصحاب مباحث ما يسمى بعلم النفس التطوري ينشرون من زبالة الآراء والتفسيرات ما تضحك منه الثكلى! ومع أنه يعترف في هذا الكلام نفسه بأن النظرية قد اتخذت منزلة "شبه دينية" عند الطبيعيين الدهرية، لأنهم لا يرون لها بديلا في موضوعها، وهو ما لا يخفى سببه على من فهم الأصول الفلسفية والمسلمات المنهجية التي تقوم عليها النظرية نفسها عند داروين ومن تابعوه! فإذا كنا نتكلم في الحقيقة عن دين كامل الأركان، له أصوله الفلسفية التي لا يجوز لكتابي يزعم النسبة لوحي السماء أن يقبلها، فبأي عقل يقال إن النظرية قد تكون محايدة دينيا في بعض أجزائها، أو يقال إنها قد يرد احتمال قبولها كلها أو بعضها عند النصراني أو غيرهم من أهل الكتاب؟ لو تأملت فيما ينقله الرجل عن أوغسطين لزال عجبك! فأوغسطين يزعم فيما يزعم أن الله خلق الأنواع الحية من بقول أو بذور أو ما شاكل ذلك، خلقت منها الأنواع كلها أزواجا. وهذا كما لا يخفى مما لا يقال مثله إلا بالسمع! أي لا يعرف إلا بالوحي من رب العالمين! فأين في كتابهم يوجد ذلك الوصف العجيب لنشأة الأنواع؟ لا يوجد! ومع ذلك هو اعتقاد قرره رجل بمنزلة أوغسطين، ولا نعلم عند القوم من أنكره عليه! فالباب كان ولم يزل باب اختراع وابتداع عند القوم بلا ضابط ولا رابط من نص صحيح أو فهم مسند إلى أصحاب المسيح! فإذا كان ذلك كذلك، ولم يجد النصراني في اعتقاده

ما يمنعه من قبول مبدأ التنظير الطبيعي في هذه البابة الغيبية بجملتها، ولم يجد في دعوى الخلق بالتطوير والترقية ما يحطّ على صفات ربه سبحانه، واستحوذت عليه الأهواء الصارفة عن رؤية الحق الجلي الظاهر في هذه المسائل، فلن يبقى له إذن إلا أن يوازن بين الاحتمالات على هذه الطريقة التي قررها بلانتينغا! يقول إن احتمالية أن تصح جميع أجزاء النظرية في ضوء الاعتقاد بوجود صانع حكيم عليم بالغيب، أضعف من احتمالية أن تصح بعض أجزائها دون بعض، خلافا لما لو كنا لا نؤمن بالصانع وإنما نعتنق المعتقد الطبيعي الصرف، فإن التطور إذن يصبح عندنا حقيقة قطعية لا زوال عنها، ولا يرد عليها احتمال البطلان إلا أن يكون احتمالا في غاية الضآلة!

والواقع أن موقف بلانتينغا من نظرية التطور قد تطور عبر السنوات، أو إن شئت فقل، انحدر، للأسف، حتى أصبح من جملة القائلين بالتطور الموجه المخلوط بالتصميم الذكي، بصورة لا يضبطها عنده ضابط صريح، ولا يقف فيها على موقف واضح. مع أنه كان قبل ثلاثين عاما يتخذ موقفا قريبا من الحق من تلك النظرية، والأبحاث التي يحيل عليها في هذا المقام، بل وهذا المقال نفسه بجزئيه، إنما كتبت في ذيل تلك الفترة، في تسعينات القرن الماضي، حين كان يرى أن أدلة دعوى التطور من أصل مشترك، بآليات داروين، واهية تماما ولا تفيد إلا بالتجويز لا غير، وأنه إذا أضيفت النصوص النصرانية إلى المسألة، فلابد أن يترجح أن تكون أصول الأنواع كلها كانت أزواجا فذة مستقلة عن بعضها البعض، خلقت وبثت في الأرض قبل بلايين السنين! فالرجل في تلك الفترة كان يحارب الطبيعية المنهجية حربا يوشك معها أن يشخصها على حقيقتها تشخيصا صحيحا، يصرح معه أن الباب نفسه، باب النشأة، إنما استجيز

النظر فيه باستعمال الطريقة التجريبية تأسيسا على مسلمات الطبيعية المنهجية نفسها التي لم يكن يجيز للباحث النصراني أن يخضع لها معرفيا.

ولكن لأنه لم يزل، منذ أن نشر هذه المقالات، يقف في دينه وفي موقفه من نصوص سفر التكوين وغيره على أرضية رخوة، لا تقل رخاوة عن استدلالات الدراونة، إذ لم ير مانعا في تراثه الديني، كغيره من كبار فلاسفة الملة، من أن يعاد تأويل أي نص من نصوص الكتاب عندهم بتأويل جديد بالكلية، إذا ظهر ما يدعو إلى ذلك أو يرجحه، ومن ثم يحكم بغلط جميع من سلفوا من آباء الكنائس وعلماء الملة في فهم تلك النصوص ولا إشكال، بل كان يرى أنه يتوسط في موقفه من تلك المسألة، مسألة إعادة التأويل تلك، بين طائفتين من اللاهوتيين وعلماء الملة، ترى إحداهما أنه إذا تعارض فهم النص والعلم، وجب إسقاط العلم مطلقا، وترى الأخرى عكس ذلك مطلقا! ولا شك أن مذهبا كهذا، بدون الاحتكام إلى حجية إجماع سلفي ما على فهم النصوص الموروثة، يُحصر الخلاف فيها، على الأقل، في جملة أقوال لا يستجاز تجاوزها، بدون وجود ذلك السند السلفي المتصل في طوائف الملة، فإنه يصبح الناظر في النصوص كالريشة في مهب الريح! تارة يقول بقول، وتارة يقول بنقيضه، يتقلب في التأويل من غير أن يقف على ضابط صارم لما يجوز أن يقبل وما لا يجوز قبوله من الأقوال المحدثة في فهم النص!

وهذا بالضبط ما نرى آيته في بلانتينغا نفسه وموقفه المضطرب المتقلب عبر السنوات من تلك النظرية، الذي وصل به في نهاية المطاف إلى تجويز كل شيء، وإنزال جميع المذاهب والنظريات والمواقف في القضية منزلة الرأي الوجيه المستساغ دينيا وعلميا (على أساس ما قعده في مقالاته تلك من تعديل نصراني على الطبيعية المنهجية)! فمن أسباب ذلك الاضطراب

لديه، ولا شك، إلى جانب الأهواء الاجتماعية، افتقار التراث النصراني نفسه الذي تربى عليه الرجل في طلبه العلم بدينه، إلى صمّام أمان علمي محفوظ في طائفة من طوائف الملة يحجز العالم والمتعلم النصرانيين عن الافتيات على نصوص الدين! ولهذا لم نزل ندندن في كل مناسبة على أن من عظيم فضل الله تعالى على هذه الأمة، أمة محمد صلى الله عليه وسلم، أن جعل فيها ذلك الصمّام المحكم المتين، في طائفة من العدول لا تزال تتوارثه بالسند المتصل كابرا عن كابر.

فمسألة الفهم السلفي أو فهم السلف هذه، التي يعظمها أهل السنة ويصرون على التمسك بها، ليست تعنتا ولا تنطعا ولا حجرا على العقول كما لا يزال المسفسطة من أهل القبلة يروجون في كل مناسبة! وإنما هي ما يفترق به صحيح الدين من سقيمه تحقيقا، ويقف الناس به على الفهم الصحيح الذي لا يتصور في أحد يتكلم بكلام ما، أيا ما كان موضوعه، إلا وهو يطلب من المخاطبين به أن يحققوه!! فهو ما به يرجو الواحد منا أن يكون على مراد رب العالمين من نصوص الوحي الموروثة، ذلك المراد الذي لو انفتح فيه الباب لكل قائل يقول برأيه وهواه في فهمه دون قيد أو شرط، لانماع أمر الدين ولدرست معالمه! وهو ما وقع في أهل الكتاب تحقيقا! فلم تزل طوائف النصارى تتوالد وتتكاثر جيلا بعد جيل، على عادة البشر في ابتداع العقائد والمذاهب، ولكن من غير أن يكون لدى أي فرقة منها ما به تقوم الحجة على المخالف، أو يجد أحدهم ما به يرجح مذهبا ما من تلك المذاهب على غيره ترجيحا يحسم به الموقف من عقائد المخالفين! حتى ذاك الخلاف الأشهر عندهم في عصرنا بين الكاثوليك والبروتستانت، هذا لا مرجح فيه على الحقيقة، على الإطلاق! يسمع البروتستانتي كلام علماء البروتستانت فيراهم يقولون يجب أن نكتفي بالنص المقدس ولا نلتفت إلى ما بدعته الكنائس من كلام

إضافي زائد عليه، لأنه لا دليل على سماوية مصدره، ولا فضل فيه لكنيسة على كنيسة، وليس فيه ما يلزم الناس بالخضوع له، فيستحسن ذلك الكلام، ويسمع الكاثوليكي كلام أحبار الكاثوليك فيراهم يقولون بل يجب أن نقبل التقاليد الكنسية الموروثة وإن لم يكن منصوصا عليها في الكتاب المقدس، لأنها لو لم تكن من مراد الرب ما حفظت في الكنيسة وما توارثها الآباء والرهبان، وبدونها لا نعرف كيف نعمل بالكتاب وما فيه، فيستحسنه كذلك، ثم لا يجد أحدهما ما يرجح به ما هو عليه على ما عليه مخالفه إن أراد، إلا أن يبقى في نهاية المطاف على ما وجد عليه أبويه، أو أن ينقلب مع ما تزينه له أهواؤه من انتقال من كنيسة إلى كنيسة، أو انسلاخ من الملة بالكلية! لماذا؟ لعدم السند المتصل في شيء مما يزعم كلا الفريقين أنه هو ما يريد رب العالمين من الناس أن يكونوا عليه! نعم يوجد نص موروث وتوجد تقاليد موروثة، إلا أنهم إن أرادوا أن يحققوا أصل وبداية ذلك التراث من أين جاءت تحديدا، ومتى وقعت ولمن، وهل هي ما علمه المسيح نفسه لتلامذته تحقيقا، وما صححه هو نفسه وأقره من عمل تلامذته بين يديه بما علمهم إياه من أمر الدين، أم لا، لم يجدوا في تراثهم طريقا إلى ذلك البتة! فافهموا هذا الفضل الإلهي العظيم واشكروه، وقولوا الحمد لله الذي عافانا من هذا، وفضلنا على كثير ممن خلق تفضيلا.

يقول بلانتينغا في واحد من الأبحاث الثلاثة التي يحيل عليها في هذا الموضع، في جواب السؤال "هل نظرية التطور محايدة دينيا":

"من السذاجة المحضة أن نعتقد أن العلم المعاصر محايد دينيا، ومحايد ثيولوجيا، وأنه يقف بهدوء فوق تلك المعركة بلا أي اتصال بها. ربما كانت بعض أجزاء العلم كذلك: الرياضيات مثلا، وربما الفيزياء، أو أجزاء من الفيزياء، على الرغم من أنه حتى في تلك المجالات ثمة روابط.

ولكن أجزاء أخرى لها تعلق قوي وظاهر جدا بتلك المعركة، وكلما اقترب موضوع العلم نفسه مما هو من شأن البشر خاصة، ازداد عمق ذلك التعلق."

قلت: هذا الكلام يدلك على أن بلانتينغا كان يرى ويدرك أنه لابد من وضع معيار أو مبدأ للتفريق بين ما هو علم وما ليس بعلم Demarcation Principle مداره على موضوعات البحث والنظر نفسها! وهو ما يعني أنه لابد من تقييد إطلاقات الطبيعيين في نظرياتهم، الجارية عندهم على الطبيعية المنهجية، بقيود إبستمولوجية صارمة، يقال معها للمنظر الطبيعي: قف عندك، هذه القضية ليست مما يجوز طرحه للنظر الطبيعي ابتداءً، لأن موضوعها لا يصح أن يقال له "طبيعي" من الأساس! وإنما يؤخذ العلم في مثل هذا الموضوع، إن كان مما يطلب أصلا، من طريق الوحي الإلهي وحسب! والرجل في الحقيقة يعتذر لنفسه في مستهل البحث بقوله إن هذا العمل، يعني الدخول في أغوار كل من العلم الطبيعي والعلم الديني بما يكفي لمعالجة هذه القضية واسعة التشعب، ليس مما يقدر هو عليه، وليس يرى أحدا من الناس حوله، لا المتخصصين في الطبيعيات ولا في اللاهوت، قد تأهل لها بما يلزم، ويأسف لذلك، وهذا مما نشكر له الاعتراف به، ولكنه مع ذلك مضى ليقرر ويكتب ويؤصل في المسألة على الرغم من اعترافه بأنه دون الأهلية! كيف وبأي عقل يستجاز النظر في مسألة النشأة، مثلا، نشأة الكون بكليته، ونشأة جميع الأنواع الحية على الأرض، بطرق وأدوات يقوم مبدأ استعمالها من الأساس، قياما كليا على التسليم السابق بأن موضوع البحث لابد أنه "طبيعي" Natural، أي قابل للقياس - نوعا - على جنس المحسوس والمعتاد من أنواع الحوادث على الأرض وفي السماء، في إطار ذلك الحيز الضيق المحدود لتجربتنا البشرية في هذا العالم، عند من يعتقد كما تعتده أنت يا بروفيسور، أن الرب هو الذي خلق السماوات والأرض تحقيقا،

وليس أن قوانين الطبيعة هي التي خلقت كل شيء؟؟ كيف يقال في حوادث النشأة إنها "طبيعية"، أي خاضعة للسنن السببية الناشئة عن الطبائع، ومن ثم يستجاز التوصل إلى فرضها وتصورها والبحث فيها بأدوات النظر في الطبيعيات، دون التأسيس على اعتقاد غيبي مفاده أنه ليس في الوجود إلا الطبيعة والأسباب الطبيعية، وأن جنس السنن الطبيعية تتقدم وجوديا على هذا العالم نفسه؟؟

إن قلت لا إشكال عندي في التأسيس على ذلك الاعتقاد، نقضت مطلبك من أصله وابتدائه، ورجعت على جميع ما قررته في هذا البحث وغيره بالهدم، وإذن فلا معركة أصلا كما تدعي، بين الدين الكتابي والمذهب الطبيعي! وإن قلت أرفض التسليم بهذا الاعتقاد، كما هو المتعين عليك، لزمك أن تقرر إخراج مسألة النشأة هذه من أن تكون موضوعا للتنظير الطبيعي من الأساس، وبالكلية، تقرر ذلك بحزم وصرامة، وأن تعد جميع ما عند القوم في ذلك ضربا من الوهم والتخرص، ومن إعمال القياس العقلي في غير محله! لا أن تقول إن من موضوعات العلوم ما ليس بمحايد دينيا، ثم تمضي لتوازن بين ما في نصوص دينك، وما عند الطبيعيين من نظريات في تلك المسألة الغيبية مطلقة التغييب، التي يجب أن تجزم من الابتداء بأنها لم تكن من جنس الحوادث التي يقال لها "طبيعية"، ويمتنع في العقل أن تكون كذلك أصلا، إلا عند من يعتقد تسلسل الأسباب الطبيعية وأنه ليس في الوجود سوى الطبيعة، من الأزل وإلى الأبد، توازن بين الأدلة الكتابية والأدلة التجريبية وكأنه لا بأس ولا مانع عقلا من طرح المسألة للاستدلال التجريبي، إعمالا للطبيعية المنهجية التي تزعم أنك في حرب معها!!

ولكن واقع الأمر أيها الإخوة الكرام أن المعركة عند الرجل متكافئة، وليست محسومة لصالح السلطان المعرفي لما في الكتاب، كما ينبغي أن تكون عند كل مؤمن بأن كتابه هو كلام الرب

تحقيقا، لسببين يخفى أحدهما على بلانتينغا ولا يخفى الآخر: لأنه متشبع هو نفسه بالتأسيس الأكاديمي الفلسفي اليوناني وبالمنهجية الجدلية السفسطائية التي تعلمها حتى في دراسته الثيولوجية على أيدي من درس عليهم اللاهوت حيث درسه، ولأنه لا يجد في نصوص دينه من الحجية المعرفية (سواء في الثبوت أو في الدلالة) ما يجعله يقول للناس بكل قوة وحزم، هذا هو ما يجب عليكم أن تعتقدوه في هذه القضية وغيرها، فدعكم من تلك الأوهام والتخرصات، وتلقوا العلم في تلك الغيبيات من المصدر المعرفي الوحيد المقبول فيها عقلا!

هو يعلم كما يعلم مخالفوه من الطبيعيين الدهرية أنه ليس لدى القوم مستند صالح لإثبات نسبة هذه الكتب نفسها إلى المسيح نفسه، عليه السلام! فإذا كان غاية البضاعة في ذلك ما يتنازعه المؤرخون فيما بينهم، والأركيولوجيون وخبراء الآثار ومن شاكلهم، في بحث أصل هذه المخطوطة وتلك، والنظر في تاريخ هذا النص وذاك، على تلك الطريقة الواهنة التي لا سند فيها ولا اتصال ولا شيء مما تحصل به المعرفة بالمطلوب، إلا الظنون والأوهام، وكان العيب نفسه يقال في التأويل والدلالة لكل نص من تلك النصوص على ما يعتقد أصحابه أنه معناه، فبأي سلطان يخرج الرجل ليقول لهم دعكم من ظنونكم وأوهامكم، وتعالوا لتنخرطوا معنا في أوهامنا نحن وظنوننا نحن؟؟

لا يملك والحالة هذه إلا أن يقول دعونا نوازن بين نظرياتكم ونظرياتنا موازنة الكفء لكفئه، لنرى أيها أرجح حتى نجعله هو الحق، ونلتزم نحن النصارى بأن نجعله هو مراد ربنا مما في الكتاب في نفس الأمر إذا ترجح لنا! وإذن فلا فرق بين موضوع وموضوع، من حيث كونُه "طبيعيا"، أو قابلا للقياس بصورة ما أو بأخرى على ما في العادة البشرية، ولا خصوصية معرفية للنص الديني لا في غيب ولا في شهادة! الأمر كله نظريات في نظريات، يؤخذ منها

كل أحد ما يأخذ ويرد ما يرد، دونما تهمة أو إساءة ظن! وإذن يلزم ألا يكون لما في تلك الكتب أي قيمة معرفية على الإطلاق، إذ ما دمت توافقهم على أن حوادث النشأة كانت طبيعية نوعا، فلابد أن تكون نظريات الطبيعيين في ذلك هي المقدمة معرفيا على نصوص لا يعلم أحدكم كيف يثبت نسبتها لأصحابها أصلا، فضلا عن أن يكون أي تأويل من تأويلاتها حجة على غيره من التأويلات!! إذا كان منتهى الأمر هو الظنون والأوهام، فللطبيعي الدهري أن يقول: "ظنوني وأوهامي أنا أولى بالقبول من ظنونكم وأوهامكم، فإنني على الأقل أجد ما أربط به بين تلك الظنون والأوهام وبين السنن الطبيعية التي نشهدها ونعايشها في حياتنا اليومية! أما أنتم فتطالبوننا بقبول ظنونكم وأوهامكم لا لشيء إلا لتوهمكم أنها هي كلام ذلك الصانع الغيبي الذي لا نجد ما يدعونا للتصديق بوجوده ابتداء"! فعندما تكون قاعدة الجدال في المسألة، لا إلزام فيها لأحد بشيء، ولا حجية فيها لقول على قول، بداية من مسألة وجود الباري نفسه، كما هو الشأن في نزاع الفلاسفة الذين ينتمي إليهم الرجل وأقرانه من اللاهوتيين وعلماء الدين، ولم يزل غارقا في مجادلتهم بلا حد ولا نهاية، فلا عجب أن تكون هذه هي نهاية المرام، وغاية ما تجد عنده من الإقدام!

ولو أنه صدق وتجرد للحق، واعترف بأن الكتب التي بين يديه لا تقوم بها حجة، لدخل في الإسلام من فوره، هداه الله، وإذن لاتخذ الموقف المعرفي الصحيح في تلك البابة وغيرها، ولقال لهم: حتى لو لم نجد ذكرا لشيء من حوادث النشأة في كتاب منزل من رب العالمين فإنها تظل من أمر الغيب المطلق الذي ليس لكم أن تقتحموه بآلة البحث التجريبي Scientific Method من الأساس، ولن تأتوا فيها مهما عملتم إلا بالوهم والخرافة، لأن رب العالمين لم يخلق الطبيعة نفسها بفعل قوانين الطبيعية، كما توجبه بداهة كل مؤمن بأن للطبيعة

كما نعرفها ربا قد خلقها بعد أن لم تكن! فإنما ركبت جميع الطبائع في موجودات هذا العالم وفي مادته في حوادث خلق تلك المادة نفسها أو بعدها، لا قبلها!

ينقل بلانتينغا بعد ذلك كلام كبار الدراونة المعاصرين في تسفيههم من لا يقبلون نظرية الارتقاء واستهزاءهم بمن يجرؤون في عصرنا هذا على جعلها "مجرد نظرية"، مبديا استياءه من ذلك الموقف وأنه موقف الدهرية الغلاة، وهذا صحيح ولا شك، ولكنه عندما يفسر ذلك بأن النظرية هي الخيار الوحيد المتاح للملحد الدهري ليجيب به عن السؤال المحرج الذي لم يتصوروا له جوابا قبل داروين: "كيف وجدت تلك المخلوقات البديعة كلها إن لم يكن للعالم خالق بالغيب، يخلق ما يشاء ويختار؟"، ويقول إن هذا لا تأثير له على صحتها أو فسادها في نفس الأمر، فهذا منه تقرير فاسد ومتناقض ولا شك! إذ كيف تكون حقيقة النظرية أنها هي مستند الملحد الطبيعي في وضع بديل طبيعي مستساغ للقول بالخلق الإلهي، ومع ذلك لا ترى أنت في مجرد ذلك دليلا على بطلانها ووجوب ردها ردا منهجيا كليا من مبدأ النظر؟؟ هنا يقال لك: النظرية لابد ألا تؤخذ على أنها دعوى واحدة، إما أن تقبل كلها أو ترد كلها، وإنما يجب التفصيل، فنقول بل هي دعوى واحدة كلية، مفادها بإيجاز أن جميع الأنواع الحية إنما نشأت وحدثت بعد أن لم تكن بالتطور عن أصول منحطة، عبر مسيرة طبيعية طويلة تمتد لبلايين السنين!! هذه هي دعوى التطور بإيجاز! ولأنها تجعل نشأة الأنواع عملية طبيعية صرفة، نظير ما نراه في عادتنا من تحولات جينية تقع في أجيال النوع الواحد لأيما سبب كان، ولأن داروين نفسه إنما فرض ذلك القياس الكلي من أجل أن يجد البديل الطبيعي للخلق الإلهي وللغائية الإلهية، فتصبح الطبيعة هي التي تنتخب الأصلح للبقاء تحت شروط القانون الطبيعي، وليس أن الرب هو الذي يخلق ما يشاء ويختار، لما كان الأمر كذلك، لم يكن من عجب أن

يعتنقها دهرية العصر اعتناق العقيدة الدينية التي لا يرتضون لها بديلا، ولا يقبلون من أحد أن يهون من ثبوتها المعرفي قيد أنملة! فهي نظرية دهرية صرفة تقوم على مسلمات الدين الطبيعي من مبدأ النظر والفرض والقياس، ولهذا يتعين علينا أن نردها جملة واحدة، لا أن نقول إنه ينبغي تقسيمها إلى عدة دعاوى مستقلة، والنظر في كل دعوى على حدة، حتى لا نتهم بقلة العلم وبالعجلة في النظر! هذا ما يسلكه من ارتضى لنفسه ذلك المنهج التمييعي الذي انتهى إليه بلانتينغا، وكأنما يريد أن يتوسط بين قصتين متكافئتين معرفيا، أي ليس لإحداهما فضل على الأخرى من حيث مصادر التلقي المعرفي! هذه معرفة وتلك معرفة، والعبرة بالأرجح! مع أن العاقل سوي النفس لا ينبغي أن يرتضي للخبر الإلهي بديلا في موضوع كهذا أصلا! ولا يرى ما يأتي به الطبيعيون من أقيسة فيه إلا ضربا من الخرف والتوهم الذي لا يجوز أن يرفع إلى منزلة العلم ولا إلى الظن الذي يطرح للنظر والترجيح! ولكن هذا هو مربط الفرس: "العاقل سوي النفس"! فالنفس هي محل الآفة على التحقيق وليس اشتباه مصادر التلقي المعرفي بالغيب وما فيه!

يقول بلانتينغا تحت مبحث في المقال ترجم له بقوله "مدى احتمالية صحة التطور The Likelihood of Evolution"

"دعنا نفكر في القضية من منظور نصراني إثباتي صرف، ولكن دعونا الآن نضع جانبا الأدلة التي نجدها في سفر التكوين، أيا ما كانت حقيقتها. فمن هذا المنظور، ما قوة أدلة نظرية التطور؟ أول ما ينبغي أن نراه هو أن عددا من الدعاوى المختلفة العملاقة تدخل تحت المفهوم العالم للتطور. فأولا، لدينا دعوى أن الأرض قد عُمرت عمرا طويلا جدا، ربما ما يقرب من 4.5 بليون عاما، أو دعوى الأرض القديمة، كما يمكن أن نسميها. ثانيا لدينا دعوى أن الحياة

قد تطورت من أشكال متواضعة نسبيا إلى أشكال معقدة نسبيا. ففي البدء كانت هنالك الحياة غير المعقدة نسبيا، أحادية الخلية، ولعلها من النوع الذي تمثله الباكتريا والفطريات الزرقاء، أو ربما نوع أقل تعقدا من هذا لم نعرفه بعد (وعلى الرغم من أن الباكتيريا "غير معقدة" مقارنة ببعض الأنواع الحية الأخرى، إلا أنها في الحقيقة مخلوقات معقدة للغاية)، ثم ظهرت أحاديات الخلية الأعقد، ثم متعددات الخلايا الأقل تعقيدا مما هو سائد الآن، كالديدان البحرية والمرجان وقنديل البحر، ثم الأسماك، ثم البرمائيات، ثم الزواحف، ثم الطيور ثم الثدييات وأخيرا، وعلى رأس العملية كلها، ظهر الإنسان، ولنسمها دعوى التقدم، كما يحلو لنا بني آدم أن نسميها (خلافا لقنديل البحر مثلا، الذي قد تكون له رؤية أخرى بشأن الثمرة التي انتهت إليها تلك العملية). ثالثا، لدينا دعوى الأصل المشترك، وهي أن الحياة نشأت في محل واحدة من الأرض، وأن جميع أنواع الحياة انحدرت وراثيا من تلك الحياة الأولى، وهو الزعم بأنه، وكما يقول سيتفن غولد، هناك شجرة للعائلة التطورية، تربط جميع الأنواع الحية برابط النسب. فوفقا لدعوى الأصل المشترك، فإننا نكون، وبالمعنى الحرفي، أولا د عمومة مع جميع الأنواع الحية، الخيل وشجر البلوط وحتى اللبلاب السام، هم لنا أولا د عمومة، وإن كانوا بعيدين في درجة القرابة. (وهذا أسهل كثيرا على بضعنا أن يتخيله من البعض الآخر). رابعا، لدينا دعوى أن ثمة تفسيرا طبيعيا لذلك التطور للحياة من الأشكال الأقل تعقدا إلى الأعقد، ولنسم تلك الدعوى بالداروينية، لأنه بحسب الاقتراحات الأشهر والأكثر انتشارا فإن الآلية التطورية تكون الانتخاب الطبيعي العامل على الطفرات الجينية العشوائية (على أثر أخطاء في نقل الجينات أو الأشعة فوق البنفسجية أو غير ذلك من الأسباب)، وهذا مماثل لأفكار داروين نفسه. وأخيرا فلدينا دعوى أن الحياة نفسها لابد وأنها

تطورت من مادة ميتة لا حياة فيها، بدون أي فعل إلهي، وإنما بعمل القوانين المعتادة للفيزياء والكيمياء، ولنسم هذا بدعوى النشأة الطبيعية. هذه الدعاوى الخمس، بالطبع تختلف اختلافا مهما عن بعضها البعض. وهي كذلك مستقلة منطقيا في أزواج، فيما عدا الثالثة والرابعة، والثالثة تقتضي الرابعة، على أساس أنك لا يمكنك أن تفرض آلية ما أو تفسيرا ما للتطور بدون أن توافق على أن التطور قد وقع بالفعل. وتركيب تلك الدعاوى الخمس كلها، هو ما أسميه بالقصة التطورية الكبرى، فالأصل المشترك، مع الداروينية (تذكر إن الداروينية ليست مجرد القول بأن ميكنة التطور هي ما فرضه داروين) هو ما يأتي إلى أذهان الأكثرين عادة عند ذكر نظرية التطور. فكيف نفكر في هذه الدعاوى الخمس؟ دعوني أولا أذكركم من جديد بأني لست خبيرا في هذا المضمار، وثانيا، دعوني أقول إن الأدلة الإمبريقية والعلمية لتلك الدعاوى الخمس تختلف اختلافا عظيما في وجهة نظري، كميا ونوعيا. فثمة أدلة ممتازة للقول بأن الأرض قديمة جدا: سلاسل كبيرة من الأنواع المختلفة من الأدلة المتوافقة، بعضها ساقه هوارد فان تيل في كتابه اليوم الرابع. فبالنظر إلى قوة تلك الأدلة، فسنحتاج إلى أدلة قوية على الجانب المقابل، من جهة النص، حتى نقول بصورة معقولة إن الأرض شابة وليست عجوزا مسنة. وثمة أدلة أقل، ولكنها مع ذلك جيدة، في السجل الحفري لإثبات دعوى التقدم النوعي، دعوى أن الباكتيرا وجدت على الأرض قبل الأسماك، والأسماك قبل الزواحف، والزواحف قبل الثدييات، والجرذان قبل البشر. والدعوى الثالثة والرابعة، الأصل المشترك والداروينية، وهي ما يعرف عامة بالتطور، سأرجع إلى ذلك بعد دقيقة. الدعوى الرابعة بالطبع ليست أكثر احتمالية من الثالثة، إذ إنها تشتمل على الثالثة وتفترض آلية لتفسيرها. وأخيرا، فالدعوى الخامسة، وهي دعوى الأصل الطبيعي للحياة، أي أنها وجدت في الأرض

بسبب طبيعي. هذه تبدو لي أنها لا تزيد على أن تكون مجرد طنطنة متعجرفة، فبالنظر إلى حالتنا المعرفية الحالية، فأنا أعتقد أنها أقل احتمالية بكثير جدا، بالنظر إلى أدلتنا الحالية، من عكسها. داروين كان يراها دعوى لا أساس لها، وقد أظهرت الاكتشافات من بعد داروين وخصوصا في مجال البيولوجيا الجزيئية، أنها أقل احتمالية مما كانت عليه في أيام داروين. ولست أقدر على تلخيص الأدلة والصعوبات هنا.

قلت قوله "دعنا نفكر في القضية من منظور نصراني إثباتي صرف، ولكن دعونا الآن نضع جانبا الأدلة التي نجدها في سفر التكوين، أيا ما كانت حقيقتها. فمن هذا المنظور، ما قوة أدلة نظرية التطور؟ " هذا يدل على خواء الجعبة اللاهوتية في الباب عند التدبر. إذ ما هو المنظور النصراني الإثباتي في مسألة الخلق والنشأة ومن أين يأتي إن لم يقم على ما في نصوص كتب النصارى؟؟ كيف يكون الرجل بصدد تقرير الموقف النصراني من القضية، وهو مع ذلك يضع جانبا الأدلة التي يجدها في سفر التكوين؟ قرأت هذا الكلام، فقلت في نفسي لعله يقصد: دعونا نؤسس موقفنا على ما ينبغي أن يكون عليه كل من يؤمن بأن هذا العالم خلق بعد أن لم يكن، هو ومادته وطبائعها وسنن تلك الطبائع، ما عرفنا منها وما لم نعرف! دعونا نبحث في معقولية طرح هذه المسألة للتنظير الطبيعي من مبدأ النظر، في ضوء هذه الحقيقة التي نؤمن بها! ولكن هذا بكل أسف لم يكن. انخرط الرجل بعد هذا التقديم في تقسيم النظرية إلى أجزاء، حتى لا يخرج في نهاية البحث بموقف يسقطها فيه كلها، فيتهم بذلك بالجهل وخفة العقل، ويوضع عند رؤوس الأكاديمية الطبيعية الغربية في فئة القائلين بالأرض الشابة Young Earthers ومن شاكلهم! وهذا ما تلمسه فعلا عندما تجده يفتتح تقسيم أجزاء النظرية بقوله: " أول ما ينبغي أن نراه هو أن عددا من الدعاوى المختلفة العملاقة تدخل تحت

المفهوم العالم للتطور. فأولا، لدينا دعوى أن الأرض قد عُمرت عمرا طويلا جدا، ربما ما يقرب من 4.5 بليون عاما، أو دعوى الأرض القديمة، كما يمكن أن نسميها."، فكأنما يريد أن يقول، دعوني أبدأ أولا بتبرئة نفسي من النسبة إلى هؤلاء ببيان أني لا مانع عندي البتة من قبول دعوى أن عمر الأرض يمتد لبلايين السنين كما هو الاعتقاد الراسخ اليوم والمعتمد في جميع الأكاديميات الطبيعية في العالم، ثم ننظر بعد ذلك في غير ذلك مما أجمعت عليه الأكاديميات كذلك، وما دونه في المنزلة من دعاوى النظرية، لنقرر موقفنا في كل واحدة منها على حدة! فمحرك القسمة من الأساس ليس هو ما أوحى به تقريره في مسألة الطبيعية المنهجية، ومسألة التفريق بين أنواع العلوم الطبيعية العصرية بالنظر إلى موضوعاتها وأنواع الأسئلة التي تقتحمها بالبحث والتنظير! وإنما هو في حقيقة الأمر، النظر السوسيولوجي المضمر فيما يترتب على نقد النظرية من موقف أكاديمي وثقافي وجماهيري تجاه صاحب النقد! ما اختلف فيه القوم فهو ضعيف باعترافهم، وإذن فلا حرج علينا إن أسقطناه لصالح شيء نجده عندنا في كتبنا! وإلا فما في الكتب يؤول ويلفق تلفيقا ليوافق ما اتفقوا عليه! هذا هو معيار العلم الطبيعي النصراني Christian Science الذي يقدمه الرجل في هذا المقال. مع أن الدعوى الثانية التي جعلها هي الجزء الثاني من أجزاء النظرية في قوله: " ثانيا لدينا دعوى أن الحياة قد تطورت من أشكال متواضعة نسبيا إلى أشكال معقدة نسبيا. ففي البدء كانت هنالك الحياة غير المعقدة نسبيا، أحادية الخلية.. إلخ" وهذه الدعوى في حقيقة الأمر هي أصل فكرة التطور أو مبدأ التطور الذي جعله الدراونة بمنزلة الجاذبية وكروية الأرض من حيث قوة الثبوت المعرفي!! وهو تلك الدعوى التي من ردها، رد النظرية كلها بجميع صورها، لأنها هي معنى التطور نفسه الذي تفنن القوم في تصور آلياته وكيفياته ومساراته وتاريخه .. إلخ! وكلام

الرجل في هذه الفقرة يوحي بأنه لا يقبل هذه الدعوى، فهو يقرر أن جميع الأنواع التي يصفها الدراونة بأنها "بسيطة" Simple أو "غير معقدة"، قد ثبت في إطار البيولوجيا الجزيئية المعاصرة أنها أعقد بكثير مما يمكن للعقل البشري أن يتصوره! وإذن فهو يرفض معنى أن الحياة بدأت من أصول منحطة ثم لم تزل تتطور! وإذن فما وجه هذا التقسيم العجيب لدعاوى النظرية؟ المتوقع الآن أن يصرح بكل حزم بأن النظرية باطلة ولا مدخل لقبول شيء منها! أليس كذلك؟

نعم ليس كذلك! فما دام لا يرفض المبدأ نفسه، مبدأ الخلق بالترقية والتطوير على بدايات منحطة هذا، على أساس ما فيه من تنقص لرب العالمين وحط على كماله الواجب ضرورة وبداهة، وإنما يرفضه لأن الكشوف الحديثة أظهرت كذا وكذا، فظهر من التعقيد الحيوي والوظيفي في الكائنات أحادية الخلية ما لم يكن يظهر من قبل، فهو إذن على استعداد لأن يرجع لقبوله غدا إن رأى عند القوم من التفسيرات الداروينية ما يعجبه، ولا يقتضي - مع ذلك - نفي وجود صانع ما لتلك القصة كلها من أولها لآخرها (مع أن أصول النظرية ومقدماتها الفلسفية تقتضي ذلك في الحقيقة كما بينا، لا كما يزعم)! فلا إشكال عنده في قبول النظرية على أيما صفة تجري أسطورتها، ما دام يرى أنه لا مانع من حملها كلها على أنها هي الطريقة التي خلق الرب بها ما خلق!

قوله: "رابعا، لدينا دعوى أن ثمة تفسيرا طبيعيا لذلك التطور للحياة من الأشكال الأقل تعقدا إلى الأعقد، ولنسم تلك الدعوى بالداروينية، لأنه بحسب الاقتراحات الأشهر والأكثر انتشارا فإن الآلية التطورية تكون الانتخاب الطبيعي العامل على الطفرات الجينية العشوائية (على أثر

أخطاء في نقل الجينات أو الأشعة فوق البنفسجية أو غير ذلك من الأسباب)، وهذا مماثل لأفكار داروين نفسه."

قلت: لا وجه لفصل هذه المسألة في جزء مستقل، لأن النظرية أصلا إنما هي نظرية طبيعية، تقوم على الطبيعية المنهجية، ولولا هذا ما قيل لا بترقي من الأحط إلى الأرقى، ولا بآلية طبيعية مفترضة لذلك الترقي، وإذن لما قيل فيها إنها نظرية علمية أصلا! لولا مبدأ التفسير الطبيعي لأصل الحياة، ما وقعت النظرية في نفس داروين ولا بحث لتلك الدعوى الدهرية الواهية (أن الأنواع ترقت من أصول منحطة) عن تفسير "علمي" تصير به نظرية! فإن كان المراد من إفراد هذه المسألة بقسم مستقل أن ننظر هل يمكن أن نرد هذه الدعوى مع البقاء على ما سواها من أجزاء النظرية، فهذا وهم وسراب، لأنها كتلك الأخرى التي علقنا عليها آنفا، لا قيام للنظرية بدونها! لابد أن تعتقد أن الحياة قد ترقت من أصل منحط، وأن ذلك إنما وقع بأسباب طبيعية يمكن تفصيلها والبحث فيها بأدوات البحث والنظر الطبيعي، وإلا فلا تطور ولا نظرية للتطور! ولكن لأن الرجل يضع نصب عينيه وهو يكتب هذا الكلام، نظريات أخرى غير معتمدة أكاديميا، مما وضعه بعض النصارى، تعتمد فيها أسباب يمكن مبدئيا أن تكون متجاوزة للطبيعة (فيما يوهم به أصحاب التصميم الذكي أنفسهم وأتباعهم)، وهي نظريات تتبنى الآليات الداروينية بحذافيرها وتضيف إليها، اضطر الرجل لأن يفتح الباب لإدخال آليات "غير طبيعية" للتطور المزعوم عند من يثبته، سواء من باب الإضافة إلى الآليات الطبيعية المعروفة أو الإبدال التام عند من يرى ذلك.

قوله: " وثانيا، دعوني أقول إن الأدلة الإمبريقية والعلمية لتلك الدعاوى الخمس تختلف اختلافا عظيما في وجهة نظري، كميا ونوعيا. فثمة أدلة ممتازة للقول بأن الأرض قديمة جدا: سلاسل

كبيرة من الأنواع المختلفة من الأدلة المتوافقة، بعضها ساقه هوارد فان تيل في كتابه اليوم الرابع. فبالنظر إلى قوة تلك الأدلة، فسنحتاج إلى أدلة قوية على الجانب المقابل، من جهة النص، حتى نقول بصورة معقولة إن الأرض شابة وليست عجوزا مسنة." قلت هذا هو جواز المرور الأكاديمي. أدلة ممتازة للقول بأن الأرض قديمة جدا. مع أن إثبات عمر الأرض من طريق البحث الطبيعي هو مطلب يقوم بالأساس، قياما كليا، على الطبيعية المنهجية ومسلمات الطبيعية المنهجية، التي لا يعرف معها المنظر حدا لطرد النظام الطبيعي الحالي على ما يجده عليه في جهة الماضي، فهذا من مسلمات الدين الطبيعي كما بينا في غير موضع. صاحب الاعتقاد الطبيعي هو وحده من اتخذ من فرضية الاطراد والرتابة التامة للنظام الطبيعي في جهة الماضي بلا حد ولا نهاية، مسلمة اعتقادية كبرى لا يفتح الباب لمجرد احتمال أن تكون باطلة لا صحة لها، لا لشيء إلا لأنه يعلم أنه لو فعل، لأغلق على نفسه الباب لوضع النظريات والدعاوى القياسية في تاريخ العالم وقصة نشأته إن أثبت له نشأة، وتطوره إن أثبت له تطورا! ولو كان بلانتينغا خبيرا بفلسفة العلم الطبيعي كما صرح بأنه ليس كذلك، لعلم أن هذه الطرق المختلفة لإثبات عمر الأرض تقوم كلها على فرضيات اعتباطية تحكمية محضة، وأن السبب في توافقها إنما هو عمل المنظرين على التوفيق بين تلك الفرضيات في جميع النظريات التي يستند إليها في عمل تلك الطرق نفسها، كالفرضيات الأساسية التي يتأسس عليها استعمال جميع طرق تقدير الأعمال الراديومترية Radiometric Dating Methods مثلا. مع أننا نعلم فيما نعلم على سبيل المثال، أن الأرض قد غمرها طوفان خارق للعادة في فترة من فترات تاريخها، أغرقها كلها من أولها لآخرها، فلا يمكن التسليم باطراد نظام الأرض على ما هو عليه في تكون طبقاتها الجيولوجية إلى ما قبل ذلك الطوفان، ولا يجوز إخضاعه هو نفسه للفروض

الجيولوجية ليكون تفسيرا لبعضها كما سلكه بعض أهل الكتّاب الغربيين فيما يسمى بجيولوجيا الطوفان Flood Geology، لأن الحادث من أوله إلى آخره خارق للطبيعة وليس جاريا على السنن المعتادة في أنواع الطوفان والفيضان وهذه الأشياء، كما هو واضح! ومع ذلك تأمل كيف قبل البروفيسور من القوم طردهم الميتافزيقي لمبدأ التويرة الواحدة أو الاستمرارية المطلقة Uniformitarianism بما لا نجد له أساسا عندهم إلا اعتقادهم الطبيعي الدهري الصرف، في إطار الطبيعية المنهجية! وظني أنه تأمل في هذه المسألة من قبل وأنها مرت عليه، لأنه ليس قليل الحظ من الاطلاع في فلسفة العلم وفي نظريات النصارى المعاصرين في العلوم الطبيعية، ولكنه مع ذلك قد اختار أن يحكم تغليق ذلك الباب حتى لا يرجع على نفسه بالتهمة بخفة العقل وقلة العلم! لسنا نقبل من النصارى ولا غيرهم استعمال الطريقة الطبيعية في إثبات الطوفان أو في إعادة تعديل قصة تاريخ الأرض الجيولوجي بناء عليه، ولسنا ندعو الناس إلى ذلك، وإنما ندعوهم لأن يقبلوا حدود هذه الآلة التي أساؤوا جميعا إليها أعظم الإساءة، إذ أدخلوها فيما ليس لها عمل فيه أصلا! ليس في آلة العلم الطبيعي ما يوصل به إلى تقرير عمر الأرض من مبدأ النظر، ولا تستعمل تلك الآلة في هذا الباب إلا بالتسليم بمسلمات الطبيعية المنهجية التي يفترض في بلانتينغا أنه يريد من هذه المقالات أن يحرر للنصارى الموقف الصحيح منها، حتى يكون علمهم الطبيعي مبنيا على مسلمات الاعتقاد، وليس مصادما لها. فقوله إننا سنحتاج إلى أدلة قوية من النص من أجل أن نرد تلك الأدلة القوية المزعومة على قدم الأرض، هذا يدلك على أحد أمرين، أحلاهما مر! فإما أنه لم يتأمل أبدا في الأصول الفلسفية الأولى التي تقوم عليها دعاوى الطبيعيين في تلك البابة، وإما أنه قد تأمل فيها بالفعل، ولكنه اختار عمدا أن يقبل فيها منهم ما يرده عليهم في غيرها من مسلمات الطبيعية المنهجية

القائمة لدى القوم قياما كاملا على التسليم الاعتقادي الصرف Faith Based Presumptions! حتى عندما يتكلم الرجل في نقد أمثال تلك الدعاوى الغيبية العريضة الواهية، والمصادمة للفطرة والبداهة، لا يجد إلا أن ينقدها عليهم بتطبيق المنطق الاحتمالي Probability! يقول "وأخيرا، فالدعوى الخامسة، وهي دعوى الأصل الطبيعي للحياة، أي أنها وجدت في الأرض بسبب طبيعي. هذه تبدو لي أنها لا تزيد على أن تكون مجرد طنطنة متعجرفة، فبالنظر إلى حالتنا المعرفية الحالية، فأنا أعتقد أنها أقل احتمالية بكثير جدا، بالنظر إلى أدلتنا الحالية، من عكسها."

قلت: فما المتوقع أن يحدث غدا لحالتنا المعرفية، بحيث تزداد "احتمالية" هذه المسألة عندنا يا بروفيسور، هداك الله؟ ما نوع الأدلة التي يجوز عندك مبدئيا أن تحصل لنا في المستقبل، بحيث إذا حصلت، قويت احتمالية أن تكون الحياة قد نشأت على الأرض بتفاعلات كيميائية وبيولوجية؟؟ أن ترى شيئا ميتا تدب فيه الحياة في معمل من المعامل على أثر تفاعل كهروكيميائي، على غرار ما فعله ميلر وأوري في تجربتهما الشهيرة مثلا؟ وهل هذا مما يجوز في فطرتك واعتقادك أن يقع أصلا يا بروفيسور؟ هذه المسألة مما يدخل في الإمكان العقلي لديك، فضلا عن الإمكان الفيزيقي، أن تخلق الحياة بين أيدينا في يوم من الأيام، أو أن نكتشف تفاعلا كيميائيا معينا يكون هو المسؤول عن خلق الحياة في الأشياء الميتة؟ ما هذا الانبطاح؟؟

وأنا أتساءل، إذا كان بلانتينغا يقبل تطبيق المنطق الاحتمالي فيما يتجاوز حدود العادة البشرية تجاوزا تاما (وهو ما بينا في غير موضع فساده عقلا)، فلماذا لم يخطر بباله أن يقول إن احتمالية أن يكون تاريخ الأرض قد مضى مضيا رتيبا على وتيرة واحدة دون أن تقع أي كوارث

تنسف العملية التطورية الداروينية المزعومة بالكلية عبر مئات الملايين من السنوات، وهي تلك العملية المفترض فيها أنها تقوم قياما كليا على الطفرات العشوائية التي لا تلتزم كل طفرة منها بأن تقع قبل أن تعاني المنظومة الحيوية كلها من الانهيار بسبب الانقراضات التي يراد منا أن نعتقد أنها هي الأصل في جميع ما ظهر على الأرض من الأنواع أو مما لم يبلغ حتى أن يصير نوعا حتى ينقرض، هذه الاحتمالية تكاد تساوي الصفر المطلق؟؟ لو قال هذا الكلام على سبيل التنزل لقبلناه منه، وإذن للزمه أن يرد جميع نظريات القوم في تقدير عمر الأرض نفسها كما لا يخفى، لأنها تقوم على التسليم باطراد تام ووتيرة واحدة لا تكسرها الكوارث ولا تغيرها النوازل الكونية الكبرى! فلماذا قبل منهم هذا الطرد بهذه الثقة والحال كما ذكرنا؟ لا جواب إلا أن تكون هي العاقبة الاجتماعية الوخيمة Social Outcome المترتبة على التشكيك في مسألة الأرض القديمة هذه! فأنت إن أردت أن يحكم عليك بالجهل والسخافة وخفة العقل فلا عليك إلا أن تختار واحدة من بضع دعاوى بشأن الأرض: إما أن تقول بأنها ساكنة لا تدور حول الشمس، أو تقول بأن عمرها لا يجاوز عشرة آلاف سنة، أو تقول بأنها مجوفة وليست مصمتة، أو تقول بأنها مسطحة وليست كروية! ولا شك أن هذه الأخيرة محض سخف وجهالة، وإن كنت وجدت بكل أسف، من المسلمين من ينتصر لها ويقول إن الشرع يدعمها، والله المستعان! لكن القصد أن كل دعوى بشأن الأرض تخرم أو تخالف مبدأ الطرد المطلق لنظام الطبيعة في جهات الزمان والمكان (المبدأ الكوزمولوجي ومبدأ الاستمرارية) فهي سخافة وعدوان على العلم، من مبدأ الطرح، لا فرق بينها وبين دعاوى الدجالين والمنجمين والمشعوذين، لا لشيء إلا لأنها تخالف مسلمات الطبيعية المنهجية التي شيدوا عليها من بنيان الخرافة ما لا يحصيه ولا يحيط به إلا باريهم سبحانه!

لهذا لزم أن يبدأ بلانتينغا كلامه بالشهادة لمسألة الأرض القديمة بأنها قوية في أدلة الإثبات، لا يتطرق إليها من أدلة الكتاب النصراني ما يعدل تلك القوة. والواقع، أن كتابهم كما أسلفنا، ليس في شيء من نصوصه أي قوة على الإطلاق، ولا يقوى بلانيتنغا ولا غيره على أن يأتي بنص معين من سفر التكوين أو غيره من أسفار الكتاب ليقول إن في هذا النص ما يوجب علي أن أرد عليكم هذه النظرية أو تلك، مهما كانت ضعيفة مستضعفة عند القوم وبشروطهم وآلاتهم في الترجيح، لأن الأمر كما ذكرنا، أنه ليس لتلك النصوص فهم مرجعي سلفي متصل الإسناد، بحيث يقال لمن خالفه أنت مبتدع، قد أحدثت في فهم كتابنا ما لم يسبقك إليه أحد! وما دام الأمر كذلك، فلا حجية لفهم على فهم في أي من تلك النصوص إذا اختلفوا فيها! أي لا يترجح منها شيء على شيء إلا إن اتفق لنص من النصوص أن أجمع عليه القوم ولم يعرف منهم مخالف في فهمه، وهذا لا يكاد يوجد أصلا! ولكن حتى على هذه الحالة البائسة التي هم عليها، فلا يلزم النصراني أن يقبل من الطبيعيين نظرياتهم في تلك البابة، لماذا؟ لأنها غيب مطلق، والوحي وحده هو المصدر المعتبر في بناء المعارف في ذلك! فإن لم يتمكنوا من استخراج معرفة من نصوصهم، ولو على أضعف درجات الظن وأوهاها، فلابد أن تبقى نظريات الطبيعيين في نفس الأمر معدودة من الوهم والخرافة، وألا يرفع أحدهم بها رأسا ولا يعاملها إلا كما يعامل روايات ما يسمى "بالخيال العلمي" على أحسن الأحوال!

الجزء الرابع

ثم يقول بلانتينغا [7]:

---

[7] *There is a connected issue in the same area, but with a different twist. Prominent writers in the scientific community--for example, Dawkins, Futuyma, Gould, Provine, Simpson, and others--unite in declaring that evolutionary biology shows that there is a substantial element of randomness or chance involved in the origin and development of the human species; therefore, human beings (so they claim) have not been designed by God or anyone else. Gould writes that before Darwin, we thought that a benevolent God had created us. After Darwin, though, says Gould, we realize that:*

No intervening spirit watches lovingly over the affairs of nature (though Newton's clock-winding god might have set up the machinery at the beginning of time and then let it run). No vital forces propel evolutionary change. And whatever we think of God, his existence is not manifest in the products of nature.

Gould's sentiments are stated more clearly by Futuyma:

*By coupling undirected, purposeless variation to the blind, uncaring process of natural selection Darwin made theological or spiritual explanations of the life processes superfluous. Together with Marx's materialistic theory of history and society and Freud's attribution of human behavior to processes over which we have little control, Darwin's theory of evolution was a crucial plank in the platform of mechanism and materialism--of much of science, in short--that has since been the stage of most Western thought.*16

Clearer yet, perhaps, is George Gaylord Simpson:

Although many details remain to be worked out, it is already evident that all the objective phenomena of the history of life can be explained by purely naturalistic or, in a proper sense of the sometimes abused word, materialistic factors. They are readily explicable on the basis of differential reproduction in populations (the main factor in the modern conception of natural selection) and of the mainly random interplay of the known processes of heredity. ...Man is the result of a purposeless and natural process that did not have him in mind. 17

The same claim is made by Richard Dawkins:

All appearances to the contrary, the only watchmaker in nature is the blind forces of physics, albeit deployed in a very special way. A true watchmaker has foresight: he designs his cogs and springs, and plans their interconnections, with a future purpose in his mind's eye. Natural selection, the blind, unconscious automatic process which Darwin discovered, and which we now know is the explanation for the existence and apparently purposeful form of all life, has no purpose in mind. It has no mind and no mind's eye. It does not plan for the future. It has no vision, no foresight, no sight at all. If it can be said to play the role of watchmaker in nature, it is the blind watchmaker. 18

These writers, therefore, unite in declaring that modern evolutionary thought has shown or given us reason to believe that human beings are, in an important way, merely accidental; there wasn't any plan, any foresight, any mind, any mind's eye involved in their coming into being. But of course no Christian theist could take that seriously for a moment. Human beings have been created, and created in the

ثمة قضية ذات صلة في نفس المجال، ولكن لها اعتبار آخر. فإن كتّابا كبارا في المجتمع العلمي – أمثال دوكينز وفوتوياما وغولد وبروفاين Provine وسيمبسون وآخرين – قد اتفقوا على إعلان أن البيولوجيا التطورية تظهر أن ثمة جانبا ضخما من العشوائية أو الصدفة في نشأة وتطور النوع البشري، وإذن فالبشر (في زعمهم) لم يخلقهم الإله أو أحد غيره. كتب غولد قائلا "إن قبل داروين، كنا نظن أن إلها رحيما هو الذي خلقنا. ولكن بعد داروين، يقول غولد، أدركنا

---

image of God. No doubt God could have created us via evolutionary processes; if he did it that way, however, then he must have guided, orchestrated, directed the processes by which he brought about his designs.

Now again (as with Simon) we might say that strictly speaking, when these people make such declarations, they are neither speaking as scientists nor doing science. They are instead commenting on science, drawing conclusions from scientific results--conclusions that don't follow from the scientific results themselves, requiring extra and extra-scientific (perhaps philosophical) premises. Perhaps this is true, although it has become increasingly difficult to draw a sharp line between science and such other activities as philosophical reflection on science. Whether or not what we have here is science strictly so-called, however, isn't really the important question for my present purposes. Whether or not what we have here is science or only parascience, we have deep involvement with the spiritual struggle Augustine points out. In either case that involvement must be noted and dealt with by the Christian intellectual community, and in particular by the part of the Christian intellectual community involved in the science in question.

أنه ليس ثمة نفس متدخلة تقوم بأمر الطبيعة بعناية ومحبة (وإن كان إله نيوتن الذي ملأ زنبرك الساعة، قد يكون أعد الآلة في بداية الزمان ثم تركها لتعمل وحدها). ليس ثمة قوى حية تحرك عملية التغير الارتقائي، وأيا ما كان ما نظنه بشأن الإله، فإن وجوده ليس ظاهرا في نواتج الطبيعة." ويعبر فوتوياما عن شعور غولد هذا بعبارة أوضح فيقول: "لقد صير داروين التفسيرات الثيولوجية أو الروحية لصور الحياة أمرا عديم القيمة، لما زاوج بين التنوع الأعمى غير الموجه عديم الغاية، وبين عملية الانتخاب الطبيعي الخالي من العناية والاهتمام. فإلى جانب نظرية ماركس المادية للتاريخ والمجتمع، وعزو فرويد السلوك البشري لعمليات لا نملك عليها سلطانا أو حكما، فقد كانت نظرية داروين في التطور لوحا أساسيا في بناء منصة المذهب الميكانيكي والمادي – في كثير من العلم، إيجازا – التي صارت ولم تزل هي مسرح أكثر الفكر الغربي". ولعل أوضح من هذا قول جورج غايلورد سيمبسون: "على الرغم من أن كثيرا من التفصيلات تبقى مفتوحة لمزيد من العمل، إلا أنه قد ثبت بالفعل أن جميع ظواهر تاريخ الحياة الموضوعية يمكن أن تفسر بعوامل طبيعية محضة، أو باستعمال أدق للعبارة التي يساء استعمالها أحيانا، عوامل مادية محضة. فقد صار من الممكن تفسيرها كلها على أساس من تفاضليات التناسل في تعدادات الأنواع الحية (وهو العامل الأساسي في التصور المعاصر لعملية الانتخاب الطبيعي) ومن التداخل العشوائي للعمليات المعروفة للوراثة.. فالإنسان إنما هو نتاج عملية طبيعية عديمة الغاية، لم يكن هو جزءا من مخططها." والدعوى نفسها ينهض بها ريتشارد دوكينز إذ يقول: "على الرغم من كون الظواهر كلها توحي بالعكس، إلا أن صانع الساعات الوحيد في الطبيعة إنما هو القوى الفيزيائية العمياء، التي، مع ذلك، قد عملت بصورة مخصوصة للغاية. فإن صانع الساعات الحقيقية لديه تصور سابق لما يفعل. فهو يصمم أجزاء الساعة وقد

خطط بالفعل للعلاقات الرابطة فيما بينها سلفا، مع غرض مستقبلي في ذهنه. الانتخاب الطبيعي، تلك العملية الآلية العمياء عديمة الوعي التي اكتشفها داروين، والتي نعرف الآن أنها هي تفسير وجود الحياة وهيئتها التي تبدو أن لها غاية ما، ليس لديها غاية في الذهن. ليس لديها ذهن أصلا. ليست تخطط للمستقبل، وليس لديها رؤية ولا تصور ولا بصر على الإطلاق. فإن كان يمكن أن يقال إنها لعبت دور صانع الساعات في الطبيعة، فإنما هو صانع الساعات الأعمى."

هؤلاء الكتّاب، إذن، يتفقون على إعلان أن الفكر التطوري المعاصر قد بين لنا أو أعطانا أسبابا لنؤمن بأن البشر، وبصورة أساسية، ليسوا إلا مجرد حوادث (فيزيائية)، لم يكن ثمة خطة ولا تصور سابق ولا أي ذهن أو عقل يمكن أن يكون له دخل في ظهورهم في الوجود. ولكن بالطبع فلا يمكن أن يحمل المثبت النصراني هذا الكلام على محمل الجد ولو لوهلة واحدة. فلا شك أن الإله من الممكن أن يكون قد خلقنا من خلال عمليات تطورية: ولكن إن كان قد فعل ذلك بالفعل، فلابد أنه وجه الأمر ونظمه وضبط العمليات كلها التي أخرجت تصاميمه في النهاية. ومن جديد، وكما مع سايمون، يمكن أن نقول إنه عندما يعلن هؤلاء أمثال تلك الإعلانات، فإنهم لا يتكلمون كلام علماء ولا كلام من يمارس العلم. وإنما يعلقون على العلم، يستنتجون التصورات من النتائج العلمية، تصورات لا تقتضيها تلك النتائج العلمية نفسها، بل تتطلب مقدمات فائقة للعلم (أو بالأحرى فلسفية). لعل الأمر كذلك، على الرغم من أنه قد بات من الصعب (الذي لا يزداد إلا صعوبة) أن يرسم خط صارم يفصل بين العلم وتلك الأنشطة الأخرى كالتأملات الفلسفية في العلم. وليس السؤال المهم لهذا البحث في الحقيقة هو ما إذا كان ما بين أيدينا علما (على الاصطلاح الدقيق) على الحقيقة أم لا. فسواء كان

ما بين أيدينا علما أو مجرد نشاط ذهني موازي للعلم، فإن لدينا لا محالة انخراطا في الصراع الروحي الذي أشار إليه أوغسطين. وفي جميع الأحوال فإن هذا الانخراط لابد من بيانه ومعالجته على أيدي المثقفين النصارى، وبخاصة، على أيدي المفكرين النصارى الممارسين للعلم الطبيعي محل النظر."

قلت: قدمنا وبينا فيما مر أن بلانتينغا متذبذب لا يريد أن يحسم لنفسه موقفا كليا صارما من نظرية التطور يقول إنها خرافة كلها من بابها (أي من مبدأ تكلف النظر التجريبي في هذه القضية عقلا)، مع أنه اقترب من ذلك في غير موضع، ولا يرى شيئا عند النصارى يوجب عليهم أن يردوها جملة وتفصيلا، لا من جهة ما تقتضيه من نسبة النقص والجهل وسوء التصرف لرب العالمين سبحانه، ولا من جهة ما تصادمه مصادمة مباشرة مما جاءت به الرسل من قصة خلق آدم عليه السلام على الأقل. وقد بين فيما مر معك التزامه بقانون أوغسطين في التأويل، الذي لا تطبيق له على نظرية قد صارت في العرف الأكاديمي الغربي العام بمنزلة حجر الزاوية في علم البيولوجيا المعاصر، إلا أن تقبل النظرية إجمالا، ويسلم بها ولو بوجه دون وجه، ثم يؤسس فهم النص والاعتقاد في صفات الباري وأفعاله على ما يقتضيه ذلك التسليم، أيا ما كان ذلك المقتضى، وإن انتهوا إلى إنزال أسفار كاملة منزلة المجاز! تأمل قوله: " فلا شك أن الإله من الممكن أن يكون قد خلقنا من خلال عمليات تطورية: ولكن إن كان قد فعل ذلك بالفعل، فلابد أنه وجه الأمر ونظمه وضبط العمليات كلها التي أخرجت تصاميمه في النهاية." قلت: أبدا، ليس من الممكن ولا من الجائز عقلا، عند من سلمت فطرته من عبث الفلاسفة، أن يكون رب العالمين سبحانه، المستحق للكمالات كلها بضرورة العقل والفطرة، قد خلق الأنواع الحية بالتطوير من أصول منحطة، كما جاءت به النظرية!

فالذي ينزع العشوائية من النظرية، كما يميل إليه بلانتينغا في بعض المواضع (وهو ما يقال له التطور الموجه)، ويبقي متمسكا مع ذلك بدعوى الترقي evolution من الأحط إلى الأرقى (تلك الدعوى التي مر معك إيماء الرجل وتعريضه بأنه لا يسلم بها، لما يقول إن البيولوجيا الجزيئية العصرية قد كشفته من التعقد البالغ في الكائنات أحادية الخلية)، هذا ينتقل بالرب الذي يثبته من أن يكون هو صانع الساعات الأعمى الذي يثبته دوكينز، الذي لا غاية له ولا خطة ولا علم ولا ذات تريد وتفعل أصلا، إلى أن يكون صانعا له غاية في نفسه، إجمالا، ولكنه لا يصل إليها إلا بالتجربة والخطأ، والترقية بعد الترقية، والتعديل والتحسين، عبر ملايين بل بلايين السنين، سبحان الله وتعالى عن جميع ذلك علوا كبيرا! فبلانتينغا في الحقيقة لا ينفي العشوائية لكونها نقصا في حق الله تعالى إن قيل إن الرب يخلق بها (وقد أثبتها دمبسكي وبيهي وغيرهما من أصحاب التصميم الذكي كما أطلت النفس في بيانه في المعيار، ويأتي الكلام عليه في محاضرات القناة فيما بعد إن شاء الله تعالى)، وإنما ينفيها لأنه يظن أن الدهرية الطبيعيين قد أقاموها بخصوصها بديلا لرب العالمين في الخلق والتكوين! مع أن واقع الأمر أن جميع عناصر النظرية ومبدأ النظر نفسه في هذا الباب يقوم على مسلمات الدين الطبيعي والطبيعية المنهجية التي كتب ما كتب من أجل التحذير منها، أي اعتقاد أن الطبيعة هي التي تخلق على غير مثال سابق، وتدبر ما خلقت بلا غاية ولا حكمة ولا علم ولا شيء! فالعشوائية التي يعترض عليها بلانتينغا، لا يترتب على إسقاطها إسقاط الأصل الدهري الذي تقوم عليه الأسطورة الداروينية كما يدعي هو وعموم القائلين بالتطور الموجه أو التطور الإثباتي Theistic Evolution كما يسمونه. وقد بينت في معيار النظر في باب الرد على الدكتور عمرو شريف أن "المصمم" الذي يثبتونه، يلزمهم أن ينزلوه منزلة الصانع المخلوق الذي لا يدري كيف يصل

إلى أحسن ما يرام من أول الأمر، بل يصنع المخلوق وهو لا يدري هل تنتخبه الطبيعة أم لا، فإن انتخبته بقي وتناسل وصار نوعا حيا، وإلا هلك! وإذن يجد نفسه مضطرا لأن يعدل عليه بطفرات وراثية تجعله أعقد وأكمل وأحسن مما كان! فالخلية الأحادية منحطة غاية الانحطاط في الاعتقاد الدارويني مهما ثبت فيها من تعقد كيميائي أو بيوفيزيائي يذهل عقول الأسوياء، لماذا؟ لأن مفهوم الارتقاء نفسه Evolution الذي زعموه حقيقة ثابتة ثبوت الجاذبية الأرضية، لا قيام له إلا على إثبات أصول منحطة نشأت منها الأنواع الأخرى بالتطور! تنوع واسع عظيم في الأنواع الحية يعد بالملايين في البر والبحر والجو (قريب من تسعة ملايين نوعا)، كيف تخترع له تفسيرا طبيعيا دهريا، يجري بقياس ما على شيء مما في العادة، مما يجري تحت سنن الطبيعة المعتادة؟ لو قلت إن هذه الأنواع كلها نشأت دفعة واحدة، ملايين الأزواج من الأنواع في البر والبحر والجو تنشأ ثم تتناسل وتنتشر دفعة واحدة، امتنع أن تقيم دعواك تلك على أي قياس طبيعي كما هو واضح! وهذا شرط الدين الطبيعي وركنه وعموده، تنحية الفعل الإلهي بالكلية، وجعل جميع الحوادث التي وقعت في الماضي إلى الأزل والتي ستقع في المستقبل إلى الأبد، وفي كل مكان، من جنس واحد، جنس الحوادث الطبيعية القابلة مبدئيا للقياس على ما في عادتنا، الخاضعة نوعا لقوانين الطبيعة! فكيف "نفسر" ذلك التنوع تفسيرا طبيعيا دهريا؟

لا سبيل إلا القول بتراكم التغيرات الوراثية الدقيقة بالطفرة بعد الفطرة عبر بلايين السنين! فسواء جعلت الطفرات المزعومة تلك عشوائية أو موجهة، فالأصل الدهري الذي قامت عليه الأسطورة برمتها، من مبدأ النظر، يبقى قائما، وإنما ينتقل القائل بالتطوير الإلهي هذا من الإلحاد إلى التعطيل. وقد بينا أن مفهوم الانتخاب الطبيعي هذا لا يمكن تخليته من العشوائية

الوجودية، لأنه بدون العشوائية فما الذي تنتخبه الطبيعة، وما معنى الانتخاب أصلا إن قدرنا أن كان الأصل في الأنواع الحية أنها تخلق كلها خلقا حكيما منضبطا من أول يوم، بحيث تلائم الغاية التي خلقت من أجلها وتوافق سنن الطبيعة؟ لا معنى للانتخاب، لا للطبيعة ولا لغيرها (كما في جعلهم المنتخب هو الله وليس الطبيعة!) عند من يثبت خالقا حكيما عليما لا يخلق النوع إلا على أحسن ما تحصل به الغاية من خلقه، ولا يقضي في حكمه وعلمه أن يصير المخلوق الحي نوعا حيا Species إلا وقد كفل له جميع أسباب الاستنواع Speciation والانتشار حيث أراد له أن ينتشر! ليس في الأمر قفل ومفتاح كما في تشبيه دوكينز، لأن الذي خلق الطبيعة هو نفسه الذي بث فيها من كل دابة سبحانه! ولا ينقرض النوع إلا بأن يحدث الله تعالى لانقراضه أسبابا تجري على حكمته وعلمه جل شأنه، لا أن الطبيعة هي التي تنتخبه للانقراض! فإذا كان الانتخاب الطبيعي فكرة دهرية محضة، والطفرة العشوائية فكرة دهرية محضة، والتدرج الطويل للأنواع الحية من الأحط إلى الأرقى، عقيدة دهرية محضة، فما الذي بقي من النظرية لمن يريد أن يوقر رب العالمين ويقدره حق قدره؟؟ الطبيعية المنهجية ليست مقصورة على عشوائية الطفرة وحسب يا بروفيسور بلانتينغا، بل إن مبدأ الطفرة نفسه يقوم قياما كليا على الطبيعية المنهجية، ففي أي شيء أنت؟!

يقول بلانتينغا في ورقته البحثية التي أشرنا إليها آنفا [8]:

---

[8] *There is a second and related circumstance at work here. We are sometimes told that natural science is natural science. So far it is hard to object: but how shall we take the term 'natural' here? It could mean that natural science is science devoted to the study of nature. Fair enough. But it is also taken to mean that natural science involves a methodological naturalism or provisional atheism: no hypothesis*

according to which God has done this or that can qualify as a scientific hypothesis. It would be interesting to look into this matter: is there really any compelling or even decent reason for thus restricting our study of nature? But suppose we irenically concede, for the moment, that natural science doesn't or_shouldn't invoke hypotheses essentially involving God.

Suppose we restrict our explanatory materials to the ordinary laws of physics and chemistry; suppose we reject divine special creation or other hypotheses about God as scientific hypotheses. Perhaps indeed the Lord has engaged in special creation, so we say, but that he has (if he has) is not something with which natural science can deal. So far as natural science goes, therefore, an acceptable hypothesis must appeal only to the laws that govern the ordinary, day-to-day working of the cosmos. As natural scientists we must eschew the supernatural-although, of course, we don't mean for a moment to embrace naturalism. Well, suppose we adopt this attitude. Then perhaps it looks as if by far the most probable of all the properly scientific hypotheses is that of evolution by common ancestry: it is hard to think of any other real possibility. The only alternatives, apparently, would be creatures popping into existence fully formed; and that is wholly contrary to our experience. Of all the scientifically acceptable explanatory hypotheses, therefore, evolution seems by far the most probable. But if this hypothesis is vastly more probable than any of its rivals, then it must be certain, or nearly so.

But to reason this way is to fall into confusion compounded. In the first place, we aren't just given that one or another of these hypotheses is in fact correct. Granted: if we knew that one or another of those scientifically acceptable hypotheses were in fact correct, then perhaps this one would be certain; but of course we don't know that. One real possibility is that we don't have a very good idea how it all happened,

just as we may not have a very good idea as to what terrorist organization has perpetrated a particular bombing. And secondly, this reasoning involves a confusion between the claim that of all of those scientifically acceptable hypotheses, that of common ancestry is by far the most plausible, with the vastly more contentious claim that of all the acceptable hypotheses whatever (now placing no restrictions on their kind) this hypothesis is by far the most probable. Christians in particular ought to be alive to the vast difference between these claims; confounding them leads to nothing but confusion. From a Christian perspective, it is dubious, with respect to our present evidence, that the Common Ancestry Thesis is true. No doubt there has been much by way of microevolution: Ridley's gulls are an interesting and dramatic case in point. But it isn't particularly likely, given the Christian faith and the biological evidence, that God created all the flora and fauna by way of some mechanism involving common ancestry. My main point, however, is that Avala, Gould, Simpson, Stebbins and their coterie are wildly mistaken in claiming that the Grand Evolutionary Hypothesis is certain. And hence the source of this claim has to be looked for elsewhere than in sober scientific evidence. So it could be that the best scientific hypothesis was evolution by common descent-i.e., of all the hypotheses that conform to methodological naturalism, it is the best. But of course what we really want to know is not which hypothesis is the best from some artificially adopted standpoint of naturalism, but what the best hypothesis is overall. We want to know what the best hypothesis is, not which of some limited class; best particularly if the class in question specifically excludes what we hold to be the basic truth of the matter. It could be that the best scientific hypothesis (again supposing that a scientific hypothesis must be naturalistic in the above sense) isn't even a strong competitor in that derby.

Judgements here, of course, may differ widely between believer in God and non-believers in God. What for the former is at best a methodological restriction is for the latter the sober metaphysical truth: her naturalism is not merely provisional and methodological, but, as she sees it, settled and fundamental. But believers in God see the matter differently. The believer in God, unlike her naturalistic counterpart, is free to look at the evidence for the Grand Evolutionary Scheme and follows it where it leads, revising that scheme if the evidence is insufficient. She has a freedom not available to the naturalist.

The latter accepts the Grand Evolutionary Scheme because from a naturalistic point of view this scheme is the only visible answer to the question what is the explanation of the presence of all these marvelously multifarious forms of life? The Christian, on the other hand, knows that creation is the Lord's; and she isn't blinkered by a priori dogmas as to how the Lord must have accomplished it. Perhaps it was by broadly evolutionary means, but then again perhaps not. At the moment, 'perhaps not' seems the better answer. Returning to methodological naturalism, if indeed natural science is essentially restricted in this way, if such a restriction is a part of the very essence of science, then what we need here, of course, is not natural science, but a broader inquiry that can include all that we know, including the truths that God has created life on earth and could have done it in many different ways. "Unnatural Science," "Creation Science," "Theistic Science"-call it what you will: what we need when we want to know how to think about the origin and development of contemporary life is what is most plausible from a Christian point of view. What_we need is a scientific account of life that isn't restricted by that methodological naturalism.

ثمة قضية ثانية ذات تعلق تعمل هنا. فأحيانا يقال لنا إن العلم الطبيعي، هو علم "طبيعي". فإلى هذا الحد يصعب علينا أن نعترض. ولكن على أي محمل نحمل المصطلح "طبيعي" هنا؟ قد يعني أن العلم هو علم مختص بدراسة الطبيعة. هذا أمر لا بأس به. ولكنه كذلك يحمل على معنى أن العلم الطبيعي يشتمل على الطبيعية المنهجية Methodological Naturalism أو الإلحاد الشرطي أو الشرط الإلحادي (الذي يشترطه الباحث على نفسه): فليس لأي فرضية يكون فيها الإله قد فعل هذا أو ذاك، أن تعد فرضية علمية. ومن المفيد أن ننظر في تلك المسألة: هل حقا ثمة سبب مقنع أو محترم لتقييد دراستنا للطبيعة بهذا القيد؟ دعنا، على أي حال، نسلم في سلام، تنزلا، بأن العلم الطبيعي لا يسمح ولا ينبغي أن يسمح بوضع فرضيات لها تعلق بالإله. لنفرض أننا سنقيد مادتنا التفسيرية بالقوانين الفيزيائية والكيميائية المعتادة، لنفرض أننا سنرفض أن نعد أي فرضية بشأن الخلق الإلهي الخاص أو أي فرضية تتعلق بالإله، من جملة الفرضيات العلمية Scientific. فلعل الإله قد انخرط بالفعل في خلق خاص، أو لعلنا نزعم هذا، ولكن كونه قد فعل ذلك (إن كان قد فعله) ليس أمرا يمكن للعلم الطبيعي أن يتعامل معه. ففي حدود العلم الطبيعي إذن، لابد أن تتعلق الفرضية المقبولة بالقوانين التي تحكم الأعمال اليومية المعتادة للكون. بموجب كوننا علماء طبيعيين، علينا أن نجتنب ما وراء الطبيعيات، وإن كنا لا نعتزم ولا لوهلة واحدة، بالطبع، أن نعتنق الملة الطبيعية. فلنفرض أننا تبنينا هذا الموقف. فلعله يبدو حينئذ أن من بين جميع الفرضيات الموصوفة بأنها "علمية حقا" Properly Scientific فإن الفرضية الأكثر احتمالية لإصابة الحق هي التطور من سلف مشترك. فمن الصعب أن نتصور أي بديل حقيقي لتلك الفرضية. فالبدائل الوحيدة فيما يبدو، ستكون هي ظهور المخلوقات (الجديدة) في الوجود تامة الخلقة

والتكوين، وهذا مخالف تماما لعادتنا. فمن بين جميع الفرضيات الممكن قبولها علميا، تبدو فرضية التطور هي الأكثر احتمالية. ولكن إن كانت هذه الفرضية أكثر احتمالية بكثير من جميع ما يخالفها، فلابد إذن أن تكون قطعية، أو قريبا من ذلك. ولكن إن فكرنا بهذه الطريقة فإننا نقع في خلط عميق. فأولا، ليس لدينا أساس للتسليم بأن واحدة بعينها من تلك الفرضيات لابد أن تكون هي الصواب. سلمنا بأننا لو كنا نعلم بأن واحدة من هذه الفرضيات لابد وأن تكون هي الحق، فلعل هذه الفرضية بعينها أن يكون مقطوعا بصحتها. ولكن من الواضح أننا لا نعلم ذلك. فإن من الاحتمالات الممكنة عقلا ألا يكون لدينا فكرة جيدة بشأن الكيفية التي حصل بها الخلق، كما أننا ليس لدينا فكرة جيدة (مثلا) حول هوية المنظمة الإرهابية التي نفذت عملية تفجيرية معينة. وثانيا، فإن هذا التفكير يخلط بين دعوى أنه من بين جميع الفروض المقبولة علميا تجريبيا Scientifically، تكون فرضية الأصل المشترك هي الأكثر قوة، بدعوى أخرى أكثر جدلية مفادها أنه من بين جميع الفرضيات المقبولة بعموم (بدون تقييد لأنواع تلك الفرضيات) فإن هذه الفرضية لابد أنها هي الأكثر احتمالية. فعلى النصارى خاصة أن يكونوا أكثر انتباها إلى الفارق العملاق بين هاتين القضيتين، فإن الخلط بينهما لا يفضي إلا إلى الالتباس.

فمن وجهة النظر النصرانية، فمما يشك فيه أنه بالنظر إلى ما هو حاصل لدينا حاليا من الأدلة، فإن فرضية الأصل المشترك تكون صحيحة. لا ريب أننا قد شهدنا أمورا كثيرة من طريق التطور الصغروي Microevolution، ويعد نورس ريدلي حالة مهمة ودراماتيكية في هذا النوع. ولكنه ليس من المترجح احتماليا، بالنظر إلى إيمان النصارى والأدلة البيولوجية، أن يكون الإله قد خلق جميع الأنواع الحية من نبات وحيوان، من طريق آلية ميكانيكية تبدأ

من أصل مشترك. ولكن قضيتي الأساسية هنا هي أن أفالا وغولد وسيمبسون وستيبينغز وأمثالهم مخطئون خطأ كبيرا في زعمهم أن فرضية التطور العظمى قطعية. وإذن فلابد أن نبحث عن مصدر أو منشأ هذه الدعوى في أماكن أخرى بخلاف الأدلة العلمية الواضحة. قد يكون صحيحا أن أفضل فرضية علمية تجريبية هي فرضية التطور من أصل مشترك، أي من بين جميع الفرضيات الخاضعة للطبيعية المنهجية، تكون هي الأفضل. ولكن بالقطع فإن ما نريد أن نعرفه في الحقيقة ليس هو أي فرضية تكون هي الأفضل في ضوء موقف طبيعاني فني تبناه الناس، وإنما نريد أن نعرف ما هي الفرضية الأحسن بعموم. نريد أن نعرف ما هو أحسن تفسير بإطلاق، وليس ما هو أحسن تفسير من نوع معين محدود، خصوصا إذا كان النوع محل النظر هو نوعا يستبعد ما نراه هو حقيقة الأمر من مبدأ النظر! فلعله يصح أن تكون الفرضية العلمية المثلى (من جديد على التسليم بأن الفرضية العلمية لابد أن تكون طبيعانية على المعنى الذي حررناه) ليست من الأساس منافسا قويا في هذا الإطار. الأحكام هنا ستختلف، بالطبع، اختلافا كبيرا بين من يؤمن بالإله ومن لا يؤمنون بالإله. فالذي يراه الأخير قيدا منهجيا على أحسن الأحوال، يعد عند الأول بمنزلة الواقع الميتافيزيقي الحق. فإن طبيعيته ليست مجرد شرط عملي أو منهجي، وإنما هو أمر أساسي متحقق. ولكن المؤمنون بالإله يرون الأمر على صورة أخرى. فالمؤمن بالإله، خلافا لنظيره الطبيعي، حر في النظر إلى أدلة قصة التطور الكبرى، وأن يتبعها حيثما قادته، وأن يراجع تلك القصة إن لم تكن الأدلة كافية. وهي حرية لا يتمتع بها الطبيعيون. فالطبيعي يقبل قصة التطور الكبرى لأنه من وجهة النظر الطبيعانية، تعد هذه القصة هي الجواب الوحيد الظاهر للسؤال: ما تفسير وجود هذا التنوع البديع لأشكال الحياة على الأرض؟ وأما النصراني في المقابل، فيعلم أن الخلق للرب، فلا

يتعصب لدعاوى قبلية دوغمائية بشأن الكيفية التي أحدث بها الإله هذا الأمر. ربما جرى الأمر بطرق ارتقائية نوعا ما، ولكن ربما لم يكن الأمر كذلك. وفي الوقت الحالي، يبدو أن قولنا "ربما لم يكن كذلك" هو الجواب الأحسن. ورجوعا إلى الطبيعية المنهجية، فإن صح أن كان العلم الطبيعي مقيدا بهذا القيد، إن صح أن كان هذا القيد جزءا من جوهر العلم الطبيعي نفسه، فالذي نحتاج إليه هنا، هو بالطبع، ليس العلم الطبيعي. ولكن طريقة أوسع وأشمل في الطرح، بحيث تشمل جميع ما نعرف، بما في ذلك حقيقة أن الإله خلق الحياة على الأرض، وأنه كان بمقدوره أن يفعل ذلك بطرق شتى. "علم غير طبيعي"، علم خلقي أو خلقوي، علم إثباتي Theistic، سمه ما شئت، فما نحتاج إليه عندما نريد أن نعرف كيف نفكر في أصل ونشأة الحياة المعاصرة، هو ما يكون الأرجح والأظهر من وجهة النظر النصرانية. ما نحتاج إليه هو دراسة علمية تجريبية للحياة، غير مقيدة بتلك الطبيعية المنهجية."

قلت: كل هذا من أجل ألا تعترف بأن قضية نشأة الأنواع الحية على الأرض والطريقة التي جرت بها حوادث تلك النشأة، لا دخول لها تحت العلم الطبيعي أصلا ولا تطلب بأدوات النظر التجريبي والقياس على ما في العادة؟؟ سبحان الله! يا أخي اعترف بالحق ولا تبال! نعوذ بالله من الخذلان! قلها صراحة وبكل إيجاز وبكل صرامة: الذي يؤمن بأن العالم قد خلقه رب حكيم عليم، خلق فيه الأنواع الحية كلها بعد أن لم تكن، على غير مثال سابق، فجعلها على ما أراد أن يجعلها عليه، وخلقها خلقا محكما تاما من أول يوم، دون عجز ولا انحطاط ولا عوج، هذا لا يجوز له أن يخضع تفصيل عملية الخلق الإلهي الأول الغيبي هذه لشيء من أدوات النظر التجريبي البتة، ومجرد إخضاعه لها على أيما نحو كان، هو مما يقوم قياما كليا وضروريا على الطبيعية المنهجية، لأنه ليس من المتصور الوصول إلى نظرية تجريبية

Empirical Theory / Scientific Theory في تلك المسألة إلا بإخضاعها للقياس على ما في العادة، وأنت تشهد بأن أعمال الرب سبحانه في خلق الحياة على الأرض لا يلزم أن تكون على نظير ما في العادة أصلا! وتوشك أن تصرح بأن جملة ما يعرفه النصراني يضطره لأن يرفض أسطورة الأصل المشترك هذه، إذ الأكمل والأليق برب العالمين وبكمال صفاته أن يكون قد خلق الأنواع كلها، كل نوع حيث يريد له أن يكون، على أكمل ما يكون في النوع المخلوق من أول الأمر، أزواجا سوية الخلقة بلا عجز ولا خلل، خلقا مستقلا أو "مباشرا" كما يسمونه، لا أن يكون قد بدأ بأصل منحط أحادي الخلية أو غيره، ثم أخذ يطور عليه عبر بلايين السنين بالتجربة والخطأ، سبحان الله وتعالى علوا كبيرا! اصدع بالحق الذي تعرفه ولا تتخاذل، وليقل من يشاء ما يشاء!! أنت معدود في جملة الخلقيين أو الخلقويين ومن شاكلهم على أي حال، فما هذا الوهن؟؟ حتى المصطلح Science وScientific أنت تكاد تصرح بأن الحق في هذه القضية لا يلزم أن يكون مقيدا به أو داخلا تحته أصلا، بل تميل إلى أن تخرجه عنه بالكلية، بالنظر إلى جملة الأدلة المتحصلة للباحث النصراني، فلماذا تصر على عد المشاهدات البيولوجية من جنس الأدلة المقبولة نوعا في هذه البابة، مع أنك تعترف بأن حقيقة الأمر قد لا تكون مناظرة لشيء مما في عادتنا أصلا (وهي كذلك بالضرورة، كما أجزم بأنك تعلمه)؟؟ نعوذ بالله من الوهن والخذلان!

لا يقولن قائل في الدفع عن الرجل إن هذا من سياسة العلم، ولو أنه صرح بالحق كما هو لما قبله منه أحد! بل هذا من تحريف العلم وتشويه الحق الجلي الواضح، وليس من سياسته أن يحرف ويبدل ويغير بدعوى أن الناس لو خوطبت به كما هو لكان كذا وكذا! أمسك عن بعض الحق إن اضطررت، ولكن لا تحرفه! الطبيعية المنهجية ركن من أركان الدين الطبيعي،

ولا يجوز لمن يؤمن بأن له ربا قد خلقه وخلق كل شيء، أن يتقيد بها، وأنت تصرح بأن النصراني ليس مقيدا بها ولا يقول بها، من حيث هي اعتقاد ميتافيزيقي يقيد نظر الناظر الطبيعي، فيضطره لألا يقبل من التفاسير إلا ما هو طبيعي! فلماذا يقبل النصراني فرضية لا قيام لها إلا عليها أصلا، وأنت تصرح في غير مناسبة بأنك تعدها من جملة الأساطير العصرية؟ لا قيام للطبيعية المنهجية إلا على التسليم الاعتقادي الصارم بأنه ليس في الغيب إلا كما في الشهادة من أنواع الطبائع والسنن الكونية، وإذن فلابد أن تكون حوادث خلق الأنواع الحية كلها قد جرت على نظير ما في العادة، وإذن فلا يجد صاحب هذا الاعتقاد أمامه إلا أن يفرض تلك القصة الهزلية السخيفة، قصة التطور من أصل منحط عبر بلايين السنين! فإذا أراد من يؤمن بأن له ربا قد خلقه، أن يثبت الحق في هذه البابة فليس أمامه ما يرقى أن يكون دليلا في القضية إلا ما جاء في السمع وحسب! ليست هي من أبواب وضع الفروض والنظر في الواقع هل يصدقها أم يكذبها، وليست هي من الأبواب التي يطلب فيها الدليل الاحتمالي أو الترجيح الاحتمالي Probabilistic، كما يصار إليه في القضايا التي نعلم أن لها نظائر قد شهدناها واعتدناها ومن ثم جاز لنا أن نوازن بينها ونصفيها بتقدير الاحتمالات! وإنما صيرها الطبيعيون كذلك (مما ينظر فيه بالنظر الاحتمالي) لما أخضعوها كغيرها من أبواب المعارف للطبيعية المنهجية التي تريد أنت أن تحرر منها الباحث النصراني! فالذي يزعم أن لديه كتابا من رب العالمين، لن يضع فهمه لما في الكتاب جنبا إلى جنب مع ما عند البيولوجيين لينظر أي الفهوم هو الأرجح للنص، أو لينظر أي الأدلة هو الأرجح، مشاهدات البيولوجيين أم النص الديني! المشاهدات أصلا لا ترجح شيئا في هذه القضية، وليس عند الطبيعيين إلا تأويلها وفقا للنظرية المختارة، ثم جعل ذلك التأويل نفسه دليلا على صحة النظرية، لماذا؟ لأن

الطبيعية المنهجية أوقعت القوم في مغالطة كبرى مفادها أن تلك القضايا الغيبية مطلقة التغييب التي لا نجد لها نظيرا في عادتنا، يجوز مبدئيا أن "تستكشف" بالنظر فيما عليه حال العالم الآن، ثم القياس على بعض ما في العادة! فمن يريد أن يخلص الناس من تلك المسلمة الدهرية الفاسدة، فلابد أن يخلص نفسه أولا من آثارها التي هو غارق فيها من حيث لا يشعر، كالكلام في تلك القضية بلغة الاحتمالات، التي لا قيام لها أصلا إلا على استقراء العادة، والحال أنه لا عادة، والكلام على المشاهدات وكأنها تفيد بترجيح قول على قول أو فهم على فهم لما جاءت به النصوص من أمر الخلق وما كان فيه، أو تغني عن النصوص بالكلية إذا عدمت في ذلك الشأن! تلك الأغاليط المنهجية ما كانت لتروج في الأكاديمية الغربية لولا الطبيعية المنهجية التي تريد أنت أن تحاربها يا بروفيسور.

قوله: " فليس لأي فرضية يكون فيها الإله قد فعل هذا أو ذاك، أن تعد فرضية علمية. ومن المفيد أن ننظر في تلك المسألة: هل حقا ثمة سبب مقنع أو محترم لتقييد دراستنا للطبيعة بهذا القيد؟" قلت: هنا إجمال يجب فيه التفصيل. فعندما نتكلم عن فعل الإله، فهل المقصود مفعولاته المشاهدة الواقعة تحت العادة، أم مفعولاته الغيبية التي لم يطلع عليها أحدا من البشر، ولا طمع لهم في معرفتها إلا بخبر الوحي؟؟ القضية كل القضية في الخلط بين ما هو من أمر الغيب وما هو من أمر الشهادة ومجاري العادة، وليس في الخلط بين ما هو من فعل الإله وما ليس من فعله! جميع الحوادث مفعولات للرب جل شأنه، لأنها كلها من خلقه، مع ما خلقه لها من أسباب متقدمة عليها، وطبائع مخلوقة نشأت عن مجموع آثارها! هذا كله من خلقه، وكلها مفعولاته سبحانه. فالعلم الطبيعي موضوعه نوع مخصوص من مفعولات الله، وهو النوع الذي مكننا رب العالمين من مشاهدته وتتبعه واستقرائه فيما تجري به عادتنا، وبهذا يجب أن

نحده فلا نتجاوز به حدود تلك العادة. فإن حددته بهذا الحد يا بروفيسور، خرجت من الطبيعية المنهجية الدهرية أولها وآخرها، وإلا فلا تكلمنا عن تحرير النصارى من ذلك القيد الذي تشهد بلسانك بأنه لا دليل عليه ولا ينبغي أن يقبله من يؤمن برب قد خلقه! الرجل للأسف يتكلم وفي ذهنه ما أحدثه أصحاب نظرية التصميم الذكي من منطق تجريبي فاسد، أنزلوا فيه رب العالمين منزلة الفرضية التفسيرية التجريبية، وجعلوا التدخل بالخلق الإلهي كما يسمونه Divine Intervention آلية ثالثة في نظرية التطور، جنبا إلى جنب مع آليتي داروين المعروفتين! فلما انقلب الوسط الأكاديمي الغربي عليهم ورموهم بالجهل والخرافة عن قوس واحدة، لم يجد صاحبنا إلا أن يتخذ لنفسه موقفا يلتمس به قبول جميع الأطراف، أنصار التصميم الذكي، وأنصار التطور الموجه، بل وحتى أنصار التطور الدارويني الدهري كذلك، يسلم لهم بمعقولية كثير مما فرضوا في النظرية كما مر، والله المستعان! فهو يريد أن ينفتح الباب في الأكاديمية الغربية لقبول المزيد من أمثال نظرية التصميم الذكي والتطور الموجه وجيولوجيا الطوفان Flood Geology وما شاكل ذلك، نظريات مما يقال له في الجملة Theistic Science، مع أن الطبيعية المنهجية الدهرية هي أساس ذلك كله على التحقيق، ومن حيث لا يشعر أكثرهم، بما يقتضي إثبات صانع طبيعي، من شرطه الخضوع في جميع أفعاله للقانون الطبيعي كما يخضع المخلوق، فلا يخلق شيئا إذا خلق إلا جريا على القانون الطبيعي والأسباب الطبيعية، حتى المعجزات وخوارق العادات لابد أنها خاضعة لقانون طبيعي لم نعرفه بعد، كطوفان نوح الذي جهد بعض الجيولوجيين النصارى كما أشرنا آنفا لاستعمال آلة القياس التجريبي ليفسروا به كثيرا من الظواهر الجيولوجية المشاهدة حاليا، فطبعنوه من حيث لا يشعرون، واستحقوا من أجل ذلك أن يكونوا مادة لسخرية الجيولوجيين الأكاديميين! والصواب أن كونها (أي

خوارق العادات) تجري على طبائع وسنن كونية لا نقف على معرفتها من طريقنا، أي بالقياس، كالطبائع التي تنشأ عنها العين والسحر مثلا، هو مما يجوز عقلا لا مما يجب كما تقتضيه طريقتهم!)، وحتى الطبيعة نفسها خلقت عند هؤلاء بقانون النسبية العامة الطبيعي، والله المستعان! كل بابة خاضها الطبيعيون الدهرية بالتنظير الطبيعي واستقر أمر ذلك التنظير في الأكاديمية الغربية، فهم والجوها بالتنظير الطبيعي كذلك بالضرورة ولابد، ولكن بشرط إدخال الإله على أنه فرضية تفسيرية Explanatory Hypothesis، خلافا لمن يمنعون ذلك، فارتكبوا بذلك جناية على الدين والعلم التجريبي جميعا من حيث يحسبون أنهم أصحاب السبيل الوسط والطريقة المثلى!

يظن بلانتينغا بهذا الذي تراه أنه يفتح للنصارى بابا للبحث في مسألة أصل الحياة، خارجا عن إطار الملة الطبيعية ومسلماتها الميتافزيقية، مجيزا للنصراني أن يتعلق بالطبيعية المنهجية على أنها قيد عملي إجرائي لا على أنها أساس اعتقادي ميتافزيقي! والحق أنه لا يجوز ولا يستقيم في العقل الفصل بين القيد العملي والأساس الاعتقادي الميتافزيقي الذي يقوم عليه ذلك القيد، ومن تكلف ذلك، أتى بتلك الأخلاط والنظريات المشوهة التي لا تمت بصلة إلى العلم الحق في هذا الباب، الذي يقوم على السمع الصحيح من رب العالمين، ولا إلى العلم الطبيعي وآلته التجريبية التي يصر صاحبنا حتى مع حربه على الطبيعية المنهجية أن يجعله من أبواب المعرفة ومصادرها في تلك القضية الغيبية مطلقة التغييب. وبسبب اعتقاده جواز ذلك الفصل المنهجي، زعم بلانتينغا جواز الفصل بين العشوائية الوجودية من حيث هي آلية للخلق والتكوين في العالم، ونظرية التطور إجمالا، بحيث ترد الأولى دون أن تسقط الثانية بالضرورة، فلم يزل يدندن على أنه لا مانع عقلا من أن يكون الرب قد خلق الأنواع بصورة من صور التطوير

والتعديل من سلف واحد! وهذه مسألة تشتبه على كثير من المسلمين، يقول قائلهم: لماذا لا يقال إن خلق الرب سبحانه الأنواع الحية كلها بالتطور من أصل مشترك جائز عقلا ولا مانع منه شرعا؟ فنقول له إن المسألة ينتظم التفصيل فيها من وجهين: وجه الحقيقة الواقعية على ما هي عليه، ووجه المعرفة البشرية بتلك الحقيقة وطريق حصولها. فأما من حيث المعرفة البشرية، فإذا عدم النص، وجب الإمساك والتفويض، لا أن يقال إن هذا جائز وهذا جائز، حتى نجوز للطبيعين ما انتهوا إليه من خوض ينبغي أن نرده عليهم من مبدأ النظر! وأما من حيث الحقيقة الواقعية على ما هي عليه، فمحال أن يكون رب العالمين قد خلق الأنواع الحية كلها، في البر والبحر والجو، بالتطوير أو التعديل الوراثي على أصل مشترك عبر بلايين السنين، لما يقتضيه ذلك من النقص في حقه! إذ لا شك أن خلق الأنواع كلها دفعة واحدة، في أزواج منتشرة في أنحاء الأرض، وبث الذراري من كل زوج في محله، أكمل وأليق بالرب كامل العلم والقدرة، صاحب الغايات السابغة والمقاصد الدقيقة من خلق كل نوع حيث خلقه، من أن يخلق نوعا واحدا ثم يعدل عليه تعديلات وراثية تدريجية تزداد بها الأعضاء ووظائفها شيئا فشيئا (كما هو الاعتقاد الدارويني فيما يسمونه بالتعقيد العضوي)، ويتحسن في هيئته وخلقته حتى يصل السلم في نهايته إلى خلق الإنسان! الصنع بالتطوير والتحسين يقتضي نقص المصنوع الأول وقصوره عن القيام بالمطلوب كما هو ظاهر، وكأن المطلوب جعله على أكمل صورة، ولكن لم تسمح الطبيعة ببلوغ تلك الصورة في أول مخلوق، فلم يزل الخلق يطور ويحسن، مع انقراض ما لا يحصى من المحاولات الفاشلة، حتى انتهى الأمر بعد بلايين السنين من التجربة والخطأ والهدر والتضييع المبين، إلى هذه الصورة التي نراها! وهذا ينافي الحكمة الإلهية قطعا، وينقض العلم السابغ والغائية الإلهية Divine Teleology التي لم يتكلف

داروين وضع نظريته إلا من أجل التخلص منها بالأساس، لمصلحة بناء اعتقاد جديد في هذه القضية (قضية نشأة الأنواع) يليق بالباحث الطبيعي الذي لا يرى في الوجود إلا الأسباب الطبيعية والنظام الطبيعي! يجب أن تختزل المسألة كلها في آلية عشوائية لا غاية لها ولا علم ولا حكمة ولا تدبير، بحيث تكون الحياة قد نشأت بالصدفة المحضة في شيء منحط حقير، ثم اتفق لها اتفاقا أن بقيت فيه حتى اتفق له أن يتناسل ويتكاثر ويتناسخ، ثم لم تزل الصدف السعيدة تتابع بالزيادة والإضافة (مع ملايين من الصدف التي تحذف وتشوه وتمسخ .. إلخ بطبيعة الحال)، حتى انتهى الأمر اتفاقا إلى ما هو عليه! هذا هو الأساس الذي أقيمت عليه فكرة التطور البيولوجي في خلق الأنواع، فمن محض التناقض أن يقال إن الله سبحانه وتعالى، الرب كامل الصفات كامل العلم، خلق الأنواع كلها بالتطوير من أصل مشترك عبر بلايين السنين!! داروين ما التزم بالطبيعية المنهجية في هذه القضية الغيبية المحضة، إلا من أجل هذا! من أجل أن يرد على ويليام بيلي في لاهوته الطبيعي الذي زعم أن ما نراه في المخلوقات الحية من تنوع بالغ ودقة متناهية في الصنع، هو أعظم دليل على وجود الباري! فكأنما أراد أن يقول: بل لا دلالة في مسألة التنوع والانتشار الحيوي هذه على ما تريد! كل ما في الوجود طبيعي، يجري على القانون الطبيعي، حتى هذا الذي تراه في أصول الأنواع الحية وانتشارها وتنوعها، وسأبين لك وجه ذلك! ومن ثم أخذ في تأليف كتابه الملعون "في أصل الأنواع بالانتخاب الطبيعي"، ملتزما فيه شرطا واحدا فقط: الإتيان بتفسير طبيعي ميكانيكي صرف لجميع ما نراه في الحشوة الحية من آيات طلاقة القدرة وسعة الحكمة والإبداع في الخلق! النظرية من الأصل موضوعة من أجل أن تسحب بساط المعرفة من تحت أرجل أهل الكتاب وعلمائهم في هذه القضية، وهذه الغاية عند داروين واضحة وضوح الشمس لا تحتاج إلى

اقتباسات من كلامه حتى نستشفها منه (ومع ذلك فقد اقتبست مواضع من كلام داروين في كتاب المعيار وعلقت عليها لمن أراد الزيادة)!

فالواقع أن العشوائية الوجودية هي جزء من الاعتقاد الميتافيزيقي الدهري الذي تقوم عليه الطبيعية المنهجية، ولم تتخذ شرطا منهجيا إلا من أجله، فكانت بدورها هي المنهج المولد لنظرية التطور من أولها إلى آخرها، وهي كذلك وفي نفس الوقت المنهج المولد لأي بديل تجريبي يضعه باحث نصراني يقرر فيه "فرضية تفسيرية" لنشأة الأنواع الحية وتنوعها على الأرض، أيا ما كان موضوعها، ومهما كان فيها من إثبات لأفعال إلهية! ولهذا فمهما زعم صاحب النظرية أنه ينزه الرب عن العشوائية، فهو متلبس لا محالة بتعطيله جل شأنه عن صفات الكمال بمقتضى النظرية التي ينتهي إليها أيا ما كانت! وهذا ما نراه تحقيقا في كل من التصميم الذكي والتطور الموجه على السواء! فعلى عادة أهل الكلام في كل عصر، وعلى منهجهم المنهزم الفاسد، يبدأ المتكلم ولابد بالتسليم بصحة نظرية ما من ميتافيزيقا فلاسفة الطبيعيات المعظمين أكاديميا في عصره، شعر بذلك أم لم يشعر، فإن شعر، حرر اللوازم بما يرى ثم أخذ في التعطيل والتأويل، وإن لم يشعر، اعتنق من المذاهب والأقوال ما لا يدري أنه يقتضي التعطيل! وفي حالتنا هذه، يقتضي إثبات إله داروين الربوبي العدمي!

قوله: "فالمؤمن بالإله، خلافا لنظيره الطبيعي، حر في النظر إلى أدلة قصة التطور الكبرى، وأن يتبعها حيثما قادته، وأن يراجع تلك القصة إن لم تكن الأدلة كافية. وهي حرية لا يتمتع بها الطبيعيون. فالطبيعي يقبل قصة التطور الكبرى لأنه من وجهة النظر الطبيعانية، تعد هذه القصة هي الجواب الوحيد الظاهر للسؤال: ما تفسير وجود هذا التنوع البديع لأشكال الحياة على الأرض؟ وأما النصراني في المقابل، فيعلم أن الخلق للرب، فلا يتعصب لدعاوى قبلية

دوغمائية بشأن الكيفية التي أحدث بها الإله هذا الأمر. ربما جرى الأمر بطرق ارتقائية نوعا ما، ولكن ربما لم يكن الأمر كذلك. وفي الوقت الحالي، يبدو أن قولنا "ربما لم يكن كذلك" هو الجواب الأحسن"

قلت: لا ليس حرا في النظر إلى أدلة قصة التطور، لأنه محال أن يكون لقصة التطور أدلة أصلا! محال أن نجد في الحس ما يرجحها على غيرها أو يرجح غيرها عليها، إن سلمنا تنزلا بمعقولية أن يكون الرب الحكيم كامل العلم قد خلق الأنواع على هذا النحو المنحط! والرجل يوشك أن يعترف بامتناع الترجيح من طريق المشاهدات في هذه القضية، إذ يقول: " فأولا، ليس لدينا أساس للتسليم بأن واحدة بعينها من تلك الفرضيات لابد أن تكون هي الصواب. سلمنا بأننا لو كنا نعلم بأن واحدة من هذه الفرضيات لابد وأن تكون هي الحق، فلعل هذه الفرضية بعينها أن يكون مقطوعا بصحتها. ولكن من الواضح أننا لا نعلم ذلك. فإن من الاحتمالات الممكنة عقلا ألا يكون لدينا فكرة جيدة بشأن الكيفية التي حصل بها الخلق، كما أننا ليس لدينا فكرة جيدة (مثلا) حول هوية المنظمة الإرهابية التي نفذت عملية تفجيرية معينة." قلت: أنت تعلم يا بروفيسور أن المسألة ليس هذا قياسها! ليس جهلنا بالاحتمالات التي يمكن أن يكون قد جرى عليها خلق الله تعالى لجميع الأنواع، كجهلنا بهوية المنظمة الإرهابية التي دبرت علمية إرهابية ما! هذا قياس مع فارق عظيم للغاية! فنحن نجد في عادتنا نظائر لتلك العملية ولا بد، بحيث إن وقفنا على آثار تلك العملية بعينها وبخصوصها وما تبقى منها حيث وقعت، أمكننا أن نقارن ما نراه فيها بما حصل لنا من خبرة سابقة بنظائرها، فنضع الفروض والاحتمالات ونوازن بينها بالاستبعاد Explanation by Elimination مطبقين المنطق التفسيري Abductive Reasoning في ذلك على الوجه الصحيح! أما الكيفية التي خلق الله

بها الأنواع الحية كلها بعد أن لم يكن منها شيء على الأرض، فهذه ما خبرتكم بنظائرها وأين شهدتم نظيرا لها أصلا؟؟ لم تشهدوا إلا تحولات في الأنواع الموجودة سلفا، في حشوة حية عملاقة قائمة ومنتشرة بتنوعها الواسع في كل مكان! أما نشأة الحشوة نفسها بجميع أنواعها بعد أن لم تكن، فهذه ليس في عادتنا شيء يناظرها حتى نقول إن هذه الأرض التي نعيش عليها، يترجح أن تكون الأنواع فيها قد نشأت على نحو كذا لا على نحو كذا، بالنظر إلى جملة ما تحصل لدينا من المشاهدات! ولهذا وجب التفويض في هذه القضية وألا نثبت فيها إلا ما جاء السمع بالتنصيص عليه! هذا وجوب عقلي قبل أن يكون وجوبا شرعيا، وأنت تقول بنفسك ليس لدينا أساس! فكيف تجيز للنصراني أن "يتتبع الأدلة" التجريبية في هذه المسألة، ولكن بشرط أن يضيف إلى ذلك الأدلة الكتابية، حتى يكون الترجيح صحيحا؟؟

تقول: " فلعل الإله قد انخرط بالفعل في خلق خاص، أو لعلنا نزعم هذا، ولكن كونه قد فعل ذلك (إن كان قد فعله) ليس أمرا يمكن للعلم الطبيعي أن يتعامل معه." قلت: فإذن ليس للعلم الطبيعي أن يتناول تلك القضية أصلا، ولا أن يكون فيها استدلال بالمحسوسات ومجاري العادة! لا أن يقال: كونه فعل كذا وكذا ليس مما يمكن للعلم الطبيعي أن يتعامل معه!! إما أن يكون نوع الأدلة مقبولا في الباب، وإذن من المعقول أن نرجح بينه وبين أدلة من نوع آخر من مصدر آخر، وإما ألا يكون مقبولا من مبدأ الطرح، وإذن فلا يلتفت إليه أصلا! أما أن يقال إن فرضية كذا في مسألة ما، مفتوحة لأدلة العلم الطبيعي، بينما فرضية كذا في نفس المسألة ليست مما يفيد فيه العلم الطبيعي بشيء، فعلى أي أساس يرجى الترجيح بين الفرضيتين وكيف يتصور في العقل السوي؟؟ على أي أساس أجيز للباحث الطبيعي أن

يأتي في المسألة نفسها بفرضية أصلا والحال أنه ليست طرائقه موصلة إلى الحكم على بعض الفرضيات في نفس الأمر بالقبول أو الرد؟؟ هذا تناقض منهجي واضح!

فرجوعا إلى المقال الأول، فقول بلانتينغا: "ومن جديد، وكما مع سايمون، يمكن أن نقول إنه عندما يعلن هؤلاء أمثال تلك الإعلانات، فإنهم لا يتكلمون كلام علماء ولا كلام من يمارس العلم. وإنما يعلقون على العلم، يستنتجون التصورات من النتائج العلمية، تصورات لا تقتضيها تلك النتائج العلمية نفسها، بل تتطلب مقدمات فائقة للعلم (أو بالأحرى فلسفية)."

قلت: هذا الكلام غلط ولا شك. فإذا كان منهج النظر في وضع الفرضيات من الأساس، منهج دهري صرف، فلا يقال إن الآفة أو القضية في تأويل ما جاء به العلم من الأدلة، وليس في الأدلة نفسها! منهج الفرض والاستدلال نفسه فاسد ولا يصح أن يقال له علم، حتى يقال إن القضية في تأويل العلم ونتائج العلم! وهذا مما يقع عند بعض المسلمين، تجد الواحد منهم يقول التطور في نفسه ليس فيه شك علميا، وإنما الآفة في التأويل الإلحادي! هم يحملون الأدلة العلمية على عقائدهم الإلحادية وهذا لا يلزمنا! فنقول لهؤلاء إن التأويل الإلحادي هو أساس النظرية التي تريدون تخليصها منه، فليس لديهم أصلا إلا التأويل الإلحادي للمشاهدات البيولوجية، بالنظر إلى كون القضية من المغيبات مطلقة التغييب! فمن التلبيس أن يقال إننا نأخذ هذا العلم ونتأوله على ما يوافق اعتقادنا، فإنه ليس بعلم أصلا حتى يؤخذ، وإنما هي ميثولوجيا دهرية طبيعية محضة! ليست استنتاجا للتصورات من النتائج العلمية على عبارة بلانتينغا، وإنما هي بناء لأسطورة طبيعية دهرية صرفة، لم تزل المشاهدات تؤول بما يوافقها! فإن رددت تلك التأويلات، فقد رددت أصل النظرية نفسه وأسقطتها بالكلية! أما أن تقبل

أصل النظرية، ثم تتكلف تأويله هو نفسه بما يوافق اعتقادك، فهذا تخليط في الاعتقاد وجمع بين النقيضين، والله المستعان.

الجزء الخامس

ينتقل بلانتينغا في القسم اللاحق من المقال، للكلام على مثال آخر يستشهد به لبيان موقفه من مسألة الطبيعية المنهجية، على ما فيه من اختلاط وتضارب كما بينا. يقول [9]:

---

[9] *My third example concerns 'fine-tuning' in cosmology. Starting in the late sixties and early seventies, astrophysicists and others noted that several of the basic physical constants must fall within very narrow limits if there is to be the development of intelligent life--at any rate in a way anything like the way in which we think it actually happened. Thus Car and Rees:*

The basic features of galaxies, stars, planets and the everyday world are essentially determined by a few microphysical constants and by the effects of gravitation. ...several aspects of our Universe--some of which seem to be prerequisites for the evolution of any form of life--depend rather delicately on apparent 'coincidences' among the physical constants.

For example, if the force of gravity were even slightly stronger, all stars would be blue giants; if even slightly weaker, all would be red dwarfs; in neither case could life have developed. The same goes for the weak and strong nuclear forces; if either had been even slightly different, life, at any rate life of the sort we have, could probably not have developed. Even more interesting in this connection is the so-called flatness problem: the existence of life also seems to depend very delicately upon the rate at which the universe is expanding. Thus Stephen Hawking:

...reduction of the rate of expansion by one part in 10exp.12 at the time when the temperature of the Universe was 10exp.10 K would have resulted in the Universe's

starting to recollapse when its radius was only 1/3000 of the present value and the temperature was still 10,000 K.

--much too warm for comfort. Hawking concludes that life is possible only because the universe is expanding at just the rate required to avoid recollapse. At an earlier time, the fine-tuning had to be even more remarkable:

...we know that there has to have been a very close balance between the competing effect of explosive expansion and gravitational contraction which, at the very earliest epoch about which we can even pretend to speak (called the Planck time, 10exp.43 sec. after the big bang), would have corresponded to the incredible degree of accuracy represented by a deviation in their ratio from unity by only one part in 10 to the sixtieth. These are striking facts; one sympathizes with Paul Davies: "the fact that these relations are necessary for our existence is one of the most fascinating discoveries of modern science."

Now, one reaction to these apparent enormous coincidences is to see them as substantiating the theistic claim that the universe has been created by a personal God and as offering the material for a properly restrained theistic argument.

Another is to claim that none of this ought to be seen as requiring explanation: after all, no matter how things had been, it would have been exceedingly improbable that they be that way. Appropriately taken, that is perhaps right; but how is it relevant? We are playing poker; each time I deal I get four aces and one wild card; you get suspicious; I allay your suspicions by pointing out that my

مثالي الثالث يتعلق بمسألة "الضبط الدقيق" في الكوزمولوجيا. فبداية من أواخر الستينات وبدايات السبعينات، لاحظ الأستروفيزيائيون وغيرهم أن كثيرا من الثوابت الفيزيائية الأساسية يجب أن تقع في إطار حيز ضيق للغاية، حتى تتطور الحياة العاقلة، على الأقل، أي شيء يشبه الطريقة التي نظن أن هذا قد حصل بها. لذا يقول كار وريز: "إن المعالم الأساسية للمجرات والكواكب، والعالم الذي نعتاده بصفة يومية، تتقرر جوهريا على أثر ثلة من الثوابت المايكروفيزيائية وبتأثير الجاذبية... فكثير من معالم كوننا هذا - التي يبدو بعضها وكأنه مطلب ضروري من أجل ترقي أي نوع من أنواع الحياة – تعتمد اعتمادا دقيقا على "صدف" ظاهرة

---

getting these cards each time I deal is no less probable than any other equally specific distribution over the relevant number of deals.

Would that explanation play in Dodge City or Tombstone?

Still another reaction is to invoke the Anthropic Principle, which is exceedingly hard to understand and comes in several varieties but (in the version that makes most sense) seems to point out that a necessary condition of anyone observing these values of the constants is that those constants have very nearly the values they do have; we are here to observe these constants only because they have the values they do have. Again, this seems right, but what does it explain? It still seems puzzling that these values should have been just as they are. Why weren't they something quite different? One cannot explain this by pointing out that we are indeed here--anymore than I can explain the fact that God decided to create me (instead of passing me over in favor of someone else) by pointing out that if God had not thus decided, I wouldn't have been here to raise the question.

في مقادير الثوابت الفيزيائية." اهـ. قال بلانتينغا: فمثلا، لو كانت قوة الجاذبية أقوى ولو بقدر ضئيل، لكانت النجوم كلها عماليق زرقاء، ولو كانت أضعف بقدر قليل مما كانت عليه، فستكون كلها أقزاما حمراء، وفي كلتا الحالتين، ما كانت الحياة لتتطور. والشيء نفسه يقال في القوى النووية الضعيفة والقوية، فلو كان أي من هاذين مختلفا عما كان عليه ولو بقدر ضئيل، فإن الحياة، أو على الأقل الحياة من النوع الذي نراه، ما كانت لتترقى على الأرجح. وأهم من ذلك في هذه العلاقة، ما يقال له مشكلة التسطح Flatness Problem: فإن وجود الحياة يبدو كذلك معتمدا اعتمادا دقيقا جدا على المعدل الذي به يتمدد الكون. ولذا قال ستيفن هوكينغ: "إن تقليل معدل التمدد الكوني ولو بجزء واحد في 10 للأس 12، في الفترة التي كانت فيها درجة حرارة الكون 10 للأس 10 كيلفن، كان من شأنه أن يؤدي إلى أن يبدأ الكون في التساقط على نفسه في الوقت الذي لم يزد فيه قطره على واحد من ثلاثة آلاف من قيمته الحالية، وكانت الحرارة فيه عشرة آلاف كيلفن." اهـ.

قال بلانتينغا: وهذا ولا شك أسخن مما يحتمل. يستنتج هوكينغ أن الحياة ممكنة فقط لأن الكون يتمدد على المعدل المطلوب من أجل اجتناب إعادة الانهيار من جديد. ففي تلك الفترة الأولى من عمر الكون، كان يتعين للضبط الدقيق أن يكون أدق بكثير. قال جون بولكينغهورن: "نحن نعلم أنه كان ينبغي أن يوجد اتزان دقيق للغاية بين تأثيرين متنافسين، تأثير التوسع الانفجاري من جانب، وتأثير الانكماش الجاذبي من الجانب الآخر، في أقدم عصور الكون التي يمكن لنا الكلام عليها (وهو ما يقال له زمان بلانك، جزء من عشرة للأس ثلاثة وأربعين جزء من الثانية بعد الانفجار الكبير)، (وأن هذا الاتزان المذهل في دقته) كان من

شأنه أن يختل لو انحرفت النسبة بين التأثيرين عن الواحد الصحيح ولو بجزء واحد من 10 للأس ستين!

قال بلانتينغا: هذه حقائق مذهلة، فإن المرء يتعاطف مع بول ديفيز في قوله: "إن حقيقة كون تلك العلاقات ضرورية لوجودنا في العالم هي واحدة من أكثر اكتشافات العلم الحديث إبهارا" فالآن، واحد من ردود الأفعال الواردة لهذه الصدف الظاهرية المذهلة هو أن نراها داعمة لزعم الإثباتيين بأن الكون كان له خالق "شخصي"، وعلى أنها تقدم مادة لحجة إثباتية منضبطة. وموقف آخر في المقابل، هو الزعم بأنه ليس في شيء من ذلك ما يتطلب تفسيرا أصلا. ففي جميع الأحوال، وبصرف النظر عما كانت عليه الأحوال، فإنه يكون مما تضعف احتماليته للغاية أن يكون الوضع على تلك الحال. فإن حملنا الأمر على محمل صحيح، فإن هذا الكلام قد يصح، ولكن ما علاقته بالمطلوب؟ هب أننا نلعب البوكر. في كل مرة أوزع ورق اللعب، أحصل على أربعة آسات وكارت واحد وحشي، حينها يساورك الشك، فأخفف أنا من شكك هذا بأن أقول إن حصولي على تلك الكروت في كل مرة أوزع الورق، ليس أقل احتمالية من أن أحصل على أي مجموعة أخرى محددة من الأوراق في كل مرة، تتكرر على هذا النحو في نفس عدد مرات التوزيع. فهل يقبل هذا التفسير في كازينو "دودج سيتي" أو "تومبستون"؟ وثمة رد فعل آخر وهو استحضار المبدأ الأنثروبي، وهو صعب الفهم حقا، ويأتي في عدة صور متباينة، ولكنه (في الصورة التي تبدو أقرب للعقل) يبدو مقررا أن الشرط الضروري ليتمكن أي أحد من مشاهدة تلك القيم، هو أن تكون على ما هي عليه، أو أقرب ما يمكن إلى ذلك. فنحن هنا ونشاهد هذه الثوابت، فقط لأنها على القيم التي هي عليها. ومن جديد، هذا يبدو صحيحا، ولكن ما الذي يفسره؟ لا يزال يبدو الأمر محيرا أن تكون تلك

القيم على ما هي عليه بالضبط. لماذا لم تكن على خلاف ذلك بالكلية؟ ليس من الممكن تفسير ذلك الأمر بمجرد تقرير أننا هنا بالفعل، تماما كما أنه ليس من الممكن تفسير حقيقة أن الإله قضى بخلقي وتصويري (بدلا من تفويت خلقي لصالح غيري) بمجرد تقرير أنه لو كان الإله لم يرد أن يخلقني، لما وجدت هنا ولما طرحت هذا السؤال.

قلت هنا يشرع بلانتينغا في الكلام على القضية الثانية التي اقتحمها الطبيعيون بالتنظير التجريبي بدون وجه حق، كما اقتحموا مسألة أصول الأنواع الحية سواء بسواء، ألا وهي قضية تاريخ الكون (ونشأته عند من يرى منهم أن له بداية ما)! ولكن للأسف، يضطرب فيها كما اضطرب في سابقتها، وبدلا من أن يقرر أن مبدأ التنظير في قضايا الأصل والنشأة بعموم، سواء نشأة الحياة أو نشأة الكون، هو من مقتضيات الطبيعية المنهجية التي يفترض أنه قد كتب هذه المقالة من أجل أن يحذر الناس منها، تراه يعتمد أولا طريقة القوم في بناء الدعاوى النظرية بشأن تلك الغيبيات المحضة، يجعلها هي العلم ومكتشفات العلم كما جعلوها هم، ثم يدعو الناس لأن يتخذوها دليلا على بطلان الطبيعية لصالح "الإثباتية" (بهذا الإطلاق الذي اعتاده الفلاسفة المعاصرون في الإشارة إلى جميع من يثبتون وجود من خلقهم!). ففيما يتعلق بنظرية داروين، فبدلا من أن يبين وهاء الأساس العقلي الذي تقوم عليه، وتسليمها في جميع أصولها بالانغلاق السببي الطبيعي والعشواء الوجودية، ويبين تناقضها العميق في اقتضائها ألا يثق الناس في عقولهم نفسها إن كانت قد تطورت داروينيا، تراه ينتصر للتطور الموجه بزعم أنه لو قدر أن كان التطور الدارويني عشوائيا وطبيعيا صرفا كما يزعم الطبيعيون (وهي حقيقة الأمر كما بينا) للزم ألا نثق في قدراتنا العقلية! وإذن فلا ضمان لأن تكون عقولنا نافعة في معرفة الحقائق المطابقة للواقع من حيث الأصل، إلا أن يكون التطور قد وجه وضبط

بكليته بحيث يفضي إلى عقول نافعة، مخلوقة بحيث تفيد بمعرفة صحيحة عند طلب أسبابها الصحيحة!

فالداروينية عنده حق، ولكن الداروينية الإثباتية Theistic Darwinism دون الطبيعية، لأن الطبيعية Naturalism تتناقض، مع أن التناقض راجع ضرورة إلى أصل النظرية نفسها على التحقيق، وهو الطبيعية التي جعلها هو مجرد تأويل فاسد لنظرية "علمية" لا تقوم عليها ابتداء. وكذلك في "الكوزمولوجيا"، فهو يقبل مبدأ التنظير الطبيعي في ذلك الباب، ولا يرى في مطلق اقتحام تلك الغيوب المطلقة بأنواع القياس الطبيعي ما يرجع به إلى الطبيعية المنهجية نفسها! فيسلم للكوزمولوجيين "بعلمية" ما يقال له الضبط الدقيق (أنه معرفة مطابقة للواقع، بصورة ما أو بأخرى، أو على الأقل يرجى لها أن تكون مطابقة للواقع، على ما عليه القوم من منهج وطريقة في الفرض والترجيح)، ثم يتأمل في كلام الطبيعيين الدهرية في تفسيرها، ليدفعه كله دفعا، رافعا في محله التفسير الإثباتي Theistic Fine Tuning، على طريقة القوم ومنطقهم الدهري فيما يقال له "تفسير" في هذه الأبواب!

ولأنه سلك ذلك المسلك المنهزم، مسلك التسليم للدهرية بميتافيزيقاهم الطبيعية بشأن العالم وحقيقته وأصله، من أجل ألا يتهم بالجهل والحماقة وخفة العقل، ومن ثم بيان أنها لا تتعارض مع اعتقاده الديني، بل إنها تفيد النصراني في بناء تصور علمي صحيح بشأن تلك الأمور، على أساس أن الرب الذي يؤمنون به هو الذي خلق الكون بالتفجير، وخلق الحياة بالتطوير، لزمه أن يثبت صانع الفلاسفة الربوبي أو الاتحادي على أحسن الأحوال، المعطل عن جميع الصفات! صانع يخلق بالعشواء والإهدار والتطوير والتحسين على أصول منحطة، عبر بلايين السنين، يترك القانون الطبيعي ليسير الأمر كله، ولربما "تدخل" من آن لآخر ليعدل المسار

حتى لا ينهار الأمر كله تحت تأثير القانون أو ينفرط العقد وينحرف عن إنتاج المتولدات التي يريدها على المدى البعيد! فهو يخضع بذلك كله، من حيث الأصل، لما تمليه قوانين الفيزياء والكيمياء، التي يفترض أنه هو خالقها من الأصل، إلا أن يأتي أحيانا بما يخرج عن إطار الإملاء الطبيعي المطرد في حوادث الخلق والتكوين والتصوير، لداعي الضرورة، إن كان فاعلا! فأي صانع هذا إن لم يكن هو إله داروين الربوبي العدمي؟؟

قوله: " فبداية من أواخر الستينات وبدايات السبعينات، لاحظ الأستروفيزيائيون وغيرهم أن كثيرا من الثوابت الفيزيائية الأساسية يجب أن تقع في إطار حيز ضيق للغاية، حتى تتطور الحياة العاقلة، على الأقل أي شيء يشبه الطريقة التي نظن أن هذا قد حصل بها."

قلت: ما معنى "لاحظ الأستروفيزيائيون" Noted that؟ من الواضح أن مجرد مبدأ الزعم بأن الكون حين بدأ خلقه باريه سبحانه، كانت جميع المواد فيه جارية على نفس هذه السنن والنظم والقوانين التي نعرفها ونشهدها الآن، هذا لا يتأتى لصاحبه إلا باصطحاب الطبيعية المنهجية! وهي اعتقاد أنه لا يمكن للنشأة وحوادثها إلا أن تكون طبيعية نوعا (أي جارية على سنن الطبيعة كما نعرفها، أو راجعة إليها بصورة ما أو بأخرى، كلها أو بعضها)! وإلا فمن أين لهم تسويغ أي قياس التمسوه في هذا الباب، وهو من الغيب المطلق الذي لم يشهده الله أحدا من خلقه، ولم يشهدهم شيئا يناظره؟ يقول "أي شيء يشبه الطريقة التي نظن أن هذا قد حصل بها" قلت: فمن أين لهم أصلا بهذا الظن وعلى أي أساس بنوه، وكيف قبلته أنت منهم؟ نحن نتكلم عن حوادث خلقت بها مادة العالم نفسها، وبها ركبت في تلك المواد طبائعها، فالذي يؤمن بأن العالم قد خلقه خالق حكيم متعال على الطبيعة التي صنعها وعلى نظامها الذي كان هو من ركبه فيها، فلن يفترض، من الأصل، خضوع جميع حوادث خلق الأنواع الحية

على الأرض لنظام الطبيعة، بل وخضوع نشأة الكون نفسه لنظام الطبيعة (الذي يقتضي ذلك الموقف طرده حتى يتقدم على تلك الحوادث نفسها، بصورة ما أو بأخرى، كما عليه أكثر الكوزمولوجيين اليوم)! وقد بينا أنك مهما سألت أي كوزمولوجي عما يعتقده في سبب نشأة العالم، فلن يجيب إلا بأحد جوابين لا ثالث لهما، إما أن يقول إن الزمكان المزعوم نشأ عن حوادث كمومية في خلاء كمومي متقدم عليه، أو يقول إن بداية الزمكان هي بداية الماضي نفسه، فلا يسوغ أن يسأل عن سبب نشأته المتقدم عليه، لأنه ليس قبله شيء أصلا! فعلى أيما تصور اخترت لحقيقة ما يقال له الانفجار الكبير وما نشأ عنه، فلن يكون اعتقاد وجود خالق قد أحدثه على ما زعموا أنه كان عليه، إلا حشرا لصانع فلسفي عدمي في إطار ميتافيزيقي دهري صرف، لا مكان فيه للرب الذي نؤمن به، الذي أرسل الرسل وأنزل الكتب، سبحانه وتعالى! فالكلام على الثوابت الفيزيائية أنها كانت على مقدار كذا وكذا في أول الخلق، هذا ليس ملاحظة، ولا مشاهدة، كما هو واضح، وإنما هو تنظير مبني على اعتقاد طبيعي مفاده أن العالم الطبيعي لابد وأنه لم يزل يتطور ويتحور من الأزل جريا على نظام الطبيعة، إجمالا! فإن قدر أن أفاد الطرد المطلق للمعادلات الفيزيائية في جهات المكان لتشمل العالم كله، وفي جهات الزمان لتشمل الماضي كله، بحيث لا تكون ثمة لحظة في الماضي إلا ولابد من جريان الحوادث فيها على نظام طبيعي ما، يمكن افتراضه وتصوره بألوان من القياس على ما نعرفه اليوم من أمر العالم، إن قدر أن أفاد هذا بأن ثمة نقطة ما في الماضي لابد وأن يكون فيها نظام الجاذبية قد ابتدأ بعد أن لم يكن، أصبحت هذه نظرية تفيد عندهم بمعرفة أصل هذه الهيئة التي نعرفها للعالم، وليس أصل الطبيعة ونظامها بالضرورة! فالقوم لا يرون في ذلك مانعا من فرض أن يكون النظام الكمومي أزليا، بمعنى أن وجوده متقدم على نشأة الزمكان المزعوم،

في إطار مفهوم للزمان مخالف لما سموه بالزمان الكلاسيكي! فلولا مسلمات الاعتقاد الدهري الطبيعي، ما وجد القوم ما يسوغ لهم أصلا أن يفرضوا ذلك الطرد المطلق لمعادلة النسبية العامة لتشمل جميع العالم في جميع الأزمان! وهذا أمر لا أظنه قد خفي على مثل بلانتينغا، ولذلك شواهده في بعض كلامه كما بينا فيما مر معك، ولكنه الهوى، نسأل الله السلامة!

فالثوابت الفيزيائية في الشروط الطبيعية الأولى للنشأة الطبيعية المزعومة للكون، فرضت فرضا على ما جعلوها عليه، وصيغت الميثولوجيا الانفجارية والانتفاخية كلها بناء على ذلك، مع اشتراط أن يكون أي تصور نظري يوضع في ذلك، مراعيا في بنائه، بطبيعة الحال، أن يستوعب الأسطورة الداروينية بتمامها، كيفما كانت! فإذا كان ذلك كذلك، فأيما قيم تراءى للقوم أن يفرضوها لتلك الثوابت، لم يمنعهم من ذلك مانع، ولم يجدوا ما يرجح غيرها عليها في الحس والعادة، لأن موضوع الفرض غيبي مطلق التغييب، وإنما اتفق لجملة الفروض أن تضافرت على هذا النحو فانتظم على تلك المقادير دون غيرها، واستقر في الوسط الأكاديمي الكوزمولوجي على هذا البناء بكليته بحذافيره (على اختلاف في كثير من تفصيلاته لا ترجيح فيه لرأي على رأي). وإذن فكيف يقال إن هذه ملاحظة أو اكتشاف أو كذا، ويقال إن كون الثوابت على هذه القيم خاصة إنما يفسر بالخلق الإلهي، فضلا عن أن يكون برهانا يدل عليه؟؟ الطريقة التي وضعت بها جميع تلك الفرضيات (وهي فرضيات كلها وليست ملاحظات ولا اكتشافات) إنما جُري فيها على التسليم السابق بالطبيعية المنهجية الصرفة كما بينا، فكيف يكون ما ينتهى إليه من ذلك، من جملة الفروض التي يجمعون بعضها إلى بعض مفضيا إلى إثبات الخالق الغيبي الذي نؤمن به؟؟ يقال ما كان من الممكن أن تنشأ الحياة في الكون كما نعرفها إلا إن جعلت الثوابت على هذه المقادير دون غيرها، وهو ما يدل على أنها

ضبطت ضبطا دقيقا من أجل ذلك، فأي صانع هذا الذي فرضوه جالسا على لوحة مفاتيح، يختار منها فقط تلك المقادير التي "تسمح" بنشأة الحياة كما يريد؟؟ ليس هو خالق النظام الطبيعي الذي نؤمن به! وإنما هو خالق خاضع للنظام الطبيعي اضطرارا، بالنظر إلى أن القوم سلموا تسليما بأن النظام الطبيعي هو الذي أنشأ الكون بما فيه، وأنه ما كان لتنشأ فيه الحياة لولا أن جرى على ما فرضوا أنه جرى عليه!

ينقل قول باحثين كوزمولوجيين: "إن المعالم الأساسية للمجرات والكواكب، والعالم الذي نعتاده بصفة يومية، تتقرر جوهريا على أثر ثلة من الثوابت المايكروفيزيائية وبتأثير الجاذبية... فكثير من معالم كوننا هذا - التي يبدو بعضها وكأنه مطلب ضروري من أجل ترقي أي نوع من أنواع الحياة – تعتمد اعتمادا دقيقا على "صدف" ظاهرة في مقادير الثوابت الفيزيائية." اهـ. ثم يعلق عليه بقوله: "فمثلا، لو كانت قوة الجاذبية أقوى ولو بقدر ضئيل، لكانت النجوم كلها عماليق زرقاء، ولو كانت أضعف بقدر قليل مما كانت عليه، فستكون كلها أقزاما حمراء، وفي كلتا الحالتين، ما كانت الحياة لتتطور. والشيء نفسه يقال في القوى النووية الضعيفة والقوية، فلو كان أي من هاذين مختلفا عما كان عليه ولو بقدر ضئيل، فإن الحياة، أو على الأقل الحياة من النوع الذي نراه، ما كانت لتترقى على الأرجح." قلت: هذا كله فرض قياسي لا أساس له إلا اعتقاد تسلط التأثير الزمكاني الوجودي المزعوم على جميع الموجودات في العالم في كل زمان، كما في قول الباحثين الذين نقل كلامهما مقرا له: "المعالم الأساسية للمجرات والكواكب والعالم الذي نعتاد عليه بصفة يومية، تتقرر جوهريا على أثر ثلة من الثوابت المايكروفيزيائية وبتأثير الجاذبية"! فمن أين لهم العلم بصحة هذا الزعم؟

لا علم ولا ظن ولا قريب من ذلك! هذا فرض تحكمي محض! ولا أساس له إلا السببية الطبيعية المغلقة كما بينا! الجاذبية هي التي جعلت كل شيء في العالم على ما هو عليه، مع كون الثوابت في ابتداء الأمر على ما فرضوا أنها كانت عليه! فلو فرض أن كانت الثوابت على خلاف ذلك (ومنها ثابت التمدد الكوني المزعوم)، لخلقت الجاذبية عالما على خلاف هذا بالكلية، وإذن لما وجدنا نحن ولما طرحنا هذه الأسئلة! فهي السلطان الأعلى الذي يجب على من يريد للعالم أن يكون على صفة معينة أن يضبط جميع الثوابت الفيزيائية فيه عند الفردية المزعومة على مقادير مخصوصة من أجل أن يسمح ذلك السلطان بجعله على تلك الصفة في منتهى الأمر! فهذا يقتضي ألا يكون الخالق الذي يثبتونه تأسيسا على ذلك التصور وفي إطاره، هو الرب الذي نعبده، الذي خلق العالم كله بجميع ما فيه على نحو ما شاء واختار سبحانه، ثم قضى في كل سماء أمرها، فجعل في جملة ما قضى، كون ما نسميه بالجاذبية في هذه السماء الدنيا على ما نرى لا على خلاف ذلك، وإنما هو كيان خاضع لذلك السلطان العلوي المزعوم للجاذبية، المهيمن على كل شيء، فكانت غايته أن يضبط تلك الثوابت في لحظة التفجير المزعومة على ما تسمح معه الجاذبية بنشأة الحياة وتطورها وترقيها فيما بعد، بالآليات الداروينية الصرفة، لتصبح الأرض في نهاية المطاف على نحو ما نرى! فلو لم يجعلها كذلك، لمنعته الجاذبية من أن يخلق الحياة بالعبثية الداروينية، سبحان الله وتعالى عن جميع ذلك علوا كبيرا! فالخالق في هذا التصور الكوزمولوجي إنما هو قانون الجاذبية على التحقيق، وإنما اتفق للثوابت اتفاقا أن تكون على ما كانت عليه، ومن ثم وجدنا نحن في هذا العالم لنبحث في الأمر! هذا ما عليه قام مبدأ النظر الكوزمولوجي نفسه من الأساس! قام على تسليط الجاذبية الزمكانية النسبانية على جميع المتحركات في العالم، من الأزل وإلى الأبد، كما سلكه أينشتاين نفسه! فمن أراد أن يسقط

نظرية الانفجار هذه بالكلية، فما عليه إلا أن ينتقي قيمة معينة للثابت الكوني في معادلة المجال، وأن يتناول جملة من المشاهدات الفلكية بتأويلات على خلاف ما عليه الانفجاريون، دون أن يتحصل القوم على مرجح من الحس أو المشاهدة بأي صورة من الصور، وإنما هو التأويل فوق التأويل! فالقوم فرضوا في التصور الانفجاري، في جملة ما فرضوا، أن تكون الثوابت في مبدأ الأمر على هذا النحو لا على غيره، ملتزمين بشرط أن تنتهي الأسطورة التطورية الطبيعية للكون، بإنتاج أرض تسمح للتطور الدارويني بالجريان عليها على ما يعتقدون أنه قد حدث، لتكون هي هذه الأرض كما نعرفها! فمهما كانت فروضهم التي اتفق لهم أن يفرضوها في تلك الأسطورة (دون أن يكون لشيء منها من المشاهدات غير المؤولة ما يرجحه على غيره تحقيقا كما بينا)، فلابد، بطبيعة الحال، أن تنتهي في النهاية إلى هذا العالم الذي نعرفه، وإلا لم تقبل! لذا فقولهم إن الثوابت الفيزيائية لو قدر أن كانت على غير هذه القيم بأعيانها ولو بفارق ضئيل، لما أمكن للحياة أن تتطور، هذا ليست له أي قيمة معرفية على الإطلاق، وإنما هو تحصيل حاصل، فيما لا أساس له في النهاية إلا التزام أولئك النظار بالطبيعية المنهجية الصارمة في بناء أوهام مفصلة بالغة الدقة، لقصة طبيعية محضة لنشأة العالم وجميع ما فيه، بحيث تكون ملفقة تلفيقا محكما مع قصة التطور الدارويني المزعوم! فرضوا فرضا تحكميا محضا في ماضي العالم المغيب تمام التغييب، بحيث يكون موصلا بالتفصيل الذي اخترعوه إلى كون العالم على ما هو عليه الآن، ثم قالوا إنه لو فرض أن كان الماضي على خلاف ما فرضوا لما أمكن أن يكون العالم على ما هو عليه الآن! فأي شيء هذا إن لم يكن محض الدوران؟ قد كان من الممكن، نظريا، أن تكون النظرية بجميع فروضها على خلاف ذلك بالكلية، وأن يتفق للوسط الأكاديمي الفيزيائي أن يتفق على نظرية مغايرة بالكلية، من غير أن يكون في الإمكان ترجيح هذه على

تلك من طريق الحس والمشاهدة، وإنما التكافؤ في التأويل! فأين العلم وأين المعرفة في هذا الدوران السخيف وتلك المصادرة الباردة؟ وأهم من هذا، كيف يقال في ذلك الهذيان، إنه مما يقتضي إثبات الخالق الذي نؤمن به؟

قوله: "فمثلا، لو كانت قوة الجاذبية أقوى ولو بقدر ضئيل، لكانت النجوم كلها عماليق زرقاء، ولو كانت أضعف بقدر قليل مما كانت عليه، فستكون كلها أقزاما حمراء، وفي كلتا الحالتين، ما كانت الحياة لتتطور." قلت فمن أين لك، وأنت الفيلسوف النصراني، الزعم بأن الحياة ما كان من الممكن أن تخلق لو قدر أن كانت الجاذبية على خلاف ما زعموا أنها كانت عليه؟ أتؤمن برب يعجز عن خلق ما يريد إلا تحت نظام طبيعي مخصوص؟؟ ما المانع العقلي من أن تخلق جميع صور الحياة في الأرض كما نعرفها، ونحن فيها، تحت ثوابت فيزيائية أخرى في عالمنا هذا مخالفة لما نعرفه، تخلق كلها بحيث تكون قادرة على العيش تحت ظروف أخرى مغايرة بالكلية؟؟ يا رجل أنت تتكلم عن رب العالمين الذي خلق كل شيء فقدره تقديرا! ما الذي يعجزه أو يمنعه، إن أراد، من أن يجعل الجاذبية عشرين ضعفا – مثلا - لما هي عليه في عالمنا، ومع ذلك نخرج إلى الدنيا فنرى الأنواع الحية كلها على نحو ما نراها لا على غير ذلك؟؟ هو الذي خلق الجاذبية وهو كذلك الذي يخلق الأنواع الحية كلها على ما يشاء ويختار، وهو الذي يركب الطبائع والثوابت في كل شيء، وحده لا شريك له! ((وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)) [القصص : 68] ولكن أنت تعتنق نظرية تقتضي شرك الجاذبية، إذ تجعل خيارات الخلق والتصوير محدودة في إطار ما تسمح به الجاذبية!

فإن قلت: ولكن أنا أعتقد أن الجاذبية نفسها مخلوقة وأن الذي جعلها على هذا المقدار دون غيره كان بوسعه أن يجعلها على خلافه إن شاء، قلنا: فأين إذن ما به يستجاز أن يقال إنها لو كانت على غير ذلك المقدار ما أمكن أن توجد الحياة كما نعرفها؟ لو قدرنا أنه أراد أن يجعلها على غير هذا المقدار، لحكمة لديه لا نعلمها، وهو مع ذلك مريد لأن يخلق الحياة كما نعرفها، فهل تتخلف القدرة؟ إن قلت نعم، حكمت على ربك بالنقص والعجز فيما حقيقته أنه من شرك الطبيعيين، وإن قلت لا، نقضت مسألة الضبط الكوزمولوجي الدقيق هذه وهدمتها من مبدأ الطرح، فتأمل! كيف يقول أحدهم كقولك هذا: "فإن وجود الحياة يبدو كذلك معتمدا اعتمادا دقيقا جدا على المعدل الذي به يتمدد الكون."، وهو مع ذلك معتقد أن الرب كان بوسعه أن يخلق جميع ما نراه من الأنواع الحية على ما نراها عليه إن قدرنا أن اقتضت مشيئته أن يكون تمدد الكون على خلاف ما هو عليه (على التسليم بمسألة التمدد هذه تنزلا، وبقدرتهم على إثباتها من طريقهم إن قدرنا أنها واقعة حقا)؟؟ من زعم ذلك تناقض ولا شك، شعر بذلك أم لم يشعر!

فإن قلت: ولكن هذه الهيئة التي عليها المخلوقات هي مقتضى كون الجاذبية على ما هي عليه، لأن التكيف والتوافق بين النظام الحيوي والنظام الطبيعي يقتضي أن تكون كذلك لا غير، وإلا ما أمكن الجهاز العصبي أن يوصل الإشارات إلى المخ وما أمكن للدم أن يتدفق من القلب وإليه .. إلخ، قلنا: أنت تصر على التحكم في قدرة الباري جل شأنه! من جديد نقول: ما الذي يمنعه سبحانه، من أن يخلقك أنت، على نفس هذه الصورة التي تراها، ونفس التشريح والنظام العضوي الظاهر لك، مع كونك قادرا على العيش في أرض جاذبيتها أربعة أضعاف جاذبية هذه الأرض، إن اقتضت حكمته ومشيئته ذلك؟ الطبيعيون يمنعون من ذلك لأنهم

يسلطون القانون الطبيعي كما يعرفونه على كل شيء، فما تجيزه القوانين الطبيعية فهو الجائز عندهم، وما لا يسمح به القانون فهو الممتنع عندهم، وليس في الإمكان حدوث حادث ناشئ عن غير الأسباب الطبيعية! وأعني بالطبيعية هنا أي الجارية على تلك السنن الظاهرة لهم الناشئة عن طبائع المواد في هذا الحيز المحسوس من العالم! فنحن نقول، الاعتقاد بالضرورية الطبيعية Natural Necessity هو من ثوابت الدين الطبيعي، وليس من الحق في شيء! وأعني بالضرورية الطبيعية اعتقاد أن الأسباب الطبيعية إذا اجتمعت، وجب وقوع المسبب حتما! هذا لا يقوم عند صاحبه إلا على اعتقاد الحتمية الطبيعية والانغلاق السببي الطبيعي، فالحوادث عنده تكون معللة تعللا تاما بالأسباب الطبيعية وحدها! طبائع الأشياء عند الدهري الطبيعي، على ما يعرفها عليه، هي التي بها يتعلل كل شيء، ولا يخرج عن ذلك إلا ما كان من محض العشواء، فهذا لا تعليل له أصلا عنده ولا سبب، ولا مرجح له على خلافه! فعندما يقال: لو كانت كثافة عظام الفقريات الآن، مثلا، أقل مما هي عليه لانسحقت تحت تأثير الجاذبية، فهذا مقبول إن كان المراد فرض اختلاف بعض المقادير الكلية التي قدرها رب العالمين في العالم عما هي عليه، مع بقاء جميع ما سواها على ما هي عليه. فالخلل هنا لازم لا محالة، لأنه سبحانه خلق كل شيء بمقدار، وأجرى جميع السنن السببية في الكون على ما يوافق إرادته وما يحصل به المقصود من الخلق على أكمل ما يجيزه العقل. ولكن عندما يقال: لو كانت الجاذبية في حوادث النشأة أعظم مما هي عليه الآن، لما أمكن أن نوجد اليوم لنفكر في الأمر، فهذا افتيات على رب العالمين وتقييد لقدرته، إذ يلزم منه تعجيزه عن خلق نظام كوني نوجد نحن فيه على ما نعرفه من صفاتنا وأحوالنا، مع كون الجاذبية فيه أو في حوادث خلقه (على التسليم تنزلا بأن الجاذبية كانت عاملة فيها) مغايرة لما زعموا أنها كانت عليه، ولو

بقدر ضئيل! هذا لا يقول به إلا من يرى أن النظام الطبيعي يوجب ضرورة ألا تكون الحياة إلا على هذه الكيفية التي نعرفها دون غيرها، حياة كربونية الأساس، تتركب الكائنات فيها من خلية واحدة أو أكثر، من أحماض أمينية مركبة من الكربون والأوكسوجين والهايدورجين والنيتروجين على نسب متفاوتة، وألا تنشأ أنواعها المتعددة إلا بالتطور الدارويني، على شروط فيزيائية وكيميائية يلزم أن تتحقق في العالم سلفا من أجل أن يجري ذلك التطور! فهم لا يرون إمكان ما سوى ذلك، لأن طريقتهم في التنظير الميتافيزيقي الكوني قد حصرت معنى الحياة نفسها وتعريفها في هذه الفئة المعتادة من الكائنات الحية دون غيرها مما يجيزه العقل، على اعتقادهم المادي في كيفيتها وما يلزم لوجودها ولأن تكون على نحو ما يرونها عليه! فإذا كان القانون الطبيعي على نحو ما يرون، والحياة على نحو ما يرون، فعلى طريقتهم الدهرية فلا إمكان لوجود الحياة – بهذا الإطلاق – إلا تحت هذا القانون الطبيعي بعينه! وهذه هي الحتمانية الطبيعية والانغلاق السببي الطبيعي، الذي تصير خيارات الرب فيها عند من يريد أن يثبته، محصورة فيما تجيزه تلك التركيبة من المواد والطبائع التي عليها هذا العالم. ولهذا تنبه بعض الأذكياء من الفيزيائيين الكونيين إلى وهاء مسألة الضبط الدقيق هذه، وقالوا إنها مع كونها لا تفيد بشيء، ولا تضيف شيئا للمعرفة على الإطلاق، فهي كذلك تقيد احتمالات نشوء الحياة مطلقا وفي أي عالم من العوالم الممكنة، بقيود لا أساس لها إلا ما نراه في هذا العالم بخصوصه! فحتى كتاب ما يقال له الخيال العلمي، الذين فرضوا، مثلا، أنواعا من الحياة في الكواكب الأخرى، لا قيام لها على هذه التركيبة الكيميائية التي نعرفها في أنواع الحياة على الأرض، كالذين فرضوا كائنات حية يكون أساس خلاياها السيليكون وليس الكربون مثلا، هؤلاء لا متسع لفروضهم تلك في ضوء مبدأ الضبط الدقيق، لأنهم جوزوا أن يجري التطور

الدارويني على خلاف ما جرى عليه في هذه الأرض بزعمهم، وأن يكون قد خضع لشروط أولية Initial Conditions مخالفة جذريا لما يزعمون أن الأمر كان عليه في هذا العالم! ومعلوم أن مجرد تجويز أن يخرج بعض الواقع عن إطار النظرية الميتافيزيقية الكلية التي جاء بها الفيلسوف، هذا يعد إبطالا لها! فمفهوم أينشتاين للزمان، مثلا، يبطله مفهوم ميكانيكا الكم للزمان، والعكس صحيح! فإما أن تكون حقيقة الزمان، من حيث هو شيء له حقيقة يمكن أن تعرف مبدئيا، هي أنه محور كارتيزي رابع في منظومة إحداثية تشكل نسيجا وجوديا في الأعيان، يؤثر في غيره من الموجودات ذلك التأثير الذي نقول له الجاذبية، وليس لمره بالتزامن على الموجودات المختلفة حقيقة مطلقة، وإنما هي حقيقة نسبية ترجع إلى اختلاف الراصد من نظام إسنادي إلى آخر، وإما أن تكون حقيقته أنه تتابع الحوادث باطراد مطلق، كما في ميكانيكا الكم، التي بقي تصور الزمان فيها على ما كان عليه قبل أينشتاين! فإما أن تعتقد، أيها الفيزيائي، أن الزمان على هذه الحقيقة أو أنه على تلك! أما أن تروم الجمع بينهما بأن تقول إن ثمة نوعان من الزمان في الفيزياء، الزمان الكلاسيكي النسباني، والزمان غير الكلاسيكي، كما سلكه بعضهم، فهذا لا يخرجك من التناقض وفساد التصور، ولا يغني عنك شيئا! وكذلك هنا، فعندما يقال إن الحياة (بهذا الإطلاق) ما كانت لتنشأ إلا في ظل السيناريو الدارويني الذي يزعمون أنه جرى على الأرض، ومن قبله النشأة الكيميائية المزعومة للحياة نفسها، ومن قبل ذلك، النشأة الفيزيائية لجميع المواد المطلوب أن تتوفر في العالم، وظروف الأرض والمجموعة الشمسية التي يجب أن تكون عليها من أجل ذلك كله، فهذا يقتضي امتناع أن توجد أي صورة من صور الحياة في أي عالم من العوالم الممكنة، على خلاف هذا! وهذا هو وجه قولهم بأنه ضبط دقيق، إذ يزعمون أنه لو قدر أن اختلف شيء من الشروط الأولى

المزعومة ولو بقدر ضئيل للغاية، لما أمكن أن توجد الحياة بإطلاق، أو الحياة العاقلة بتقييد! من هنا جاء قولهم "دقيق" Fine- Tuned! فإذا جاء منهم من يعتقد جواز نشأة الحياة في ظروف مغايرة بالكلية وفي عالم تكون ثوابته الفيزيائية ونشأته هو نفسه مخالفة لما زعموا أن الأمر كان عليه في عالمنا هذا، فهو بذلك يسقط عليهم ذلك التعريف الكلي، ويلزمهم بتقييد ما لا يجدون فيه من طريقهم إلا الإطلاق الكوني الفاحش! وهم مضطرون بعد، مهما جاء هو بأدلة حسية يزعم أنها تؤيد موقفه، أن يعيدوا تأويلها بما يوافق ما هم عليه! بمعنى أن يقولوا إن تلك الحياة الأخرى Exotic Life form التي لا تقوم على أساس كربوني ولا تفتقر إلى هذه الشروط التي تفتقر إليها جميع صور الحياة المعروفة على الأرض، لو قدر ثبوتها في الأرض أو في جرم من أجرام السماء، فلابد أن يكون وجودها، أيضا، مشروطا بأن تكون نشأة الكون على ما كانت عليه، لأنه هو أيضا سيكون خاضعا بالضرورة لسنن الطبيعة في خلقه وتصويره! وهو ما قد يفضي إلى تعديل بعض التفصيلات في سيناريو الأسطورة التطورية المزعومة للكون، من جنس ما هو جار بين أيديهم في كل يوم وليلة بلا حد ولا قيد ولا إشكال! المهم أن تبقى النظرية مستوعبة لكل موجود، شاملة لكل سبب، محيطة بكل نظام، وأن تبقى إطلاقاتها قائمة بلا قيد إلا ما قد تمليه إطلاقات أخرى من نفس النوع، قد اتفق لها أن لقيت استحسانا أكاديميا عاما، كما كان عليه الشأن في أول الأمر مع نظرية الانفجار العظيم نفسها! فمما لا يعرفه كثير من الناس أن اسم النظرية نفسه "الانفجار العظيم" هذا إنما أطلقه عليها الفلكي فريد هويل في أول ظهورها (وكان من أنصار أنموذج الكون الساكن Steady State Cosmology) تهكما وسخرية!

قلت: قوله: "وهذا ولا شك أسخن مما يحتمل. يستنتج هوكينغ أن الحياة ممكنة فقط لأن الكون يتمدد على المعدل المطلوب من أجل اجتناب إعادة الانهيار من جديد. ففي تلك الفترة الأولى من عمر الكون، كان يتعين للضبط الدقيق أن يكون أدق بكثير." قلت: نخبرني بربك، هل هذا كلام من يعتقد كمال العلم والقدرة في الخالق الذي هو حريص على إثباته، يسميه كما يسميه غيره بصانع المثبتة Theistic Creator؟؟ "صانع المثبتة" هذا لا يملك من العلم أو من القدرة أو من كليهما معا، ما يجعله يجري حوادث خلق الكون على خلاف ما جرت عليه، لأنه لو فعل، لانهار الكون من جديد، وإذن لعاد الأمر وكأنه لم يكن! فهل هذا هو الرب الذي تؤمنون به معاشر المسلمين، بل هل هذا هو الرب الذي تؤمن به أنت يا بروفيسور بلانتينغا؟ إنا لله وإنا إليه راجعون!

ينقل بلانتينغا قول الفيزيائي جون بولكينغهورن: " نحن نعلم أنه كان ينبغي أن يوجد اتزان دقيق للغاية بين تأثيرين متنافسين، تأثير التوسع الانفجاري من جانب، وتأثير الانكماش الجاذبي من الجانب الآخر، في أقدم عصور الكون التي يمكن لنا الكلام عليها" ثم لا يزيد في التعقيب على أن يقول: "وهذه حقائق مذهلة!"! فبالله أي حقائق هذه وبأي مستند صيرتها أنت حقائق؟؟ بمجرد أن المعادلات تجيز بناء تصور كهذا، وأن المشاهدات يجوز تأويلها بما يوافقه؟؟ هل هذه آلية لإنتاج الحقائق يا بروفيسور، أم لإنتاج الأوهام والأساطير؟؟ ثم بالله أي خالق هذا الذي إذا أراد أن يخلق عالما كعالمنا هذا، جعل جميع حوادث الخلق فيه خاضعة لقوتين تتنافسان، إحداهما تمضي به في طريق البناء والنماء، والأخرى تناقضها، تريد أن ترجع به إلى التهدم والانسحاق، فيكون مضطرا لأن يحفظ اتزانا دقيقا بين القوتين رجاء أن يظل العالم ماضيا في طريق ينتهي به إلى ما هو عليه الآن؟؟ هذه صنعة العاجز الذي لا يجد إلا أن يبحث

عن طريق يستعمل فيه سنن الطبيعة المفروضة عليه فرضا، رجاء أن يبني تحتها ما يريد! يريد أن يرفع بنيانه فوق ارتفاع معين، لكنه يضطر من أجل ذلك إلى أن يجعله على صفة كذا دون كذا، اجتنابا لأن تعرض عليه أسباب الانهيار والتهدم! فهذا من أحط ما أنت راء من صور تشبيه الأفعال! يقاس الرب على الإنسان وعلى صنائع البشر في الكيفية التي خلق بها السماوات والأرض، ولا بد أن يقاس، لأننا لن نقتحم مسألة الخلق الإلهي بالتنظير والرأي إلا جئنا فيها بالقياس لا محالة! وهذا هو رأس الآفة وبيت الداء وأصل المرض فافهموا يرحمكم الله!

ليست هذه حقائق مذهلة ولا اكتشافات ولا شيء من ذلك، وإنما هي أوهام فوق أوهام وتخرصات فوق تخرصات، ولها من اللوازم في صفات الله وأفعاله ما ترى، نسأل الله السلامة! يعلق بلانتينغا على هذه "الحقائق المذهلة" كما سماها، فيقول: " فالآن، واحد من ردود الأفعال الواردة لهذه الصدف الظاهرية المذهلة هو أن نراها داعمة لزعم الإثباتيين بأن الكون كان له خالق "شخصي"، وعلى أنها تقدم مادة لحجة إثباتية منضبطة." ثم يمضي دون تعليق على ذلك الموقف، ليورد المواقف الأخرى المخالفة، يتكلف إسقاطها واحدا بعد الآخر، وكأنما يسلك طريقة الحجاج بإسقاط التفاسير المستبعدة Explanation by Elimination التي يتبعها التجريبيون في كثير من المسائل اتباعا صحيحا، ويقحمها الطبيعيون فيما ليس لهم أن يستعملوها فيه من أنواع المسائل، ومنها هذه القضية تحديدا! يقول: " وموقف آخر في المقابل، هو الزعم بأنه ليس في شيء من ذلك ما يتطلب تفسيرا أصلا. ففي جميع الأحوال، وبصرف النظر عما كانت عليه الأحوال، فإنه يكون مما تضعف احتماليته للغاية أن يكون الوضع على تلك الحال. فإن حملنا الأمر على محمل صحيح، فإن هذا الكلام قد يصح، ولكن ما علاقته

بالمطلوب؟ هب أننا نلعب البوكر. وفي كل مرة أوزع ورق اللعب، أحصل على أربعة آسات وكارت واحد وحشي Wild Card، وحينها يساورك الشك، فأخفف أنا من شكك هذا بأن أقول إن حصولي على تلك الكروت في كل مرة أوزع الورق، ليس أقل احتمالية من أن أحصل على أي مجموعة أخرى محددة من الأوراق في كل مرة، تتكرر على هذا النحو في نفس عدد مرات التوزيع. فهل يقبل هذا التفسير في كازينو "دودج سيتي" أو "تومبستون"؟" قلت: السبب في كونهم لا يرونه ملجئا إلى تفسير يا بروفيسور، هو أنهم إنما أسسوه على الطبيعية المنهجية وعلى مبدأ الانغلاق السببي الطبيعي! وهو ذلك المنهج الذي استجازوا بالتأسيس عليه أن يتناولوا تلك القضية الغيبية مطلقة التغييب بالترجيح الاحتمالي، وكأنما نتكلم عن نوع من الوقائع المتكررة التي استفاضت الخبرة والعادة بنظائرها، فنرجح هذا النظير على ذاك! فعلى هذا المنهج، فسواء كانت الأسباب الطبيعية الأولى على نحو ما فرضوا تحديدا أو على غيره، فبتطبيق المنطق الاحتمالي على هذا النحو، فلا عجب أن يصبح أي تركيب لجملة من الشروط الأولى، كيفما اتفق لها أن تكون، أمرا مما تقل احتماليته للغاية، بمجرد النظر إلى جميع الاحتمالات الأخرى الممكنة طبيعيا، أي التي تجيزها المعادلات نظريا (ولا تمنع المشاهدات شيئا منها كما بينا)! فإنما اتفق لها اتفاقا أن تكون على هذه التركيبة بخصوصها، التي تفضي في النهاية بالضرورة الطبيعية إلى نشأة الحياة وإلى وجودنا في هذا العالم! فعلى النحلة الطبيعية ليس ثمة ما يحلئ للتفسير أصلا! هذا ما تنتهي عنده سلسلة التفاسير، كما ألزمت أنت نفسك دوكينز به في ردك على كتابه "وهم الإله"! فقد زعم دوكينز أننا إن أثبتنا صانعا غيبيا لجميع هذا التعقيد البالغ Complexity في العالم وفي حشوته الحية، فلابد أن يكون ذلك الصانع نفسه "أعقد" بكثير من صنعته، ومن ثم لا نكون قد فسرنا شيئا، لأننا إذن نكون مضطرين لتفسير ذلك التفسير

نفسه! فقال بلانتينغا في جملة ما قال: إنه إن سلمنا جدلا بكونه "معقدا" على ما به يعرف دوكينز التعقيد أو التعقد، فلا يلزم من ذلك أن يكون التفسير به وبخلقه تفسيرا ناقصا أو ملجئا لطلب تفسير لوجوده هو نفسه! فلابد لسلسلة الأسباب من نهاية تنتهي عندها، ولسلسلة التفاسير من حد لا يطالب العاقل أحدا بالإتيان بتفسير بعده! فهؤلاء اختاروا أن ينهوا سلسلة التفاسير عند هذا الذي قالوا به، لأنهم أصلا ما قالوا به إلا تأسيسا على الطبيعية المادية الصرفة! فهم متناسقون في ذلك الموقف إجمالا، وإن كان يقوم على منهج متناقض واعتقاد غيبي لا يخفى تناقضه وبطلانه على صبي صغير! خلافا لمن أخذ عنهم تلك الزبالة الدهرية ثم حرص على أن ينسبها إلى فعل رب العالمين سبحانه وتعالى عما يصفون، يقول إن هذا هو أفضل ما تفسر به! أنت تطالبهم بتفسير إضافي لا يلزمهم به أصل المنهج الذي عليه أسسوا الدعوى نفسها التي تطالبهم بتفسيرها!

ثم يورد موقفا آخر، فيقول: "وثمة رد فعل آخر وهو استحضار المبدأ الأنثروبي، وهو صعب الفهم حقا، ويأتي في عدة صور متباينة، ولكنه (في الصورة التي تبدو أقرب للعقل) يبدو مقررا أن الشرط الضروري ليتمكن أي أحد من مشاهدة تلك القيم، هو أن تكون على ما هي عليه، أو أقرب ما يمكن إلى ذلك. فنحن هنا ونشاهد هذه الثوابت، فقط لأنها على القيم التي هي عليها. ومن جديد، هذا يبدو صحيحا، ولكن ما الذي يفسره؟ لا يزال يبدو الأمر محيرا أن تكون تلك القيم على ما هي عليه بالضبط. لماذا لم تكن على خلاف ذلك بالكلية؟ ليس من الممكن تفسير ذلك الأمر بمجرد تقرير أننا هنا بالفعل، تماما كما أنه ليس من الممكن تفسير حقيقة أن الإله قضى بخلقي وتصويري (بدلا من تفويت خلقي لصالح غيري) بمجرد تقرير أنه لو كان الإله لم يرد أن يخلقني، لما وجدت هنا ولما طرحت هذا السؤال."

قلت: أولا نشكر لك اعترافك بأن عامة صور المبدأ الأنثروبي صعبة الفهم، فهو اعتراف لا يجسر عليه عامة المشتغلين بهذا الباب من أهل قبلتنا، والله المستعان. ثانيا: من جديد، ليس هذا تفسيرا كما هو واضح، ولكنه طريقة أخرى للعبارة عن هذا الدوران الأصيل الذي تأتي منه مسألة الضبط الدقيق هذه عند الكوزمولوجيين، كما نرجو أننا قربناه إلى الأذهان فيما مر! أنت يا بروفيسور تصر على معاملة مواقف لم يزعم أصحابها أنهم يقدمون بها تفسيرا للمسألة، على أنها تفاسير فاشلة ولا تقوم بالمطلوب! فإن كان هذا مطلوبا على مذهبك، فعلى مذهب القوم، الذي يقوم عندهم على نفس الأصول التي أسسوا مسألة الضبط الدقيق هذه عليها كما بينا، فليس هو بمطلوب أصلا! فإما أن ترده أنت عليهم بالكلية دفعا للأصل الطبيعي الذي يقوم عليه، أو تقبله منهم على اكتفائه التفسيري الذاتي دون زيادة! أما التلفيق بين ملتين على هذا النحو، فلا نقبله نحن كما أنهم لا يقبلونه! هذه هي خلاصة المسألة لمن أراد أن يضبطها. والواقع أن هذا المثل الذي يضربه الرجل في ذيل الكلام يدل على عمق الاختلاط المنهجي لديه. فهو يقول إنه ليس من الممكن تفسير حقيقة أن الإله قضى بخلقي وتصويري بمجرد أن يقال إن هذه هي إرادته ولو أراد غير ذلك لما كان! والحق أن إرادة الباري جل شأنه وحكمته هي منتهى سلم التعليل عند المسلمين وعند أهل الكتاب على السواء، علمها من علمها وجهلها من جهلها. ولا يضيرهم الجهل بها في كل مسألة، وهو ما به يرد هو نفسه على إلحاح الملاحدة في المطالبة بتفسير تفصيلي لكل نازلة من نوازل الشر التي تنزل بالبشر في هذا العالم، يجعلون ذلك شرطا للإيمان بوجوده! نحن نكتفي بإثبات الحكمة لله تعالى، ونجزم بأن الخير في إراداته راجح قطعا، ولا يضيرنا الجهل بوجهه في أكثرها، ولا نشترط العلم به حتى نسلم بوجوده! فإن ثبت لدينا من طريق الوحي أن إرادته في هذه المسألة أو تلك هي كذا، وعرفنا الحكمة منها

حمدنا الله على ذلك، وإلا لم يضرنا الجهل والتفويض! ولكن على هذا الكلام، فأنت تشترط تفسيرا خاصا لإرادة رب العالمين أن يخلقك أنت بعينك وقد كان بوسعه ألا يفعل، وتقول إنه لا يكفي في ذلك أن يقال: هكذا أراد الرب، ويوقف عند هذا الحد! وهذا تجاوز لحد التفاسير في دينك أنت، تطالبهم به بأن يتجاوزوا حد التفاسير Limit of Explication في ملتهم هم، وهو النظام الطبيعي نفسه الذي فسروا به بالفعل كل شيء! فأي خلط هذا، وما ثمرته، ومن المنتفع به في النهاية؟

ثم يمضي بلانتينغا ليقول:

"ولكن رد الفعل الذي يعنيني أكثر من غيره هنا، مختلف عن هذا، وهو مذهل جدا"، ثم ينقل كلاما لستيفن هوكينغ ولصاحب له في ورقة بحثية تدلك على وهاء وسفاهة تلك المباحث التي يقبلها بلانتينغا قبولا منهجيا إجماليا ثم يدعو أصحابها لأن يفسروا ما انتهوا إليه فيها تفسير الإثباتيين! عنوان البحث، وهو منشور في 1973 الميلادية: "لماذا نرى الكون متماثلا في جميع الجهات Isotropic؟"، أي ما الذي حصل في النشأة الكوزمولوجية المزعومة للكون، فأدى إلى أن يكون توزيع الأجرام المرصودة في السماء متماثلا في جميع الجهات تقريبا على نحو ما نرى؟ وهذا سؤال عبثي من مبدأ الطرح، لأن ما حدث في النشأة غيب مطلق لا يوصل إليه بالنظر في المعادلات! ولأن كون الأجرام والخلفية الإشعاعية موزعة على ما هي عليه خلافا لغير ذلك، يرجع لعلل وحكم لا يعلمها إلا باريها سبحانه. فإن كان من جواب عن السؤال، فلا مصدر له إلا الوحي! ومع ذلك تأمل الفرضية التي يجري البحث على اختبار صحتها، يقول المؤلفان في المستخلص: "نبحث هاهنا السؤال عما إذا كانت الحالة التماثلية الحالية للكون قد

نشأت عن شروط ابتدائية initial conditions فوضوية نوعا Chaotic، بمعنى أن تكون اعتباطية، بحيث تتلاشى التفاوتات الظاهرة anisotropy بالتدريج مع توسع الكون."

قلت: فكأنما يقول: "نبحث فيما إذا كان هذا التماثل شبه التام في جميع جهات قبة السماء، قد نشأ من بدايات فوضوية"، وهو بطبيعة الحال ما يطمعون في ابتداع نماذج كوزمولوجية تقرره! فهل هذا مطلب بحثي يحمله عاقل، ولا أقول نصراني، فضلا عن لاهوتي مخضرم، على محمل الجد أو يرفع به رأسا؟؟ الجواب واضح! ما هو إلا عبث رياضي سخيف في النظر في أي معدلات التوسع المزعوم تسمح للكون بأن يصل إلى حالة التماثل الحالية، في جملة النماذج التي تفرض كونا متماثلا عبر تطوره الكوزمولوجي. أي أن موضوع البحث والمقارنة لا يتجاوز النظر في السماحية الرياضية لجملة من النماذج المختلفة لأن يكون الكون قد ترقى فيها قبل فترة زمانية معينة من مقدمات كلها مفروضة، في كل أنموذج منها، فرضا اعتباطيا تحكميا بالأساس، بحيث ينتهي الأنموذج إلى حالة التماثل المشاهدة حاليا. فلما فعلا ذلك، وجدا أن ثمة عددا قليلا من الشروط الأولية التي تصنع نماذج يكون الكون فيها متماثلا في حدود الفترة الزمانية الحالية من عمره، ومن تلك الشروط أن يكون معدل التمدد المزعوم مساويا أو قريبا من سرعة الهروب من تأثير الجاذبية. وهو ما تأولاه على أن الأمر لم يكن بالفوضوية التي توقعاها، وهو ما اقترحا لتفسيره فكرة أن ثمة أكوان لا متناهية، كل واحد منها بدأ بشروط مختلفة، وإنما اتفق لنا اتفاقا أن وجدنا في العالم الذي فيه شروط تفضي إلى وجودنا وإلى هذه الحالة التي نراه عليها! ومع هذا، يأتي بلانتينغا، الفيلسوف اللاهوتي الكبير، ويقع على بحث كهذا، فلا يبالي بالسفسطة في أصل الطرح البحثي نفسه، ولا بالهذيان في طريقة الجواب عنه، بل يترك ذلك كله ويلتقط فقرة في مختتم البحث وبيان نتيجته Conclusion

ليعقب عليها بقوله: "والفكرة هنا واضحة: هذه القيم للثوابت الكونية ولمعدل التمدد في كوننا هذا، هي حقا محيرة وحقا تحتاج إلى تفسير، والتفسير هو أنه ثمة أكوان متباينة لا نهاية لعددها، تظهر فيها جميع التراكيب الممكنة للشروط الابتدائية ولقيم الثوابت الأساسية، وبالطبع فليس من المستغرب أن نكون موجودين في واحد منها، حيث تكون تلك القيم سامحة بتطور الحياة الذكية"! قلت فإنا لله وإنا إليه راجعون! لم يسؤك في البحث إلا فرضية العوالم اللانهائية في تفسير ما زعما أنهما قد انتهيا إليه؟؟ يا رجل المطلب نفسه، وطريقة بحثه، كلاهما جاريان على الطبيعية المنهجية الصرفة، فبأي عقل يتوقع أو يرجى من بحث هذا موضوعه، أصلا، أن ينتهي إلى تفسير ما انتهى إليه، بأن الخالق الذي تؤمن أنت به هو الذي جعل الأمر على هذا النحو؟؟

ثم يواصل بذكر أنموذجين حاول صاحباهما أن يتجاوزا تلك "الإشكالية"، لا لشيء إلا ليبين أنه مطلع ومتابع لأحدث ما عند القوم، كما صرح بذلك بنفسه حيث قال:

To make my point, I could stop here; but in the interests of being au courant, I mention a couple of further developments to this ongoing and fascinating story

"يمكنني أن أكتفي بهذا القدر لبناء حجتي، ولكن لمصلحة أن أبدو متابعا لأحدث ما هنالك، فسأذكر تطورين جديدين لهذه القصة المستمرة والمشوقة!" قلت: مشوقة Fascinating؟ يا أخي عيب والله! عار عليك! الله المستعان! الأنموذجان على أي حال، أحدهما لألان غوث، وفرض فيه، في عام 1980، ما سماه بلانتينغا "حلا لتلك المشكلة المزعومة التي نتصل على نحو مثير باقتراح هوكينغ وكولينز للعوالم المتعددة"، فقال إننا لا نحتاج لأن نفرض أكثر من كون

واحد، ولكن ذلك الكون، هو أضخم بكثير جدا من الكون المشاهد، بل إن الكون المشاهد ينكمش فيه إلى موضع مهمل في ركن ضئيل للغاية من أركانه. فيعلق بلانتينغا بأن هذا الأنموذج كان موضوعا لمشكلات عدة، أي في نقد الأقران وتعليقهم عليه. وواقع الأمر أنه ليس في نماذج الكوزمولوجيين ما يمكن أن يعد "مشكلة" ناقضة أو هادمة لأي واحد منها، بالنظر إلى طريقة إنتاج الفروض النظرية واستمداد النماذج عندهم! لا ينتقض النموذج إلى الحد الذي يتفق عنده على بطلانه البتة، إلا إن أخطأ صاحبه خطأ جسيما في التعامل مع معادلات النسبية العامة، مثلا، أو خالف قانونا من القوانين الطبيعية المجمع عليها! لكن على أي حال، وعلى عادة اللاهوتيين في تتبع تصانيف الكوزمولوجيين بالأخذ والرد، لا يحتاج أحدهم لأكثر من أن يرى بحثا واحدا ينتقد صاحبه هذا الأنموذج أو ذاك، حتى يقرر أنه يعاني من المشكلات والانتقادات .. إلخ! وقد بينا في نقدنا لمناظرة ويليام لين كريغ وشون كارول في سلسلة من سلاسل هذه القناة كيف لم يزل كريغ على امتداد المناظرة يحاول إقناع الناس بأن أنموذج كارول فيه إشكالات، مع أن كارول لا يبالي بالإقرار بذلك، بل يذكر أن فيه إشكالات أخرى لم يذكرها كريغ، ولا يرى أن شيئا من تلك الإشكالات التي ذكرها يقتضي صحة ما يريد هو أن ينتهي إليه من ذلك النقد! فعندما تخوض بقدميك في حمأة ليس فيها حقيقة للدليل ولا للاستدلال ولا للترجيح ولا لشيء البتة، فلا تحاول أن تلزم مخالفك بما يقتضي مجرد منهج النظر نفسه في الصنعة نفسها أنه لا يلزمه ولا يمكن أن يلزمه! ولعلنا لا نبعد النجعة إن قلنا إن ما يقال له الأسترولوجي أو التنجيم، هذا العلم الزائف، المجمع على زيفه عند عقلاء العالم، قد تكون في بعض دعاوى أصحابه شبهة دليل لا ترقى جل الأدلة المستند إليها في بناء تلك النماذج عند الكوزمولوجيين إلى أن تكون بقوتها، والله المستعان.

وأما الأنموذج الثاني فلأندريه ليندا، وفيه فرض كونا يتركب من عدد كبير من الأكوان الصغيرة، تلك الأكوان الصغيرة هي أعظم حجما بكثير من كوننا المشاهد، وكل كون صغير فيه شروط ابتدائية مختلفة عن الآخر. يذكره ولا يبالي حتى بالتعليق عليه! فكيف وبأي عقل يحمل هذا الهراء على محمل الجدّ، لا لشيء إلا لأن المعادلات تجيزه والمشاهدات لا تمنعه؟؟ أين علمك وأين عقلك في الحكم على هذا السخف أيها الفيلسوف المحترم؟؟ سبحان الله العظيم! ثم يقول بلانتينغا [10]:

---

[10] *The point I'd like to make can be put as follows. Consider the 1973 Hawking-Collins suggestion, or the more recent Linde suggestion. Suppose, furthermore, that the principal motivation for putting forth such suggestions is that they avoid the cosmic coincidences. On these theories there is nothing noteworthy about those constants displaying (in our universe) the values they do; all values get realized in one universe or another, and of course we human observers would be found only where the values are such as to permit life. In other words, suppose the motivation for putting forward these theories is what McMullin calls the "Principle of Indifference."*

This Principle of Indifference isn't easy to state exactly; an essential part of it, however, is the idea that physical theory should avoid anything like those cosmic coincidences, these apparent fine-tunings, with their implicit suggestions of design.

Now a theist, so it seems to me, needn't be at all impressed by this principle. If God created the world, why shouldn't it display singularities or 'coincidences' of that sort? Why think we don't have a proper physical theory until we get rid of such

النقطة التي أود أن أقررها هنا، يمكن أن تحرر على النحو التالي. تأمل اقتراح هوكينغ وكولينز في 1973، أو اقتراح ليندا الأحدث منه. ولنفرض، أن الدافع الأساسي وراء وضع أمثال تلك المقترحات، هو أنها تجنبهم "الصدف الكونية" Cosmic coincidences. فعلى تلك النظريات، لا يكون ثمة أمر جدير بالانتباه في كون تلك الثوابت تظهر في كوننا على تلك القيم التي هي عليها. فجميع القيم تظهر في كون من الأكوان أو في آخر، وبالطبع فلابد أننا معاشر البشر الراصدين، سنوجد في الوحيد منها الذي تكون فيه القيم مواتية لوجود الحياة. أو بعبارة أخرى، لنفرض أن الدافع لوضع تلك النظريات هو ما سماه ماكمولين McMullin بمبدأ اللااكتراث Principle of Indifference. يقول: "هذا المبدأ ليس من السهل تقريره تقريرا دقيقا، ولكن جزء جوهري من أجزائه، هو فكرة أن النظريات الفيزيائية يجب أن تجتنب أي واحد من تلك الصدف الكونية، تلك الحالات الظاهرة من الضبط الدقيق، على ما فيها من اقتراح مبطن للتصميم." يقول بلانتينغا: فالآن، لا يلزم المثبت Theist على ما يبدو

---

things? If there were two theories that were empirically equivalent (or nearly so), one of them involving violations of the Principle of Indifference and the other involving the postulation of uncountably many other universes or an enormous number of mini-universes, the theist might well prefer the first on grounds of economy. Of course there may be or may soon be independent evidence for these other hypotheses, evidence that is independent of the Principle of Indifference. Even if there is, however, there may well be a difference between the epistemic probability of a Hawking-like many-universe theory on theism and the evidence on the one hand, and the epistemic probability of such a theory on naturalism and that evidence on the other.

لي، أن يقيم لهذا المبدأ وزنا. فإذا كان الإله قد خلق العالم، فلماذا لا ينبغي أن تظهر فيه فرديات و"صدف" من ذلك النوع؟ لماذا نظن أننا ليس لدينا نظرية فيزيائية مقبولة حتى نتخلص من تلك الأشياء؟ إن كان ثمة نظريتان متساويتان إمبريقيا (أو قريب من ذلك)، إحداهما تشتمل على خروقات لمبدأ اللاكتراث هذا، والأخرى تشتمل على فرض عدد يفوق الحصر من الأكوان أو أي عدد عملاق من الأكوان الصغيرة، فإن المثبت قد يفضل الأولى على أساس الاقتصاد. بالطبع قد يوجد أو قد يظهر بعد أدلة مستقلة لتلك الفروض، أدلة مستقلة عن مبدأ اللاكتراث. ولكن حتى إن وجد ذلك، فقد يبقى ثمة فارق بين الاحتمالية المعرفية لنظرية على غرار الأكوان الهوكينغية المتعددة تأسيسا على الإثباتية، والأدلة المنصوبة لها من جانب، وبين الاحتمالية المعرفية لنظرية كهذه تأسيسا على الطبيعية وتلك الأدلة نفسها من الجانب الآخر.

قلت: هذا الكلام فيه أغاليط منهجية كبرى أعدها آية على أمور يتفنن الفيلسوف في تكلفها تحت تأثير الأهواء الأكاديمية في نفسه، مع أنه يعلم علم اليقين أنها هراء لا أساس له، وإلى الله المشتكى! أقول إنه يعلم أن هذا الباب كله عند الفيزيائيين المعاصرين هو باب عبث محض، وأنه لا يرقى به دليل من طريقهم أبدا، لأنه يعلم، كما أنهم جميعا يعلمون، أن موضوع التنظير نفسه (نشأة الكون بعد عدمه، ونشأة الحياة فيه بعد عدمها، وتعدد الأنواع الحية بعد عدمها) هذا لا يوصل إلى شيء فيه بالحس المباشر والمشاهدة الصريحة، ولا يقاس على شيء مما في العادة البتة! فالقوم لولا جريانهم على الطبيعية المنهجية المحضة، ما استجازوا اقتحام تلك الأبواب بالنظر التجريبي أصلا! فالذي يؤمن إيمانا صادقا بأن هذه الحوادث كلها، حوادث الخلق الأول للعالم وما فيه، كانت من الأفعال الإلهية الخاصة التي لم يشهدها أحد من الخلق

ولم يشهدوا نظيرا لها بالضرورة، فلن يجترئ أبدا على أن يطرح شيئا منها للفرض التفسيري والرأي والتنظير القياسي، من أيما نوع كان! بل سيفوض العلم فيها لربه وحده، فإن جاءه شيء في الوحي المنزل على الرسل في هذه المسائل سلم به وآمن وانقاد، ثم توقف ولم يزد عليه حرفا! فإنه لا يعلم كيف خلق الله هذا العالم وما فيه، إلا الله وحده! وإلا فأين شهد أحدنا عالما يخلق حتى يقيس عالمنا عليه؟ وأين شهد أنواعا حية تعد بالملايين على أرض كأرضنا هذه وهي كلها تخلق بعد عدمها، ليقيس عالمنا هذا عليه؟؟ لم يكن شيء كهذا أبدا ولن يكون! ولكن ما كان الفيلسوف الدهري الطبيعي الجاحد المستكبر، ليقال له لا طريق أمامك لتحصيل المعرفة بهذه الغيوب العظيمة إلا بأن تتبع المرسلين، فيرضى بذلك ويخضع ويسلم، ويؤمن مع المؤمنين! بل لابد أن يتفتق ذهنه الألمعي عن طريقة، بل طرق شتى، يقطع بها الطريق بين الناس وبين الرسل، ليكونوا أتباعا له هو كما اتبعوهم، وكما هي الغاية العليا من ممارسة الفلسفة نفسها عند أصحابها! وأي طريق أنجع من أن يوهم السفهاء من الناس بأن لديهم طريقا لتحصيل المعارف في أصل العالم وما يتركب منه كل شيء فيه، وما كان وراءه إن كان وراءه شيء، وما نشأ منه إن كانت له نشأة أصلا، إلى آخر تلك الأسئلة الكبرى التي يوهم الناس أنه لا سبيل لمعرفة الغاية من وجودهم في الأرض إلا بأن يطلبوا العلم بأجوبتها من طريقهم؟؟ والقصد أنه لا باعث على تكلف التنظير الطبيعي الإمبريقي في هذه القضايا، قضايا الأصل الأول أو النشأة الأولى، أو Question of Origins كما يسمونها، على أيما وجه جرى، إلا الطبيعية المنهجية بالأساس! تلك الطريقة الدهرية التي ابتلعها بلانتينغا حتى الثمالة، ثم لم يزد في محاربتها على أن يطالب الطبيعيين الأكاديميين بأن يسمحوا للنظريات التفسيرية في البيولوجيا الارتقائية والكوزمولوجيا (وهما صنعتان لا قيام لهما بالأساس إلا

على الطبيعية المنهجية المحضة) بأن يظهر فيها تفسير بالخلق الإلهي و"التدخل الإلهي"، ومن ثم يوهم نفسه وأبتاعه بأن الطبيعية المنهجية تنهزم بذلك إن حصل، ويصبح العلم الطبيعي نصرانيا، أو للدقة "إثباتيا" بعد أن كان طبيعيا دهريا، والله المستعان!! عجبت لأول وهلة من سطحية طرح بلانتينغا في هذا الباب، وهو من هو في التدقيق والتحقيق! لكن زال عجبي عندما تذكرت أن الرجل علم ما علم، وعقل ما عقل، وعمر له ما عمر، ومع ذلك لم يزل يأبى إلا الإعراض عن المحجة البيضاء الناصعة التي بعث الله بها محمدا صلى الله عليه وسلم! فما أقول إلا: لله في قلوب عباده شؤون!

قوله: "تأمل اقتراح هوكينغ وكولينز في 1973، أو اقتراح ليندا الأحدث منه. ولنفرض، أن الدافع الأساسي وراء وضع أمثال تلك المقترحات، هو أنها تجنبهم "الصدف الكونية" Cosmic coincidences. فعلى تلك النظريات، لا يكون ثمة أمر جدير بالانتباه في كون تلك الثوابت تظهر في كوننا على تلك القيم التي هي عليها. فجميع القيم تظهر ولابد في كون من الأكوان أو في آخر، وبالطبع فلابد أننا معاشر البشر الراصدين، سنوجد في الوحيد منها الذي تكون فيه قيم (تلك الثوابت) مواتية لوجود الحياة." قلت: فبأي عقل أو دين قبلت يا رجل، وصفهم لما تعده أنت من علامات الخلق الإلهي بأنه من جملة الصدف الكونية التي يجوز أن تقع في نظرية من النظريات ولا تقع في الأخرى، ثم يوازن بينهما بالنظر في الدليل التجريبي؟؟! أي عبث بالعقول والأديان هذا؟ كل ما في العالم مما يقع تحت الحس والعادة هو من علامات الخلق الإلهي، بداهة وضرورة! فمن استقامت نفسه على الفطرة السوية، لم يزدد بالتأمل في الأنفس وفي الآفاق إلا إيمانا وتصديقا، خلافا لمن جحد واستكبر! فمن أين يأتي التخصيص أصلا وعلى أي أساس سلمت أنت به لأصحابه؟ هم يسمونها صدفا كونية

لأنهم لا يثبتون بالغيب خالقا حكيما عليما قد جعل كل شيء على ما هو عليه، فيما شهدوه من أمر العالم وما لم يشهدوه، لحكم وعلل لديه سبحانه! فلما كان الأصل في الوجود عندهم ألا يقع من الحوادث ما يوحي، ولو من بعيد، بأن وراءه خالقا عليما حكيما (وهو موجَب طبيعيتهم المنهجية نفسها)، كان وقوع ما يوحي بذلك إن وقع، من باب المصادفة لا غير! فعندما تستعمل أنت هذا المصطلح نفسه من غير أن تتكلف بيان أساسه وسببه عندهم، من أجل أن تأتي لتقول: إذ وقعت لديكم نظرية فيها أمثال هذه "الصدف" فاقبلوها ولا تردوها، ودعوا المشاهدات والأدلة التجريبية ترجح بين النظريات على طريقتكم في ذلك، حتى في تلك الغيبيات المطلقة المتعلقة بأصل الكون والحالة التي كان عليها في ابتداء خلقه، فهذا تجويز منهجي لأن ترجح المشاهدات أصلا من أصول الملة الطبيعية، وهو أن تكون الأشياء بحيث لا يظهر فيها ما يوحي ولو من بعيد بأن لها خالقا قد خلقها! فكيف بربك يكون هذا تحذيرا لأتباعك من التلبس بالطبيعية المنهجية، وحثا لهم على أن يؤسسوا علمهم الطبيعي على اعتقادهم النصراني لا على خلافه؟ أي مشاهدات هذه التي ترجو أن ترجح بين فرضية هوكينغ في العوالم المتعددة المزعومة، وبين قول من يقول إن الثوابت كانت كذلك لأن الرب الخالق اختار أن يجعلها كذلك (على التسليم تنزلا بصحة أو معقولية أن يقال بهذا القول)؟؟ الموازنة بين المخلوقية وخلافها موازنة بين العقل ونقيضه، وليست موازنة بين فرضيتين تجريبيتين يرد على كل منهما احتمال أن تدعمه الشواهد الحسية والأدلة الرصدية على السواء! ولولا الدهرية المنهجية التي قامت عليها صنعة الكوزمولوجيا نفسها، ما استجاز هؤلاء استعمال تلك الطريقة النافعة إجمالا في الموازنة بين التفاسير بما تقوم عليه في النفس من استقراءات سابقة، في باب لا نملك فيه مجرد الافتراض بأيما نوع من أنواع القياس، دع عنك الترجيح بين الفرضيات بالتماس أحسن

التفاسير! الطبيعية المنهجية هي التي أقحمت تلك الطريقة حيث لا يجوز أصلا أن تستعمل، وحيث لا مدخل لها في العقل أصلا! وأنت تسلم لهم بذلك تسليما، فأي مسخ فكري ومنهجي هذا الذي تدعو إليه أتباع كنيستك يا رجل؟ تأمل مبلغ الانهزام والانبطاح في قوله:

" فالآن، لا يلزم المثبت Theist على ما يبدو لي، أن يقيم لهذا المبدأ وزنا. فإذا كان الإله قد خلق العالم، فلماذا لا ينبغي أن تظهر فيه فرديات و"صدف" من ذلك النوع؟ لماذا نظن أننا ليس لدينا نظرية فيزيائية مقبولة حتى نتخلص من تلك الأشياء؟ إن كان ثمة نظريتان متساويتان إمبريقيا (أو قريب من ذلك)، إحداهما تشتمل على خروقات لمبدأ اللاكترات هذا، والأخرى تشتمل على فرض عدد يفوق الحصر من الأكوان أو أي عدد عملاق من الأكوان الصغيرة، فإن المثبت قد يفضل الأولى على أساس الاقتصاد. "

قلت: أي اقتصاد؟ هل حقا ترى في مبدأ الاقتصاد في الافتراض Parsimony مستندا عقليا صحيحا للترجيح بين النظريات التفسيرية؟؟ أين تحقيقك لتلك القضية المهمة على ما رأيناه منك في غيرها، وأنت هنا تريد أن توردها على وجود ربك بالغيب وعلى عمله في خلق السماوات والأرض؟؟ سبحان الله! لا أساس في العقل البتة للحكم بأن النظرية التي تقل فيها الفروض، لابد أن تكون أرجح في الاحتمالية المعرفية من النظرية التي تكثر فيها الفروض! لابد أن يكون في العادة استقراء ما أو أساس ما (من العادة والخبرة بالأشباه والنظائر) للحكم بأن موضوع التنظير لا يحتمل كثرة الفروض، من أجل أن يرجح بين النظريات استنادا إلى هذه المسألة! ولكن أين، وأنى الإتيان بذلك في مثل هذا؟؟ قد أطلت النفس في كتاب المعيار في بيان هذه المسألة في نقدي لهذا المبدأ، فليراجع للفائدة.

ثم إن قولك إن المثبت قد يفضل الأولى على أساس الاقتصاد، هذا يفتح الباب للمخالف لأن يقول بل مبدأ الاقتصاد في صالحي أنا ولا شك، إذ إن الخالق الذي تفرضونه، خارج عن إطار الحس والعادة من مبدأ الأمر، فهو إذن فرضية لا توصف أصلا بأنها تجريبية، فكيف يكون قولكم بها جاريا على مبدأ الاقتصاد في الاقتراض؟ أنتم تفرضون نظرية محملة بحمولة غيبية عملاقة لا سبيل لإثباتها أو نفيها من طريق الحس في يوم من الأيام، وأما نحن فلا نزيد على أن نقيس الغائب على الشاهد، ونرجو أن يدلنا الحس على صحة قياسنا في يوم من الأيام! فلهذا نقول إن إدخال المسألة تحت هذا المبدأ من أعظم الجنايات على العقل والدين والعلم جميعا! ثم إنك تفرض أن تكون النظرية بحيث لا يرجحها الحس على ما يخالفها، والحال أن جميع النظريات في قضايا النشأة هي على تلك المنزلة ومن ذلك الصنف!

والواقع أن بلانتينغا كان يعي ويدرك أنه بهذا الخواء والترجيح الأجوف، يترك من يسميه بالمثبت هذا عاريا عن أي مستند عقلي يقدم به وجود خالقه وعمله بالغيب على كل تفسير دهري يأتي به الطبيعيون في نفس الأمر، إذ إن مبدأ السفسطة في القضية يسلب من الأمر ضروريته وبداهته الفطرية كما ترى! لذا استدرك بأن قال: " ولكن حتى إن وجد ذلك، فقد يبقى ثمة فارق بين الاحتمالية المعرفية لنظرية على غرار الأكوان الهوكينغية المتعددة تأسيسا على الإثباتية، والأدلة المنصوبة لها من جانب، وبين الاحتمالية المعرفية لنظرية كهذه تأسيسا على الطبيعية وتلك الأدلة نفسها من الجانب الآخر."

وهذا لا يفيده بشيء البتة عند التدبر، بل يظل معه "المثبت" هذا معلقا في الهواء! لأنه يرجع الفارق المعرفي بين الاعتقاد الدهري والاعتقاد المخالف إلى الرجحان الاحتمالي Probability! مع أنه كان قد قطع شوطا طويلا في النشر والتأليف من ثمانينات القرن الماضي وما قبلها

انتصارا للقول بأن الاعتقاد في وجود الباري اعتقاد أساسي Properly Basic أي غير ملجئ للنظر والاستدلال، كالاعتقاد في وجود العقول الأخرى مثلا، فكما أنك لا تحتاج إلى برهان نظري ما لإثبات وجود العقول الأخرى من حولك، وتعد مع ذلك عقلانيا دون أن تضطر لتقديم البراهين، فكذلك هنا ولا فرق! فإذا كان ذلك كذلك، فكيف يكون ترجيحك أنت يا بروفيسور بين التفسير بالفعل الإلهي والتفسير بخلافه، ترجيحا احتماليا؟؟ هذا إنما مثله كمثل من يرجح بين وجود العقول الأخرى وعدمها بتقدير الاحتمالات! فبالله ما احتمالية ألا يكون في الوجود عقل غيري، حتى أرجح خلاف ذاك الزعم عليه؟؟ فالقضية ليست من قضايا الترجيح الاحتمالي أصلا، من بابها، وهذا واضح جدا! ولكنه حريص على ألا يقدم بين أيدي المخالفين إلا أنواع الأدلة التي يستحسنونها إجمالا، رجاء أن يبقى معدودا من الفلاسفة الكبار، الذين ينزلون النزاع بين الأقران منزلته اللائقة به عندهم. فإن كانوا اليوم لا يتكلمون في العلوم التجريبية إلا بمنطق الاحتمالات والمرجحات الاحتمالية وما شاكلها، فلا بأس بأن يلبس الموقف الذي هو بصدد الانتصار له، بلبوس النظرية التجريبية التي تترجح احتماليا على "نظرية المخالف"، وإن كان من أبعد القضايا عن ذلك المنطق نفسه! حتى لما أراد الرجل أن يرد على تطبيق دوكينز للمنطق الاحتمالي في كتابيه "صانع الساعات الأعمى" و"وهم الإله"، لم يقرر أن وجود الباري غير خاضع لذلك المنطق أصلا عند العقلاء، من مبدأ الأمر، بل قرر أن وجوده ضرورة عقلية أولية، والضرورات العقلية تكون احتمالية إصابتها للحق هي الواحد الصحيح، الاحتمالية العليا Maximal Probability وليس أن احتمالية أن يكون الباري هو الذي خلق العالم هي احتمالية أضعف ولابد من احتمالية أن تجد طائرة بوينغ 747 قد صنعها إعصار اتفق له أن جمع أجزاءها في بعضها البعض بالصدفة المحضة، كما في كتابه وهم الإله!

فهنا الصواب والحق أن يقال إن القضية ليست موردا للاحتمال أصلا، حتى يقال إن احتماليتها هي الواحد الصحيح.

الاحتمالية المساوية للواحد الصحيح، تبقى تقديرا احتماليا في النهاية، يتوصل إليه بوصول احتمالية الحال المخالفة للصفر، بعد فترة طويلة من انعدام وقوعها البتة في المشاهدة والاستقراء، ولكنها مع ذلك تظل داخلة في دائرة الإمكان العقلي، ويظل تقدير الاحتمالية الصفرية هذا قابلا للتغير في أي وقت، مبدئيا، بما لا يتحصل الحكم به إلا بمواصلة المتابعة والاستقراء لجنس الحوادث محل البحث والترجيح الاحتمالي. أما عندما يكون موضوع الكلام هو حوادث خلق العالم، فالضرورة العقلية تحسم المسألة حسما تاما منصرما لا مورد فيه لاحتمال العكس أصلا، من مبدأ الطرح، مهما استطال بنا الزمان، وإذن فلا يجوز أن نقول إن "احتماليتها هي الواحد الصحيح" كما سلكه بلانتينغا في الرد المذكور، لا على مصطلح الباYسيين Bayesians، ولا على مصطلح التكراريين Frequentists! فالاحتمالية الصفرية عند الباYسيين إنما تعني عدم العلم بوقوع الحادث مع اصطحاب جواز وقوعه عقلا! وعند التكراريين تعني أن الباحث تكلف الرصد والمشاهدة لعدد كبير جدا من المرات ومع ذلك لم يحصل ولا في مرة واحدة أن رصد الحادث محل البحث الاحتمالي! ولو كان يعده من الأصل ممتنعا عقلا لما تكلف تكرار مرات الرصد طلبا لدراسة احتمالية وقوعه كما هو واضح! فإن قلت إن احتمالية نشوء العالم بلا خلق إلهي هي الصفر $P = 0$، فلا خروج لك بهذا التقرير عن هذين المعنيين، وكلاهما يصطحبان ضرورة التجويز العقلي لأن يكون العالم قد نشأ بلا خالق كما ترى، وإن كان قوله "الاحتمالية المعرفية" Epistemic Probability يجنح به إلى الباYسية في مفهوم الاحتمالات. والقصد أن هذا المسلك في استعمال المنطق الاحتمالي

مردود على الطبيعيين من مبدأ الطرح، وليس في مسلك بلانتينغا في التعامل مع الاحتمالات في نفس الباب إلا التلبيس، والله المستعان.

فقوله: " فإذا كان الإله قد خلق العالم، فلماذا لا ينبغي أن تظهر فيه فرديات و"صدف" من ذلك النوع؟ " هذا يقتضي الإقرار بأن خلق العالم لا تدل عليه المشاهدة إلا بظهور حالات مخصوصة، بحيث إن ظهرت ترجحت معها احتمالية أن يكون مخلوقا، وإلا بقي على الأصل: أنه ليس بمخلوق! وهذا من أصول النحلة الطبيعية ومن شرطهم الفاسد فيما يثبت به وجود الباري وحدوث الخلق الإلهي لديهم! والعجيب أنه يُجوِّز، مبدئيا، وقوع مشاهدات ترجح تفسير هوكينغ وكولينز (العوالم المتعددة) على غيره، يقول: " بالطبع قد يوجد أو قد يظهر بعد أدلة مستقلة لتلك الفروض، أدلة مستقلة عن مبدأ اللااكتراث. "، قلت بالطبع؟ بأي طبع يا رجل، وقد علمت أن موضوع البحث غيبي محض لا مدخل فيه للأدلة الإمبريقية أصلا، وأن خضوع العالم كما نعرفه للخلق المحكم والتقدير المنضبط (وليس للضبط الدقيق الكوزمولوجي) أمر بديهي ضروري لا يماري فيه إلا مكابر؟؟

نعوذ بالله من الخذلان!

الجزء السادس

قال بلانتينغا [11]:

[11] *So here we have three examples; each is an example to show that scientific theories are often not, in the specified ways, religiously or metaphysically neutral. We have also noted, so far, three ways in which a scientific theory can be relevantly related to the theological or religious claims characteristic of the theistic religions. First, a scientific theory may be incompatible with those claims; secondly, it might be such that its probability with respect to those claims is quite different from what it is with respect to a naturalistic world view; thirdly, religious or theological views can help determine what needs explanation. Of course there will be many more examples of scientific theories that are related in these ways to the theological or religious claims in question (and such examples will be much more obvious and abundant in the human sciences than in physics or chemistry). Here I must emphasize two things. I am concerned with science and scientific hypotheses taken as attempts to provide us with truth; true explanations, true descriptions, true accounts of various phenomena. I am concerned with Simon's explanation of altruism taken as the proposal of a hypothesis as true (or nearly true); and the same for evolutionary theory and the various proposals of many-universe or inflationary universe theories. Of course these theories need not be taken in that way.*

If instead we think of science and its aims in the way in which, say, Bas van Fraassen thinks of them,34 then the whole picture looks very different. Then we might think, for example, that the whole grand evolutionary story is improbable, unlikely to be true, but nevertheless properly saves the phenomena and properly

فهنا لدينا ثلاثة أمثلة، كل واحد منها يظهر أن النظريات العلمية ليست – في العادة – من الوجوه التي بيناها، محايدة دينيا أو ميتافيزيقيا. وقد بينا كذلك، وحتى الآن، ثلاثة صور يمكن أن تكون بها النظرية العلمية متعلقة بالدعاوى الثيولوجية أو الدينية التي تتسم بها الملل الإثباتية. فأولا، قد تكون النظرية العلمية غير متوافقة مع تلك الدعاوى، وثانيا فإنه قد تكون

---

performs the other duties to be expected of a theory of its type. And even from a realistic point of view the Grand Evolutionary Myth doesn't have to be probable to be accepted as a guide to further research, a source of hypotheses, a means of coming to a better understanding of the subject matter with which it deals. Newtonian mechanics, we think, is, strictly speaking, false; it is nonetheless useful in excelsis.

Alternatively, we could perhaps think of parts of science--sociobiology, for example--not as attempts to provide a true or correct explanation of human behavior, but as efforts to see how far we can go in explaining human beings and behavior while appealing to nothing beyond what the naturalist is prepared to appeal to.[35] *In this case our efforts would be hypothetical rather than categorical. Suppose naturalism were true: what sort of explanation could we come up with for, say, altruistic human behavior? (Just as a naturalist might try to answer this question: suppose Christian theism were true--what would be the correct explanations of, say, aggressive or bellicose human behavior?) I don't know of any reason to think theism would be relevant to this project, except that a Christian might think there are better ways to spend one's time--for example, in trying to find true scientific accounts of human behavior and activity.*

احتمالية صحتها في ضوء تلك الدعاوى، أضعف مما لو قدرنا تلك الاحتمالية في ضوء التصور الطبيعاني للعالم. وثالثا، فإن الدعاوى الدينية والثيولوجية يمكن أن تساعد في تقرير ما الذي يحتاج إلى تفسير. ولا شك أنه سيكون ثمة كثير من الأمثلة لنظريات علمية لها اتصال في تلك الوجوه بالدعاوى الثيولوجية أو الدينية محل البحث (وهي أمثلة تكون أوضح بكثير وأوفر بكثير في العلوم الإنسانية منها في الفيزياء أو الكيمياء). وهنا ينبغي أن أؤكد على أمرين. فإن الذي يعنيني هو العلم والفرضيات العلمية من حيث هي محاولات لتبيين الحقيقة: التفسير الحق، والوصف المطابق للواقع، والتصور الصحيح لظواهر متعددة. يعنيني تفسير سيمون للإيثار Altruism من حيث هو اقتراح لفرضية يعتقد فيها أنها هي الحق (أو قريبة من الحق). وكذلك في نظرية الارتقاء والاقتراحات المتعددة للعوالم المتعددة أو نظريات الكون الانتفاخي. فبالطبع تلك النظريات لا يلزم أن تعامل بتلك المعاملة. فلو تناولنا العلم وأهدافه على النحو الذي يتناوله باز فون فراسن Bas-Von Frassen مثلا، فستبدو الصورة كلها مختلفة للغاية. فحينها قد نظن، مثلا، أن قصة التطور الكبرى كلها ضعيفة الاحتمالية، يبعد أن تكون هي الحق، ومع ذلك نقول إنها تفسر الظواهر محل البحث وتقوم بالمهام الأخرى المتوقعة من أي نظرية من نوعها. وحتى من وجهة النظر الواقعية (أي القائلين بالمذهب الواقعي) فإن قصة التطور الكبرى لا يتعين أن تكون راجحة احتماليا من أجل أن تقبل على أنها موجهة لمزيد من البحث، ومصدر للفرضيات، وطريقة للتوصل إلى فهم أحسن لموضوعها. فميكانيكا نيوتن، نظن اليوم، بنوع من الصرامة في الحكم، أنها باطلة، ولكنها مع ذلك تظل نافعة إلى أبعد مدى. وفي المقابل، فقد نفكر في أجزاء من العلم – علم الاجتماع الحيوي مثلا Sociobiology – ليس على أنها محاولات لتحقيق تفسير صحيح أو مطابق للواقع

للسلوك البشري، ولكن على أنها جهود من أجل أن نرى إلى أي مدى يمكن أن نصل في تفسير البشر وسلوكياتهم، مع حرصنا على ألا نتعلق بشيء أكثر مما يبدي الباحث الطبيعي the naturalist استعداده لأن يتعلق به. ففي تلك الحالة تكون جهودنا افتراضية hypothetical أكثر منها تقريرية. فلنفرض أن الطبيعية كانت هي الحق، فما هو نوع التفسيرات التي يمكن أن نقدمها (في ضوئها وفي حدودها) للسلوك الإيثاري في الإنسان، مثلا؟ (وتماما كما أن الطبيعاني قد يحاول أن يجيب عن هذا السؤال، فلنا أن نفرض أن الإثباتية النصرانية هي الحق، وإذن فما التفسير الحق للسلوك العدواني في الإنسان؟). وفي الحقيقة فلست أرى أي سبب عند الإثباتيين لقبول مثل هذا المسلك في التنظير، اللهم إلا أن يظن النصراني، مثلا، أن ثمة طرقا أفضل لقضاء الوقت في محاولة التوصل إلى تصورات علمية صحيحة للسلوك البشري والنشاط الإنساني.

قلت: بعدما فرغ بلانتينغا من ضرب أمثلته والتعليق على كل واحد منها، ينتقل بعدُ إلى تحرير تعليق عام على ما يرى أنه يستفاد منها جميعا ومما يناظرها. فيقرر أولا أن بعض أنواع النظريات العلمية تتناول بالتنظير الطبيعي، موضوعات اعتقادية أو دينية عند من يسميهم إجمالا بأهل الملل الإثباتية Theistic Religions بعموم، وعند النصارى بخصوص. وهذه في الحقيقة، وكما أشرنا في مستهل هذه السلسلة، من القضايا التي يصر على المخالفة فيها، كثير من المشتغلين بالطبيعيات من بني جلدتنا، ممن لم يفهموا الباب حق الفهم، ولم يبلغوا فيه من التحقيق والتدقيق ما كان متعينا عليهم أن يحققوه قبل التصدر في تلك المسائل التي يقال لها إجمالا "فلسفة العلم"، فيزعمون بكل سهولة، وبسذاجة بالغة، أن العلم الطبيعي، بهذا الإطلاق، محايد لا دين له، ويسفهون من ثم كل من يسعى إلى تطهير حياض العلم الطبيعي والتجريبي عامة

من أساطير الطبيعيين الدهرية، ومن طريقتهم في توليدها وتشييدها تحت راية العلم الذي هو منها بريء، تلك الطريقة التي هي حقيقة ما يقال له "الطبيعية المنهجية" Methodological Naturalism كما بينا! يقول قائلهم "لا تؤدلجوا العلم، تنحوا به إلى وجهة هذا الدين أو ذاك، فإنه لا دين له! والناس تمارس العلم من جميع الملل وفي شتى الأمم دونما تأثر بعقائدهم الدينية، وهو ما تفرضه عليهم الطبيعية المنهجية Methodological Naturalism!"، ونحن نقول: صحيح إن الطبيعية المنهجية تفرض على الناس أن ينتجوا فروضهم التفسيرية ونظرياتهم العلمية بمنأى عن عقائدهم الدينية، ولكن ليس هذا راجعا لكون موضوع العلم في الأكاديمية الغربية لا اتصال له بالموجودات الغيبية وما وراء العالم المشاهد على التحقيق، كما لم يزل كثير من الأكاديميين الغربيين يدندنون في كل مناسبة، ولكن لأن الطبيعية المنهجية تملي على المشتغلين بتلك العلوم ألا يتركوا موجودا في الواقع الخارجي إلا عاملوه معاملة الموجود الطبيعي Natural Entity، أي الذي يتصف بصفات الموجودات المعتادة إجمالا، وبطبائعها المعتادة. فمن تلبس بهذا الاعتقاد، فلن يرى حدا ولا قيدا لأنواع الموضوعات أو الموجودات التي يجوز - مبدئيا - أن تطرح للتنظير الطبيعي ولوضع الفروض التفسيرية الجارية على القياس على المعتاد والمحسوس! وإذن فنشأة العالم حادث طبيعي، مثلها في ذلك كمثل ما اعتدناه من أنواع الحوادث التي لا تقع عن فعل الإنسان وتسببه، كالبراكين والعواصف والأعاصير والزلازل وما شاكل ذلك! والبحث فيما إذا كان وراء هذا العالم المشاهد عوالم أخرى أم لا، وما إذا كان لامتداد الكون نهاية ينتهي إليها في الجهات الست أم لا، هو بحث "علمي طبيعي" نوعا، كالبحث في سبب انتقال الحرارة بين المواد المتلاصقة على نحو ما تفعل، مثلا!

وإذن، ولأن الطبيعية المنهجية على هذا المعنى، قوامها الملة الطبيعية الدهرية التي تطبعن كل موجود، فلا تسمح إلا بنوع الموجود الطبيعي والتفسير الطبيعي، وبأن يكون ما في الغيب كما في الشهادة إجمالا، لم يكن من المستغرب أن تحل تلك "الأيديولوجيا" (إن شئت)، محل العقائد الغيبية عند جميع أهل الملل الأخرى، ويصبح مما يعاب أعظم العيب على المشتغلين بتلك العلوم أن يزاحموها بعقائدهم وما يدينون به! بل الواجب أن يؤسس البحث والتنظير على تلك "الأيديولوجيا" الدهرية المنهجية أولا، ثم ما يجتمع لدى أحدهم من نظريات ونماذج وفرضيات بناء على تلك الأيديولوجيا، في تلك الموضوعات التي تتقاطع مع ما عند أهل الأديان، ينظر هل توافق ما في هذا الدين أو ذاك أم لا، من أجل يقوّم الدين نفسه، فيرد ما يخالف أيا ما كان مصدره وأيا ما كان الدين الذي ينسب إليه! وهذا أقرب شيء شبها لأن يقول نصراني لرجل هندوسي، مثلا، ابحث ما بدا لك فيما نشأ عنه هذا العالم من أسباب غيبية، ولكن على شرط ألا تخرج في بحثك عن كتبنا، لأن ما فيها حقائق تاريخية محايدة دينيا، فإن خرجت من ذلك البحث بما يخالف ما في كتاب الفيدا عندك، مثلا، فإما أن تتأوله أو تسقطه بالكلية، لأنه إذن يكون "مخالفا للعلم"، أما أن ترد شيئا مما في كتابنا بناء على أن اعتقادك الديني يخالفه، فإن هذا يكون من "الأدلجة"، وهو غير مقبول!

فأنت إذا قلت للباحث من قبل أن يشرع في البحث: ضع النظريات والفروض في غيب العالم وشهادته على السواء، ما بدا لك، مستوعبا كل زمان ومكان، بلا حد ولا قيد موضوعي البتة، ولكن على شرط ألا تأتي في شيء من ذلك باعتقاد من دينك أنت، وإنما تقتصر في فرضياتك ونماذجك النظرية على نوع الموجود الطبيعي والسبب الطبيعي وحسب، لأن موضوع العلم هو هذه الطبيعة المعتادة وحدها وما يجري فيها، كان هذا اشتراطا مبدئيا لدين دهري

طبيعي يجعل الطبيعة هي جميع ما هنالك في الغيب كما في الشهادة على السواء، فيبحث الباحث في تلك العلوم وكأنه يعتنق ذلك الدين اعتناقا، غير ملتفت لدينه هو أيا ما كان، وهو مع ذلك يعتقد حيادية "العلم" وسلامته التامة من الأيديولوجيا الدينية!

فلا شك أننا نتفق مع بلانتينغا – إجمالا - في نفيه تلك الحيادية المزعومة، ولكنه كما ترى لا يرجع آفة الأمر إلى تجاوز ممارسة العلم الطبيعي في الأكاديمية الغربية حدود موضوع العلم (الطبيعة) وتطاوله على ما ليس يصح في العقل أن يكون مادة للبحث التجريبي بوجه من الوجوه، بالنظر إلى حقيقة الطبيعية المنهجية والأساس الميتافيزيقي الذي تقوم عليه، وإنما يرجعها إلى حرص الباحثين الدهرية على ألا يفرضوا في نظرياتهم الطبيعية التفسيرية المتعلقة بالغيبيات المطلقة (كنظرية داروين ونظرية الانفجار) أي عامل مفسر مستمد من غير دينهم! فهو يجيز طرح تلك المسائل للتنظير الطبيعي مبدئيا، ولكنه يكره من القوم منعهم من الرجوع إلى ما في دين النصارى من اعتقادات في الفرض التفسيري في بعضها. فلا بأس عنده، مبدئيا، وكما بينا، بأن يشتغل المنظر الطبيعي في بناء النظريات الطبيعية والفروض القياسية في قضية نشأة الأنواع كلها على الأرض على غير مثال سابق، على نحو ما سلكه داروين، ولكن بشرط أن يفتح الباب لإدخال العامل الغيبي في تفسير بعض الظواهر التي لا يبدو العامل الطبيعي كافيا في تفسيرها، كما سلكه أصحاب نظرية التصميم الذكي Intelligent Design Theory مثلا، وأبدى هو تعاطفا كبيرا معهم من أجل ذلك، في غير مناسبة. فالأصل الدهري الذي تقوم عليه الطبيعية المنهجية باق عنده للأسف، مقبول إجمالا، ذلك الأصل الذي به تعامل غيوب الزمان والمكان المطلقة معاملة الأمور الطبيعية الموافقة للمعتاد، القابلة للقياس على ما في عالم الشهادة، وإنما يطالب على استحياء بأن يقبل القوم حشر ثوابت دينه

في فجوات الأسطورة الطبيعية في تلك القضايا ما أمكن، يقول ما حاصله أنه إذا كانت العقائد الميتافيزيقية (أو رؤية العالم كما يسميها هو وغيره World View) ماثلة تحت التنظير الطبيعي في تلك القضايا لا محالة، بشكل ما أو بآخر، كما مثلت عليه بما ترون، فلا تثربوا على المنظر الطبائعي النصراني إذا حرص في وضعه النظريات الطبيعية في تلك الأبواب على ألا يخالف اعتقاده، بل اقبلوا منه نظرياته ثم ضعوا الجميع على ميزان الأرجحية الاحتمالية، بداية من الاعتقادين "الطبيعي" و"الإثباتي" نفسيهما!

يقول: " وقد بينا كذلك، وحتى الآن، ثلاثة صور يمكن أن تكون بها النظرية العلمية متعلقة بالدعاوى الثيولوجية أو الدينية التي تتسم بها الملل الإثباتية. فأولا، قد تكون النظرية العلمية غير متوافقة مع تلك الدعاوى، وثانيا فإنه قد تكون احتمالية صحتها في ضوء تلك الدعاوى، أضعف مما لو قدرنا تلك الاحتمالية في ضوء التصور الطبيعاني للعالم. وثالثا، فإن الدعاوى الدينية والثيولوجية يمكن أن تساعد في تقرير ما الذي يحتاج إلى تفسير."

قلت: قد بسطت الكلام فيما تقدم من أجزاء هذه المادة على منطق الترجيح الاحتمالي وفساد استعماله في هذا الباب. أي طبيعية هذه التي لو قدرنا صحتها لكانت النظرية (القائمة عليها أساسا، من أدناها إلا أعلاها) أرجح احتمالا في مطابقة الواقع مما لو قدرنا صحة "الإثباتية" في المقابل؟؟ الطبيعية ملة باطلة جملة وتفصيلا، فما بني عليها فهو مردود على أصحابه من مبدأ النظر، ولا يجوز أن يعد من جملة المعارف المستساغة، بصرف النظر عن إمكان أو جواز موافقته الواقع في نفس الأمر من عدم ذلك، فإن هذا لا يوصل إليه من تلك الطريق البتة! النص الديني صحيح النسبة إلى وحي رب العالمين، هو المصدر المعرفي الوحيد المعتبر والمقبول

عقلا في تلك القضايا التي اقتحمها الطبيعيون بنظرياتهم بغير وجه حق، بصرف النظر هل أصابوا في تلك النظريات الحق أم أخطأوا، وفي أي المواضع أصابوا وفي أيها أخطأوا!

قوله: "وهنا ينبغي أن أؤكد على أمرين. فإن الذي يعنيني هو العلم والفرضيات العلمية من حيث هي محاولات لتبيين الحقيقة: التفسير الحق، والوصف المطابق للواقع، والتصور الصحيح لظواهر متعددة. يعنيني تفسير سيمون للإيثار Altruism من حيث هو اقتراح لفرضية يعتقد فيها أنها هي الحق (أو قريبة من الحق). وكذلك في نظرية الارتقاء والاقتراحات المتعددة للعوالم المتعددة أو نظريات الكون الانتفاخي. فبالطبع تلك النظريات لا يلزم أن تعامل بتلك المعاملة.

قلت: جميل! وهي كذلك تقرير لدعاوى تروج للعامة على أنها حقائق مطابقة للواقع في نفس الأمر، ويطالبون في كل مناسبة بنبذ ما يكون في دين أحدهم من دعاوى مخالفة لها، فهم واقعيون Realists في الحقيقة في مواقفهم من تلك النظريات، مهما زعم بعضهم أن مطابقة النظرية للواقع لا تعنيهم، أو ليست هي معيار القبول العلمي عندهم! فإنه لا يختلف العقلاء الأسوياء السالمون من سفسطة الفلاسفة، في أن قيمة العلم، أي علم، هي في مدى مطابقته للواقع في جل الدعاوى التي ينتهي إليها أصحابه، وفي قوة الأدلة التي يستند إليها في بناء تلك الدعاوى بشأن الواقع، ومدى أدائها للمطلوب. ومع أن عامة نظريات الطبائعيين التي جرى عليها تاريخ طويل من العمل والتجريب والتطبيق، كنظرياتهم في الكهرومغناطيسية مثلا، أو في الحرارة أو في الموائع أو في الكيمياء أو نحو ذلك، ليست إلا تشبيهات وأقيسة تمثيلية في أحسن أحوالها، كما بينت ذلك ولم أزل ماضيا في بيانه في سلسلة بيان منهج أهل السنة في التجريبيات، وفي كتاب معيار النظر، إلا أننا قد استفاضت عادتنا بإفادة تلك التشبيهات

بتنبؤات صحيحة بشأن الواقع، جعلتها أجدر بالاعتماد والاستعمال والتطبيق من غيرها، فكانت قوة التشبيه مستمدة من تلك العادة المستفيضة، وليس من علمنا بما إذا كانت النظرية وصفا مطابقا للواقع تمام المطابقة من كل وجه، أم هي مجرد تشبيه له يطابقه في هذا الجانب الاستقرائي بخصوصه دون غيره! فإن هذا الجانب هو الذي من أجله توضع النظرية على أي حال! مطابقة الواقع في هذا الجانب هي التي تجعل من العلم التجريبي علما نافعا تنبني عليه تطبيقات الصناعات والتقنيات المختلفة في مجالات شتى. ولكن إذا كان ذلك كذلك، وهو معنى لا أظن أنك تخالف فيه إجمالا، فكيف إذن يا بروفيسور يوصل إلى معرفة الحق تسديدا أو مقاربة، ولو من بعيد، في تلك القضايا التي مثلت بها، باستعمال الطريقة التجريبية Scientific Method من الأساس، والحال أنه لا نظائر ولا عادة ولا استقراء ولا شيء؟؟ تفسير سيمون للإيثار هذا إلى أي عادة أو استقراء يُستند في وضع الفرضية التفسيرية نفسها في مثله؟ نظرية نشأة جميع الأنواع الحية بالارتقاء من سلف مشترك، هذه من أين يأتي الحق – عقلا - لصاحبها في أن يفرض هذا الفرض من الأساس، يجعله "تفسيرا" لنشوء وتنوع صور الحياة على الأرض؟ بدون عادة أو نظير يقاس عليه، بأي شيء تترجح تلك الفرضية على غيرها؟ وكذلك في الكوزمولوجيا ونماذج أصحابها وخرفهم المبين فيما يتعلق بالكون والأكوان المتعددة المزعومة من حوله؟؟ يا بروفيسور سم الأشياء بأسمائها ولا تخف من الصدع بالحق! أنا أجزم بأنك تعلم أن هذا كله خرف في خرف وباطل في باطل، وترى بجلاء أصل الداء ومنبع البلاء عند هؤلاء! قلها صراحة ولا توارب!

الطبيعيون لديهم دافع ديني دهري صرف يحملهم حملا على تكلف وضع النظريات في جميع تلك الأبواب التي اقتحموها من غير أن يكون لهم الحق في تطلب العلم بها من طريقهم

وبأدواتهم ابتداء، فلماذا تقبل أنت منهم ما خاضوه في ذلك - إجمالا - وأنت تخالفهم في ذلك الدافع الديني من الأساس؟ سيمون هذا رجل دهري طبيعي جلد، لا يريد أن يعترف بأن للسلوك الديني أي قيمة بخلاف الثمرة الدنيوية العاجلة التي يجنيها منه صاحبه أيا ما كانت، ولا يرى للإنسان ولجميع أحواله وخصاله منشأ إلا المنشأ الدارويني الدهري، فمثل هذا إن خوطب فإنما يخاطب بالزجر والتسفيه، والمنع من الخوض في تلك المسائل بآلة البحث التي استعملها فيه! هذا باب يجب أن يغلق في وجوه هؤلاء تغليقا، وبكل حزم، إن كنت صادقا في الحرص على صيانة أهل ملتك من إفساد النحلة الطبيعية عقائدهم وتصوراتهم! أما أن يرحب بجهودهم في وضع النظريات التجريبية في تلك الأبواب، من حيث الأصل، ثم يقال: ولكن وسعوا دائرة الاستمداد المعرفي للفروض التفسيرية التي تفرضونها حتى تتناول ما نؤمن به نحن في ديننا، فهذا خلط لملتين متنافرتين في أصولهما الأولى، ومن ثم في مصادر التلقي المعرفي من الأساس! ليس ما يقال له علم هنا هو بعينه ما يقال له علم هنالك، وليس ما يقال له دليل هنا يقال له دليل هنالك، فلا يخلط بين النوعين بمثل هذا إلا جاهل لا يدري ما يقول، أو مفتون صاحب هوى! ابدأ أولا بتحرير التعريف الصحيح للطبيعية المنهجية، ومن ثم يتحرر لديك الموقف الصحيح من مبدأ التنظير الطبيعي في أمثال تلك الموضوعات! أما هذا فتلبيس وتعمية، والله المستعان.

تأمل كيف يفتح الباب لتصورات أخرى لمفهوم النظرية العلمية هو لا يراه إلا سفسطة وعبثا في الحقيقة، ترفا فكريا محضا لا طائل تحته، ولكن لأنه الفيلسوف الأكاديمي الكبير، الذي ينشر أفكاره في دوريات فلسفية متخصصة، تنزله هو وأولئك المسفسطة منزلة الأنداد والأقران، فلا يملك إلا أن يحني رأسه بين أيديهم، ويعاملهم معاملة المخالف صاحب الدليل

المعتبر الذي يتعين احترامه ويقبُح التشنيع عليه، أو اتهامه بالهوى والميل القلبي الفاسد! وهذه، أيها الإخوة الكرام، هي آفة تلك الصنعة نفسها ومصيبتها الكبرى، التي لا ينتبه إليها ولا يقف على خطورتها إلا من سلمه الله من الفتنة بما خاض فيه هؤلاء! آفتها بإيجاز، هي تصييرها السفسطة المحضة والعدوان المبين على الفطرة والبداهة واللغة والغيب المطلق، مسائل نظرية يستساغ فيها النظر والخلاف ويوضع فيها القياس والرأي أمام القياس والرأي، وتصبح الأحكام البديهية الفطرية فيها مذهبا نظريا من جملة المذاهب التي ينفتح الجدال فيها والخصومة عليها بلا بداية ولا نهاية ولا هدف ولا غاية إلا أن يظهر كل واحد من هؤلاء قدراته العقلية ومهاراته الذهنية في اختراع الأقوال واستيلاد البراهين المنمقة والمزخرفة أشكالا وألوانا انتصارا لهذا المذهب أو ذاك، بلا غاية ولا غرض إلا أن يتخذ لنفسه مجلسا في نوادي هؤلاء، يقول أنا هنا وهذا رأيي فاسمعوني! فإذا أنكر عليه الناس سفسطته وسخفه، شنع عليهم هو وأقرانه بأن هؤلاء عوام سفهاء لا يرون ما يراه السادة الأكابر أصحاب النظر والبحث الفلسفي العميق، الذين لا يأخذون القول، أي قول، على أنه بديهي دون نظر وتحقيق! هذا يا إخوان هو ميراث الفلسفة المدرسية اليونانية، فإلى الله المشتكى ولا حول ولا قوة إلا بالله!

يقول " فبالطبع تلك النظريات لا يلزم أن تعامل بتلك المعاملة. فلو تناولنا العلم وأهدافه على النحو الذي يتناوله باز فون فراسن Bas-Von Frassen مثلا، فستبدو الصورة كلها مختلفة للغاية. فحينها قد نظن، مثلا، أن قصة التطور الكبرى كلها ضعيفة الاحتمالية، يبعد أن تكون هي الحق، ومع ذلك نقول إنها تفسر الظواهر محل البحث وتقوم بالمهام الأخرى المتوقعة من أي نظرية من نوعها."

قلت: على أي أساس يحكم بمقدار الاحتمالية في أي دعوى بخصوص الكيفية التي نشأت بها جميع الأنواع الحية على الأرض بعد أن لم تكن؟؟ نحن جئنا إلى العالم فوجدناها على ما هي عليه، ولم نرصد في عادتنا وتجربتنا إلا ما يجري على تلك الأنواع المستقرة من تغيرات وتكيفات ونحو ذلك، فبأي عقل نجيز لأنفسنا أن نضع تصورا أو افتراضا للكيفية التي نشأ بها ذلك كله بعد أن لم يكن، بالقياس على تلك التحولات والتغيرات الجارية على الأنواع المستقرة كما نراها؟؟ عندما يخرج من يقول إنها قصة ضعيفة الاحتمالية للغاية، وأغلب الظن أن الواقع كان بخلافها، فعلى أي أساس معرفي حكم عليها بهذا الحكم، يطبق منطقا ترجيحيا لا أساس لتطبيقه في العقل إلا الخبرة والعادة؟؟ ثم إذا صح – على التنزل – أن كانت القصة كلها ضعيفة الاحتمالية للغاية كما يرى فراسن، فما وجه التمسك بها إذن؟؟ ما معنى أنها "تفسر الظواهر محل البحث" وتقوم "بالمهام الأخرى المتوقعة من أي نظرية من نوعها"؟؟ أي مهام تلك وما تحريرها وما تحقيقها على مذهب الرجل وما موقفك من ذلك؟؟ أن يكون لدى الدهري الطبيعي الجاحد شيء ما، أي شيء، مهما كان يراه متهافتا أو ضعيفا أو لا قيام له على أدلة معتبرة، ليقيمه مقام الاعتقاد الغيبي في جواب السؤال الوجودي الكبير: من أين جئنا ولماذا نوجد في هذا العالم؟؟ هذه هي مهمة النظرية؟ إذا كان موضوع النظرية موضوعا تاريخيا صرفا، يقرر اعتقادا غيبيا محضا بشأن نشأة جميع الأنواع في الماضي، دون أن يكون لها أي تطبيق عملي نافع بوجه من الوجوه، فما هي إذن "المهام" التي تقوم بها تلك النظرية، إلا أن تكون سدا للفجوة الاعتقادية الغيبية عند الدهرية الطبيعيين؟ نكذب الكذبة ونصدقها، ثم نقول: لا بأس بأن نتخذها اعتقادا لنا بشأن ما جرى في الماضي السحيق، وعلى أنها أحسن ما أوصلنا إليه العلم في ذلك، لأننا لو رددناها وتركناها لم نجد ما نعتقده في محلها؟؟ هل هذا

موقف رجل يحترم عقله ودينه؟؟ هذا أيها الإخوة الكرام هو دفاع الطبيعيين وجوابهم كلما قيل لهم إن الفرضيات الغيبية الأساسية التي انطلقتم في هذا التنظير من التسليم بها لا أساس لها في العلم التجريبي نفسه ولا في العقل ولا في غيره (كفرضة الاستمرارية والاطراد المطلق مثلا)! يقال لهم هذا، فيقول قائلهم: يجب أن نتمسك بهذه المسلمة وإلا لم يكن بالوسع بناء أي دعاوى "علمية" في تلك الأبواب! وكأن ثمة وحيا نزل عليهم من السماء فأوجب عليهم وجوبا لازما أن يتحصلوا على "نظريات علمية" في تلك القضايا! لن يكون "العلم" ممكنا إلا بالتسليم بهذه المسلمات! ومعاذ الله ألا يكون "العلم" ممكنا! يا أخي ليكن أن العلم الطبيعي في هذه الأبواب ممتنع أصلا وغير ممكن مبدئيا، فكان ماذا؟؟ أنا أجيبك أخي المستمع! كان أنهم إذن يضطرون للخضوع لما عند أتباع الرسل من دعاوى في تلك الأبواب، لأنه إذن لا يكون من طريق لبناء المعرفة فيها إلا من طريقهم، وإذن تصبح هي طريق الناس لمعرفة الغاية التي من أجلها خلقوا، لا طريق غيرها! وهذا ما لا يقبله الفيلسوف أبدا ولا يرتضيه لنفسه، لأنه إذن يضطر لأن يصبح ذنبا تابعا بعد أن كان رأسا متبوعا، والله المستعان! من تأمل في هذا المعنى، فهم وأدرك السبب في زعم بعض الفلاسفة أن النبوة والرسالة ليست إلا منزلة ينالها الفيلسوف بعد نظر طويل وبحث وتنظير وعمل، واكتمال لآلة العقل والمخيلة، كما زعمه الفارابي لعنه الله!

قوله: " وحتى من وجهة النظر الواقعية (أي القائلين بالمذهب الواقعي) فإن قصة التطور الكبرى لا يتعين أن تكون راجحة احتماليا من أجل أن تقبل على أنها موجهة لمزيد من البحث، ومصدر للفرضيات، وطريقة للتوصل إلى فهم أحسن لموضوعها. فميكانيكا نيوتن،

نظن اليوم، بنوع من الصرامة في الحكم، أنها باطلة، ولكنها مع ذلك تظل نافعة إلى أبعد مدى.

قلت: هذا تلبيس ولا شك، لأن ميكانيكا نيوتن، إن صرفنا النظر عن حمولتها الأنطولوجية التي تفسر الجاذبية بما فسرها به نيوتن، تقدم وصفا رياضيا شديد المشابهة للواقع محل الوصف، ولهذا لم تزل تلك المعادلات تستعمل في أغلب التطبيقات العملية دون أن يؤثر عليها الموقف الأكاديمي الجديد من التصورات الأنطولوجية التي تقوم عليها تلك المعادلات عند نيوتن! وبصرف النظر عن حقيقة أنه لا يمكن الترجيح بين التصورين أصلا، تصور أينشتاين وتصور نيوتن (في ميتافيزيقا كلتا النظريتين)، وبصرف النظر عن أن أنطولوجيا أينشتاين كانت أوفر حظا بكثير من أنطولوجيا نيوتن في المغالطة والتسوية بين ما في الأذهان وما في الأعيان، إلا أن السؤال الذي يعنيني هاهنا هو هذا: كيف وبأي عقل يسوى بين التطور الدارويني وميكانيكا نويتن من حيث النفعية المحضة Instrumentality / Instrumental worth كما يوحي به هذا الكلام، أو حتى يقارب بينهما، فيقال إنه حتى على التصور الواقعي المحض، فإن ميكانيكا نويتن لم يعد الفيزيائيون اليوم يعتقدون صحة تصورات نيوتن للحقائق الوجودية الغيبية التي قامت عليها عنده، ومع هذا لم يمنعهم ذلك من الانتفاع بها؟؟ أطرح هذا السؤال وأنا أتوقع أن يأتي هنا من يجيب فيقول: نظرية التطور لها تطبيقاتها في مجالات شتى، ثم يعدد الأمثلة على ذلك، وهذا تلبيس في الحقيقة، لأن جميع ما يدعى من تطبيقات ليس "تطبيقا للنظرية" وإنما هي تنبؤات مبنية على تأويل الواقع المحسوس (التغيرات الوراثية المعتادة في الأنواع الحية) تأويلا يوافق الدعاوى الغيبية الكبرى التي تقوم عليها النظرية (مسألة الانتخاب الطبيعي ومسألة الطفرة، ومسألة الأصل المشترك)! يأتي أحدهم إلى مشاهدات معينة

وتطبيقات معينة ثم يفسر عملها على نحو ما تعمل بتلك الدعاوى الغيبية الكبرى، ثم يزعم أنه لولا صحة تلك الدعاوى ومطابقتها الواقع في نفس الأمر ما جرت المشاهدات على نحو ما جرت، ولا نفعت تلك التطبيقات فيما نفعت فيه، وهذا دوران قبلي ظاهر، لا خروج منه لهؤلاء مهما عملوا! موضوع النظرية بالأساس موضوع غيبي مطلق التغييب، فكيف يتصور في العقل أن يقال إن له تطبيقا ما في الطب أو في الهندسة الوراثية أو غير ذلك؟؟ هذه كلها تطبيقات لسنن مطردة عرفناها باستقراء العادة فيما تكون عليه التغيرات والتحورات الحاصلة في الأنواع الحية على ما هي عليه، فكيف يكون تطبيق تلك الاستقراءات نفسها تطبيقا للدعوى الغيبية التفسيرية التاريخية بشأن أصول الأنواع الحية كلها على الأرض؟؟ هذه مصادرة على المطلوب، وسوء فهم لمعنى لفظة "تطبيق" بالأساس! فنحن نقول للبروفيسور: بأي عقل تقدم للناس هذا الموقف على أنه موقف مستساغ لا بأس به، وتقصر عن التشنيع عليه كما هو حقه؟؟ نعوذ بالله من الخذلان!

قوله: "وفي المقابل، فقد نفكر في أجزاء من العلم – علم الاجتماع الحيوي مثلا Sociobiology – ليس على أنها محاولات لتحقيق تفسير صحيح أو مطابق للواقع للسلوك البشري، ولكن على أنها جهود من أجل أن نرى إلى أي مدى يمكن أن نصل في تفسير البشر وسلوكياتهم، مع حرصنا على ألا نتعلق بشيء أكثر مما يبدي الباحث الطبيعي the naturalist استعداده لأن يتعلق به. ففي تلك الحالة تكون جهودنا افتراضية hypothetical أكثر منها تقريرية. فلنفرض أن الطبيعية كانت هي الحق، فما هو نوع التفسيرات التي يمكن أن نقدمها (في ضوئها وفي حدودها) للسلوك الإيثاري في الإنسان، مثلا؟ (وتماما كما أن الطبيعاني قد يحاول أن يجيب عن هذا السؤال، فلنا أن نفرض أن الإثباتية النصرانية هي الحق، وإذن فما التفسير الحق

للسلوك العدواني في الإنسان؟). وفي الحقيقة فلست أرى أي سبب عند الإثباتيين لقبول مثل هذا المسلك في التنظير، اللهم إلا أن يظن النصراني، مثلا، أن ثمة طرقا أفضل لقضاء الوقت في محاولة التوصل إلى تصورات علمية صحيحة للسلوك البشري والنشاط الإنساني."

قلت: طيب وما موقفك أنت من هذه الجهود المذكورة: أنها محاولات لتحقيق غاية ما يمكن تحقيقه من تفسير للواقع المشاهد في ضوء الملة الطبيعية؟ وما قيمة "الجهود الافتراضية" على هذا المعنى وعلى أي أساس تستساغ من أصحابها ويسوّغ الخلاف عليها؟؟ لا أساس إلا التأسيس المدرسي اليوناني القديم للأكاديمية الغربية، الذي يصير السفسطة رأيا علميا معتبرا، والتنطع والتعمق الفاحش والتكلف الفارغ بحثا ونظرا مقبولا مبدئيا، والله المستعان لا رب سواه! وهل معتنقو تلك النظريات والمنافحون عنها في كل مناسبة، الذين يسفهون عقيدتك أنت وغيرك من أهل الملل الكتابية، هؤلاء يرونها مجرد أساطير افتراضية على فرض صحة المذهب الطبيعي يا بروفيسور؟ وأهم من هذا، هل يستساغ الخلاف على هذا الموقف كما يوحي به كلامك؟؟ تأمل إذ يقول على استحياء: " وفي الحقيقة فلست أرى أي سبب عند الإثباتيين لقبول مثل هذا المسلك في التنظير، اللهم إلا أن يظن النصراني، مثلا، أن ثمة طرقا أفضل لقضاء الوقت في محاولة التوصل إلى تصورات علمية صحيحة للسلوك البشري والنشاط الإنساني." قلت: يا رجل اصدع بالحق ولا تخنس!!

ولكن أرجع وأذكر نفسي بأنه لو كان صادقا مع نفسه في جميع أمره، لخرج من النصرانية ودخل في الإسلام من فوره، ولكن لله في قلوب عباده شؤون!

ينتقل بلانتينغا بعد ذلك لتحرير خلاصة للبحث، جعلها تحت عنوان "حجج ضعيفة للانتصار للطبيعية المنهجية، فقال [12]:

الآن، وبالنظر إلى هذه الأمثلة وكثير مما يناظرها (إلى جانب اعتبارات أوغسطية عريضة من جانبنا)، فإن الموقف المتوقع في التفكير (من حيث المبدأ، وبصورة ما أو بأخرى) هو أن يقال إن المجتمع العلمي النصراني يجب عليه أن يمارس العلم الطبيعي، أو أجزاء منه، بطريقته

[12] *Weak Arguments for Methodological Naturalism*

Now in view of these examples and many others like them (together with broader Augustinian considerations), the natural thing to think is that (in principle, at any rate) the Christian scholarly community should do science, or parts of science, in its own way and from its own perspective. What the Christian community really needs is a science that takes into account what we know as Christians. Indeed, this seems the rational thing in any event; surely the rational thing is to use all that you know in trying to understand a given phenomenon. But then in coming to a scientific understanding of hostility, or aggression, for example, shouldn't Christian psychologists make use of the notion of sin? In trying to achieve scientific understanding of love in its many and protean manifestations, for example, or play, or music, or humor, or our sense of adventure, shouldn't we also use what we know about human beings being created in the image of God, who is himself the very source of love, beauty and the like? And the same for morality? Consider that enormous, impressive, and disastrous Bolshevik experiment of the twentieth century, perhaps the outstanding feature of the twentieth century political landscape: in coming to a scientific understanding of it, shouldn't Christians use all that they know about human beings, including what they know by faith?

الخاصة ومن وجهة نظره هو. فما يحتاج إليه المجتمع النصراني حقا، هو علم يأخذ في الاعتبار ما نعرفه نحن النصارى. فهذا، بالتأكيد، هو الموقف العقلاني الصحيح. فلا شك أن الموقف العقلاني الصحيح هو أن تستعمل جميع ما تعرف في محاولتك لفهم ظاهرة ما. ولكن من أجل الوصول إلى فهم نصراني للعدائية أو الوحشية، مثلا، ألا يتعين على السيكولوجيين النصارى أن يستعملوا مفهوم الخطيئة؟ في محاولتهم تحقيق فهم علمي للحب، في صوره الكثيرة المتعددة، مثلا، أو اللعب أو الموسيقى أو المزاح أو حاسة المغامرة عندنا، ألا ينبغي علينا كذلك أن نستند إلى ما نعرفه من كون الإنسان مخلوقا على صورة الإله، الذي هو نفسه مصدر الحب والجمال وما شاكل ذلك؟ والشيء نفسه يقال في الأخلاقية؟ تأمل في تلك التجربة البلشفية العملاقة والمذهلة والكارثية في القرن العشرين، التي ربما تكون هي المعلم الأبرز في المجال السياسي في القرن العشرين، عندما نحاول أن نتوصل إلى فهم علمي بشأنها، ألا يتعين على النصارى أن يستعينوا بما يعرفونه (في دينهم) عن البشر، بما في ذلك ما يعرفونه بالإيمان؟

قلت: لا شك أن من كان يعتقد صحة دينه وأن كتابه هو كلام رب العالمين حقا، فالمتعين عليه بداهة وضرورة أن يجعل حياته كلها تبعا لما في ذلك الدين وما في ذلك الكتاب، وليس البحث الطبيعي والتجريبي وحسب! ولا شك أن ضرورة المسلم إلى إخضاع العمل التجريبي من أوله لآخره لما يمليه عليه الدين هي أعظم وأعمق من هذا الذي قرره بلانتينغا. فإنه ليس كل مطلب بحثي يستحسنه الطبيعيون الدهرية، يحسن في ميزان شريعة رب العالمين، وإن لم يكن مفضيا إلى تقرير أسطورة ميتافيزيقية دهرية أو نصرة اعتقاد إلحادي ما. فعند المسلمين علم عظيم يقال له علم الفقه، تستنبط فيه الأحكام الشرعية للنوازل من نصوص الكتاب

والسنة، ومن مذاهب الصحابة رضي الله عنهم المستمدة من تلك النصوص، ولا شك أن استحداث مطالب بحثية جديدة هو أمر يحتاج المسلم لأن يعرف حكمه الشرعي قبل أن يقبله أو يرده أو يخوض فيه. فهذا مقام التذكير والنداء للمجامع الفقهية الإسلامية في بلادنا، بأن تعتني بدراسة تلك المطالب البحثية العصرية بعرضها على الكتاب والسنة، في ضوء فهم دقيق وتحقيق منضبط للفرقان بين ما هو علم طبيعي أو تجريبي مقبول نوعا، وما هو تنظير ميثولوجي طبيعي صرف!

ثم ما معنى "فهم علمي للحب" و"فهم علمي للعب والموسيقي والمزاح" .. إلخ؟؟ ما هذا العبث؟ وكيف ومن أي وجه تكون هذه مطالب للبحث التجريبي بالأساس؟ هذه هي القضية التي يتعين على من يتصدر لهذا الباب أن يضبطها، في ضوء فهم صحيح للشريعة الإسلامية أولا، ثم للملة الطبيعية وركنها الذي يقال له الطبيعية المنهجية ثانيا. الطريقة التجريبية Scientific Method لا تفيد في العلوم الإنسانية إلا في تتبع واستقراء وتوصيف واقع السلوك البشري وما يجري في نفوس البشر على مستوى الفرد أو على مستوى الجماعة، وفي دراسة النظاميات السببية الخاضعة للحس والعادة في هذه الأبواب. أما أن يقال نحقق "فهم علمي للحب"، بأن نضع له نظرية تفسيرية، نجعل من جملة "فرضياتها" أن البشر قد خلقوا على صورة الإله، فهذا كلام لا زمام له ولا خطام! ولا يجوز، من الأصل، أن تنزل قضية كهذه منزلة الفرض التفسيري، لأن مبدأ الفرض Hypothesis إنما ينبني على الظن الاقتراحي Proposition، الذي يجب أن يكون الباحث معتقدا جواز انتفائه وثبوت نقيضه في يوم من الأيام، مهما تضاءلت احتمالية ذلك. فالباحث التجريبي يتعامل مع الفروض التفسيرية تعامل الاقتراحات التي تُخضع للبحث التجريبي من أجل أن تتقوى أو تضعف، إن لم يثبت بطلانها فتنتفي

بالكلية! فما معنى أن يستعمل النفسانيون النصارى مفهوم كذا أو مفهوم كذا مما له تعلق بسلوك البشر في اعتقادهم، في بناء "نظرية علمية تفسيرية" من هذا النوع وعلى هذا الوجه؟ عندما نأتي نحن المسلمين لمسألة في سلوك البشر فنقول إنها راجعة تفسيريا إلى هوى في النفس مثلا، فمفهوم الهوى هذا مفهوم شرعي، لا نقدمه للناس على أنه فرضية تفسيرية تطرح من أجل أن ننظر هل يثبتها التجريب والاستقراء أم ينفيها!! فالكلام على هذا النحو المجمل في موضع كهذا لا يسمن ولا يغني من جوع، ويفتح الباب لفساد أعظم مما يرجوه صاحبه من الإصلاح!

ثم يقول [13]:

[13] *True: there could be practical obstacles standing in the way of doing this; but in principle, and abstracting from these practical difficulties (which in any event may be more bark than bite), the right way for the Christian community to attain scientific understanding of, say, the way human beings are and behave, would be to start from what we know about human beings, including what we know by way of faith. Hence the sorts of hypotheses we investigate might very well involve such facts (as the Christian thinks) as that we human beings have been created by God in his image, and have fallen into sin. These 'religious' ideas might take a place in our science by way of explicitly entering various hypotheses. They might also play other roles: for example, they might be part of the background information with respect to which we evaluate the various scientific hypotheses and myths that come our way.*

صحيح إنه قد تكون ثمة عوائق عملية ماثلة في الطريق إلى ذلك، ولكن من حيث المبدأ، وبالتجريد من تلك الصعوبات العملية (التي على أي حال قد لا تزيد على أن تكون ضجيجا لا أذى فيه)، فإن الموقف الصحيح للمجتمع النصراني ليحققوا، مثلا، فهما علميا صحيحا للكيفية التي عليها البشر وسلوكياتهم، هي أن نبدأ مما نعرفه عن نوع البشر، بما في ذلك ما نعرفه من طريق الإيمان. فعلى هذا، فإن أنواع الفرضيات التي ستطرح للبحث قد تشتمل على حقائق (كما في تصور النصراني) كحقيقة أننا قد خلقنا على صورة الإله، ثم وقعنا في الخطيئة. هذه الأفكار "الدينية" قد تأخذ محلا في علمنا بأن تولد لنا فرضيات تفسيرية متنوعة. وقد تلعب مع ذلك أدوارا أخرى، فقد تكون جزءا من الخلفية المعرفية التي نرد إليها جميع الفرضيات العلمية والدعاوى الأسطورية التي تمر علينا، لتقييمها والحكم عليها.

قلت: هنا مكمن الخلل. كيف تولد أمثال تلك العقائد فرضيات تفسيرية، وما وجهه وما مفهوم الفرضية والحالة هذه؟؟ الفرض التفسيري يجب أن يكون قابلا للنفي كما يقبل الإثبات! فلو قلنا مثلا إن واقعة سلوكية معينة يراد وضع نظرية لتفسيرها، كمسألة اتفاق جماعة من المشركين، مثلا، على أنهم شاهدوا ظهورا لمعبودهم Apparition في معبدهم أو أمام الوثن المعبود. هنا يقال إن الطبيعية المنهجية تمنع منعا منهجيا صارما من تفسير ما شاهده هؤلاء على أنه نوع من الكائنات الغيبية التي لا تشملها العادة ولا يمكن تتبعها بالمشاهدة والاستقراء، فلا يبقى لدى السيكولوجي الطبيعي من فرض لتفسير ما وقع إلا أن يقول إنه هلوسة جماعية Mass Hallucination، أو خداع بصري قام به بعض الدجالين ليبدو وكأنه "ظهور" من الظهورات.

هذا هو الالتزام المنهجي الدهري المحض الذي تمليه الطبيعية المنهجية في مثل هذا، لأنها تقوم على عقيدة غيبية مفادها نفي ما وراء الطبيعة والسبب الغيبي أو الذي لا يقال له "طبيعي" Natural بوجه ما! فنحن المسلمين نأتي لمثل هذا ونقول: قد يكون كذلك، وارد – من حيث الجواز العقلي واستقراء العادة - ولكن ثمة فرض ثالث يجوز أن يفسر به ما حدث، وهو أن يكون شيطان من مردة الشياطين قد تصور لهؤلاء بتلك الصورة في تلك الواقعة من أجل أن يزيدهم غيا على غيهم وثباتا على شركهم! هذا فرض من أين نأتي به؟ من اعتقاد المسلمين أولا، أنهم يجدون في عقيدتهم، عقيدة أهل السنة، جواز أن تظهر الشياطين وتتصور للمشركين لتضلهم ولتغرقهم في مزيد من الشرك والضلال، ومن عادة علماء المسلمين ثانيا، واستقرائهم للوقائع التي ثبت لديهم بالدليل القوي أن هذا هو ما جرى بالفعل. وأعني بالدليل القوي، تحصل العالم أو الإمام على شهادة العدل الثقة الضابط عن مثله بأنه شهد بعينه من القرائن ما يدل على أن هذا شيطان يتمثل أو يتصور بصورة المعبود. ومن تلك القرائن الظاهرة أن يتمثل الشيطان بصورة نبي من الأنبياء بين أيدي قوم يعبدونه من دون الله! فهذا نقطع ديانة واعتقادا بامتناعه، لأن النبي لا يرضى بأن يعبده الناس من دون الله، ولأن الموتى لا يظهرون للأحياء كما قد تظهر الشياطين والملائكة، وهو أيضا مما تتوافر الأدلة الشرعية عليه. فهذه تكون فرضية في الواقعة الجديدة محل التفسير، تمنع الطبيعية المنهجية منعا منهجيا من مجرد الإشارة إليها ولو من بعيد! ونظير ذلك في الجدال الشهير – الذي يبدو أن بلانتينغا لم يذكره لأنه من جملة البروتستانت – بين النفسانيين الدهرية وبين اللاهوتيين الكاثوليك في مسألة التلبس الشيطاني! فهم بطبيعة الحال لا يقولون بشيء اسمه شيطان أصلا، دع عنك أن ينظروا فيما إذا كان يتلبس بالآدميين أم لا! وإذن فمن الممتنع على طبيعيتهم المنهجية أن يكون الصرع

الشيطاني هو تفسير تلك الأحوال التي نقول نحن والكاثوليك عندما نراها إنها تلبس شيطاني أو يرد أن تكون تلبسا أو صرعا شيطانيا! أما أن توضع نظرية كلية (تفسر حالة سلوكية تعتري البشر بعموم) بحيث يجعل من جملة فرضياتها أن في الغيب شيئا اسمه الجن، يمكن أن يتخبط الناس أحيانا أو يتمثل لهم في صورة معبودهم الذي يعبدونه من دون الله، فهذا باطل ومردود منهجيا كما بينا، وهو - للأسف - ما يستفاد من كلام بلانتينغا في هذا الموضع!

ثم يقول [14]:

---

[14] *I say this is the natural thing to think; oddly enough, however, the denial of this claim is widely taken for granted. As a matter of fact, it has achieved the status of philosophical orthodoxy. Among those who object to this claim are Christian thinkers with impressive credentials. Thus Ernan McMullin:*

But, of course, methodological naturalism does not restrict our study of nature; it just lays down which sort of study qualifies as scientific. If someone wants to pursue another approach to nature--and there are many others--the methodological naturalist has no reason to object. Scientists have to proceed in this way; the methodology of natural science gives no purchase on the claim that a particular event or type of event is to be explained by invoking God's creative action directly. Part of the problem, of course, is to see more clearly what this methodological naturalism is. Precisely what does it come to? Does it involve an embargo only on such claims as that a particular event is to be explained by invoking God's creative action directly, without the employment of 'secondary causes'? Does it also proscribe invoking God's indirect creative action in explaining something scientifically? Does it pertain only to scientific explanations,

أقول إن هذه هي الطريقة السليمة للتفكير، ومع ذلك، وللغرابة، فإن إنكار هذا الزعم هو الموقف السائد والمعتنق على أنه من جملة المسلمات. بل في الحقيقة فقد حقق ذلك الموقف منزلة القانونية الأرثوزوكسية في الفلسفة. ومن بين من يعارضون ذلك الزعم، مفكرون نصارى كبار، كإيرمان ماكولين الذي يقول: "ولكن بالطبع، فإن الطبيعية المنهجية لا تقيد دراستنا للطبيعة، وإنما فقط تضع بيانا بأنواع الدراسات التي تصلح لأن يقال لها "علمية". وإلا فلو أراد أحد من الناس أن يسعى في مدخل آخر لفهم الطبيعة – وثمة مداخل أخرى كثيرة – فلن يكون لدى القائل بالطبيعية المنهجية سبب لأن يعترض. العلماء الطبيعيون يجب أن يعملوا على هذا النحو: أن منهجية العلم الطبيعي لا تقيم وزنا لدعوى أن حادثا ما أو نوعا معينا من الحوادث يصح أن نفسره باستحضار عاملية الخلق الإلهي هكذا بصورة مباشرة." انتهى. يقول بلانتينغا معلقا: جزء من القضية، ولا شك، هو أن نرى بوضوح أكثر حقيقة الطبيعية المنهجية. ما الذي تنتهي إليه على وجه الدقة؟ هل تقتصر على المنع من إطلاق تلك الدعاوى كدعوى أن حادثا معينا يمكن تفسيره باستحضار خالقية الإله بصورة مباشرة، دون الاستعانة بأسباب ثانوية؟ وهل هي مانعة كذلك من استحضار خالقية الإله غير المباشرة في تفسير شيء ما علميا؟ هل تقتصر فقط على التفسيرات العلمية، دون أي دعاوى أخرى علمية؟ هل تمنع كذلك من استعمال أي دعاوى بشأن خالقية الإله، أو أي دعاوى دينية أخرى من حيث هي جزء من

---

but not to other scientific assertions and claims? Does it also preclude using claims about God's creative action, or other religious claims as part of the background information with respect to which one tries to assess the probability of a proposed scientific explanation or account? We shall have to look into these matters later.

الخلفية المعرفية التي يحاول المرؤ من خلالها أن يقدر الأرجحية الاحتمالية لصحة تفسير أو تصور علمي ما؟ سنضطر إلى النظر في هذا فيما بعد.

هنا يأتي بلانتينغا أخيرا إلى مربط الفرس وبيت القصيد: ما هو التحرير الصحيح لمبدأ الطبيعية المنهجية؟ ما هي وما أساسها الاعتقادي عند أصحابها وما الذي تمنعه وما الذي تجيزه بناء على ذلك الأساس؟ يا بروفيسور، هذا هو مبتدأ الأمر وعموده ورأسه ولا شك، وليس "جزءا من القضية"! هذا هو ما به يجب أن يبدأ الباحث في هذه القضية من مبدأ الأمر، من أجل أن يحرر التصور الصحيح لموضوع بحثه! أكتب بحثا طويلا في نقد الطبيعية المنهجية ولا أفتتحه بتحرير التعريف الذي عليه مدار النقد؟ هذا وأيم الله من أعجب العجب! وأعجب منه أن يقع من مثل بلانتينغا! كل هذا الكلام ولم يعلق الرجل على النقل الذي نقله في سياق الكلام، وإنما اكتفى بتقرير أن المصطلح يحتاج إلى تعريف! يقول ماكولين هذا " ولكن بالطبع، فإن الطبيعية المنهجية لا تقيد دراستنا للطبيعة، وإنما فقط تضع بيانا بأنواع الدراسات التي تصلح لأن يقال لها "علمية"." وهذا تلبيس وتناقض في الحقيقة، إذ إن مجرد إخراج الدراسة من اسم "العلمية" بناء على الطبيعية المنهجية، هو تقييد منهجي صارم لدراسة الناس للطبيعة! إذ معلوم أن العلم Science على هذا الإطلاق عندهم إنما يطلق ويراد به العلم المختص بدراسة الطبيعة! فإذا أخرَجت دراسةً ما من دراسات الطبيعة عن العلم المختص بدراسة الطبيعة، لم يبق لها – على هذا الاصطلاح السائد للفظة Science – في الثقافة الغربية، أيُّ أساس للقبول على أنها معرفة أو تفيد المعرفة في موضوعها بوجه من الوجوه! فإن لم يكن هذا تقييدا لدراسة الطبيعة، فليس في الأرض تقييد لشيء بشيء! ادرس الطبيعة خارج إطار الطبيعية المنهجية ما بدا لك، ولكن لا تسم ما انتهيت إليه بأنه علم بالطبيعة! فماذا بقي إلا أن يكون ما انتهيت

إليه جهلا في نفس الأمر؟ قوله: " وإلا فلو أراد أحد من الناس أن يسعى في مدخل آخر لفهم الطبيعة - وثمة مداخل أخرى كثيرة - فلن يكون لدى القائل بالطبيعية المنهجية سبب لأن يعترض" فيقال له: بل يعترض قطعا، لأن موضوع العلم الطبيعي (الذي وضعوا هم القيد الدهري عليه) إنما هو فهم الطبيعة! فإما أن تكون الدراسة الموضوعة في فهم الطبيعة، جارية على طريقة أصحاب تلك الصنعة نفسها، وإذن يرحبون بها ويعدونها من العلم، وإما ألا تكون كذلك وإذن فهي عندهم مما يعترض عليه ولا يقبل! وشاهد ذلك حاضر في أمريكا نفسها التي أتصور أن هذا الكاتب يعيش فيها، حيث بلغت معركة الطبيعيين الدهرية ضد أصحاب نظرية التصميم الذكي، تحت شعار الطبيعية المنهجية، أن وصلت إلى المحاكم والقضاء كما هو معروف! ولا أرتاب في أن هذه النظرية بخصوصها وتلك المعركة تحديدا هي ما حمل بلانتينغا على كتابة هذا المقال أصالة! وهي مثال ظاهر وجلي جدا لما يمكن أن يفضي إليه هذا المسلك التلبيسي الذي جاء به بلانتينغا في التعامل مع الطبيعية المنهجية، من خلط لملتين متناقضتين، لا تتفقان في مبدأ النظر نفسه، من أصل الأمر! وقد أطلت النفس في التعليق عليها في كتاب معيار النظر عند الكلام على النحل الداروينية المختلفة التي ظهرت في أواخر القرن الماضي في بلاد الغرب، وظهر لها أذناب وأتباع في بني جلدتنا. فالنظرية تقوم على المنهج الذي يرجو بلانتينغا أن يراه معمولا به بين الطبائعيين النصارى في وضع النظريات العلمية في شتى فروع العلم الطبيعي: أن تفتح الموضوعات للتنظير الطبيعي بلا حد أو قيد، غيبها وشهادتها سواء، ولكن مع تجويز أن توضع الفرضيات التفسيرية الدينية بصورة ما أو بأخرى في بناء النظرية! وهذا بالضبط ما سلكه أصحاب التصميم الذكي Intelligent Design، وكأنما كان الرجل يتكلم والنظرية حاضرة في مخيلته.

قال واحد من مؤسسي النظرية، وهو عالم البيولوجيا النصراني مايكل بيهي - وبإيجاز أرجو ألا يكون مخلا، والزيادة وبسط المقال في المعيار لمن أراد - إن نظرية داروين مقبولة إجمالا، وهي وصف علمي جيد جدا للتاريخ الطبيعي ولنشأة الأنواع الحية على الأرض، ولكن ينقصها أن فيها فجوات لم تتمكن الآليات الأساسية في النظرية من تفسيرها على نحو مقبول، وهي فجوات ظهرت عندما بلغ العلم التجريبي من التطور ما يكفي لأن يستكشف ما يجري في الخلية الحية على المستوى الجزيئي. فإذا كان داروين نفسه قد اشترط في كتابه "في أصل الأنواع" شرطا لإثبات الخلل والنقص في نظريته، وهو أن نأتي بشيء في الحشوة الحية Biosphere (نوع حي، أو عضو من الأعضاء أو نظام حيوي ما) تعجز الآليات التي فرضها هو في تفسير نشأته بالتطور من سلف مشترك، فقد أظهرت لنا البيولوجيا الجزيئية أخيرا ماكينات وأجهزة جزيئية دقيقة تعمل بطريقة مذهلة، وبينت لنا أننا لو فرضنا أن تخلف أو فقد أي جزء من أجزاء الماكينة الواحدة من تلك الماكينات في الخلية، فلن تعمل أبدا، ومن ثم تفشل الخلية كلها ولا يكون فيها حياة! والأصل في نظرية داروين هو أن جميع النظم الحيوية والأنواع الحية تنشأ بالترقي المتدرج، فكيف للخلية الحية نفسها أن تعمل إن قدرنا أن كانت نشأة تلك الماكينات الجزيئية الدقيقة بالترقي، تبدأ على هيئة ناقصة ثم تزداد تعقدا وتركبا خطوة بعد خطوة حتى تصير إلى ما هي عليه الآن؟؟

هذا التعقد "غير القابل للاختزال" كما سماه، لا يمكن تفسيره - فيما زعم - بالنشوء جريا على آليتي التطور الدارويني الأساسيتين: الانتخاب والطفرة، بل يجب أن يكون تفسيره في آلية ثالثة إضافية فرضها بيهي على سبيل التعديل على النظرية، وسماها بالتصميم الذكي! وبهذا تبقى آلية الانتخاب الطبيعي وآلية الطفرة العشوائية العمياء عاملتين كما هما في الميثولوجيا الداروينية،

وجريا على نفس الأصول الفلسفية الدهرية التي منها نبتت النظرية نفسها كما بُسط الكلام عليه في غير موضع، وإنما تضاف إليها آلية أخرى يفسر بها خلق الخلية نفسها وما فيها من نظم بيوكيميائية دقيقة، وهي كائن ذكي ينسب إليه خلق الخلية الأولى في الأسطورة الداروينية، بناء على تصميم سابق، على أساس أن الماكينات الجزيئية تلك من غير المتصور أن تنشأ إلا "بالخلق المباشر" دفعة واحدة دون ترقي أو تدرج! خلافا للعين، مثلا، التي زعم داروين أنها يمكن أن تكون قد تدرجت من الانحطاط الوظيفي في جميع الأنواع الحية، إلى الترقي والتعقد بالطفرات على خطوات متتابعة، ووافقه بيهي بكل أريحية!

فلماذا وعلى أي أساس فرق بيهي بين النظم الحيوية الجارية على المستوى الجزيئي، والنظم الحيوية الجارية على المستوى التشريحي، فجعل الأولى ملجئة – من حيث التفسير العلمي الطبيعي – إلى افتراض صانع ذي حكمة وإرادة، خلافا للثانية، مع أن العقل والبداهة والفطرة توجبان أن يكون الجميع من صنع خالق حكيم عليم يخلق كل شيء بمقدار، سبحانه وتعالى عن ذلك الحطّ والتحقير الذي تنطوي عليه آليات داروين وفروضه التفسيرية؟ جاء التفريق من تشرب بيهي بالطبيعية المنهجية المحضة في التعامل مع النظرية ومع منطق الفرض التفسيري فيها Abductive Reasoning، بداية من أنواع الموضوعات التي يستجاز فيها تطبيق ذلك المنطق من الأساس. لهذا وافق داروين على النظرية موافقة كلية، وعلى منهجه في بنائها في هذا الباب الذي هو موضوعها، ثم وافقه على تقريره أن مقياس القبول والرد إنما هو في "القوة التفسيرية" Explanatory Power للنظرية! فالفرضية الأحسن والأقدر على تفسير الواقع المراد تفسيره، لابد أن تكون هي الأحق بالقبول والاعتماد في الوسط الأكاديمي مما سواها في نفس الأمر. ولا شك أن هذا المبدأ في التعامل مع المنطق التفسيري صحيح إجمالا

وله استعماله الصحيح في أبواب كثيرة في العلوم التجريبية، طبيعية كانت أو إنسانية، بيد أنه في هذا الباب لا يعدو أن يكون ضربا من المغالطة والسخف عند التحقيق! فأنت إن أردت أن تفاضل بين نظريتين أو فرضيتين تفسيريتين، تقول إن إحداهما أحسن من الأخرى في تفسير الواقع محل البحث، فعلى أي شيء تستند؟ لن تملك إلا أن تستند إلى محصول الخبرة السابقة لديك أو المتراكمة لدى الناس إجمالا فيما تعلم. تقول إن هذه الواقعة لم نر لها نظيرا إلا كان ناشئا عن كذا وكذا، وإذن فلابد أن يكون هذا هو التفسير الأحسن للنظرية، خلافا لمن فسرها بغير ذلك من فروض يقل وقوعها في عادتنا وفيما خبرناه من الأشباه والنظائر. وهذا ما به يجري عمل المحقق الجنائي عند وضعه النظريات للتوصل إلى الجاني، ثم تكلف الموازنة بينها، كما ضرب بيهي المثل به في بعض كتبه! فالتفسير الأحسن إنما يرجح بناء على الخبرة السابقة بالأشباه والنظائر!

ولكن من الواضح الجلي أن موضوع نظرية داروين ليست فيه أشباه ولا نظائر في عادة البشر! من منا سبق له أن شهد أراض أخرى تنشأ فيها الأنواع الحية بعد أن لم تكن، حتى يقول إن أحسن تفسير لنشوء تلك الأنواع التي نراها هنا على هذه الأرض، هو أن يكون نظير ما وقع له في خبرته وعادته؟ هذا لم يكن أبدا كما هو واضح! وإذن فلا أساس ولا مستند لوضع الفروض التفسيرية من الأساس، دع عنك المفاضلة بينها والحكم بأن إحداها أقوى تفسيريا مما سواها! وهو ما يترك معيار القوة التفسيرية هذا معيارا فارغا، في هذا الباب، من كل مضمون وكل قيمة عند التحقيق! ولكن عند القائلين بالطبيعية المنهجية، لا تشترط العادة ولا الاستقراء في الخلفية المعرفية التي تستمد منها الفروض التفسيرية ثم يوازن بينها بالرجوع إليها، وإنما يكفي أن تكون النظرية متناسقة مع بعضها البعض، متلائمة مع ما سواها من

نظريات ذات صلة، وقابلة لأن تستمد منها تأويلات لجميع المشاهدات ذات الصلة، ويا حبذا لو أمكن استمداد تنبؤات منها بحيث يصدقها الواقع والمشاهدة بتأويل ملائم! ولا عجب، فإنهم يعلمون أنهم لو اشترطوا في معيار القبول والرد شيئا فوق ذلك لغلقوا على أنفسهم تلك الأبواب بالكلية! إن أردت أن تستوعب الغيب بكليته في نظرياتك "العلمية" الكبرى، فلن تشترط على نفسك أن يكون أساس وضع الفرضيات التفسيرية لديك والموازنة بينها هو العادة والاستقراء كما هو واضح، وإلا صرت كالذي يضرب نفسه بالرصاص في قدميه! ولهذا بلغت الحالة العقلية البائسة للطبيعيين في عصرنا هذا أن أصبح الفيزيائيون يتناقشون نقاشا جادا فيما إذا كانت المشاهدة نفسها يلزم أن تشترط من أجل قبول نظرية ما أو ردها! فعندما يصبح موضوع التنظير وهما محضا لا وجود له إلا في ذهن صاحبه، كخرافة الأبعاد العليا في نظرية الأوتار الفائقة مثلا، أو غيبا مطلقا لا وصول له من طريق الحس، كخرافة الأكوان المتعددة الخارجة عن كوننا هذا، فأي مشاهدة تلك التي ترام والحالة هذه، ومن أين يؤتى بها؟ فاضحك ما شئت أن تضحك من "علم تجريبي" لا تشترط فيه المشاهدة نفسها في الإثبات والنفي!

على أي حال، وحتى لا يطول بنا الاستطراد، نقول إن الطبيعية المنهجية هي التي أدخلت ذلك السيلان والانمياع البالغ في معايير قبول النظريات والموازنة بينها، حتى لم يجد داروين إلا أن يقول – وهو يعلم أنه يشترط سرابا في سراب ووهما في وهم – إن شرط إبطال نظريته هو الإتيان بتفسير أحسن منها لنظم حيوية يتعذر تفسيرها بالانتخاب الطبيعي! ولم يجد بيهي، لتشبعه بالفلسفة نفسها، على نصرانيته، إلا أن يقره على ذلك، وكأنما نتكلم في تفسير حادث من الحوادث التي اعتدنا لها من الأشباه والنظائر ما نتولد منه الفروض والموازنات فيما بينها! وسلم بمبدأ الاطراد والاستمرارية المطلقة للنظام الطبيعي الحالي وصولا إلى حوادث نشأته هو

نفسه في الماضي، كما سلم داروين بلا توقف أو تردد! بل إنه متلبس كذلك بالانغلاق السببي الطبيعي التام من حيث لا يشعر هو ولا المفتونون به وبكتبه ونظريته من المنبطحين من بني جلدتنا هداهم الله، حتى إنه لم يملك، حين سئل عن طبيعة ذلك المصمم المزعوم، إلا أن يجوِّز أن يكون كائنا فضائيا ذكيا جاء إلى الأرض وبذر فيها بذرة الحياة في الخلية الأولى، ثم ترك الأسطورة لتجري بعدُ على ما زعمه داروين، تحت سلطان الطفرة والانتخاب! ولا عجب، فأنت حين تقول إن الصانع الذي تثبته إنما هو آلية تفسيرية إضافية لتفسير نوع مخصوص من الظواهر الحيوية التي لا تفسرها الآليات الأخرى، فإنك بذلك ملزم ومضطر اضطرارا لألا تنزله إلا تلك المنزلة التي تسمح بها المنظومة الاعتقادية التي قامت عليها الآليات الداروينية وقام عليها مبدأ التنظير الدارويني نفسه في هذا الباب! وإذن فغايته أن يكون كائنا بيولوجيا خاضعا، هو نفسه، لقوانين الطبيعة إجمالا، ولأسباب طبيعية أدت إلى وجوده هو نفسه، أما أن يكون كائنا غيبيا متجاوزا للعالم ولسنن العالم، فليس هو إذن بالتفسير الطبيعي، كما أن الانتخاب والطفرة يعدان من جملة التفاسير الطبيعية!

ثم إنك إن كانت غايتك في وضع الفرضية التفسيرية هو أنها أحسن تفسيرا من غيرها، مع أنه لا أساس في العادة ولا في الاستقراء من شبيه أو نظير لموضوع التفسير نفسه، فتقول إن إثبات مصمم ما بحيث يكون هو الذي صنع ذلك التعقد غير القابل للاختزال في نظام حيوي ما، هو الأحسن، بالنظر إلى كون امتناع الاختزال هذا مانعا من تفسير نشأة ذلك النظام جريا على آليتي الطفرة والانتخاب، فكما جئت أنت بدعواك تلك بلا أساس من العادة والاستقراء، فسيدفعها خصمك بما يقابلها بلا أساس أيضا، وإذن لن يجد الوسط الأكاديمي الطبيعي إلا أن يقدم قوله على قولك، لأنه يكون جاريا بفرضه، أيا ما كان، على تصور تغلق

به الأبواب في وجوه من يريدون اقتحام الأسطورة الداروينية بحشر الإله الذي يعبدونه في فجواتها! وهذا ما جرى فعلا، ولم يأت به، وياللعجب، إلا كينيث ميلر، زميله البيولوجي الأمريكي الكاثوليكي أيضا! قال: أنت تقول إن هذا التعقيد الذي ضربت به المثل غير قابل للاختزال، تفرق بينه وبين غيره من صور التعقيد البيولوجي، ونحن نقول: كما فرضنا في تلك الصور الأخرى الفروض التفسيرية الجارية على آليتي داروين، فكذلك نفعل هاهنا وبكل سهولة! فتلك الماكينات الجزيئية ليس في تصورنا ما يمنع من أن تكون في مبدأ الأمر قائمة بوظائف معينة في الخلايا الأولى، ثم لما انضافت إليها أجزاء أخرى أصبحت تقوم بوظائف أخرى! وقد أخرج ميلر بالفعل من تلك الماكينات ما يبدو وكأنه هو ذلك السلف الدارويني للماكينة التي تحداهم بيهي بتفسيرها من طريقهم! فلماذا سهل عليه هذا؟ لأنه لا وجه تحت الطبيعية المنهجية للتحدي بالتفسير في هذه الأبواب أصلا، فإنه لن يكون من المتعذر أبدا على صاحب نظرية تفسيرية في تلك الغيوب المطلقة التي لا نجد في عادتنا نظريا نربط به بين العامل المفسر المفترض فيها وبين الظواهر محل التفسير، أن يخترع لنفسه من الفروض الإضافية الملفقة Ad-Hoc Hypotheses ما يبدو متناسقا مع جملة الفروض التي جاءت بها النظرية، ولا يظهر فيه إذن ما يدعو لرده كما لم يظهر في غيره من فروض النظرية! ولهذا نقول إنه مهما كثرت وتوافرت "الأدلة" المزعومة على صحة أمثال تلك النظريات بين أيدي أصحابها كما لا يقع له نظير في غيرها، فلا قيمة لها ولا نرفع بها رأسا، لأنها ليست في الحقيقة إلا تأويلات متكلفة للمشاهدات مبنية على نفس النظرية المراد إثباتها!

فتأمل المنزلة التي أنزلها بيهي لربه سبحانه في ذلك المسلك التنظيري الفاسد، وخبرني بربك ما الخير الذي رجع على الناس من سلوكه تلك الطريقة، وأي كسر لنظرية داروين هو هذا

الذي يزعم الأذناب من بني جلدتنا، هداهم الله، أن كتبه قد جاءت به؟ بل أين الإلزام الذي يمكن، على زعم بعضهم، أن يرام فرضه على الدراونة من طريقها عند المحاجة بها؟ هذا هو "العلم النصراني" Christian Science الذي تدعو إليه يا بروفيسور بلانتينغا؟ أن يصبح رب العالمين سبحانه، وجها محتملا في فرض تفسيري لبعض ظواهر الطبيعة دون غيرها، في نظرية تفرض فيها الفرضيات بالهوى والمزاج، فتقبل الفرضية تحكما بلا أساس في العقل أو في العادة كما ترد بلا أساس في العقل أو في العادة؟ سبحان الله وتعالى عن هذا العبث علوا كبيرا!

ليس لبلانتينغا قضية مع أصل الطبيعية المنهجية نفسها في الحقيقة، من حيث هي طريقة تقوم على مسلمات ميتافيزيقية تقحم العلم الطبيعي فيما ليس له الدخول فيه أصلا، وإنما غاية معركته أن يصل إلى انتزاع اعتراف من الأكاديميين الطبائعيين الغربيين "بعلمية" نظرية كنظرية التصميم الذكي، مع كونها في زعمه أوفق للاعتقاد النصراني من نظرية داروين! هو يريد للطبائعيين النصارى أن يجروا على ما هم جارون عليه من تنظير طبيعي في هذا الباب ونحوه (كنظريات أصحاب جيولوجيا الطوفان Flood Geology ونظرياتهم في تفسير ما يقال له الضبط الكوزمولوجي الدقيق وغير ذلك) من غير أن يقال لهم: كلامكم كلام ديني لا علاقة له بالعلم! هذه هي قضيته!

فإنه على كلام ماكولين المنقول آنفا، تصبح نظرية التصميم الذكي هذه نظرية غير علمية non-science، أو تقدم فهما للطبيعة لا علاقة له بالعلم الطبيعي وطرائقه في نفس الأمر، وهذا هو لب المعركة التاريخية التي خاضها بيهي ودمبسكي مع أقرانهما من الطبائعيين في أمريكا، فتأمل! فإنه إن قدرنا أن نُزع اسم العلم Science من عليها أخيرا، فلن يكون بوسع المدارس

الأمريكية أن تدرسها للأطفال في مقررات علم الأحياء على أنها نظرية أخرى مطروحة إلى جانب نظرية داروين، مع كونها تتسم باتساعها لإثبات العاملية الإلهية Divine Agency خلافا لنظرية داروين! ولو جعلت نظرية دينية صرفة، لا علاقة لها بالعلم الطبيعي البتة، فسيفقد بيهي ودمبسكي وأصحابهما كل غاية كانت لهما في وضعها من الأساس، وسيمسي موضوعها من موضوعات الدين النصراني التي غايتها أن تدرس في الكنيسة في مدارس الأحد، مع أن هذا ليس ما لأجله وضعها القوم أصلا! وإصرار بيهي في كل مناسبة على التأكيد على أن نظريته ليست نظرية دينية ولا علاقة لها بأي دين من الأديان أصلا، مبثوث منتشر! فعلى قول ماكولين، تنقطع صلة النظرية بكل من العلم الطبيعي والدين على السواء! ويلزم أن يصبح النصراني في حيرة، هل يقبل نظرية (أ) في تفسير قضية معينة من قضايا غيب الماضي السحيق، المنسوبة إلى العلم الطبيعي بوجه ما، لأنها تأتي من طريق العلم الطبيعي المعترف به أكاديميا، أم يقبل في محلها نظرية (ب) في تفسير نفس القضية، مع كونها مستبعدة من اسم العلم الطبيعي، وإنما يروجها بعض الباحثين النصارى بعيدا عن دائرة البحث الطبيعي المعتمد أكاديميا؟ هذه أزمة للقوم ولا شك! أزمة هوية ومنزلة اجتماعية، تنقض عليهم ما لأجله تكلفوا تلك النظريات بالأساس!

يواصل بلانتينغا فيقول [15]: ولكن في الوقت الحالي، أريد أن أنظر في سؤال آخر: وهو ما السبب الذي يدعونا لقبول الزعم بأن العلم الطبيعي ينطوي بالفعل على تلك الطبيعية المنهجية،

---

[15] *At the moment however, I want to look into a different question: what reason is there for accepting the claim that science does indeed involve such a methodological naturalism, however exactly we construe the latter? I shall*

بصرف النظر عن الكيفية الدقيقة التي نعرفها بها؟ سأنظر في بعض الأسباب المدعاة لهذا الزعم، وسأبين أنها أسباب واهية. ثم في الجزء الثالث، سأبين أن ثمة أسبابا معقولة جدا، على الرغم من ذلك، تكمن وراء جزء على الأقل من هذا الزعم. ولكن تلك الأسباب، لا تدعم الزعم بأن العلم الطبيعي محايد دينيا.

---

examine some proposed reasons for this claim and find them wanting. In Part III, I shall then argue that, nevertheless, a couple of very sensible reasons lie behind at least part of this claim. These reasons, however, do not support the suggestion that science is religiously neutral. Well then, what underlies the idea that science in some way necessarily involves this principle of methodological naturalism? First, and perhaps most important: this conception of science is an integral and venerable part of the whole conception of faith and reason we have inherited from the Enlightenment. I don't have the space to treat this topic with anything like the fullness it deserves; but the central idea, here, is that science is objective, public, sharable, publicly verifiable, and equally available to anyone, whatever their religious or metaphysical proclivities. We may be Buddhist, Hindu, Protestant, Catholic, Muslim, Jew, Bahai, none of the above--the findings of science hold equally for all of us. This is because proper science, as seen by the Enlightenment, is restricted to the deliverances of reason and sense (perception) which are the same for all people. Religion, on the other hand, is private, subjective, and obviously subject to considerable individual differences. But then if science is indeed public and sharable by all, then of course one can't properly pursue it by starting from some bit of religious belief or dogma.

فالآن، ما الأساس الذي يكمن تحت فكرة أن العلم الطبيعي يشتمل بالضرورة بصورة ما أو بأخرى على مبدأ الطبيعية المنهجية هذا؟ أولا، ولعله الأهم: فإن هذا التصور للعلم الطبيعي هو جزء مكمل ومحترم للغاية من التصور الكلي للإيمان والعقل الذي ورثناه من عصر التنوير. وأنا ليس لدي هاهنا من المتسع ما يكفي لمعالجة هذه القضية بالسعة التي تستحقها، لكن الفكرة الجوهرية هنا هي أن العلم موضوعي، جماهيري، قابل للمشاركة، يمكن التحقق منه في العلن، ومتاح للجميع على السواء، أيا كان دينهم أو ميلهم الميتافيزيقي. قد نكون بوذيين، هندوس، بروتستانت، كاثوليك، مسلمين، يهود، بهائيين، أو غير ذلك، فإن اكتشافات العلم تقبل على السوية عندنا جميعا. هذا لأن العلم الصحيح، عند فلاسفة التنوير، مقصور على إفادات العقل والحس (الإدراك الحسي) التي هي على السواء عند جميع البشر. وأما الدين، من جهة أخرى، فهو شأن شخصي خاص، فردي، ويخضع كما هو واضح لاختلافات فردية كثيرة. ولكن إن كان العلم حقا أمرا جماهيريا قابلا لمشاركة الجميع، فلا شك أنه لن يكون من الممكن أن يمارس ممارسة صحيحة بأن نشرع فيه انطلاقا من اعتقاد ديني ما.

قلت: كل هذا لا علاقة له بالأصل الدهري الطبيعي الكلي الذي تقوم عليه الطبيعية المنهجية، ولم تزل تقوم عليه منذ أن تأسست الأكاديمية الفلسفية الغربية على أيدي الفلاسفة المدرسيين في اليونان! لا شك أن فلسفة التنوير في القرن السابع عشر الميلادي كان لها أثرها البالغ في تعزيز الغلو والإفراط عند الفلاسفة في قيمة العلم الطبيعي، وفي تلبيس مسلمات النحلة الطبيعية اليونانية بأدوات البحث التجريبي ذات الأصل الإسلامي، كما بينته في غير موضع! فإن فلاسفة النهضة لم يكونوا هم من بدعوا بدعة التنظير على شرط الإطلاق أو شرط الوجود، ولم يكونوا هم أول من زعم أن العالم كله لابد أن يكون مركبا مما يزعم الفيلسوف بقياس ما

أنه مركب منه! صحيح إن العلم الطبيعي الصحيح القائم على إعمال العقل إعمالا صحيحا فيما يفيد به استقراء العادة في المحسوسات، هو مما يلزم أن يتفق عليه أهل الملل كافة إذا ثبت، ولكن أنت تعلم كما يعلم قارؤك أن البحث الطبيعي لم يزل منذ زمان الفلاسفة القدماء في اليونان وإلى يومنا هذا لا يقتصر في موضوعات البحث والتنظير على إفادات الإدراك الحسي في إطار هذا الحيز الذي تنحصر فيه عادتنا معاشر البشر من العالم الذي نعيش فيه، وإنما تتجاوز ذلك لتتناول كل موجود كان من الأزل وكل ما هو كائن إلى الأبد، وهو تجاوز منهجي لم يحدثه التنويريون، وإنما أسسوا عليه! هذه بداية في بحث القضية تدلك وحدها على أن الرجل لم يحقق في الأمر كما كان يتعين عليه أن يفعل، والله المستعان.

الجزء السابع

قال بلانتينغا في ختام الجزء الأول من المقال [16]:

واحد من منابع ذلك المسلك في التفكير بشأن "العلم التجريبي"، هو ثمرة من ثمرات التأسيسية المعاصرة عند ديكارت، وبالأحرى لوك. وقد خضعت التأسيسية العصرية لكثير من النقد مؤخرا، ولا أعتزم أن أضيف صوتي هاهنا للناقدين. وبما أن التأسيسية الكلاسيكية التي تقوم عليها الطبيعية المنهجية قد سقطت عند الفلاسفة، فسأنظر عوضا عن ذلك في بعض الأسباب المحلية الأقل عظما وكونية لقبول الطبيعية المنهجية.

قلت: ليس صحيحا أن التأسيسية العصرية الكارتيزية أو حتى اللوكية هي من منابع ذلك الفكر بشأن العلم التجريبي، وإنما الصواب أن يقال إن التأسيسية المعرفية والطبيعية المنهجية كلتاهما ثمرتان متلازمتان للغلو الذي اعترى الأكاديمية الغربية فيما يقال له عصر الاستنارة أو التنوير، في التزام مبادئ المدرسة اليونانية القديمة في النظر الميتافيزيقي والسفسطة على المعارف الفطرية، ووضع نظريات الفيزيقا تأسيسا على مقدمات متافيزيقية دهرية خفية مفادها أنه ليس في الوجود من أنواع الموجودات إلا نظير ما يقع تحت الحس والعادة من هذا العالم!

---

[16] *One root of this way of thinking about science is a consequence of the modern foundationalism stemming from Descartes and perhaps even more importantly, Locke. Modern classical foundationalism has come in for a lot of criticism lately, and I do not propose to add my voice to the howling mob. 36 And since the classical foundationalism upon which methodological naturalism is based has run aground, I shall instead consider some more local, less grand and cosmic reasons for accepting methodological naturalism.*

وما كان التنوير المزعوم إلا ثورة وانقلابا على السلطان الكنسي على جنس المعارف الغيبية كما هو معلوم. وكأن الفلاسفة الأكاديميين في بلاد الغرب لما شعروا بزوال سلطانهم عن عقول الكافة في العصور الوسيطة، ووجدوا أن ميتافيزيقاهم الأرسطية لم تعد تفضل ميتافيزيقا الكنيسة في شيء يذكر، لا سيما وقد كانت الكنيسة قد ابتلعت أكثرها بالفعل في لاهوتها الأكويني، وفي كتابات الآباء الأوائل، لما كان ذلك كذلك، وجد القوم ضالتهم المنشودة في كوزمولوجيا كوربنيكوس التي قلبت ميزان الأرض والسماء باسم علمي الهندسة والفلك، وفي ميكانيكا نيوتن التي استعملت فيها الرياضيات (بناء على ميتافيزيقا من نفس نوع ميتافيزيقا أرسطو، وإن خالفتها في كثير من التصورات) في تتبع حركات جميع المتحركات في الأرض وفي السماء وفي التنبؤ بها، واكتسب فلاسفة الأكاديمية منزلة جديدة تظهر معها بضاعتهم من جديد وقد استوعبت كل معلوم، بالقوة إن لم يكن بالفعل. فمع ظهور تلك الفورة في القيمة النوعية لبضاعة الفلاسفة إجمالا، في مقابل بضاعة الكنيسة، تلك الفورة التي لولا ترجمة علوم العرب المسلمين وقوانينهم في الطب والبصريات ما حصلت أصلا، انتفخ الفلاسفة وانتفشوا بالنظر الميتافيزيقي من جديد، ورجعت روح السفسطة على الفطريات أقوى مما كانت.

والواقع أن الصورة التاريخية لأي المذاهب أثر في أي، وأي الفلاسفة تأثر بأي، ومن أخذ عمن، هي في هذا الباب أعقد بكثير من هذا التصوير الذي صورته أنا والذي صوره بلانتينغا في بحثه، ولكن لا ينبغي لمن أراد أن يتتبعه أن يغفل عن الأصل المنهجي اليوناني الكلي الذي قام عليه جميع ذلك (ومنه اللاهوت الكتابي والكلام عند أهل القبلة)، والذي ما قام

عند أصحابه أصالة إلا من دهريتهم ومن نزقهم واستكبارهم بعقولهم، وحرصهم على منافسة الأنبياء وأتباعهم في الاستحواذ على معارف الناس وعقولهم!

على أي حال، دعنا ننظر فيما سماه بلانتينغا بالأسباب المحلية أو الأقل عظمة وكونية، على عبارته، لقبول الناس للطبيعية المنهجية في هذا العصر.

يقول في مستهل الجزء الثاني من بحثه [17]:

المذهب الفلسفي القائل بالطبيعية المنهجية مذهب فاسد. ففي كثير من المجالات، لا يعد العلم Science محايدا دينيا. زد على ذلك أنه لا الدعاوى بشأن تعريف العلم أو طبيعته الجوهرية، ولا المسلمات الثيولوجية الأولى (كقضية التكامل الوظيفي مثلا)، يمكن أن تدعم الطبيعية المنهجية بصورة جيدة. ومع هذا، فقد يجد المرؤ دعما أقوى لذلك المذهب فيما يمكن أن يقال

---

[17] *[This is the second part of a two-part article.] The philosophical doctrine of methodological naturalism is flawed. In many areas, science is not religiously neutral. Furthermore, neither claims about the definition or essential nature of science, nor theological presuppositions (e.g., "functional integrity"), can properly support methodological naturalism. However, one may find stronger support for the doctrine in what might be called "Duhemian science" -- i.e., those empirical inquiries pursued by all parties on common ground, independently of whatever metaphysical assumptions may be held by only some investigators. Duhemian science is thus "maximally inclusive." "Augustinian science," on the other hand, may employ particular theological or philosophical assumptions. The ideal of Duhemian science should not exclude Augustinian science: both are valid forms of inquiry.*

له "العلم الدوهيمي" (نسبة إلى الفيلسوف الفرنسي بيير دوهيم)، أي تلك القضايا الإمبريقية التي يبحث فيها الجميع على أرضية مشتركة، بصرف النظر عن الأقوال الميتافيزيقية التي قد يعتنقها بعض الباحثين دون غيرهم. فالعلم الدوهيمي على هذا يكون علما بالغا الغاية في استيعاب الجميع. وأما العلم الأوغسطي، من الجانب الآخر، فقد يستعين ببعض المقدمات الثيولوجية أو الفلسفية المعينة. فالقيمة التي يقدمها "العلم الدوهمي"، لا ينبغي أن يستبعد من أجلها "العلم الأوغسطي": بل كلاهما نوعان من الطرح البحثي المقبول.

قلت هذا هو إجمال ما كتب الجزء الثاني من البحث من أجل أن يبينه. هذا هو علاج الطبيعية المنهجية عند بلانتينغا: أن نقبلها ونبتلعها إجمالا، وجميع ما ينشأ عنها أكاديميا من نظريات، على أنه علم صحيح مقبول منهجيا، إلا أن تطرأ نظرية تتعارض فلسفيا وميتافيزيقا مع اعتقاد الباحث النصراني ومسلماته اللاهوتية، فحينئذ يطبق عليها المصفاة الأوغسطية التي تكلم عليها بلانتينغا في القبول والرد (وبينا فيما مر معك أنها هي بحذافيرها قانون الرازي في التأويل، الذي نقده شيخ الإسلام رحمه الله)، فإذا كانت النظرية أقوى مما عنده في نفس الأمر قبلها وغير عقيدته، وإلا ردها وقدم ما يعتقد، على ما تقدم بيانه من سيولة وميوعة تامة عند فلاسفة النصارى في التعامل اللاهوتي مع النص الكتابي، وعدم احترام لحدود الغيب وسلطان الوحي الإلهي عليه معرفيا، تشبعا منهم بنفس المنهج الجدلي السوفسطائي اليوناني الذي أنبت الطبيعية المنهجية في الأكاديمية الغربية في جملة ما أنبت.

يقول بلانتينغا في مبحث عنون له بقوله "الطبيعية المنهجية صحيحة بمقتضى التعريف" Methodological Naturalism is True by Definition[18]:

---

[18] *So why must a scientist proceed in accordance with methodological naturalism? Michael Ruse suggests that methodological naturalism or at any rate part of it is true by definition:*

Furthermore, even if Scientific Creationism were totally successful in making its case as science, it would not yield a scientific explanation of origins. Rather, at most, it could prove that science shows that there can be no scientific explanation of origins. The Creationists believe that the world started miraculously. But miracles lie outside of science, which by definition deals only with the natural, the repeatable, that which is governed by law.

By definition of the term 'science' one supposes; Ruse apparently holds there is a correct definition of 'science', such that from the definition it follows that science deals only with what is natural, repeatable, and governed by law. (Note that this claim doesn't bear on the suggestions that a Christian scientist can propose hypotheses involving such 'religious' doctrines as, say, original sin, and can evaluate the epistemic probability of a scientific hypothesis relative to background belief that includes Christian belief.) Ruse's claim apparently rules out hypotheses that include references to God: God is a supernatural being, hypotheses referring to him therefore deal with something besides the natural -- hence such hypotheses can't be part of science.

Three things are particularly puzzling about Ruse's claim. First, enormous energy has been expended, for at least several centuries, on the demarcation problem: the

فلماذا إذن يتعين على العالم الطبيعي أن يمضي في عمله في خضوع للطبيعية المنهجية؟ يقترح مايكل رووز أن الطبيعية المنهجية، أو على الأقل جزء منها، هو حق بمقتضى التعريف، يقول: "بالإضافة إلى هذا، فحتى لو كانت الخلقوية العلمية اليوم ناجحة في إقناع الناس بأنها علم، فلن تقدم تفسيرا علميا لأصول الخلق. وإنما غايتها أن تثبت أن العلم يبين أنه لا يمكن تفسير أصول الخلق علميا. فإن الخلقويين يؤمنون بأن العالم بدأ بداية خارقة للعادة. ولكن خوارق العادة تقع خارج نطاق العلم، الذي لا يتعامل، وبمقتضى تعريفه، إلا مع ما هو طبيعي، وقابل للتكرار، وما تحكمه القوانين." اهـ.

فبمقتضى تعريف المصطلح "علم": يفترض المرؤ أن رووز يرى أن ثمة تعريفا صحيحا للعلم، بحيث أنه يلزم من قبول التعريف ألا يتعامل العلم إلا مع ما هو طبيعي، قابل للتكرار، وتحكمه القوانين. (لاحظ أن هذا الزعم لا ينافي المقترحات القائلة بأن العالم النصراني له أن يضع فروضا تشتمل على عقائد دينية كاعتقاد الخطيئة الأصلية، مثلا، وله كذلك أن يقيم الاحتمالية المعرفية لصحة فرضية علمية معينة استنادا إلى خلفية اعتقادية تشتمل على الاعتقاد النصراني).

---

problem of giving necessary and sufficient conditions for distinguishing science from other human activities. This effort has apparently failed; but if in fact there were a definition of the sort Ruse is appealing to, then presumably there would be available a set of necessary and sufficient conditions for something's being science. Ruse doesn't address the many and (I think) successful arguments for the conclusion that there is no such set of necessary and sufficient conditions, let alone such a definition of the term 'science'; he simply declares that 'by definition' science has the properties he mentions.

فدعوى رووز على ما يبدو، تستبعد أي فرضية تشتمل على الإشارة إلى الإله: فالإله كائن فائق للطبيعة، وإذن فأي فرضية تشير إليه فهي تتعامل مع شيء خارج عن الطبيعة – وإذن ففرضية كهذه لا يصح أن تعد جزءا من "العلم".

ثمة ثلاثة أشياء محيرة بشأن دعوى رووز. فأولا، فقد بُذلت طاقة هائلة، عبر عدة قرون على الأقل، من أجل دراسة مشكلة الفرقان العلمي: مشكلة إعطاء شروط ضرورية وكافية لتفريق "العلم" عن غيره من الأنشطة البشرية. هذا الجهد فشل على ما يبدو، ولكن إن قدرنا أن كان ثمة تعريف من النوع الذي يتعلق به رووز، فالفرض إذن أنه توجد مجموعة من الشروط الضرورية والأساسية لتسمية شيء ما بأنه "علم". لا يتناول رووز تلك الحجج الكثيرة والناجحة (فيما أرى) الموصلة إلى استنتاج أنه لا وجود لتلك الشروط الضرورية والكافية، دع عنك أن يوجد تعريف للمصطلح "علم"، وإنما يكتفي بأن يعلن أن العلم له "بمقتضى التعريف" تلك الخصائص التي ذكرها.

قلت: قول رووز المنقول: "فحتى لو كانت الخلقوية العلمية اليوم ناجحة في إقناع الناس بأنها علم، فلن تقدم تفسيرا علميا لأصول الخلق" قلت هذا تناقض ظاهر، إذ لو قدرنا أن رأيت أنت ما يقنعك بأن المذهب المشار إليه (الخلقوية العلمية) هذا نظرية علمية، جديرة بأن تنزل في الأكاديميات المتخصصة منزلة النظريات العلمية، فإن هذا يقتضي، بالضرورة، قبولك للتفسير الذي تقدمه النظرية على أنه تفسير علمي، كما هو واضح! قوله: " وإنما غايتها أن تثبت أن العلم يبين أنه لا يمكن تفسير أصول الخلق علميا." هذا من أعجب ما يكون! سلمت أولا لنظرية ما بأنها علم، ثم نفيت اسم العلمية عن التفسير الذي انطوت عليه، ثم زعمت أن تلك النظرية العلمية لا تزيد على أن تثبت أن العلم لا يمكنه تفسير موضوع تلك النظرية نفسها!! فما أملأ

أفواهكم بالماء يا هؤلاء! كلام فارغ تضحك منه الأطفال! ولكن بما أن رووز هذا زميل محترم، وفيلسوف موقر، فلا يزيد بلانتينغا على أن ينقد كلامه بأكثر مما ترى! قوله: " فإن الخلقويين يؤمنون بأن العالم بدأ بداية خارقة للعادة. ولكن الخوارق تقع خارج نطاق العلم، الذي لا يتعامل، وبمقتضى تعريفه، إلا مع ما هو طبيعي، وقابل للتكرار، وما تحكمه القوانين" قلت: لا ينبغي أن يختلف اثنان من العقلاء، في أن خلق العالم، ليس من جنس الحوادث المعتادة، لأنه من الواضح الجلي أننا لم يسبق لنا أن شهدنا في عادتنا وتجربتنا البشرية عالما كعالمنا وهو يخلق بعد أن لم يكن!! وإذن فلا حوادث خلق العالم، ولا حوادث خلق الأنواع الحية على الأرض بعد عدمها، وبثها في الأرض، يصح أن تعد من جنس الحوادث الطبيعية! هذه هي الحوادث التي بها ركبت الطبائع في الأشياء أصالة، وبها جعلت الطبيعة نفسها على ما اعتدنا، فبأي عقل يصح أن تعد – من الأصل – من جملة الحوادث الجارية تحت القانون الطبيعي والنظام الطبيعي القابلة للتكرار، على ما عرف رووز "العلم" به؟؟ فالصواب الذي لا ينبغي أن يتمارى فيه العقلاء، هو أن هذه القضية خارجة عن موضوع العلم الطبيعي خروجا ضروريا مبدئيا، من بابها! فلا بضاعة الدراونة الدهريين، ولا بضاعة الخلقويين النصارى، تدخل في حقيقة العلم الطبيعي، الذي يفترض أن موضوعه هو دراسة الطبيعة Nature على ما هي عليه!! فما الذي صير هاتين القضيتين، من قضايا البحث الطبيعي، إلى الحد الذي خفيت معه هذه الحقيقة البدهية التي قررتها آنفا على جماهير هؤلاء؟ إنه جريان الأكاديمية الغربية على الأصول اليونانية التي نبتت منها الطبيعية المنهجية! جميع ما وجد وما يوجد، وما يصح أن يوجد، وما يمتنع، يجب أن يكون موضوعا للنظرية الأكاديمية، لماذا؟ لأنه ليس هنالك إلا كما هاهنا، وليس فيما يغيب عنا إلا نظير ما في عادتنا، وجوبا وضرورة، فلو نزعت نفسك عن

هذا الاعتقاد، لم يبق لك في منهجك ما يوجب أن تكون حوادث الخلق الأول أو أصل الخليقة أو نحو ذلك، من جنس الحوادث الطبيعية الخاضعة للقانون الطبيعي أو القابلة – أصلا – للقياس على ما في عادتنا، ومن ثم يجوز دخولها في موضوعات النظر الطبيعي مبدئيا! الملة الدهرية الطبيعية هي التي أوجبت ذلك الخلف العقلي العظيم على الفلاسفة منذ زمان المؤسسين الأوائل لأكاديمية اليونان، ولم يزل ذلك يخفى على الفلاسفة لا لأنه ليس بديهيا واضحا جليا، ولكن لأنهم قد أشربوا من الأهواء المتجذرة في نفوسهم ما يمنع من ظهور الأمر على ما نقول! ولهذا ترى مثل بلانتينغا، على ذكائه ودقة نظره، يقبل ما سماه حججا فلسفية ضد مطلب التفريق بين ما هو علم طبيعي وما ليس بعلم طبيعي، مع أن نفس هذا البحث الذي نحن بصدد التعليق عليه، هو من محاولاته الشخصية للتحصل على معيار كلي للتفريق بين ما هو علم وما ليس بعلم، على نحو يتلاءم مع اعتقاده النصراني!! ألست قد جئت يا بروفيسور في هذا البحث بتقرير ما سميته بالعلم الأوغسطي؟ فكيف لا يعد هذا منك تقريرا لشروط ضرورية وكافية لتقرير ما هو علم وما ليس بعلم، فيما يتعين أن يكون عليه الباحث النصراني عند تعرضه للبحث في الطبائعيات؟؟ هذا التناقض المنهجي أيها الإخوة الكرام ضارب في أصل مسألة الفرقان العلمي هذه عند الفلاسفة، وهو الذي أفضى بهم إلا الإياس من الانتهاء فيها إلى شيء، فهم من جهة يشهدون بأن العلوم الطبيعية قد أغرقت في أمور لا مدخل لإثباتها أو نفيها أو الترجيح فيها من طريق الحس، الذي يفترض أنه هو المستند الأعلى عند الطبائعيين في الإثبات والنفي، ومن جهة أخرى، فإن تأسيس الأكاديمية على أصول اليونان، ومضي القوم عبر أكثر من ثلاثين قرنا من الزمان على الجريان على تلك الأصول، يحجزهم عن الاعتراف بسبب هذه الآفة الكبرى، وعن وضع الحدود الصارمة على الفلاسفة والنظار

جملة، في إعمالهم عقولهم وطرحهم المسائل للنظر والافتراض والقياس! هذه الحدود تقررها الفطرة والبداهة، فالعقل يوجب على الإنسان أن يضع حدا للنظر والتعقل، فلا يشكك في أصول العقل نفسه من جانب، تلك الأصول التي بها ينطبق اسم العقل على مسماه، يطلب أساسا "عقليا" لتصديق إفادات ذلك العقل، كما في السفسطة التي تنازع عليها التأسيسيون والدليليون، وأشار إليها بلانتينغا فيما مر، ولا طرد القياس ليشمل ما لا دخول له في عادته ولا مستند للحكم بجريان القياس عليه، دع عنك أن يكون العقل جازما بأنه لا دخول له في القياس، كما في قضايا الخلق الأول وما كان قبلها وما هو كائن فيما وراء هذا العالم! ولكن قد بينا في غير موضع أن مطلب الفلاسفة الأوائل المؤسسين من وضع النظرية الميتافيزيقية إنما هو بناء جميع المعارف عليها، الطبيعية والإنسانية وغيرها، بحيث لا يبقى لعاقل مستند في الكلام في الموجودات إثباتا ونفيا دون الرجوع إلى ما جاؤوا به! فالمطلوب هو أن يصبح جميع الخلق مضطرين للخضوع لسلطانهم المعرفي على كل ما هو موجود!

لذا لم يكن من عجب أن تمضي قرون القوم دون التفات لهذه الآفة الكبرى، حتى عندما تعاطى اللاهوتيون النصارى مع التراث اليوناني، لأن الأكاديمية الفلسفية صارت تقدم تلك النظريات للناس في إطار منظومة من العلوم والمعارف الدنيوية النافعة التي لم تقم على تلك النظريات أصالة ولا يقتضي قبولها قبول تلك النظريات، كمبدأ تطبيق القياس الجيومتري على الأفلاك وتتبع مساراتها والتنبؤ بها مثلا، أو كتجارب الأطباء واستقراءاتهم في العلاج بالأعشاب وما شاكل ذلك! فحتى عندما انتهى بلانتينغا إلى نقد الطبيعية المنهجية، لم يجرؤ على بيان أصل الخلل ومنبته على نحو ما نصنع هاهنا، وإنما تكلم على استحياء كما مر وكما سيأتي، رجاء أن يفتح الباب لقبول الاعتقاد النصراني أساسا لإنشاء الفروض التفسيرية

والترجيح فيما بينها في بعض أبواب العلم الطبيعي، مع إبقاء تلك الأبواب مادة للطرح الطبيعي ووضع النظريات وإنشاء الفروض التجريبية من حيث الأصل. غايته أن يقول لهم: ضعوا نظرياتكم ونضع نحن نظرياتنا ونوازن ونرجح بين احتماليات الصواب، كل بحسب خلفيته الاعتقادية، أما أن يقف موقفا صارما يقول فيه: ليس لكم ولا لنا ولا لأحد من الناس أن يتطرق إلى تلك الأبواب بالفرض والتنظير والقياس من الأساس، وجميع ما عندكم من نظر واستدلال في ذلك لا يفيد المعرفة البتة ولا يزيد على أن يكون ضربا من الأساطير الدهرية الطبيعية، التي لا يفضل فيها تخمين تخمينا، ولا فضل فيها لفرية على فرية، فما كنا لنتوقع منه ذلك.

لذا، فبدلا من أن يرد على كلام رووز المنقول بأن يقرر أن قضية أصل الخلق لا علاقة لها بالمعتاد ولا بالطبائع التي هي موضوع العلم الطبيعي، كما ينبغي أن تكون، ويقرر أن الفرقان بين العلم الطبيعي وخلافه، إنما هو الفرقان بين ما كان موضوعه الطبيعة والطبائع المعتادة، وما يتجاوز ذلك، وهو ليس بالضرورة فرقانا بين العلم والجهل، إذ العلم بما يتجاوز العادة لا يؤخذ إلا من الوحي الإلهي، خلافا للطبيعيين الدهرية الذين قالوا إنه ليس في الوجود إلا الدهر والمادة وطبائعها، فلا غيب أصلا حتى يلتمس العلم بشيء مما فيه من غير طريق النظر الطبيعي، ومن ثم يقرر أن نظريات الخلقويين النصارى فيما يسمونه بعلم الخلق Creation Science إنما هي جريان على الطبيعية المنهجية بموجب الموضوع نفسه، موضوع النظريات، تراه يمضي بالرد إلى وجهة إسقاط مسألة الفرقان العلمي Demarcation نفسها بالكلية، رجاء أن يصل لأن يقول لرووز: أنت ليس لديك تعريف للعلم لأنه ليس لديك فرقان منهجي بين ما هو علم وما ليس بعلم، وإذن ليس لك أن تستبعد نظريات الخلق من تعريف العلم على نحو ما صنعت!

ومما يجدر التنبيه عليه، أن رووز عندما أراد أن يبين أن مسلك الخلقيين يخرج حوادث الخلق الأولى عن أن تكون حوادث طبيعية نوعا، لم يجد إلا لفظة Miracle أو Miraculous للعبارة عن ذلك، مع أنها في الاستعمال الإنكليزي إنما تطلق على ما يكسر النظام المعتاد، أو يخرق العادة! فالخوارق التي جاءت كتب النصارى بالخبر بها، إنما يقال لها خوارق Miracles لأنها تخرق العادة التي تكون هي الأصل في مثل هذا. ولكن عند الكلام عن جنس الحوادث التي بها خلقت تلك الطبائع والسنن التي كانت هي السبب في كون عادتنا وتجربتنا البشرية على ما كانت عليه لا على خلاف ذلك، فلا يقال خرق للعادة، لأن الحال أنه لم يكن حينئذ ثمّ نظام طبيعي معتاد حتى تكون تلك الحوادث خارقة له! ولكن ليس في اصطلاح القوم ما يعبر به عن هذا المعنى أصلا! وإنما لديهم اللفظة Miracle واللفظة Supernatural، وهذه الأخيرة بمعنى متجاوز للطبيعة أو فائق للطبيعة، وقد جرى العرف عند استعمالها على أن تجعل مرادفة للفظة Miracle، فيرجعان جميعا إلى نفس المعنى، وهو كل ما يكون خارقا للنظام الطبيعي! فالأصل عند القوم هو إثبات النظام الطبيعي، في مطلق ما يقال له موجود ومطلق ما يقال له حادث! فلا يتسع الواقع عندهم لموجود مخالف لذلك النظام أو خارق له أصلا، دع عنك أن يكون للنظام نفسه حدود وجودية يحدّ بها في جهات الزمان والمكان، فتكون له بداية ما في الماضي، لا يقال فيما قبلها إنه "طبيعي"، ونهاية في المستقبل لا يقال فيما بعدها إنه "طبيعي"، وحدود في جهات المكان فلا يقال فيما يوجد وراءها أو يقع وراءها إنه "طبيعي"! فالحكم "بطبيعية" حوادث النشأة الأولى، أو حوادث الخلق الأول، هو الأصل الذي يجري عليه الجميع، ومنهم بلانتينغا نفسه على التحقيق! وإنما يطالبهم كما يطالبهم الخلقويون بأن يأذنوا لهم بوضع نظرية طبيعية في تفسير النشأة الأولى، بحيث يكون من جملة "الفروض

التفسيرية" فيها صانع ذكي، أو مصمم ذكي، ومن ثم يجد الباحث النصراني نفسه مائلا لترجيحها على خلافها بالنظر إلى خلفيته الاعتقادية! ولهذا قلنا إن زعم بلانتينغا أنه يرفض الطبيعية المنهجية رفضا كليا، هذا محض تلبيس! فإن من الطبيعية المنهجية، قطعا، تلك الأسس الخفية التي بناء عليها جُعلت قضية النشأة من قضايا البحث الطبيعي من الأساس، وهو ما لا نراه يرفع عقيرته بالاعتراض عليه ولا يجترئ! فقوله في الجواب عن كلام رووز:

"يفترض المرؤ أن رووز يرى أن ثمة تعريفا صحيحا للعلم، بحيث أنه يلزم من قبول التعريف ألا يتعامل العلم إلا مع ما هو طبيعي، قابل للتكرار، وتحكمه القوانين. (لاحظ أن هذا الزعم لا ينافي المقترحات القائلة بأن العالم النصراني له أن يضع فروضا تشتمل على عقائد دينية كاعتقاد الخطيئة الأصلية، مثلا، وله كذلك أن يقيم الاحتمالية المعرفية لصحة فرضية علمية معينة استنادا إلى خلفية اعتقادية تشتمل على الاعتقاد النصراني)."

قلت: لابد للعلم الطبيعي من تعريف صحيح تقف أنت عليه وتوقف عليه تلامذتك، وتحد به موضوعه، فلا يتجاوزه أحد بأدوات العلم الطبيعي إلا منعته من ذلك! ومن الواضح أنك، يا حضرة الفيلسوف النصراني المحترم، تؤمن بوجود تلك الحدود! ألست ترى أنه ليس من حق الباحث الطبيعي أن يضع الفروض والنظريات في محاولة معرفة صفات الرب سبحانه؟! ألست ترى أنه لا يصح استعمال أدوات العلم الطبيعي في محاولة تقرير القيم التي بها يحسن الناس ما يحسنون ويقبحون ما يقبحون؟؟ فهذه حدود لنوع الموضوعات التي يجوز عندك طرحها للبحث بآلة العلم الطبيعي، وهي موجبة لأن يكون لديك تعريف للعلم تراه صحيحا ملزما لكل مشتغل بتلك العلوم! العلم الطبيعي إذن، ليس موضوعه ذات الله وصفاته، ولا يجوز أن يكون هذا من موضوعه، وليس موضوعه الأخلاق والقيم، ولا يوصل إلى المعرفة بتلك الأمور من

طريقه! فما هو موضوعه إذن؟ هذا هو تعريفه لديك، إذ إن أظهر وأهم ما يعرف به العلم أو الفن من فنون العلم، هو موضوعه ومادته، أو طبيعة معلومه! فما الذي أوجب عند الفلاسفة أن يكون موضوع العلم الطبيعي هو صفات وطبائع كل موجود من الأزل وإلى الأبد؟ إنها الطبيعية المنهجية التي تريد أن تحاربها يا بروفيسور، المقتضى المنهجي المباشر للنحلة الطبيعية أو الطبيعية الميتافيزيقية كما يسمونها!

ولا شك أنك لو حدَدّت للعلم الطبيعي حدا يمنع أصحابه من اقتحام الغيبيات المطلقة بفروضهم ونظرياتهم، كما هو المتعين على كل من يؤمن بالغيب، فلن يبقى من تعريف صحيح للعلم الطبيعي إلا أن يقال إنه ذلك العلم المختص بدراسة ما هو جار تحت العادة البشرية من طبائع الأشياء. وهو ما يوافق قول رووز إن موضوعه الطبيعة Nature وقوانينها المطردة التي توجب التكرار! فتأمل كيف جنح بلانتينغا إلى رد تعريف صحيح إجمالا، بل وإلى ادعاء أن العلم الطبيعي لا تعريف له، لا لشيء إلا ليتمكن من تسويغ حشر نظريات الخلق وما شاكلها من نظريات الطبائعيين النصارى تحت اسم العلم! لهذا يقول بين معقوفتين: "لاحظ أن هذا الزعم لا ينافي المقترحات القائلة بأن العالم النصراني له أن يضع فروضا تشتمل على عقائد دينية كاعتقاد الخطيئة الأصلية، مثلا، وله كذلك أن يقيم الاحتمالية المعرفية لصحة فرضية علمية معينة استنادا إلى خلفية اعتقادية تشتمل على الاعتقاد النصراني"، إذ غاية المراد أن يصبح من حق الطبائعي النصراني أن يضع نظرية كنظرية التصميم الذكي مثلا، أو جيولوجيا الطوفان أو ما شاكل ذلك، دون أن يأتيه أمثال رووز بقولهم: هذا الذي جئت به ليس علما، لأن العلم تعريفه هو كذا وكذا! مع أنه لا يحق له هو أن يثبت اسم "العلم" لتلك النظريات حتى

يحرر تعريفا واضحا لما يراه علما وما لا يراه كذلك! وإلا فلا شيء أسهل على الفيلسوف إذا أعياه الاحتجاج لما يريد، من التلاعب بالحدود والتعاريف!

ولهذا كان من أشهر التعاريف التي لم يزل الناس يتنازعونها على عشرات بل مئات الأقوال، تعريف الفلسفة نفسها! فعندما تكون حقيقة صنعتك التخصصية إنما هي السفسطة بالسؤال والرأي، فلن يأتيك من يسألك عن حقيقة تلك الصنعة إلا أدرته حول ذيله بتعاريف لا أول لها ولا آخر، ولا زمام لها ولا خطام! وقد قيل إن تعاريف الفلسفة من الكثرة بحيث إنك لن تجالس فيلسوفا إلا وجدت لديه تعريفا للفلسفة بخلاف تعريف صاحبه! والقصد أنه من السهولة بمكان الاحتجاج بالنزاع في مسألة التعاريف هذه، حتى لا يبقى للمخالف أرض يقف عليها، ولكن من المغالطة الاحتجاج بالنزاع، فإنه ليس كل ما تنازعه الناس كان الحق فيه خفيا أو مشتبها! ومن فهم سبب النزاع ومورده، والخلفية الاعتقادية والمنهجية والفلسفية التي انطلق منها المتنازعون، عرف كيف يستظهر الحق من جملة أقوالهم، يبني الفروع على أصولها الصحيحة، ثم لا يبالي بمن يخالفه وإن خالف في ذلك أكثر أهل الأرض! هذا الكلام نقوله ونحن نتوقع أن يهزأ به الفلاسفة، إذ فيه حطّ على خلافهم في كثير مما اختلفوا فيه، وإسقاط للقيمة المعرفية لكثير مما طرحوه من مسائل النظر، فإذا وقع ذلك فلا نعجب ولا نستغرب، لأننا نعلم أن هذا ما تثمره الأصول السوفسطائية اليونانية التي تحكم صناعة القوم! الصواب الذي يقتضيه العقل ويواطئ الفطرة والسمع، هو أن يجعل موضوع العلم الطبيعي Natural Science هو الطبيعة Nature، فما هي الطبيعة؟ هي جملة الطبائع التي نجدها مركبة في الأشياء من حولنا في عادتنا البشرية! هذا هو حد موضوع العلم الطبيعي الذي لا يتجاوزه إلا متلبس بالطبيعية المنهجية كما تقدم، حريص على أن يمدد ذلك الموضوع ليشمل كل موجود وكل

حادث، سواء كان داخلا في عادتنا الحسية أو متجاوزا لها، من أجل أن يصبح الحال أنه ليس في الوجود إلا ما يقع تحت الحس وما يقاس عليه في الحقيقة والكيفية والطبع! كيف تكون مؤمنا بأنه لا موجود بحق إلا الطبيعة، وأنت مع هذا تثبت موجودات وحوادث لا دخول لها في موضوع العلم الطبيعي ولا تحت مسمى الطبيعة؟ هذه هي الطبيعية المنهجية بإيجاز! فمن فهم هذا أدرك عمق التلبيس الذي يقع فيه من ينحي هذه القضية عن مسألة الفرقان بين العلم الطبيعي وخلافه كما سلكه بلانتينغا!

قوله: " فدعوى رووز على ما يبدو، تستبعد أي فرضية تشتمل على الإشارة إلى الإله: فالإله كائن فائق للطبيعة، وإذن فأي فرضية تشير إليه فهي نتعامل مع شيء خارج عن الطبيعة – وإذن ففرضية كهذه لا يصح أن تعد جزءا من "العلم"

قلت: ما معنى "فرضية تشير إليه" References to God؟ تشير إليه من أي وجه؟؟ جميع القوانين المعتبرة في العلم الطبيعي، لابد أنها تشير إليه من حيث أنه هو من قننها وطبع بها الأشياء Arbiter of Natural Law ضرورة وبداهة! ولكن العلم الطبيعي يبحث في الأسباب الطبيعية، أي في أنواع الآثار المترتبة على الطبائع المركبة في الأشياء المخلوقة، يربط هذا بذاك، ويفرض الأنماط المطردة التي يمكن من خلالها تتبع تلك العلاقات على نحو ينفع الناس. فهل السبب الذي تفترضه النظريات التي تدافع عنها بهذا الكلام يا بروفيسور، يصح فيه أنه "سبب طبيعي" أم لا يصح؟ هذه هي القضية فانتبه! ما هو السبب الطبيعي Natural Cause الذي يستساغ افتراضه – نوعا - في النظريات التفسيرية الطبيعية؟ الفعل الإلهي ليس سببا طبيعيا، وإنما هو سبب غائي، أو تفسير تليولوجي إن شئت. القوانين على ما هي عليه لأن الرب سبحانه اختار بإرادته ومشيئته أن تكون كذلك. ولكن ليس هذا هو موضوع النظر الطبيعي!

وإنما ينظر الباحث في الطبيعيات، في الطبائع المشاهدة المعتادة التي يمكن أن تفسر بها أنواع الحوادث. لابد أن يكون جنس السبب المفترض في التفسير، من جنس ما يجري تحت العادة بصورة ما أو بأخرى، أو يجوز قياسه على ما في العادة مبدئيا، ولو بظن ضعيف! أما أن يكون موضوع التنظير من الغيوب المطلقة، التي نجزم بأن الحوادث التي جرت فيها لا قياس لها البتة على ما اعتدناه من حوادث العالم، ثم يقال إن النظرية تستحق اسم العلم، ولا يمنع من ذلك حقيقة أن تلك الحوادث التي فرضتها النظرية تشتمل على الإشارة إلى "التصميم الإلهي" Reference to God، فهذا تلبيس عظيم لا يليق بمثل هذا الرجل! أنت بهذا كأنما تقول: افتحوا باب الأفعال الإلهية الغيبية (التي لا تعرف إلا بالوحي وإن رغمت أنوع الفلاسفة) للتنظير الطبيعي والفروض التفسيرية الطبيعية، واخترعوا في ذلك من الأوهام والتخرصات ما يحلو لكم، ولا تثريب عليكم ما دمتم تثبتون في ذلك أمورا تقتضي أو تستلزم، بوجه ما، إثبات صانع ما لهذا العالم! فالنزاع مع رووز ليس في كونه يحرص على المنع من وضع فرضيات تشير إلى الإله في نظريات النشأة، وإنما في مبدأ طرح قضية النشأة من الأساس للنظر والاقتراض الطبيعي! النزاع معه على منهج نظري كان ولم يزل الفلاسفة يقتحمون به الغيوب المطلقة بغير وجه حق، منذ أن بدع اليونانيون ذلك المنهج قبل ثلاثين قرنا أو يزيد! النزاع على حقيقة صنعة الفلسفة الأكاديمية نفسها وحدودها يا بروفيسور، قبل أن يكون نزاعا على تعريف العلم! فإنك إن ضبطت هذا، انضبط لك ذاك تبعا، إذ إن القضيتين لا انفكاك لإحداهما عن الأخرى عند من تأمل، وتجرد عن الهوى!

قوله: " ثمة ثلاثة أشياء محيرة بشأن دعوى رووز. فأولا، فقد بُذلت طاقة هائلة، عبر عدة قرون على الأقل، من أجل دراسة مشكلة الفرقان العلمي: مشكلة إعطاء شروط ضرورية وكافية

لتفريق "العلم" عن غيره من الأنشطة البشرية. هذا الجهد فشل على ما يبدو، ولكن إن قدرنا أن كان ثمة تعريف من النوع الذي يتعلق به رووز، فالفرض إذن أنه توجد مجموعة من الشروط الضرورية والأساسية لتسمية شيء ما بأنه "علم". لا يتناول رووز تلك الحجج الكثيرة والناجحة (فيما أرى) الموصلة إلى استنتاج أنه لا وجود لتلك الشروط الضرورية والكافية، دع عنك أن يوجد تعريف للمصطلح "علم"، وإنما يكتفي بأن يعلن أن العلم له "بمقتضى التعريف" تلك الخصائص التي ذكرها."

قلت: لا عجب من أن ييأس الفلاسفة الغربيون المتشبعون بمبادئ المدرسة اليونانية القديمة، من مطلب وضع معيار موضوعي محكم للفرقان بين ما هو علم طبيعي وما ليس بعلم طبيعي، على الرغم من ضرورية ذلك المعيار لضبط أصول أي صنعة وتحرير ضوابط النظر والاستدلال فيها! من أين يأتي أحدهم بالجرأة الكافية لأن يقف في وجوه أكاديميات كاملة في بلاد القوم، يقول لهم إن هذا الباب الذي أفنيتم فيه أعماركم، وبحثتم ونشرتم ودرّستم فيه، هذا لا دخول له تحت اسم العلم البتة، ولا يفيد بمعرفة على الإطلاق، مهما استعملت فيه أدوات العلم التجريبي أشكالا وألوانا، وإنما هو ضرب من التخمين والأماني؟ كيف يجترئ على ذلك والحال أنه لا يملك هو وأقرانه، على ما تربوا عليه جميعا من طريقة يونانية في الطرح والنظر، ما به يحجز أحدهم عقله عن الدخول فيما ليس له الدخول فيه من أنواع المسائل، وعن تناول كل ما هو موجود في الأعيان، على شرط الإطلاق والوجود؟؟ وكيف يرجو من كان هذا منشأه وكانت تلك تربيته، أن ينتهي إلى تحرير ما به يمتاز النظر الميتافيزيقي الصرف عن التنظير الفيزيقي المستند استنادا صحيحا للحس والعادة، والحال أن الثاني يقوم على الأول في طريقة القوم، قيام الفرع على أصله؟؟

لا عجب إذا فهمت هذا وتدبرت فيه، أن ترى الباب يجري عند فلاسفة العلم في إطار التحكم والانتقاء بالهوى من جانب، وفي قالب التنظير السوسيولوجي الخاضع لمجرى تاريخ العلم نفسه! يوضع المعيار بناء على ما جرى عليه عمل الناس، وليس العكس كما هي حقيقة المعيار المنهجي عند العقلاء! ما رآه الفلاسفة علما واتفقوا على تسميته بذلك فهو العلم أيا ما كان! ينتهي من هذا، ثم يفصّل تفصيلا لمصلحة استبعاد نظرية معينة أو مذهب معين لا يأتي على هوى الفيلسوف صاحب المعيار، مع كون أصحابه ينسبونه إلى العلم، كما وضع بوبر مذهبه في إطار نقده لنظريتي ماركس وفرويد، وكما وضع أرسطو نفسه من قبل معيارا للعلم الطبي الصحيح من أجل أن يبين أن طب أبيقراط ليس طبا على الحقيقة، وكما وضع رادولف كارناب معياره في محاولة إبطال نسبة ميتافيزيقا برغسون إلى العلم! هذه المعايير وإن كانت قد أخرجت تلك النظريات المستهدفة منها، من اسم العلم، إجمالا، إلا أنها تركت الباب مفتوحا لقبول دعاوى ومذاهب لا علاقة لها بالعلم، كما بين ذلك "لاري لودان" في نقده الشهير لمطلب تقرير معيار التفريق Demarcation Criterion، من حيث المبدأ، وهو ذلك النقد الذي يبدو واضحا – وكما تراه في العزو الداخلي للمقال – أن بلانتينغا قد تأثر به في هذا الباب. فمثلا، لا يستبعد معيار بوبر نظرية التصميم الذكي ولا يمنع من تسميتها باسم العلم، على حسب ما انتهى بوبر إلى تحريره في بيان نوع المشاهدة المشروطة للإبطال في النظرية Falsifying Observation، مع أن الأكاديمية الغربية مطبقة على استبعادها من جملة العلوم ونظريات العلوم، بالنظر إلى طبيعة العامل المفسر الذي تقدمه في الباب، ولا يتمسك بها إلا فريق من أهل الكتاب وممن يقلدونهم من أهل القبلة! فبحسب لودان، يكون ذلك تناقضا منهجيا، إذ لو صح المعيار لوجب – على المسلك السوسيولوجي الذي يسلكه القوم في الباب - أن يكون

قابلا لما أجمعت الأكاديمية على قبوله، ورادا لما أجمعت على رده، ولكن هذا غير حاصل. بل الحال أنه قد يخرج أمورا اتفقوا على إدخالها! وكذلك قد يدخل أمورا اتفقوا على إخراجها! فمثلا نظرية الأوتار الفائقة وغيرها من نظريات ما يقال له الجاذبية الكمومية، يستبعدها معيار بوبر، مع أن الأكاديمية قد مالت إجمالا في العقود الأخيرة إلى قبولها وإلى التساهل مع حقيقة امتناع إبطالها من طريق الحس والمشاهدة، على أيما تأويل شئت! ثم إن نفس المعيار فيه من الرخاوة والاشتباه ما يفتح باب النزاع على تطبيقه بلا طريق للترجيح بين أقوال المتنازعين! وأظهر آية على ذلك، ما سلكه بوبر نفسه في تطبيق معياره على نظرية داروين، مع أنه يعلم أن النظرية لا يمكن ترجيحها على ما يخالفها بالمشاهدة الصريحة، وإنما يستعان في الاستدلال لها بمشاهدات تستمد تأويلها من النظرية نفسها لا من مصدر غيرها! فهل يقال إن معيار بوبر يمنع من إدخال نظرية داروين تحت العلم الطبيعي المقبول، بالنظر إلى افتقار النظرية إلى مشاهدة صريحة بحيث إن ظهرت استطعنا أن نكذب بها النظرية تكذيبا معقولا، أم يقال إنها لا تمنع من دخول النظرية تحت العلم المقبول، بالنظر إلى جواز ظهور مشاهدات بحيث يكون تأويلها هادما للنظرية بكليتها؟ كان بوبر في أول أمره مائلا إلى الموقف الأول ثم تحول إلى الموقف الثاني بلا مرجح إلا الهوى! كيف ينتهي به معياره إلى إسقاط نظرية داروين؟؟ لابد أن يكون المعيار قابلا لها وإلا بطل!! مع أنه من الواضح الجلي بالنظر إلى طبيعة موضوع النظرية، أن منطق الاستدلال بالمشاهدات فيها منخرم ممخرق من الأصل، غارق في الدوران، كما بيناه في غير موضع! ولكن هذا لا يتضح إلا لمن أنار الله بصيرته بالسلامة من هوى موافقة رؤوس الأكاديمية الكبار، ومن الالتزامات الاعتقادية الدهرية التي يبطنها عامة هؤلاء، نسأل الله السلامة والعافية للمسلمين.

والواقع أن نقد لودان لتلك المعايير وإن كان قد وفق في كثير منه، إلا أنه لم يكن يستهدف بناء معيار صحيح ليقيمه في محل ذلك، وإنما استهدف إثناء الناس بالكلية عن البابة برمتها! فخلاصة رأيه وكأنما يقول لأقرانه من الفلاسفة: دعوا التجريبيين والطبيعيين يعملون كما يحلو لهم، ثم دعونا ننظر في آحاد نظرياتهم بعد أن يتحفونا بها، بحيث إن وجدنا في قول من أقوالهم ما لا يدعمه ما يزعمونه دليلا عليه، نبهناهم إلى ذلك، وإلا تركناهم وشأنهم. أما أن نطالبهم بالخضوع لمعايير معينة في الطرح والبحث والاستدلال من الابتداء، فهذا لن يفيد إلا بتعطيل مسيرة العلم التي كانت ولم تزل تمضي دون حاجة إلى معيار كهذا منذ أن عرف الناس شيئا يقال له علم! وهذا الكلام نقبله منه إجمالا لو كان المطلوب في مسألة التفريق هذه هو الإتيان بضابط لا ينتفع الناس بشيء من بضاعة الطبيعيين والتجريبيين إلا بالبناء عليه، كما تكلف أرسطو من قبل أن يلزم الناس بقواعد المنطق التي وضعها لهم، وكأنهم لا ينتفعون بعقولهم إلا بهذا! ولفلاسفة العلم كثير من العبث في تصوير مسألة التفريق هذه على أن هذا هو المطلوب منها، ومن سعي في وضع صياغات صورية Fomrmalizations بحيث يمكن العبارة عن جميع نظريات العلوم الصحيحة باستعمالها، ومن ثم يصبح ما لا يقبل استعمال تلك الصياغة في العبارة عنه، خارجا عن مسمى العلم! هذا عبث وسفسطة من طالبه ولا شك، ولكن ليس رد ذلك المطلب السوفسطائي على أصحابه، قاضيا برد مبدأ تطلب تحرير معيار منهجي صارم لأنواع الموضوعات التي يصح للطبيعيين طرحها للنظر الطبيعي باستعمال أدوات البحث التجريبي من الأساس، أو مبدأ تحرير ضوابط منهجية صارمة للتعامل بالقبول والرد والتقييد والتهذيب، مع أنواع الأقيسة الغيبية التي يستعملها الطبيعيون في بناء النظريات والنماذج النظرية، وعلاقة ذلك بالاعتقاد الغيبي عندهم! فلأن لودان كغيره من رؤوس

الأكاديمية الغربية، لا يؤمنون بالغيب ولا يقيمون له وزنا، لم ير ما يوجب تكلف تحرير تلك الضوابط المنهجية على النحو الذي سلكناه، وإنما رآه ضربا من التنطع الفلسفي ممن تكلفوه، وسعيا للتسلط على الطبيعيين والتجريبيين لمجرد التسلط، ولأجل أن يرجع للفلاسفة المنخرطين في الأكاديميات المتخصصة في الفلسفة، تلك السيادة التي كانت لهم على جميع المعارف فيما مضى، قبل أن ينفصل عنهم أصحاب الفلسفة الطبيعية في أكاديميات مستقلة!

والقصد أن لهذا المطلب وجوها من الحق تجعله ضروريا، بل واجبا على المسلمين أن يشتغلوا به في هذا الزمان بما تحصل به الكفاية، ويصان به المعتقد مما يفسده، بصرف النظر عن دوافع الفلاسفة الذين بحثوا فيه فيما مضى، وما أدخلوه تحته من سفسطة وعبث! والحق أن لودان يتناقض عندما يطالب الفلاسفة بأن يكتفوا بالنظر فيما به يصح قبول منطق الاستدلال التجريبي في هذه الدعوى الطبيعية أو تلك، ولا يتحصلوا على معيار منهجي كلي للتفريق بين ما هو علم وما ليس علم، إذ من الواضح أن مجرد الحكم بما يصح قبوله، هو حكم باستحقاق اسم العلم، في مقابل ما يجب رده، ومن ثم يرفع عنه اسم العلم! فإن كان المراد بالعلم هو تلك الدعاوى المعرفية بشأن عالم الشهادة، التي يمكن مبدئيا أن تترجح على ما يخالفها وتصبح هي المعرفة المعتبرة في بابها، فلا فرق إذن بين إثبات اسم العلم لدعوى معينة، وبين تقرير أن المنهج المعرفي الذي سلكه أصحابها في تقريرها وبنائها مقبول إجمالا، ومن ثم يجوز قبول استدلالهم فيها على أنه استدلال علمي نوعا، أصاب به صاحبه أو أخطأ! فالرجل كأنما يطالب الناس بأن يتركوا عين ما طالبهم بالاشتغال به، وأن يشتغلوا بعين ما طالبهم بالانصراف عنه!

فعندما يقول بلانتينغا بكل سهولة في بحثه هذا: " لا يتناول رووز تلك الحجج الكثيرة والناجحة (فيما أرى) الموصلة إلى استنتاج أنه لا وجود لتلك الشروط الضرورية والكافية" فهذا منه

في غاية الغرابة، إذ ليس من المتصور أن يحتاج أحد من الناس إلى تقرير ضوابط صارمة لما هو علم وما ليس بعلم، كاحتياج عالم الدين الذي يؤمن بالغيب وبأن للمعرفة بما في الغيب سلطانا ومصدرا معرفيا خارجا بالكلية عن آلة البحث الطبيعي والنظر التجريبي، وجوبا وضرورة! فكيف لمثله ألا يرى وجود تلك الشروط الضرورية والكافية مبدئيا؟؟ وهل يكون مطلبه الذي من أجله كتب هذا البحث أصالة، وهو نقد أو تقييد الطبيعية المنهجية بصورة ما أو بأخرى، في إطار ما سماه بالعلم الأوغسطي، إلا جريا على تقرير تلك الشروط التي يرى أنه الواجب على الباحث النصراني في علوم الطبيعة أن يشترطها على نفسه في عمله ونظره، وفيما يقبل وما يرد؟ سبحان الله!

تأمل كيف يحتج على تعريف رووز بأن يقول في الوجه الثاني [19]:

[19] *Second, Ruse here proposes three properties that he says are by definition characteristic of any bit of science: that bit deals with things that (a) are repeatable, (b) are merely natural, and (c) are governed by natural law. But take repeatability, and consider this passage from the article by Andrei Linde referred to in footnote 32 (see O & D 18:1, p. 27). Speaking of the Big Bang, he says, "One might think it very difficult to extract useful and reliable information from the unique experiment carried out about 10,000,000,000 years ago. According to Linde, the Big Bang is unique and therefore, presumably, unrepeatable --at any rate it might turn out to be unrepeatable. If so, would we be obliged to conclude that contemporary cosmological inquiries into the nature of the Big Bang and into the early development of the universe are not really part of science?*

ثانيا، فإن رووز هنا يفرض ثلاثة خصال يقول إنها ضرورية في أي دعوى علمية بمقتضى التعريف، وهو أن يكون موضوع تلك الدعوى (أ) قابلا للتكرار، (ب) طبيعيا صرفا، (ج) ومحكوما بالقانون الطبيعي. ولكن خذ قابلية التكرار، وتأمل في هذه الفقرة من مقال لأندريه ليندا، كما أشرت إليها في الحاشية 32، حيث يتكلم عن الانفجار الكبير، فيقول: "ولكن قد يراه المرؤ أمرا صعبا للغاية أن نستمد معلومات نافعة ويمكن الاعتماد عليها من تجربة فريدة وقعت قبل عشرة بلايين عاما." فوفقا لليندا، فإن الانفجار العظيم هو حادث فريد من نوعه، وإذن، فهو غير قابل للتكرار، أو على الأقل قد يتبين أنه غير قابل للتكرار. فإذا كان ذلك كذلك، ألا يلزمنا إذن أن نستنتج أن مطالب الكوزمولوجيين البحثية في النظر في طبيعة الانفجار العظيم وفي المراحل الأولى من تطور الكون، ليست في حقيقة الأمر جزءا من العلم؟

قلت: تأمل ثمرة المنهج الجدلي السوفسطائي في النظر في هذه الأبواب، حتى عند من يفترض فيه أنه يتفلسف لصالح الملة التي يدين بها! فهو في هذا الموطن من البحث لا يريد إلا إسقاط كلام رووز من أجل أن يتركه عاريا عن التعريف المنضبط لما هو علم وما ليس بعلم، لماذا؟ لمصلحة أن يأتي في النهاية ليقول: دعونا إذن ندخل تحت اسم العلم ما عند النصارى من نظريات تردونها أنتم عليهم بلا حجة ولا مستند! ونسي الرجل في سياق هذا المطلب الجدلي، أن يحرر الحق كما حقه أن يحرر! فإذا صح أن كان موضوع نظرية الانفجار العظيم هذه غير قابل للتكرار، وهو كذلك ولا شك، فعلى أي أساس جاز عندك أنت يا بروفيسور أن تعدها من العلم، ومن ثم تلزم رووز بأن يخرجها من العلم إن تمسك بهذا التعريف؟؟ لو سألته هذا السؤال لأجاب قائلا: لم أزعم أني أرى الكوزمولوجيا نفسها من العلم أو أني لا أراها كذلك،

وإنما أريد أن أبين أنه ليس ثمة معيار محكم لدى مخالفي، وإذن فليس له أن يرد ما أزعمه أنا علما بالاستناد إلى تعريف لا أساس له لديه وعلى منهجه! ويقال له: إذن فأنت لا تبالي بتقرير الحق، وإنما تريد أن تفسح المجال لأصحاب النظريات النصرانية أن يسموها باسم العلم وأن ينشروها في الناس على أنها علم، بصرف النظر عن حقيقة أنكم جميعا لا تحصلون على حد ولا ضابط ولا تعريف موضوعي لما هو علم وما ليس بعلم!! فهل هذا موقف رجل صادق في طلب الحق وفي طلب هداية الناس إليه؟؟ هذا يا كرام هو ما يجنيه الفلاسفة من الغرق في الجدال الفلسفي على شروط الصنعة وطرائق أصحابها! الرجل لا يبالي بأن ينصر الطبيعية المنهجية في مواضع كما انتصر عليها في مواضع أخرى، المهم أن يظهر للمخالفين أنهم ليس لديهم حجة في رد تلك النظريات التي يريد أن يتقرب إلى مجتمعه النصراني بإظهار النصرة لها! فإنه من الواضح لكل عاقل سالم من الهوى، أن مبدأ إدخال نظرية هذا موضوعها (الحوادث الأولى التي نشأ بها الكون نفسه والطبيعة نفسها) في جنس المباحث الطبيعية المعتبرة، وتجويز استعمال آلة البحث التجريبي في النظر فيها، إنما يصح عند من ألزم نفسه بالطبيعية المنهجية التي يزعم البروفيسور أن له موقفا مناهضا لها! أما المؤمنون بأن في الوجود موجودات بخلاف هذا العالم، وأن ما كان قبله وما كان في نشأته ليس داخلا تحت نظامه وقانونه الذي ركبه فيه صانعه، فلا يجيزون طرح تلك القضية للنظر الطبيعي من مبدأ الأمر، ويتخذون ذلك منطلقا للرد على الدهرية والمخالفين ودفع شبههم وأوهامهم وتخرصاتهم عن حوض المعتقد الديني الذي يفترض فيهم أنهم يدفعون عنه وينتصرون له، ويحرصون على الحفاظ عليه نقيا سالما من كل شائبة تشوبه أو داخلة تدخل عليه! فلو صدق البروفيسور وتجرد لطلب الحق لقرر الآن وفورا، في هذا الموضع، أن موضوع نظرية الانفجار ليس من مباحث العلم الطبيعي،

وأنه ليس لأصحاب الطبائعيات، الكوزمولوجيين وغيرهم، أن يدخلوه فيها وأن يتعاملوا مع هذا الموضوع، مبدأ الكون ومنشأه والحوادث التي كونته بعد أن لم يكن، بأدوات العلم الطبيعي وطريقة أصحابه! ولكنه يعلم أنه لو فعل هذا واتخذ هذا الموقف، لأسقط نفسه بين الأقران، ولحكم على نفسه بالإعدام فكريا، وهو أمر لا يطيق مجرد تصوره، والله المستعان!

الجزء الثامن

يواصل بلانتينغا رده على كلام روز، وعلى حصره العلم الطبيعي فيما يتحقق فيه شروط ثلاثة: قابلية التكرار، والطبيعية المحضة، والخضوع للقانون الطبيعي، فيقول [20]:

[20] *Consider next the property of being governed by law. The first point, here, would be that the very existence of natural law is controversial; Bas van Fraassen, for example, has given an extended and formidable argument for the conclusion that there are no natural laws. There are regularities, of course, but a regularity is not yet a law; a law is what is supposed to explain and ground a regularity. Furthermore, a law is supposed to hold with some kind of necessity, typically thought to be less stringent than broadly logical necessity, but necessity nonetheless. This idea of lawfulness, I think, is an inheritance of Enlightenment deism (see below); and perhaps here as elsewhere Enlightenment deism misses the mark. Perhaps the demand for law can't be met. Perhaps there are regularities, but no laws; perhaps there is nothing like the necessity allegedly attaching to laws. Perhaps the best way to think of these alleged laws is as universally or nearly universally quantified counterfactuals of divine freedom. So suppose van Fraassen is right and there are no natural laws: would it follow by definition that there isn't any science? That seems a bit strong. Further, it could be, for all we know, that there are some laws, but not everything is governed by them (or wholly governed by them). Perhaps this is how it is with earthquakes, the weather, and radioactive decay. Would it follow that one couldn't study these things scientifically?*

اعتبر الآن الخاصية التالية للعلم (عند روز) وهي كونه محكوما بالقانون. فالنقطة الأولى هنا، هي أن مبدأ وجود القانون الطبيعي نفسه من الأساس محل نزاع، فقد أخرج "باس فان فراصن" مثلا، حجة مطولة رائقة لدعوى أنه لا وجود أصلا لما يقال له القانون الطبيعي. ثمة نظاميات مطردة، ولا شك، ولكن النظامية لا تبلغ أن تكون "قانونا"، وإنما القانون هو ما يفترض فيه أنه يفسر ويقدم أساسا لوجود النظامية نفسها. ثم إن القانون يفترض فيه أن يطّرد بنوع من الضرورية، وهي ضرورية جرى العرف على عدها أدنى من الضرورة العقلية بإجمال، ولكنها ضرورة على أي حال. هذه الفكرة في مبدأ القانونية، يبدو لي أنها من ميراث النحلة الربوبية عند التنويريين، ولعل الربوبية التنويرية هذه تخطئ الهدف هنا كما أخطأته في غير هذا، فلربما كان من الممتنع الوصول إلى تحقيق مطلب تقرير قانون ما، ولربما كان في الوجود نظاميات ولكن لا قوانين، ولعله لا وجود لتلك الضرورية المزعومة نسبتها إلى القوانين. ولربما كانت أفضل طريقة للتأمل في تلك القوانين المزعومة، على أنها عكسيات Counterfactuals قابلة للتقييم كونيا أو قريبا من الكونية، للحرية الإلهية. فلنفرض أن فان فراصن محق وأنه لا وجود للقوانين الطبيعية، فهل سيلزم – بمقتضى التعريف – ألا يوجد أي علم طبيعي؟ يبدو هذا زعما مبالغا فيه نوعا ما. زد على ذلك أنه قد تكون حقيقة الأمر، في حدود ما يمكننا العلم به، أنه توجد بعض القوانين، ولكن ليس كل شيء محكوما بها (أو محكوما بها حكما شاملا). ربما كانت هذه حقيقة الحال فيما يتعلق بالزلازل وبحالة الجو وبالتحلل الإشعاعي. فهل يلزم من ذلك ألا يكون بوسع أحد أن يدرس هذه القضايا علميا؟

قلت هذا الكلام يكشف لك عن عمق الاضطراب ومبلغ الهوى الذي يعانيه بلانتينغا فيما يتعلق بهذا الباب. فالرجل كما ترى يصرح بأنه ليس في العقل ما يوجب أن يطرد القانون

الطبيعي، أي قانون طبيعي أيا ما كان موضوعه، على جميع العالم، بحيث لا يخرج موجود من موجودات العالم من الدخول تحته والخضوع له، ومع هذا لا يمانع من قبول مبدأ التنظير الطبيعي في أبواب غيبية مطلقة التغييب، بما لا قيام له - أصلا ومن حيث المبدأ - إلا على التسليم الكلي السابق باطراد القوانين الطبيعية والمعادلات التي وضعت لوصفها ومحاكاتها، بحيث تستوعب غيوب الزمان والمكان بلا استثناء ولا توقف!! وهل تقوم صنعة الكوزمولوجيا يا بروفيسور، ونظرية الانفجار الكبير التي هي عمودها عند القوم، إلا على التسليم السالف باطراد معادلات النسبية العامة لتستوعب جميع موجودات الكون، بل كل ما يدخل تحت معنى الزمان والمكان بإطلاق!! كل ما يطلقون بشأن الكون بكليته (أصله، مآله، هيئته، عمره، امتداده، عدد ما فيه من جسيمات، وعدد ما فيه من كواكب ومجرات .. إلخ) وبشأن ما تتركب منه الأجرام البعيدة وما تنشأ به وما تفنى به في نظرياتهم، وكذلك جميع ما يطلقونه من إطلاقات بشأن تاريخ الأرض وبشأن أصل الأنواع وتاريخها، وبشأن ما يخفى عن الحس ويخرج عن إطار العادة مما في بطن الأرض عند مركزها، كل ذلك إنما يستندون في مبدأ إعمال النظر التجريبي فيه، إلى أقيسة يسلم فيها تسليما بأن قانون الطبيعة كما نعهده في تجربتنا الحسية وفي عادتنا هنا الآن على سطح الأرض، مطرد بالضرورة ليستوعب الكون بكليته، بل وليستوعب حوادث نشأته نفسها في الماضي إن كانت له نشأة!

هذه الأبواب كلها يقوم مبدأ إعمال النظر الطبيعي فيها عند القوم على التسليم سلفا باطراد القانون الطبيعي المعروف حاليا، كما يستفاد من تلك المعادلات الموضوعة لمحاكاته، اطرادا مطلقا صارما في جهات الزمان والمكان معا، وهو ما يقتضي تلك الضرورية الدهرية التي تريد أنت إلزام روز بجواز الانفكاك منها مبدئيا في هذا الكلام، مع أنها تلزمك أنت من مجرد

تسويغ النظر الطبيعي في هذه القضايا! وأنا أكاد أجزم بأن الرجل يستشعر عمق هذا التناقض المنهجي الكلي ويدري أنه بذلك يقف على غير أساس، ولكنه الجدل اليوناني الذي لا يراد منه إلا تمرير بضاعة معينة تحت اسم العلم، وإن كان الحق الظاهر أنه ليس بعلم أصلا ولا يرقى للدخول تحت اسم المعرفة من الأساس! هذا الاطراد المطلق كما بينا آنفا، يضطر إليه الفيلسوف الطبيعي، بالنظر إلى المنشأ الميتافيزيقي الدهري لتلك الصنعة عند مؤسسي المدرسة اليونانية القديمة، لأنه يعلم أنه لو جوز أن يوقَف ذلك الاطراد عند حد غيبي معين، أو أن ينتهي إلى نهاية ما دون أن يكون مستوعبا لكل ما هو موجود، ودون أن يقدم وصفا نظريا لهذا العالم بكليته من أوله إلى آخره، فسيبقى الواحد منهم إذن مضطرا لتلقي المعرفة بما وراء المحسوس والمعتاد من هذا العالم، من مصدر هم ما تكلفوا ما تكلفوه أصلا إلا نقمة عليه، حقدا على الرسل والأنبياء وطمعا فيما اختصهم الله به من انقياد الناس لهم واتباعهم إياهم فيما تسلطوا به عليهم! فمبدأ التنظير نفسه يصطحب سلفا، القول باطراد وضرورية استيعاب جميع القوانين والنظاميات المعتادة لكل مكان وزمان! هذه الحقيقة، لا أقرأ المزيد من كلام هذا الرجل إلا ازددت يقينا من كونه يدركها ولا تخفى عليه، ولكنه الهوى الأكاديمي نسأل الله السلامة!

والقصد أن القول باطراد القانون الطبيعي في كل زمان ومكان بلا قيد ولا حد (إلا ما يستفاد من الطرد المطلق لقياس نظري معين فيما تقوم عليه المحاكاة الرياضية الموضوعة للقانون، كما تقيد عمر الكون بطرد معادلة فريدمان في جهة الماضي، وظهرت الفردية المزعومة بناء على ذلك)، هذا من مسلمات الملة الطبيعية التي لولا القول بها، على الطريقة اليونانية في

الإطلاق الميتافيزيقي، ما قام للطبيعية المنهجية (التي هي موضوع هذا المقال) أساس تقف عليه!

قوله " فالنقطة الأولى هنا، هي أن مبدأ وجود القانون الطبيعي نفسه من الأساس محل نزاع، فقد أخرج "باس فان فراصن" مثلا، حجة مطولة رائقة لدعوى أنه لا وجود أصلا لما يقال له القانون الطبيعي."

قلت هذا الكلام يعضد ما ذكرناه آنفا من عدم تورع بلانتينغا عن اللجوء إلى أي جدال ونزاع فلسفي ينقض به على خصمه ما يريد أن ينقضه، وإن كان النزاع نفسه في غاية السفسطة، وإن كان راجعا إلى مذاهب ودارس فلسفية يراها هو نفسه في غاية الوهاء والفساد، كمذهب هيوم وأتباعه، مثلا، في قضية الاستقراء ومن ثم في مفهوم القانون الطبيعي! من الواضح بادي الرأي أن لدينا هنا إجمالا فاحشا لا يزال فلاسفة العلم يشكون منه في هذه البابة، إلى حد أن بعضهم مال إلى النظر في كيفية عمل اللغة نفسها عندما نستعملها في توصيف ما يسميه بلانتينغا هنا بالنظامية، مفرقين كما فرق، بينه وبين ما نسميه بالقانون! لا بأس عند الفلاسفة، على الإطلاق، بأن يقذفوا في وجوه مخالفيهم من أقرانهم بأي نزاع وبأي جدال مهما كان سوفسطائيا سخيفا لا مخرج منه ولا ثمرة ينتفع بها الباحثون في العلوم الطبيعية نفسها بأي وجه من الوجوه! ولا بأس بأن يحمل الخصم على إجمالات لا يحملها أحدهم على وجه من الوجوه إلا ألحقه مخالفه بهذا بمدرسة من المدارس الفلسفية التي لا يلزمه - بمجرد ذلك - أن يقول بمقالاتها في القضايا ذات الصلة، مما تنازعوه فيما بينهم! ولكن كما تقدم، فعندما يكون مطلب الفيلسوف أن ينتصر لدعوى معينة أو لفكرة معينة، فإنه يقينا لن يعدم من الأدوات الجدلية والسوفسطائية ما يعينه على ذلك، مهما كان القول الذي يريد أن ينتصر له ساقطا متهافتا لا

قيمة له ولا وزن في سوق العقل! مايكل روز ما زاد في كلامه على أن عرف العلم الطبيعي بأن موضوعه لابد أن يكون محصورا فيما يتعلق بطبائع الأشياء والسنن الحاكمة لها إجمالا، وقد بينا أنه أصاب كبد الحق لما حصره كذلك فيما يقبل التكرار من أنواع النظاميات، مخرجا بذلك، من حيث لا يشعر، جميع تلك النظريات التي يرجو بلانتينغا أن يفسح لها مجالا للدخول تحت اسم العلم Science، كما هو الشأن مع ما يخالفها من نظريات الطبيعيين الدهرية في نفس الأمر! فبصرف النظر عن جدال الفلاسفة في حقيقة ما يقال له القانون الطبيعي Natural law، وحدوده وما يميز به مما سواه، فإنه لا يجوز أن يعترض على كلام روز في هذا التعريف بتقرير أن الفلاسفة تنازعوا فيما إذا كان يوجد أصلا شيء يقال له القانون الطبيعي أم لا يوجد، وأن أصحاب القول بنفيه (ممن يقال لهم أعداء الواقعية Anti-Realists كفان فراصن هذا وغيره) لديهم حجج قوية تدعم موقفهم!! فإن هذا الخلاف لا ينضبط أصلا عند الفلاسفة، كما هو الشأن في عامة نزاعاتهم، وليس كلام فراصن الذي أعجبت به، سالمنا من اللوازم التي تحيل ما تسميه أنت بالنظاميات السببية إلى دعاوى معرفية لا ندري هل لها حقيقة في الخارج تلازمها حقا أم لا، كما في ذلك النزاع السوفسطائي الطويل بين الواقعيين ومخالفيهم! هذا باب عندهم لا يخرج منه قارئه إلا بالضياع والشك لإغراقه في الإجمال والاشتباه والتحكم اللفظي (كما يبدو واضحا حتى هنا في تفريق الرجل بين ما يسميه بالقانون وما يسميه بالنظامية، بل وحتى في تعريف القانون نفسه الذي أحدثه هو كما سيأتي)، فأي خير يرجى من تعريض قارئك للخوض فيه؟؟

يعني يا سيد بلانتينغا، لو قدرنا أن أعاد روز كتابة تعريفه بأن وضع العبارة "خاضع للنظاميات الطبيعية natural regularities" مثلا، في محل قوله "خاضع للقانون الطبيعي Natural

Law"، فهل تقبل منه؟؟ الجواب لا، لن يقبل! لماذا؟ لأنه لا يريد من هذا الاعتراض أن يضبط تعريف روز أو يصلحه، على مذهب فراصن أو غيره، وإنما يريد أن يرده عليه بالكلية، من أجل أن يترك الأمر بلا تعريف أصلا، ومن ثم ينفتح الباب على مصراعيه لدخول نظريات النصارى في الخلق والتصميم الذكي وجيولوجيا الطوفان وما شاكل ذلك، تحت اسم العلم Science دون مانع ولا حاجز! وهذه هي السفسطة بعينها! فمن أين جاءت تلك السفسطة ولماذا وقعت للرجل؟ لأنه يريد أن يعترض على الطبيعية المنهجية لصالح نظريات نصرانية لم يقم مبدأ التنظير الطبيعي فيها عند أصحابها، أصلا وابتداء، إلا على مسلمات الطبيعية المنهجية، مع اشتمال تلك النظريات على إضافات نصرانية تفسيرية لا تتسع لها الطبيعية المنهجية!! الرجل يعلم هذا جيدا ولا يخفى عليه، فلا يجد إلا هذا الذي ترى من أجل أن يدفع النقد اللاذع ويخفف الضغط الاجتماعي والأكاديمي على أولئك الذين أراد أن ينتصر لهم بهذا المقال. لسان حاله كأنما يقول لهم: تريدون أن تصلوا في يوم من الأيام لأن تنشر نظرياتكم النصرانية المثبتة - بصورة ما أو بأخرى - لصانع ما، أو "مصمم ما"، في دوريات علمية معتبرة عالميا، وأن يعترف بها أقرانكم من الأكاديميين الطبائعيين بعدّها من جملة نظريات العلم، وأن تبلغ حينئذ أن تدرس للأطفال في المدارس كما تدرس النظريات المخالفة؟ إذن دعوني أنتصر لكم على ذلك الجانب من الطبيعية المنهجية الذي به يخرجون تلك النظريات من مسمى العلم! أما أن نسقط الطبيعية المنهجية بكليتها، بما يفضي - لا محالة - لإسقاط تلك النظريات نفسها على رؤوسكم، وعلى رأس كل من يطرح موضوعها للنظر الطبيعي من مبدأ الطرح، فلا نتطرق لذلك ولا ننهض به، لأنه يفضي إلى نقيض المقصود! المطلوب انتزاع الاعتراف الأكاديمي بأصحاب نظرية التصميم الذكي وما شاكلها، على ما نصبح به جميعا من جملة العقلاء المعترف

بعقولهم وعلومهم أكاديميا، لا أن أقرر لكم كلاما يجلب علي أنا، وأنا من أنا في الأكاديمية الفلسفية العصرية، من التهمة فوق ما تعانونه أنتم!

قوله: " ثمة نظاميات مطردة، ولا شك، ولكن النظامية لا تبلغ أن تكون "قانونا"، وإنما القانون هو ما يفترض فيه أنه يفسر ويقدم أساسا لوجود النظامية نفسها"

قلت: ألم أقل لك أن البابة مفعمة بمجملات لا طائل تحتها؟ النظاميات لا تبلغ أن تكون قانونا، لأن القانون هو ما يفترض فيه أنه يفسر ويقدم أساسا لوجود النظامية نفسها! فما الذي يمنع فيلسوفا آخر من أن يقلب التعريف، فيجعل النظامية هي ما تسميه هنا بالقانون، والقانون هو ما تسميه بالنظامية (وقد كان قريب من ذلك بالفعل عند بعضهم)؟ ثم ألا ترى أنك تنقض أصل ملتك النصرانية بإقرارك لمذهب فلسفي ينفي وجود شيء يقال له القانون الطبيعي وجوديا بالكلية، مع أنك تعرف القانون الطبيعي بأنه هو ما يفسر ويقدم أساسا لوجود النظامية نفسها؟ ألا يفهم من هذا الكلام أنك تثبت نظامية لا أساس ولا تفسير لوجودها أصلا؟؟ لو حدثته بهذا فلابد أن يجيب قائلا: أنا أنفي أن يكون القانون الطبيعي، على المفهوم الدهري للقانون الطبيعي، هو هذا الأساس الوجودي والتفسير الغيبي لوجود النظامية! ونقول له: إذن لا يكون الاعتراض على تعريف روز بتسويغ القول بأنه ليس ثمة ما يقال له قانون طبيعي أصلا، وإنما يكون الكلام متجها إلى تحرير التعريف الصحيح للقانون الطبيعي (أو النظامية الطبيعية إن شئت) وتقييده بالقيود العقلية الصحيحة، مع بيان أن موضوع العلم الطبيعي محصور في ذلك ولابد! أما أن يقابل الإجمال بإجمال مقابل، والسفسطة بسفسطة مقابلة، فهذا لا خير فيه ولا نصرة للحق!

قوله: " ثم إن القانون يفترض فيه أن يطّرد بنوع من الضرورية، وهي ضرورية جرى العرف على عدها أدنى من الضرورة العقلية بإجمال، ولكنها ضرورة على أي حال. هذه الفكرة في مبدأ القانونية، يبدو لي أنها من ميراث النحلة الربوبية عند التنويريين، ولعل الربوبية التنويرية هذه تخطئ الهدف هنا كما أخطأته في غير هذا، فلربما كان من الممتنع الوصول إلى تحقيق مطلب تقرير قانون ما، ولربما كان في الوجود نظاميات ولكن لا قوانين، ولعله لا وجود لتلك الضرورية المزعومة نسبتها إلى القوانين."

قلت: فلربما ولربما ولربما، فأين أنت من جميع ذلك؟ وإن كان مثل هذا، على أساسيته في هذا الباب، لم يتحرر لديك، ففي أي شيء أنت تطالب بإدخال نظريات النصارى تحت اسم العلم؟؟ كما ذكرت لكم، ليس إلا التهويش والتهويل بقال وقيل! ما معنى الضرورية هنا وما وجهها وما مداها وحدودها؟ جدال بيزنطي يرجع كله إلى نفس الأصل الدهري الكلي: أنه ليس ثم إلا الطبيعة ومجاريها! إن كان المقصود بها أن طبائع الأشياء تقتضي تأثيرا سببيا ملازما لتلك الطبائع على ما اقتضت حكمة الباري جل شأنه أن يجعلها عليه، فهي ضرورة من هذا المعنى، بيد أنها في واقع الأمر لا تكون كذلك (أي سنة مطردة وجوبا) إلا إذا قضى الرب بمشيئته أن تجتمع لها الأسباب وتنتفي الموانع في كل مناسبة، وهو - إجمالا - ما يسميه الفلاسفة المعاصرون بتساوي الشروط ceteris paribus، أي يقال إن القانون مطرد في هذه الواقعة أو تلك وجوبا وضرورة إن قدرنا أن اجتمعت له جميع الشروط وانتفت جميع الموانع. وهذا مما اختلف عليه الفلاسفة كذلك خلافا عريضا، إذ ظاهره بادي الرأي منافيا لضرورية القانون، ولا عجب، لأنه يرجع نفاد القانون نفسه، أي قانون، إلى شروط خارجة في أكثرها عن عادتنا وعن قدرتنا على التتبع، فيما يتعلل كله بإرادة رب العالمين

ومشيئته! ولكن الحال كما ذكرنا أن فلاسفة العلم المعاصرين عامتهم ما بين دهرية أقحاح، وكتابيين متشبعين بمسلمات الطبيعيين الدهرية في تصور موضوع العلم الطبيعي ومادته، فكيف يعجبهم مذهب يوحي ولو من بعيد، بوجود أسباب خارجة عن دائرة النظام الطبيعي، يترجح بها اطراده من عدمه في كل مناسبة، بما لا يرجع بداهة وضرورة إلا إلى إرادة من بيده جميع الشروط والموانع وإليه سائر الأسباب والمتولدات، وبأمره وحده وقضائه وحده تجري الطبائع في الأشياء؟؟ القصد أن الضرورة الطبيعية مقيدة في جميع الأحوال بمشيئة رب العالمين وحده لا شريك له، إن شاء للطبائع أن تثمر عن آثارها الملازمة لها خلقا وتكوينا، قضى في حكمه أن تجتمع لذلك شروطه وتنتفي موانعه، فيما لا يحصيه ولا يحيط بعلمه إلا هو سبحانه، وإلا كان خلاف ذلك. فالضرورة التي نثبتها - ويجب عليه هو أن يثبتها - هي بمعنى ضرورة أن تطرد السنة السببية في طبائع الأشياء (وهو ما نقصده بالقانون الطبيعي) على كل حادث من حوادث الدنيا، على ما اقتضت حكمة الرب أن يجعلها عليه، إلا أن تقتضي حكمته مخالفة تلك السنة أو تعطيلها في هذه الواقعة أو تلك أو في هذا الحادث أو ذاك، فلا يكون السبب سببا ولا الطبع مؤثرا، لقيام الموانع دون ذلك، أو تقتضي حكمته رفع الطبائع بالكلية وإزالتها أو قلبها وتبديلها في أنواع المواد، كما يكون عند قيام الساعة كما يفهم من قوله تعالى ((يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ للّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ)) [إبراهيم : 48].

والضرورة الطبيعية على هذا المعنى هي من كمالات الباري جل شأنه، إذ من الواضح الجلي بداهة وفطرة وكما دل عليه السمع أنه سبحانه قد ركب في مخلوقات العالم من الأحياء والجمادات طبائع وخصالا، وسن فيها سننا ثابتة لا تتبدل إلا أن يشاء جل شأنه، فمن

مقتضيات الإيمان بربوبيته سبحانه وكمال سلطانه، أن نتوقع جريان العالم على نظامه المطرد وعلى سننه المطردة، لا أن نتوقع الفوضى أو نجوّز جريان العالم على العشواء المحضة، كما جوزه هيوم ومن تابعوه من الفلاسفة، يقولون ما معناه: ليس ثم ما يضمن للعالم أن يبقى على هذا النظام الذي نراه لزمانين متتاليين، وإذن فلا أساس في العقل لجعل الاستقراء أساسا للتنبؤ بحوادث المستقبل! لذا لا نجيز نفي الضرورة عن القانون الطبيعي بالكلية قبل تحرير المقصود بكل من الضرورة والقانون الطبيعي جميعا! وتفسير تلك الضرورة على المعنى الذي حررناه والسبب في كونها كذلك، لا يعرف إلا عند المسلمين، إذ نحن من نؤمن بأن ربنا تبارك وتعالى قد خلق العالم كله وجميع ما فيه لغاية عليا ولحكم شتى نتعلق بها، فإذا كانت الدنيا دار عمل وبلاء للثقلين المكلفين فيها، وقد علمنا أن الله قد سخرها من أجل ذلك، فلا متسع في التصور إذن لأن تكون الأعمال بلا أثر يرجى منها، ولا ثمرة نتوقع لها، هذا يكون ضربا من العبث، والله منزه عنه! فلا قيام للغاية من خلقنا في هذا العالم إلا بأن تكون الطبائع فيه مفضية إلى آثارها من حيث الأصل، ممكنة لبني آدم – إجمالا - من أن يتتبعوها ويتنبأوا بها بما يحصل به المطلوب من تسخيرها لهم! لا تفسير لمبدأ القانونية والاطراد القانوني في طبائع الأشياء إلا بالغائية الإلهية، وهي منتفية مبدئيا عند فلاسفة العلم الغربيين بالنظر إلى دهريتهم، لذا ضاعوا في هذا الباب غاية الضياع. فمن المعيب للغاية أن يتابع بلانتينغا فيلسوفا ضايعا في هذه البابة لا لشيء إلا لأنه فيلسوف نصراني مثله! حتى قول بلانتينغا "هذه الفكرة في مبدأ القانونية، يبدو لي أنها من ميراث النحلة الربوبية عند التنويريين،" هذا من كيس فان فراصن وليس من كيسه، يردد كلامه دون عزو أو إحالة! قال باس فان فراصن في ورقة بحثية نشرها في دورية من الدوريات: "فمن وجهة نظري، فإن فكرة القانون الطبيعي إنما هي فكرة

بالية، تنتمي إلى القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين. وقد لعبت دورا مهما في الفكر الفلسفي – العلمي لديكارت ونيوتن، وقامت بين يديهما بوظيفة المفتاح المركزي لهيكل العلم. ولكن في نفس الوقت، فقد ظهر تطوران (فلسفيان) هددا حالة ووضعية القانون (الطبيعي). الأولى هي النقد الإمبريقوي Empiricist للضرورة والسببية، وهي مفاهيم شديدة الارتباط بمفهوم القانون، والثاني هو أن العلم قد أخذ في اكتساب حالة متنامية من الاستقلال ليس فقط عن الثيولوجيا ولكن عن الفلسفة بعموم، وأخذ في التلاعب بمفاهيم أجنبية على صنعة الميتافيزيقا (الفلسفية). ويظهر في هذا بصفة أساسية، مولد حجة التماثل الرياضي في الفيزياء Symmetry Argument. فإن الفيزياء الحديثة تحاجج من التماثلية والاستمرارية (الرياضيين) وليس من الاطراد الكوني أو الضرورة أو الأنواع الطبيعية أو الأعراض أو الممكنات العقلية أو الحوادث. لذا فإن مفهوم القانون الطبيعي هذا يعد مفهوما ضامرا Vestigial في العلم الحديث."

قلت: فالرجل يستند في إسقاطه لمفهوم القانونية الطبيعية إلى كونه مفهوما قديما يرجع إلى ميتافيزيقا تنويرية قديمة، من عصر كان العلم فيه ممارسة هينة سهلة نسبيا، تابعة للعقائد الدينية عند أناس ينطلقون في عملهم من مبادئ ساذجة كالضرورة والسببية، خلافا للعلم الحديث في عصرنا هذا وما غلب فيه من محاججة في الترجيح بين النظريات الفيزيائية بمبدأ التماثل الرياضي والاستمرارية والتناسق الداخلي المصوغ بلغة المعادلات التفاضلية والهندسة اللاإقليدية وهذه الأشياء، مما لا قبل لأكثر اللاهوتيين والفلاسفة بالكلام فيه أصلا! مع أنه هو نفسه يتكلم في هذه الأبواب الصعبة الدقيقة، دون تخصص في الرياضيات المتقدمة، بما يفترض فيه أن يوصل صاحبه إلى موقف صحيح أو معقول من مبدأ ما يقال له "القانون الطبيعي" نفسه من

الأساس!! فهل هذا، يا بروفيسور بلانتينغا، على ما فيه من تعظيم للمذهب الإمبيريقي الوضعي ولطريقة المعاصرين من معتنقيه في المحاجة والإثبات والنفي الميتافيزيقيين، كلام من يؤمن بإله النصارى الذي خلق العالم في ستة أيام، وركب في السماء قانونها ونظامها كما في الأرض؟ أم كلام فيلسوف لا يريد إلا أن "يركب الموجة" بين فلاسفة عصره، يرجو أن يعد من جملة أصحاب المدارس العصرية في فلسفة العلم؟ "فان فراصن" يقول ما حاصله أن النظامية الطبيعية لا ثبوت لها في الواقع أصلا، وإنما الذي يثبت هو اطراد المعادلة الموضوعة لربط الوقائع والحوادث بعضها ببعض في إطار ذهني واحد، يرتب لنا أفكارنا وتصوراتنا بشأنها، بما لا يخلو ولا ينفك عن أن يكون اختيارا اعتباطيا للمنظر صاحب تلك المعادلة، دون أن يكون في مجرد ذلك ما يقتضي التسليم بوجود "قانونية" طبيعية في الواقع على المعنى الذي حررناه آنفا! الرجل يستسيغ مبدأ التشكيك الهيومي في السببية وفي منطق الاستقراء وإفادته العلم، ويرى أنه قد آن الأوان للخروج من تلك الإشكالية الهيومية بالكلية، بأن نسقط مبدأ وجود شيء يقال له القانون الطبيعي من الأساس!! ألا ترون الفلاسفة قد تنازعوه وساحت فيه عقولهم، ولم يوفق أحد منهم في وضع حد "ميتافيزيقي" جامع مانع للقانون الطبيعي يسلم من المعارضة؟ فما السبيل إذن؟ السبيل أن نلحق مفهوم القانون الطبيعي بمفهوم السببية في جملة المفاهيم القديمة التي لم يعد للقول بها ثمرة ولا للتمسك بها منفعة في عصرنا هذا!! وهذا هو عين المسلك الذي يسلكه الفلاسفة في التشغيب على وجود من خلقهم من الأساس! يقول أحدهم: لقد تأملت في نزاع الفلاسفة عبر العصور في مسألة وجود الصانع بين مثبت وناف ومتوقف، فلم أجد للمثبتة منهم برهانا واحدا سالما من المعارضة ومن الأغلاط والمآخذ الدقيقة، فأسقطت الأمر برمته وقلت إن مسألة الصانع هذه لا داعي لإشغال الوقت بها ولا خروج من حمأة

التكافؤ الدلالي في كلام المتنازعين فيها، والصواب إذن أن يقال إنه لا يمكن الحكم بوجوده لتعذر البرهنة عليه! مسألة القانونية الطبيعية مسألة بديهية فطرية راجعة إلى علمنا الجازم بأنه ما من نظامية سببية مطردة تدلنا عليها العادة والخبرة في هذا العالم إلا وهي بالضرورة من أمر الله وقضائه المبرم، الذي لا يخرج عليه شيء، وسلطانه التام الحاكم على كل شيء، كما في قوله جل شأنه ((إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)) [الأعراف : 54]، فمعنى القانونية في "نظاميات الطبائع المخلوقات" على هذا هو من الضروريات العقلية والنقلية التي لا يماري فيها إلا جاحد أو مكابر، أو مفتون سقط في حمأة نفي السببية لصالح الإرادة الإلهية كما وقع لبعض طوائف المتكلمين من أهل القبلة! فنحن نقول ما كانت هذه منزلته في معرفة البشر، فلا يقال إن الفلاسفة قد تنازعوا عليه نزاعا لا خروج لهم منه، وإذن فالمتعين إسقاطها! الفلاسفة لا يتفقون على شيء أبدا وما كان لهم أن يتفقوا، فلا حجة في نزاعهم أصلا كما لا حجة في اتفاقهم إن وقع!

فقول فان فراصن فيما وافقه عليه بلانتينغا إن فكرة القانونية الطبيعية هذه ترجع إلى ربوبية التنويريين، هذه مجملة ولابد فيها من التفصيل الدقيق. فصحيح إن التنويريين انطلقوا من أجندة فلسفية دهرية غالية تهدف إلى إسقاط الغائية الإلهية والسلطان الإلهي على مجاري الحوادث في العالم بالكلية، لصالح فكرة الماكينة السببية المغلقة التي تصورها نيوتن وسبينوزا، التي لا تتسع لفعل ولا تأثير ولا مشيئة من خارجها، وكأنما هي آلة صنعت في مبدأ الأمر ثم تركت لتعمل وحدها بلا "تدخل" من خارجها، ومن ثم أرجعوا التعليل التام والخلق والتدبير والتصرف في مجريات حوادث العالم إلى كل ما صح أن يقال له إنه قانون طبيعي أو "ميكانيكي"

لحركة الأجسام والجسيمات في هذا العالم، إلا أن جواب ذلك السفه الدهري لا يكون بإسقاط مبدأ القانونية الطبيعية من الأساس! هذا هو نفس الغلو الذي وقع فيه الغزالي من قبل، يوم قابل الدهرية القائلين بقدم الطبائع وتولد الحوادث عنها، بنفي الطبائع وتأثيرها بالكلية، وزعم أن الحوادث إنما تخلق خلقا آنيا، دون أن يتولد شيء من شيء أو يؤثر شيء في شيء! الصواب أن يقال إن الله تعالى خلق هذا العالم وركب في مواده طباعا لا تزال الملائكة قائمة عليها بأمره جل شأنه إلى أن يشاء، فلا تزال تلك الطبائع والخصال تؤثر في الحوادث وتولدها بأمره وقانونه وحكمه الكوني السابغ الذي لا يخرج عنه شيء إلا بأمره ومشيئته إذا شاء، فيما لا يظهر لنا منه في عادتنا المحدودة إلا كما تظهر للرائي قمة جبل الجليد فوق سطح الماء! ولكن هؤلاء فلاسفة بحدة مستكبرون، تربوا على مبدأ المكابرة اليوناني في إعمال العقل والتأمل في أمر العالم، فيهجم الواحد منهم على المسألة هجمة من يريد العلم الكاشف، يزعم أن عقله سيكفيه إذا بنى به نظرية ميتافيزيقية تستوعب كل ما يصلح أن يكون سببا في أي حادث من حوادث العالم، لتكشف له ذلك كشفا تاما وكأنما يراه بعينيه، إن اختار في جملة أوهامه أن يسلم بمبدأ السببية نفسه من الأساس! فإما أن تكون الأسباب قابلة للإحصاء والتتبع في نظرية ميكانيكية واحدة تكشف لنا كل ما يجوز أن يكون سببا، إما هذا وإما ألا يكون للسببية ثبوت أصلا في الواقع، وإنما تكون وهما نتوهمه من تكرار العادة لا غير! إما أن يكون القانون الطبيعي هو التعليل التام لكل ما يجري في العالم من حوادث ومتولدات، وإما ألا يكون ثمة شيء يقال له القانون الطبيعي أصلا! مع أن المتأمل في مسألة نفي القانونية الطبيعية هذه يجدها ترجع تحقيقا إلى نفس الربوبية التنويرية التي يفر منها فان فراصن وبلانتينغا وغيرهما، إذ هي تترك نظاميات العالم بلا تعليل غائي إلهي، ولا سلطان

تدبيري تام، وإنما تتركه واقعا لا مفهوم لنظاميات الطبائع فيه ولا غاية إلا ما نفرضه نحن عليها تحكما عند وضعنا ما نضع من النظريات والقوانين!! تأمل كيف يناقض بلانتينغا نفسه إذ يقول: " ولربما كانت أفضل طريقة للتأمل في تلك القوانين المزعومة، على أنها عكسيات Counterfactuals قابلة للتقييم كونيا أو قريبا من الكونية، للحرية الإلهية." قلت: أبمثل هذا الإجمال السمج يتحرر الاعتقاد في العلاقة بين فعل الرب سبحانه وبين القانون الطبيعي، بما غايته أن يكون "ربما" من جملة "الربمات" التي ترميها بين يدي الخصم من أجل إسكاته؟؟ نعوذ بالله من الخذلان ومن هوان الدين والاعتقاد على نفوس هؤلاء المرضى الذين أنزلوا أنفسهم منازل المجاهدين لنصرة أديانهم!

العكسيات هذه هي مصطلح فلسفي يراد به قولهم: إن لم تقع (أ) لم تقع (ب)، أو إذا كانت (ب) قد وقعت على أثر (أ)، فلو لم تقع (أ) ما كانت (ب) لتقع، وهكذا. هذه العلاقة هي علاقة سببية قطعا، رضي من رضي وأبى من أبى! بل إن صياغتها على هذا النحو تشعرك بالتعليل التام، أو ما يسميه الفلاسفة في بعض أدبياتهم بالسببية الكافية Sufficient causation، وكأن وقوع (ب) واجب عقلا على أثر وقوع (أ)، في كل مرة تقع فيها (أ)! وهذا من إفراط الفلاسفة ولا شك. ولكن نحن نسأل بلانتينغا، ما معنى قولك: عكسيات قابلة للتقييم للحرية الإلهية Counterfactuals of Divine Freedom؟ إن كان المقصود بالحرية الإلهية، الإرادة الإلهية والمشيئة الربانية التي بها نثبت لله تعالى صفة الربوبية والسلطان فوق حوادث العالم، ذلك السلطان الذي لا يخرج منه شيء ولا يجوز أن يخرج، فلا تكون تلك العكسيات قابلة للتقييم أصلا إلا إن كان لله تعالى سنة ما أو ناموس ما، بحيث إن تحققت الشروط وانتفت الموانع في إرادة الله وحكمته، وجب أن تصح تلك العكسيات في

كل مرة تحت نفس الظروف! فإن لم يكن هذا من معنى القانون الكوني أو التقنين الكوني الإلهي، فأي شيء يكون إذن؟ الحرية الإلهية التي صدر عنها هذا الذي نقيمه نحن، ما حقيقتها عندك، إن كنت تجوز أن ينتفي مبدأ القانونية تحت النظاميات الطبيعية؟ وما الفارق أصلا بين النظامية والقانونية عند من يثبت تحت النظامية تعليلا وحكمة إلهية، وسلطانا ربانيا سابغا على جميع الحوادث والمتولدات في الكون؟ إن كنت مثبتا للسببية فأنت مثبت للقانونية الإلهية تحت الطبائع والنظاميات المعتادة، وإن كنت تنفي السببية فيلزمك نفي العكسيات تلك التي تقرر أنها قابلة للتقييم، ولا تكون النظاميات (التي هي بمعنى تلازم المشاهدتين (أ) و(ب) على نحو ما تجري به العادة Correlation / Covariance) دالة على ما تسميه "بالعكسيات" أصلا، ولا بأي نوع من أنواع الشرطية المطردة ولا بجواز التنبؤ بشيء أصلا! أما أن تقرر كلاما يدخلك تحت المذهب ونقيضه معا، فهذا فساد في العقل والاعتقاد لا يخفى! ربما لم يكن ثمة شيء يقال له القانون، وإذن نخذوا من كلام فان فراصن ما يحلو لكم، ومن كلام من وافقوه، وربما كان ثمة شيء يقال له القانون، وإذن فغايته أن يكون توصيفا نظاميا للحرية الإلهية ولثمراتها، على أيما نحو أحببتم أن تفهموا هذا المصطلح! فالرجل لسان حاله كأنما يقول لقرائه: خذوا من هذه الخيارات ما يحلو لكم، وافهموها على أيما نحو شئتم، أولا تفهموا شيئا البتة، لا يهم! المهم أن توافقوني على إسقاط كلام خصمي الذي أكتب هذا الكلام للرد عليه!! فبالله أي عبث بعقائد الناس وعقولهم فوق هذا؟؟ نسأل الله السلامة والعافية!

هذه يا عباد الله هي ثمرة المدرسة اليونانية الشيطانية في الجدل والخصام وفي الإثبات والنفي الوجوديين، فقولوا الحمد لله على نعمة الإسلام والسنة، فوالله لا عصمة لكم من هذا الضياع إلا بهما! هذا الرجل، ألفين بلانتينغا، من أذكى الفلاسفة في عصرنا، ومن أنبغهم عقلا، تقرأ

له كتبه تنبهر من قدرته على التحليل والتفكيك والتدقيق في أغوار المعاني التي يستعملها في كلامه، ومع هذا، لم يخرجه عقله من تلك الأهواء التي حملته من الأساس على كتابة أكثر ما كتب، ولم يسلمه من التشبع بكل مذهب رديء وقول فاسد، وهو مع هذا يرى نفسه ويراه أتباعه أعظم من انتصر للملة النصرانية من بعد القديس أوغسطين! فأي ملة هذه التي ينتصر لها هو وأمثاله تحقيقا وهو لا يبالي أي صفة تلحق بربه، وأي اعتقاد ينتهي إليه الناس في ذلك على وجه التفصيل، من أثر هذه الخصومة أو تلك؟ الله المستعان! ثم ما معنى أن تكون قابلية التقييم لتلك العكسيات المذكورة كونية أو شبهة كونية؟ أن نعتقد أن العكسيات تلك لابد أن يكون اطرادها مستوعبا للكون بكليته في جميع أنحاء الزمان والمكان؟ طيب سلمنا بمعقولية ذلك تنزلا، فعلى أي أساس ترجح أنت يا بروفيسور بين الكونية وما تسميه "بشبه الكونية"، أي في اطراد تلك العكسيات الداخلة تحت قدرتنا على التقدير والتقييم النظريين؟ قانون نيوتن للحركة، أو إن شئت: عكسيته أو نظاميته، هذا عندك عكسية كونية Universally Quantifiable أم شبه كونية Nearly Universally، وعلى أي أساس تقرر ذلك؟

قوله: " فلنفرض أن فان فراصن محق وأنه لا وجود للقوانين الطبيعية، فهل سيلزم – بمقتضى التعريف – ألا يوجد أي علم طبيعي؟ يبدو هذا زعما مبالغا فيه نوعا ما. زد على ذلك أنه قد تكون حقيقة الأمر، في حدود ما يمكننا العلم به، أنه توجد بعض القوانين، ولكن ليس كل شيء محكوما بها (أو محكوما بها حكما شاملا). ربما كانت هذه حقيقة الحال فيما يتعلق بالزلازل وبحالة الجو وبالتحلل الإشعاعي. فهل يلزم من ذلك ألا يكون بوسع أحد أن يدرس هذه القضايا علميا؟"

قلت: نعم لن يوجد علم طبيعي إن لم يوجد ما يضمن للنظاميات المعتادة في طبائع الأشياء أن تطرد في المستقبل كما اعتدناها في الماضي! وإلا فأي موضوع تريده أنت لما تسميه بالعلم الطبيعي يا بروفيسور؟ هذه سفسطة ظاهرة، لا يراد منها إلا نقض تعريف مايكل روز، لمصلحة الانتصار عليه في حربه ضد أصحاب النظريات الدراوينية الخلقوية، والله المستعان. فمايكل روز من أشد الفلاسفة نقدا لتلك النظريات كما هو معروف، وله في نقده مواطن ألزمهم فيها بالدهرية الطبيعية كما نقلت بعضه في كتاب المعيار عند الكلام على تلك النظريات! "قد تكون حقيقة الأمر أنه توجد بعض القوانين ولكن ليس كل شيء محكوما بها، أو ليس محكوما بها في كل حال!" فبالله تأمل كيف يتكلم من يفترض فيه أنه يثبت الرب الذي صنع كل شيء وخلق كل شيء، وهو مع هذا قائم بأمر كل موجود، لا قيام له إلا به سبحانه! قد تكون حقيقة الأمر أن القوانين الطبيعية محدودة فلا تشمل كل موجود، أو لا تشمله في جميع أحواله، وقد لا تكون كذلك!! فكيف لنا أن نعرف إذن؟ عند الفلاسفة الذين يتعلق الرجل بنزاعهم ويحيل خصمه عليه، لا يمكن أن ننتهي إلى قول راجح في هذه المسألة! وإذن فما العمل؟ لن يجد أمامه إلا التسليم بالطبيعية المنهجية السابغة التي تنطلق من التسليم السابق باطراد القوانين على كل موجود بشرط الإطلاق، إلا ما يستفاد من إثبات الطبائع والقوانين نفسها وجوب تقييده! هذا إن ترجح لديه القول بأن ثمة قوانين أصلا في الطبيعة، إن قدرنا إمكان ترجحه!! فتأمل مبلغ الضياع الذي عليه الرجل في هذا الباب الخطير، وقل الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله!

يقول بلانتينغا [21]:

الأمر الثالث المحير في دعوى روز، هو أنه من الصعب أن نرى كيف يصح لنزاع جاد عقلا بشأن ما يصلح أن يكون علما وما لا يصلح، يمكن أن يحسم بمجرد التعلق بتعريف ما. قد يرجو المرء جدوى ذلك في حالة ما إذا كان المطلب الأصلي مطلبا لفظيا صرفا، كأن يكون السؤال: هل اللفظة الإنكليزية Science قابلة للإطلاق بشكل صحيح على فرضية فيها إشارة إلى الإله؟ ولكن ليس هذا هو السؤال هنا، وإنما السؤال: هل يصح لفرضية تفسيرية يشار فيها إلى الإله، أن تكون جزءا من العلم؟ وهذا السؤال لا يمكن أن يجاب عنه بمجرد الإحالة إلى تعريف ما.

قلت: لا شك أن الاحتجاج بالتعريف أو الحد الاصطلاحي من أفسد ما يكون، لأنه في نهاية الأمر، وكما عليه الحال في جميع العلوم والفنون المعرفية، ضرب من الاصطلاح والتواضع اللغوي لا غير، فهو تابع للاتفاق العلمي إذا وقع، وليس مفضيا إليه أو موجبا له! فالرجل محق في هذا النقد ولا شك. ولكن تأمل ما تحريره للسؤال الذي من أجله ألف هذا البحث من الأساس، وبسببه اقتبس كلام روز ورد عليه، يقول: هل يصح لفرضية تفسيرية يشار فيها إلى الإله أن تكون جزءا من مسمى العلم؟ وهنا بيت الداء ومحل البلاء عند التأمل! فما يقصده

[21] *The third puzzling thing about Ruse's claim: it is hard to see how anything like a reasonably serious dispute about what is and isn't science could be settled just by appealing to a definition. One thinks this would work only if the original query were really a verbal question -- a question like: Is the English word 'science' properly applicable to a hypothesis that makes reference to God? But that wasn't the question. The question is instead: Could a hypothesis that makes reference to God be part of science? That question can't be answered just by citing a definition.*

الرجل بالفرضية التفسيرية التي يشار فيها إلى الإله، هو إنزال الإله نفسه وفعله منزلة الفرضية التفسيرية في نظرية من نظريات الطبيعيين! وهذا من أفسد المذاهب والأقوال على التحقيق، لأن فعل الله تعالى ليس أمرا افتراضيا قد يصح وقد لا يصح، فيما يكون طريق الترجيح فيه هو الاستقراء أو النظر في الأشباه والنظائر، على طريقة أصحاب اللاهوت الطبيعي كما بينا!! وإنما هو قضية بديهية فطرية ضرورية لا حدوث لشيء في العالم أصلا، ولا تحرك لمتحرك فيه ولا ترتب لشيء على شيء إلا بها! لا يكون القانون قانونا إلا بأمره وحكمه وفعله ما يفعل سبحانه مما لا يعلمه أحد سواه، ولا يكون السبب سببا إلا به، ولا يحدث الشيء، أي شيء، بعد عدمه، إلا به! ولكن هؤلاء يسلكون مسلكا يقصر الفاعلية الإلهية Divine Agency والخالقية الإلهية على تلك الجوانب التي يكون تفسيرها بذلك هو أحسن التفاسير الممكنة عندهم نظريا! ننظر في الموجودات فنرى بعضها يترجح فيه الخالقية على الفوضى الوجودية والقانونية الطبيعية الصرفة (كما في ميزان ديمبسكي في نظريته)، فنفرض التصميم الإلهي تفسيرا لها بخصوصها، على طريقة التجريبيين في فرض التفاسير وترجيح أحسنها بواقع العادة والخبرة الاستقرائية، إلى جانب ما عندهم من معايير شكلية واهية قد تبين أنه يوافق القوم في قبولها والترجيح بها في أبواب الغيب المطلق في مواطن ويردها عليهم في مواطن أخرى، جريا مع مجاري الخصومة والجدال!

فالحق الذي يجب أن يكون عليه كل من يؤمن برب خلق كل شيء وقدره تقديرا، رب متفرد بالسلطان التكويني وبالربوبية على جميع ما في الوجود، هو المنع الصارم من معاملة الخالقية الإلهية أو "التصميم الإلهي" كما يسمونه، معاملة الفرضية التفسيرية الطبيعية، التي تضاف إلى جملة من الفرضيات الأخرى في نظرية طبيعية! ولكن تقدم أن النصارى لا

يوحدون الرب سبحانه في الربوبية كما يزعمون، وإنما هم قدرية يقولون بخلق البشر أفعالهم من دونه، ويجعلون للشيطان سلطانا تكوينيا على كثير من الشرور، بما لا يدخل عندهم تحت إرادته الكونية، فإذا تفلسفوا، لم يكن من عجب أن تراهم يخرجون كثيرا من حوادث العالم من سلطانه التكويني، ليدخلوها في العشواء الوجودية الداروينية، أو يتركوها ليصبح القانون الطبيعي هو تعليلها الغائي وسببها التام من دون الله، ثم يثبتوا لربهم "تدخلا إلهيا" Divine Intervention ببعض الأفعال من آن لآخر، كما كان هو مذهب نيوتن في تفسيره لبقاء ماكينته الكونية جارية على ما زعم، دون أن ينهار بعضها على بعض! فهم أصحاب ملة متوسطة بين القول بالرب المتصرف في كل شيء، الذي يقول به أتباع المرسلين، والقول بالصانع الربوبي الأعمى المجرد عن كل سلطان، الذي زعم بلانتينغا، تبعا لفان فراصن، كما مر معك أن مجرد فكرة إثبات القانونية الطبيعية ترجع إليه تاريخيا! فالنصراني إذا تفلسف، فإنه يبدأ بالقدرية لينتهي إلى الربوبية على صورة من صورها، أو إلى وحدة الوجود الطبيعية، شعر بذلك أم لم يشعر.

يقول [22]:

[22] *Allow me to belabor this point. A definition of 'science' would be an account of what the term means -- in English or in someone's idiolect. Take the second case: perhaps Ruse uses the term 'science' according to some definition under which it does not apply to hypotheses referring to God. But of course that in itself has little bearing on the answer to the question we express by the sentence "Can a scientific hypothesis contain a reference to God?"; unless we use the term in accord with the same or similar definition. But we don't; if we did, the question would be trivial, like the question whether there are married bachelors. On the other hand, perhaps*

اسمحوا لي أن أشرح قليلا في هذه النقطة. فإن تعريف العلم Science سيكون ولابد تقريرا لما يعنيه المصطلح، في الإنكليزية أو في استعمال بعض الناس. فإذا أخذنا الحالة الثانية، فلربما كان روز يستعمل المصطلح Science جريا على تعريف معين يمنع من دخول الفرضيات المشيرة إلى الإله تحته. ولكن بالطبع فإنه ليس هذا في مجرده، جوابا للسؤال الذي نعبر عنه بقولنا: "هل يمكن للفروض العلمية أن تشتمل على الإحالة إلى الإله أو الإشارة إليه؟"، إلا إن كنا نستعمل المصطلح في هذا السؤال نفسه تقيدا بنفس التعريف. ولكنا لا نقول به، وإلا لكان السؤال ضربا من العبث أو تحصيل الحاصل، كالسؤال عما إذا كان يوجد عزاب متزوجون! ومن ناحية أخرى، فلربما كانت العبارة محل البحث صحيحة بمقتضى تعريف لغوي ما للفظة الإنكليزية نفسها (وليس على استعمال روز). والفكرة هنا هي أن معنى كلمة science في الإنكليزية يمكن تحديده عن طريق تعريف ما، ووفقا لذلك التعريف، فإن الكلمة تصدق على فرضية من الفرضيات، فقط في حالة ما إذا كانت تلك الفرضية لا تشتمل

---

the sentence in question is true by some definition of a term in English (not Ruse's idiolect). The idea would have to be that the meaning of the term 'science' in English can be given by a definition; and according to this definition, the term 'science' properly applies to a hypothesis only if that hypothesis does not include a reference to God. But can this really be so? Consider those who follow Kuyper and Augustine in thinking that Christians should take explicit account of what they know by way of faith in doing science; is the idea that they have somehow failed to learn how this term is properly used in English (or its cognates in Latin and Dutch)? That seems improbable.

على إحالة إلى الإله أو إشارة إليه. ولكن هل يمكن أن يكون الوضع كذلك حقا؟ خذ مثلا من يتابعون كويبر وأوغسطين على قولهم إن النصارى يجب عليهم أن يحملوا ما يعتقدونه اعتقادا إيمانيا صرفا على محمل الجد عند بحثهم في العلم Science، هل الفكرة التي يراد إيصالها إلينا هو أن هؤلاء قد فشلوا بصورة ما أو بأخرى في فهم المعنى اللغوي الصحيح للفظة Science في الإنكليزية (أو في اللاتينية أو الألمانية)؟ هذا يبدو أمرا بعيد الاحتمال.

قلت: كل هذا العجن أيها الكرام نلخصه بأن نقول: إن هذا الذي قرره روز إنما هو اصطلاحه هو للفظة Science وليس معنى اصطلاحيا متفقا عليه بين الفلاسفة، ولا هو المعنى اللغوي الجاري عليه استعمال الناس! جملة لا تجاوز السطرين، نوجز بها صفحة كاملة من شقشقة الفلاسفة، إن كان فيها ما يستحق أن يوجز أصلا! بل والبحث كله يوجز في أقل من هذا، بأن يقال: ليس عند الفلاسفة اتفاق على تعريف واحد للعلم حتى يمنعوا أصحاب التصميم الذكي من أن يدخلوا نظرياتهم في مسمى العلم Science! فتأمل كيف يملأ الفلاسفة أفواههم بالماء من غير أن يفيدوك بشيء ذي بال أصلا، مع فتح أبواب الفتنة والإجمال والضلالة والجهالة والسفسطة من كل صنف ولون فيما يكتبون، وقل الحمد لله الذي عافانا مما ابتلاهم به، وفضلنا على كثير ممن خلق تفضيلا!

الجزء التاسع

قال بلانتينغا [23]:

---

[23] *But even if it were true by definition that a scientific hypothesis could involve no reference to God, nothing of much interest would follow. The Augustines and Kuypers of this world would then be obliged to concede that they had made a mistake: but the mistake would be no more than a verbal mistake. They would have to concede that they can't properly use the term 'science' in stating their view or asking their question; they would have to use some other term, such as 'sience' (pronounced like 'science'); the definition of 'sience' results from that of 'science' by deleting from the latter the clause proscribing hypotheses that include reference to God (i.e., by removing from the definition of 'science' Ruse seems to be endorsing, the clause according to which science deals only with what is natural). Their mistake would not be in what they proposed to say, but rather in how they proposed to say it.*

The real question, I think, lies in a quite different direction. The term 'science' denotes an important human activity. It is difficult or impossible to give (informative) necessary and sufficient conditions for this activity; it is not possible to say just where science ends and something else (common-sense knowledge, metaphysics, epistemology, religion) begins. However, we can describe paradigms of science, and we can say informative things about what usually or often characterizes science. Thus, for example, it is characteristic of this activity to involve observation and experiments (sometimes 'thought experiments' as opposed to experiments actually carried out). And often there will be a reference to something described (or named) as a law, although it isn't part of the activity in

ولكن حتى إن كان صحيحا بمقتضى التعريف أن الفرضية العلمية Scientific Hypothesis يمكن ألا يكون فيها أي إشارة إلى الإله، فلا يترتب على ذلك كبير شيء. فكل من يقول بقول أوغسطين وكويبر في هذا العالم، سيكون عليهم إذن أن يعترفوا بأنهم قد ارتكبوا غلطا ما، ولكنه غلط لا يربو على أن يكون من قبيل المخالفة اللفظية لا غير. سيكون عليهم أن

---

question to insist that this 'law' is more than a regularity. It is also characteristic of such a paradigm that it makes testable predictions. This is a feature of a paradigmatic instance of the beast in question, but of course not necessarily a feature of every example (and elements not displaying this feature -- McMullin's Principle of Indifference, for example -- might be deeply involved in science as a backdrop, a constant contextual background, a constant assumption). Consider, for example, the superstring theory put forth by Schwarz and Green in the early eighties. This theory apparently works only in 10 dimensions; so if it is true, there is a question: what has happened to the other six? "The other dimensions are presumed to be curled up on a scale of the Planck length (10 exp -33 cm.) -- so small we will never be able to examine them with our microscopes or particle accelerators, no matter how hard we try."

(………) And now the question is this. Should Christians carry on this enterprise from a Christian perspective? Is this enterprise such that religious or theological perspective is relevant to it? We won't get an answer to this question from a mere definition of the word 'science'; an answer will require familiarity with the activity, and the discernment necessary to seeing what is characteristic of it. So an answer will involve substantive questions about the nature of science, our own nature, and the nature of the world in which we live.

يعترفوا بأنهم ليس لهم أن يستعملوا لفظة science في تقريرهم ما يرون أو في طرحهم أسئلتهم، بل سيكون عليهم أن يستعملوا لفظة أخرى، كلفظة Sience (المشابهة للفظة Science في النطق): فتعريف Sience إذن يكون ناشئا عن حذف الفقرة التي تمنع أي فرضية تحتوي على إشارة إلى الإله، من تعريف Science (أي بحذف الجزء الذي يقصر العلم على ما هو طبيعي، من التعريف الذي يتبناه رووز). وإذن فغلطهم لن يكون في نفس ما يريدون أن يقولوه، ولكن في الكيفية التي طرحوه بها.

فالسؤال الحقيقي، فيما أرى، يقع في جهة مغايرة تماما. فإن المصطلح Science يعبر عن نشاط بشري مهم. فمن الصعب أو الممتنع أن نعطي شروطا (معلِمة) ضرورية وكافية لذلك النشاط، فإنه ليس من الممكن أن نقرر أين ينتهي العلم ويبدأ غيره (كالمعارف الحدسية، والميتافيزيقا، والإبستمولوجيا، والدين). ولكن، يمكننا أن نصف بارادايمات معينة للعلم، ويمكن أن نقرر أمورا مفيدة معرفيا بشأن ما يميز العلم عادة. فمثلا، مما يمتاز به هذا النشاط أنه يشتمل على المشاهدة والتجريب (والتجارب الذهنية كذلك أحيانا، في مقابل التجارب الفعلية). وعادة ما يكون هنالك استناد إلى ما يوصف أو يسمى بالقانون، وإن لم يكن داخلا تحت ذلك النشاط أن يصر بعضهم على عد القانون شيئا أكثر من مجرد النظامية المشاهدة. ومن مزايا ذلك البارادايم كذلك أنه يفيد بتنبؤات قابلة للاختبار. هذا معلم بارادايمي من معالم ذلك الوحش الذي هو محل السؤال، ولكنه بالطبع ليس معلما ضروريا في كل مثال من أمثلته (والعناصر التي لا يظهر فيها هذا المعلم - كمبدأ عدم الاكتراث لماكولين على سبيل المثل - يمكن أن تدخل في العلم دخولا عميقا على أنها خلفية فكرية أو سياق دائم ومسلمة مطردة). خذ على سبيل المثل، نظرية الأوتار الفائقة التي وضعها شوارز وغرين في مستهل

الثمانينات. هذه النظرية فيما يبدو، إنما تعمل في أبعاد عشرة، فإن صحت، فسيبقى لدينا السؤال: ما الذي حصل للستة المتبقية؟"

هنا ينقل بلانتينغا عن الكوزمولوجي الأمريكي "مارك ديفيس" قوله: "تلك الأبعاد الأخرى يفترض فيها أنها ملوية على بعضها في مقياس مسافة بلانك (أي فيما يقل امتداده عن العشرة للأس سالب ثلاثة وثلاثين سنتيمترا)، فهي ضئيلة إلى حد أننا لن نتمكن أبدا من فحصها بميكروسكوباتنا أو معجلات الجسيمات عندنا، مهما حاولنا ذلك".

ثم يواصل بلانتينغا فيقول: "وإذن فبوسعنا أن نقرر قدرا لا بأس به من الصفات لهذا النشاط البشري، وأنه نشاط له قيمة ونفع عظيم." ثم يمضي في الثناء البالغ على فوائد العلم الطبيعي ومنافعه، ليقول بعد: "والآن فالسؤال هو: هل يتعين على النصارى أن يواصلوا في هذا النشاط من وجهة النظر النصرانية؟ هل للوجهة الدينية والثيولوجية اتصال ما بتلك الصنعة؟ لن نحصل على جواب لهذا السؤال من مجرد تعريف لكلمة "science"، بل ينبغي لتحصيل الجواب من معرفة مباشرة بهذا النشاط، ومن تلك الدقة الضرورية لرؤية أهم ما يميزه. وإذن فسيشتمل الجواب ولابد، على أسئلة كثيفة بشأن طبيعة العلم، طبيعتنا نحن، وطبيعة العالم الذي نعيش فيه."

قلت: يواصل بلانتينغا الرد على مايكل رووز بتقرير أن للباحث النصراني أن يُعرف العلم الطبيعي Science على أيما نحو يروق له، وإذن فليس في تعريف معين قد اختاره بعضهم حجة عليه إن فعل ذلك. فحتى على أسوأ الأحوال، فإن غايته إن فعل ذلك أن يكون غالطا في تسمية ما يأتي به من النظريات باسم Science على تعريف رووز، وهو ما لا يقتضي بطلان

تلك النظريات في نفسها، كما هو واضح، إذ ليس في مجرد التعريف حجة في نفس الأمر كما تقدم. ولا شك أنه محق في ذلك، ومن باب أولى أن يقال إنه حتى وإن لم تدخل الدعوى المعرفية تحت اسم العلم التجريبي Science فلا يقتضي ذلك خروجها من مسمى العلم ومن حقيقة المعرفة بالكلية كما هو واضح. ولكن قد تقدم أنه إنما يريد أن يضفي المشروعية والمعقولية في إطار اسم العلم Science على نظريات التصميميين وغيرهم من النصارى، زاعما أنه بذلك يحارب الطبيعية المنهجية التي كانت هي السبب في المنع من دخول تلك النظريات تحت اسم العلم. فقضية الرجل مدارها في الحقيقة على اسم "العلم" والمنزلة الاجتماعية التي ينزلها أصحابه بين الناس، لا غير. فهو ينافح عن استحقاق أصحابه من منظري النصارى لتلك المنزلة، وإن لم يوافقهم بعض الفلاسفة في تسمية ما بين أيديهم بالعلم. هذا هو غاية المرام لديه على أي حال: أن يستحق القوم تلك المنزلة التي من أجلها تكلفوا ما تكلفوا من بحث ونظر وكتابة ونشر! وقد مر أن الرجل لا يمانع من التلبس بكل سفسطة من أجل ذلك، حتى إنه لم يتورع عن إسقاط مطلب التفريق بين العلم الصادق True Science والعلم الزائف / Non-Science Pseudoscience من مبدأ الأمر، طمعا في قطع الطريق على مخالفيه، والله المستعان!

تأمل إذ يقول: " فالسؤال الحقيقي، فيما أرى، يقع في جهة مغايرة تماما. فإن المصطلح Science يعبر عن نشاط بشري مهم. فمن الصعب أو الممتنع أن نعطي شروطا (معلِمة) ضرورية وكافية لذلك النشاط، فإنه ليس من الممكن أن نقرر أين ينتهي العلم ويبدأ غيره (كالمعارف الحدسية، والميتافيزيقا، والإبستمولوجيا، والدين). ولكن، يمكننا أن نصف بارادايمات معينة للعلم، ويمكن أن نقرر أمورا مفيدة معرفيا بشأن ما يميز العلم عادة. "

قلت: يا رجل اتق الله! من الممتنع أن نعطي شروطا معلمة ضرورية وكافية لنشاط البحث العلمي الطبيعي؟؟ هكذا؟؟ سبحان الله! فكيف إذن يعرف الباحثون ما به يكون البحث مستحقا للنشر الأكاديمي أو غير مستحق؟ بأي شيء يقبلون ما يقبلون ويردون ما يردون؟؟ وكيف يميزون الدخلاء عليهم ليتركوا بضاعتهم وليصدوا الناس عنها؟؟ وهل ما عندهم من منهج في ذلك حق صحيح موضوعيا، أم غير صحيح، والواجب عليهم إصلاحه؟ يا بروفيسور، العلم الذي لا يعرف له منهج صارم يضبطه، ولا حدّ يحده ولا نهاية ينتهي إليها موضوعه، ليس بعلم أصلا!

يبدو الآن واضحا أن الرجل قد وجد لنفسه جُنة في كلام فلاسفة ما بعد الوضعية، فلاسفة العلم في النصف الثاني من القرن العشرين وما بعده، إذ جنحوا إلى ما يقتضي نسبية الحقيقة العلمية، بالنظر إلى اجتماع حقيقتين في أذهانهم، حقيقة أن الممارسة الفعلية للتنظير الطبيعي في الأكاديمية الغربية قد بلغ بها الغرق في الطبيعية المنهجية والسفسطة اليونانية إلى حد أن استقرت فيها نظريات كبرى لا علاقة لها بالحس والمشاهدة إلا بالتأويل المتعسف غير القابل للإثبات ولا النفي، وحقيقة أن ما يقال له العالم الطبيعي Scientist قد بلغ في القرنين الأخيرين خاصة أن صار له من السيادة والعلو الأكاديميين في المجتمع الغربي ما كان من نصيب الفيلسوف الصرف Philosopher فيما مضى، لا سيما إذا نظرنا إلى علو الوضعية المنطقية والنزعة العلموية التي تعاظمت معها في مطلع القرن العشرين، لا سيما في خلال وعلى أعقاب الحربين العالمية الأولى والثانية في أوروبا وأمريكا. ففي ظل هذا الضغط الاجتماعي الكاسح، ما كان من المتصور لفيلسوف متخصص (منخرط في الأكاديميات الفلسفية المتخصصة، وليس في أكاديميات ما بات يقال له العلم الطبيعي Science) أن يعلو بين الناس

بتأصيل كلي توضع به القيود والحدود الصارمة على جميع المشتغلين في العلوم الطبيعية خاصة والتجريبية عامة، على نحو يطالبون معه بإسقاط نظريات كبرى لها من السلطان والنفوذ الأكاديميين ما لها، كنظرية داروين مثلا! لذا أصبحت مهمة الفيلسوف، في النصف الثاني من القرن العشرين، فيما يتعلق بالعلوم الطبيعية، أن يتتبع تاريخها تتبع التلميذ الشغوف الذي يرجو أن يفهم كيف جادت قرائح أولئك العباقرة الكبار بتلك الدرر، لماذا يتحولون من نظرية إلى نظرية، وما الذي يقوي لديهم الميل إلى قبول بارادايم جديد ما كانوا ليقبلوه سلفا، أو يحملوه محمل الجد، ما هي القوى الاجتماعية Sociological influences التي تحرك تلك الأكاديميات تاريخيا، وما معالم المنهج التجريبي وكيف تغيرت عبر القرون وإلى أي شيء صارت اليوم؟ هذه ولا شك أسئلة مهمة، ولكن بدون أن يكون لدى الباحث فيها أساس منهجي كلي يتناولها من خلاله تناولا نقديا بناء، يفيد به الناس في التفريق بين ما هو علم وما ليس بعلم، وما يجوز اعتقاده وما لا يجوز، فإنه يغرق لا محالة، كما غرق هؤلاء، في نسبية الحقيقة، حتى يصبح العلم الطبيعي نشاطا لا زمام له ولا خطام، من حيث المعياريةُ الموضوعية، والضوابط والشروط المنهجية، التي يسميها بلاتينغا هنا بالشروط الضرورية الكافية! وهذا هو الفساد بعينه!! عندما ينتهي الفيلسوف إلى أن يقول: ليس من الممكن أن نحدد أين ينتهي "العلم" (هكذا) وأين يبدأ غيره، فهذا إن لم يكن اعترافا بالنقص والخلل الموجب للإصلاح، فإنه يصبح، بالضرورة، تقريرا لتلك النسبية التي أصيب بها فلاسفة ما بعد الوضعية كما تقدم! نعم قد يكون المعيار الموضوعي الذي ننتهي إليه بحيث تكون بعض القضايا فيه أظهر من بعض، وبعض النظريات والمباحث دخولها تحته أوضح وأجلى من بعضها الآخر، ويكون من المتصور القطع فيه ببعض الأحكام، وتغليب الظن في بعضها، وربما التوقف في

بعضها الآخر، وهذا مما يكتنف الناظر البشري لا محالة، وهو أمر لا مفر له منه، لا سيما في أكاديمية قد توسعت وتشعبت موضوعات البحث والنظر فيها على نحو ما وقع للأكاديمية الطبيعية الغربية! ولكن أن يُخرج من تلك المعمعة بأن يقال: ليس من الممكن وضع معيار موضوعي لمنهج النظر في الطبيعيات والتجريبيات، بحيث يتعين على الجميع أن يلتزموا به، مبدئيا، فهذا هو محض الخذلان! والرجل يناقض نفسه في الحقيقة، وكما بينت سلفا، عندما يسلك ذلك المسلك النسباني الفاسد، ثم يرجع، مع ذلك، ليقول، إن ثمة شيئا يقال له إجمالا "العلم النصراني"، بحيث يتعين على الباحث النصراني في الطبيعيات والتجريبيات أن يخرط في نشاطه العلمي وهو ملتزم به متقيد به! كيف يجتمع لك أن ترى أنه من غير المتصور وضع "شروط معلمة ملزمة وكافية" للممارسة المقبولة لهذا النشاط البشري، وأن ترى في نفس الوقت، أن من كانت عقيدته كعقيدتك، التي يفترض أنك تراها هي الحق المطابق للواقع، وإلا ما بقيت عليها، فالمتعين عليه أن يقبل كذا ويرد كذا من النظريات، وأن يستند إلى تلك العقيدة، ينطلق منها ويحاكم النظريات إليها؟؟ هذا تناقض ظاهر! بل إن مجرد قوله إننا غايتنا مع العلوم الطبيعية، من حيث الضبط والتقييد، أن "نقرر أمورا مفيدة معرفيا بشأن ما يميز العلم عادة"، هذا هو به متناقض، يهدم ما قرره قبل ذلك بسطرين، إذ إن مجرد امتياز العلم عن غيره، لا يكون عند العقلاء حقا مطابقا للواقع، إلا بقيام تلك الشروط الضرورية الكافية في نفوسهم، التي تقدم منه تقرير امتناع الوصول إليها!

يقول: " فمثلا، مما يمتاز به هذا النشاط أنه يشتمل على المشاهدة والتجريب (والتجارب الذهنية كذلك أحيانا، في مقابل التجارب الفعلية)." قلت: صحيح، وكذلك يقال في التنجيم Astrology وفيما يقال له علم تأثير الأعداد Numerology والعلاج بالماء Homeopathy

والفونغ شوي الصينية وغير ذلك مما اتفق الناس على عده من جملة العلوم الزائفة Pseudoscience! فأين ما به قام ذلك الفرقان في نفسك أنت؟ ثم يقول: " وعادة ما يكون هنالك استناد إلى ما يوصف أو يسمى بالقانون، وإن لم يكن داخلا تحت ذلك النشاط أن يصر بعضهم على عد القانون شيئا أكثر من مجرد النظامية المشاهدة. " قلت: سبحان الله! لماذا لا يدخل تحت ذلك النشاط هذا الذي تقول؟ ألست قد صرحت قبل قليل بأنه من المتعذر أو الممتنع البتة تقرير أين ينتهي العلم وتبدأ الميتافيزيقا؟ فهل تطالب الناس الآن بأن يقبلوا منك مذهبا قد حكمت عليه سلفا بامتناع أن يكون له أساس منهجي في نفس أحدهم يقف عليه؟؟ ما معنى أن "نقرر أمورا معرفية بشأن ما يميز العلم عادة" وما فائدة ذلك وما ثمرته إن لم يكن ملزما لجميع المشتغلين بالعلم ولو على سبيل الإجمال؟ سبحان الله!

قوله: " ومن مزايا ذلك البارادايم كذلك أنه يفيد بتنبؤات قابلة للاختبار." قلت: ليس هذا معيارا للعلم الصحيح على التحقيق، إذ لا يتعذر على أي مخرف أن يصطنع لنفسه نظرية غيبية بشأن العالم بكليته، بحيث إذا سئل عن قابلية الاختبار لصحة ما يقول، جاءك بمشاهدات يتأولها على ما يوافق دعواه! وهذا مما أوقع فلاسفة ما بعد الوضعية في تلك النسبية التي جنحت أنت لمتابعتهم عليها! سآتيك الآن بمثال على ما أقول، من نفس تلك النظريات التي تنتصر لها، تريد أن تسميها بالعلم النصراني Christian Science! الموتور الفلاجيلي المشهور Flagellum Motor، تلك الآلة الجزيئية الدقيقة داخل الخلية الحية، التي استدل بها مايكل بيهي على ضرورة إضافة آلية التصميم الذكي إلى الأسطورة الداروينية، هذا الموتور زعمه بيهي هو المشاهدة المكذبة لزعم داروين أن آليتي الطفرة والانتخاب الطبيعي كافيتان في تفسير نشأة جميع الأنواع الحية والنظم الحيوية "المعقدة" على الأرض، فقابله الدراونة بتأويل دارويني

صرف لتلك الآلة، جروا فيه على نفس الطريقة التي اتبعها داروين نفسه في تقرير أسطورة نشوء العين البشرية وترقيها عبر التاريخ، وقبلها بيهي منه ولم يعترض عليها! جاؤوا بأمثلة لآلات جزيئية دقيقة أخرى مشابهة، تقوم بوظائف أخرى داخل الخلية، مع كونها تبدو "أبسط" في تكوينها من الموتور المذكور، ثم قالوا إنه لابد وأنه ترقى منها بطفرة ما، وانتهت القضية! فمن من الفريقين في ذلك النزاع البائس بين القوم، يصح أن يقال إنه قد حظي بالتنبؤ القابل للاختبار؟؟ لا حقيقة لقابلية الاختبار في أي من النظريتين أصلا، وليستا من العلم التجريبي في قليل ولا كثير! وإنما هما أسطورتان غيبيتان، إحداهما للطبيعيين الأقحاح، فيما يستكملون به بناء دينهم وعقيدتهم الدهرية الطبيعية في ذلك الباب الذي أفادهم فيه داروين بما كانوا يفقدونه من قبل، والأخرى لثلة من النصارى المفتونين بهم، أبوا إلا أن يدخلوا على أسطورة داروين المذكورة تعديلا يظهرها في مظهر الاعتقاد المقبول دينيا عند أهل الكتاب! أسطورتان تتفقان في القيام على الطبيعية المنهجية المحضة التي زعم البروفيسور أنه في صراع معها! فأين معيار العلم الموضوعي الذي يفترض في الباحث النصراني أن يقبل به ويرد ما يداخل عقيدته الغيبية في هذا الباب وغيره؟ لا معيار ولا شيء إلا المزاج والهوى!

الرجل يدرك أن ما قرره في مسألة التنبؤ القابل للاختبار هذه كلام لا يسمن ولا يغني من جوع، ولهذا تراه يقول:

" هذا معلم بارادايمي من معالم ذلك الوحش الذي هو محل السؤال، ولكنه بالطبع ليس معلما ضروريا في كل مثال من أمثلته (والعناصر التي لا يظهر فيها هذا المعلم – كمبدأ عدم الاكتراث لماكمولين على سبيل المثل – يمكن أن تدخل في العلم دخولا عميقا على أنها خلفية فكرية أو سياق دائم ومسلمة مطردة). خذ على سبيل المثل، نظرية الأوتار الفائقة التي وضعها

شوارز وغرين في مستهل الثمانينات. هذه النظرية فيما يبدو، إنما تعمل في أبعاد عشرة، فإن صحت، فسيبقى لدينا السؤال: ما الذي حصل للستة المتبقية؟"

قلت: ما معنى "معلم بارادايمي" هذه؟ لا معنى لها عند المحاققة! فهو لا يمنع من قيام ما يقبل تسميته بالعلم Science على مسلمات ميتافيزيقية صرفة لا أساس لها إلا الطبيعية المنهجية والطريقة اليونانية في التنظير التحكمي الباهت على شرط الوجود!! مبدأ عدم الاكتراث هذا ليس إلا اسما وضعه الفيلسوف الأمريكي إيرنان مكمولن Ernan McMullin، الذي كان زميلا لبلانتينغا في جامعة نوتردام، في ورقة بحثية له نشرت في عام 1993 الميلادي بعنوان Indifference Principle and Anthropic Principle in Cosmology، يعبر به عن اعتقاد ميتافيزيقي طبيعي صرف مفاده عدم وجود غائية Teleology فيما وراء نظام العالم، وإنما هو نظام اتفاقي تتجذر الفوضى الوجودية المحضة في أصله، إن كان له أصل نشأ منه! ففي البحث المذكور، يتتبع مكمولن ذلك المبدأ تاريخيا، وغيره من المبادئ الكلية التي لم تزل تظهر في الكوزمولوجيا تحكما بالهوى، بداية من كوزمولوجيا اليونانيين القدماء، ووصولا إلى كوزمولوجيا الانفجار الكبير العصرية، مقررا مسائل لو تدبرها بلانتينغا حق التدبر، لانتهى إلى الحق الذي لا محيد عنه، في الحكم على مبدأ النظر في الكون بكليته تحت ما يقال له "الكوزمولوجيا"، والله المستعان!

قال ماكمولن في مستهل البحث المذكور:

"تزايد الاهتمام في السنوات الأخيرة بالدور الفعال الذي يلعبه ما يقال له المبدأ واسع المجال Principle في العلوم الطبيعية، وبخاصة في الفيزياء. تلك المبادئ تخدم بتوجيه المطالب البحثية Inquiry، بالإشارة إلى الجهات التي يرجى العثور فيها على نظريات ناجحة إجمالا. وهي

كذلك، وعلى عبارة طولمين الموفقة، مبادئ للنظام الطبيعي natural order تحدد بطريق بالغ العموم، الحالة التي عليها العالم، وما أنواع النظام التي نتوقع أن نجدها فيه. نجدها أم نفرضها فرضا؟ في كتابه "الأسس الميتافيزيقية للعلم الطبيعي"، أعطى كانط عبارة تذكارية عن واحد من الأجوبة لذلك السؤال الذي لم تزل الفلاسفة تتنازعه إلى اليوم. فإن تلك السلطة العجيبة التي تعطى لأمثال تلك المبادئ، وموقفها الصارم في مواجهة ما قد يطرأ من شذوذات تخالفها، تفضي أحيانا إلى تسميتها بالمبادئ الفلسفية أو الميتافيزيقية. وفي الحقيقة فإن مستندها المعرفي لا يبدو أنه مجرد الاستقراء. وإنما يستند فيها، على الأقل ولو جزئيا، للحدس، أي أنها تقوم على فرض كونها صحيحة بنفسها Self-evident. فعلى غرار مبادئ العلم الأرسطية Principles of Aristotelian Science، فإن المتوقع من المرء أن يرى ضرورة صحتها بمجرد أن يفهمها، وأن يحكم بأن انخرامها غير مقبول مبدئيا."

قلت: بل تفرض فرضا قطعا، لا أنها توجد أو تكتشف! وهذا واضح، وهم يعترفون به كما ترى! وإلا فأي استقراء هذا الذي يمكن أن يفصل به فيما إذا كان الأصل في العالم العشواء الوجودية المحضة، أو الغائية الإلهية السابغة وراء كل حادث وكل مخلوق؟؟ وأي استقراء هذا الذي يمكن أن يكشف لنا ما إذا كانت جميع جهات الكون مماثلة لهذا الشطر الضئيل منه الذي هو موضوع عادتنا البشرية، في الكيفيات والحقائق والطبائع، أم أن منها ما يخالفه في نظامه وسننه الكونية وطبائع المادة فيه؟ الاستقراء لا يفيد بعلم ولا معرفة إلا في نطاق العادة، أي ما يدخل تحت العادة بالفعل أو بالقوة، مكانا وزمانا! أما تلك الأنحاء من هذا الكون التي نجزم بأننا لا رجاء لنا في الوصول إليها في يوم من الأيام، ولا في الاطلاع عليها بطريق من طرق الحس البتة، حتى على دين الدهرية الطبيعيين الغلاة الذين درجوا على

التعامل مع "الكون" بكليته وكأنما يتفحصون فأرا في معمل من معاملهم، هذه بأي سلطان يدعي الناظر اكتساب معرفة جديدة فيها بوجه من الوجوه، بأيما نوع من أنواع القياس نجم في قريحته أيا ما كان؟ ليس هذا استقراء ولا قريبا منه البتة، وإنما هي عادة المدرسة اليونانية القديمة في استحداث النظريات على سبيل الإطلاق الكوني على شرط الوجود، حتى يزعم لنفسه أنه قد جاء بمعرفة كاشفة لجميع الموجودات، تجلسه مجلس النبي صاحب الوحي، الذي يأتي جماهير الناس بما لا وصول لهم إليه إلا من طريقه! لابد من التسليم بجواز قياس كل ما في الوجود على ما في الحس والعادة من أنواع الموجودات، في أيما باب يريد الفيلسوف أن يفتي الناس فيه، لأنه إن لم يسلم بذلك ويسلم له الناس، فسيضطر اضطرارا للإحجام عن الكلام فيما وراء العادة البشرية، فلا يزاحم فيها الأنبياء وأتباعهم، بل يسلم للمرسلين وينقاد لهم كما انقادت جماهير الناس! وهو إنما يتفلسف من أجل أن يصبح رأسا للناس متبوعا فيهم، لا ليكون ذنبا تابعا منقادا كما هو الشأن في أتباع الرسل! فإن لم تمكنه آلته من ذلك فلا طمع له فيها أصلا، إذ لا قيام لها بالمطلوب! من هنا جاز وساغ عند القوم أن يجلس الفيلسوف متكئا على أريكته، ثم يتأمل في عقله فيقول: لابد أن تكون جميع موجودات العالم بحيث تتركب وتتألف من كذا وكذا، وبحيث يكون نظامها على نحو كذا وكذا مما نرى نظيره في عادتنا، وأن تكون كيفيتها وحقيقتها بل والسبب في نفس وجودها في الأعيان، هو كذا وكذا! فإن سئل من أين لك بهذا، قال: قد استقرأت الموجودات من حولي فوجدتها على هذه الكيفية التي أقول، فطردت الاستقراء وقلت: لا أتوقع إن ذهبت في أيما جهة من جهات الكون، ولأيما مسافة قطعتها، إلا أن أجد نظير ذلك! فإذا أسقطت المعارف الفطرية في نفس الإنسان، التي توجب، فيما توجب، أن يكون للسماء حد تنتهي عنده، بحيث توجد ذات الباري جل في

علاه من فوقها، وتجوّز أن يكون له في هذا العالم مخلوقات شتى لا دخول لها تحت ما اعتدناه من نظام الأسباب وسنن الطبائع، وإذا أسقطت مع هذا، ما جاء به الرسل من خبر الغيب، سهل، إذن، أن تدعي أن هذا القياس الذي جئت به اعتباطا وتحكما بالهوى، إنما هو مسلمة صحيحة بنفسها Self-Evident لا تفتقر إلى برهان، على أساس أنك إن لم تسلم بها، لم يجز لك أن تضع النظريات بحيث تتناول جميع ما في الغيب المطلق كما تتناول ما في الشهادة سواء بسواء! ليست نظرية الجوهر والعرض اليونانية، مثلا، التي تقول بأن جميع الموجودات في العالم لابد وأنها مركبة من عنصرين وجوديين، أحدهما هو الجوهر والآخر هو العرض، ليست تلك النظرية، إن سلمنا بمعقولية القياس التركيبي الذي تنطوي عليه، مما يثبت اطراده المطلق في العقل وجوبا، بحيث لا يكون الموجود الذي يقال له ممكن Contingent being مشروطا وجوده، أيا ما كان، بالدخول تحتها كما اعتقده الفلاسفة عبر قرون خلت! بل وليس هو مما يثبت بأدلة كسبية من الحس أو من السمع! لا يلزم أن يكون كل موجود حادث، مركبا من كذا وكذا، بل لا يلزم أن يكون مخلوقا بالتركيب أصلا، وإن كان قابلا للتفكيك إلى أجزاء دقيقة! نحن البشر من نضطر عادة إن أردنا أن نخلق شيئا ما، إلى أن نخلقه بالتركيب والجمع والتأليف، لأننا لم نخلق مادة العالم التي نصنع منها ما نصنع، وإنما جئنا فوجدناها قد سخرت لنا تسخيرا بأصل خلقتها! أما أن يقال إن كل موجود حادث، ما كان ليحدث أصلا لولا أن تألف من جواهر وأعراض، أيا ما كانت حقائقها، فهذا محض تحكم لا برهان له في العقل ولا في الحس ولا في السمع! ولا يوهمنك مماحك بأن مسألة قيام الأعراض بالجواهر هذه مسألة بديهية ضرورية، كما سلكه المتكلمون ولم يزالوا، من فرط تعويلهم في عقائدهم على تلك الخرافة! فمن عادتهم أنهم يلبسون على الناس، يزعمون أن المقصود بتركب العرض في

الجوهر، إنما هو مطلق اتصاف الشيء بالصفة، فإذا كان الشيء لا يتصور له وجود أصلا حتى يكون موصوفا بصفة ما، فإنه يصبح من الواجب عقلا أن ينسب ذلك "التركب" إلى كل موجود، بموجب نفس معنى الوجود! وقد بينت في غير هذا الموضع أن هذا من التلبيس العريض، إذ الصفة إنما هي معنى كلي قائم بالذهن، يرتبط بموجودات أو أحوال أو طبائع في الأعيان بحيث إذا وجدت، استحق الموجود بها معنى الصفة ودخل تحت اشتراكه المعنوي بوجه ما.

فأنت إذا قلت: فلان قوي، كان وصفه بالقوة قائما بذهنك أنت لا بذاته هو، وإنما قامت به موجبات ذلك الوصف، أو للدقة: موجبات دخوله هو بعينه تحت هذا المعنى الكلي في ذهنك (معنى القوة)! فالصفة من حيث هي، ليست موجودا عينيا يقوم بالموجود الموصوف بها، كقيام الفرع على أصله أو المبنى على قاعدته أو الشجرة على جذعها أو نحو ذلك! ولكن على طريقة اليونانيين في بنائهم تلك النظرية وما شاكلها، فإن العلاقة بين الصفة والموصوف، بهذا الإطلاق التجريدي، تقاس في حقيقتها الوجودية، على العلاقة بين شيئين أو عنصرين يتركب منهما الشيء، بحيث يكون ذلك التركب هو "التفسير العلمي" لمبدأ اتصاف ذلك الشيء بالوجود في الخارج من الأساس! وهذا تحكم ظاهر! ولهذا اختلفوا وحاصوا حيصة كبرى في طبيعة ما يقال له "العرض"، وكيف أنه لا يوجد متعينا إلا قائما بالجوهر، حالا فيه، وهل يتصور جوهر متجرد من جميع الأعراض أم لا .. إلخ! مع أن نفس معنى الوجود إنما هو صفة لكل موجود، فنفس هذه العلاقة، علاقة التركب بين الجوهر والعرض، لنا أن نسأل، هذه موجودة أم غير موجودة؟ إن وصفت بالوجود، وكانت حقيقة الصفة، أي صفة، أنها عرض، لزم أن يكون تركب أي عرض (بإطلاق) بأي جوهر (بإطلاق) مشروطا بوجود عرض ما

حتى يوجد، وهو دور، من تفسير الشيء بنفسه، أو جعله شرطا لوجود نفسه، كأن يقال، مثلا، إن السبب في وجود جنس الأسباب هو كذا وكذا! فالنظرية في الحقيقة تعاني من مغالطات كبرى في العلاقة بين ما في الأذهان وما في الأعيان، إلى جانب التحكم بالقياس في تفسير وجود الموجودات بإطلاق (وهو ما خصصه المتكلمون بجنس الموجودات الحادثة، ليصيروه مقدمة في برهان الحدوث)، فمن غير المقبول أن يقال إن الإطلاق الذي جاءت به إطلاق بديهي، بالنظر إلى أنه ما من موجود إلا وله صفات تميزه عن غيره بالضرورة! والقصد أن الفلاسفة لما تحكموا بأقيستهم فأطلقوها على شرط الوجود، بمعنى ألا توجد هذه الصفة أو لا يتحقق هذا المعنى، أي معنى كلي، في موجود البتة، إلا وجب أن تكون كيفية ذلك وتحقيقه على نحو كذا وكذا، لزم أن تنزل بعض نظرياتهم على الأقل، منزلة الحقائق البديهية الضرورية التي لا قيام للغة بوظيفتها دون التسليم بها! حتى المبدأ الكوزمولوجي القائل بأن الكون متماثل متساو في جميع أنحائه في كيفيات موجوداته، لو سألتهم لقالوا إنه حقيقة حدسية لا طريق لتكذيبها أو إبطالها، وهي ما نتوقع أن يكون عليه العالم كما دل عليه الحس والعادة والاستقراء والحدس .. إلخ!! ولكن واقع الأمر كما تقدم أن المسألة ليست إلا قياسا تحكميا يطلقونه بالهوى، من أجل أن يقوم لهم أساس عقلي تنبني عليه نظرياتهم الكونية! هي حق لا لدليل يدل عليها، ولكن لأن مبدأ التفلسف في هذا الباب لا يتصور له قيام إلا عليها! ولهذا لا تجد مجالا من مجالات التنظير المنسوب إلى العلم الطبيعي والتجريبي تفشو فيه تلك "المبادئ" المزعومة كما في الكوزمولوجيا أو ما يسمى "بعلم الكونيات"، فأنت من الأساس لا يستقيم لك أن تتخذ من الكون بكليته، من أوله إلى آخره، موضوعا للتنظير الطبيعي، حتى

تصطحب جملة من تلك الدعاوى الميتافيزيقية اليونانية التحكمية تصيرها من قبيل المبادئ الأساسية التي لا يتطرق إليها التكذيب أو التشكيك!

وبعيدا عن الكوزمولوجيا، فالحق أنه ليس كل ما يطلق عليه اسم مبدأ Principle في الفيزياء يكون من هذا الصنف، بل بعضها يستند فعلا إلى الحدس والبداهة، كمبدأ السببية مثلا Principle of Causality، وبعضها يقوم على استقراء العادة، مع تفصيل ضروري، كمبدأ المحلية السببية Principle of Locality الذي ينص على أن الشيء لا يتأثر سببيا بشيء آخر تأثرا مباشرا، إلا أن يكون المؤثر في محيطه القريب Immediate vicinity. فمن الواضح ابتداء أن البداهة لا تضطر المرء للتسليم بصحة هذا المبدأ، كما هو الشأن في مبدأ السببية، إذ ليس من مانع عقلا من أن يوجد شيء بحيث يؤثر سببيا تأثيرا مباشرا في شيء آخر، دون أن يكونا متلامسين أو متجاورين أو بينهما وسيط ناقل للموجات كالمجال أو الأثير أو ما شاكلهما! وإنما الذي يمنع من ذلك هو العادة لا البداهة: عادتنا فيما نشهد من أنواع المؤثرات والمتأثرات. وإذن فليس هو بمبدأ على المعنى الميتافيزيقي المعتاد لهذه اللفظة عند الفيزيائيين، وإنما هو تقرير لدلالة استقراء العادة لا غير. فعندما يدعي أينشتاين، مثلا، أن الحادث المعين لا يجوز أن يكون سببا في حادث آخر، إن قدرنا أن كانت المسافة بينهما بحيث لا تصل الإشارة، أي إشارة، من أحدهما إلى الآخر إلا بسرعة تتجاوز سرعة الضوء، فهذا منه تحكم ميتافيزيقي في حقيقة السببية ومفهوم التسبب، يقصره نوعا، على انتقال الموجات بسرعة الضوء (تلك السرعة التي تحكمت النظرية كذلك في تثبيتها على المقدار c المعروف تثبيتا مطلقا غير مشروط)، نظرا لقصره مفهوم التزامن في النسبية الخاصة، ميتافيزيقيا، على التزامن النسبي المحسوس Relative Simultaneity، فلا يقال لحادث إنه مزامن لحادث آخر، إلا إن قدرنا أن وصلت أشعة

الضوء إلى عين الراصد لكل من الحادثين في نفس اللحظة. وقد بسطت الكلام في غير هذا الموضع في بيان فساد ذلك التحكم منه في مفهوم الزمان والتزامن معا، وفي مفهوم السرعة النسبية والسببية وغير ذلك من معان ملازمة له في التصور النسباني الأينشتايني. فالمحلية بهذا المعنى، إنما صيرها أينشتاين مبدأ ميتافيزيقيا ملزما لخدمة نظريته في الحقيقة. ولهذا نقول إن ما يقال له التداخل الكمومي quantum entanglement لا يكون خارقا للمحلية إلا على تعريف أينشتاين لها، أي إن تصورناه انتقالا لموجة ما بين جسيمين بسرعة تجاوز سرعة الضوء! وإلا فعلى التصور المجالي Quantum Field Paradigm/Regime لما يقال له الجسيم تحتالذري، سواء الإلكترون أو الفوتون أو غيرهما، فليست حقيقة ما يجري أنه انتقال للتأثير من جسيم موجود سلفا إلى جسيم مشابه ملازم له وجوديا، وإنما هو تأثير يقع في نفس اللحظة على مجال متصل (بما يجعله يظهر في آلة الرصد على هيئة الجسيم)، فمن المتصور (على الأقل في إطار الجواز العقلي، وفيما يبدو أن البارادايم المجالي يجيزه إجمالا) أن يظهر أثر ذلك على أيما مسافة يصل إليها امتداد نفس المجال، دون أن يكون في الأمر انتقال لموجة ما بالضرورة (فيما قيده أينشتاين بألا يتجاوز سرعة الضوء)!

والقصد أن من الضروري الاستفصال عن التعريف الذي يتخذه الفيزيائي لنفسه فيما يسميه بالمحلية قبل الحكم عليه، إذ ها أنت ترى كيف أن أينشتاين أحدث له حدا وقيدا لم يقل به من سبقوه، والقصد كذلك أن ما يسميه الفيزيائيون بالمبدأ Principle ليس كله على درجة واحدة في قوة الثبوت أو في سببه العقلي. ومع هذا، لا يمانع بلانتينغا من إنزال اسم العلم على أيما مبدأ يتفقون عليه في الأكاديمية الطبيعية، حتى مبدأ عدم الاكتراث هذا، لمصلحة أن

يظهر لروز في سياق الرد عليه، أن العلم الطبيعي فيه بالفعل ما لا يخضع للشرطين الذين ذكرهما في تعريفه، وإذن فليس له أن يفرضهما على الناس أصلا!

قال ماكمولن في البحث المذكور: "موضوعي هاهنا ليس هو القوة المعرفية لتلك المبادئ إجمالا، ولكن هو ظهور المزيد من المبادئ الجديدة في الكوزمولوجيا، أو على الأقل الجديدة جزئيا. فعلى سبيل الخلفية، استحضر معي لوهلة ما قد يعد أشهر مبدأ كوزمولوجي على الإطلاق. فعند دي كارت، كما عند أرسطو من قبله، كان وقوع التأثير عبر مسافات كبيرة action at a distance أمرا لا يتصور. فإن مبدأ التأثير بالاتصال Contact Action كان يوجب أن تكون الكواكب بحيث تحركها عوامل محركة ملاصقة لها، ككرات سماوية زجاجية عملاقة Spheres أو دوامات حملية vortices أو نحو ذلك. فلم يكن ثمة دليل مباشر direct evidence على وجود تلك العوامل المؤثرة، ولا أمكن أن تستمد منها أي تبعات إمبريقية معينة داعمة لفرض وجودها. ومع هذا لم يتردد فلاسفة الطبيعيات في نسبتها إلى الوجود." اهـ.

قلت: أولا قوله عن مبدأ التأثير بالاتصال هذا: "يعد أشهر مبدأ كوزمولوجي على الإطلاق" هذا غير مسلم، بل لعل أشهرها على الإطلاق هو المبدأ الذري Atomism وهو المبدأ القائل بأن جميع الموجودات لابد وأنها تتركب من عناصر أو جواهر متناهية الدقة، متماثلة في صفتها، مع كونها بدورها لا تتركب من شيء ولا تقبل التجزئة. إن مبدأ العنصر الأساسي Fundamental Element الذي يتركب منه كل شيء هذا، من أقدم الأقيسة الميتافيزيقية اليونانية التي طردت وأطلقت على شرط الوجود إطلاقا لا أساس له إلا التحكم بالهوى، ولم يزل إلى اليوم مسيطرا على أذهان الفلاسفة والطبائعيين على درجات متفاوتة كما هو معلوم!

فمجرد زعم الفيزيائيين الجزيئيين Particle Physicists أن ما يفعلونه في المصادم الهادروني في سيرن هو "اكتشاف لجسيمات أساسية جديدة" Discovery of new fundamental particles هذا يقوم قياما كليا على المبدأ الذري أو المذهب الذري، إذ لو لم يكن القوم مستصحبين لذلك المبدأ ابتداء، لجاز عندهم أن يكون تأويل ما يظهر لهم في تلك المصادمات هو أنهم يصنعون تلك الجسيمات اصطناعا بالاستحالة تحت ظروف معينة، من شيء يكون موجودا سلفا، شيء لا تفيدهم آلاتهم بطريقة لرصده، لا أنهم يكتشفون تلك الجسيمات بتفكيك الذرات التي تشتمل عليها وتتركب منها سلفا! ومن الواضح بادي الرأي أنه لا موجب في العقل لأن تكون جميع موجودات العالم وجميع أنواع المواد فيه (أو ما يصح في الإطلاق اللغوي أن يقال له مادة) مركبة في أصل خلقتها من جسيمات دقيقة، وإن سلمنا بكونها كذلك، فليس ثم ما يوجب أن تكون جميع المواد راجعة في الأصل إلى نوع واحد من الجسيمات التي لا تقبل التجزئة. وكذلك مبدأ عدم قابلية التجزئة Indivisibility of atoms هذا من تحكم الفلاسفة الذي لا موجب له إلا مطلب تحقيق العلم الكاشف بحقيقة المادة! فإنه ما دام قد تبقي بين يديك، بعد مرات ومرات من التجزئة والتفكيك، ما لا زلت ترى جواز تفكيكه إلى ما هو أدق، فما زلت، على المبدأ الذري، لم نتوصل بعد إلى معرفة حقيقة المادة وأصلها الأول، تلك المعرفة الكاشفة التي يشترطها الفيلسوف في نظرياته! ولهذا لم يجدوا إلا أن يفرضوا الذرة أو الجوهر الأساسي هذا عديم الامتداد في الجهات الستة، فيما قيل له "الجوهر الفرد"، لماذا؟؟ لأنه ما دام له امتداد ما، فسيبقى من المتصور في الجواز العقلي عندهم أن يُتوصل بطريق ما إلى تقسيمه وتفكيكه إلى ما هو أدق، ومن ثم لا يكون هو المكون الأساسي الذي يكسب المادة وجودها وحقيقتها! ومن ثم وقعوا في مغالطة بينة، إذ نسبوا

المادة إلى التركب من عدميات ممتنعة الوجود، فإنه لا يتصور في العقل وجود شيء خارجي متعين خارج الذهن، بحيث لا يكون له امتداد أصلا ولا يمتاز منه جانب عن جانب! الموجودات المركبة لا تتركب من منعدمات بل ممتنعات!

فمن الذي أوجب أن يكون كل ما نسميه "بالتجزئة" والتفكيك، تفكيكا للمكونات الأولى التي كانت موجودة سلفا قبل وقوع هذا الفعل من جانبنا، ومنها ركبت تلك المادة في أصل خلقتها، حتى يقال إن هذه هي حقيقة المادة الأساسية Fundamental nature of matter أو إن وجودها مرهون أو مشروط بوجود تلك الجسيمات الدقيقة لأنها إنما تكون قد وجدت بالتركيب منها؟؟ ومن أين يأتي ذلك الوجوب عند الفلاسفة؟ ليس في العقل تلازم بالأساس بين قابلية التجزئة Divisibility بالتفكيك والتكسير وغير ذلك من أفعالنا البشرية وتصرفاتنا في المادة التي بين أيدينا، وبين تركبها هي نفسها في أصل النشأة Composition، بحيث يكون الأول دالا على الثاني أو ملازما له! فمن المتصور في الجواز العقلي أن يكون موجود ما مخلوقا بحيث يكون قابلا، نوعا، لأن يُحول تحت ظروف معينة إلى جسيمات متساوية في صفاتها إجمالا، من غير أن يكون قد خلق هو نفسه في أصل خلقته من تلك الجسيمات بالجمع والتأليف، كما هو أصل التصور الذري اليوناني عند ديموكريتوس وغيره، قياسا على تركب تلال الرمال من حبيبات الرمال. ولكن الطريقة اليونانية تقوم قياما كليا على تجويز التمثيل فيما لا متسع فيه للقياس أصلا ولا مدخل! وهو ما أدخل عليهم تشبيه الأفعال الإلهية بأفعالهم، ومنه دخل إلى المتكلمين تبعا! إن قدرنا أن كان العالم مخلوقا، فلابد أن يكون الذي خلقه قد ركبه على نحو من تلك الأنحاء التي نجد لها قياسا في صنائعنا وأفعالنا، أو فيما نراه جاريا من تغيرات وتحولات على أنواع المادة التي نجدها في العالم من حولنا! وإلا فعلى أي أساس نشيد

بناءنا النظري في أسطورة الخلق والتكوين، ثم نزعم بعد ذلك أنه بناء علمي وأن الذي تحصل لدينا في ذلك علم ومعرفة مطابقة للواقع؟؟ هذا هو منشأ تلك المبادئ الميتافيزيقية التحكمية التي منها انتهى الفلاسفة إلى أن يقولوا: قد نظرنا في أمر العالم، هكذا، وحقائق الموجودات من حيث هي موجودة، هكذا، فعرفنا ما يجوز أن يوجد وما يمتنع! هذا هو منشأ مبدأ التنظير الكوزمولوجي من الأساس! وهي أعظم بدعة بدعها أساتذة المدرسة اليونانية في الحقيقة، وأفسدها على العقل والعلم والدين جميعا، والله المستعان.

وجد القوم أن المادة الميتة الواقعة تحت عادتهم لا تتحرك إلا إذا حركها شيء ملامس لها، يدفعها دفعا، في إطار الأسباب التي سخرها رب العالمين للناس في الأرض، فقالوا إن من شرط وجود الحركة، أي شيء يدخل تحت معنى الحركة والانتقال بإطلاق، أن يكون تفسير تلك الحال (حال الحركة) فيه، هو وجود محرك ملامس له، ينقل إليه الحركة بالملامسة أو المصادمة أو نحو ذلك. فلما كان المحرك نفسه مادة، قال أرسطو إذن لابد له من محرك يحركه هو الآخر، وهو ما يتسلسل وصولا إلى المحرك الأول الذي لا يتحرك، لأن مبدأ الحركة من صنعه وفعله! ولا شك أن كون الرب سبحانه هو الذي بقدرته ومشيئته يتحرك كل شيء في العالم، هذا من البديهيات الأولى التي لا نحتاج إلى فتح باب التسلسل أولا حتى نستنتج وجوده من أجل تغليقه! ولكن لأن الفلاسفة جعلوا التحريك بالملامسة هو حقيقة الحركة نفسها، من حيث إطلاق المعنى الكلي على كل موجود يصح دخوله تحته، أي أنه صار عندهم جزءا من معنى لفظة حركة، قالوا إذن لزم أن يكون المحرك الأول هذا غير موصوف بشيء من معاني الحركة هو نفسه، لأنه إذن لا تنتهي عنده السلسلة، ويتعين إثبات محرك آخر متقدم عليه! وهذا من أفسد ما يكون! ولو أنهم قالوا إن من أنواع المتحركات ما دلت العادة على أنه

إنما يتحرك إذا دفع أو لامسه شيء متحرك يدفعه أو يحمله حملا، دون أن يلزم أن يكون مطلق معنى الحركة مقصورا في هذه الصورة أو في هذه الكيفية بخصوصها، لسلموا من هذا الفساد! ولكن إذن يصبح تنظير الفيلسوف ناقصا في اعتباره، قاصرا عن القيام بالمطلوب! إذ المطلوب أن تكون النظرية كاشفة في إطلاقها لحقيقة كل موجود! كل ما يصح أن يوصف بالحركة وجوديا، فالنظرية توضع من أجل أن تفسر ذلك فيه وتقرر حقيقته! لا يجوز أن توضع النظرية بحيث تترك شيئا له تعلق بموضوعها ولا تفيد فيه بشيء ولو إجمالا! لا يجوز أن يكون ثمة حقائق ماورائية، وراء الحس والعادة، تتجاوز قدرة الفيلسوف على القياس والتمثيل، ومن ثم تلجئه وتضطره اضطرارا لأن يخضع رقبته فيها لما جاءت به الرسل كما خضع غيره، يوقف عنده عقله ونظره وقياسه فلا يقول فيه بشيء!! هذه هي القضية، وهذا هو منشأ تلك الطريقة الفاسدة عندهم على التحقيق: كبر الفلاسفة، نسأل الله السلامة!

لهذا منعوا من انخرام العادة عند التدبر، إذ هم صيروا، بتلك الطريقة الدهرية في النظر والقياس، جنس المعتاد هو كل ما في الوجود، فلا متسع لأن يقال إن في هذا العالم نوع من الموجودات الخفية التي تحرك الأجرام السماوية من حيث لا نراها، وهي الملائكة كما هو اعتقاد المسلمين. فهم قد وضعوا أقيستهم بحيث تستوعب جنس المتحركات في الوجود بإطلاق، فلا يتحرك متحرك، أي متحرك، إلا بمحرك من جنسه يلامسه وينقل إليه حركته، كما يحرك أحدهم الجمادات بيديه! وهذا المحرك يجب أن يكون بدوره قابلا للقياس على ما يحركه، من حيث افتقاره، بدوره، إلى محرك آخر من ورائه، فيما يجب أن يكون كله طبيعيا نوعا، أي يقبل مبدئيا الدخول تحت نظرية الفيلسوف الكاشفة لحقائق جميع الموجودات وطبائعها وكيفياتها! أما أن يقال إن ثمة جنس من الكائنات الحية الغيبية مطلقة التغييب، التي

يأمرها ربها بتحريك الأجرام من حيث لا نراها فتحركها على هذا النحو الذي نراه، فهذا خرق للنظرية وتقييد لها بقيد وجودي لا يملك الفيلسوف أن يتجاوزه بنظره وقياسه، وهو ما لا يطيقونه ولا يقبلونه أبدا! بل يجب أن يقوم القياس الميتافزيقي المطلق هذا مقام كل دعوى معرفية يزعمها أتباع الرسل فيما وراء المحسوس! فإذا جئته بمثل هذا، قال لك: هذا ليس "تفسيرا علميا"، بل يجب أن يكون التفسير علميا حتى أقبله، ولا يكون علميا إلا بأن يكون قائما على أقيسة القوم وإطلاقاتهم الميتافيزيقية ومبادئهم التحكمية تلك، التي انتهكوا بها حرمة الغيب بلا حد ولا قيد إلا ما تمليه عليهم أهواؤهم.

وقاعدة أرسطو في قيام الحركة بالمحرك الملامس، هي بعينها ذلك المبدأ الذي يتكلم عليه ماكولين هاهنا، ويسميه بمبدأ التأثير بالاتصال أو الملامسة Contact Action، وهي السبب في قولهم بأن الأجرام من أجل أن تبقى عالقة في السماء من فوقنا كما نراها، ومن أجل أن تتحرك كلها في أفلاك حول الأرض على نحو ما يظهر لنا بتقلب الليل والنهار، فلابد أن تكون كلها محمولة على سطح كرة زجاجية عملاقة غير مرئية لنا، بحيث تدور الكرة حول مركزها الذي هو مركز الأرض، فتبدو لنا وكأنها تتحرك دون حامل ظاهر يحملها كما توجبه النظرية. لابد أن يكون هذا القياس مطابقا للواقع تمام المطابقة ومن كل وجه (كما زادهم أينشتاين إغراقا فيه بمذهبه في الواقعية العلمية Scientific Realism)، وليس مجرد تشبيه للأمر، إذ لا يُقبل ولا يتصور عندهم، على كبرهم ونزقهم، أن يكون العامل المحرك عاملا غيبيا مطلق التغييب، بما يخرجه عن دائرة القياس على ما في الحس وعن أن تتناوله النظرية بشيء من التكييف والتحقيق والتفصيل على عادتهم. بل يجب أن يكون شيئا طبيعيا نوعا، غايتنا أن نكون الآن غير قادرين على إبصاره، وقد نتمكن من التوصل إلى مشاهدته بأعيننا في يوم من

الأيام، إن طورنا مراقبنا ومراصدنا بما فيه الكفاية! لابد أن تكون حقيقته وكيفيته مما تستغرقه النظرية، وإلا تقعد بهم عن القيام بالمطلوب، جملة! ولهذا ما زلت تسمع عند أصحاب الفيزياء الفلكية اليوم عن أشياء سوداء Dark / Black Entities تفترض لتكميل بناء النظرية الكونية، أشياء سابغة يدعى أنها تملأ الكون بكليته، أو تنتشر فيه، ولا نجد - بعد - طريقا لمشاهدتها! فالمؤثر، أي مؤثر، أيا ما كان تأثيره، لابد أن يكون طبيعيا، قابلا للإخضاع للحس وللقياس على المحسوسات المعتادة، وإلا لم يجز للفيلسوف بوجه ما أن يقول إن لديه علما في الباب يحاجج به الناس، وإن كان يعلم أن كلامه في شيء غيبي مطلق التغييب، لا يرجو له كشفا ولا مشاهدة أصلا، وهو ما بلغت الفيزياء الحديثة من الإغراق فيه مبلغا صار الفيزيائيون أنفسهم يتضجرون منه ولا يتصورون منه مخرجا!

ومع أن الواقعية العلمية Scientific Realism عند أينشتاين ومعاصريه تشتمل على معن صحيح إجمالا، وهو أن الواقع على ما هو عليه لا لأن إدراكنا يجعله كذلك، وإنما هو على ما هو عليه، من حيث الأصل (وأقيد بقولي من حيث الأصل تحرزا من وقوع حالات يخطئ فيها إدراكنا ويفيدنا بخلاف ما في الواقع)، ونحن نحاول أن نفهمه ونفسره ونتتبعه بإدراكنا، بمعنى أن القمر يظل في السماء حيث هو سواء نظرت إليه أو وليته ظهري، إلا أنه أراد بهذا المذهب أن يؤكد على عقيدة يونانية قديمة مفادها وجوب التسليم بمطابقة النظرية الطبيعية المقبولة أكاديميا، للواقع الخارجي، في جميع أقسامها وما اشتملت عليه من دعاوى تكييفية وتفسيرية وفروض غيبية أنطولوجية، مهما بدا الفرض سخيفا ومصادما للحدس والبداهة للوهلة الأولى (كما في نسبيته الخاصة مثلا)، ومهما كان متجاوزا لحدود القياس المعقول! فهذا ما يجب أن نخالف فيه أصحاب ذلك المذهب، ونقول بل النظرية الطبيعية غالبا ما تكون قائمة

في تصورها الأنطولوجي على قياس أو تشبيه ينتقيه الناظر انتقاء، ومن ثم يتعين أن يعامل معاملة التشبيه المحدود في دائرة العادة لا غير، وليس المبدأ الميتافيزيقي المطرد اطرادا مطلقا ليشمل كل موجود، أو ليصف الكون بكليته!

هذا النزاع الذي أشار إليه ماكمولين في مستهل كلامه عن تلك المبادئ الكلية الحاكمة وتعريف القوم لها، متسائلا هل هي ما نجد العالم عليه تحقيقا كما يدعى أم هي مما نفرضه نحن عليه فرضا، هذا النزاع راجع بكليته إلى الخلط اليوناني القديم في هذه المسألة المنهجية المهمة! ذلك الخلط الذي لم يزده أصحاب الواقعية العلمية هؤلاء إلا تأكيدا وترسيخا من حيث لا يشعرون! وقد بينا فيما مر معك أصله ومنشأه في طريقة فلاسفة اليونان! فالقياس الذي يبتدعه الفيلسوف في تصوير الواقع وتتبعه ليس علما كاشفا وكأنما وقع في نفس صاحبه بوحي من السماء، كما أوحى به أفلاطون وسقراط وغيرهما إلى أتباعهم، وإنما هو تشبيه افتراضي تلجئ المصلحة النفعية إلى القول به من أجل أن نتمكن من نمذجة النظاميات السببية المحسوسة بأنماط رياضية تعيننا على الانتفاع بها في قضاء حوائجنا. ولهذا كان معيار الحكم على النظرية بالنجاح success في مقابل نظرية أخرى، داخلا فيه على سبيل الأولوية، الجانب النفعي الأداتي الصرف Instrumental Utility، إذ لا فائدة في الحقيقة من تشبيه تجريبي أو قياس طبيعي لا يتمكن صاحبه من استعماله في بناء نمطية رياضية معينة يتمكن معها من تتبع النظاميات السببية ذات الصلة والتنبؤ بها. ولكن بسبب هذا الغلو والإفراط اليوناني في التعامل مع جملة الدعاوى الأنطولوجية التي تأتي النظرية محملة بها، أصبح ذلك الجانب مرجحا عند عامة التجريبيين لذلك المحتوى نفسه، بجملته، من حيث مطابقة الواقع من عدمها، في مغالطة عقلية فجة لا يدري الطبيعيون من أين وقعت لهم ولا ما المخرج منها! بل صار الترجيح

اليوم بالحسن الرياضي وبجمال العبارة الرياضية وتناسقها الداخلي وسيمترية النظرية ونحو ذلك من اعتبارات لا قيام لها بالمطلوب من حيث الحكم بمطابقة كافة الفروض الأنطولوجية التي تحتوي عليها النظرية للواقع، وهذا من الفساد بمكان!

الجزء العاشر

يواصل ماكمولين فيقول (ص. 359):

عندما أسس نيوتن ميكانيكا الأجرام السماوية حول فكرة الجذب، اعترض كثير من أتباعه بأنه خرق مبدأ أساسيا من مبادئ العلم: إذ التجاذب بين الشمس والكوكب يتطلب فعلا عن بعد action at a distance، وهو ما لم يعجب نيوتن. فهو أيضا كان يرى أن وقوع فعل كهذا غير متصور. فهو يقول (في رسالة منه إلى ريتشارد بنتلي): "فكرة أن الجاذبية يجب أن تكون صفة ذاتية، جوهرية في المادة، بحيث ان الجسم الواحد قد يؤثر على جسم الآخر عبر مسافة بينهما في الخلاء التام vacuum، دونما توسط من شيء آخر بحيث ينقل فعل أحدهما للآخر، هذه في تصوري سخافة عظيمة إلى حد أني لا أتصور أن يقع فيها رجل لديه قدرات عقلية سوية في بحث القضايا الفلسفية." اهـ. وقد كان، في الحقيقة، ثمة مبدءان منفصلان مهددان بالخطر في نظر نيوتن: مبدأ خمول المادة Passivity of Matter، الذي كانت لديه أسبابه الخاصة في الدفاع عنه، ومتطلب الفعل بالملامسة Contact Action. ففي السنوات التي تلت نشر كتاب برينكيبيا، جهد الرجل جهدا كبيرا في محاولة إظهار أن فكرة الجاذبية لديه لم تخالف أيا من هذين المبدئين المعظمين عند فلاسفة الطبيعيات. بيد أنه لم يوفق في ذلك. ولعله كان سيحزن للغاية لو علم أن أول هذين المبدئين (مبدأ خمول المادة) سيسقطه بعض من تبعوه مباشرة من الفلاسفة (وقد قلبه بوسكوفتيش وكانط على رأسه)، وأن المبدأ الثاني، وبعد فترة من النصر في أواخر القرن التاسع عشر، حيث طور الفيزيائيون فكرة المجال المتداخل مع المادة Intervening Field، سيبدو في نهاية المطاف في أعين كثير من الفيزيائيين اليوم (في هيئة ما يقال له مبدأ المحلية Locality)، لا رجاء في إنقاذه.

قلت: تأمل في موضوع الجدال والاعتراض بين نيوتن ومعاصريه، الذي يصوره لك ماكولين في هذا الموضع بإيجاز، لترى مصداق ما قررناه فيما مر، فيما يتعلق باضطراب وفساد مفهوم النظرية الطبيعية ووظيفتها عند الفلاسفة الغربيين، بسبب التراث اليوناني في وظيفة الناظر والفيلسوف، والغرض من وضع النظريات جملة. فنيوتن لما وضع ميكانيكاه، لم يكن غرضه هو مجرد بناء تمثيل سائغ رياضيا لتلك الظاهرة محل البحث، بحيث يكون ذلك التمثيل صالحا للتطبيق والتنبؤ والتتبع على ما يرام من تلك المعادلات إجمالا. وإنما كان غرضه كشف حقيقة ما يقال له الجاذبية، على طريقة الفلاسفة الذين تربى في مدرستهم وعلى أيديهم، في اعتماد الإطلاقات الميتافيزيقية على شرط الوجود. مع أن حقيقة ما جاء به هو أنه تشبيه أو مجاز Metaphor، يقاس فيه ما يظهر من علاقات بين كل الكواكب والنجوم من جانب، ومداراتها وأفلاكها من الجانب الآخر، على العلاقة بين جرمين أرضيين يدير أحدهما الآخر حول نفسه بوتر يربط بينهما. ولا يخفى أن مجرد قوله: جاذبية، يوجب أن يكون في أحد الجرمين على الأقل صفة ذاتية أو طبع ذاتي مركب فيه، أنه يجذب الآخر إليه. ولكن آفة فلاسفة الطبيعيين، على أثر الإرث اليوناني كما بينا، أنهم لا يعجبهم أن يكون في تصورهم الأنطولوجي لحقيقة الجاذبية عنصر غيبي لا يمكنهم كشفه من طريقهم! إما أن يكون التأثير منقولا بين الجرمين بالملامسة المباشرة، فيكون دفعا وتحريكا لا وسيط فيه contact action، أو أن يكون منقولا بينهما بوسيط مادي ناقل واقع تحت الحس، بحيث يمكن، مبدئيا، التحقق من ماهية ذلك الوسيط وكيفية عمله بمزيد من الأقيسة والتشبيهات الطبائعية التي تعامل معاملة التقريرات الكاشفة للواقع الوجودي محل البحث، حتى يصبح قول الفيلسوف

في المسألة وكأنما يصف شيئا شاهده عيانا، يكشف جميع جوانبه كشفا! وحتى عند القول بتأثير سببي ينبع من جرم ما، بحيث يكون طبعا ملازما له، فلابد لنفس ذلك التأثير من تفسير ميتافيزيقي لأصله ومصدره، بحيث يكون ذلك المصدر راجعا إلى شيء مادي طبيعي أيضا، وإلا لزم المصير إلى نفي التأثير الذاتي، والبحث عن نظرية أخرى لا تشتمل على فكرة التأثير الذاتي تلك! ولا شك أنه ما من سبب أو مؤثر مخلوق، إلا وجب أن يكون الطبع المؤثر فيه مكتسبا من سبب متقدم عليه، يجعله ملازما له ملازمة الصفة للموصوف، بحيث إن رفع ذلك السبب، زالت الصفة وخولف الطبع وانقطع التأثير. وما دام السبب الغيبي قائما، فإنه يظل الشيء موصوفا بأنه يؤثر تأثيرا حقيقيا ويتأثر تأثرا حقيقيا لا متوهما! فجميع الصفات التي يقال لها ذاتية، مما يكون في المخلوق، إنما تقوم به قياما مخلوقا، بأسباب غيبية يحفظها رب العالمين ما شاء لتلك الصفات أن تبقى في المخلوق الموصوف بها. تلك الأسباب الغيبية ترجع خلقة وجبلة وتركيبا إلى رب العالمين سبحانه، وحده لا شريك، وهذا ما يتحقق به توحيد الربوبية في النظر إلى صفات المخلوقين وتأثيراتهم وأفعالهم. وقد ضلت طوائف بسبب الغلو في هذا الباب، فالفلاسفة غلوا فجعلوا الطبع المركب في المخلوق راجعا إلى نفس المادة التي يتركب منها، ومن ثم تعلل لديهم التأثير الطبيعي في المخلوق على غيره من المخلوقين، بالطبع الملازم لنوع المادة التي يتركب منها ملازمة ميتافيزيقية على شرط الإطلاق والوجود، أي لا يوجد جرم بحيث يكون مركبا من مادة كذا على كيفية كذا وكذا، إلا وجب أن تكون من صفته كذا وكذا! توضع النظرية بحيث تكون على هذه الوتيرة أولا، ثم إن ظهر أن لتحقق تلك الصفة بالموصوف بها شروطا أخرى في طبائع الأشياء ذات الصلة، يجب أن تتحقق حتى تصبح المادة نفسها مفضية إلى اتصاف الشيء المركب منها بهذه الصفة أو تلك، عدلوا عن

النظرية الأولى إلى نظرية بديلة، ولكن يبقى الشرط أن يكون مبدأ التأثير السببي ناشئا عن طبائع المواد جملة، هذه تؤثر في هذه لأن من طبعها الذاتي أن تكون كذلك. فلماذا اكتسبت هي ذلك الطبع، إن مالت بهم النظرية إلى جعل نوعها حادثا بعد أن لم يكن، كما في نظريات الكوزمولوجيين مثلا؟ يقال لأن من المواد الأخرى ما من طبعه كذا وكذا، فأدى تداخل الطباع وتفاعلها إلى اكتساب هذه المادة ذاك الطبع المراد تفسيره، وتنتهي القضية عند هذا. فذاتية الطبع في المواد Intrinsicality of natures يجب أن تنتهي عند الفلاسفة إلى التعليل التام ببعض الطباع Complete causation لأنهم لا يقبلون أن يبقى الباب مفتوحا لإرجاع تلك الطباع نفسها إلى أسباب غيبية قد انقطع الطريق دونهم إلى تصورها بالقياس والنظر! والمتكلمون لما استشعروا ما تفضي إليه تلك الطبيعية الدهرية في سبب وجود الطبع والتأثير السببي في الأشياء، من إشراك بالله تعالى وإرجاء للتعليل التام إلى تلك الطبائع نفسها، بحيث تكون هي من يخلق الخلق ومن يدبر الأمر، كما صرح به بعض الفلاسفة الأوائل في مسألة الكواكب وفعل الكوكب حتى عبدوها من دون الله تعالى، غلوا في الجهة المقابلة وجنحوا إلى نفي الطبع والتأثير الذاتي في المخلوقات بالكلية، وقالوا لا فاعل إلا الله ولا مؤثر إلا الله، فالنار لا تحرق بطبع ملازم لها خلقة وجبلة، وإنما يحصل الاحتراق عندها، لا بها! وهذه مغالطة ظاهرة ولا شك، ومكابرة للمحسوس والمعلوم بداهة، كما بينه شيخ الإسلام رحمه الله. والصواب أن يقال إن المخلوقين فيهم طباع وتأثيرات ملازمة لهم خلقة وجبلة، ولكن تلك الطباع وتأثيراتها إنما جعلها الله كذلك بأسباب غيبية خلقها وأمرها بأن تحفظ ذلك بإذنه، وهم الملائكة الموكلون بأنواع المخلوقات. فإن شاء أن تتخلف النار عن الإحراق، الذي هو طبعها وتأثيرها الملازم لها خلقة وجبلة، بحفظ الملائكة له فيها على نحو غيبي لا يعلمه

إلا الله، أمر ملائكته بأن يقطعوا عنها ذلك السبب الغيبي فتتخلف عنها الصفة وينقطع الطبع، أو أمرهم بمقابلة ذلك الطبع بموانع طبعية أخرى من جملة ما ركبه في المواد من سنن سببية مطردة، فلا يحصل الاحتراق للشيء الذي يقذف فيها، وأسباب ذلك وشروطه وموانعه لا يحصيها إلا من خلقها سبحانه. فمهما كان من تأثير طبعي فيما بين المخلوقين، فلا يتم تعليله إلا بمشيئة رب العالمين وفعله الغيبيين، وما لا يحصيه سواه من الأسباب الغيبية التي لا نطلع عليها، ولا نملك قياسها على ما في الحس والعادة.

ولكن لأن الفلاسفة لا يقبلون أن يكونوا تبعا لأحد في أيما باب من أبواب المعرفة، ولا يخضعون رقابهم إلا لأهوائهم، لم تزل تراهم يفصلون نظرياتهم وإطلاقاتهم الميتافيزيقية بحيث لا تترك النظرية، أي نظرية، متسعا لعنصر أنطولوجي غيبي غير قابل مبدئيا للقياس (في إطار نفس النظرية) على شيء من الطبائع المعتادة! يجب أن تكون النظرية بحيث تستغرق جميع الحقائق ذات الصلة، بكيفيات طبيعية لا مدخل فيها لعامل غيبي أو عنصر غيبي بحال من الأحوال. وهو ما يبين لك مدى تجذر الطبيعية المنهجية وتأصلها في طريقة فلاسفة اليونان وفلاسفة الغرب عامة من بعدهم! لابد أن يكون كل شيء طبيعيا Natural حتى تكشف النظرية حقيقة الشيء المراد وصفه وتتبعه بها، كشفا لا متسع فيه البتة لشيء يتجاوز قدرة الفيلسوف على تصوره!

وهذا في الحقيقة من أعظم المغالطات التي بدعها اليونانيون ولم تزل الأكاديمية الغربية تعاني منها في كثير من مباحث العلوم التجريبية سواء في الطبيعيات أو في الإنسانيات على السواء! فنحن أتباع المرسلين، نشهد ونسلم بمحدودية عقولنا وأقيستنا، وبأن وراء المحسوس غيبا عظيما لا يعلم حقيقته، على ما هي عليه، إلا خالقه جل في علاه، خلافا لدهاقنة الدهرية اليونانيين

الذين أسسوا الطريقة الفلسفية في النظر، فقالوا ننظر في كل موجود من حيث هو موجود، كيف يوجد بعد أن لم يكن، وكيف يكتسب هذه الصفة أو تلك، وكيف تبقى فيه ما تبقى، نؤسس ذلك كله على أقيسة وتشبيهات بما في العادة، وإذن تصبح النظرية التي نقدمها للناس هي أساس كل عقل وأساس كل علم، وهي المرجع في القبول والرد على كل أحد، حتى على من ينسبون ما معهم إلى رسول من رب العالمين! لهذا يصر الفيلسوف على أن يقدم للناس زعما مطابقا للواقع بحيث لا يدع موجودا يوصف بالصفة محل البحث إلا تناوله بالتكييف والتفسير المستوعب لجميع الحقائق ذات الصلة، مع أنه يعلم أنه بهذا المطلب يتجاوز، لا محالة، قدرة البشر على تحصيل المعارف من طريق القياس العقلي بأنواعه! يعلم ذلك ولا يبالي، لأنه لو اعترف به وشرط على نفسه التقيد بقيوده، كما كان هو الواجب على بلانتينغا أن يطالبهم به، إن كان صادقا في محاربة الطبيعية المنهجية، لو اعترف بذلك لانسحب البساط من تحت قدميه في تلك المسائل الكبرى التي من أجلها أخضع الناس رقابهم للأنبياء والمرسلين، وتعين عليه هو كما عليهم أن ينقاد ويسلم كما سلموا! فهم ما تفلسفوا إلا من أجل أن يقعدوا أنفسهم مقاعد المرسلين، يقول أحدهم للناس: معاشر العميان المساكين، قد بصرت بما لم تبصروا به من أمر الغيب، فاتبعوني أهدكم سبيل الرشاد! من هنا جاء نقد القوم على نيوتن، ومن هنا أيضا جاء حرصه هو الدؤوب على أن يظهر أن معادلاته في وصف ونمذجة ما سماه "بالجاذبية" بين الأجرام السماوية لا يخرق بها أيا من المبدئين المذكورين، لأنه لو صح أن كانت نظريته تخرقهما، لتخلفت عن القيام بما هو مطلوب من النظرية الطبيعية عند الفلاسفة على وجه الكمال، وهو أن "تكشف" حقيقة موضوعها كشفا سابغا، وتكيفه تكييفا لا مزيد عليه، ولا تترك أثرا إلا نسبته إلى مؤثر محسوس بالقوة أو بالفعل! فالحق أن كثيرا من

تلك المبادئ لا يكون من تحتها إلا الطبيعية المنهجية الصرفة: أنها لو لم تجعل كذلك، لوجب الاعتراف بوجود ما يعكر عليهم الغاية والقصد اليوناني من تكلف وضع النظرية الطبيعية من الأساس، يحيلها من معرفة مطابقة للواقع في أمر الغيب، كاشفة لجميع ما هنالك، كما هي وظيفة النظرية عندهم، إلى مجرد تشبيه أو تمثيل له حدود إبستمولوجية لا يتجاوزها في الإثبات والنفي، في غيب عظيم لا مدخل إليه من قياس ولا نظر، وهو ما لا يقبلونه من مبدأ الأمر! لهذا لم تزل تسمع من أمثال دوكينز قوله إن الأديان تعلم الناس بأن يرضوا بالجهل وعدم المعرفة، يقال: هي كذلك لأن الله جعلها كذلك، وينتهى عند هذا الحد! وهذا ولا شك محض تلبيس ومغالطة، إذ إنه من العلم وكماله، وليس من الجهل والرضا بالجهل، أن يقال للناظر في طبائع الأشياء، قف عند هذا الحد ولا تتجاوزه بنظر وقياس، لأن فيما وراء تلك الطبائع المعتادة وفيما وراء عالم الشهادة المحسوس غيب عظيم، منه ما لا ندري هل تطرد فيه تلك الطبائع المعتادة أم لا تطرد، ومنه ما نعلم بالسمع وحده أن من أحواله ما لا دخول له تحت الطبائع المعتادة، ومنه ما نعلم بالسمع والفطرة جميعا أنه لا يجوز أن يدخل تحت طبائع المواد المعتادة في عالم الشهادة. فالذي يقرر تقريرا كهذا، يريد أن يوقف أصحاب النظر في الطبائعيات عنده فلا يتجاوزونه، هذا لا يكون جاهلا أو داعيا الناس إلى الجهل، وإنما الجهل المركب حقا والعمى المبين ومحض السخف هو أن تتكلف بعقلك الحكم على الواقع من حيث هو واقع بإطلاق، وعلى الوجود من حيث هو وجود بإطلاق، بتقسيم وتكييف تأتي به قياسا من رأسك، يحصره في أنواع الموجودات المحسوسة والمعتادة لك ولأمثالك من بني آدم، ثم تسمى ذلك علما مطابقا للواقع Science، تطالب الناس بألا يخرجوا عليه في تصور أو اعتقاد!!

لماذا منع السابقون أن يكون من أنواع التأثيرات السببية ما يكون عن بعد non-local ولماذا أجازوه أخيرا بعدما كان لديهم بمنزلة الاعتقاد الديني؟ لأن الواجب عندهم أن يكون التأثير، أي تأثير سببي، راجعا إلى مؤثر محسوس بالقوة أو بالفعل! هذا هو الأساس الاعتقادي الغيبي الدهري المستقر عند القوم منذ أن تأسست أكاديميتهم الأولى في اليونان. فلما كانت عادتهم لا يقع فيها ما يمكن أن يكون تأثيرا عن بعد بلا وسيط ظاهر قابل للدخول تحت الحس نوعا، منعوا من ذلك، وقالوا لا يمكن أن يوجد مؤثر غير محلي Non-local، بل يجب أن يكون المؤثر والمتأثر في محلة واحدة حتى يصح وقوع التأثير. ثم لما عرفت أنواع الأشعة والموجات وما شاكلها، صارت هي المؤثر الظاهر الذي لا يؤثر إلا فيما يكون في محله. ينبعث الشعاع من مصدره، فيكون انبعاثه أثرا محليا عن طبع في المادة التي انبعث منها، فإذا انتهى إلى شيء بعيد، أثر فيه تأثيرا محليا بالملامسة حيث هو Contact Action، فيكون مسلسل التأثير على نمط: (أ) انبعث منه (ب) محليا، فأثر (ب) في (ج) محليا. ولهذا منع أينشتاين في نسبيته الخاصة من أن يكون الحادث (أ) سببا في وقوع الحادث (ب)، مع أن الحادثين يفصل بينهما مسافة لا تسمح لإشعاع يجري بسرعة الضوء بأن يصل من (أ) إلى (ب) في الوقت الذي وقعت فيه (ب) بالنسبة إلى (أ)، في إطار ما سمي بمخروط الضوء أو مخروط السببية Light Cone، وتذرع لذلك بأن إثبات العلاقة السببية بين حادثين هذه صفتهما يخرق مبدأ المحلية Locality إذ يوجب أن يكون ثمة مؤثر ينتقل بينهما في وسيط فيزيائي بسرعة تتجاوز السرعة القصوى لأي متحرك في الوجود! والنظرية كما هو معلوم، تضع قيدا ميتافيزيقا محضا على سرعات المتحركات بإطلاق، أي أنها تمنع، بموجب صياغة معادلاتها على ما هي عليه، من وجود متحرك له كتلة ما، بحيث ينتقل بسرعة تجاوز السرعة C، أو جود متحرك عديم

الكتلة (كما هو تصورهم لما يقال له الفوتون) بحيث يتحرك بسرعة تجاوز السرعة C! فلا يكون الموجود موصوفا بمعاني الزمان والمكان أصلا عند أينشتاين، إن قدرنا له الانتقال بسرعة تجاوز ذلك المقدار! هذا التحكم الميتافيزيقي فيما يجوز أن يوجد، بإطلاق، وما لا يجوز، وما يجوز أن يوصف بأنه يحصل في الزمان وما لا يجوز أن يوصف بالوقوع أصلا، راجع إلى الميراث اليوناني في طريقة التنظير كما لم نزل ماضين في بيانه بحول الله وقوته. راجع إلى اعتقاد أن الحادث لا يكون مؤثرا في غيره ما لم يكن الأثر راجعا إلى طبع داخل تحت الحس والعادة بالقوة أو بالفعل. لا يمكن أن يكون (أ) مؤثرا في (ب) سببيا، ولا يكون التأثير بالملامسة المباشرة Direct contact، على ما عليه عادتنا في تأثير الأشياء على بعضها البعض! يجب أن يكون (أ) لامس شيئا ما أو انبعث منه شيء ما في نفس محله، ثم انتقل ذلك الشيء إلى (ب) فلامسه فوقع التأثير. ولكن من الواضح أننا إذا تحررنا من ذلك القيد اليوناني الواهي، لم نجد ما يوجب ذلك عقلا! ليس هذا قولا بالتأثير بالطفرة، طفرة النظام، أو مقتضيا له، وانتبه، فالطفرة عند النظام أن الجسم قد يكون في المكان الأول ثم يصير إلى المكان الثالث، دون أن يمر بالمكان الثاني، ودون أن يعدم من الأول ثم يعاد في الثالث. هذا كلام فاسد قطعا ولا شك، لأنه ليس وراء تلك القسمة الثنائية قسم ثالث يجيز العقل دخوله تحت معنى لفظة "انتقال" أصلا! فليس هذا ما نزعم أن التأثير السببي يكون عليه! وإنما نعترض على اشتراط الفلاسفة أن يكون سبب التأثير الطبيعي المحسوس، شيئا ماديا قابلا للدخول تحت الحس بالعادة أو بالقوة، بحيث ينتقل بين المؤثر والمتأثر على ما عليه الأجسام المنتقلة في عادتنا! فالله أعلم كيف تتواصل الملائكة فيما بينها فيما وراء المحسوس والمعتاد، فصفاتهم وأحوالهم وأفعالهم لا نعلم لها نظيرا في عادتنا حتى نقيس عليه. وقاعدة المحلية هذه تشترط قياسا على ما

في العادة لا نسلم به، ولا نسلم باطراده على جميع الموجودات بشرط الإطلاق كما يزعمون. ولكن الفلاسفة اضطروا لذلك الشرط الميتافيزيقي كما تقدم لأنهم لا تتسع عادتهم لما يخرقه. فلما تعرضوا في القرن العشرين الميلادي لعجائب المستوى تحتالذري ومحاراته، جوزوا انخرام مبدأ المحلية والتأثير بالملامسة المباشرة، ولكن على حساب مسلمات العقل نفسه وبدهياته، فقالوا إذا كان الجرم الواحد (الجسيم) يكون في محلتين منفصلتين معا في نفس الوقت، فلا عجب إذن من أن يكون من الصفات الذاتية الطبعية في تلك الجسيمات أن تؤثر في بعضها البعض آنيا عبر مسافات طويلة بلا وسيط! والواقع وكما بيناه في محله، أن ثمة وسيطا غيبيا منتشرا متصلا لا نعلم حقيقته ولا نجد له قياسا على ما في عادتنا، يتأثر بأدواتهم وطرقهم في الرصد والتتبع على نحو ما، فينشأ عنه ما يقال له الجسيمات وما نرصده من أحوالها حال الرصد، وهو وسيط قد رصدت بالفعل بعض أحواله فيما يقال له المجال الكمومي Quantum Field، ولكن لأن من الفلاسفة من تروق له فكرة إسقاط مبدأ عدم التناقض وادعاء أن العلم الطبيعي قد أثبت ما يناقضه، كما ذهب برتراند راسل في ورقة بحثية مشهورة إلى ادعاء أن مبدأ السببية نفسه يجب أن يتخلص منه الفيزيائيون ولا يتكلمون به ولا بما يوحي به، لأنه ليس له تعريف ميتافيزيقي سالم من المآخذ، ولأنهم فعليا لا يستندون إلى ذلك التعريف في شيء من معادلاتهم ونظرياتهم، لهذا راج بينهم ما يقال له تأويل كوبنهاغن لميكانيكا الكم، ولم يتفقوا على رده وإبطاله وما كانوا ليتفقوا، مع أنه من أسخف ما أنت راء من الأقوال والتصورات! ولهذا اختلفوا هل أسقطت ميكانيكا الكم مبدأ المحلية والتأثير بالملامسة أم لم تسقطه! لأن منهم من يجيز وجود وسيط مادي طبيعي قابل للقياس مبدئيا على ما في العادة، بحيث ينتقل التأثير في خلاله آنيا، وبحيث تبقى قواعد العقل ومسلمات المنطق جارية عليه،

ومنهم من استحسن إسقاط المحلية والسببية معها، ومبدأ عدم التناقض، وكأنما قد قرنت تلك القضايا جميعا اقترانا ضروريا (بموجب التصور الدهري الذي بيناه آنفا)! والقصد أن عامة تلك المبادئ مفصلة تفصيلا بحيث تضمن للتنظير الطبيعي التقيد بالمبدأ الميتافيزيقي اليوناني القديم في النظر والقياس، وهو أن تكون النظرية مستوعبة لكل موجود من حيث هو موجود! وهو ذلك المبدأ الدهري الملازم للطبيعية المنهجية كما بينا، الذي لا قيام لها إلا به وعليه. والعجيب أن ماكمولن يكاد يصرح بآفة القوم تصريحا، حيث يواصل فيقول:

"إنه من غير المستغرب أن يكون اختراع النظريات الكوزمولوجية قائما إلى هذا الحد، على ما يقال له المبدأ Principle. فإن التنظير بشأن الكون بكليته عمل متقلب Precarious، كما حاجج كانط لإثباته بقوة. فإنه يتطلب قفزة طويلة لما وراء الروتين الآمن نسبيا للعلم الاستقرائي. فإن التوقعات في أنواع النظم sort of order التي يجب أن نتوقع أن نجدها (أي فيما وراء حيز العادة الاستقرائية)، أو ما الذي يصح، على المستوى الكوني، أن يعد نظاما مطردا، هذه يجب أن تطغى لا محالة. في سنة 1931، اقترح أينشتاين ما سماه ميلنا E.A. Milne لاحقا في 1933 بالمبدأ الكوزمولوجي، وهو أن "جميع الأماكن أو المواضع في الكون متشابهة". أي بعبارة أخرى إن توزيع المادة على مقياس كبير، متساو في كل مكان. وقد مدد ذلك المبدأ لأبعد من هذا، بحيث يشمل الزمان كما شمل المكان، فيما قيل له "المبدأ الكوزمولوجي الكامل" Perfect Cosmological Principle. فهل كانت هذه مجرد تصويرات مثالية أو تقريبات واعية نافعة في المراحل الأولى للبحث الطبيعي (كمسألة قانون الغاز المثالي مثلا)، أم أنها كانت تشتمل على زعم خفي بأن هذه هي حقيقة العالم على الأرجح؟ كثير ممن دافعوا عن استعمال تلك المبادئ الكوزمولوجية في السنوات التي تلت

ذلك، كان من الواضح للغاية أنهم يلصقون بها اعتقادا سابقا في الأرجحية الوجودية، أي أن التوزع المتجانس للمادة في جميع أنحاء الكون (لأسباب بدا من غير الواضح تعيينها) هو أرجح احتماليا أن يكون هو واقع الكون من خلاف ذلك."

قلت: نخبرني بربك، ما الذي يحجزك، يا سيد ماكولن عن الاعتراف بالحق وقد بدا لك بيت الداء وأصل الآفة كما هو واضح من كلامك؟؟ قد تقدم أن كثيرا منهم يدركون حقيقة الآفة وسبب الضياع الذي تعانيه الفيزياء وعلم الفلك العصري، ولكنهم لا يجرؤون على البوح والتصريح به، لأنهم إذن يتهمون بأنهم أعداء العلم، دعاة الجهل والتخلف .. إلخ! الرجل يقول صراحة كما ترى إنه من غير المأمون أن نتجاوز حدود العادة التي سبق لنا استقراؤها في هذا العالم، بنظريات تتخذ من الكون بكليته موضوعا لها، وأننا إن فعلنا، فلابد أن نتخذ لأنفسنا مقدمات نظرية ميتافيزيقية لا دليل على صحتها ولا يمكن أن تثبت من طريق الحس والتجريب، كالزعم بأن جميع أنحاء المكان Space (أي كل ما يصح أن يدخل في اللغة تحت معنى المكان أو الجهة) لابد أن يكون فيها توزيع مماثل للمادة والطاقة لما عليه عادتنا في الحيز المحسوس المشاهد من هذا العالم! ولو صدق ماكولن وتجرد للحق الواضح، لقال إن أينشتاين لم يخترع المبدأ الكوزمولوجي هذا ولم يحدثه من كيسه، وإنما جرى فيه على طريقة الفلاسفة من قبله في ادعاء أنه ليس هنالك إلا كما هاهنا! وإنما احتاج أينشتاين لتقرير هذا المبدأ، واعتماده أكاديميا بصفة رسمية، لأنه يعلم أنه مقدمة ضرورية لقبول مسلكه في استيعاب الكون بكليته في نسبيته العامة، ومن ثم تأسيس ما بات يقال له، على أثر ذلك، علم الكوزمولوجيا! وإلا فقد سبقه نيوتن إلى التأسيس على نفس المبدأ عندما بحث في تأثير انتشار الجاذبية على الكون بكليته في أجرام الفرض أنها منتشرة على نفس الوتيرة في جميع

الجهات، بلا حد ولا نهاية! وسبقهما كوبرنكيوس وغاليليو من قبل بتصور أن تكون جميع أنحاء الكون مشابهة لما في السماء الدنيا القريبة من حيث انتشار النجوم والكواكب والأجرام السماوية في جميع أنحائها على السواء! فالمبدأ قديم في الحقيقة، وهو ملازم للقوم عند كل نظر في الكون بكليته، لاعتناقهم الطبيعية المنهجية، التي هي عماد الطريقة اليونانية في التنظير الميتافيزيقي كما بينا. لذا كان غاية الواحد من هؤلاء أن يشير إلى وجود أزمة وآفة فلسفية كبيرة في أساس علم الكوزمولوجيا، ولكن من بعيد وعن استحياء كما ترى! لا نتوقع منهم أكثر من هذا! فالعاقل يقف هنا ليقول: إن كان الأمر كذلك، وأنتم تعترفون بأنه لا ضامن لا في العقل ولا في العادة لأن يكون الاطراد المكاني والزماني للنظام المعتاد على نحو ما فرضتم، فلماذا الإصرار على تكلف بناء النظرية الكونية التي تصف الكون بكليته وتقول إن فيه كذا وليس فيه كذا، ويتركب من كذا ونظامه كذا، ونشأته كانت على نحو كذا ونهايته تكون على نحو كذا، إلى آخر ذلك؟؟ لماذا الإصرار على اختراع نظريات أنتم تعلمون أنها لا تقف لديكم على أساس صحيح عقلا؟؟ هنا يأتيك الجواب بأننا لو لم نسلم بتلك المسلمات في مبدأ النظر، لما استطعنا أن نأتي بنظريات "علمية" في ذلك الباب! فالجواب يصطحب كما ترى مقدمة خفية مفادها أنه من الواجب عقلا أن تكون لدينا نظريات فلسفية في هذا الباب! وهو ما لا مصدر له ولا أصل إلا الميراث اليوناني في مفهوم النظرية الطبيعية ووظيفتها والغاية التي من أجلها يتكلفها الفيلسوف! لأنه إنما يريد منها أن تكون علما كاشفا بما في الغيب، وما يمكن أن يوجد وما لا يمكن أن يوجد من أنواع الموجودات، بحيث يصبح لها السلطان المعرفي على جميع العلوم، وتكون معيارا عقليا للقبول والرد في جميع أنواع الدعاوى الغيبية، التي هي مادة العلوم الدينية الخبرية، وموضوع العقائد الدينية عند جميع أهل الملل! يجب أن يكون

من المشروع والمعقول بل والواجب على الفلاسفة والنظار والباحثين أن يسلموا بذلك التساوي والاطراد المطلق، في المكان والزمان جميعا، وإلا تعين عليهم أن يحدوا عملهم بحد معرفي وقيد عقلي لا يقبلونه ولا متسع له في دينهم الطبيعي، وهو ينقض عليهم الغاية التي من أجلها تفلسفوا أصلا كما عبر عنها أفلاطون وغيره من الآباء الأوائل للكنيسة الدهرية في كتاباتهم! يجب أن تكون لدينا نظرية تصف الكون بكليته، لأننا لو قعدنا عن ذلك ولم نتكلفه، لبقي الباب مفتوحا لأهل الأديان ممن يزعمون نسبة معارفهم إلى مصدر سماوي إلهي ما، ليطالبونا نحن الفلاسفة بأن نكون تبعا لهم، منقادين لهم انقياد التلميذ لأستاذه، بل العبد لسيده، رجاء أن نجو بعد الموت!! ونحن أكبر من ذلك وأعظم في نفوسنا من أن نكون أذنابا وأتباعا! هذه هي القضية، فتأمل!

قال ماكمولن:

"وقد ظهر مبدأ آخر ذو صلة في السنوات الأخيرة، في مناقشات النظار حول أصول الكون. وبما أن مسألة تصور أصل الكون إنما دخلت في إطار البناء التنظيري المسؤول علميا مؤخرا جدا (أي في القرن العشرين الميلادي)، فإن هذا المبدأ يكون جديدا من هذا الوجه. ومع هذا فثمة مقدمات له في العلوم القديمة، حتى وصولا إلى اعتقادات النشأة الكونية عند اليونانيين القدماء."

قلت: سبحان الله! يا رجل انطق بالأمر صراحة ولا تخف، وبين أن الآفة راجعة أصالة إلى طريقة فلاسفة اليونان في إطلاق النظر واستعمال القياس! يقول:

"إن الفلاسفة الأوائل في اليونان القديمة، كانوا يهتمون بأمر النشأة، يهتمون بالكيفية التي بها صارت الأمور إلى ما هي عليه الآن. من أي مادة تكونت (جميع الموجودات)، وأي نوع

من أنواع العاملية Agency كان مسؤولا عن ذلك التكوين؟ فقالوا بثلاثة أجوبة مختلفة تماما لذلك السؤال. في الجواب الأول، قالوا إن الكون بدأ من شيء عديم الهيئة، وأن العمليات الطبيعية للخلط والتركيب كانت في نفسها كافية عبر امتداد الزمان لإنتاج هذا العالم واسع التنوع الذي نعرفه اليوم. وإذن فلا داعي لتعيين تلك الحالة الأولى عديمة الهيئة، ولا لتقرير توجه معين directedness لتلك العمليات، ولا لافتراض عامل يعمل تجاه غاية ما Telos. وإنما اتفق لذرات Atoms تحرك حركة عشوائية محضة أن تتكاثف وتتشكل في الخلاء، لتصنع، عبر قرون طويلة، هذا العالم كما نعرفه."

ثم ينقل كلاما لإمبيدوقليس اليوناني، ويقول إنه مدد ذلك التصور ليشمل نشأة الأنواع الحية كذلك. كلها كانت عمليات عشوائية بمعنى أنها لا تتطلب فرض نمط معين أو نسق معين أو جهة ما لجريان تلك الذرات العدمية المزعومة! ففي بداية الأمر كانت المادة الميتة تتحول عشوائيا إلى مواد حية، ثم المواد الحية تتجمع لتخلق أعضاء، ثم الأعضاء تتجمع لتشكل كائنا حيا. فالسؤال المنهجي المهم هنا هو: بأي عقل استجاز إمبيدوقليس بناء تلك الأسطورة السخيفة؟ وعلى أي أساس قامت معقوليتها عنده؟ ويترتب على هذا السؤال سؤال آخر بنفس الأهمية: ما الذي يمكن أن يرجحها على غيرها في نفس الأمر؟؟ هذا ما كان يجب أن يتوجه به ماكمولين لمبدأ التنظير في هذا الباب من الأصل، وكما ترى فإنه يكاد يصرح به، لكن يجبن عن ذلك، والله المستعان. لا يزال الطبائعيون العصريون يعتقدون أن نظريات المعاصرين في قضية النشأة أقرب إلى أن تطابق الواقع، أي أنها أرجح احتماليا، من نظريات هؤلاء الأولين، لا على أساس إلا أن المعاصرين لديهم معادلات رياضية معقدة تصف ما يزعمون، ولديهم مشاهدات يتأولونها بما يوافق ذلك! وقد أطلنا النفس في بيان أنه لا دلالة في هذا ولا في

ذاك! فلا فضل لكوزمولوجيا الانفجار الكبير على نظرية إمبيدوقليس هذه في ميزان المعرفة، على الإطلاق! ولا دليل عند أينشتاين على مبدأ التساوي هذا، ولا يمكن أن يأتي له بدليل من طريقه، كما أنه لا دليل لإمبيدوقليس على زعمه أن جميع موجودات الكون لابد وأنها تتركب مما يقال له الذرات، فضلا عن أن تكون نشأتها جميعا بعد أن لم تكن، راجعة إلى تجميع وتركيب تلك الذرات في بعضها البعض! الرجل اختار تحكما، وبمحض الهوى، أن يقيس جميع موجودات العالم على تل الرمال الذي يتركب من تراكم حبيبات الرمال، مع أنه لم ير أحد من الناس أبدا تلا من تلال الرمال في الصحراء وهو ينشأ من اجتماع حبيبات الرمال فعليا، من أوله إلى آخره، كما يزعمون أنه جرى على جميع الموجودات في العالم!! ولو أن أحدهم حاول أن يفرق جميع حبيبات الرمال المجتمعة في تل من التلال في الصحراء، بحيث تصبح كل واحدة منها سابحة وحدها في الخلاء باستقلال عن غيرها كما في تصورهم للنشأة الذرية المزعومة، لما استطاع، دع عنك أن يأتي بعكس ذلك! هذا تصور تجريدي توهمي لا نظير له في الواقع المحسوس أصلا، أي أنه مستمد من قياس الإمكان لا الوقوع، تمثل نشأة جميع الموجودات، بحال توهمية لجسيمات دقيقة إنما تصوروا أن العادة تجيز أن توجد متفرقة متناثرة وأن تجمع مع بعضها البعض في أجسام وأجرام على نحو ما زعموا، من غير أن يكون قد سبق لأحدهم أن رأى وقوع ذلك في شيء من الموجودات المعتادة على الإطلاق، ومع هذا اعتمد أمبيدوقليس على مجرد الجواز العقلي لتلك الصورة، ليجعلها هي أصل كل موجود!! ولا شك أن جوازها العقلي الذي نقرره هاهنا لا يشتمل على لاغائيتها المزعومة، إذ من المحال أصلا أن يوجد جسيم يتحرك بلا غاية تتعلق بها حركته وانتقاله، عند من أخرجه من العدم إلى الوجود أصالة! حتى تل الرمال من أجل أن يصبح تلا، فلابد لتكاثف الجسميات أو

الذرات فيه من نظام ونسق ونمط يوصلها بعد اجتماعها إلى أن تركب تلا!! والرب الذي يخلق بعلم وحكمة ليس صنعه ضربا من العبث وخبط الفوضى، حتى تكون طريقته في إنشاء الموجودات أن يصنع جسيمات دقيقة متناثرة يملأ بها الخلاء ثم يدفعها لتكون الطبائع المركبة فيها هي التي تخلق العالم بالتجمع والتكثف بعد تقلب طويل الأمد!! وهو نفس ما به نقول إن مبدأ الخلق بالتطوير، سواء في خلق الكون أو في خلق الأنواع الحية، يقتضي النقص في حقه جل شأنه! والعقل كذلك يمنع من نشوء النظام اتفاقا من محض الفوضى! والقصد أننا عندما نقول إن الكوزمولوجيين يعتمدون القياس فيما لا مدخل فيه للقياس، فلا يعترض علينا بأن ما فرضوه وتصوروه ليس له نظير في عادتنا، فإن المقصود بالقياس أنهم اعتمدوا مبادئ دهرية صرفة تطرد الطبائع المعتادة فيما وراء نطاق العادة بلا سلطان إلا الهوى والتحكم وتشبيه الأفعال الإلهية بأفعال المخلوقين، ثم صوروا في أذهانهم جريان تلك الطبائع بحيث تنشأ عنها موجودات العالم على اختلاف هيئاتها وصفاتها، بنظائر ما اعتادوه من ترتب الأثر على المؤثر. فكما أنه من الجائز عقلا وعادة أن تجمع كمية من الجسيمات الدقيقة كحبات الرمال ثم تبلل وتعرض للحرارة فتتشكل جسما صلبا كتماثيل الصلصال أو الفخار أو ما شاكلهما، فمن الجائز بالقياس عندهم أن تكون هذه السنة السببية في تجميع الجسيمات الدقيقة الكثيرة لتشكيل جسم واحد كبير، اعتمادا على طبائع الجسيمات نفسها، وما يحصل لها من تأثر بطبائع أخرى معتادة لديهم، هي بعينها السنة التي أنشأت كل موجود في الماضي السحيق بطريقة مشابهة! وذلك أنه ليس في الباب أصلا نظائر حتى يقاس عليها، إذ لم يشهد أحدهم شيئا يخلق بجمع الذرات المتناثرة أصلا، فضلا عن أن يشهد عالما كاملا يخلق كل شيء فيه على هذه الكيفية! وإنما يتوهم الناظر صورة لسلسلة من الحوادث الطبيعية (نوعا) التي يدعي

(من دهريته) أنه من الممكن أن تكون المادة قد أنشأت بها أنواع الموجودات، كما يرجو أحدهم لنفسه أنه فاعله إن كان خالقا عالما كعالمنا هذا في يوم من الأيام! بل إنه يزعم طريقة للخلق أحط وأسخف وأغرق في الجهالة والعمى مما كان هو نفسه ليفعله لو كان خالقا شيئا ما! أن يترك الذرات المزعومة لتسبح في الخلاء حرة تتخبط خبط العشواء، ثم ينتظر لزمان طويل يرجو معه أنه من طوله فلابد أن يسمح لتلك الذرات بأن تركب كل شيء!

والقصد، أيها الكرام، أن هذا النوع من التنظير، فيه من الجهالة والمغالطة والانحطاط العقلي ما قل أن يجتمع نظيره في شيء من أقوال الناس! وهو منشأ بدعة تشبيه الأفعال الإلهية تاريخيا، إذ يشبه الفيلسوف أفعالا نحن نجزم بأنها من خصائص الربوبية، بل من أخص خصائصها: خلق العالم بجميع ما فيه، ذلك الخلق الذي لا يضاهيه صنع صانع ولا خلق خالق مهما بلغ، يشبه تلك الأفعال الربانية الكبرى بحوادث طبيعية موهومة ليس في العقل ولا في العادة ما يسوغ تصورها أصلا! وأعني بالطبيعية هنا، أي الناشئة عن الطبائع المركبة في مواد العالم! فأقول ليس في العقل ما يسوغ ذلك، لأن العقل كما بينت في غير موضع، يقع في الدور القبلي الظاهر عندما يدعي أن طبائع المواد المخلوقة هي التي خلقت المواد وركبت فيها طبائعها!! فمن وافق الفطرة وأقر بأن العالم حادث بعد أن لم يكن، فمن محض السخف أن يدعي أنه إنما أحدثته طبائع المواد المشتمل عليها فيه، لأن الطبائع إنما هي من صفات مادة العالم التي كان الفرض أنها حدثت بحدوث العالم! فمبدأ طرح تلك المسألة للتنظير الطبيعي والتفسير الطبيعي والتعليل بالطبائع، على أيما نحو كان، هذا مغالطة فجة وعدوان على الباري سبحانه وعلى العقل والعلم والغيب جميعا! ومع هذا، فلن يصفها ماكولين، ولا بلانتينغا ولا غيرهما بهذه الصفة، لأنهم لا يجرؤون أصلا على اتخاذ موقف كهذا أكاديميا! ولولا أن كان المجتمع

الغربي في زمان أمبيدوقليس مهيئا جملة لقبول الفكر الدهري، وطريقة النظر الدهرية تلك، ما وصلت إلينا تلك النظرية اليوم على أنها من تراث الفلسفة المحترم الموقر عند القوم، وما صارت الفيزياء وغيرها من العلوم الطبيعية إلى ما هي غارقة فيه اليوم من أوحال الخرف والجهل المركب، ولكن لله في خلقه شؤون وغايات وحكم لا يحصيها أحد سواه، جل في علاه!

يحرر ماكمولين ما يسميه بمبدأ "عدم الاكتراث" Indifference Principle كما أشار إليه بلانتينغا، ويقرره على أنه هو حرص الناظر والفيلسوف على تجاوز أي تعليل غائي أو قصد عند تصوره لحوادث النشأة الأولى، إذ يبدأها بمحض الفوضى Total Chaos، ثم يستبعد أي فاعلية Agency في أي مرحلة من مراحلها، ثم يقول ماكمولين معقبا:

"فهل كان افتراض الحالة الأولى العشوائية قضية مبدأ خفي لدى أصحاب الكوزموجوني الذرية Atomist Cosmogony، على أثر استبعاد العقل من أي دور فاعل في قضية النشأة الكونية تأسيسا على مسلمات متقدمة على ذلك؟ لقد خمن المؤرخون أن هذا الاستبعاد قد يكون ناشئا عن عداء ونقمة (لدى الفلاسفة) على الملل المؤسسية Institutional Religions القائمة في ذلك الوقت، إذ كانوا يرون أن الاعتقاد الديني يقوم على الإقرار بالدور الفاعل للعقل أو الروح في أمور العالم على كافة المستويات. أم أن الزعم بأن تلك الفورة الأولى للذرات (التي خلق بها العالم) كافية لابتداء جميع ما يأتي بعدها، كان مجرد ثمرة للتصور الذري Atomist world view، وليس شيئا يعامل على أن له أساسا مستقلا للتسليم بصحته؟ من الصعب الحكم في ذلك، ولكن غايتنا أن نخمن، بالنظر إلى الحالة المهترئة للأدلة المتاحة بين أيدينا."

ومن ثم يواصل "فيخمن" ويقول:

"إن الثقة الظاهرة لدى الذريين وإمبيدوقليس فيما يتعلق بكفاية نقطة الابتداء التي فرضوها لإنشاء الكون بكليته، تتنافى مع تلك الحالة المتواضعة للغاية للسيناريوهات التي يقدمونها للربط بين تلك النقطة الأولى وبين الحالة التي عليها العالم الآن. فمن المعقول على ما يبدو أن نزعم تفضيلا سابقا لديهم لوضع نظريات للنشأة ليس فيها محل للعقل ولا دور (أي فاعلية الإله وغائيته). لذا فهذه اللااكتراثية المدعاة التي تتسم بها الحالة الأولى للكون (في نظرياتهم) قد يصح أن توصف على أنها قضية مبدأ كلي، بمعنى أنها قد استمدت من تصورات واعتبارات أكبر جعلت الأمر يبدو مترجحا من الابتداء أن تقرير نقطة ابتداء معينة بحيث توصل إلى حالة العالم كما نعرفها، هو أمر لا حاجة إليه."

قلت، فالرجل هنا يتكلف وضع صورتين أو فرضين لا انفصال لإحداهما عن الأخرى عند التحقيق، من أجل أن يظهر موقفه في مسألة أصل الطريقة اليونانية في التفلسف والنظر على أنه مجرد ترجيح تاريخي تخميني قد يصيب وقد يخطئ! فيقول ما حاصله إذا كان الذريون قد استبعدوا الغائية والفاعلية ومن ثم الحالة الأولى المختارة بعناية لابتداء الكون، من تصوراتهم لأسطورة النشأة لديهم، فإما أن يكون ذلك راجعا، تاريخيا، إلى اصطحابهم مسلمة متقدمة على ذلك الاستبعاد، وهي ما يسميه هنا بمبدأ عدم الاكتراث، وأن تكون تلك المسلمة راجعة إلى بغضهم للدين ومؤسساته جملة، وعداوتهم لها، وإما ألا يكون الأمر راجعا إلى وجود تلك المسلمة لديهم، وإنما هي مجرد ثمرة طبيعية لميتافيزيقا المذهب الذري Atomist World View. فما معنى أن يكون ذلك المسلك في التنظير في مسألة النشأة عندهم مجرد ثمرة لميتافيزيقا المذهب الذري؟؟ أنهم اعتقدوا أولا أن الكون كله إنما يتركب من ذرات، ثم بناء على ذلك الاعتقاد قرروا إلغاء أي ذات فاعلة من ورائه بحيث تتعلل بها تلك الذرات نفسها؟ وهل

يقوم ذلك الإلغاء في نفس صاحبه، إلا تأسيسا على الطبيعية المنهجية المحضة، التي هي بدورها منبع ذلك المبدأ الذي سماه الرجل هنا بما سماه به، وغيره من المبادئ الدهرية الطبيعية التي تدور في نفس الفلك، وتثمر عن نفس الثمرة؟ لا يميل العاقل عن اعتقاد الفاعلية الإلهية في خلق الكون، إلى الزعم بانتفائها بالكلية، وقيام الفوضى المحضة في مقامها، إلا بأن يتم له التشبع بأهواء الدهرية وجحودهم، ومن ثم فساد العقل والفطرة، ومن ثم التلبس بتلك البواعث الباطنة الأولى، من نقمة وحقد على أهل الملل المثبتة للباري، واستكبار عليهم وعلى ما معهم، نسأل الله السلامة، لا قبل ذلك!

فحقيقة استكبار الفلاسفة الأوائل على ما عند أهل الملل المثبتة للباري في زمانهم، وحرصهم على إحلال تخرصاتهم وأوهامهم في محلها، واستلاب السلطان على عقول الناس من رؤوسها، هذه قضية ظاهرة جلية لا تخفى على صادق متجرد من الهوى، وليست مسألة ترجيح تاريخي نظري، ملجئ إلى هذا اللجج وذاك العرض الحذر المرتجف الذي يعاني منه الكاتب في كلامه! هذه حقيقة جلية واضحة راجعة إلى تصور القوم لوظيفة الفيلسوف من الأساس، وليست مما اختص به الذريون دون مخالفيهم كما يدعي، وكما سنبين في التعليق على ما تبقى من كلامه فيما يأتي بعد بحول الله وقوته. والله المستعان لا رب سواه.

الجزء الحادي عشر

في نهاية المقال، خلص ماكمولين إلى خلاصة قال فيها:

كما رأينا، فإن الكوزمولوجيا الحديثة كانت إلى حد مذهل محكومة "بمبادئ كلية" من العسير للغاية أن نقيم مسوغاتها العقلية. فإن مقدار التوسع بالقياس الفكري Extrapolation فاحش جدا Extreme، وإمكانيات التحقق الإمبريقي ضئيلة للغاية، إلى الحد الذي اضطر معه الكوزمولوجيون للاستناد إلى أكثر صور الحدس إيهاما للعقل، في بناء نظرية جديدة أو في الحكم على نظرية قائمة! هذا الحدس مستمد من مصادر قد تكون معتمة عند الكوزمولوجيين أنفسهم، مصادر تخرج في أحيان كثيرة خارج دائرة العلم المعتبر Normal Science. ولهذا بدت الحدود الفاصلة بين الكوزمولوجيا والميتافيزيقا أو حتى الثيولوجيا، نفاذة في بعض الأحيان. إنه مذكر نافع بالسياق الفكري الأوسع الذي تجري فيه عملية البحث العلمي، ذلك السياق الذي يسهل للمطالب الاختزالية للعلم المعتبر أن تخفيه عن الأنظار. إن ذلك النزاع الذي اضطرم في الخمسينات من القرن الماضي بين أنصار نظريتي الانفجار الكبير ونظرية الكون الساكن المتنافسين، وذلك الفشل الظاهري لمبدأ عدم الاكتراث في السبعينات، وظهور أنماط من التفسير الأنثروبي غير مألوفة، كل هذا يشهد على الطبيعة التخمينية لعملية بناء النظريات الكوزمولوجية. إن ضراوة التمسك لدى بعضهم بمبدأ عدم الاكتراث، وانفتاح آخرين لفرضيات أنثروبية غير تقليدية، يعكس التزامات ميتافيزيقة أوسع. لعله من الممكن تقسيم ردود الأفعال الأخيرة تجاه الجدال حول مسألة الضبط الدقيق تحت ثلاثة أقسام إجمالية. فأنصار مدخل الأكوان المتعددة لا يمانعون من استعمال المنطق الأنثروبي، ولكنهم يريدون أن يدمجوه بمبدأ عدم الاكتراث بصورة ما أو بأخرى. وأولئك الذين يتحمسون لمزايا

الأنموذج الانتفاخي يزعمون صورة من صور مبدأ عدم الاكتراث لدعم تصورهم، ولهم نشاط في التشكيك في أي صورة ظاهرة للضبط الدقيق. والمثبتون للصانع الذين تباهوا بأدلة الضبط الدقيق، والذين وجدوه أمرا طبيعيا جدا أن يلجؤوا لنوع من أنواع التفسير الأنثروبي، يميلون لمساءلة ما إذا كان مبدأ عدم الاكتراث يستحق ذلك الوزن الذي يعطيه له الكوزمولوجيون. فلعلنا لا نحتاج إلى أن نخشى التناقض الظاهري في الكوزمولوجيا، كما حاجج كانط ذات يوم أنه يتعين علينا، ولكن يبدو أنه لن يكون من السهل التغلب على الشعور بالضيق والمرارة!

قلت: سبحانك ربي ما أحلمك! يا رجل، كل هذا من أجل ألا تقولها صراحة: أن هذا الذي يقال له كوزمولوجيا، ليس من العلم أو المعرفة المعتبرة في قليل أو كثير؟؟ "كانت إلى حد مذهل محكومة بمبادئ كلية من العسير للغاية أن نقيم مسوغاتها العقلية"! بل كانت محكومة كلها، من مبدأ الطرح، بمبادئ ومقدمات فلسفية باطلة، وأحسنها حالا ما لا دليل عليه البتة، ولا يمكن الاستدلال لإثباته لا بالعقل ولا بالحس! وكل من تدبر فيها بإنصاف وصدق مع النفس، جزم بذلك بلا تردد!! صنعة نظرية موضوعها توليد الدعاوى المعرفية الإمبريقية (زعموا) بشأن شيء ما، مع أن صاحب تلك الصنعة لم ير من هذا الشيء الذي هو موضوع نظره وفلسفته، ولا يطمع في أن يرى منه، إلا شطرا ضئيلا، لم يزل هو نفسه ماضيا في تصغيره وتحقيره بالنسبة إلى ذلك الشيء الذي يدعي إحاطة نظريته به، ثم إنه كذلك يعلم أنه لم يسبق له أن رأى لذلك الشيء نظيرا أبدا ولا أحاطت حواسه بما يشبهه! فأي مستند في العقل يصلح لقبول أي دعوى ينشئها هذا المسكين من طريقه في تلك الصنعة، على أنها معرفة مستساغة، أو حتى على أنها تخمين ظني تقوم له قرائن تصلح لترجيحه على ما يخالفه؟ ما قولك في نملة حقيرة، وقفت مع أقران لها على ظهر فيل عظيم، لا تكاد ترى منه، هي وأقرانها، إلا ذاك

السطح الخشن الذي يقفون عليه، وما عرفوا غيره منذ أن ولدوا، ومع هذا أبت تلك النملة الرئيسة إلا أن تضع نظرية كلية في الوجود وما فيه، هكذا، على شرط الإطلاق، لأجل أن تكشف لأقرانها ما خفي عليهم من أمر العالم، فقسمت الموجودات، من حيث هي، إلى أقسام، بناء على قياس مستمد من عادتها النملية، هي وأقرانها، فقالت إن الموجودات كلها لابد وأنها مركبة من أشياء يقبض بعضها على بعض، كما تقبض هي بكلاليبها على طعامها (جواهر متراكبة بالقبض)، ثم قالت إن الكون ليس فيه إلا الأرض التي يقفون عليها ويتحركون عليها، ومن فوقها سماء تنشأ فيها عن تلك الجواهر المزعومة في نظريتها، أشياء عظيمة تمر فيها عرضا ثم تمضي ولا ترجع من جديد، لأن الجواهر فيها تنفك منها ثم يعاد تركيبها في أشياء أخرى لتمر أمامهم ثم تنفك، وهكذا، وهو ولا شك ما يظهر لها من مرور الأشياء المحيطة بالفيل إلى جواره؟؟ هذه النملة الفذة، لما نظرت بعد ذلك وتأملت في الأرض التي يقفون عليها وجدتها كثيرة الاهتزاز والتموج، ولا تنفك جواهرها كما زعمته في "الأشياء العظيمة" المارة من فوقها، بل تبقى متماسكة تحت أرجلهم، فسرت ذلك بقياس آخر، مفاده انقسام الجواهر المزعومة إلى نوعين، نوع ينفك بعضه عن بعض ولا يبقى في جسم واحد لمدة طويلة مهما بقي، ونوع آخر لا ينفك، ولكنه ينشئ أجساما خشنة مرنة مع صلابتها، وهي صفة الأرض التي يقفون عليها، ولا يعلمون غيرها مركبا من تلك الفئة من الجواهر! ثم إنهم لما مضوا في الحركة والسفر على سطح تلك الأرض الخشنة، وجدوها منحنية، ولما أطالوا المسير، وجدوا أنهم رجعوا بعد سفر طويل، إلى نفس النقطة التي انطلقوا منها، فحكمت تلك النملة العبقرية المتبوعة بينهم، بأن العالم ليس فيه إلا جرم مكور عملاق يعيشون جميعهم عليه، إذ لا حياة إلا لما يكون عليه، ومن حوله سماء على هذه الصفة التي ذكرنا، مما يتركب كله من تلك

الجواهر! ثم زعمت مزيدا من التفصيل في صفات تلك الجواهر التي يقبض بعضها على بعض، ووضعت معادلة رياضية نتصور بها حدود الكون كيف تكون، بناء على تلك الصفات، فقالت إنه لابد وأنك كلما صعدت إلى أعلى في السماء (وهو ما لم يجربه جنس النمل أبدا، ولكنه الخيال الخصب)، لم تجد إلا أشياء يموج بعضها في بعض ويدخل بعضها في بعض بمزيد من الفوضى والعشواء، حتى لا تجاوز مسافة عشرين أو ثلاثين مترا، إلا وقد وصلت إلى حالة من الانقباض والانفكاك العشوائي المتسارع لموجودات الكون، بحيث لا يبقى معها شيء في الوجود لأكثر من كسر ضئيل جدا من الثانية، أو إن شئت فقل: لا يبقى زمانين! فما قولك في تلك النملة الفذة، صاحبة العلم الواسع الوفير، وفي الكوزمولوجيا التي أتحفت بها أقرانها؟ فما كان قولك فيها، فهو قولنا في كوزمولوجياكم العبثية تلك، والله المستعان!

القضية يا كرام ليست في تلك النملة المستكبرة السفيهة، التي ترى أنها قد اجتمع لها من العقل والعلم ما لم يحصل لأحد غيرها! وإنما القضية التي تؤلم كل عاقل، في نملات أخريات ممن معها، ظهر لهن وهاء تلك الإطلاقات العنترية الفارغة التي تعلقت بها تلك النملة، وعليها أسست خرافاتها وأوهامها، ومع هذا، كرهت أن تصرح بفساد ذلك كله ووهاء ما يقوم عليه من مزاعم قياسية تحكمية صرفة، لأجل ألا يقال عنها إنها جاهلة أو تحب الجهل أو تكره العلم، ومن ثم تفقد فرصتها في أن تصبح من النملات المقدمات المحترمات عند تلك النملة المعظمة ومن عظموها!

قوله: "فإن مقدار التوسع بالقياس الفكري Extrapolation فاحش جدا Extreme، وإمكانيات التحقق الإمبريقي ضئيلة للغاية، إلى الحد الذي اضطر معه الكوزمولوجيون للاستناد إلى أكثر صور الحدس إيهاما للعقل، في بناء نظرية جديدة أو في الحكم على نظرية

قائمة!" قلت: فمتى صار فاحشا جدا في نظرك يا سيد ماكولين؟ ليس عندما قالوا بالضبط الدقيق في حوادث النشأة ولا شك، إذ أنت تستحسن ذلك منهم ولا تكرهه! فمتى إذن؟ عندما أصبح موضوع علم الكوزمولوجيا، ليس هذا العالم وحسب، بل العوالم المتعددة المزعومة غير المتناهية في أعدادها، التي يبلغ كل واحد منها تلك الأرقام الفلكية الفاحشة التي استعملوها في وصف هذا العالم على طريقة تلك النملة الفذة التي ضربنا بها المثل آنفا؟؟ هذا انتقاء بالهوى إذن، لأن الآفة المنهجية واحدة عند كلا الفريقين! ثم أي إمكانيات للتحقق الإمبريقي هذه التي لا تجرؤ على أن تزيد في وصفها بأنها ضئيلة للغاية؟؟ وهل لو أننا قدرنا، تنزلا، أن استطاع البشر في يوم من أيام المستقبل البعيد، كما يطمح هؤلاء ويتمنون، أن يكشفوا بحواسهم جميع الكون في جميع جهاته وأنحائه من أوله إلى آخره، كما يرون هذه الأرض التي نعيش عليها في المحطات الفضائية وفي صور الأقمار الصناعية، فهل يصبح لديهم، إذن، مستند صحيح عقلا لادعاء أي تصور معرفي يزعمونه بشأن الكيفية التي خلق بها هذا الكون الفسيح بعد أن لم يكن، وما كان عليه في ماضيه السحيق، من قبل التاريخ المدون المكتوب؟ الجواب لا! أبدا! لأنك من أجل أن تدعي طريقا للمعرفة بذلك، فلابد أن يكون قد سبق لك أو لأقرانك رصد عدة أكوان ككوننا هذا والإحاطة به بصرا، مع الوقوف كذلك على الحوادث التي خلقت بها تلك الأكوان الأخرى، بحيث إن نظرت في كوننا هذا ووجدته يشبه مجموعة الأكوان التي دلك الاستقراء على أنها نشأت على الكيفية (أ) خلافا للكيفية (ب) التي تولد أكوانا على صفات وهيئات أخرى، ترجح لديك (أ) على (ب)! أما أن يصبح غاية ما في الكيس هو تمديد وتمطيط وطرد الأقيسة وطرد السنن الكونية المعتادة في هذا الإطار المحسوس من الكون، طردا تحكميا مطلقا، بحيث تستغرق الكون بكليته من أوله إلى آخره،

ثم يقال فيما ينشأ بين أيديهم من ذلك إنه "علم"، فهذا والله من أعظم جنايات الفلاسفة على العقل والعلم جميعا في تاريخ البشر منذ أن وطئت أقدامهم الحصى!

ومن الجنايات كذلك أن يقال في مثل هذا، تهوينا وتخفيفا للعبارة، إن إمكانيات التحقق الإمبريقي فيه "ضئيلة للغاية"! بل الحق أنها منعدمة أصلا من مبدأ الطرح!

وجناية الخوض في مسألة خلق الكون بالنظر العقلي وبالأقيسة على ما في الحس والعادة، ليست بالجديدة نوعا، بل هي، كما ذكره الكاتب في سياق مقاله، قديمة قدم الفلسفة اليونانية نفسها! ولكنها مرت بمراحل تاريخية، كان يضاف في كل مرحلة منها إلى سابقتها من التردي بالعقل والدين ما لم يتصوره السابقون في نفس الأمر! حتى قال ديكارت، الفيلسوف النصراني (!!) الكبير، بماكينة نشأت وأنشأت هذا الكون كما نعرفه، من مقدمات مادية عشوائية محضة! فإذا سئل عن تلك الدهرية الجلية في أروقة أقرانه من الفلاسفة، قال ما معناه: هذه فكرة رائقة تليق بالفيلسوف، من أجل ألا يترك أمرا لم تتناوله نظريته بشأن هذا العالم، وإذا سئل هو نفسه في الكنيسة، قال ما حاصله: لعل الأمر كان على ما هو موصوف في الكتاب المقدس، وهذا هو الأرجح عندي، ولكني مع هذا قد جئتكم بفروض علمية على طريقة القياس المتبعة في ذلك أكاديميا، بما لا يمكن تكذيبه من طريق الحس والعادة، فإن تبين أن الطريقة الصحيحة في فهم النص المقدس لا تمنعه، كان هو الأظهر، وليجر النزاع الثيولوجي كيفما اتفق له أن يجري! تأمل إذ يقول فيما أسس به لطريقة الكوزمولوجيين العصريين في الاستدلال على أوهامهم، وفيما نقله عنه هذا الكاتب:

"لقد أظهرت (أي في كتابه: خطاب بشأن الطريقة Discourse on Method) كيف أن القسم الأعظم من أقسام تلك المادة الفوضوية الأولى، لابد، وبناء على تلك القوانين، أن

يصبح وقد ترتب وانتظم على نحو مخصوص يجعلها مماثلة لسماواتنا، وكيف أنه، وفي نفس الوقت، فإن بعض أجزائها لابد وأنها ستشكل الأرض، وبعضها سيشكل الكواكب والشهب والنيازك، وبعضها سيشكل شمسا ونجوما ثابتة. فليس ثمة ما نراه في ظواهر هذا العالم، بحيث لا يكون أو لا يمكن أن يكون على نفس هذا الذي نراه عليه، في ظواهر عالم قد نشأ على النحو الذي وصفته."! قلت: فالمبدأ في الإثبات والنفي عند ديكارت، في هذا الباب الخطير، لا يعدو أن يكون هو النظر فيما تقتضيه، أو فيما تستتبعه الأسطورة التي تصورها في النشأة من أحوال يكون عليها العالم الآن، فإن وافقت تلك المقتضيات (أو ما يسميه المعاصرون بالتنبؤات Predictions) ما عليه الحس والعادة، دل ذلك على مطابقتها الواقع، وإلا وجب ردها! فهل هذا، يا عقلاء، منطق سائغ مقبول أو مستند نظري معقول في القبول والرد في ذلك الغيب العظيم؟ نقول: لو صح أن كانت نشأة الكون على الكيفية (س)، فلابد أن يكون العالم على الهيئة (أ)، العالم فعلا على الهيئة (أ)، إذن كانت نشأة الكون على الكيفية (س) وهو المطلوب؟؟ كيف عرفت أنه إن صحت (س)، أيا ما كانت، فسيلزم منها (أ)؟ من أين يأتي عندك هذا اللزوم؟ هل الرب عندك هو خالق العالم حقا، أم أن القانون الطبيعي هو الذي خلقه على الحقيقة؟؟ هذا المنطق يسلب رب العالمين مشيئته فيما وراء الخلق، وكأن الرب ما كان بوسعه أن يخلق عالما فيه هذه القوانين وهيئته على النحو (أ)، من غير أن يكون قد أجرى حوادث ذلك الخلق على الكيف (س) المزعوم! من هنا تصبح (أ) دالة على (س) لا على غيرها، وإلا فما وجه الدلالة؟! إن قالوا لا نزعم الضرورة العقلية في هذا، قلنا فمن منكم وقع له في عادته مشاهدة عوالم شتى غير عالمنا هذا، وشهد خلقها كلها كيف كان، بحيث عرف من ذلك بالاستقراء، أن عادة رب العالمين في خلق العوالم المشابهة لعالمنا أن

يجري ذلك على النحو (س) المزعوم لا على غيره؟؟ فإذا عدمت العادة والاستقراء، لم يبق إلا الإيجاب العقلي الأجوف، وهو ما يقتضي إخضاع رب العالمين لسنة هو من سنها أصلا! ولهذا اتهم ماكولين ديكارت في تعقيبه على هذا النقل من كلامه بالحتمانية الطبيعية، ثم ذكر أنه قد تبرأ منها في بعض كتبه! فهل خفي على ماكولين، وقد كتب هذا البحث من أجل أن ينصر مبدأ الضبط الدقيق الكوزمولوجي، على مبدأ عدم الاكتراث الكوزمولوجي كما سماه، أن جميع ما زعموه ضبطا دقيقا في نشأة الكون، فهو يعاني من نفس الآفة، ويقتضي نفس الحتمانية التي أنكرها على ديكارت؟؟ غاية كلام الرجل في هذا المقال أننا لا يحسن بنا (معاشر مثبتة الصانع كما يسمينا) أن نتخذ من مسألة المبدأ الأنثروبي هذه برهانا لإثبات الصانع، لأنه ليس يقف على أرض صلبة سالمة من المعارض المكافئ في قوة الاحتمال، كما هو أدنى المطلوب في مقدمات أي برهان، وإنما حسبنا أن نتخذه تفسيرا ثيولوجيا لميثولوجيا الانفجار العصرية وما ترتب عليها من مزاعم القوم بشأن تاريخ الكون وتطوره وكذا! حسبنا أن نقول إن معلومات الضبط الدقيق لا تفسير لكونها على ما هي عليه عندنا إلا أن الصانع جعل العالم كذلك! ولكن إن كان المقصود بالضبط الدقيق هو ترتب الصفة (أ) للكون على القصة (س) في نشأته، بحيث لو قدرنا أن تغيرت (س) ولو بقدر ضئيل، لما وصل العالم إلى الهيئة (أ)، فهذه هي نفس الحتمانية الطبيعية الدهرية التي تزعمون الفرار منها في كل مناسبة! تلك التي بمثلها استدل ديكارت على صحة أسطورته الفوضوية الجارية على مبدأ عدم الاكتراث كما ترى!

وإلا فإذا قال المخالف، وهو قائل لا محالة: لو صح أن كانت نشأة الكون على الكيفية (ص) فلابد أن يكون العالم على الهيئة (أ) - العالم فعلا على الهيئة (أ) - إذن نشأته كانت على

الكيفية (ص)، فبأي شيء ترجح أنت (س) على (ص)، أو يرجح هو (ص) على (س)؟؟ لا شيء على الإطلاق، إذ أساس الترجيح منعدم كما بينا! النملة لم تر في حياتها إلا ظهر الفيل الذي تقف عليه، بأي حق أجازت لنفسها أن تفرض قصة لنشأة العالم بكليته، ثم تقول مدللة على صحة ما جاءت به: هذا ما نتوقع أن نراه إذا صحت هذه القصة، ولا نتوقع غيره؟؟ هذه هي القضية التي لن يجرؤ على الكلام فيها كما هو حقها أن يتكلم فيها، كل من نشأ في تلك الأكاديمية وتربى على طريقة أصحابها، وترقى في طبقاتها ومنازلها ودرجاتها العلمية!

الآفة المنهجية الأخرى التي أصل لها ديكارت، ونقلها كاتب هذا المقال عنه دونما نقد أو تفنيد، هي حمله الناس على قبول دعواه بشأن التدرج الميكانيكي البطيء لحوادث النشأة المزعومة عنده، لأجل أن هذا ما يحصل به الفهم الأتم والأكمل للكون ولجريان تلك الماكينة الفيزيائية فيه، خلافا لما لو تركنا مسألة النشأة دون تنظير ميكانيكي على هذا النحو، إذ حينئذ لا يجد الفيلسوف ما يملأ به تلك الفجوة النظرية في تصوره لتاريخ النظام الطبيعي! ولو صدق لقال إنه لن ينفعه ولن يناسب فلسفته أن يملأ تلك الفجوة بما في سفر التكوين من دعاوى تفصيلية بشأن خلق السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما. لماذا؟ لأنها إذن تظل حوادث غير خاضعة للآلة الميكانيكية الصرفة التي يرى من مهمات نظريته أن يخضع لها جميع ذلك! وهذه قضية يجب أن يفهمها إخواننا المسلمون المشتغلون بالفيزياء والفلك، أن القضية هنا ليست قضية جمع وتوفيق بين ما في القرآن والسنة من جانب، وما عند القوم من نظريات النشأة من الجانب الآخر، وإنما هي قضية ترجيح منهجي كلي، تأصيلا وتفريعا معا! إما أن يكون اعتقادك أن الرب سبحانه خلق هذا العالم، وركب فيه تلك السنن الطبيعية المطردة، بحوادث لا قياس لها في كيفيتها على الحوادث الجارية على موجودات العالم نفسه، الخاضعة

لتلك السنن، إذ لا يعقل أصلا أن تكون الحوادث الجارية على القانون (أ)، المطبوعة عليه مادة العالم، هي نفسها التي خلقت بها نفس المادة، وجعل بها القانون (أ) في جملة طبائعها، بعد أن لم يكن منها، وإذن فلا طريق لتحقيق المعرفة بشيء من تلك الحوادث وما كان فيها إلا السمع من الوحي وحسب، دونما مدخل لإعمال القياس بوجه من الوجوه، إما هذا، وإما أنك تعتقد قدم وأزلية النظام الطبيعي وسننه المطردة، ومن ثم فما تسميه بحوادث النشأة ليس عندك إلا نشأة هذه الهيئة المعروفة أو الصفة الحاضرة التي نعرفها للعالم وللطبائع المركبة فيه، تحولا عن أصل مغاير لها، تحت تأثير قانون أزلي قديم، القانون (أ)، وإذن فلا حقيقة عندك لحوادث الخلق الإلهي أيا ما كان ما جاء به النص من خبرها، لأنها إذن تكون خرقا لاطراد نظامي قديم لا قيام لنظرية طبيعية في الباب دون استصحابه سلفا! فإما طريقة أتباع الرسل في طلب المعرفة في هذا الباب، وإما الطريقة اليونانية الدهرية في نفس الأمر! أما أن يتكلف المسلم حشو فجوات المعرفة لديه في هذه القضية الغيبية المحضة بكلام الفلاسفة، فهو مرفوض في ديننا، كما يرفض الفلاسفة حشو فجوات نظرياتهم وميثولوجياهم هم في ذلك بشيء مما في كتبنا! ولهذا قلنا إن الذي يروم الجمع بين هذا وذاك، فإنما هو كالذي يريد حمل أهل ملة من الملل على قبول الجمع بينها وبين دين آخر مخالف، يضرب بعض ذلك ببعض في دين ثالث جديد ينتقل إليه الجميع! فمن المعيب للغاية أن تجد مسلما يقول، مثلا، إن موضوع نظرية الانفجار الكبير إنما هو السماء الدنيا دون ما فوقها من السماوات، فإن أصحاب تلك النظرية لو شرطوا على أنفسهم ذلك الشرط ما وضعوها أصلا، ليس فقط لأن مبدأ التنظير الفيزيقي عند اليونانيين، والميتافيزيقي كذلك، يقومان قياما مبدئيا على الطرد المطلق لكل قياس على شيء في الحس أو في العادة، حتى يكون موضوعه هو كل ما في الأعيان مما يصح

أن يدخل تحت هذا المعنى الكلي أو ذاك الذي هو موضوع التنظير، ولكن لأن موضوع الانفجار والتمدد، الموصوف بهما فيها، إنما هو الزمان والمكان معا، وما يقع على الزمكان الوجودي المزعوم من تمدد مزعوم، لولا استيعاب معادلات النسبية العامة لجميع كتلة الكون وكثافة مادته في طياتها (بموجب الأصل المنهجي الذي ذكرنا)، ما قالوا به! فقبول النظرية يوجب عليك قبول ما تأسست عليه عند أصحابها من المسلمات الأولى، وجوبا وضرورة! ونظير ذلك يقال لمن قال إن نظرية داروين لا إشكال لنا معها إلا فيما يتعلق بآدم عليه السلام، وإلا فلا نمانع من قبولها والقول بها في جميع الأنواع الأخرى فيما عداه. هذه النشأة الميكانيكية العمياء المزعومة للكون ولأنواع الحياة على الأرض، مناقضة من مبدأ الأمر لما تعلمناه في ديننا من خلق إلهي وراءه مشيئة وغاية وعلم وحكمة، وليست القضية معها في نشأة آدم بخصوصها، أو في خلق ما فوق السماء الدنيا دون ما تحتها! الطبيعة عندما مخلوقة وليست خالقة، هذه هي القضية!

ولعل قائلا هنا أن يقول: ولكن أنتم تعتقدون أن الله تعالى خلق هذا العالم بالاستحالة، أي بأن حول مادة سابقة عليه إلى مادته، ولابد أن لتلك المادة المتقدمة عليه في الزمان طبائع تخصها كانت مركبة فيها، كما أن لهذه المادة طبائعها، فكيف يستقيم على مذهبكم أن يقال إن حوادث خلق العالم هي التي حدثت بها الطبيعة وسننها ونظامها؟ ونجيب بأن نقول: إن كنت قد فهمت من الكلام أن مرادنا حدوث جنس الطبائع المركبة في المخلوقات، فليس هذا هو قولنا ولا يقتضيه ما قررناه في هذا الباب بوجه من الوجوه. فإن مذهبنا أن جنس المخلوقات قديم، دون آحاد المخلوقات، وكذلك جنس الطبائع المخلوقة بالضرورة! ولكن الفلاسفة يعتقدون قدم نوع الطبائع المركبة في مادة عالمنا هذا بعينه، التي ما عرفوها إلا من عادتهم

فيه، يطردونها، من حيث الأصل، طردا مطلقا في جهة الماضي، ثم إذا اتفق لهم أن وجدوا من سنن التغير المعتادة عندهم في أحوال المادة ما يصلح بقياس ما أن يكون طريقا لتصور نشأة تدريجية لهيئة العالم، بل ولبعض سننه وقوانينه نفسها، قالوا إنهم قد توصلوا إلى المعرفة بالكيفية التي نشأ بها العالم نشأة طبيعية Natural Origins! فهم مضطرون للطرد المطلق من أجل أن يستقيم لهم بناء فروض أولى تقوم عليهم نظرياتهم في ذلك! أما نحن فنقول إن الله تعالى خلق العالم بالاستحالة، أي أنه حول المادة السابقة على وجوده إلى مادة أخرى بالكلية، وبدل بعض الطبائع التي كانت فيها، على الأقل، بطبائع أخرى بالكلية، بما لا قياس له على شيء مما في عادتنا من أنواع التبدل والتحول "الطبيعي"، لأن سنن التبدل والتحول المعتادة في عالمنا إنما هي مما أنشأه رب العالمين وركبه في المادة الجديدة في جملة طبائعها الجديدة! فآدم عليه السلام، مثلا، خلقه الله بيده من طين لازب، بالتحويل أو الاستحالة، وليس بتفاعلات كيميائية مثلا أو عمليات فيزيائية من أنواع العمليات التي نعرفها ونستعملها في صنائعنا، الجارية على الطبائع المركبة في تلك المواد المعروفة لنا! وإنما حول سبحانه مادة الطين وطبائعها، إلى مادة الخلية الحية وطبائعها، تحويلا لا قياس له على تحويلات وتغييرات الصنع البشري بحال من الأحوال! ولهذا لا نجد في عادتنا طريقا إلى تحويل الطين للخلية الحية، ولا نرجو الوصول إلى ذلك في يوم من الأيام! فلإن كان هذا خلقا معجزا على اصطلاح الفلاسفة، فكذلك خلق الله تعالى لجميع الأنواع الحية على غير مثال سابق فيما نعتقد، وكذلك خلقه هذا العالم من الماء والدخان المتقدم عليه! لا ندري ما حقيقة ذلك الماء الأول الذي كان تحت العرش، ومنه خلق الله السماوات والأرض، ولا يجوز لنا أن نقتحم ذلك الغيب بنظرية فيزيقية تصور الكيفية التي حول بها هذا الماء إلى مادة هذا العالم، كما رأيت من تكلفه

من قبل، في محاولة باردة للتوفيق بين هذه الآيات في القرآن وبين نظرية الانفجار الهزلي المزعوم. فإن مادة الفيزيقا التي هي طبائع المواد كما نعرفها، قد خلقت خلقا وأحدثت إحداثا في تحويل الله تعالى الماء إلى الأرض والدخان إلى السماوات، وهذا أمر لا نجد له نظيرا في عادتنا حتى نقيس عليه كما لا يخفى، ومن ثم نتصور كيف كان! فهم يزعمون طرد بعض هذه الطبائع المعروفة في عادتنا وما يقاس عليها في أوهامهم، في الأزل، لأجل أن تكون هي ما نشأ عنه الانفجار المزعوم. وبعضهم يكتفي بإيصال قانون النسبية العامة إلى أن يكون عاملا في مادة العالم من اللحظة الأولى في نشأته، لا قبل ذلك، لأنه لا يرى في ميتافيزيقاه إثبات أي معنى زماني فيما وراء تلك الفردية المزعومة، فإن سئل كيف تكون الجاذبية النسبانية إذن هي السبب في نشأة العالم بعد أن لم يكن، مع أنها إنما وجدت معه في الزمان لا قبله، لم يجد إلا أن يقول: يكفيني أن تكون نظريتي مفسرة لتطور الكون من تلك الفردية الأولى، لا لنشأتها هي نفسها، كما قال داروين: يكفيني أن تكون نظريتي مفسرة لنشأة الأنواع الحية وتنوعها على الأرض من سلف أول، بصرف النظر عن ذلك السلف كيف صار كائنا حيا بعد أن لم يكن في الأرض حياة أصلا! وأكثرهم عند هذا يقولون: لا معنى للسببية أصلا فيما قبل الفردية، لأنها هي التي بها نشأ مفهوم السببية ميتافيزيقيا! وهي سفسطة بينة، لأن مفهوم السببية ينتفي بالكلية إذا أجزت أن يحدث شيء ما بعد أن لم يكن، بلا سبب يتقدمه! الحدوث والسببية متلازمان عقلا لا فصل بينهما إلا عند متفلسف سفساط! ومن قريب علقنا على كلام لشون كارول، قال فيه في مناظرته مع ويليام لين كريغ ما معناه: أنت تدعي أن مذهبي أن الكون نشأ فجأة بلا ترجيح ولا علة، وأن هذا يلزمني بألا أستغرب، ونحن جلوس الآن في هذه القاعة، إن رأيت حصانا ينشأ فجأة بلا مقدمات ولا أسباب ويمشي

فيما بيننا، ولكن هذا منك قياس للكون على الموجودات القائمة فيه، في الخضوع لنفس قانون السببية، ولمبدأ الحدوث بعد العدم، وهذا منك قياس لا أسلم بصحته! وهذه سفسطة وخلف عقلي ظاهر ولا شك، وهو من آيات التحكم الميتافيزيقي الأجوف الذي قامت عليه صنعتهم الفارغة تلك قياما كليا! فالقوم إذا وجدوا أن قياس الكون بكليته على بعض أجزائه، أو إدخاله في بعض المعاني الكلية المشتركة بين كل موجود يوصف بأنه حدث بعد أن لم يكن، يخدمهم فيما يريدون، قالوا به واعتمدوه منهجا وطريقا مقبولا مطروقا للنظر، وإلا اعترضوا وقالوا لا تقيسوا، فإن هذا يكون من مغالطة التركيب، يتحكمون في ذلك كله بالهوى المحض! فالكون عندهم مثله كمثل المنضدة التي يضع أحدهم عليها أغراضه، في خضوعه بكليته من أوله إلى آخره لمبدأ القياس الطبيعي والتنظير الإمبريقي، وفي خضوعه لقانون الجاذبية، وفي اطراد جميع القوانين الطبيعية على جميع أنحائه وأجزائه على السواء، وفي انتفاخه المزعوم كما تنتفخ الكرة أو البالون، وفي غير ذلك مما وصفوه به، لكن إذا قلنا إنه حادث بالضرورة بعد أن لم يكن، وإن لحدوثه سببا بضرورة العقل وبداهته، قال قائلهم: لا تقيسوا الكون على المنضدة، فإن الكل لا تكون له نفس أحكام أبعاضه!! فتبا لعبّاد الهوى وتب!

تأمل إذ يقول ماكولين على استحياء ظاهر في وصف صنعة الكوزمولوجيا: "إلى الحد الذي اضطر معه الكوزمولوجيون للاستناد إلى أكثر صور الحدس إيهاما للعقل، في بناء نظرية جديدة أو في الحكم على نظرية قائمة! هذا الحدس مستمد من مصادر قد تكون معتمة عند الكوزمولوجيين أنفسهم، مصادر تخرج في أحيان كثيرة خارج دائرة العلم المعتبر Normal Science."

قلت: كل هذا يا رجل، وما زلت تخشى أن تسمي الكوزمولوجيا باسمها: علم زائف؟؟ فماذا بقي إذن؟؟ سبحان الله! الصنعة زائفة وفاسدة من مجرد التأمل في موضوعها عند كل صادق متجرد للحق، كما بينا! لذا، فهي راجعة، لا محالة، وبالضرورة، في منبع الفروض التفسيرية فيها وفي مصدر تلقي المعرفة المنحول عند أصحابها، إلى مسلمات ميتافيزيقية دينية طبيعانية دهرية ما أنزل الله بها من سلطان! مسلمات يدور بهم استدلالهم بالمشاهدات في دائرتها، تؤول المشاهدة تأسيسا عليها، ثم يتخذ من نفس ذلك التأويل دليلا على صحتها، في دوران وسفاهة وخفة عقل قلّ نظيرها في تاريخ العلوم! فمن أدرك ذلك وفهمه، لم يعجب إطلاقا من كون الأمر فيها على ما تصف! فهي صنعة ما كان لها أن توجد أصلا ولا أن تستحدث عند أصحابها، من مبدأ الطرح! والمؤسف والمخجل حقا، أن ترى ما لا يحصيه إلا الله من أذكى وأنبه عقلاء المسلمين، يركبون ذلك المركب العبثي، ويخرطون في جدال أصحابه وشقشقتهم وتنظيرهم في أمر لا يجوز للمسلم أصلا أن يطرحه للنظر والقياس على نحو ما صنعوا! فإذا أنكرت عليهم، حملوك حملا على تقليد من قلدوا من الفلاسفة، وكأنما يتبعون في ذلك رسولا قد نزل عليه وحي من رب العالمين، وإلى الله المشتكى!

قوله: "ولهذا بدت الحدود الفاصلة بين الكوزمولوجيا والميتافيزيقا أو حتى الثيولوجيا، نفاذة في بعض الأحيان" قلت بل في جميع الأحيان لا في بعضها وحسب، بل لا حدود بينهما أصلا على التحقيق، وإنما تقتحم تلك الصنعة اللقيطة دائرة المعرفة الدينية اقتحاما من مبدأ الطرح، لأن مسألة حوادث خلق الكون وكيفية تكوينه بعد أن لم يكن، هي على التحقيق من أخص أفعال الربوبية عند من يعقلون للربوبية معناها الصحيح! خلق الله تعالى للكون بعد أن لم يكن، بجميع ما فيه من أنواع الموجودات الحادثة وسننها الكونية، هو ما استحق به

أن يكون إلها يعبد عند من يعبدونه أصلا، سبحانه وتعالى علوا كبيرا، وهذا من أبجديات التوحيد! لولا أني أعلم فطرة وجبلة أنه ما كان لي أن أوجد لولا أن خلقني ربي وصورني بعد أن لم أكن شيئا، أنا وغيري من الموجودات التي تحيط بي من كل جهة، التي خلقها كلها من أولها إلى آخرها على نحو ما أراد واختار سبحانه لا على خلاف ذلك، لولا هذا ما وجدت ما يدعوني لعبادته وإفراده بالعبودية سبحانه، ولما قامت علي حجة القرآن! ولهذا قال جل شأنه في توبيخ المشركين: ((أَمْ جَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)) الآية [الرعد : 16]، إذ ليس في الوجود من يخلق كخلق الله تعالى، ولا من يوصف بأنه خالق كل شيء، فلا يشتبه خلقه سبحانه بصنع من خلقهم لما يصنعون! ولكن من أجل أن تقوم لديك نظرية "طبيعية" في الكيفية التي خُلق بها هذا العالم بكليته، وجعلت بها مادته على ما هي عليه، فلابد أن تبدأ من تشبيه هذه الأفعال الإلهية التي هي من أخص خصائص ربوبيه سبحانه، وهي أفعال تكوين السماوات والأرض بعد أن لم تكن، بأفعال المخلوقين المحكومة بالسنن الكونية التي خلقها هو سبحانه وركبها في السماوات والأرض حال خلقهما، وإلا فمن أين لك التوصل إلى تصورها بالنظر العقلي على أيما وجه تكلفته؟! إن لم تبدأ بالقياس والتمثيل والتشبيه في الأفعال، فلن تصل إلى شيء البتة، لأن العقل لا يملك إلا الفطرة والحس والسمع والقياس طريقا لحقيق المعرفة بأيما معلوم أيا ما كان! فإذا كانت تلك الحوادث الكبرى لا قيام لحقائقها وكيفياتها بفطرتنا، ولم يشهدنا ربنا عليها بحواسنا، ولم يخبرنا بكيفيتها في السمع والوحي، فلم يبق إلا القياس! والقياس لا يصح أصلا إلا فيما جاز عقلا أن يجعل موضوعا للقياس، وهذا منتف بالكلية في هذه البابة، لأن الفطرة تقطع قطعا بتفرد الرب تعالى شأنه بالعلم بتلك الحوادث وبكيفياتها وحقائقها وبالقدرة

على إحداثها نوعا، فلم يبق أمام الفيلسوف إلا أن يشبه ربه بخلقه في أفعاله وكيفياتها وحقائقها، حتى يصل إلى بناء تصور ما حول الكيفية التي نشأ بها هذا العالم بعد أن لم يكن! ولهذا لا يتكلم الفيلسوف في صفات ربه وأفعاله إلا أسس كلامه بالضرورة على تشبيه الرب سبحانه بخلقه بوجه ما وعلى نحو ما، لأنه لا طريق أمامه إلا القياس! وهو ليس ساعيا في تنزيه ربه بقياس الأولى كما هي طريقة العقلاء الأسوياء وكما جاء به القرآن وجاءت به الرسل، وإنما يريد أن يصوره لنفسه وللناس، يكشف حقيقته بعقله، كما يطمع في كشف حقيقة كل شيء، فيصور أفعال الربوبية على نحو يكسبهم المعرفة بها كما يعرفون غيرها من الحوادث والأفعال، فيما يطمعون، وإذن فلا طريق إلا قياس التمثيل بأنواعه! فلما كان ذلك هو دأب الفلاسفة في مدرستهم اليونانية الخبيثة التي تربى المتكلمون واللاهوتيون في محضنها، اتخذوا من نظرياتهم في هذا الباب مقدمات لبراهين إثبات وجود باريهم سبحانه، فلزمهم أن يعطلوا رب العالمين عن صفاته وأفعاله، على تفاوت بينهم في ذلك ما بين مستقل ومستكثر، لأن أصل النظرية التي تشبعوا بها في أمر العالم وما فيه وفي حقيقة الوجود وأقسامه وكذا، إنما هو التمثيل العقلي التام، واستيعاب المعاني الكلية المشتركة بين الخالق ومخلوقاته بالتكييف الفلسفي القياسي على شرط الإطلاق! وهو ما لأجله قال أئمتنا رحمهم الله تعالى إنهم لما بدأوا أولا بالتمثيل والتشبيه، انتهوا إلى النفي والتعطيل، ثم زعموا أنهم بذلك ينزهونه عن كل نقيصة، مع أنهم قد سبق منهم نسبة النقيصة إليه من مبدأ النظر! ولو صدقوا في تنزيهه سبحانه كما يطالبوننا به، لمنعوا الفلاسفة من تناول العالم بكليته والخلق الإلهي بإطلاقه، بالنظر العقلي والفلسفي والتنظير التفسيري من مبدأ الطرح! ولوقفوا في ذلك موقفا صارما حازما لا ميل فيه ولا تساهل! أما أن يبتلعوا تلك البضاعة ثم يؤسسها عليها دينهم واعتقادهم ومعرفتهم بوجود من خلقهم، على

نفس الطريقة اليونانية الفاسدة في ذلك، فليس هذا والله مسلك من صدق في التنزيه كما يزعمون، وكما صدعوا به رؤوسنا وما يزالون، ولكن لله في خلقه حكم وشؤون!

لم يخلق أحد كخلق الله تعالى أبدا ولا يمكن لذلك أن يقع أصلا، فكيف وبأي عقل يراد تصور الكيفية التي أحدث بها سبحانه العالم بكليته بعد أن لم يكن، وكأنما يتصورون رجلا يقف في مصنع من المصانع يركب شيئا في شيء، أو يجمع أشياء متفرقة لم يكن هو خالقها أصلا، بحيث يحدث من مجموعها ما يريد؟؟ الله تعالى لم يخلق العالم بالتركيب أصلا، كما هو دأبكم أنتم فيما تصنعون، حتى يقال إن جميع موجودات العالم لابد وأنها نشأت من طاقة كثيفة مضغوطة انتفشت فتحولت إلى تلك المكونات الأولية التي جمع بعضها إلى بعض تحت تأثير الحرارة والجاذبية فصار من ذلك كواكب ونجوم ومجرات وما شئت! هذا تصور الرجل لما هو فاعل لو أراد يوما أن يخلق شيئا يبدو كما يبدو هذا العالم في أنظارنا! يضغط ويفجر ويفكك ويجمع ويجري في جميع ذلك على سنة الجاذبية والديناميكا الحرارية وغير ذلك مما نخضع له خضوعا في معاملنا ومصانعنا! ولكن أنتم تتكلمون عن صنعة الرب العلي القدير سبحانه، التي أنشأ بها تلك السنن نفسها، وجعل بها تلك المتفرقات التي تجمعونها عند التصنيع، وتحولونها من حال إلى حال بأسباب هو من خلقها سبحانه! فالتطرق إلى هذه الصنعة الإلهية الأولى بالتنظير ومحاولة التكييف والتصور هو من أكبر صور العدوان بالعقل على ربوبية الله تعالى وتشبيهه بخلقه، سبحانه وتعالى عن تصوراتنا وأقيستنا علوا كبيرا!

فالباب يا إخوان، توقيفي محض، لا مدخل إلى معرفة شيء فيه إلا من السمع والوحي وحسب! فلا نقبل أن يهون هذا الأمر ويتساهل فيه حتى يقال كما يقول هذا الكاتب إن بين المجالين، مجال الكوزمولوجيا، ومجال الدين، جدارا نفاذا يسهل اختراقه! فهم قد خرقوا ذلك

الجدار وأسقطوه بالكلية لما دخلوا إلى هذه القضية الخبرية الغيبية مطلقة التغييب بالقياس والنظر العقليين كما صنعوا! قد هدموا ذلك الجدار بالكلية بمجرد اتخاذهم تلك المسألة مجالا وموضوعا للنظر الطبيعي والتجريبي! وهم الآن كالغازي المستعمر الذي يجب دفعه وطرده وإخراجه من تلك الأرض التي حط فيها بخيله ورجله بغير وجه حق! لا أن يقال له نرحب بك وبما جئت به ولكن نطالبك باحترام حقنا في الوجود إلى جوارك، كما هو ديدن هؤلاء المهزومين المفتونين!! اطردوا هذا الغازي المستعمر الغاشم ولا تبالوا، فإن الحق عزيز، لا يقبل الدخلاء عليه!

تأمل قوله: "إنه مذكر نافع بالسياق الفكري الأوسع الذي تجري فيه عملية البحث العلمي، ذلك السياق الذي يسهل للمطالب الاختزالية للعلم المعتبر أن تخفيه عن الأنظار." قلت: فأي وهن وأي ضعف بعد هذا؟؟ مع كل هذا الذي ذكر الكاتب ورمى به تلك الصنعة وأصحابها، لم يزل يرضى أن يصف عدوانهم على تلك القضية الغيبية الكبرى "بالبحث العلمي"، ولا يزيد على أن يطالبهم بأن ينتبهوا إلى "السياق الفكري الأوسع" الذي يمارسون فيه ذلك البحث "العلمي" كما سماه!! فالحمد لله الذي عافانا مما ابتلاك به وفضلنا على كثير ممن خلق تفضيلا!

هذه المسألة أيها الإخوة الكرام، مسألة الوهن النفسي والخضوع لضغط المجتمع الأكاديمي في إطلاق الأحكام العقلية على صنعة من الصنعات الأكاديمية التخصصية القائمة بما حقها أن توصف به، هذه لا تخفى على بعض الباحثين الغربيين المتخصصين فيما بات يقال له علم اجتماع العلم، أو Sociology of Science، ولهم أبحاث في تلك الأحوال فيما يتعلق بما يقال له علم الكوزمولوجيا خاصة، لشدة ظهور خضوع القوم لضغط الكافة من الأقران في تلك الأكاديميات، كما لا يكاد يظهر في تخصص آخر من تخصصات الطبائعيين! خذ على

سبيل المثل، بحثا أكاديميا محكما بعنوان سوسيولوجيا الكوزمولوجيا المعاصرة Sociology of Modern Cosmology نشره باحث إسباني يدعى مارتين لوبيز كوريدويرا، ووقفت عليه من قريب، قال في خلاصته: "إن بعض نتائج الكوزمولوجيا التجريبية تلقي بالشك النقدي على أساسات الكوزمولوجيا المعتمدة أكاديميا، ولكنها تترك أكثر الكوزمولوجيين غير عابئين. وقد نشرت نماذج كوزمولوجية كثيرة بديلة لأنموذج الانفجار الكبير، ودوفع عنها على أيدي علماء غير خاضعين للفكر الأكاديمي السائد، ومع هذا، فأكثر الكوزمولوجيين لا يبالون بهم ولا يلتفتون إليهم. وهذا قد يكون السبب فيه هو صحة النظرية المعتمدة وبطلان تلك النقودات التي تعرضت لها، ولكنه كذلك وإلى حد بعيد، راجع إلى ظواهر سوسيولوجية كتأثير كرة الثلج Snowball effect والتفكير الجمعي Groupthink. فلنا والحالة هذه أن نتساءل عما إذا كانت الكوزمولوجيا، أي دراسة الكون بكليته، علما كغيره من فروع علم الفيزياء، أم مجرد أيديولوجيا سائدة اجتماعيا."

قلت فهذا باحث سوسيولوجي متخصص، يلقي بالشك على مبدأ استحقاق الكوزمولوجيا لأن تدخل تحت اسم "العلم" Science من الأساس، ومع هذا لم ترفض الأكاديمية الغربية نشر بحثه ذاك، ولم نسمع أحدا اتهمه بالجهل أو التخلف، كما اتهمونا نحن إذ رفعنا عقيرتنا بنزع اسم العلم عن تلك الصنعة الفلسفية الفاسدة! لماذا؟ لأننا إنما تعلقنا بالدين والعقيدة في دعوانا، خلافا لهذا الناقد! لأن كلامنا منتهاه أن التخصص في الكوزمولوجيا حرام لا يجوز شرعا، والإنفاق فيه إضاعة للمال لا تجوز، وأما هذا فليس إلا باحثا متفلسفا في مجال جانبي هامشي بالنسبة لهؤلاء لا يضيرهم في شيء ولا يعطل مسيرتهم، ولا يعرضهم لسخط الناس! وها أنت ترى الدكتور باسل الطائي لا يجد في الرد علينا إلا أن يتعلق بالخوف من التطرف

الفكري ومن أن تعقد لهم محاكم التفتيش كما عقدت للمعظمين عندهم فيما مضى، وأن يؤدي كلامنا إلى هجوم التكفيريين عليهم وقتلهم أو إيذائهم أو كذا! وهذا لا يلزمنا ولا علاقة لنا به قطعا، ومن سمع موادنا العلمية على هذه القناة، علم أننا بفضل الله من أشد الناس تحذيرا من التكفيريين وجهلهم وغلوهم وعدوانهم على الناس بغير وجه حق! ولكنه الترس الاجتماعي! لابد أن يبحث أمثال الدكتور ممن يعلمون أنهم لا يملكون حجة شرعية ولا عقلية في الانتصار لأصل صناعتهم تلك، لابد أن يبحثوا عن ترس اجتماعي يتترسون به في وجوهنا، حتى يتعاطف معهم الناس وينفرون منا ومما نقول في التحذير من صنعتهم ومن بضاعتهم! فتارة يقال لنا أعداء العلم والتكنولوجيا، الذين يريدون إرجاع العالم إلى القرون الوسطى، وتارة يقال يريدون كتم عقول العقلاء عن أن تعمل وتتطلع إلى آفاق المعرفة والاكتشاف وكذا، وتارة يقال يريدون إثارة الغوغاء والمتطرفين علينا ليقتلونا، إلى آخر ذلك مما لا نجد عندهم غيره في الرد علينا، وما كنا لنجد!

فمما أورثته الأكاديمية اليونانية من إفساد للعقل والعلم معا، أنها سوت بين مسائل المعرفة في ميزان التبعة العاجلة والآجلة المترتبة على طرحها للأخذ والرد والنظر والخصومة. فلا فرق بين أن تبحث وتنظر بعقلك فيما إذا كان لك رب خلقك أم لا، وأن تبحث وتنظر بعقلك فيما إذا كان الداء الفلاني علاجه بالدواء الفلاني أم لا، وبين أن تبحث وتنظر بعقلك فيما إذا كانت المسرحية الفلانية، مثلا، جارية على طريقة الأديب فلان الفلاني في الكتابة والتأليف أم على طريقة غيره! هذا نظر وذاك نظر، وهذا مستساغ وذاك مستساغ مبدئيا، والباحث المتخصص في هذا الباب، له من القدر والمنزلة ما للباحث في هذه وتلك على السواء، والجدال والنزاع بين الباحثين في كل من هذه المسائل الثلاثة لا تثريب على الخائضين

فيه ولا نكير، إلا إن اتفق لمسألة من تلك المسائل أن أجمع عليها جمهور الباحثين إجماعا لم يعودوا يقبلون النزول عنه، فحينئذ يتوجه المنع والنكير من طرحها بحجوب الفرار من الضغط الاجتماعي الذي لا يصبر الباحث عليه، وترى الهمم قد انصرفت عن تلك القضية إلى غيرها مما استساغ العقل الجمعي أو ما سماه الباحث هنا بالGroupthink أن يجعله موضوعا للنزاع والجدل، ثم تمضي الأكاديمية التخصصية في تأسيس المذاهب والأقوال والنظريات في هذه المسألة وتلك جريا على تلك الدوافع والمحركات والميول الجمعية الخفية، مما يكثر وقوعه في أنواع من المسائل والمباحث (كالكوزمولوجيا) ويتضاءل حتى يكاد يختفي في غيرها (كالطب والكيمياء مثلا). وهو كثير في الكوزمولوجيا بالنظر إلى قيام الدافع الديني أو شبه الديني الخفي لدى أصحاب تلك المباحث لمجابهة ومقاومة أتباع المرسلين، وبعض المنتسبين إلى الملل الكتابية، الذين لم يزالوا يصرون على تنحية هؤلاء عن البحث والنظر بعقولهم في تلك الأبواب من مبدأ الأمر، وهو ما لم يعودوا يتصورونه لأنفسهم، بعدما صاروا أكاديمية مستقرة لها مواردها البحثية ولها مناصبها ودرجاتها العلمية المعظمة بين الناس!

فالتسوية النوعية بين المسائل المعرفية في ميزان العقل والنظر من حيث الأصل، بالنظر إلى عاقبة اعتناق هذا المذهب فيها أو ذاك، ثم قصر التفريق على ما يعرض اتفاقا من ضرورة اجتماعية صرفة للموافقة والمخالفة أو الإمساك عن الطرح والمباحثة، هذه بدعة يونانية كبرى لا يجوز لنا معاشر المسلمين أن نقبلها أو نقر أصحابها عليها! فالمسألة الأولى التي ضربت بها المثل فيما مر، مسألة وجود الباري جل جلاله وتبارك اسمه، ليست عند العقلاء الأسوياء من أتباع المرسلين، من موارد النزاع والجدل النظري والخلاف بالرأي، حتى يكون المخالف فيها مستحقا للإعذار والإمهال ودفع المؤاخذة الشرعية عنه ما دام "باحثا" ناظرا، وحتى يعد من

الباحثين عن الحقيقة الصادقين في زعمهم خفاء وجه الحق فيها عليهم! هذه مسألة لم يبتدع المخالفة فيها على هذا النحو إلا فيلسوف مسفسط زائغ، صاحب كبر واستعلاء بعقله، كان حقه أن يضرب على رأسه وأن يمنع من طلب الخصومة عليها، لا أن يقابل مقابلة العاقل سوي النفس الذي يرجى دلالته على الحق ببرهان نظري يقدم بين يديه! فالنزاع فيها مذموم من مبدأ الأمر، والخصومة عليها، على طريقة هؤلاء، طريقة أهل الكلام ومن شاكلهم من أذناب الفلاسفة ومخانيثهم، مذمومة شرعا بإجماع السلف! لماذا؟ لأنه نزاع يحيل ضرورة وجود الباري جل شأنه من أن تكون ضرورة فطرية أساسية تقوم الحجة الرسالية تأسيسا عليها في نفوس الناس، إلى أن تكون ضرورة اجتماعية اتفاقية Intersubjective Necessity يضطر إليها بعض الناس اتفاقا لما يجدونه في مجتمعهم من تمسك شديد بها ومن بطش بالمخالف فيها، مع كونها عند النظار المدققين المحققين هؤلاء، مسألة عويصة صعبة للغاية، لا يعرف الفلاسفة لحسمها طريقا ولا للترجيح فيها سبيلا سالما من المعارض ومن المآخذ النظرية والعقلية! ولهذا ترى كثيرا من الملحدين في عصرنا يتعلقون إذا سألتهم بمجرد حقيقة أن هذه القضية لم يزل الفلاسفة والمفكرون الكبار يتنازعونها نزاعا طويلا لا أول له ولا آخر، ولا يخلو كلام أحدهم فيها من رد لمخالفه عليه وتنقيره فيه، على نحو قد تفاقم واتسع ولم يعد ثمة ما يرغب الناس في الخوض فيه أصلا! فإذا صار القول الذي يرجو أحدهم أن يتحرر لديه على أثر الخوض في ذلك الجدال البيزنطي الفاسد، هو الأساس الذي عليه يؤمن من آمن، وقد صارت المسألة في أروقة القوم إلى ما صارت إليه، فلن يجد من داعبت نفسه أهواء الإلحاد والخروج من الدين، حيلة تحتال بها نفسه عليه وتسوغ له ذلك وتترسه به، أحسن من هذا، وإن لم يكن لديه آلة يفهم بها نزاع هؤلاء أصلا فضلا عن أن يبحث فيه أو يقرر ما حقه أن يرد وما حقه أن يقبل!

فمبدأ ظهور النزاع والخصومة في هذه القضية وانتشاره وتراكمه واتساعه وتشعبه على هذا النحو، مردود مقبوح لدينا، خلافا للفلاسفة الذين أحبوا ذلك واستحسنوه، وعدوه علامة من علامات النضج العقلي والفكري في المجتمع البشري! وما زلت تراهم من أجل ذلك يقولون إن الخلاف خير، واتساعه علامة من علامة الصحة في المجتمع البشري، خلافا لما قد يقع أحيانا من اتفاق الناس على مذهب معين أو اعتقاد يحاربون مخالفيه ولا يقبلون ظهورهم بذلك المذهب أو الاعتقاد فيما بينهم أصلا!!

فهي بيئة اجتماعية فاسدة مهدت تمهيدا من أجل أن يسقط استنكار الناس فيها واستشناعهم لأيما مذهب ذهب إليه أحدهم وجاهر به ودعاهم إليه، أيا ما كان! بل يرجع قولك فيها أيا ما كانت إلى أن يكون مجرد رأي تراه أنت، ولا يلزم غيرك أن يقبلوه منك دون أن ينظروا فيما تجادل فيه الفلاسفة الكبار من أدلة وبراهين واعتراضات وكذا! ولهذا يقبلون منك إن كنت فيلسوفا متخصصا أن تنشر بحثا كهذا الذي أشرنا إليه آنفا، في إخراج صنعة الكوزمولوجيا من اسم العلم وإدخالها من مبدأ الطرح تحت اسم الأيديولوجيا أو ما شاكل ذلك، ولا يقبلون منك أن تقول إنه مجال مردود بالعقل والسمع معا من مبدأ الطرح، وهو حقل لكل زندقة وذريعة لكل ملحد، يريد أن ينتصر لإلحاده بما يزعمه علما ومستندا علميا! هذا كله كلام من شأنه أن يدعو الناس لأن يطالبوا بإغلاق تلك الأكاديميات وتسريح العاملين فيها ديانة وتقربا إلى ربهم، وهذا أمر لا يقبلونه أبدا ولا يتصورونه لأنفسهم! بل يجب أن يبقى الكلام في منزلة الرأي النظري الجدلي الذي يحق للمخالف فيه أن يرده في نفس الملأ على أنه ند مكافئ، فيبقى لهذا احترامه ولذاك احترامه على السواء، ولا يكون لرأي فضل على رأي أصلا!

فالفلاسفة الأولون لم ينطلقوا في نظرهم وبحثهم وتصنيفهم مسائل النظر وتأسيسهم الأكاديميات التخصصية لبحثها والنزاع عليها من اعتقاد ديني راسخ باليوم الآخر، وبأن لهم ربا لابد وأنهم راجعون إليه موقوفون بين يديه، معروضة عليه أعمالهم كلها لا محالة، مهما امتدت بهم أعمارهم! وإنما انطلقوا من كفر باليوم الآخر وتكذيب به وتشكيك في وجود من خلقهم! فما كان لديهم من داع أصلا للنكير والتشنيع على السوفسطائي الذي يقول لهم: دعونا نبحث في كذا ونستنبط الأدلة والبراهين الدالة عليه، أو على خلافه، وإن كانت أمم البشر كلها تعتقده وتسلم به، وإنما وجدوا الداعي الاجتماعي لمقابلته بمثل سفسطته، وإجابته لما طلب واشترط، لأن الناس كانت تعظم ذلك جدا وتراه إنجازا عقليا كبيرا يوجب لصاحبه الاحترام والتعظيم، وأن يكون رأسا متبوعا بينهم، وهو غاية ما يطمحون إليه ويطمعون فيه!

يقول الباحث المذكور في بحثه المومأ إليه: "على الرغم من كون الأنموذج الانفجاري هو أكثر النماذج النظرية قبولا، إلا أنه ليس التصوير الوحيد الممكن عقلا للكون. ففي الثمانين عاما الأخيرة – وهو ذلك العمر القصير لتلك الصنعة العلمية المسماة بالكوزمولوجيا – ظهرت بدائل أخرى عديدة. من بين تلك البدائل، نماذج فيها تعديلات على الأنموذج المعياري Standard Model ولكن مع نفس الفكرة الأساسية العامة، كنماذج فيها قوانين مختلفة للجاذبية، فلا تحتاج إلى افتراض المادة المظلمة، وأكوان تفتيتية Fractal Universes (أي تقوم على الرياضيات التفتيتية Fractal Mathematics)، ونماذج تعتمد حالة أولى باردة بدلا من الانفجار الكبير الساخن، ونماذج فيها ثوابت فيزيائية متغيرة، تفرضها كالملامس Textures في محل الانتفاخ. وثمة نماذج أخرى تفترض سيناريو مخالف تماما للأنموذج المعياري: كأنموذج الحالة شبه الساكنة Quasi-Steady State model عند هويل وأصحابه،

الذي يفترض زمانا أزليا، وكونا يتمدد في دورة للتمددات والانقباضات المركبة عليه صغيرة المقدار، مع تساوي Homogeneity واسع المقياس بين أنحائه، وخلق مستمر للمادة فيه، وأنموذج لكوزمولوجيا البلازما كما عند ليرنر 1991، يفترض زمانا أزليا، وتسلطا للقوى الكهرومغناطيسية في منشأ الأمر وليس للجاذبية. وثمة نماذج تصف كونا ساكنا، إقليديا، في فراغ لا نهائي، وزمان أزلي لا ابتداء له، مع تقديم اقتراحات عجيبة لتفسير الانحراف للأحمر في أشعة المجرات، في إطار نظريات معقدة للجاذبية، كأنموذج سيغال في السبعينات للكوزمولوجيا الكرونومترية، وكوزمولوجيا الانحناء عند كراوفورد 2006، وكوزمولوجيا نظام الموجة عند أندروز 1999، وكوزمولوجيا الضغط السالب عند هاوكينز 1993، إلى آخر ذلك. جميع النماذج فيها فجوات وفيها حيل لتأويل بعض البيانات الرصدية. فأنموذج الانفجار الكبير (الأنموذج المعياري) يعاني كثيرا من الآفات والفروض التي لا تعمل جيدا، أو لم تفهم إلى الآن على نحو تام. التمدد نفسه ليس له دليل صريح Direct Proof (فلم يشهد أحدنا مجرة من المجرات وهي تبتعد عنا مشاهدة مباشرة)، فالحجة الأكثر مباشرة لصالح التمدد هي الانحراف نحو الأحمر للمجرات. ولكن حتى هذا الانحراف اللوني له تفسيرات أخرى بخلاف التمدد! والاختبارات الأخرى لمسألة التوسع هذه قائمة على (فرض) تطور المجرات وترقيها، أو على فروض أخرى. الخلفية الإشعاعية Microwave Background وتكاثفات العناصر الضوئية وتكوينات الهيئات العملاقة (يعني للمجرات وتجمعاتها وكذا)، كل ذلك له أيضا تفسيرات أخرى."

ثم قال بعد ذكر ثلة من مشكلات الأنموذج الانفجاري: "وبالطبع فإذا كان الأنموذج الانفجاري له نقائصه، فالاقتراحات البديلة لها حظها من النقائص كذلك، وهي نقائص قد

تكون أحيانا أشد فداحة من مشكلات الأنموذج الانفجاري، ربما بسبب حقيقة أن تلك النظريات لم تحظ بما حظي به الأنموذج المعياري المعتمد من تطوير وتنقيح .... وفي الحقيقة فإن بعض النماذج البديلة كأنموذج الحالة شبه الساكنة Quasi-Steady-State لا يفعل أصحابها شيئا مخالفا لما يفعله أصحاب الأنموذج المعياري (من حيث طريقة النظر). فالإصدار الأحدث منه (أنموذج هويل ومن معه)، صار قادرا على تفسير كافة الصعوبات التي كان الأنموذج القديم يعاني منها (أنموذج الكون الساكن)، كمسألة وجود مجرات شابة مع انحراف كبير للون الأحمر، وتوزع وانتشار المصادر الراديوية في قبة السماء، والخلفية الإشعاعية قصيرة المدى Microwave Background Radiation، وغير ذلك. فهي تقدم عناصر افتراضية تحكمية Ad-Hoc دون مستند رصدي مباشر، بنفس الطريقة التي يقدم بها أنموذج الانفجار الكبير فرضيات المادة المظلمة والطاقة المظلمة والانتفاخ وغير ذلك. فلماذا، إذن، تقبل هذه النظريات وترد تلك، بمعايير مختلفة؟"

يمضي الباحث ليقول مجيبا عن سؤاله: "في رأيي، فإن النماذج المتباينة لا ترد من أجل أنها ليست صالحة للمنافسة العلمية (أي مع الأنموذج المعياري)، ولكن لأن أصحابها يجدون صعوبة بالغة في تطوير تلك النماذج في مقابلة التيار السائد أكاديميا. فإن عددا قليلا من الباحثين لن يقدر على منافسة الجمهور الهائل من الكوزمولوجيين الذين قد تخصصوا في تلميع وتنقية وتنقيح النظرية المعيارية."

قلت وهذه حقيقة يعرفها الكوزمولوجيون الكبار ولا يمارون فيها أصلا! ولكن ما سببها وما تفسيرها، وما تأثيرها على استحقاق تلك الصنعة الفلسفية العبثية للدخول تحت اسم "العلم"، هذه قضايا لن يقبلوا منك الكلام فيها ما دمت تنطلق من عقيدة راسخة، يحركك فيها رجاء

الجنة والخوف من النار في الآخرة، وتريد من الناس أن يسلموا بها من العذاب الأخروي، ومن أجلها تناطح عن موقفك وتتهم القوم بالزيغ والضلال والخوض فيما ليس لهم فيه مستند أصلا، فهذا مردود عليك غير مقبول، ولو سقت له ملء الأرض أدلة، والله المستعان لا رب سواه.

الجزء الثاني عشر

رجوعا إلى أصل المقال الذي نحن بصدد الكلام عليه، يواصل بلانتينغا فيقول[24]:

"يمكننا إذن أن نقول كلاما كثيرا على سبيل الوصف لهذا النشاط الإنساني (يعني العلم التجريبي Science)، وهو نشاط له قيمة وفائدة عظيمة. فإن له قيمة نفعية عظيمة، إذ ينتج عنه إطالة أعمار الناس، وعلاج الأمراض، وتحقيق الراحة والتحسن في مستوى المعيشة للكثيرين. (وقد أعطانا كذلك أسبابا لتدمير أنفسنا وبيئتنا). ولكن فوائد هذا العلم ليست بحال من الأحوال مقصورة على الجانب النفعي التطبيقي، فالعلم الحديث قد مكننا كذلك من أن نتعلم أمورا كثيرة بشأن أنفسنا وبشأن العالم الذي خلقه لنا الإله. فمن المتعذر أن نتصور مجرد التصور كيف كانت "الحياة الفكرية" قبل نهوض العلم Science. بالإضافة إلى ذلك

[24] *We can therefore say a good bit by way of description of this human activity; and it is an activity of impressive worth and value. It is of enormous practical worth, resulting in lengthened life spans, relief from illness, increased comfort, and a better quality of life for many. (It has also given us the means to destroy ourselves and our environment.) But its benefits are by no means merely practical; modern science has also enabled us to learn much about ourselves and the world which God has created; it is hard even to conceive what intellectual life was like prior to the rise of science. In addition, parts of science -- theoretical physics, for example -- have an austerely splendid intrinsic beauty and power; they represent magnificently impressive intellectual accomplishment; they resemble great poetry and great music; perhaps the most impressive intellectual accomplishment of humankind is, say, theoretical physics from Newton to the present. And now the question is this. Should Christians carry on this enterprise from a Christian perspective? Is this enterprise such that religious or theological perspective is relevant to it? We won't get an answer to this question from a mere definition of the word 'science'; an answer will require familiarity with the activity, and the discernment necessary to seeing what is characteristic of it. So an answer will involve substantive questions about the nature of science, our own nature, and the nature of the world in which we live.*

فإن أجزاء من العلم – كالفيزياء النظرية مثلا – تحلى بجمال ذاتي وقوة ذاتية باهرة، فهي تمثل إنجازات فكرية رائقة للغاية، تشبه القصائد الشعرية العظيمة والموسيقي البارعة، فلعل أعظم الإنجازات الفكرية للنوع البشري على الإطلاق، هي الفيزياء النظرية منذ زمان نيوتن وإلى اليوم. والآن فالسؤال هو: هل يتعين على النصارى أن يتلبسوا بهذه الصنعة من منظور نصراني؟ هل هذه الصنعة بحيث أنه يكون فيها للدين وللتصور الثيولوجي تأثير أم لا؟ لن ننتهي إلى جواب لهذا السؤال من مجرد تعريف كلمة "علم" Science، وإنما سيتطلب الجواب معرفة بهذا النشاط نفسه، وتحقيق الدراية الضرورية لمعرفة ما يختص به. وإذن فلابد أن الجواب سيشتمل على أسئلة مهمة بشأن طبيعة العلم، وطبيعتنا البشرية، وطبيعة العالم الذي نعيش فيه."

قلت: هذا التفريق أو التقسيم الكلي لأنشطة العلم الطبيعي والبحث التجريبي إلى نوعين، بحيث يكون أحدهما: تلك المباحث التي يترتب عليها نفع وفائدة تطبيقية في حياة الناس، ويكون الثاني: تلك المباحث التي "تعلمنا أمورا كثيرة بشأن أنفسنا وبشأن العالم الذي خلقنا الله فيه"، هذه مردودة من مبدأ الطرح عند المسلمين. ذلك أن العلوم عندنا معاشر المسلمين على ثلاثة أضرب كلية: علوم نهايات وغايات، وعلوم آلات نظرية، وعلوم وسائل وكيفيات عملية، فأما علوم النهايات والغايات، فهي تلك العلوم الشرعية التي تعرفنا بربنا سبحانه وتعالى وبما يجب علينا اعتقاده بشأنه وبشأن نوعنا البشري ومحله من هذا العالم، والغاية التي من أجلها خلقنا، ومآلنا بعد الموت، وما كان في غيوب الماضي من أمور لا تعرف إلا من طريق الرسل، وما هو كائن فيما وراء هذا الحيز المشاهد المحسوس من العالم، من غيوب مطلقة لا تُعرف أيضا إلا من طريق الرسل، وهذا هو العلم الذي به تكتسب جميع أفعالنا و"أنشطتنا"

(على عبارة بلانتينغا) في هذا العالم، في الحياة الدنيا، غاياتها ومقاصدها، وبه تنضبط النيات لكل مطلب ولكل ما نأتي وما نذر من الأفعال والأقوال. ولهذا قال العلماء إن علوم الغاية هي التفسير والحديث والعقيدة والفقه، لأن هذه ما به يعلم ما يتعين على المكلف أن يعلمه من معارف يفرق بها بين العمل الذي يحبه رب العالمين سبحانه، والعمل الذي يكرهه، والعمل الذي لا هو بمحبوب ولا مكروه. والعمل هنا لفظ عام نريد به كل ما يتكلفه الإنسان من عمل بالجوارح أو بالقلب أو باللسان. وأما علوم الآلة النظرية فعلى رأسها أصول التفسير وعلوم القرآن (لأنها آلة للاستنباط والنظر في علم التفسير) ومصطلح الحديث وعلم الرجال (لأنهما آلة في الاستنباط والنظر في علم الحديث) وعلوم اللغة (لأنها آلة في فهم نصوص الوحيين والنظر في معانيها) وأصول الفقه والقواعد الفقهية (لأنها آلة في استنباط الأحكام الفقهية). فعلوم الآلة هي تلك العلوم التي لا تدرس لمعرفة التكليف الإلهي على وجه التفصيل، وإنما تدرس لمعرفة كيفية استنباط ذلك التكليف من مصادره المعرفية. فهذه هي علوم الشرع جملة، في هذين القسمين، وهما ولا شك على رأس المعارف البشرية كافة لأن الإنسان لا يتحقق بالغاية التي من أجلها خلق في هذا العالم إلا بهما! ولا شك أن العاقل لا يقدم المعرفة بكيفية العمل (أ) على المعرفة بغايته منه وما إذا كان حسنا أو قبيحا من مبدأ الأمر! فالنظر السوي أن ينظر في أعمال الناس على هذا الترتيب: هل يحسن الإقدام على (أ) هذا أم لا يحسن؟ ولماذا؟ فإذا تقرر أنه يحسن، انتقل بعد ذلك لا قبله إلى النظر في السؤال: كيف نفعل (أ)، وكيف نحقق أسبابا لتسهيل فعلها، بحيث لا تكون تلك الأسباب نفسها أفعالا قبيحة أو ممنوعة نوعا، أو مفضية إلى ما هو قبيح مترجح على (أ)؟ فإذا كان كل عمل نعمله في الحياة الدنيا، له حكمه من حيث الحسن والقبح، وله غايته التي تترتب عليه، وله وسيلته

أو أسبابه التي يؤتى به من طريقها، وهي (أي تلك الأسباب) أعمال كذلك، يسري عليها ما يسري عليه من حيث الحكم بالحسن أو القبح، فلا شك أن العلم بالحكم والغاية مقدمان على العلم بالوسيلة والسبب (أو إن شئت فقل الكيفية)، أي نسأل عن "لماذا نعمل هذا العمل" قبل أن نسأل "كيف نعمله"! ومن الواضح بادي الرأي أن النظر في أسباب العالم ونظامياته السببية وما عليه طبائع موجوداته المحسوسة، محصور كله (موضوعا) في الصنف الأخير، أعني علوم الأسباب والكيفيات المادية! ننظر في العالم نظرا حسيا ممنهجا، حتى نعرفه على ما هو عليه، من أجل أن نحسن تصور الأحوال والأفعال التي يراد استنباط أحكامها بالنظر في الفئتين الأولى والثانية من أنواع المعارف (الغايات والآلات النظرية)! أما نفس المعارف العليا بشأن الغيب وما فيه، وما يكلف به المكلف من أمور نتعرف بها حياته والغاية من محياه ومماته، فهذه لا مدخل إليها ولا تلتمس من غير طريق الوحي أصلا!

فعلى هذه القسمة، لا يبقى للعلم التجريبي أو الطبيعي Science من حيث هو آلة للبحث في واقع العالم على ما هو عليه، وفي أسبابه وطبائع المواد فيه، من محل عند المسلم إلا أن يكون علما تطبيقيا صرفا، يتوصل منه إلى معرفة الأسباب المادية ونظمها وسننها المطردة، وما به تحقق مقاصد الشريعة العليا وكلياتها الخمسة من أسباب هي في نفسها مباحة في دين الله تعالى (كما هو شرطها). فكل استكشاف للعالم على ما هو عليه، لا بد أن يكون عند المسلم من تحته مقصد تطبيقي يراد منه، بصورة ما أو بأخرى، تحقيق رضا الرب جل في علاه، عملا بما أمر وتركا لما نهى! أما أن يكون مقصود الباحث التوصل إلى معرفة حال العالم لمجرد المعرفة، فهذا في مجرده يكون عملا مذموما في دين الله تعالى، كما نعرف ذلك ونحكم به من علوم الغايات على قسمتنا السالفة. فالعمل في اكتساب المعارف والسعي في ذلك وتطلب أسبابه، هو في

نفسه عمل بشري له أحكامه من حيث كونه مرضيا لرب العالمين أو غير مرضي! فمن المعارف ما هو واجب متعين على الإنسان أن يطلبه، لأنه يوصل منه إلى عمل واجب متعين، كتحقيق أركان الإيمان ومباني الإسلام عند المسلم، ومنها ما لا يكون واجبا على كل فرد بعينه، وإنما يسلم المجموع من الإثم إذا ما قام به بعضهم وحصلت بهم الكفاية، ومنها ما يكون عبثا لا نفع له، لأنه لا يتوجه به إلى عمل مشروع أو محبب شرعا، والمسلم منهي عن تطلب كل علم لا ينفع أو لا يدري له نفعا يتقرب بمثله إلى رب العالمين! فقد استعاذ عليه السلام من كل علم لا ينفع، لأن أدنى أحواله أن يشغل المسلم عما هو أولى وأنفع. والعلم الذي لا نفع به يكون النظر فيه تكلفا وتنطعا، مما قال فيه عليه السلام "هلك المتنطعون"! كان السلف يكرهون فضول الكلام، أي مجرد الكلام والتلفظ بما لا يعلمون هل يؤجرون عليه أم لا، فكيف ببحث ونظر وتقسيم وقياس وتخصص وتدقيق وأموال تنفق بالملايين بل المليارات، في مسائل لا يحسن بالعاقل أن يتكلم فيها أصلا؟!

فالواجب على المسلم أن يرشِّد نظره ويقتصد في بحثه، وينظر في حكم الشرع في كل سؤال بحثي خاض فيه الناس وتوافروا عليه، وساقوه إليه، هل يرجى منه نفع للمسلمين في حوائجهم بوجه ما، ومن ثم يمكن التقرب به إلى الله تعالى، أم لا يمكن ذلك، فإن لم يمكن ذلك ولم يتصور، تركه وانصرف عنه ونفض منه يديه، ولم يغتر بكثرة الزائغين والخائضين وإن طبقوا الآفاق! وهذه من القضايا المنهجية الفارقة بين المسلمين والدهرية الطبيعيين، بين أتباع الرسل وأتباع الفلاسفة! فإن المسلم لا يقدم ما أخره ربه، ولا يؤخر ما قدمه ربه، ولا يعبد هواه من دون الله، وهذا بمقتضى اسم الإسلام الذي تشرف به ودان به!

وقد يعترض بعضهم على هذا التقرير فيقول: من المسائل في العلوم التجريبية والعلوم الرياضية ما لم يكن يظهر لطارحيها والناظرين فيها في ابتداء الأمر أي منفعة أو فائدة تطبيقية معينة لها، ثم ظهرت تلك الفائدة فيما بعد، فلو أنهم جروا على تقعيدك هذا لخسر العلم قدرا لا بأس به، ولتعطلت مصالح الناس التي تجعلها هي الشرط وهي المعيار! فيقال له: هذا غير معتبر في وضع القواعد والأصول المنهجية الكلية ولا يلتفت إليه، بل ولا يلتفت إليه في التشريع ووضع المعايير واللوائح وما شاكل ذلك، وهو من قبيل مغالطات الاستدلال بالقدر. ذلك أن علة المنع أو سبب الفساد كان قائما بالطرح البحثي عند اقترافه، ولم يكن ذلك السبب معلقا على أمر غيبي قدري لا يعلم ولا يمكن التنبؤ به، وإنما كان معلقا على ما كان في وسع الباحث أن يقدره ويتصوره بظن معتبر! أما أن نفس العمل المذموم شرعا، الذي كان سبب الذم قائما به حال اقترافه، قد اتفق له أن ترتبت عليه في قدر الله تعالى منفعة آجلة لم يكن بوسع أحدهم أن يتنبأ بها حال اقترافه، فإن هذا لا يغير من حكمه شيئا! وإنما هو من باب الفضل أو العطاء الإلهي الذي قد يرتبه رب العالمين على الخير وقد يرتبه على الشر في مفعولاته سبحانه، بمتولدات لا يمكننا التنبؤ بها أصلا! ولهذا لا يقال، مثلا، إن المجرم الفلاني الذي قتل نفسا معينة بغير حق، قد ترتب على قتله إياها فيما بعد خير كثير، وإذن فما كان لنا أن نؤاخذه بفعلته، لأن عدد المنتفعين بتلك القتلة قد اتضح فيما بعد أنه أكثر من المتضررين! بل يظل مؤاخذا بها مذموما عليها، بصرف النظر عما جعلها رب العالمين سبحانه فيما بعد سببا فيه من المتولدات المحببة للناس! ويظل القتل بغير نفس أو فساد في الأرض محرما البتة، دون أن يتغير حكمه لأمر كهذا! ولا يقال إن هذه النظريات والمباحث التي لم يتوجه ذهن أصحابها إلى منافع معينة يمكن تصورها لها حال تكلفها، لو لم يسبق منهم تكلفها لما حصل للناس هذا

الخير أو ذاك، فإنه لا يمتنع أن يقوم في الناس حال الحاجة إلى تلك المباحث من يحدثها فيما بعد، حين ظهور الحاجة إليها، على نحو يحصل به المطلوب. ثم حتى على تقدير أن هذا لم يحدث، فإن مفسدة إشغال المسلمين ببحث ما لا يعرفون له نفعا يمكنهم احتسابه لله تعالى، ولو بظن ضعيف، متيقنة، بينما المنفعة لا تعرف ولا تثبت، والقاعدة أن درء المفاسد المتيقنة أو المظنونة، مقدم على جلب المنافع المتيقنة أو المظنونة، فكيف إذا كانت المنفعة لا تثبت أصلا إلا رجاء وأملا بلا ترجيح ولا ظن معتبر؟؟ فإن قيل إن مجرد رياضة العقل منفعة مطلوبة يستحسن لأجلها الاشتغال بكثير من تلك المباحث التي على قاعدتك تلك تصبح لا نفع لها ولا فائدة، قلنا: إن رياضة العقل تحصل أيضا بما ثبت فيه النفع وعلمت الحاجة إليه من مباحث العلوم النظرية، فإذا أمكن إدراك ذلك النفع من مباحث لا يتسبب طرحها في المسلمين في إضاعة أوقاتهم وأموالهم فيما لا يعرفون له نفعا سواه، تعين الإحجام عن ذلك والاكتفاء برياضة الذهن فيما علم نفعه، وهو لله الحمد كثير!

والمقصود بالمنفعة هنا، فيما يتعين بيانه دفعا للاشتباه، ليس مقصورا على معرفة الوسائل أو الأسباب أو الطبائع التي يمكن الاستعانة بها لقضاء حاجات الناس، بل إن كل ما يتصور أن ينتفع به المسلمون في تحقيق مقاصد الشريعة العليا من تأمل في المحسوسات والمشاهدات والأمور المعتادة، فإنه يكون نفعا معتبرا شرعا. ولكن يجب أن يعقد المسلم موازنة بين حجم ذلك النفع في ميزان الشرع، وبين حجم الضرر أو الفساد الذي قد يقع على الأنفس والأموال والأوقات من أجل تحصيله! فلا يقال مثلا: إننا نتكلف كلفة مالية باهظة ونخاطر بأرواحنا وسلامتنا مخاطرة عظيمة، لنجري رحلة في غواصة إلى أعماق المحيطات التي لم يبلغها أحد من قبل، "لعلنا" نكتشف أنواعا جديدة من الحيتان التي يمكن الانتفاع بها على وجه ما،

كاستخراج مواد دوائية من أكبادها أو ما شاكل ذلك، أو نكتشف معلما جديدا من معالم جيولوجيا قيعان المحيطات بحيث تفيدنا في نظرياتنا بشأن نشأة الأرض وما شاكل ذلك! فإن كلا هذين المطلبين غير معتبرين في الشرع أصلا، فلا يتحمل لأجلهما تلك النفقة الكبيرة مع تعريض حياة الباحثين للخطر. ذلك أنك في المطلب الأول تتكلف غرما كبيرا متيقنا، لصالح غنم محتمل، لا تتجاوز احتمالية تحصيله الخمسين بالمئة! وحتى لو تجاوزته، وصار لدينا سبب ظني معتبر لترجيح احتمالية اكتشاف أنواع جديدة من الحيتان وكذا، فإننا لا ندري ما النفع الذي قد يترتب على ذلك وما مبلغه إن حصل، فنفس حصول النفع، الذي عليه ميزان الأمر ومداره، لا يترجح هنا. وأما المطلب الثاني المتعلق بقيعان المحيطات، فمن الذي قال إن المسلمين يحتاجون، أصلا، إلى نظرية في نشأة الأرض وتاريخ المحيطات وتطورها وكذا؟ لو كانوا يحتاجون إلى ذلك، وهو غيب محض كما هو واضح، لجاءهم خبره عن الرسول عليه السلام، لأن مثله لا يعرف إلا من طريق الرسل أصلا! الله وحده يعلم كيف خلق المحيطات وكيف خلق الجبال وكيف خلق البحار والأنهار في أصل خلقته للأرض وتسويته لها في أيام الخلق الستة! هذه أمور لم تجر على سنن طبيعية أصلا حتى يعلم تفصيلها بالقياس على ما في عادتنا!

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في الجواب الصحيح (ج5/ ص. 386 – 387):

"وَالْقُرْآنُ مَمْلُوءٌ مِنْ إِخْبَارِهِ عَنِ الْغَيْبِ الْمَاضِي، الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ مِنَ الْبَشَرِ، إِلَّا مِنْ جِهَةِ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ أَخْبَرَهُمُ اللَّهُ بِذَلِكَ، لَيْسَ هُوَ الشَّيْءُ الَّذِي تَزْعُمُهُ مَلَاحِدَةُ الْمُتَفَلْسِفَةِ، فَإِنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ الْغَيْبِيَّةَ الْمُعَيَّنَةَ الْمُفَصَّلَةَ لَا يُؤْخَذُ خَبَرُهَا قَطُّ إِلَّا عَنْ نَبِيٍّ، كَمُوسَى، وَمُحَمَّدٍ، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِمَّنْ يَدَّعِي الْمُكَاشَفَاتِ، لَا مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ، وَلَا مِنْ غَيْرِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ يُخْبِرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ; وَلِهَذَا

كَانَ هَذَا مِنْ أَعْلَامِ الْأَنْبِيَاءِ وَخَصَائِصِهِمُ الَّتِي لَا يَشْرَكُهُمْ فِيهَا غَيْرُهُمْ. وَأَهْلُ الْمِلَلِ مُتَّفِقُونَ عَلَى مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْعَقْلُ الصَّرِيحُ مِنْ أَنَّ هَذَا لَا يُعْلَمُ إِلَّا بِخَبَرِ نَبِيٍّ"

وقال في النبوات (ج1/ ص. 24): " إن الناس لا يدركون بعقولهم كثيراً من الغائبات، مثل معرفة أسماء الله وصفاته، ومعرفة الملائكة والجن والشياطين، ومعرفة ما أعدّ الله للطائعين في دار رضوانه وكرامته، وما أعدّ للعاصين في دار سخطه وإهانته.

لذا فإنّ حاجتهم إلى من يعلّمهم هذه الحقائق، ويُطلعهم على هذه المغيّبات ضرورية.

وقد امتدح الله تعالى عباده الذين يؤمنون بالغيب، فقال تعالى: {الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ} [البقرة، 13] .

فلو لم يبعث الله الرسل، لما عرف الناس هذه الأمور الغيبية، ولما آمنوا إلا بما يُدركونه بحواسّهم. فسبحان الخلاق العليم الذي منّ على عباده ببعثة الأنبياء والمرسلين" اهـ.

ولا يقال إننا "نقنّع الناس بالجهل" ونرضّيهم به، كما يحلو لرؤوس حركة الإلحاد الجديد أن يدندنوا، وإنما نعلمهم أن يقفوا حيث أوقفهم ربهم سبحانه، الذي هو أعلم بهم، فلا يتكلفوا بحثا لا نفع يرجى منه فيما يعلمون، ولا بحثا يتجاوزون به حدود آلة الحس والقياس التي ركبها ربهم فيهم من مبدأ الطرح، يخوضون في غيبيات لا تعلم إلا بالسمع!

والحق أن هذه القسمة الثلاثية لفنون المعرفة البشرية، من حيث الغاية والثمرة، هي ما تقتضيه الفطرة والبداهة، والنفس السوية السالمة من سفسطة الفلاسفة. فكل نفس سوية، يسلم صاحبها بما هو مركوز فيها من المعارف الفطرية، ويؤسس عليها قبول رسالة الرسول إذا جاءته! فإذا فعل، استمد من تلك الرسالة معرفته بالغاية من وجوده في الحياة الدنيا، ومعرفته بما يحب ربه وما يكره، ومعرفته بما في الغيب المطلق من حقائق يحتاج العبد المكلف إلى

معرفتها! ثم إنه إذا مشى في الأرض بعد، لم يحتج إلى إعمال آلة الاستقراء في المحسوسات والتتبع وقياس الغائب على الشاهد على سبيل التمثيل، إلا في حدود العادة البشرية لا فيما وراءها، ولمصلحة تحقيق معنى التسخير لأسباب الأرض والسماء، الذي امتن به رب العالمين على بني آدم. وإذن فما كانت نفسه لتميل ولا ذهنه ليجنح إلى استعمال تلك الآلة في طلب المعرفة بالمغيبات المطلقة، ولا لتجاوز تلك الغاية النفعية التسخيرية بموضوعات العلم التجريبي، دع عنك أن يدعي أن قياس الغائب على الشاهد على سبيل التمثيل أو الشمول، هو "الطريق الوحيد" لتحصيل المعرفة بالموجودات المغيبة تغييبا مطلقا، كما لا يستغرب من الفلاسفة الدهرية! فإن الرجل إذا سفسط على مبدأ مخلوقيته ومربوبيته، وقال إنه ليس في عقله ولا في عادته ما يوجبهما، لم يجد ما يرجح به صيرورة العالم إلى الوجود بعد عدم ماض متقدم عليه، ومن ثم حكم بقدم العالم وأزليته، إذ لم يبق أمامه إذن إلا أن يسفسط فيقيس حال العالم في كل لحظة من لحظات الماضي، على حاله كما اعتادها اليوم!

ولهذا نقول إن القائل بحدوث العالم ليس هو المطالب بنصب البرهان عليه كما أسسوه في سفسطتهم المنهجية الباردة! فإن الفطرة السوية دالة على ذلك دلالة كافية لا مزيد عليها، كما تدلنا على أن الماضي وقع في الحقيقة كما نجده في ذاكرتنا، وعلى أن العالم الخارجي يوجد من حولنا كما تدلنا عليه حواسنا لا أننا نتوهم ذلك، وعلى أننا خلقنا فيه على ما نجد عليه أنفسنا، لا أننا خلقنا أنفسنا أو اخترنا لها صورها، أو أننا خلقنا من غير شيء، كل ذلك ونحوه من الحقائق الفطرية سواء في كون من يخالف فيها أو يزعم افتقارها إلى دليل نظري يدله على صحتها، مسفسطا مماحكا حقه التسخيف والتسفيه، أو الإيداع في المصحة العقلية! فلما تخلص الفلاسفة الأولون من حجية الفطرة ودلالتها فيما يتعلق بالموجودات في الأعيان وأحكامها،

لأجل أن يتلبسوا بآلة القياس، قياس الغائب على الشاهد، فيقال ليس فيما وراء المحسوس إلا كما في العادة، زمانا ومكانا، زينت لهم أنفسهم اعتقاد أن العقل قد دل على أن العالم لم تزل تتقلب فيه شمسه على أرضه وتدور أجرامه في أفلاكه كما يرونها، من الأزل وإلى الأبد بلا ابتداء، بلا مرجح لاعتقاد كون الأمر على خلاف ذلك في أيما لحظة مضت أو في أيما لحظة تأتي في المستقبل! فدعوى قدم العالم لا أساس لها إلا منهج اليونانيين في استعمال قياس التمثيل فيما لا يصلح أن يكون موضوعا له أصلا من مبدأ الطرح، على أثر سفسطتهم على المعرفة الفطرية الجلية بحدوث العالم وجميع ما سوى الباري سبحانه، الذي هو أكمل موجود وأعلى موجود، سبحانه وتعالى وتقدس! فلا نحتاج، معاشر العقلاء، لأن نصطحب قياسا ميتافيزيقيا فاسدا مفاده تماثل جميع الموجودات في كونها "أجساما" مركبة على نحو مخصوص، حتى نؤسس عليه حدوث كل ما يقال له جسم، ومن ثم نثبت حدوث العالم، على أساس أنه ليس في العالم إلا ما يقال له الجسم على هذا المعنى، كما سلكه من سلكه من الفلاسفة القدماء واللاهوتيين النصارى، وكما هو أساس علم الكلام! هذا من مقابلة السفسطة بسفسطة من نفس نوعها، والقياس الميتافيزيقي الفاسد بقياس ميتافيزيقي من نفس نوعه! مع أنه من السفسطة كذلك ادعاء أن العاقل يفتقر إلى إثبات حدوث العالم بكليته أولا من أجل أن يؤسس عليه وجود من خلقه، لأن الفطرة تدله على أنه هو نفسه ما كان ليوجد دون خالق غير مخلوق، يكون هو الذي اختار له أن يجعله على ما هو عليه، فرجح وجوده على عدمه، وصورته على خلافها، وجميع صفاتها التي يجد نفسه عليها على خلافها.

فلما انفتح الباب في تأسيس أكاديمية اليونان القديمة على هذا النحو السوفسطائي لإعمال قياس التمثيل في الموجودات بإطلاق، من حيث هي موجودة في الأعيان، فيقال بتماثل كل شيء

في جنس الطبائع التي يوصف بها، وبتماثل كل شيء في سبب قيام تلك الطبائع والصفات والحقائق به، على إطلاق المعنى، أصبح موضوع علم الطبيعة أو فلسفة الطبيعيات أو الفيزيقا كما سماها أرسطو، هو العالم بكليته والموجودات بإطلاقها، وليس ما ينحصر في دائرة عادتنا البشرية التراكمية من أنواع الموجودات وطبائعها وسننها كما كان حقه أن يكون! من هنا صار كل استقراء يؤسس به قانون من القوانين، موضوعه مستوعبا لجميع أنحاء المكان وجهات الزمان بالضرورة، دون التفات أو شعور بقيام ما يوجب تقييد ذلك الإطلاق أو حصره في نطاق مخصوص! فالعالم عند نيوتن كان كالماكينة التي لم تزل تعمل بنفس القوى المنتشرة في جميع أجسامه في جميع أنحائه من الأزل بلا ابتداء، وإذن فلابد أن الصانع لم يزل "يتدخل" من آن لآخر من أجل أن يحدث بعض التعديلات التي تمنع من انزياح الأفلاك عن مواقعها تحت تأثير العمل المطرد الأعمى لتلك الماكينة! فمع أننا نتفق مع بلانتينغا إجمالا في تعظيم تلك البدعة العقلية التي بدعها الرجل في نمذجة السنن المطردة لحركة الأجرام بالنسبة إلى بعضها البعض، بتمثيلها رياضيا في عبارات دقيقة تفيد في التنبؤ بتلك الحركات في إطار العادة على نحو لا ينخرم، وإن كان ليس هو أول من أحدث تلك الطريقة في الحقيقة بل سبقه إليها يوهانز كيبلر، إلا أننا لا نرتضي جريانه في إطلاق تلك القوانين بحيث تستوعب جميع موجودات العالم بلا أول ولا آخر ولا حد ولا غاية، على الطريقة اليونانية في النظر والقياس الميتافيزيقي. فإن هذه الآفة الكبرى هي التي أغرقت الفيزياء العصرية في الوحل الذي هي غارقة فيه اليوم، وهي كما بينا في هذه المادة وفي غيرها، أصل ما يقال له الطبيعية المنهجية، التي تمنع الفيلسوف من أن يسلم لأهل الأديان بشيء من دعاواهم بشأن الغيب وما فيه! فالنظريات والقوانين توضع كلها من أجل أن يكون موضوعها من مبدأ الطرح، هو كل ما

في الأعيان، وكل ما تجري عليه معاني الزمان والمكان! وهذا من السفه وفساد العقل بمكان! وهو ما أوجب أن يجعل من الغيبيات المطلقة ملعبا للقوم يتفلسفون فيه بأقيستهم الواهية ما بدا لهم، ثم إن سئلوا، قالوا هذه آلة العلم تفيدنا وتخبرنا عن أصلنا وأصل كل شيء، وعن مصيرنا ومصير كل شيء، أم تريدون أن ترجعوا بنا إلى عصور الظلام التي كان الناس فيها لا يجدون إلا التسليم بخرافات الدجالين وأساطير الأولين؟! فكأنما يراد للناس أن ينتقلوا من أساطير أساسها أديان باطلة التي لا تمت إلى الوحي الإلهي بصلة، إلى أساطير بديلة يكون أساسها طرد فاسد للقياس لا يمتد إلى العقل السوي بنسب، والله المستعان! أما نحن المسلمين فقوم أصحاب علم إلهي قويم وعقل سليم، لا يغرنا بهرج القوم ولا نستدرج إلى ما لا علم تحته ولا نفع فيه، ولا يحق لنا اقتحامه برؤوسنا أصلا!

فقول بلانتينغا: "ولكن فوائد هذا العلم ليست بحال من الأحوال مقصورة على الجانب النفعي التطبيقي، فالعلم الحديث قد مكننا كذلك من أن نتعلم أمورا كثيرا بشأن أنفسنا وبشأن العالم الذي خلقه لنا الإله" هذا لا يعدو أن يكون فيه مقلدا، من حيث لا يشعر ولا يدري، للتقليد الأكاديمي اليوناني القاضي بجعل موضوع العلم الطبيعي وأقيسته هو العالم بكليته، وكل ما يصح أن يدخل تحت معنيي الزمان والمكان من حيث هو موجود في الأعيان! وهو نفسه ما يقال له الطبيعية المنهجية، تلك القاعدة المنهجية الدهرية التي حسب أنه قد أتى عليها بالنقض والإبطال في هذا المقال! فقضايا النشأة (نشأة العالم بكليته ونشأة الأنواع الحية فيه) هي كما بينا وكما مر، عند بلانتينغا، من جملة الموضوعات المستساغة نوعا لصنعة النظر التجريبي! فلا مانع عنده من أن يطرد الناظر في الطبيعيات، السنن المعتادة اليوم لتحول وتحور صفات النوع الحي الواحد، وتكيفها مع بيئاتها المتحولة، عبر أجيال ذلك النوع، لتصبح بقياس التمثيل

المطلق في كل زمان وفي كل مكان، هي الطريق لتفسير نشأة وظهور جميع الأنواع الحية على الأرض من غير مثال سابق! مع أن طرد القياس على هذا النحو اليوناني الفاسد لا يقوم عند صاحبه، من الأساس، إلا على الطبيعية المنهجية الدهرية التي لا اعتبار فيها لعاملية سببية غيبية يمكن أن ترجح اختلاف الماضي البعيد عن الحاضر المحسوس، ولا لغائية إلهية يمكن أن ترجح اختلاف السماوات العلا في طبائعها وما يوجد فيها من أنواع الموجودات، عن هذه السماء الدنيا المزينة بالكواكب والنجوم، ولا لما دلت عليه الفطرة والبداهة من أن الرب الذي خلق نظام العالم لم يكن هو نفسه خاضعا لذلك النظام في خلقه إياه! فلا يجوز أن نمرر كلاما كهذا الذي سطره بلانتينغا في هذا الموضع بكل سهولة دون تمحيص وتدقيق فيما استند إليه في تقريره إياه من مسلمات أولى! هذه الأمور الكثيرة بشأن أنفسنا وبشأن العالم، الخارجة عن دائرة النفع التطبيقي، ما هي وما المقصود بها، وفي أي دائرة أخرى تدخل إذن؟؟ هنا محل الافتراق المنهجي الكبير بيننا وبين الرجل وغيره من فلاسفة النصارى ومن متكلمة أهل القبلة المتأثرين بأدبياتهم!

أما قوله: "فلعل أعظم الإنجازات الفكرية للنوع البشري على الإطلاق، هي الفيزياء النظرية منذ زمان نيوتن وإلى اليوم." قلت فهذا لا يصح على دينه هو، دع عنك دين المسلمين! فالنصراني الذي يدري قيمة الدين في حياته، لابد أن يعتقد أن أعظم الإنجازات الفكرية هي تلك العلوم التي بها استطاع رؤوس ملته وكنيسته أن يفهموا نصوص الكتاب الذي يفترض فيه أنه هو سبب الفرقان عندهم بين من يحظى بالخلاص بعد الموت ومن يحرم من الملكوت! فإن عظم العلم إنما يأتي من عظم موضوعه والغرض الذي من أجله يتكلف الناس النظر والبحث فيه أصلا، وليس من حلاوته وجماله وما فيه من إبداع، وكونه يشبه الشعر

والموسيقى، وغير ذلك من كلام فارغ لا يسمن ولا يغني من جوع! شرف العلم بشرف موضوعه، وقيمته من قيمة موضوعه، ومن قيمة العمل الذي ينبني عليه، ولأجله يطلب أصلا! ولكن الفلاسفة الغربيون لم يتربوا على أن لوجود الإنسان في العالم غاية عليا يعرفها من الوحي الإلهي، بحيث إذا عرفها وتقررت لديه، انتظمت عليها جميع أعماله، وتقررت في ضوئها مراتب العلوم والمعارف كلها لديه، على خير ما يرام من الحكمة وسلامة النظر! وإنما هو كالبهيمة السائمة، يأكل ما يحب أن يأكل، ويشرب ما يحب أن يشرب، يلهو ما بدا له أن يلهو، ويواقع أنثاه حيثما أحب أن يواقعها، لا يحده حد ولا يقيده قيد، إلا ما يتفق عليه الناس في مجتمعه بهواهم الجمعي! ومع أنهم تفلسفوا في الأخلاق والقيم، ولهم فيها نظريات ومذاهب ومشارب، كما في كل شيء، إلا أن خلاصة الأمر فيها عند التدبر، أن لكل امرئ منهم وجهة يشتهيها في نظام الأخلاق ومصدر تلقيها، ومستند الحكم بالحسن والقبح العقليين فيها، لا أساس للترجيح بينها وبين غيرها من مذاهب القوم في نفس الأمر إلا المزاج والهوى! نعم في كل مذهب منها حق ولا شك، على ما فيه من الباطل، ولكن كل فيلسوف في باب الأخلاق إنما يأتي لقاعدة من القواعد العقلية المعتبرة في التحسين والتقبيح العقليين، فيصيرها بإطلاق مطرد، أساسا لجميع الأحكام الأخلاقية بلا استثناء! كل ذلك لماذا؟ لأجل أن يتمكن من أن يرد على أهل الملل فيما يزعمون أن الدين يأمرهم به وينهاهم عنه، بأن العقل والنظر العقلي الصحيح في أصول الأخلاقيات، يوجب خلاف ما يقولون!

والقصد أن قيمة العلم المعرفية والغائية على السواء، لا تستمدان من شكل العلم وحلاوته وبراعة آلة الاستدلال فيه، وإنما من قيمة مضمونه وموضوعه ومادته، والعمل المترتب عليه، والله المستعان.

يواصل بلانتينغا بعد فيقول (تحت عنوان فرعي: هل "التكامل الوظيفي" Functional Integrity يتطلب الطبيعية المنهجية؟) [25]:

---

[25] *Diogenes Allen, John Stek and Howard Van Till give answers of that sort. According to Van Till, God has created a world characterized by "functional integrity":*

By this term I mean to denote a created world that has no functional deficiencies, no gaps in its economy of the sort that would require God to act immediately, temporarily assuming the role of creature to perform functions within the economy of the created world that other creatures have not been equipped to perform. 44

Note first that Van Till seems to be directing his fire at only one of the several ways in which, as it seems to me, Christians might employ what they know by faith in pursuing natural science; he is arguing that a scientific hypothesis cannot properly claim that God does something or other immediately or directly. (Note also that the claim here is not that such a hypothesis would not be scientific, but that it would be false. What he says seems to be consistent, so far as I can tell, with the claim (say) that in doing their psychology Christian psychologists can properly appeal to the fact that human beings have been created in the image of God, or are subject to original sin.

So suppose we turn to Van Till's proscription of hypotheses to the effect that God has done something or other immediately or directly. This idea of direct action conceals pitfalls and deserves more by way of concentrated attention than I can give it here. 45 The basic idea, however, is fairly clear. An example

of indirect divine creation would be my building a house; we may say that God creates the house, but does so indirectly, by employing my activity as a means. So God acts indirectly if he brings about some effect by employing as a means the activity of something else he has created. God acts directly, then, if and only if he brings about some effect, and does not do so by way of employing as a means the activity of some created being.

Now Van Till suggests that God does nothing at all in the world directly; only creatures do anything directly. But no doubt Van Till, like any other theist, would agree that God directly conserves the world and all its creatures in being; he is directly active in the Big Bang, but also in the sparrow's fall. Were he to suspend this constant conserving activity, the world would disappear like a dream upon awakening. And no doubt Van Till would also agree (on pain of infinite regress) that if God does anything in the world indirectly, he also does something directly: presumably he can't cause an effect indirectly without also, at some point, acting directly, creating something directly. Van Till must therefore be understood in some other way. Perhaps his idea is that God created the universe at some time in the past (acting directly at that time) and never any longer acts directly in the world, except for conserving his creation in being, and miracles connected with salvation history. But why think a thing like that? Consider the fact that Christians as diverse as Pope Pius XII and John Calvin have thought that God created human souls directly; can we simply assume without argument that they are mistaken? What is the warrant for supposing that God no longer acts directly in the world?

Van Till appeals for support, for this theological position, to Allen and Stek; Allen asserts that

God can never properly be used in scientific accounts, which are formulated in terms of the relations between the members of the universe, because that would reduce God to the status of a creature. According to a Christian conception of God as creator of a universe that is rational through and through, there are no missing relations between the members of nature. If in our study of nature, we run into what seems to be an instance of a connection missing between members of nature, the Christian doctrine of creation implies that we should keep looking for one. [46]

Allen's suggestion seems to imply, not just that Christians cannot properly propose, as part of science, that God has done something directly, but also that it would be out of order to appeal, in science, to such ideas as that human beings have been created in God's image. For this idea isn't a matter of saying how things in the world are related to each other; it is instead a matter of saying how some things in the world -- we human beings -- are related to God. Allen believes that scientific accounts must always be formulated in terms of the relations between members of the created universe (and if that is true, then perhaps, as he says, referring to God in science would be to reduce him to a creature). Taken at face value, however, this seems hasty. A textbook on astronomy may tell you what the diameter of Jupiter is (or how old the earth, or the sun, or the Milky Way is). This doesn't tell you how things in the world stand related to each other, but instead just tells you something about one of those things; it is science nonetheless.

"يقدم كل من ديوجينيس ألان، وجون شتِك وهوارد فان تيل أجوبة من هذا الصنف (يعني السؤال الذي ختم به فقرته السابقة حول ما يتعين على النصراني بإزاء البحث التجريبي)، فعلى كلام فان تيل، فإن الإله قد خلق العالم موصوفا بالتكاملية الوظيفية، يقول: أقصد بهذا المصطلح، عالما مخلوقا ليس فيه نقائص وظيفية، ولا فجوات في اقتصاديته بحيث تتطلب تدخل الإله الفوري، ليتلبس على سبيل التأقيت بدور المخلوق فيقوم بوظائف معينة

Allen's main point, of course, is that a scientific account can't properly be formulated in terms of the relation of anything to God. But why not? What is the authority for this claim? Doesn't it seem arbitrary? Consider the truth that human beings have been created in the image of God, but have also fallen into sin. This dual truth might turn out to be very useful in giving psychological explanations of various phenomena. If it is, why shouldn't a Christian psychologist employ it? Why wouldn't the result be science? It could be that investigation would suggest that God created life directly; that it didn't arise through the agency of other created things. If that is how things turn out, or how things appear at a given time, why not say so? And why not say so as part of science? As a Christian you believe, of course, that God made the world and could have done so in many different ways; why not employ this knowledge in evaluating the probability of various hypotheses (for example, the Grand Evolutionary Myth)? Christians also have beliefs about what is rational in Simon's sense -- i.e., about what sorts of goals a properly functioning human being will have. Christians also have beliefs about what sorts of actions are in their own or someone else's best interests. Why not employ these beliefs in making a scientific evaluation of the probability of, say, Simon's account of altruism, or in giving her own account of these phenomena?

داخل اقتصاد العالم المخلوق، لم تجهز أنواع معينة من المخلوقات بحيث تقوم هي بها! يقول بلانتينغا: لاحظ أولا أن فان تيل يبدو وكأنه يوجه نيرانه ليس فقط إلى طريقة واحدة وحسب من الطرق التي يبدو لي أن النصارى يمكنهم أن يسلكوها في تسليط ما يؤمنون به على ممارستهم للعلم الطبيعي، ولكنه يدعي أن الفرضية العلمية لا يصح أن تدعي أن الإله يفعل شيئا ما أو آخر بصورة فورية أو مباشرة. (لاحظ كذلك أن الدعوى هنا ليست أن فرضية كهذه لن تكون "علمية" Scientific، ولكن أنها ستكون باطلة False). فالذي يقوله يبدو متناسقا في حدود علمي، مع الزعم (مثلا) بأن النفسانيين النصارى في ممارستهم لعلم النفس، يمكنهم أن يتعلقوا بصورة معقولة بحقيقة أن البشر مخلوقون على صورة الإله، أو أنهم يعانون من الخطيئة الأصلية. فإذا كنا سنتعرض الآن لمنع فان تيل من وضع فرضيات بحيث يكون الإله قد فعل شيئا ما أو الآخر بصورة فورية أو مباشرة، فهذه الفكرة تخفي تحتها سقطات، وتستحق من الفحص والتدقيق ما لا يتسع له المقام ها هنا. ولكن الفكرة الأساسية واضحة إلى حد كبير. فمن أمثلة الخلق الإلهي غير المباشر، بنائي بيتا ما، فقد نقول إن الإله يخلق البيت، ولكن يفعل ذلك بصورة غير مباشرة، بجعل نشاطي البشري سببا فيه. وإذن فالإله يعمل بصورة غير مباشرة إذا أنشأ أمرا ما، من طريق فاعلية شيء آخر من مخلوقاته. وإذن فالإله يعمل بصورة مباشرة، فقط في حالة ما إذا أحدث أمرا ما، دون أن يتخذ لذلك سببا مخلوقا وهو نشاط الشيء المخلوق الذي يتولد عنه الحادث المراد.

والآن ففان تيل يقترح أن الإله لا يفعل شيئا على الإطلاق في العالم بصورة "مباشرة"! ولكن لا شك أن فان تيل، كأي متفلسف مثبت للصانع (من المنتسبين للنصرانية أو غيرها من الملل الكتابية) Theist، سيوافق على أن الإله يحفظ العالم في الوجود، وجميع مخلوقاته فيه

بصورة مباشرة، فهو يعمل عملا مباشرا في الانفجار الكبير، ولكن كذلك في سقطة العصفور. فلو أنه أمسك عن ذلك الحفظ الدائم، فإن العالم سيزول كالحلم يزول عند اليقظة. ولا شك أن فان تيل كذلك سيوافق (على الرغم من التسلسل الذي يقتضيه ذلك) على أنه إن كان الإله فاعلا شيئا ما في العالم بصورة غير مباشرة، فلابد أنه كذلك فاعل شيئا بصورة مباشرة، فمن غير المتصور أن يقدر على إحداث أثر ما لسبب ما بصورة غير مباشرة، دون أن يعمل مباشرة، بخلق شيء معين مباشرة. لذا فالمتعين أن نفهم كلام فان تيل على نحو آخر. فلعل فكرته هي أن الإله خلق العالم في لحظة ما في الماضي (بالعمل المباشر في ذلك الوقت)، ثم لم يعد بعد ذلك يعمل بصورة مباشرة في العالم، إلا في حفظ خلقه في الوجود (يمسكه عن الزوال)، وفي المعجزات المتصلة بتاريخ الخلاص. ولكن لماذا نطرح فكرة كهذه؟ فبالنظر إلى حقيقة أن النصارى، على ما بين البابا بايوس الثاني عشر وجون كالفين من تفاوت في المعتقد، قد اتفقوا على أن الإله خلق الأرواح البشرية خلقا مباشرا، فهل يصح لنا أن ندعي، هكذا بلا برهان، أنهم كانوا مخطئين؟ ما هو المستند أو الدليل على أن الإله لم يعد يعمل بصورة مباشرة في العالم؟ يستند فان تيل في هذا الموقف الثيولوجي إلى آلن وشتِك، يقول آلن: لا يمكن للإله أن يستعمل بصورة صحيحة في التفسيرات العلمية، التي تصاغ على هيئة علاقات مطردة ما بين عناصر الكون، لأن هذا سيختزل الإله إلى منزلة المخلوق. فوفقا للتصور النصراني للإله على أنه خالق لكون معقولٍ تماما، فليس ثمة علاقات ناقصة أو مبتورة بين أفراد أو عناصر الطبيعة. فإن صادفتنا حالة ما، في دراستنا للطبيعة، بحيث تبدو فيها الصلة مفقودة بين عناصر الطبيعة، فإن الاعتقاد النصراني في الخلق يوجب علينا أن نظل نبحث عن تلك الصلة.

يقول بلانتينغا: فاقتراح آلن يبدو أنه يقتضي، ليس فقط أن النصارى لا يمكنهم أن يفترضوا، بصورة سوية، أن الإله قد فعل شيئا ما بصورة مباشرة، على أن يكون ذلك الفرض جزءا من العلم الطبيعي، ولكن كذلك يقتضي أن يكون من غير المستساغ في العلم أن نتعلق بفكرة لحقيقة أن البشر مخلوقون على صورة الإله. فإن هذه الفكرة ليست تقريرا للكيفية التي تتعلق بها الموجودات الطبيعية ببعضها البعض، ولكنها تقرير للكيفية التي تتعلق بها بعض أنواع الموجودات الطبيعية - نحن البشر - بالإله. يعتقد آلن أن التقريرات العلمية يجب أن تصاغ دوما في صورة العلاقات الرابطة بين موجودات الكون المخلوق (وإذا كان هذا صحيحا، فلعله إذن يصح أن تكون الإشارة إلى الإله في العلم الطبيعي تشبيها له بالمخلوقين كما يقول). ولكن يبدو بادي الرأي أن هذا موقف متعجل. فإن كتابا في علم الفلك قد يخبرك بقطر كوكب جوبيتر (أو عمر الأرض أو الشمس أو مجرة درب التبانة). ولكن هذا لا يفيدك بالكيفية التي بها تتعلق موجودات العالم ببعضها البعض، وإنما يفيدك، عوضا عن ذلك بمعلومة عن شيء من تلك الموجودات، وهو مع هذا علم طبيعي معتبر. فقضية آلن الأساسية هنا هي أن التقرير العلمي الطبيعي لا يصح أن يصاغ ببيان العلاقة بين أي شيء معين وبين الإله. ولكن لم لا؟ ما هو المستند القاضي بقبول هذا الزعم؟ ألا يبدو زعما اعتباطيا؟ تأمل معي في حقيقة أن البشر قد خلقوا على صورة الإله، ومع هذا فقد وقعوا في الخطيئة. هذه الحقيقة المزدوجة قد تبدو مفيدة جدا في تقديم تفسيرات سيكولوجية لظواهر متعددة. فإن صح أن كانت كذلك، فلماذا لا يصح للسيكولوجي النصراني أن يستند إليها؟ ولماذا لا يقال للمحصلة التي يخرج بها في النهاية إنها "علم" Science؟ قد يتصور أن يدلنا التحقيق العلمي (الطبيعي) على أن الإله خلق الحياة بصورة مباشرة، أي بأنها لم تنشأ بالتولد عن شيء مخلوق آخر. فإن كان

هذا ما ينتهي إليه، أو ما تبدو عليه الأمور في وقت ما، فلماذا لا يقال بذلك؟ ولماذا لا يكون القول بذلك جزءا من العلم الطبيعي؟ فبما أنك نصراني، فلابد أنك تؤمن قطعا بأن الإله صنع العالم، وكان من الممكن أن يصنعه على كيفيات متفاوتة متعددة، فلماذا لا نوظف هذه المعرفة في تقييم احتمالية صحة فروض متعددة (مثلا، أسطورة الارتقاء الكبرى)؟ النصارى كذلك لديهم عقائد بشأن ما هو معقول في تصور سايمون (الباحث الدارويني الذي علق على كلامه في الجزء الأول من البحث) – حول ما أنواع الأهداف التي يمكن أن تقع في نفس الإنسان السوي. ولدى النصارى كذلك اعتقادات بشأن أنواع الأفعال التي يمكن أن تنفعهم أو تنفع غيرهم. فلماذا لا نوظف تلك الاعتقادات في بناء نظرية ارتقائية علمية لها نفس احتمالية تفسير سايمون للسلوك الإيثاري، مثلا، أو في تقديم تفسيرات أخرى لنفس تلك الظواهر؟"

قلت: هذا الكلام يكشف لك عمق البدعة والخلل الفلسفي البالغ عند بلانتينغا وعند فلاسفة النصارى عامة، في التعامل مع مسألة الفعل الإلهي في العالم Divine Action! وسبب هذا الخلل ومنشأه، أيها الكرام، هو ما بيناه من قيام المنطق التجريبي عند الغربيين على مبدأ الإطلاق الميتافيزيقي على شرط الوجود الذي بدعه أساتذة اليونان وعليه أسسوا جميع نظرياتهم وتصوراتهم لما يقال له الفيزيقا، ولما يقال له الميتافيزيقا تبعا. فبدلا من أن يكون موضوع العلم الطبيعي والتجريبي هو دراسة العلاقات السببية المطردة التي تستفاد بالاستقراء في طبائع الموجودات المعتادة في تجربتنا البشرية، ومحاولة تفسيرها بما يفيد التطبيق التقني المطلوب من تكلف دراسة نظامية باهظة التكاليف، فيها من الفحص والتجريب والرصد الحسي ما فيها، كما استفاده فرانسيس بيكون من تجربة التجريبيين المسلمين وتطبيقاتهم لما توصلوا إليه من

استقراءات الطبيعة في اختراعات تكنولوجية نافعة، بدلا من أن يكون هذا هو قصارى جهد الباحث في طبائع الأشياء وموضوع بحثه، وجب أن يكون له كذلك نظرية ميتافيزيقية عليا يفرضها في حقيقة موجودات الكون (بإطلاق) وما به تستحق معاني الزمانية والمكانية وما به توصف بأن لها علاقة ما بغيرها من الموجودات، أينما وجدت ومتى وجدت! يجب أن تكون لديه نظرية تكييفية قياسية، يقدم بها تفسيرا "علميا" للكيفية التي يتحقق بها معنى الحركة بكل موجود يوصف به، هكذا بإطلاق، ومعنى التغير من حال إلى حال، وما يتعلق بهما من علاقات زمانية، ومعنى الامتداد في المكان والتحيز في الجهة (بالنسبة إلى غيره من الموجودات)، ومعنى قيام الأبعاض به، وغير ذلك مما يعد أكثره من ضرورة وصف الشيء، أي شيء، بأنه موجود في الأعيان لا في الأذهان! هذا المبدأ اليوناني الكلي هو الذي اقتضى الطبيعية المنهجية ومنه نبتت كما بينا! فعندما تقبل ذلك المبدأ وتسلم به في تصورك لوظيفة النظرية العلمية الطبيعية ووظيفة الناظر في التجريبيات بعموم، فلا مفر لك من التلبس بتشبيه الأفعال الإلهية على وجوه شتى! فإنك بهذا تصيّر مبدأ فاعلية الموجود، أي موجود، للفعل، أي فعل، بموجب إطلاق المعنى الكلي للفظة "فعل" Action، أمرا طبيعيا ناشئا عن طبائع المواد المنتشرة من حولنا التي عرفناها باستقراء العادة! وتصير المفعول، أي مفعول لأي فاعل، متولدا بضرورة الإطلاق اللغوي للفظة "مفعول" على موجود ما، عن أسباب طبيعية نوعا! أي عن تأثير طبائع معينة مركبة في بعض مواد هذا العالم! فإذا كان من شرط ممارسة العلم الطبيعي، ألا تفسر الحوادث إذا وقعت إلا بأسباب طبيعية نوعا، فبمجرد أن يتجاوز الناظر في الطبيعيات بفروضه ونظرياته، حدود استقراء الطبائع والتنبؤ بها في أنواع الموجودات المحصورة في عادتنا البشرية التراكمية، إلى التعامل مع الكون بكليته، من أوله إلى آخره،

وموجودات العالم بإطلاق، متى وجدت وأينما وجدت، وتاريخ العالم وتطوره عبر التاريخ، فلابد أن يقيس ربه في أفعاله الإلهية التي هي من أخص خصائص ربوبيته، كخلقه العالم بعد أن لم يكن، وخلقه الأنواع الحية على غير مثال سابق، يقيس ذلك كله على أفعال المخلوقين لا محالة، من حيث خضوع الجميع للسنن السببية الطبيعية المعتادة! فإن هذا هو المقتضى الصريح لاشتراط افتراض التفسيرات الطبيعية Scientific Explanations في هذه الأبواب!

ولكن هذا الشرط المنهجي من أين جاء وما مسوغه؟ مسوغه في الأصل يا كرام، هو أن طبيعة موضوع العلم التجريبي إنما هي النظر في العادة وفي نظم الطبائع المركبة في الموجودات المحسوسة والمعتادة! هذا هو موضوع العلوم التجريبية النافعة كما بينا! فلو أن تلك الصنعة كان موضوعها مقصورا عند أصحابها على تقرير القوانين والسنن السببية في حدود تلك العادة التي منها عرفنا تلك القوانين وتوصلنا إلى استقرائها، مع وضع التشبيهات اللازمة لتفسيرها وربطها ببعضها البعض كلما ظهر الداعي، لكان شرطا منهجيا مقبولا إجمالا، لأننا نجزم بأن وراء الأسباب الطبيعية المعتادة من طبقات الأسباب الغيبية ما لا يحيط بعلمه إلا باريه سبحانه، ولا نعلم من تدبير رب العالمين وفعله وقضائه في اليوم والليلة إلا ما جاء الخبر به في السمع، فلا خوض لنا فيما وراء ذلك ولا نجيزه! نعلم إجمالا أن هذه الأسباب كلها ناشئة عن طبائع قد ركبها رب العالمين في أنواع المواد المخلوقة في هذا العالم، ونسلم بذلك وننطلق منه في البحث والتجريب والرصد ونحن على ثقة من أن السنن الماضية التي سبق استقراؤها ستظل مطردة على نظام محكم لا يخرم، ومن ثم نواصل بحثنا في إطار تلك الحدود دون حاجة إلى ذكر فاعلية رب العالمين أو الإشارة إليها في معادلاتنا أو نماذجنا النظرية التي نضعها لتصور تلك النظاميات والعلاقات الرابطة فيما بينها. ولكن لأن الصنعة لم تتقيد عند الفلاسفة تاريخيا بهذا القيد

الموضوعي الغائي من أصل الوضع، لزم عن ذلك ما نسميه اليوم بالطبيعية المنهجية، أي أن تنفَى جميع الأسباب المتجاوزة للعادة الخارقة للطبائع المعتادة، التي لا يمكن مبدئيا إخضاعها لنسق طبيعي مطرد كما يتكلفه الناظر في كافة النظم السببية الواقعة تحت عادته! وإذن، لزم أن يُنفى الفعل الإلهي والغائية الإلهية وتختزل إلى ما هو أحط وأخفى حتى من فاعلية المخلوق الحي الذي يؤثر في الموجودات تأثيرا يمكننا إثباته بالحس والملاحظة! فمن تلبس بمبادئ الإطلاق اليوناني في بناء النظريات، وقبل عدوانهم المنهجي بآلة النظر التجريبي على ما يتجاوز حدود العادة البشرية، ولم ير به بأسا، وهو مع هذا يثبت في الغيب ربا خالقا فاعلا، لم يزل يفعل ما يريد، فلابد لهذا أن يتلبس بالتناقض المنهجي الصارخ، شعر بذلك أم لم يشعر! وتشبيه الأفعال الإلهية هو لازمه الذي لا ينفك عنه مهما زعم البراءة منه! وهذا هو ما تراه هنا تحقيقا!

خذ مثلا قول بلانتينغا: "يقدم كل من ديوجينيس ألان، وجون شتِك وهوارد فان تيل أجوبة من هذا الصنف (يعني السؤال الذي ختم به فقرته السابقة لتلك حول ما يتعين على النصراني بإزاء البحث التجريبي)، فعلى كلام فان تيل، فإن الإله قد خلق العالم موصوفا بالتكاملية الوظيفية، يقول: أقصد بهذا المصطلح، عالما مخلوقا ليس فيه نقائص وظيفية، ولا فجوات في اقتصاديته بحيث تتطلب تدخل الإله الفوري، ليتلبس على سبيل التأقيت بدور المخلوق فيقوم بوظائف معينة داخل اقتصاد العالم المخلوق، لم تجهز أنواع معينة من المخلوقات بحيث تقوم هي بها!

قلت: من أين لتيل هذا الحكم بأن الله خلق العالم موصوفا بهذا الذي يسميه "التكاملية الوظيفية"؟ زعم كهذا، أن الله خلق العالم على كيفية كذا، أو موصوفا في كليته بكذا وكذا،

هذا ليس مما يؤتى بمثله من ملاحظة هذا القدر المحدود منه، الذي هو محل عادتنا التراكمية زمانيا ومكانيا، كما هو واضح! فما الذي به استجاز هذا الرجل وأمثاله أن يطلقوا الأحكام بشأن خالقية الله تعالى وفاعليته بلا أساس معرفي على الإطلاق، إلا أوهام الفلاسفة على هذا النحو؟ إنه المنهج اليوناني في إطلاق النظريات بشأن الموجود على شرط الوجود! فالصنعة التجريبية لما أصبح موضوعها هو كل العالم من أوله إلى آخره، أصبح الحادث، أي حادث، لا يقع في زمان ومكان يخصه (كما هو مقتضى معنى الحدوث لغة)، إلا وجب أن تكون حقيقته على كيفيات تتناولها نظريات القوم بتفصيل هم ماضون فيه على ما هم ماضون عليه! وإذن فلا تكون المسببات إلا متولدة عن أسباب طبيعية نوعا، وهو ما يقال له السببية الطبيعية المغلقة أو الحتمانية السببية الطبيعية، لماذا ومن أين جاءت تلك المسألة؟ من أنه لا معنى أصلا في ميتافيزيقا القوم للفظة سبب Cause إلا أن يكون أثرا عن طبع ما، مركب في مادة ما! فلو أنهم من الأصل اتقوا الله في عقولهم ومعارفهم، وقالوا إن موضوع صناعتنا إنما هو جنس الأسباب المعتادة وحسب، وما وراء ذلك فالله أعلم به، لما تكلفوا بناء النظريات في أمور تجاوز حدود العادة البشرية مجاوزة لا يرجى معها الوقوف عليها أو على ما يناظرها نوعا! وإذن لما اضطر فلاسفة النصارى المتشبعون بتلك الطريقة اليونانية الفاسدة في إطلاق الأقيسة التكييفية على شرط الوجود، لأن يلفقوا اعتقادهم في صفات باريهم وأفعاله تلفيقا بما يرجى معه ملاءمة تلك النظريات والتناسق معها! وهذا ما تراه هنا. فالتكاملية الوظيفية هذه ليست في الحقيقة إلا صياغة ثيولوجية أنيقة للحتمانية السببية اللابلاسية! فهو يقصد بها ألا يكون في العالم شيء بحيث يحتاج من أجل أن يقع أو يحدث، إلى فعل إلهي من نوع لا تستعمل فيه الطبائع المركبة في موجودات العالم على سبيل التولد السببي! فإن هذا على كلام الرجل،

محال، لأنه إذن يكون بمنزلة الفجوة الوظيفية Functional Gap التي من أجل أن يسدها الإله، فإنه "يضطر لأن يتدخل" ليقوم بمهمة كان حقه أن يكلها إلى شيء من خلقه بحيث تكون متولدة عن ذلك المخلوق كما هو الشأن في غيرها من المسببات في هذا العالم! فمن أين جاء الرجل باعتقاد أنه لا تكون المسببات إلا متولدات طبيعية أصلا؟ بسبب هذا الاعتقاد الراسخ لديه، قال إن ادعاء أي سببية خارجة عن هذا النوع، يوجب تشبيه الرب بالمخلوقين، لأنه إذن يكون هو نفسه موصوفا بأنه محل للطبائع (التي جرت العادة على أنها لا تكون إلا في المواد المخلوقة) فيكون تأثيره في الطبيعة من جنس تأثيرات المخلوقات التي كان هو من ركب فيها طبائعها! فكما هو شأن اللاهوتيين والمتكلمين والجهمية من كل ملة، يضطر الفيلسوف لتعطيل صفات رب العالمين، نزولا على ضرورة الخضوع للنظرية الميتافيزيقية التي أطلقت كيفية قياسية معينة لمعاني تلك الصفات في كل موجود يوصف بها، وهو يرى أنه بذلك ينزه ربه عن مشابهة المخلوقين! فمباشرة الخلق الإلهي بالتكوين، أو بلا واسطة سببية يتولد عنها المخلوق، تقتضي على هذا التصور للمنظومات السببية، إن فرض الرجل وقوعها، أن يكون في نظام العالم "فجوة سببية" أو "وظيفية"، يضطر الخالق فيها لأن يباشر بنفسه عمل المخلوق في توليد المسببات، فيكون مثله في ذلك مثل المخلوقات التي تتولد عنها المسببات! فكيف يرام التنزيه من ذلك؟ يعطل الرب عن كل خلق لا يكون بالتوليد عن طبائع مركبة سلفا في مادة مخلوقة، وعن كل فعل لا يكون بواسطة طبع قد سبق منه أن ركبه في مخلوق ما! ويبقى السبب هو السبب الطبيعي وحده لا شريك له! وهذه هي ربوبية لابلاس Laplacean Deism بحذافيرها! فكيف ناقشه بلانتينغا في هذا الكلام؟

يقول بلانتينغا معلقا: لاحظ أولا أن فان تيل يبدو وكأنه يوجه نيرانه ليس فقط إلى طريقة واحدة وحسب من الطرق التي يبدو لي أن النصارى يمكنهم أن يسلكوها في تسليط ما يؤمنون به على ممارستهم للعلم الطبيعي، ولكنه يدعي أن الفرضية العلمية لا يصح أن تدعي أن الإله يفعل شيئا ما أو آخر بصورة فورية أو مباشرة. (لاحظ كذلك أن الدعوى هنا ليست أن فرضية كهذه لن تكون "علمية" Scientific، ولكن أنها ستكون باطلة False)."

قلت: الفرضية العلمية التجريبية التفسيرية لا يصح أن تكون كيفيات وأنواع الفعل الإلهي موضوعا لها أصلا، من مبدأ الأمر!! ليس أن فيما فرضه المذكور بخصوصه نظرا، خلافا لما قد يفرضه غيره في نفس الأمر!! العلم بكيفيات أفعال الباري سبحانه وتعالى التي لا يشركه فيها غيره، أفعال ربوبيته التي بها يخلق الخلق ويدبر الأمر سبحانه، لا يجوز في عقل العاقل السوي أن تجعل مادة للقياس والنظر العقليين أصلا، لا تحت العلم التجريبي ولا الثيولوجيا ولا الفلسفة ولا غير ذلك! وإنما هذا باب يستمد العلم به من الوحي إن جاء، وإلا فالإمساك والسكوت هو المتعين! ولا يكون الخوض في ذلك على هذا النحو السقيم، تسليطا لما يؤمن به النصراني على العلم الطبيعي كما يطالب به بلانتينغا، وإنما يكون تسليطا للفلسفة الميتافزيقية الدهرية على الاعتقاد النصراني على التحقيق! وأنا لا أدري كيف يستجيز رجل يفترض فيه أنه يقيم في قلبه وزنا لربه الذي خلقه وخلق كل شيء، يستجيز أن يتكلم في هذا الباب بالفروض والنظريات والآراء على هذا النحو! الحمد لله الذي عافانا بالإسلام والسنة! فوالله يا إخوان إنكم لفي نعمة لا تشعرون بقدرها إلا قليلا! نعمة أن يكون الواحد منا قد انضبطت لديه مصادر تلقي العلم بصفات ربه وانحسمت فيما نجزم بأنه وحي إلهي، ونعلم بدلالة الفطرة الراسخة في نفوسنا بأنه كذلك حقا، وأن يكون معاف من التقلب في هذا الباب الخطير بالرأي

والهوى، يصبح في يومه على اعتقاد ثم يبيت في ليلته على غيره، يعبد اليوم ربا وغدا ينقلب إلى غيره، نسأل الله السلامة، نعمة التوحيد الصحيح هي أعظم النعم على الإطلاق، نسأل الله الثبات عليها حتى الممات!

فبدلا من أن ينقلب الفيلسوف النصراني الكبير على الفلاسفة، يلزمهم حدودهم ويوقفهم عندها بحزم وصرامة، يدفع زبالتهم وعدوانهم على الغيوب المطلقة وعلى الإلهيات كما هو دأبهم، يضعها تحت قدميه ولا يبالي، أبى هذا الرجل إلا أن يتوسل بين أيديهم لركن في الأكاديمية الطبيعية المعاصرة، يجلسونه فيه هو وأصحابه ممن بدعوا نظريات "نصرانية" أو "خلقوية" في نشأة الأنواع الحية وفي الفلك والجيولوجيا والكوزمولوجيا وما شاكل ذلك، دون أن يقال لهم انصرفوا عنا، ليس هذا الذي جئتم به "علما" ولا يصلح أن يقال له "علم"! فلماذا تلبس بموقف مخز كهذا؟ لأنه ما عرف التوحيد يوما من الدهر، ولا شهد لرسول الله صلى الله عليه وسلم بما هو حقه أن يُشهد له به، ذلك النبي الخاتم الذي لا يحصل التوحيد الحق لإنسان إلا بتوحيد اتباعه صلى الله عليه وسلم، لم يقبل ذلك ولم يؤمن به، على ما له من تاريخ طويل في النظر والبحث ودراسة الأديان والملل والتدقيق والتنقير في أبواب العقائد والفلسفات، فنعوذ بالله من الخذلان! نعم هو من فضلاء الفلاسفة ولا شك، فهو قطعا أفضل من كثيرين من أرباب تلك الصنعة الخبيثة، ولكن الهوى يقعد بصاحبه، مهما قام به الناس ورفعوه رفعا، نسأل الله السلامة!

قوله: "فالذي يقوله (أي تيل) يبدو متناسقا في حدود علمي، مع الزعم (مثلا) بأن النفسانيين النصارى في ممارستهم لعلم النفس، يمكنهم أن يتعلقوا بصورة معقولة بحقيقة أن البشر مخلوقون على صورة الإله، أو أنهم يعانون من الخطيئة الأصلية." قلت: أما أن البشر مخلوقون على صورة

الله تعالى، فإن كان يريد بها أنهم يميزون الحق من الباطل، وأنهم يحسنون الحسن ويقبحون القبيح ويتمدحون بالصفات الحسنة والأخلاق الحميدة وما شاكل ذلك، يعرفون ذلك ويميلون إليه، فحق ولا شك. ولا ريب في أن الباحث النفساني الذي يؤمن بهذا في دينه فالواجب عليه ألا يقبل نظرية تقتضي ما يخالفه، وألا يفرض تفسيرا لظاهرة ما بحيث يخالفه أو يقتضي مخالفته. وأما دعوى الخطيئة الأولى، وهي اعتقاد فاسد كما هو معلوم، فإن كان يقصد بها هنا في هذا السياق أن البشر لديهم أيضا نقائص نفسية وتعتريهم الغفلة والميل لاتباع الشهوات والغرائز ونحو ذلك، فهو كذلك حق لا يخفى. ولكن ما علاقة ذلك كله بما قرره تيل في الكلام الذي يعلق عليه الرجل؟ يقول إنه يتناسق معه، فكان ماذا؟

قوله: "والآن ففان تيل يقترح أن الإله لا يفعل شيئا على الإطلاق في العالم بصورة "مباشرة"! ولكن لا شك أن فان تيل، كأي متفلسف مثبت للصانع (من المنتسبين للنصرانية أو غيرها من الملل الكتابية) Theist، سيوافق على أن الإله يحفظ العالم في الوجود، وجميع مخلوقاته فيه بصورة مباشرة، فهو يعمل عملا مباشرا في الانفجار الكبير، ولكن كذلك في سقطة العصفور. فلو أنه أمسك عن ذلك الحفظ الدائم، فإن العالم سيزول كالحلم يزول عند اليقظة." قلت: ما الضامن عندك يا بروفيسور لأن يكون جميع من تسميهم بالمثبتة Theists موافقين على ما تقول؟ إذا كانوا جميعا يتخذون من العقل (بهذا الإطلاق) مصدرهم الأول لتلقي المعرفة بصفات خالقهم وما يجوز له وما يمتنع، فما الذي يمنع بعض فرقهم من المخالفة عن هذا الذي تقرره؟ ما الذي يحجز الفيلسوف النصراني عن أن يعتقد بقدم العالم وبأن الإله لم يزل يخلق بالانبعاث، كما زعمه بعض الفلاسفة القدماء؟ أن سفر التكوين صريح في أن العالم حدث بعد أن لم يكن؟ أنتم لا تلتزمون بما هو "صريح" في نصوص الكتاب، ولا شيء يمنعكم، في

منهجكم اللاهوتي، من تكلف التأويل والتحريف كما علمكم آباء الكنيسة، حتى يمسي النص مجرد تصوير مجازي لا حقيقة له أصلا، فما المانع من أن يكون فيلسوفا نصرانيا لاهوتيا محترما في الكنيسة ومع هذا يقول بقدم العالم وبأن الأيام السبعة مجاز لا غير! هذا موجود، ولولا خشية الإطالة لنقلت لكم بعض كلام من يقولون بذلك من فلاسفة القوم! فعلى هذا المذهب لا يكون ثمة "حفظ إلهي" بمعنى الفاعلية الإرادية التي يمكن أن يكف الرب عنها إن شاء ذلك! وإنما يكون أمرا ملازما لوجوده من الأزل، ضرورة أن وجود الأشياء مستمد من وجوده بالانبعاث المزعوم! وإذن فلا انفجار ولا عمل مباشر فيه ولا في غيره من حوادث العالم، ولا يتصور له أن يمسك عن حفظ العالم من الزوال بمشيئة تحدث عنده سبحانه! فكيف تدفع أنت ذلك التصور يا بروفيسور، وما مستندك إن أردت أن تدفعه؟؟ فما كان هو مستندك، فبمثله يرد عليك المخالف سواء بسواء!

قوله: "ولا شك أن فان تيل كذلك سيوافق (على الرغم من التسلسل الذي يقتضيه ذلك) على أنه إن كان الإله فاعلا شيئا ما في العالم بصورة غير مباشرة، فلابد أنه كذلك فاعل شيئا ما بصورة مباشرة، فمن غير المتصور أن يقدر على إحداث أثر ما لسبب ما بصورة غير مباشرة، دون أن يعمل مباشرة، بخلق شيء معين. لذا فالمتعين أن نفهم كلام فان تيل على نحو آخر. فلعل فكرته هي أن الإله خلق العالم في لحظة ما في الماضي (بالعمل المباشر في ذلك الوقت)، ثم لم يعد بعد ذلك يعمل بصورة مباشرة في العالم، إلا في حفظ خلقه في الوجود (يمسكه عن الزوال)، وفي المعجزات المتصلة بتاريخ الخلاص." قلت: ما المقصود على وجه التحديد بالفعل المباشر Direct action؟ هل المقصود أن يفعل ما يريد بلا سبب البتة، ولا حتى كلمة التكوين؟ هذا لا يعقل أصلا، إذ لابد من قيام حقيقة ما بنفس الباري يترجح بها الوقوع على

عدمه، بداية من مشيئته سبحانه! فإن حدوث المشيئة وقيامها بنفسه سبحانه سبب في صدور الفعل عنه، ولا ينفيها أحد إلا لزمه نفي المرجح لحدوث الحادث، ونفي معنى الفاعلية نفسه عن تسبب الصانع في وقوع الحادث، وهذا لا يقوله بلانتينغا! فإن لم يكن يقصد ذلك وإنما يريد كيفية معينة للفاعلية الإلهية والتأثير في الموجودات، فمن أين يؤتى بها إثباتا ونفيا إن لم يكن من الوحي الإلهي لرسول من رسله؟؟ فإن اقتصرنا على معنى الخلق دون التوليد من المخلوقات القائمة وطبائعها، فمن الواضح أن المخلوقات القائمة تلك وطبائعها نفسها لم تقم بها بالتوليد من غيرها إلا بتسلسل يجب إنهاؤه عقلا بما يسمونه هنا بالخلق المباشر! فمذهب تيل إن كان قاضيا بنفي فعل الخلق المباشر دون تولد عن الله تعالى، فهو متناقض به ولا شك، إذ يقتضي مذهبه فتح باب التسلسل وقطع النسبة الحقيقية بين الرب سبحانه وبين أفعال الخلق بالكلية! ومع هذا يتكلف بلانتينغا محاولة التماس المخارج للرجل، فيقول لعله يوافقنا على جميع ذلك، فيقول إن الخلق المباشر لم يحدث إلا في واقعة الانفجار الكبير المزعومة، ثم جميع ما جرى ولم يزل يجري في العالم من الحوادث فكله من المتولدات، بعضه من بعض، دون احتمال لوقوع أي صورة أخرى من صور الخلق الإلهي! ويقول لعله يجيز حصول المعجزات والخوارق وأن يوصف سبحانه بأنه لم يزل يمسك السماوات والأرض عن الزوال دون أن يكون ذلك الفعل أثرا متولدا عن طبائع معينة في مادة العالم، مع أن الرجل مذهبه يقتضي نفي ذلك كله وتعطيله عنه سبحانه، إذ خوارق العادات ومعجزات الأنبياء عند فلاسفة النصارى لا تكون إلا خرقا لنظام الطبيعة بكليته، أي وجوديا، فيما هو عليه، وليس في حدود معرفتنا نحن وحسب، وهي غير متولدة عن طبع معروف أو ناموس طبيعي معروف متقرر لدينا، فعلى إطلاق صاحبه تيل، يمتنع أن تقع أصلا، ويتعين عليه نفيها كلها! فمن أعجب

ما يكون تلك الثقة في أن الرجل "سيوافق" على ما يقول! من أين جئت بتلك الثقة يا رجل؟ هذا على أساس أنكما ترجعان جميعا، أنت وهو، في الإلهيات، إلى نص محكم صحيح النسبة إلى رسول من رسل الله، تحتكمان إليه عند النزاع؟ هذا غير حاصل أصلا! فالقاعدة التي تتفق أنت وهو عليها ليست النص، وليس أساسها النص المقدس عندكم، وإنما أساسها التنظير الطبيعي الدهري، والطبيعية المنهجية التي ترفع عقيرتك بالنقض عليها هنا! ننظر فيما ينتهي إليه الفلاسفة والنظار الطبيعيون من تقرير لحقيقة السبب والمسبب وما به تجري حوادث العالم، ثم بناء على ذلك نقرر هل بقي في الوجود ما يمكن – فيما تتسع له النظرية – أن يكون ناشئا عن غير تولد من طبائع المواد أم لا يمكن! وعلى التحقيق فلن يمكن، لأن النظرية من الأساس إنما توضع لابتلاع واستيعاب كل ما يصح في الوجود أن يقال له "سبب"، بإطلاق المعنى الكلي!

قوله: " ولكن لماذا نطرح فكرة كهذه؟ فبالنظر إلى حقيقة أن النصارى، على ما بين البابا بايوس الثاني عشر وجون كالفين من تفاوت في المعتقد، قد اتفقوا على أن الإله خلق الأرواح البشرية خلقا مباشرا، فهل يصح لنا أن ندعي، هكذا بلا برهان، أنهم كانوا مخطئين؟ ما هو المستند أو الدليل على أن الإله لم يعد يعمل بصورة مباشرة في العالم؟"

قلت: الآن تستند إلى الإجماع؟ سبحان الله! وهل تحسب أنك إذا علقت مخالفة ذلك الإجماع على شرط قيام الدليل عند المخالف، فسيعجز عن تكلف إبراز دليل يكون من جنس ما سبق أن قبلته أنت في غير هذه المسألة بل وفيها هي نفسها، ومن ثم يلزمك، على أسوأ الأحوال، أن تنزله منزلة المخالف خلافا مستساغا لا يؤاخذ النصراني بموافقته عليه، وإن خالف به جميع قرون أهل الملة من قبل؟ ما هو نوع الدليل الذي تشترطه هنا على مخالفك يا بروفيسور؟؟ نظريات الطبيعيين؟ إذا كنت حريصا هذا الحرص البالغ على عدم المنع من أن يصبح هذا

المبحث من جملة مباحث العلم الطبيعي، فما نوع الدليل المطلوب لتقرير اعتقاد مفاده أن الرب لم يعد "يفعل شيئا ما في هذا العالم بالخلق المباشر دون توليد سببي عن مخلوقات قائمة سلفا"؟ هذه المسألة إن لم تستخرج من نص مباشر، ويكون للنص حجية في فض النزاع بينكم معاشر اللاهوتيين، ففي أي شيء تخوضون أصلا، وعلى أي أساس طرحتم تلك المسألة للنظر والجدال والنقاش على هذا النحو؟؟ على أساس نظريات مأخوذة من صنعة الفرض فيها أن موضوعها مقصور على المحسوسات وطبائعها لا ما وراء ذلك؟ كيف لا يشعرون بمبلغ التناقض المنهجي العميق الذي يعانون منه في ذلك؟ سبحان الله!

يقول: " يستند فان تيل في هذا الموقف الثيولوجي إلى آلن وشتِك، يقول آلن: لا يمكن للإله أن يستعمل بصورة صحيحة في التفسيرات العلمية، التي تصاغ على هيئة علاقات مطردة ما بين عناصر الكون، لأن هذا سيختزل الإله إلى منزلة المخلوق. فوفقا للتصور النصراني للإله على أنه خالق لكون معقولٍ تماما، فليس ثمة علاقات ناقصة أو مبتورة بين أفراد أو عناصر الطبيعة. فإن صادفتنا حالة ما، في دراستنا للطبيعة، بحيث تبدو فيها الصلة مفقودة بين عناصر الطبيعة، فإن الاعتقاد النصراني في الخلق يوجب علينا أن نظل نبحث عن تلك الصلة."

قلت: كلام مجمل لا يسمن ولا يغني من جوع. صحيح إن التفسيرات العلمية تصاغ على هيئة علاقات مطردة بين عناصر الكون، ولكن عندما تمدد التفسيرات "العلمية" لتستوعب الكون بكليته، من أوله إلى آخره، وتاريخه وأصله ونشأته ونشأة أنواع الكائنات الحية فيه، يصبح هذا هو موضوعها من مبدأ الطرح، فلا يبقى شيء في الوجود مما هو غيب مطلق إلا اقتحمته أنظار الطبائعيين بفروض ميتافيزيقية تطلق على شرط الوجود، فإن هذا يوجب عليكم، مع قبولكم لتلك النظريات والتسليم بدخولها تحت اسم العلم المقبول، أن تعطلوا ربكم عن كل

صفة، كما التزمه الربوبيون ولم يبالوا! فإن جميع تلك الأمور الغيبية، جميع ما في غيب الزمان والمكان من موجودات وحوادث، يصبح تفسيرها "علاقات مطردة بين عناصر الكون"! فماذا بقي لرب العالمين إذن؟؟ لا شيء، إلا أن يكون هو الموجود العدمي الذي بدأ ذلك كله ثم تركه وذهب، سبحان الله وتعالى علوا كبيرا! نعم الكون معقول ولا شك، ولكن ما معنى معقول هنا؟ هل معناها أنه ليس فيه شيء إلا وهو بالضرورة، قابل للقياس في الحقائق والكيفيات والطبائع والسنن السببية على ما في عادتنا الحسية منه؟ وهل معناه أن حوادث نشأته بعد أن لم يكن، كانت بالضرورة، قابلة للقياس على ما في عادتنا من أنواع الحوادث، خاضعة لبعض قوانين الطبيعة المعتادة عندنا ولسننها المطردة؟ لإن كانت هذه هي المعقولية التي تؤمنون بها، فلا والله ليس نصرانيتكم هي التي تمليها عليكم كما تتوهمون، وإنما هي الطبيعية المنهجية الدهرية التي تزعمون أنكم تحاربونها! وهي هذه المعقولية التي تختزل الإله في أن يكون مخلوقا يخلق الشيء ثم يتركه وشأنه! كنا سنسلم لكم بمنعكم من الاستناد إلى أفعال رب العالمين في التفسيرات الطبيعية، لو كنتم قصرتم موضوع العلم الطبيعي على الطبائع المعتادة في إطار التجربة البشرية التراكمية دون ما سواها! لأنه لو كان الأمر عندكم كذلك، لما رجع تنظيركم الطبيعي على اعتقادكم في صفات باريكم وأفعاله بالإفساد! ولكن أنتم قبلتم من الفلاسفة مبدأ العدوان على الغيب المحض بالقياس الطبيعي، الذي هو بحذافيره الطبيعية المنهجية الدهرية، ثم قلتم نمنع من الإشارة إلى الباري في التفسيرات الطبيعية لأن هذا يقتضي تشبيهه بالمخلوقين! فوالله ما أبقيتم له حتى ما يصح أن يوصف به المخلوق الحقير من أنواع المعاني، بصنيعكم هذا، وأنتم تزعمون التنزيه! بل انتهيتم إلى ذات عدمية ممتنعة الوجود في الأعيان أصلا لو كنتم تعقلون، فسبحانه وتعالى عما تصفون! العاقل من أتباع الرسل لا يجد هؤلاء الفلاسفة قد

اعتدوا على الغيوب المطلقة هذا العدوان الصارخ، واقتحموا ما لا مدخل لتحقيق المعرفة فيه إلا من النص المعصوم، إلا زجرهم ودفعهم ومنعهم من ذلك منعا صارما! هذا ما به يتنزه رب العالمين على الحقيقة من أن يصبح شبيها في صفاته وأفعاله للمخلوقين! أما أن نقبل منهم تلك البضاعة منهجيا، ثم نطالبهم بأن يسمحوا لنا بأن تصبح لدينا نظريات "علمية" (على شرطهم الدهري فيما هو موضوع للعلم والنظر الطبيعي) مع كوننا نشير فيها إلى الإله أو نستولد الفروض التفسيرية فيها من اعتقاداتنا وكتبنا ونصوصنا، فهذا سخف ومحض خذلان، والله المستعان! تأمل إذ ينتصر لكلامه بأن يقول: " فليس ثمة علاقات ناقصة أو مبتورة بين أفراد أو عناصر الطبيعة." قلت: فأين المستند الديني النصراني لهذا الاعتقاد المجمل؟ ما معنى علاقات ناقصة ومبتورة بين عناصر الطبيعة؟ وما هي عناصر الطبيعة هذه أصلا؟ وهل بات المطلوب من النصراني عندك يا كاتب هذا الكلام، أن يعتقد أنه لابد من علاقة سببية ما بين أي موجود من موجودات الكون، بهذا الإطلاق، وأي موجود آخر من موجوداته أيضا، وأن عليه أن يظل يبحث عن تلك العلاقة حتى يثبتها؟؟ ما هذا السخف ومن أين جئت به؟ حتى الدهرية الملحدين من فلاسفة الطبيعيات لا يشترطون ذلك ولا يقولونه! صحيح إن العلاقات السببية ومتولدات الطبائع وتأثيراتها، أكثر وأعقد وأوسع بكثير من أن يتصور العقل تتبعا لها، إلا أن إحصاء ذلك ومحاولة تتبعه والإحاطة به (على طريقة شيطان لابلاس) ليست مما يرجوه حتى أكبر عتاة الدهرية إغراقا في الحتمانية السببية الطبيعية! وإنما يستقرئ الناس ما هو باد ظاهر لهم في عادتهم من علاقات نظامية مطردة بين أنواع الحوادث، وهو ما عليه قامت معرفتنا بجميع ما بين أيدينا من تقريرات للقوانين الطبيعية والسنن السببية المطردة في المواد المعروفة عندنا. أما أن يقال ما من موجودين من موجودات الكون إلا ولابد أن بينهما صلة سببية

معينة، وعلى الباحث أن يظل مرابطا في المعمل حتى يكتشفها، فأي صلة هذه التي يجب عليك من مجرد اعتقادك في الخلق الإلهي أن تظل تبحث عنها، ومن الذي أوجب عليك ذلك؟؟ هذا ليس عند أحد من أهل الملل أصلا، ولا حتى عند الدهرية الطبيعيين!

قول بلانتينغا: "فاقتراح آلن يبدو أنه يقتضي، ليس فقط أن النصارى لا يمكنهم أن يفترضوا، بصورة سوية، أن الإله قد فعل شيئا ما بصورة مباشرة، على أن يكون ذلك الفرض جزءا من العلم الطبيعي، ولكن كذلك يقتضي أن يكون من غير المستساغ في العلم أن نتعلق بفكرة كحقيقة أن البشر مخلوقون على صورة الإله. فإن هذه الفكرة ليست تقريرا للكيفية التي تتعلق بها الموجودات الطبيعية ببعضها البعض، ولكنها تقرير للكيفية التي تتعلق بها بعض أنواع الموجودات الطبيعية - نحن البشر - بالإله. يعتقد آلن أن التقريرات العلمية يجب أن تصاغ دوما في صورة العلاقات الرابطة بين موجودات الكون المخلوق (وإذا كان هذا صحيحا، فلعله إذن يصح أن تكون الإشارة إلى الإله في العلم الطبيعي تشبيها له بالمخلوقين كما يقول). ولكن يبدو بادي الرأي أن هذا موقف متعجل. فإن كتابا في علم الفلك قد يخبرك بقطر كوكب جوبيتر (أو عمر الأرض أو الشمس أو مجرة درب التبانة). ولكن هذا لا يفيدك بالكيفية التي بها تتعلق موجودات العالم ببعضها البعض، وإنما يفيدك، عوضا عن ذلك بمعلومة عن شيء من تلك الموجودات، وهو مع هذا علم طبيعي معتبر. فقضية آلن الأساسية هنا هي أن التقرير العلمي الطبيعي لا يصح أن يصاغ ببيان العلاقة بين أي شيء معين وبين الإله. ولكن لم لا؟ ما هو المستند القاضي بقبول هذا الزعم؟ ألا يبدو زعما اعتباطيا؟"

قلت: فمنتهى جهاد هذا الرجل، ألفين بلانتينغا، ونهاية عزمه وسعيه في هذا الباب، أن ينتزع من القوم اعترافا فلسفيا بأن نظريات النصارى التي تشتمل على ذكر لمصمم ما أو صانع ما،

هي "علم طبيعي" مقبول نوعا Proper Science، ويصلح للتداول في الأكاديميات التخصصية، والله المستعان! حتى ولو كانت المسألة تأليا على الله تعالى وعلى صفاته وأفعاله دون مستند من النقل، فما دامت مطروحة على أنها فرضية تفسيرية في نظرية طبيعية ما، فليس لأحد أن يمنع الباحث النصراني من أن يعدها نظرية "علمية" ومن أن يعاملها الناس تلك المعاملة! هذه هي قضية الرجل وهذا ما ينتصر له! فبئس القضية قضيتك يا رجل وبئس المحامي أنت!

أما قوله: "تأمل معي في حقيقة أن البشر قد خلقوا على صورة الإله، ومع هذا فقد وقعوا في الخطيئة. هذه الحقيقة المزدوجة قد تبدو مفيدة جدا في تقديم تفسيرات سيكولوجية لظواهر متعددة. فإن صح أن كانت كذلك، فلماذا لا يصح للسيكولوجي النصراني أن يستند إليها؟ ولماذا لا يقال للمحصلة التي يخرج بها في النهاية إنها "علم" Science؟" قلت: هذه مسألة نقرك عليها ونوافقك ولا شك، ولكن أنت تعلم كما نعلم لماذا لا يعدونها من الفروض العلمية! وتعلم كما نعلم أن السبيل الوحيد الصحيح الذي يرجى معه إرجاع هذا العلم المنتهك المغتصب منذ قرون خلت، إلى نصابه الصحيح، هو أن نحكم ببطلان المسلمات الدهرية الأولى التي قامت عليها الطريقة اليونانية في بناء النظريات بشأن الواقع والوجود وما فيه، وننبه على ذلك ونعلمه للناس. أما أن نبتلع تلك المسلمات ونركب معهم مركبهم الجاري في نهرها، ثم نتساءل لماذا لا يقبلون منا كذا ولا يقبلون كذا، فهذا لعب صبيان!

تأمل قوله: "قد يتصور أن يدلنا التحقيق العلمي (الطبيعي) على أن الإله خلق الحياة بصورة مباشرة، أي بأنها لم تنشأ بالتولد عن شيء مخلوق آخر. فإن كان هذا ما ينتهى إليه، أو ما تبدو عليه الأمور في وقت ما، فلماذا لا يقال بذلك؟ ولماذا لا يكون القول بذلك جزءا من

العلم الطبيعي؟" قلت: نستدل بأدلة العلم الطبيعي على أن الحياة خلقت بصورة مباشرة دون تولد عن شيء آخر؟؟ وهذه كيف تعرف أصلا من طريق العلم الطبيعي يا بروفيسور، هداك الله إلى الإسلام؟؟ العلم الطبيعي إنما يفيدنا باستقراء العادة، فتثبت النظاميات السببية من تكرار الارتباط بين ظاهرتين محسوستين، بما يوحي بأن بينهما تعلقا سببيا نوعيا، وإذن نحكم، بناء على ذلك، بأن هذا يتولد عن هذا! أما النشوء دون تولد عن شيء البتة، فكيف يكون طريق إثباته هو العلم الطبيعي والتجريبي؟؟ هذا وأيم الله من أعجب العجب!

قوله: "فبما أنك نصراني، فلابد أنك تؤمن قطعا بأن الإله صنع العالم، وكان من الممكن أن يصنعه على كيفيات متفاوتة متعددة، فلماذا لا نوظف هذه المعرفة في تقييم احتمالية صحة فروض متعددة (مثلا، أسطورة الارتقاء الكبرى)؟ النصارى كذلك لديهم عقائد بشأن ما هو معقول في تصور سايمون (الباحث الدارويني الذي علق على كلامه في الجزء الأول من البحث) – حول ما أنواع الأهداف التي يمكن أن تقع في نفس الإنسان السوي. ولدى النصارى كذلك اعتقادات بشأن أنواع الأفعال التي يمكن أن تنفعهم أو تنفع غيرهم. فلماذا لا نوظف تلك الاعتقادات في بناء نظرية ارتقائية علمية لها نفس احتمالية تفسير سايمون للسلوك الإيثاري، مثلا، أو في تقديم تفسيرات أخرى لنفس تلك الظواهر؟"

قلت: لأن النشأة الأولى على غير مثال سابق، لا يصح في العقل أصلا أن تكون موضوعا للبحث الطبيعي والفرض التجريبي! ليس لأمثال تلك الفروض أن تطرح أصلا، حتى يقال إن صاحب الاعتقاد الكتابي يمكنه أن يرجح فيما بينها بما لديه من معرفة دينية، أو أن تكون معرفته سببا في تقوية الاحتمالية المعرفية لبعضها وتضعيفها للبعض الآخر! الباب غيب مطلق، فلا يلتمس فيه العلم أصلا إلا مما صحت نسبته إلى وحي رب العالمين! فلا نضع نحن النظريات

الطبيعية في هذا الباب، ولا نقبل منهم هم أن يضعوا من طريقهم وتأسيسا على عقائدهم! وإنما هو التوقيف المحض! ولكن هو قضيته كلها في تسويغ قبول نظريات الخلقويين النصارى في التصميم الذكي وما شاكل ذلك من نظريات الارتقاء الإثباتية Theistic Evolution theories، في أوساط الأكاديميين الطبيعيين على أنها "نظريات علمية ارتقائية معتبرة في نشأة الأنواع الحية"، ونشأة أنواع السلوكيات البشرية والنظم الحيوية وما شاكل ذلك مما أغرق فيه الطبيعيون من نظريات مفصلة بالغة التفصيل في تلك الأمور! فبدلا من أن يقول للفلاسفة في حزم وقوة: اخرجوا من هذه الأبواب بالكلية، ولا تطلبوا فيها العلم إلا من نص صحيح النسبة لخالق كل شيء، كما هو الواجب على كل عاقل يؤمن بأن له ربا وبأن ربه قد أرسل رسلا وأنزل كتبا، قابلهم بالمطالبة بأن يدخلوا أصحاب تلك النصوص معهم فيها لتصبح النظريات "إثباتية" Theistic Theories، ويكون "العلم" نصرانيا Christian Science! فما نقول إلا حسبنا الله ونعم الوكيل.

الجزء الثالث عشر

يواصل بلانتينغا فينقل كلاما عن أستاذ اللاهوت النصراني الأمريكي "جون شتيك" قال فيه[26]:

بما أن العالم المخلوق مشحون باقتصاده الخاص، الذي لا يوصف بأنه ناقص (الإله ليس عنصرا من عناصره) ولا معيب، ففي مسيرة فهمنا لاقتصاد ذلك العالم، رجاء أن نتبوأ مهمة القيام على أمره – وهو الفهم القائم على الممارسة العملية والبحث العلمي معا – فإنه يتعين

[26] *Since the created realm is replete with its own economy that is neither incomplete (God is not a component within it) nor defective, in our understanding of the economy of that realm so as to exercise our stewardship over it -- understanding based on both practical experience and scientific endeavors -- we must methodologically exclude all notions of immediate divine causality. As stewards of the creation, we must methodologically honor the principle that creation interprets creation; indeed, we must honor that principle as religiously as the theologian must honor the principle that Scripture interprets Scripture -- or, since Scripture presupposes general revelation, that revelation interprets revelation. In pursuit of a stewardly understanding of the creation, we may not introduce a God of the gaps, not even in the as-yet mysterious realm of subatomic particles. We may not do so (1) because God is not an internal component within the economy of the created realm, and (2) because to do so would be to presume to exercise power over God -- the presumptuous folly of those in many cultures who have claimed to be specialists in the manipulation of divine powers (e.g., shamans in Russian folk religion and medicine men in primitive cultures).*

علينا أن نستبعد كل صورة من صور السببية الإلهية المباشرة، استبعادا منهجيا. فمن حيث أننا القائمون على المخلوقات الأخرى (ولعله يعني خلافة البشر على الأرض كما استخرجها من كتابه المقدس)، فعلينا أن نعلي، منهجيا، من شأن المبدأ القائل بأن المخلوقات تفسرها المخلوقات. حقيقة يجب أن نعظم من هذا المبدأ تعظيما دينيا، كما أن اللاهوتيين يجب أن يعظموا من مبدأ أن النص الديني يفسره النص الديني. أو، بما أن النص الديني يقوم على مبدأ الوحي إجمالا، (فهو المبدأ القائل) بأن الوحي يفسره الوحي. ففي سعينا لتحقيق فهم للخلق يليق بمنزلة القوامة عليه، فلا بد ألا نفترض إلها للفجوات، ولا حتى في مجال الجسيمات تحت الذرية التي لم تزل بعد مجالا غامضا بالنسبة لنا. لا ينبغي أن نفعل ذلك، (1) لأن الإله ليس عنصرا داخليا من عناصر النظام الاقتصادي للعالم المخلوق، و(2) لأننا إن فعلنا ذلك فإن هذا سيكون مفضيا إلى التسلط على الإله، وهي تلك الحماقة التي يتلبس بها أناس في ثقافات شتى، عندما يزعمون أنهم متخصصون في التلاعب بالقدرة الإلهية (كالسحرة في الدين الشعبي الروسي، والمعالجين الروحانيين في القبائل البدائية).

قلت: هذا الكلام يعاني من الإجمال الفاحش والاشتباه في عدة مواضع، وهو ما من مثله تتولد المذاهب الفلسفية الباطلة وتروج بين الناس. وبسببه لم يتمكن بلانتينغا، على الرغم من تقريره كثير من الحق كما سيأتي، من الوفاء بالرد عليه كما ينبغي. والفلاسفة في الحقيقة يلجؤون لتلك الطريقة على أثر التعليم اليوناني والتأسيس اليوناني للأكاديمية الفلسفية قبل ثلاثين قرنا مضت، عندما يجد أحدهم نفسه مضطرا لأن يبرز لنفسه مذهبا في مسألة ما، ينشره في الناس، من غير أن يكون قد حقق فيها كما ينبغي، أو عندما يكون مذهبه منطويا على باطل هو يعلم أن السامعين لو وقفوا عليه صريحا في كلامه لتعرض بسببه للضرر الاجتماعي العاجل،

فيلتمس من الكلام عند تناول المسألة من المعاريض ما يمكن تأويله على ما يفيد مذهبه عند خاصة المقربين إليه، كما يمكن كذلك تأويله على خلافه عند المخاصمة! فالطريقة اليونانية تعلم من تربوا عليها أن هذا المسلك لا إشكال فيه عند تقرير المذاهب وتعليم الناس ما يصح اعتقاده وما ينبغي الحكم به من القيم والأحكام المعيارية في هذه المسألة أو تلك! وهو ما أصبح الفلاسفة يحتاجون إليه خاصة بعدما استقر ما يقال له النظام الديموقراطي في سياسة الناس في البلاد! يريد أحدهم أن يحشد تحته أكبر عدد ممكن من أصوات الناخبين، مع أنه يعلم أنهم يخالفونه في الاعتقاد وفي جملة من القيم الأخلاقية والسياسية، فماذا يصنع من أجل أن يخطب ودهم ويميل إليه قلوبهم على الرغم من ذلك؟ يظهر لهم من الكلام ما قد يفهم على ما يريده هو، وقد يفهم على ما يريدونه هم، في تلك القضايا التي لو علموا أنه يخالفهم فيها لما صوتوا له ولما انتخبوه! ولهذا أصبح المستقر في أذهان الكافة وإلى اليوم أن السياسي أو المشتغل بسياسة العامة كذاب منافق بالضرورة، وأنك لا تعلم أبدا هل يصدقك فيما يقول أم يكذب عليك! لماذا؟ لأنه يجب من أجل أن ينجح ويصل إلى سدة الحكم، أن يكون ماهرا في تلك الصنعة: صنعة أن يخاطب الناس بما يرضي الكافة منهم، على اختلاف مشاربهم وعقائدهم ونظمهم القيمية والأخلاقية! ففي النظام الديموقراطي، ما لم يكن الرجل متمكنا من ذلك الفن، مجيدا له، فلن يصل إلى شيء أبدا! لست أقول بهذا إن جميع الساسة في تلك النظم الديموقراطية التي تغزو أمم العالم اليوم من أقصى الأرض إلى أدناها، كذبة غشاشون بالضرورة، أبدا، وإنما أقول إن النظرية الديموقراطية قد صيرت صنعة سياسة العامة وولاية أمرهم، صنعة مشبوهة سيئة السمعة من حيث الأصل، بسبب أنها من الأساس إنما نشأت عند قوم لا دين لهم ولا أخلاق، قوم لم يكن الواحد منهم ليبالي أو ليعبأ بما يعتقده الناس

وما يؤمنون به وما يتخلقون به في خاصة أمرهم أو فيما يظهرونه فيما بينهم، ما داموا يعظمونه هو ويرفعونه فوق رقابهم كما يحب ويشتهي! وما دام الخطاب بحيث يدفع عن صاحبه الضرر الاجتماعي العاجل، ويضمن له الكسب الجماهيري، سواء كان طالبا للمنصب السياسي أو للمنصب الأكاديمي، فهو به على خير وفي عافية، ولا يضره شيء، وليذهب كل امرئ حيث يحلو له أن يذهب لا عليه هو من شيء ولا يضيره شيء! لا سؤال ولا عذاب ولا جزاء يخشى منه في الآخرة، والله المستعان! ولهذا قلنا إن الضرورة العقلية عند القوم إنما آلت في حقيقتها إلى الضرورة الاجتماعية لا غير! بمعنى أننا نتجادل ونشتبك بالخصومة ما بدا لنا، في أيما مسألة، أيا ما كان موضوعها وبابها، دون حد أو قيد على عقولنا البتة، إلا ما يورث العنت الاجتماعي العاجل أو الضرر العاجل المحقق، أو ما كان يخشى منه ذلك بغلبة ظن راجحة! فإن كان المطلوب أصالة من النظر والتفلسف، إنما هو أن يصبح الفيلسوف سيدا على العامة، رأسا فيهم يتبعونه، وينزلون على كلامه في كبرى أمورهم ومسائلهم، فلابد أن تكون الضرورة العقلية التي يلتزم بها ويقف عندها ويقطع عندها كل مناظرة، ولا يقبل طرحها أصلا للجدال والنزاع، هي ما يتعارض أو يمكن مبدئيا أن يتعارض مع ذلك المطلب العام لديه. لو غلب على ظني، أنا الفيلسوف، أني لو طرحت المسألة (أ) للجدال والخصومة، وسوغت الخلاف عليها، وأظهرت ذلك علانية، فسينفض الناس من حولي، وسأخسر ما أحرزته لنفسي عبر السنوات من إقبال الناس علي واتباعهم لي، فسأضطر إذن لأن أكيف مذهبي وأوجه خطابي الجدلي وسجالي مع الخصوم في الصنعة، بحيث أجعل (أ) هذه ضرورة عقلية، لا يجحدها إلا مكابر، ولا يماري فيها إلا كذاب يدعي خفاء الواضحات الجليات التي لا يتصور خفاؤها! وإن قدرنا أن انتقلت إلى مجتمع آخر، بحيث لا يجد الناس فيه حرجا من طرح (أ) هذه

نفسها للنظر والجدال وتعدد الآراء والمذاهب، وكنت أرى الغنم والكسب الاجتماعي حاصلا لي في استمالة هؤلاء ومحاولة التسلق على أكتافهم إشباعا لشهوة الرياسة التي تحركني فعليا في كل شيء، فلن أتمسك بضرورية (أ) أبدا، بل سأنحت لنفسي فيها مذهبا أناظر عليه وأنتصر له بالبراهين النظرية على نفس الطريقة والتويرة، تأسيسا على غير ذلك مما يراه هؤلاء من جملة الضرورات التي لا يحسن الخلاف فيها! فإنه بهذا يجمع المحبون وتحصل الرياسة، لا بادعاء أن القضية بديهية أصلا لا تحتاج إلى استدلال ونظر، وجميع من خاضوا فيها ذلك الخوض عابثون مسفسطون من الابتداء! لو فعلت ذلك لانفض الناس من حولي ولما تابعني أحد! فعلي أذن، أن أغير كلامي ومذهبي فيما هو ضروري بحيث يكون المخالف فيه جاحدا للعقل نفسه! فإنه لا يحصل الإفحام في المناظرة، كما في أصول الجدل اليوناني، إلا بهذا، أنا رجل متخصص في الجدل والمناظرة، وهو ما به أحقق أغراضي من العلو والرياسة على الناس!

ولهذا لما كان مجتمع المسلمين في القرون الأولى، صارما في السنة لا يفرط فيها ولا يقبل الجدال على أصولها ورواسخها، كان هؤلاء، أعني المتشبعين بتلك الطريقة اليونانية، لا سوق لهم ولا رواج بين الناس، ولهذا لما ظهرت طريقة الكلام في أول ظهورها، ظهرت على أيدي أناس صار اسمهم "المعتزلة"! فهي فرقة اعتزلت مجالس العلماء المعظمين المعتبرين بين الناس في ذلك العصر، من التابعين وتابعيهم، واكتفوا بما كان لهم من تابع قليل بين الناس، على طمع في أن يتعاظم ذلك التابع وأن يتوافروا، لا سيما وقد كانوا أوثق صلة بمدارس الطب والفلك والرياضيات وتلك العلوم العقلية عظيمة القدر في نفوسهم، ممن سواهم! فلما اشتد نكير علماء السلف وأئمة أهل الحديث على الجهمية حتى كفروهم واستعدوا عليهم الأئمة والحكام، اضطر

بعضهم لأن يتلاعبوا بالضرورة العقلية المستند إليها في جدالهم، ليجعلوها بحيث تكون مفضية إلى إثبات الصفات التي كان أهل السنة يكفرون من ينفيها، أو على الأقل إلى إظهار ذلك وتقريره على طريقتهم في الإثبات والتقرير، بعد أن كانت الضرورة المزعومة مفضية إلى النفي التام والتعطيل التام! فلما ألجئوا لذلك، كانت طريقتهم فيه هي التلاعب بالمجملات، ما بين من يتوهم فعلا أن المعنى الذي يقرره بها قائم بما يخرج به من مخالفة السلف على التحقيق، ومن لا يريد إلا أن يظهر نفسه، تقية، على أنه يوافقهم! فما يقال له "الكلام النفسي"، مثلا عند الأشاعرة، هذا لا يمكن أن يكون قرآنا يتلفظ به رب العالمين ويخاطب به الناس على الحقيقة، وإنما هو حديث نفس! فمن حيث سموه "بالكلام النفسي" فظاهر اللفظة أنه كلام، وهو ما يفهم منه أنهم بذلك يثبتون لله تعالى كلاما قائما به، غير مخلوق! ولكن عند التحقيق والاستفصال، يتبين أنه ليس بكلام أصلا، وإنما هو مما يجري في النفس دون لفظ ولا خطاب! والسلف كفّروا من نفى عن رب العالمين حقيقة اللفظ والخطاب والتكليم! وكذلك في قولهم "كلام الله قديم"، فهذا قد تدخل منه الشبهة على بعض الناس، وقد دخلت بالفعل، فمن الحنابلة من فهم أن "قديم" هنا إنما تعني: غير مخلوق! فكانوا يقولون "كلام الله قديم" جريا على ذلك الفهم! وهو ما فتح الباب للأشاعرة ليدعوا أن السلف منهم من كان يقول بأن الكلام "قديم" على اصطلاحهم هم، وإذن فهم على مذهبهم في الصفات!! ولكن عند التحقيق، يتبين أن مراد المتكلمين بالقديم إنما هو ما لا ابتداء له أصلا في الماضي، لأن كل ما له ابتداء عندهم فهو بالضرورة مخلوق، إذ لا حادث إلا المخلوق ولا مخلوق إلا الحادث في نظريتهم! فلا يجوز إذن أن يبتدئ الله التلفظ بكلمة بعد أن لم يكن متلفظا بها، لألا يكون القرآن مخلوقا! وهو مرادهم بالقديم! أي أنه على الحقيقة، كلام ليس بكلام أصلا، إذ لا

تمتاز منه كلمة عن كلمة ولا يبتدأ فيه بلفظ بعد لفظ، كما بينه ابن تيمية رحمه الله في الرد عليهم! فما الذي حملهم على ذلك الإجمال؟ الضغط الاجتماعي والضرورة الاجتماعية! نثبت الكلام وننفيه معا، حتى إذا ناقشنا أهل الأثر، أظهرنا إثباتنا لكلام الله غير المخلوق، ومن ثم نبرأ من موجب التكفير، وإذا ناقشنا الفلاسفة، أظهرنا أنه عندنا ليس بحادث أصلا ومن ثم نبرأ من تهمة إحلال الحوادث بذات الصانع! هكذا نشأ المذهب أصلا ولهذا الغرض! فمن أين جاء ذلك كله، وما الذي أدخله عليهم؟ جاء من طريقة فلاسفة اليونان، لعنهم الله، في ارتكاب مطايا الإجمال، اتقاء للضرورة الاجتماعية!

فقول شتيك: "بما أن العالم المخلوق مشحون باقتصاده الخاص، الذي لا يوصف بأنه ناقص (الإله ليس عنصرا من عناصره) ولا معيب..."، هذا يقال له أولا: ما معنى العالم أو المجال المخلوق Created Realm هذه؟؟ هل المقصود العالم كما نعرفه، أي ما نعهده منه في حدود عادتنا البشرية التراكمية، أم جميع ما في الوجود مما يصح فيه أنه مخلوق بإطلاق؟؟ فإنه إذا كان الأول هو المراد، فهذا ما يصح أن يكون موضوعا للنظر التجريبي نوعا، إذ لسنا نملك إلا تتبع تلك الأسباب المحصورة في عادتنا دون غيرها، فنستقرئ سننها المطردة ونظامياتها الثابتة ونسميها بالقوانين الطبيعية أو نواميس الطبيعة أو ما شاكل ذلك، بما تدعو إليه الحاجة والمصلحة النفعية. وأما إن كان الثاني هو المراد، فبأي حق يستجيز العاقل أن يطلق دعوى بشأن جميع ما في الوجود مما سوى الباري، يقول إن الكون كله مشحون بكذا أو مكون كله من كذا أو يحكمه نظام كذا أو غير ذلك مما عندهم؟؟ وهل ضل الفلاسفة وزاغوا وتلبسوا بالربوبية إلا لما استجاوزا من الأساس أن يتكلموا بأمثال هذه الإطلاقات الميتافيزيقية الفاسدة؟ هل ظهرت النحلة الربوبية في أوروبا إلا لما تصور الفلاسفة العالم، كنيوتن وغيره، بقياس كلي

للكون (هكذا) على ماكينة مغلقة يعمل كل موجود مادي فيها عمل الترس الذي لو قدرنا تعطله أو تبدل وظيفته أو تعطل الطبع الذي فيه، للزم تعطل الماكينة كلها وفسادها بالكلية؟؟ أصل الفساد وبيت الداء يا كرام، إنما هو مبدأ إطلاق النظر في كل ما هو موجود، أو حتى في كل ما هو مخلوق، يقال إن كل ما هو مخلوق، هكذا، فلابد أن تفسيره شيء مخلوق مثله، أو طبع مركب في مخلوق غيره!! لا نسلم بمعقولية إطلاق القياس على كل موجود من حيث هو موجود، ولا نسلم كذلك، ولنفس السبب، بإطلاقه على كل مخلوق من حيث هو مخلوق، ولا نقبل تلك الطريقة اليونانية أصلا، ولا نجيزها! تكلم يا هذا ويا ذاك في حدود عادتك وعادة أمثالك، التي عليها سلطان الحس والقياس عند بني آدم، ولا تجاوز ذلك إن كنت تحترم عقلك ودينك، وتعرف لربك قدره، وتحفظ له بالغيب حرمته! سلط نظرك ما شئت على ما يصح مبدئيا أن يكون موضوعا للنظر، ويرجى النفع من النظر فيه، ولا تتجاوز ذلك قيد أنملة، فإنه ما أهلك الفلاسفة إلا كبر نفوسهم وحرصهم على كشف ما لا انكشاف له إلا بالوحي الإلهي وحسب!

ثم ما معنى قولك: "إن العالم مشحون باقتصاده الخاص Its own economy"؟ هل المقصود أن نظام الأسباب والمسببات فيه مغلق على نفسه، مكتف ذاتيا، بحيث لا يقع فيه شيء إلا وجب أن تكون جميع أسبابه منه وفيه، من مثل ما نراه من الطبائع في الأشياء، لا من غير ذلك؟ أم المقصود أن له نظاميته السببية المطردة التي نلمس منها جانبا في حياتنا اليومية وفي معهود تجربتنا البشرية التراكمية؟ المعنيان لا يتلازمان كما ترى، وليس من قال بالثاني مطالبا بأن يقول بالأول كذلك، إلا على نحلة الدهرية الطبيعيين!

وكذلك قولك: "الذي لا يوصف بأنه ناقص (الإله ليس عنصرا من عناصره) ولا معيب" ما معنى Incomplete هنا؟ وما معنى أن يقال بعدها بين معقوفتين: الإله ليس عنصرا من عناصره God is not a component within it؟ ما المقصود بنقص العالم؟ إن كان المقصود بأن العالم لا يوصف بأنه ناقص، أي إنه مكتف ذاتيا سببيا، فهذه بحذافيرها نحلة الفلاسفة الربوبيين الدهرية الذين قالوا بالحتمية السببية الطبيعية والانغلاق السببي الطبيعي، أو الكفاية السببية الطبيعية، أي أن جميع الحوادث في العالم لابد وأنها خاضعة سببيا لطبائع المادة المركبة فيه، لا لشيء خارج عنها البتة! وإن كان المقصود أنه ليس ناقصا بسبب أن الإله ليس عنصرا فيه، فنعم هذا صحيح قطعا، ليست حقيقة كون الإله بائنا من خلقه، مفضية إلى كونه ناقصا من حيث الأسباب أو مختلا من حيث النظام والنسق السببي المطرد فيه! الرب سبحانه منزه عن الاختلاط بخلقه، بمعنى أن يكون حالا فيهم محصورا بهم، خاضعا لنظام هو من يخلقه لهم ويفرضه عليهم من فوقهم سبحانه. ولكن هذا لا يعني أنه منزه عن الفعل ورد الفعل في خلقه. ونقول رد الفعل، وليس "الانفعال" كما سمته الأشاعرة، لأن تلك العبارة عندهم مجملة يراد منها إيجاب النقص في حقه سبحانه من أفعاله وأحواله التي تقوم به تبعا لما يكون في المخلوقين من أفعال وأحوال. الله تعالى لا يزال فعالا لما يريد، يفعل الفعل بعد الفعل بخلقه، ويرد أفعال المخلوقين ويرتب أفعاله على أفعالهم سبحانه، يقضي فيهم ما يشاء ويختار، تنزل الملائكة بأمره وتدبيره وتجري الطبائع على أمره وقضائه، فتطرد بأمره إذا اطردت، وتنخرم أو تتعطل بأمره إذا تعطلت، يخلق ما يشاء ويختار! وقد يقع في العالم ما هو تابع لسبب مخلوق معهود معتاد، ولسبب آخر مخلوق ولكن ليس بمعهود ولا معتاد، وقد يقع ما لا سبب له إلا المخلوق غير المعهود ولا يعرف له طبع معتاد يؤدي إليه، وقد يقع ما

لا سبب له إلا كلمة التكوين! الملائكة وأفعالها الغيبية كلها أسباب مخلوقة غير معتادة ولا محسوسة، ولا يؤثر مخلوق في مخلوق بطبع مركب فيه، إلا بفعل الملائكة التابع لأمره سبحانه! وهو يمسك ذلك كله، شهادته وغيبه، طبائعه وأسبابها، مادته وما وراءها، بالملائكة والجن وجميع ما يغيب عنا، يمسكه عن الزوال كما في قوله: ((إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً)) [فاطر : 41]، بفعل إلهي دائم لا ينقطع إلا أن يشاء سبحانه! وهذا يجده النصارى في كتبهم إجمالا، كما نجده نحن عندنا، وإن لم يكن لديهم ما لدينا فيه من التفصيل، وهذا يظهر لك فيما يأتي من جواب بلانتينغا عن هذا الكلام! فمن المستفيد من هذا الإجمال الذي يتكلم به هذا الرجل هنا؟ لا منتفع غيره على التحقيق! الأكاديمية الغربية قد انصرم أمرها على إحكام أجزاء الماكينة الكونية المزعومة، وعلى المنهجية الدهرية الصرفة في التنظير بشأنها كلها من أولها إلى آخرها، فكيف نظهر خلاف ذلك؟؟ أتريد أن يتهمنا القوم بالجهل والسفاهة؟؟ هكذا يفكر أكثر اللاهوتيين المعاصرين، ومنهم بلانتينغا للأسف، وإن كان أحسن حالا من هذا وأمثاله كما سيأتي.

قول شتيك: " ففي مسيرة فهمنا لاقتصاد ذلك العالم، رجاء أن نتبوأ مهمة القيام على أمره – وهو الفهم القائم على الممارسة العملية والبحث العلمي معا – " قلت: ما المقصود بمسيرة فهمنا لاقتصاد هذا العالم؟؟ نحن إنما نفهم، أو نرجو أن نفهم، في حدود القدرة البشرية، عوائد البشر وما تراكم في محسوسهم من مجريات العالم لا غير! وعليه فعندما يقول: نتبوأ مهمة القيام على أمره Stewardship فما الذي يعنيه على وجه التحديد؟؟ أن نكون أربابا من دون الله نملك السيطرة على أسباب الكون من حيث هو جميع موجودات العالم المخلوق أو النطاق

المخلوق Created Realm كما عبر؟؟ الكلام فيه من الإجمال ما يوهم بهذا المعنى كما ترى! فإن قيل ولكن هذا وجه إلحادي لا يتصور أن يريده عالم لاهوت نصراني كجون شتيك هذا، قلنا وما المانع من أن يريده؟ إن كان قد سلم رأسه وصدره للطبيعية المنهجية الغربية على هذا النحو الذي تراه، وسلم للقوم بأن جميع الكون من أوله إلى آخره يمكن عقلا أن يكون موضوعا للتنظير الصحيح المولد للمعرفة في العلم الطبيعي، فلم لا يطمح كما يطمحون في أن يبلغ البشر في يوم من الأيام أن يكونوا أربابا يتحكمون في أفلاك الكواكب والنجوم، ويملكون الكون كله في قبضتهم كما في الرتبة الحضارية العليا التي يستجيز الفلكيون الدهرية أن يصل إليها النوع الحيوي العاقل Intelligent Species، هكذا، سواء كان هو البشر أو غيره، في يوم من الأيام؟؟ ما الذي يمنعه أو يحجزه في دينه واعتقاده من قبول ذلك التصور؟ أننا بذلك نصبح أندادا لرب العالمين، شركاء له في الربوبية؟ وهل يعقل هو أصلا، من حيث هو لاهوتي نصراني، حدا أو ضابطا صحيحا للربوبية ولما به يحصل توحيدها في حق الباري سبحانه، وما به يمتنع نسبة فعل ما إلى مخلوق من المخلوقين لأنه مما يختص به رب الأرباب وحده لا شريك له؟؟ أبدا! كيف وهم أصلا قدريون أقحاح، يؤمنون بأن العبد يخلق أفعاله، وأن الرب لا سلطان له على أفعال البشر أصلا من جهة التكوين، لأنه لو كان له ذلك السلطان لسلبهم إرادتهم الحرة التي هي مناط التكليف الأخلاقي؟ وكيف وهم يثبتون مع ربهم سبحانه ربين آخرين، أحدهما هو المسيح عليه السلام والثالث هو الروح القدس؟ فعلى هذا لا يمتنع عندهم أن يكون المراد بالتسخير الإلهي لأسباب الأرض والسماء للبشر، كما يوجد في بعض نصوصهم، هو تمكينهم من فرض السيادة على الكون بكليته، إلى حد أن يصيروا فيه أربابا يفعلون ما يريدون! نعم قد يعترض بعضهم على ذلك التصور لما بقي في فطرته من نفور من

تلك الفكرة لما فيها من إساءة أدب مع الرب سبحانه Hubris، وقد تجد بعضهم يتأول بعض النصوص على ما يمنع من وقوع ذلك وجوديا. ولكن واقع الأمر أن باب التأويل عندهم لا قفل له ولا حارس يقف عليه، لأن الرب سبحانه لم يشأ أن يحفظ الذكر فيهم بسند يتصل إلى رسول من رسله أو نبي من أنبيائه، ولم يقض فيهم من أسباب ذلك ما اختص به الأمة الخاتمة والدين الخاتم سبحانه! فالدين عندهم، كل الدين بالرأي على التحقيق! يعتقد الرجل أولا ثم يستدل! مهما كان ما يريد أن يعتقده، فلن يعييه الاستدلال عليه بشيء مما في النصوص! ومهما كان ما في النصوص مخالفا لما يريد اعتقاده، فلن يعييه أن يدفعه بالتأويل!

فقول الرجل مؤسسا على ما سبق: "فإنه يتعين علينا أن نستبعد كل صورة من صور السببية الإلهية المباشرة، استبعادا منهجيا"، يصبح الإجمال الظاهر في عبارة "السببية الإلهية الفورية" Immediate Divine Causes فيه مفتوحا كذلك للتأويل على ما يرجو أن يخرجه من التهمة عند أيما فريق يريد أن يناقشه فيما يقول! ما معنى السببية الإلهية الفورية تحديدا؟؟ أن يكون الحادث واقعا في العالم من خلق الله بكلمة التكوين، مثلا، أم أن يكون واقعا بسبب غيبي لا نتوسط دونه الأسباب الطبيعية (الناشئة عن طبائع المادة المعروفة لدينا)؟؟ وإذن فما المقصود من استبعاد ذلك؟؟ إجمال آخر، لكل سامع أن يتأوله كما يحلو له! هل المقصود استبعاد وجود تلك الأسباب بالغيب، أم استبعاد القدرة على التوصل إلى معرفتها من طريق العلم التجريبي؟ إن كان المراد استبعاد الوجود، فهذا مذهب الدهرية الطبيعيين، الذين يعللون جميع الحوادث تعليلا تاما بطبائع المواد التي يتركب منها العالم عندهم، وحدها لا شريك لها! والعالم إذن ماكينة مغلقة مكتفية سببيا، لا يحدث فيها شيء البتة إلا على أثر الطبائع المركبة في أجزائها، والسنة الجارية عليها تلك الطبائع! وهذا دين الربوبيين الدهرية، سواء التمسوا نسبة

إلى النصرانية كنيوتن، فقالوا بأنه لم يزل يتدخل من وقت لآخر ليضبط تلك الماكينة حتى لا تنهار على بعضها البعض، أو لم يكن قائلا بذلك، وإنما يستغني عنه بطبيعة تُفترض افتراضا للمنع من ذلك، كما فرض النسبانيون المعاصرون ما يقال له المادة المظلمة Dark Matter! وإن كان المراد استبعاد العلم بتلك الأسباب أو إمكان التوصل إلى الوقوف على معرفتها من طريق العلم التجريبي، فيكون المنهج النظري المعتمد في بحث ظواهر العالم المحسوسة هو ما يُمتنع فيه بالكلية من فرض شيء من أمثال تلك الأسباب، وهو ما يبدو أنه مراده، فما الحال عندما يكون موضوع النظرية الطبيعية هو الكون بكليته؟ ما الذي يترتب معرفيا واعتقاديا على اشتراط شرط منهجي مفاده المنع البات من افتراض أي سبب لا يوصف بأنه سبب طبيعي، في الجواب عن أي سؤال يتعلق بنظام الكون بكليته، وتطوره وما عليه مجريات الحوادث فيه؟ الجواب واضح! تخترع النظريات الجارية كلها على الطبيعية المنهجية الصرفة، المنبثقة بالضرورة من اعتقاد ربوبي صرف مفاده أن الكون ماكينة طبيعية مكتفية سببيا، لا يقع فيها شيء أبدا إلا على أثر طبائع الأجزاء المركبة فيها! هذه هي النتيجة والثمرة الحتمية لفرض ذلك الشرط المنهجي الصارم على نظريات يكون هذا موضوعها! الكون بكليته، أو المجال المخلوق Created Realm كما عبر هذا الرجل.

ولهذا قلنا إن الواجب على كل ناظر في أمر الواقع يريد أن يستخرج منه علما ما، أن يحصر دائرة نظره في حدود العادة المحسوسة! فلا يقول إن موضوع نظره هو العالم بكليته! بل ولا يقول إن موضوع نظره هو الكون المشاهد Observable universe، هكذا! وإنما هو عادته الحسية من هذا العالم! وإلا فما يوجد في الحيز المشاهد من الكون، على اصطلاح الفلكيين، أي الحيز المكاني الذي انتهت بعض موجوداته إلى حسنا ومشاهدتنا بالفعل وبالقوة، ما لا

يمكننا إخضاعه للحس أصلا، كالجن والملائكة، على ما لتلك المخلوقات من تأثير على حياتنا اليومية، جاء الخبر ببيان جانب منه! ومنه كذلك ما لا يصل إلى حواسنا منه إلا أثر خافت (نسبيا) أو إدراك جزئي ضعيف، ولا نحيط به بمداركنا كما ندرك غيره من المحسوسات التي تطالها أيدينا، كالنجوم في السماء، والمجال تحتالذري في المعامل. فإذا انضبط موضوع النظر التجريبي الطبيعي بضابطه الصحيح، والتزم الناظر فيه بحدود عقله، سلم من الطبيعية المنهجية أولها وآخرها! لا سلامة منها إلا بذلك! لا يجوز أن نقول إننا ملتزمون بألا نطرح من الفروض التفسيرية لشيء مما يجري في واقعنا المحسوس إلا الأسباب الراجعة إلى نوع الطبائع المعتادة، لأن هذا يقتضي، على هذا الإطلاق، النفي الوجودي لما سوى ذلك النوع من الأسباب، مطلقا! وذلك أنك قد استغرقت في إطلاقك لنطاق التطبيق لهذا المنهج النظري، مستوعبا ما سبق أن اعتدته واعتاده غيرك من البشر في محسوسهم، من أنواع الحوادث، وما لم يسبق لك اعتياد نوعه من الحوادث كذلك، لا في كونه سببا ولا في كونه مسببا! فإذا قلت: لا أجيز أن يكون السبب المفترض غيبيا مطلق التغييب، مع أن نفس موضوع التفسير هو أمر مطلق التغييب، من جهة كونه فردا من نوع لا نظير له في عادتك، فلازم ذلك ولا شك، الجزم الميتافيزيقي بأنه ليس في الوجود من أنواع الأسباب إلا ما هو طبيعة في مادة من جنس ما اعتدناه في خبرتنا البشرية! هذا هو حرف المسألة، وهو ما يحملنا على أن نقول إن الطبيعية المنهجية Methodological Naturalism والطبيعية الميتافيزيقية كما يسمونها أو الفلسفية Metaphysical/Philosophical Naturalism وجهان لعملة واحدة، متلازمان بالضرورة لا يمكن الفصل بينهما! ما دامت هذه هي موضوعات بحثكم ونظركم الطبيعي، أنه هو النطاق المخلوق Created Realm بهذا الإطلاق الذي ذكره شتيك، فهذا ما يلزمكم وجوبا لا محالة!

وهو ما يقتضي أن تقولوا جميعا في نظركم الطبيعي بإله الفجوات، وبالربوبية المعدلة أو المخففة التي سنرى كيف سيلزم بها بلانتينغا صاحبه شتيك فيما يأتي من تعليقه على هذا الكلام، وهو يرى، مع ذلك، أنها لا تلزمه فيما يطالب به المجتمع العلمي النصراني Christian Scientific Community.

فقول الرجل: "فعلينا أن نعلي، منهجيا، من شأن المبدأ القائل بأن المخلوقات تفسرها المخلوقات" هذا قول هو فيه جار على الإطلاق الميتافيزيقي اليوناني الذي بينا أنه أصل ذلك الفساد عندهم. وإلا فمن ذا الذي قال إنه ما من حادث مخلوق، بهذا الإطلاق، إلا وجب أن يكون ما يفسره، سبب مخلوق كذلك؟؟ وذاك السبب المخلوق ما الذي يفسره هو نفسه عندكم؟؟ سبب مخلوق مثله؟؟ فإلى أين تمضي تلك السلسلة عندك أيها العالم اللاهوتي النصراني المحترم؟ أليس إلى الرب سبحانه، علة العلل، بالضرورة؟؟ بلى! ولهذا انتقده بلانتينغا هو وغيره في مسألة نفي السبب غير الموصوف بأنه طبيعي، بإلزامهم بتسلسل العلل الطبيعية على نحو ما صنعت أنا الآن! وإذن فأمامك الآن خياران لا ثالث لهما يا سيد شتيك! إما أن تلتزم بلازم هذا الإطلاق اليوناني الذي سطرته، ومن ثم تقبل تسلسل العلل الطبيعية الذي تقول به الدهرية، وتتنازل عن إثبات شيء في الغيب أصلا، لا الرب الخالق ولا غيره، وإنما هو طبيعة في طبيعة لا وجود إلا للطبيعيات، وإما أن تخرج من ذلك الإطلاق المنهجي اليوناني الفاسد، تقيده بما يجب عقلا، على كل مؤمن بالغيب وبرب خالق في الغيب وبأسباب في الغيب، أن يقيده به، في موضوع النظر من بابه، أي من مبدأ الطرح!

والعجيب أن الرجل حتى في كلامه عن التفسير، لم يأت بالمصطلح المعهود في كتب صنعة العلم الطبيعي، وهو Explains وإنما اختار اللفظة Interprets أو يؤول! لماذا؟ لأنه يريد أن

يجعل هذا المبدأ قاعدة دينية عند النصارى، كما أن عندهم قاعدة تقول إن النص المقدس لا يؤوله إلا نص مقدس Scripture Interprets Scripture! مع أن التفسير التجريبي للظواهر المحسوسة، والتأويل النصي، قضيتان لا تشابه بينهما أصلا، لا في الأصل العقلي الأول الذي يقومان عليه، ولا في الطريقة المتبعة في كل منهما! التفسير التجريبي، مداره على افتراض العلاقة السببية من مشاهدة تكرار التلازم النظامي المطرد بين نوعين أو أكثر من الظواهر المحسوسة، فيقال بناء على استقراء العادة، إن هذا يفسره ذاك، مع الاستعداد لقبول ما يقلب التفسير من مشاهدات جديدة، أو من مصدر معرفي أقوى وأوثق، كالمصدر السمعي الصحيح، أو المصدر العقلي القاطع (البديهيات الفطرية). وأما تأويل النصوص الدينية، فيستند فيه إلى النصوص الدينية الأخرى، لأن الفرض أنها كلها من وحي الرب الخالق الذي لا يوحي لعباده إلا بالحق! فإن كان من عموم في النص، خصصه النص، وإن كان من إطلاق في نص، قيده نص مثله، وإن كان من إجمال في نص، فصله غيره، وهكذا! لماذا؟ لأن الفرض في النص أنه معصوم! وأما الاستقراء التجريبي فهو ناقص مهما كمل، ومن المتصور من حيث الجوازُ العقلي أن يخرم أو ينقلب باستقراء مقابل، أو بدليل من طبقة أعلى! قوله: "ففي سعينا لتحقيق فهم للخلق يليق بمنزلة القوامة عليه، فلا بد ألا نفترض إلها للفجوات، ولا حتى في مجال الجسيمات تحتالذرية التي لم تزل بعد مجالا غامضا بالنسبة لنا. لا ينبغي أن نفعل ذلك، (1) لأن الإله ليس عنصرا داخليا من عناصر النظام الاقتصادي للعالم المخلوق، و(2) لأننا إن فعلنا ذلك فإن هذا سيكون مفضيا إلى التسلط على الإله" قلت: هنا إجمال آخر في قوله "إلها للفجوات"، وهو إجمال مهم ومؤثر على حكم القارئ على ما قرره بعد، هل يقبله أم لا! ما المقصود بإله الفجوات هذه على وجه التحديد؟؟ وهل القول بأن الرب خلق

عيسى في رحم مريم بلا أب، نفسر بذلك مولد المسيح عليه السلام، مع أن القانون البيولوجي لا متسع فيه لميلاد إنسان بلا أب، أو القول بأن الرب سبحانه شق البحر لموسى، مع أن قوانين الفيزياء لا تجيز لضربة عصا خشبية أن تتسبب في ذلك، أو القول بأن المسيح قد أقام رجلا من الموت، مع أنه لم يحدث أبدا في تاريخ البشر أن قام رجل بعد موته فيما رآه الناس، هل كل ذلك ونحوه يكون عندك من إدخال الإله في فجوات العلم التجريبي؟ قطعا لا، لأنك تؤمن بتلك المعجزات ولا تنفيها! فهذه أمور في الطبيعة امتنع أن تفسرها الطبيعة، جريا على الإطلاق الذي قلته أولا، ومع هذا لا نحسبك تعدها من القول بإله الفجوات! فما مرادك بإله الفجوات هذه إذن على وجه التحديد؟ أن يقول أحدهم إن تفسير كون الجسميات تحتالذرية على ما نراها عليه، هو أن الله جعلها كذلك، مثلا؟؟ هذا تفسير كون كل شيء في الوجود على ما هو عليه، وليس الجسيمات تحتالذرية وحدها! لا يكون في العالم شيء إلا على وفق مراد الباري التكويني، سبحانه وتعالى، لا على خلافه! فما صورة النظرية المدعى أنها نظرية طبيعية، في مجال الجسيمات تحتالذرية، ومع هذا ينطبق عليها تحذيرك هذا من مسألة إله الفجوات؟؟ لم يبين ولم يقرر، على الأقل في هذا الموضع الذي نقله بلانتينغا. والظاهر أنه لم يفعل في أصل المصدر الذي أخرج منه بلانتينغا هذا النقل، كما يفهم من كلام بلانتينغا في تعليقه عليه.

الرجل يعلل موقفه هذا بقضيتين، الأولى أن الإله ليس عنصرا داخليا من عناصر النظام المخلوق، فما معنى أن يكون الإله عنصرا داخليا فيه؟ إن كان المقصود أن يكون موجودا مخلوقا من جملة الموجودات الطبيعية، فصحيح ولا شك! ولكن من الذي قال إننا إن لم نقل إن جميع الظواهر الطبيعية تفسرها ظواهر طبيعية أمثالها، فسيلزمنا أن نجعل الإله شيئا طبيعيا؟

هذه حتمانية طبيعية حتى لابلاس نفسه لم يجترئ عليها! لا يلزم من أجل أن يكون للرب تعالى فعل في العالم (والعالم كله هو فعله المطرد سبحانه) أن يكون حالا بذاته بين مخلوقاته، يخضع لطبائعهم كما يخضع كل واحد منهم لطبائع غيره من مواد العالم! ولكن لأن الصورة المنطبعة في ذهن هذا الرجل حال كتابته هذا الكلام، هي أن الطبيعة ماكينة مغلقة تامة الانغلاق، على نظامها الاقتصادي الكامل أو غير المنقوص كما عبر، لزم أن يكون القول بسبب إلهي موجبا لأن يكون ذلك السبب جزءا من تلك الماكينة ومن ذلك النظام المغلق، وإلا أدخل عليه الاضطراب والفساد! سبحان الله وتعالى عن ذلك السخف علوا كبيرا. ولهذا قال في السبب الثاني إننا لو قدرنا الأمر كذلك لوجب أن يكون الرب أمرا طبيعيا نملك أن نؤثر في قدرته بأسباب من جهتنا، كما نؤثر في أي موجود من الموجودات الطبيعية التي أفادنا العلم الطبيعي بمعرفة أسبابها وطبائعها وتأثيراتها! ومن جهله، زعم أن السحر وأفعال السحرة هي من هذا الباب! أنهم يزعمون التحكم في قدرة الإله! وهو كلام من لا يؤمن بالسحر ولا بشيء سوى الأسباب الطبيعية أصلا، مع أن كتابه المقدس طافح بالأسباب فوق الطبيعية أو المجاوزة للطبيعة، والله المستعان.

يقول بلانتينغا معلقا على هذا الكلام [27]:

---

[27] *Stek insists that "we must methodologically exclude all notions of immediate divine causality" in our understanding of the economy of the created realm. One of his reasons seems to be that to appeal to a notion of immediate divine causality would be to introduce a 'God of the gaps', and to do that would be to presume to exercise power over God. But am I really presuming to exercise power over God by (for example) concurring with John Calvin and Pope Pius XII (and*

يتمسك شتيك بدعوى أننا يجب أن نستبعد "كل صورة من صور السببية الإلهية المباشرة، استبعادا منهجيا" في فهمنا لاقتصاديات العالم المخلوق. وفيما يبدو فإن واحدا من أسبابه هو أننا إن تعلقنا بدعوى السببية الإلهية المباشرة، فإننا بذلك نكون قد أدخلنا "إله الفجوات" (في نظرياتنا)، وإذا فعلنا ذلك فإننا بهذا نكون قد ادعينا لأنفسنا القدرة على السيطرة على الإله. ولكن هل حقا أكون مدعيا للقدرة على السيطرة على الإله، إن اتفقت، مثلا، مع جون كالفين والبابا بايوس الثاني عشر (وكثيرين غيرهم)، على أن الإله يخلق البشر خلقا مباشرا؟ أو على زعمهما بأنه خلق الحياة خلقا خاصا؟ هذا يحتاج إلى مزيد من المحاجة، على أحسن الأحوال. فكما يقول شتيك، فالإله ليس عنصرا داخليا في العالم المخلوق. ولكن لا يلزم من ذلك أنه لا يعمل بشكل مباشر وفوري في العالم المخلوق. فكأي مثبت للصانع، فإن شتيك كذلك سيوافق على أن الإله يحفظ خلقه من الزوال بشكل مباشر وفوري. ثم ألن يوافق

---

many others) that God directly creates human beings? Or in claiming that he created life specially? At best, this requires more argument. As Stek says, God is not an internal component within the created realm. It hardly follows, however, that he doesn't act immediately or directly in the created realm; like any theist, Stek, too, would agree that God directly and immediately conserves his creation in existence. And wouldn't he also agree that if God creates anything indirectly, then he creates some things directly? So I'm not sure why Stek thinks that we must observe this methodological naturalism. Why think that God doesn't do anything directly or create anything directly? What is the reason for thinking this? Scripture doesn't suggest it; there don't seem to be arguments from any other source; why then accept it?

كذلك على أنه إن كان الإله سيخلق أشياء بشكل غير مباشر، فلابد وأنه كذلك يخلق أشياء بشكل مباشر؟ فلست، إذن أفهم لماذا يظن شتيك أننا يجب أن نخضع أنفسنا لتلك الطبيعية المنهجية. لماذا يجب أن نظن أن الإله لا يفعل أي شيء بصورة مباشرة أو يخلق أي شيء بصورة مباشرة؟ ما هو السبب الداعي لأن نظن ذلك الظن؟ ليس في النص الديني ما يوحي به، ولا يبدو أن ثمة براهين يفيدنا بها أي مصدر آخر، فلماذا إذن يكون علينا أن نقبله؟

قلت هنا يشرع بلانتينغا في الجواب، فيلزم شتيك بإدخال دعوى السيطرة على قدرة الإله هذه على جميع كنائس النصارى الغربيين، إذ بايوس هذا من باباوات الكنيسة الكاثوليكية، وكالفين من زعماء الإصلاح البروتستنتي! وهو إمام مذهب شتيك أصلا، إذ كان في الأصل لاهوتيا كالفينيا كبلانتينغا. ثم إنه يشير إلى الإلزام بتسلسل العلل الطبيعية كما مر، إذ ما دام الرب قد خلق شيئا بسبب غير مباشر، أي عن طريق مخلوق آخر، فلابد أن يكون ذلك السبب غير المباشر نفسه مخلوقا له، فإن كان خلق هذا أيضا بسبب مخلوق، فلابد من الانتهاء إلى مخلوق قد خُلق خلقا مباشرا بالضرورة، وإلا لزم التسلسل، وانقطاع الرب بالكلية عن أن يكون هو الخالق والعلة الأولى لهذا العالم. ثم يقول [28]:

---

[28] *These reasons, then, for the necessity or advisability of Methodological Naturalism do not seem strong; and since they are so weak, it is perhaps reasonable to surmise that they don't really represent what is going on in the minds of those who offer them. I suggest that there is a different and unspoken reason for this obeisance to methodological naturalism: fear and loathing of God-of-the-gaps theology. As we saw above, Stek declares that "In pursuit of a stewardly understanding of the creation, we may not introduce a 'God of the gaps'"; he together with the other three authors I have cited in this connection (McMullin,*

هذه الأسباب، إذن، لضرورة التزام الطبيعية المنهجية، أو لكونها أمرا ينصح به إجمالا، لا تبدو قوية (بما يكفي). وبما أنها بهذا الضعف، فلعله من المعقول أن ندعي أنها لا تعكس في الحقيقة ما يدور في أذهان أولئك الذين يقدمونها للناس. فالذي أراه أن ثمة سببا آخر مضمرا لهذا الخضوع للطبيعية المنهجية، ألا وهو الخوف والبغض لثيولوجيا إله الفجوات. فكما رأينا آنفا، فإن شتيك يعلن أنه "في سعينا لتحقيق فهم للخلق يليق بمنزلة القوامة عليه، فلا بد ألا نفترض إلها للفجوات،"، فهو والكتّاب الثلاثة الآخرون الذين عزوت إليهم في هذه الصلة (ماكمولين، وفان تيل وآلِن)، هؤلاء كلهم يذكرون ثيولوجيا إله الفجوات صراحة، ويربطونها ربطا صريحا بالطبيعية المنهجية عبر اقتراح أن يكون الإله قد فعل هذا أو ذاك بصورة مباشرة وفورية. فالفكرة فيما يبدو هي أننا إن زعمنا أن الإله يعمل في الخلق عملا مباشرا، فإننا بذلك نقع، أو على الأقل نميل ميلا خطيرا مقتربين من هذا الصنف من الثيولوجيا. ولكن هل هذا صحيح؟ فما هي ثيولوجيا إله الفجوات هذه على وجه التحديد؟؟

قلت: يكاد بلانتينغا في هذا الموضع أن يصرح بأن السبب عند هؤلاء الذين ذكرهم نفسي محض، وهو ما نسميه بالهوى! ولكنه لا يجرؤ على ذلك، كما لا يجرؤ عليه كل فيلسوف أكاديمي متخصص! ينتقل في هذا الموضع للكلام على مسألة "إله الفجوات" هذه، فيقرر فيها

Van Till and Allen) explicitly mention God-of-the-gaps theology and explicitly connect it with methodological naturalism via the suggestion that God has done this or that immediately. The idea seems to be that to hold that God acts directly in creation is to fall into, or anyway lean dangerously close to this sort of theology. But is this true? Precisely what is God-of-the-gaps theology?

كلاما دقيقا، يجعلك تعجب غاية العجب، كيف لم يصرح بأصل الآفة ومنشأ القضية فيما يقال له "بالطبيعية المنهجية"، وهو يرى الأمر بهذا الوضوح؟! سبحان الله! لله في قلوب عباده شؤون! يقول [29]:

---

[29] *There isn't anything that it is precisely; it isn't that sort of thing. Somewhat vaguely, however, it can be characterized as follows. The God-of-the-gaps theologian is an enlightenment semi-deist who thinks of the universe as a vast machine working according to a set of necessary and inviolable natural laws. (Perhaps a God has created the universe: but if he did, it is now for the most part self-sufficient and self-contained.) These natural laws, furthermore, have a kind of august majesty; they are necessary in some strong sense; perhaps not even God, if there is such a person, could violate them; but even if he could, he almost certainly wouldn't. (Hence the otherwise inexplicable worry about miracles characteristic of this sort of thought.) Natural science investigates and lays out the structure of this cosmic machine, in particular by trying to discover and lay bare those laws, and to explain the phenomena in terms of them. There seem to be some phenomena, however, that resist a naturalistic explanation -- so far, at any rate. We should therefore postulate a deity in terms of whose actions we can explain these things that current science cannot. Newton's suggestion that God periodically adjusts the orbits of the planets is often cited as just such an example of God-of-the-gaps theology. The following, therefore, are the essential points of God-of-the-gaps theology. First, the world is a vast machine that is almost entirely self-sufficient; divine activity in nature is limited to those phenomena for which there is no scientific, i.e., mechanical and naturalistic explanation. Second, the existence of God is a kind of large-scale hypothesis postulated to explain what*

ليس ثمة شيء يمكن أن يقال في تعريفها على وجه التحديد. فليست هي من ذاك الصنف من الأشياء. ولكن يمكن تشخصيها بصورة مجملة نوعا ما، فيما يلي. فاللاهوتي القائل بإله الفجوات، إنما هو شبه ربوبي Semi-deist تنويري ينظر إلى الكون على أنه ماكينة عظيمة تعمل وفقا لجملة من القوانين الطبيعية الضرورية التي لا تقبل الانخرام. (فلربما خلق إله ما هذا العالم، ولكن إن كان قد فعل، فهو الآن - أي العالم - قائم بنفسه مغلق على نفسه). وفوق هذا، فإن هذه القوانين الطبيعية، لها نوع من العظمة الذاتية، فهي ضرورية على وجه من القوة البالغة، فلربما حتى الإله، إن كان يوجد أصلا شخص كهذا، لا يقدر على خرقها. ولكن حتى لو استطاع ذلك، فلدينا يقين شبه تام بأنه ما كان ليفعل. (ومن ثم يقابلنا ذلك القلق الذي يمتاز به هذا الفكر، والذي لا نجد له تفسيرا آخر، من قضية المعجزات). فالعلم الطبيعي يستكشف ويبين هيكل تلك الماكينة الكونية، وتحديدا في محاولته أن يستظهر تلك القوانين، وأن يفسر الظواهر الطبيعية استنادا إليها. ولكن يبدو أن ثمة بعض الظواهر بحيث تأبى التفسير الطبيعي، على الأُقل إلى الآن. ولذلك فيجب أن نفترض قوة ربوبية Deity بحيث يمكن أن نفسر بأفعالها تلك الأمور التي يعجز العلم الحالي عن تفسيرها. عادة ما يشار إلى اقتراح نيوتن بأن الإله يتدخل بصفة دورية لتعديل أفلاك الكواكب، على أنه ذاك المثال لثيولوجيا إله الفجوات. فما يلي، بناء على ذلك، هو النقاط الضرورية لثيولوجيا إله الفجوات:

---

can't be explained otherwise, i.e., naturalistically. Third, there is the apologetic emphasis: the best or one of the best reasons for believing that there is such a person as God is the fact that there are phenomena that natural science cannot (so far) explain naturalistically.

أولا: العالم هو ماكينة عملاقة تكاد تكون مكتفية بنفسها اكتفاء تاما، فالنشاط الإلهي في الطبيعة محصور في تلك الظواهر التي ليس لها تفسير علمي (ميكانيكي أو طبيعي). ثانيا: وجود الإله هو نوع من أنواع الفرضيات الضخمة التي توضع من أجل تفسير ما لا يمكن تفسيره بطريق أخرى (أي طبيعانيا). ثالثا: يوجد هنا التأكيد الاعتذاري، وهو أن أفضل سبب أو واحد من أفضل الأسباب للإيمان بوجود ذلك الشخص الذي يقال له الإله، هو حقيقة أنه توجد ظواهر في العالم لا يقدر العلم الطبيعي (حتى الآن) على تفسيرها طبيعيا.

قلت: سبحان الذي أنطقه بالحق، مع أن مذهبه في الحقيقة، وأنواع النظريات التي كتب هذا البحث من أجل أن ينتصر لها، تقتضي خلاف ما قرره هنا كما سنبين! والشيء المؤسف في الحقيقة، هو أن ينتبه لهذه القضية رجل نصراني، ولا يلتفت إليها الكثيرون من بني جلدتنا من الدعاة المتصدرين في قضية الإلحاد، المكثرين من النشر في مسألة العلاقة بين العلم والدين، أصحاب المراكز المتخصصة في ترجمة كتب رواد التصميم الذكي وبرهان الضبط الدقيق من النصارى الأمريكيين، وبرهان الانفجار الكبير وهذه الأشياء! نعم هناك ولا شك أناس كثيرون يتلبسون بالربوبية الجزئية أو المخففة أو شبه الربوبية كما يسميها بلانتينغا، في معركتهم ضد الإلحاد، من حيث يحسبون أنهم يتسلحون بالعلم الطبيعي في الرد عليهم! ونعم تهمة إله الفجوات هذه، التي لم يزل يدندن بها الملاحدة الطبيعيون في كتبهم ومناظراتهم، تصح على جهمية الطبيعيات، شعروا بذلك أم لم يشعروا! وها أنت تراه يشخص هذه القضية تشخيصا ثيولوجيا فيقول: ثيولوجيا إله الفجوات! وهي كذلك ولا شك! بل لعله لو قال Deiology نسبة إلى الربوبية لكان أدق! فالقضية ليست مجرد تهمة سخيفة يتشدق بها الملحدون بلا أساس ولا وجه! القضية أن أصحاب ذلك المسلك يتناقضون منهجيا من حيث لا يشعرون! فمن

جانب، هم يسلمون مذعنين للطبيعية المنهجية، فيقبلون من الطبيعيين اقتحامهم السافر لقضايا لا يجوز في العقل القول فيها بشيء إلا بدليل من الوحي الإلهي، وهو ما يقتضي الحكم بأن العالم كما وصف بلانتينغا: ماكينة مغلقة سببيا، بحيث أن من تتبع جزءا يسيرا منها، أمكنه أن يفسرها وكل شيء يجري فيها من أولها لآخرها بنظام طبيعي حاكم لجميع أجزائها على نفس الوتيرة وبنفس القوة، حكما لا يقبل الانخرام! ومن جانب آخر تراهم يصرون على أن للرب الذي يؤمنون به فعلا ما في هذا العالم ولابد، بصورة ما أو بأخرى، وهو ما يجب أن يظهر في تلك النظريات على نحو ما! فأين يظهر؟ في تلك المواطن التي لم يزل الطبيعيون لم يتكلفوا تفسيرها من جهتهم، أو في تلك المواضع التي لا يرتضي الناظر المصاب بتلك الفتنة من أهل الملل الكتابية، ما عندهم فيها من تفسيرات، فيدعي أن لديه نظرية علمية بديلة تقدم "تفسيرا علميا أحسن"، على مقاييس الصنعة التجريبية، مما عندهم، مع كونه في نفس الوقت يشبع رغبته في أن يظهر الصانع الذي يؤمن به في تلك النظريات! ومن ثم يضطر لاختزال الرب الذي يؤمن به، من أن يكون صانع كل شيء، القائم على أمر كل شيء في هذا العالم من أعلاه إلى أدناه، الذي يمسكه من الزوال ويدبر أمره ويجري حوادثه على ما يريد، يختزله من تلك المنزلة، إلى أن يكون مجرد عامل سببي مفسر لجانب ضئيل من جوانب هذا العالم، يقوم بالمطلوب أكاديميا، كما تقوم غيره من العوامل الطبيعية بتفسير ما سوى ذلك! ولهذا ما زلنا نسمع المنهزمين من أتباع هذا الفكر الفاسد يعبرون عن رب العالمين بقولهم: فرضية الإله The God Hypothesis، ولا حول ولا قوة إلا بالله! لماذا؟ لأن الوسط الإلحادي العصري يستند استنادا كليا إلى تلك النظريات التي لو لم يتمكن الواحد من هؤلاء من إظهار أن للإله الذي يعبده مكانا فيها، لبات مضطرا – فيما يتوهم وفيما يوهمونه به – إلى أن يقبل زعمهم بأن

العالم لا يحتاج إلى صانع ما، كما يزعمون على أساس كوزمولوجي صرف، وبأن أنواع الحياة لا تحتاج إلى "مصمم" كما يؤسسونه على أساس بيولوجي محض! فالفتنة بتلك النظريات، تسبق إلى نفس الواحد من هؤلاء، فيظن أن أصحابها قد سلكوا في بنائها طريقا علميا معتبرا، من حيث المنهج الكلي، ما دامت أكاديميات العلم التجريبي المعاصرة قد اتفقت على قبولها واعتمادها، وعلى تسخيف من يكذبها أو لا يقرهم عليها! وإذن فلابد من طريقة ما، بحيث نظهر أن نفس هذا المنهج الذي سلكوه، لو أعدنا استعماله في تلك الأبواب ولكن بفروض أخرى خلاف ما فرضوا، فسنصل إلى نظريات بديلة تنقض عليهم تأسيسهم الإلحادي في قضية النشأة، وتشير إلى الرب الذي نؤمن به بوجه ما! وهذه يا إخوان هي نفس الفتنة التي وقعت في نفوس اللاهوتيين والمتكلمين القدماء، بنظريات أرسطو وميتافيزيقا آباء الأكاديمية اليونانية فيما فسروا به الوجود والموجود بإطلاق! فإنه لما بلغت تلك النظريات من الاستقرار الأكاديمي عند الفلاسفة ومن المنزلة الرفيعة فيما بينهم، ما صيرها هي العلم الذي لا علم يعلوه، والعقل الذي لا عقل يدانيه، أصبح من غير المقبول البتة، أن يدعي رجل أنه يؤمن برب بالغيب تصح فيه تلك الصفات التي يثبتها له، وأنه أرسل رسولا وأنزل كتابا وكذا، مع أنه لا يجد للإيمان به أساسا في تلك الميتافيزيقا وفي تقسيمها لموجودات العالم، وتفسيرها لمبدأ قيام الصفات بكل موجود في الأعيان! فما الذي سلكه المفتونون الأوائل رجاء الخروج من تهمة السفاهة والتقليد في الإيمان؟ قالوا نناظر هؤلاء بإدخال تعديل على قسمتهم للموجودات، تأسيسا على نفس نظريتهم فيما يقيم الصفة في الموصوف بها في الأعيان. فإذا كان الشيء لا يوصف بالحدوث إلا لقيام العرض بالجسم، فلنبين أن مبدأ الحدوث نفسه حادث، ومن ثم نثبت أن الأعراض حادثة، وإذن يثبت حدوث العالم، ومن ثم نكون قد أثبتنا افتقاره إلى

من يحدثه، ويصبح هذا هو أساسنا المعرفي للإيمان بمن خلقنا! فمن هذه الجهة، صار إثبات هؤلاء للصانع الذي يعبدونه إلحاقا بنظرية العرض اليونانية، من مسألة ثيولوجيا إله الفجوات كما يسميها بلانتينغا! لماذا؟ لأن النظرية من الأساس تقوم قياما كليا على إطلاق الحكم القياسي التكييفي المدعى فيها، على أنه هو "التفسير العلمي" لمبدأ قيام الصفة بأي موصوف بها في الأعيان! وإذن فموضوعها في الحقيقة هو كل موجود في الأعيان، وليس موجودات العالم وحسب! ولكن المفتونون هؤلاء كرهوا أن يعرضوا عن تلك النظرية أو يظهروا مخالفتهم لها، فتطردهم الأكاديمية الفلسفية من أبوابها، فابتعلوا النظرية بتمامها، ثم زعموا أنها تفيد بإثبات الرب الذي يعبدونه، ولا تناقض ذلك ولا تقتضي الإلحاد! فما الذي انتهوا إليه؟ منظومة اعتقادية متناقضة، يثبتون فيها صانعا عدميا لا حقيقة له خارج الذهن، في ظل ميتافيزيقا دهرية صرفة على التحقيق، ثم يبذلون غاية الوسع في محاولة إظهاره على أنه هو الرب الذي جاء الخبر به في نصوص الوحيين، والله المستعان! فقضية إله الفجوات هذه أقدم في تاريخ الفلسفة مما يتصوره بلانتينغا نفسه عند التأمل. وسببها الأول والوحيد، هو لم يوفق في بيانه، وما كان ليوفق، ما دام يصر على الاعتراف بمعقولية مسالك الطبيعيين في إعمال النظر القياسي في الغيوب المطلقة، لا سيما قضيتي النشأة: نشأة العالم بكليته، ونشأة أنواع الحياة على الأرض. فالسبب إنما هو جريان الأكاديمية الغربية ومنذ نشأتها الأولى، على فتح كل شيء في الوجود للنظر والقياس العقلي! النظرية يجب أن توضع بحيث تفسر كل شيء! كل موجود يستمد ما يسوغ وجوده ويفسره من النظرية، وإلا بطلت النظرية ووجب الإتيان بغيرها، أو انتفى هو نفسه من الوجود بالضرورة، ولم يجز اعتقاد وجوده! ليس نطاق النظر العقلي محصورا فيما يصح للعقل أن ينظر فيه مبدئيا، وإنما يستعمل القياس العقلي في استكشاف كل شيء، وفي

استجلاء حقائق جميع الموجودات! فما الذي كان يتعين على عقلاء أهل الملل الكتابية أن يصنعوه في مقابلة هؤلاء؟ أن يردوا عليهم تلك النظريات المستكبرة السوفسطائية من مبدأ الطرح، لا أن يسلموا لهم بصحتها ثم يجهدوا لبيان أنها لا تتعارض مع اعتقادهم وجود من خلقهم، بل إن إيمانهم بالصانع يمكن أن يقوم عليها!! هذا هو منشأ مسألة إله الفجوات تاريخيا عند من أراد الغاية من التحقيق في الأمر! تلتمس الفجوة في بناء النظرية الوجودية الميتافيزيقية المعتمدة أكاديميا عند أهل العصر، تلك النظرية التي ما كان للفيلسوف الذي وضعها من حق في افتراضها أصلا، تلتمس من أجل أن يقام في تلك الفجوة المدعاة فيها اعتقاد المثبت للصانع في وجود وعمل وصفة ذلك الصانع الذي يثبته! هذه هي! وأقول الفجوة المدعاة لأن حقيقة الأمر أنه لا فجوة أصلا، على منهج أصحاب النظرية! ليس في نظرية الأعراض فجوة! فالفرض في حد العرض في أول تصور له أنه هو ما به تثبت جميع الصفات للموجودات بإطلاق! فأين الفجوة؟؟ لا فجوة! ولكن لأن القوم أرادوا أن يجعلوا لربهم محلا فيها، إذ لا يكون الموجود موجودا إلا إن اتسعت النظرية لوجوده، حرفوا فيها وتلاعبوا بها من أجل أن يجعلوها مقدمة لإثبات وجوده! فبقيت النظرية على إطلاقها الإلحادي، وآل ما زعموه من إثبات الصانع من طريقها إلى الوهم الذهني على الحقيقة!

وكذلك، وبنفس الطريقة، في نظريات الطبيعيين والفلاسفة المعاصرين! أطلق داروين نظريته على نفس المسلك الميتافيزيقي المطلق، فقال إنه لا يوجد في الوجود نوع حي، ولا نظام حيوي إلا وجب بالضرورة أن يكون قد نشأ بما سماه بالانتخاب الطبيعي! فخرج رجل يقول: بل سأبرهن لكم على أن من النظم الحيوية الجزيئية ما لا يمكن تفسيره بهذه الطريقة، بل يوجب وجود "مصمم ذكي" ينشئه كله على ما نجده عليه من أول مرة، لا على خطوات ومراحل

تطورية متدرجة كما توجبه نظرية داروين! ومن ثم فتح لنفسه فجوة في النظرية فيما يرجو، ثم أدخل فيها الصانع أو "المصمم" على طريقة إله الفجوات، على أن يكون فرضية تفسيرية مستساغة أكاديميا، تماما كما استنكره بلانتينغا على القوم هاهنا! فبأي شيء أجابه الدراونة؟ قالوا بل لدينا من التفسيرات الداروينية الانتخابية كذا وكذا لتفسير هذه الماكينات الجزيئية التي تعلقت بها. فلما ضغطوا عليه، اضطر لأن يحول مسألة التعقيد غير القابل للاختزال هذه، من أن يكون نظاما لا يمكن إلا أن ينشأ كله من أول يوم كامل الأجزاء، إلى أن يكون نظاما بحيث يكون فيه على الأقل جزءان منفصلان يعملان معا! وبطبيعة الحال لم يتركوه حتى يبينوا أن النظرية يمكنها تفسير كل شيء! ولا عجب! فإذا كان موضوعها من الغيب المطلق، فلا حد ولا نهاية لخيال المنظر في وضع الفرضيات التي تخدم نظريته! وهو ما كان! تماما كما ترى في نزاع الفلاسفة القدماء في حد العرض وتعريف الجوهر وتعريف الجسم وهذه الأشياء! كلام لا رجحان فيه لشيء على شيء أبدا، وكله فرض في فرض ووهم في وهم، وعدوان على الغيب عظيم، ولكن قد تعاظم في أعين المفتونين به من أهل الملل إلى الحد الذي أوجب لهم أن يلتمسوا طريقا للتوفيق بينه وبين ما يعتقدون، بل وليجعلوه أساسا لما يعتقدون، إن أرادوا إظهار أنفسهم على أنهم أصحاب اعتقاد علمي وعقلاني صحيح!

ولأن بلانتينغا يعاني من نفس تلك الفتنة، فهو يقر للطبيعيين بحقهم في اقتحام تلك القضايا الغيبية بالتنظير الطبيعي كما بينا، ولذا فهو متلبس بنفس ذلك الفكر أو الثيولوجيا الفجواتية التي ينعيها على مخالفيه من فلاسفة النصارى كما مر، من حيث يحسب أنه منها في مأمن!

يواصل بلانتينغا فيقول، في كلام لا تصدق أن يكون صاحبه من المنتصرين لنظرية التصميم الذكي ولبراهين الضبط الدقيق والانفجار الكبير وما شاكل ذلك [30]:

فالآن، ماكمولين وشتيك وفان تيل وآلن، كلهم يعترضون بشدة على ثيولوجيا إله الفجوات، ولهم الحق في ذلك. هذا المنطق هو على أحسن الأحوال، نوع ضعيف أو مخفف من شبه الربوبية Semi-Deism التي تحشر النشاط الإلهي في فجوات المعرفة العلمية. وهي كذلك مقرونة باعتذاريات باهتة ضعيفة، يكون بحسبها، السبب الأساسي أو الحافز الأول للإيمان

[30] *Now McMullin, Stek, Van Till and Allen all object strenuously to God-of-the-gaps theology: and rightly so. This line of thought is at best a kind of anemic and watered-down semi-deism that inserts God's activity into the gaps in scientific knowledge; it is associated, furthermore, with a weak and pallid apologetics, according to which perhaps the main source or motivation for belief in God is that there are some things science can't presently explain. A far cry indeed from what the Scriptures teach! God-of-the-gaps theology is worlds apart from serious Christian theism. This is evident (at least) at the following points. First and most important, according to serious theism, God is constantly, immediately, intimately and directly active in his creation: he constantly upholds it in existence and providentially governs it. He is immediately and directly active in everything from the Big Bang to the sparrow's fall. Literally nothing happens without his upholding hand.49 Second, natural laws are not in any way independent of God, and are perhaps best thought of as regularities in the ways in which he treats the stuff he has made, or perhaps as counterfactuals of divine freedom. (Hence there is nothing in the least untoward in the thought that on some occasions God might do something in a way different from his usual way -- e.g., raise someone from the dead or change water into wine.) Indeed, the whole interventionist terminology -- speaking of God as intervening in nature, or intruding into it, or interfering with it, or violating natural law -- all this goes with God-of-the-gaps theology, not with serious theism. According to the latter, God is already and always intimately acting in nature, which depends from moment to moment for its existence upon immediate divine activity; there isn't and couldn't be any such thing as his 'intervening' in nature.*

بالإله هو أن ثمة أشياء لا يمكن للعلم أن يفسرها حاليا. وهذا، ولا شك، موقف بعيد كل البعد عما تعلمه لنا نصوص الكتاب المقدس! فثيولوجيا إله الفجوات، هي في الحقيقة بعيدة للغاية عن الثيولوجيا النصرانية الجادة. وهذا يظهر واضحا (على الأقل) في النقاط التالية: أولا، وهو الأهم، فوفقا للإثباتية الجادة، فإن الإله دائما وفورا وبصورة حميمية ومباشرة، نشط في خلقه، فهو بصورة دائمة يمسك وجوده من الزوال، ويحكمه حكما يمده دوما بما هو لازم لوجوده واستمراره. هو نشط بصورة دائمة وفورية في كل شيء ابتداء من الانفجار الكبير ووصولا إلى سقطة العصفور. فحرفيا لا شيء يحدث بدون يده المقيمة لكل شيء. ثانيا، فإن القوانين الطبيعية ليست بحال من الأحوال مستقلة عن الإله، بل أفضل وجه لتصورها هو على أنها نظاميات للطرق التي بها يعامل الأشياء التي سبق منه صنعها، أو ربما كتحقيقات عكسية Counterfactuals للحرية الإلهية. (ولذا فلا غلط على الإطلاق في تصور أن الإله قد يختار في بعض الأحيان أن يفعل أمرا ما على نحو مغاير لما هو معتاد منه، مثلا: أن يقيم رجلا من الأموات، أو أن يحول الماء إلى خمر). ففي الحقيقة إن مبدأ التدخلية Interventionist - أي العبارة عن فعل الله بصيغة التدخل في الطبيعة أو التقاطع معها، أو التعدي عليها، أو نقض القانون الطبيعي، هكذا، كل هذا إنما يتفق مع ثيولوجيا إله الفجوات، وليس مع الإثباتية الجادة. فوفقا للإثباتية الجادة الصحيحة فإن الإله دوما فاعل فعلا مباشرا وحميميا في الطبيعة، التي تعتمد من أجل وجودها، من لحظة إلى التي تليها، على الفعل الإلهي الفوري، فلا وجود ولا يمكن أن يوجد ذلك الشيء الذي يقال له التدخل الإلهي.

قلت: هذا الكلام من أحسن وأجود ما أنت قارئ في هذه المسألة! وإذا سمعته ظننت أن صاحبه يقرر ما نقرره في هذه البابة من موقف صارم بإزاء عدوان الفلاسفة بعقولهم على الغيب وما فيه! ولكن للأسف ليس هذا هو منتهى موقف الرجل! صحيح إنه لا يسلك مسالك الاعتذاريين في التعامل مع مسألة التصميم تلك، لأنه يرى أن الإنسان يعلم بأن المخلوقات الحية "مصممة" علما جبليا دون تطلب نظر وبحث، يقع في نفسه طبعا بمجرد النظر في تلك المخلوقات من حوله، فلا يحتاج لأن يؤسس في نفسه الاعتقاد بوجود من خلقها، وإنما قد يحتاج إلى نقض ما يدعيه نفاة المخلوقية عنها إن تعرض لكلامهم، وهذا هو الحق ولا شك، الذي كان عليه أتباع الرسل في ذلك، إلا أنه لا يرى بأسا بتكلف طرق اللاهوت الطبيعي في بيان قيام الفجوات التفسيرية بنظريات القوم في مسألة الخلق، لأنه لا سبيل للنقض عليهم في ظنه، أفضل من هذا! نقبل النظرية في بابها إجمالا، ثم نقول: ولكن فيها نقصا يضطركم إلى استبدال الفروض الإلحادية فيها بفروض "إثباتية"! حتى إنه اخترع لنفسه برهانا فلسفيا مشهورا حاول به أن يثبت أن نظرية داروين تقتضي، إذا جمعنا بينها وبين ثقتنا في قدراتنا العقلية Cognitive Faculties، بطلان الفلسفة الطبيعية Naturalism وليس أنها تتوافق معها كما يتوهمه الملاحدة!! كل هذا لماذا؟ لأنه قد تحقق لديه الجزم المنهجي السابق بأن النظرية علم صحيح جملة Science، وأن فروض أصحابها ترقى (نوعا) للقبول المعرفي Epistemic warrant! سلم الرجل مذعنا للسلطان الأكاديمي، ثم قال: لا يمكن للعلم الصحيح أن يتعارض مع الدين الصحيح، فوقع في روعه ذلك البرهان، الذي يلزم به الملاحدة إما بأن يتركوا العلم الصحيح تمسكا بطبيعيتهم الدهرية، أو يتركوا الطبيعية الدهرية، ويقبلوا العلم النصراني Christian Science، وهو في هذه الحالة: التنظير التطوري الإثباتي Theistic Evolution،

كالتطور الموجه (الذي يتبناه وينتصر له تلميذه كريغ) وكنظرية التصميم الذكي ID Theory. ومما يؤسف له أني رأيت برهانه المذكور قد لقي رواجا وانتشارا بين الدعاة المشتغلين بقضية الإلحاد من المسلمين، على أيدي تلك الفئة التي أشرت إليها آنفا، من المفتونين باللاهوت الاعتذاري النصراني العصري، هداهم الله وعلمهم ما ينفعهم! مع أنهم لو تدبروا وتأملوا، وصبروا على أنفسهم قبل التصدر في هذه القضية، لتبين لهم أن نظرية داروين إنما تقوم من الأساس، قياما كليا على مسلمات الملة الطبيعية الدهرية! فالإلزام ببطلان الطبيعية من الجمع بينها وبين ثقتنا في قدراتنا العقلية لا يكون إلزاما بذلك وحسب، بل يجب كذلك أن يكون إلزاما بترك التنظير الطبيعي في هذا الباب من الأساس، باب أصل الأنواع الحية وأصل القدرة العقلية البشرية، ونشأة ذلك كله! فإنه إنما استجيز تأسيسا على مسلمات الملة الطبيعية! تأسيسا على اعتقاد سالف مفاده أنه لا سبب إلا السبب الطبيعي! فإذا أردنا أن نفهم كيف نشأت الحياة والأنواع الحية، فلابد أن نلتمس التفسير الطبيعي، بقياس ما، على شيء مما نجده أمامنا اليوم من نظاميات التحول والتغير الظاهرة في الأنواع الحية! هذه هي المسلمة الأولى التي أسس عليها داروين نظريته، فمن سلم له بها، لزمته تلك الربوبية المعدلة التي ينعيها بلانتينغا على أصحاب ثيولوجيا إله الفجوات! لماذا، من الأصل، استجازوا أن توضع الفروض التفسيرية القياسية في مسألة النشأة الأولى لذلك الخلق العظيم الذي لا نرى له نظيرا في صنائعنا ولا قريبا منه؟ لماذا استجازوا أن يقال: لعلها كلها نشأت بالتحول التدريجي، كما نرى أمامنا تحولات تظهر تدريجيا في إطار النوع القائم؟ لأن داروين قرر تأسيسا على دهريته السالفة، التي كان يخفيها في أول الأمر، أنه لا غيب، ولا سبب في الغيب، ولا خالقية ولا غائية ولا شيء من ذلك، وأن جميع تلك المملكة الحيوانية الباهرة التي هي من أعظم آيات الله على

خلقه وطلاقة قدرته، هذه كلها يجوز ويمكن بسهولة أن نفسر نشأتها وتنوعها الواسع المذهل هذا، بالعمل الرتيب البطيء الطويل لطبائع عمياء مركبة في مادة العالم، تحت عشواء وجودية محضة لا غاية وراءها ولا حكمة ولا شيء من ذلك!

كتب داروين في سيرته الذاتية التي نشرها في عام 1876 وهو في السابعة والستين من عمره، مبينا موقفه من برهان ويليام بالي المشهور الذي كان قد تربى عليه من قبل، وكان يقول فيه ما معناه إنني لا أكاد أذكر كتابا كنت معجبا به في صباي كإعجابي بكتاه بالي: الثيولوجيا الطبيعية، كتب الرجل في سيرته المذكورة يقول:

The old argument of design in nature, as given by Paley, which formerly seemed to me so conclusive, fails, now that the law of natural selection has been discovered. We can no longer argue that, for instance, the beautiful hinge of a bivalve shell must have been made by an intelligent being, like the hinge of a door by man. (.....) Everything in nature is the result of fixed laws.

"إن تلك الحجة القديمة من التصميم في الطبيعة، كما قدمها بالي، التي كانت فيما مضى تبدو لي تامة الإحكام، هذا البرهان يفشل، الآن وقد تم اكتشاف قانون الانتخاب الطبيعي. فما عاد بوسعنا أن نحتج، مثلا، بأن تلك المفصلة البديعة التي تربط الصدفتين ببعضهما البعض، لابد وأنها قد خلقها كائن ذكي، كمفصلة الباب التي صنعها الإنسان. كل شيء في الطبيعة هو نتاج قوانين ثابتة."!

قلت فالرجل ينطلق في موقفه هذا من تصور مفاده أننا إنما حكمنا على الصدفتين والمفصلة الرابطة بينهما بأن لهما صانعا قد أبدعهما، كما أن لمفصلة الباب صانعا بشريا أبدعها، بقياس

الأولى على الثانية! وهذا باطل قطعا، وهو من أثر الثيولوجيا الطبيعية وطريقة أصحابها للأسف! لا يحتاج العاقل سوي النفس لقياس شيء على شيء أصلا حتى يجزم جزما تاما بأن المخلوقات الحية مخلوقة خلقا إلهيا بديعا، لا يقدر البشر على الإتيان بمثله ولو اتخذ بعضهم بعضا ظهيرا! ولكن لأن الرجل قد مالت به نفسه المريضة إلى التشبع بمسلمات الطبيعية الدهرية عند أساتذته الجيولوجيين، جزم بأن كل شيء يحدث في الطبيعة يجب أن يكون خاضعا لقانون ثابت من الأزل وإلى الأبد! لماذا؟ لأنه لا وجود إلا للطبيعة نفسها! المادة وما فيها من طبائع هي كل ما في الوجود! فإذا كان ذلك كذلك، فلا وجود أصلا لما يرجح تغير تلك القوانين أو تبدلها أو توقفها أو انخرامها، أو أن يكون في جهة من جهات العالم الغائبة عنا تغييبا مطلقا، نظم أخرى وقوانين أخرى بخلافها! فإذا عدم المرجح، زمانا ومكانا، اطرد القياس بلا مانع، وحكم بأنه ليس في الغيب إلا كما في الشهادة، من طبائع الأشياء وأنواع الموجودات، وإذن فلا خلق ولا تدبير ولا غاية ولا سبب غيبي ولا شيء من ذلك! ثم بناء على هذا الاعتقاد، يقال: إذن فلابد أن جميع الأنواع الحية كانت نشأتها تبعا لقانون طبيعي صارم لا يخرم! فإذا فرضت لنفسي ذلك القانون بقياس ما، وأمكنني تأويل المشاهدات بما يبدو موافقا له، فإني أكون بهذا قد أبطلت برهان اللاهوتيين الطبيعيين، وبينت أن مبدأ الغاية والتصميم والخلق والإبداع وكذا، هذه كلها ليست إلا عوارض نشأت في بعض الأنواع الحية تحت ذلك القانون الذي زعمته، وليس لتلك المفاهيم أي علاقة بنشأة كل شيء!

وإلا فكيف يصح أن يقال في دعوى مطلقة مفادها أنه ليس في الأنواع الحية نوع واحد إلا ولابد وأنه نشأ على وفق القانون الطبيعي الذي أقره في نظريتي، كيف يصح أن يقال فيها إنها مكتشفة؟؟ ما يسميه بقانون الانتخاب الطبيعي هذا، بهذا الإطلاق الميتافيزيقي اليوناني

الذي يقرره في قوله "كل شيء في الطبيعة هو نتاج قوانين ثابتة"، هذا لم "يكتشف" أبدا ولا يمكن أن يكتشف! وإنما نظر الرجل في تغيرات الأنواع الحية القائمة سلفا عبر أجيالها، فقال: إذا كانت الأفراد التي تولد وهي غير قادرة على البقاء تفنى لعجزها عن التكيف مع الطبيعة، فلابد أن هذا ما لأجله بقيت جميع تلك الأنواع القائمة، بعدما تفرعت كلها بالتغير التدريجي عن سلف مشترك! وهو قياس فاسد من أدنى تأمل، إذ جميع التغيرات التي نشهدها في الأنواع الحية القائمة إنما تكون تعديلا وراثيا على مادة قائمة سلفا، أما أن يكون في شيء من تلك التعديلات إنشاء لمادة كاملة في نوع كامل مستقل، بوظائف كاملة جديدة على غير مثال سابق، فهذا لم يكن أبدا ولا شهده داروين حتى يستجيز ذلك القياس في نشأة الأنواع كلها بهذا الإطلاق! أي أن ما يسميه داروين بالانتخاب الطبيعي غايته أن يكون سنة كونية في إزالة ما اقتضت حكمة الله إزالته من محتويات الحشوة الحية القائمة سلفا، وليس في إنشاء تلك الحشوة نفسها وتنويعها على ذلك النحو البديع الذي نراه! فليس هو اكتشافا أصلا على الحقيقة وإنما هو قياس فاسد، بإطلاق دهري يوناني فاسد! ومع هذا، فلما توافر الطبيعيون القائمون على أكاديميات العلوم التجريبية في بلاد الغرب على قبوله واعتماده على أنه أول نظرية "علمية" تفسر نشأة الأنواع، وقع الرعب والهلع في قلوب النصارى في تلك البلدان، إلى الحد الذي اضطر عنده بابا الفاتيكان نفسه بأن يعترف بأن نظرية التطور علم معتبر، يجب له الخضوع والإذعان، والله المستعان!

فالذي يجب أن يفهمه بلانتينغا ومن حذوا حذوه من بني جلدتنا، أنه لولا القول السالف بأنه ليس في الوجود إلا المادة المعتادة وطبائعها، ما قامت لنظرية داروين أساس عقلي تقوم عليه أصلا، وبه تستساغ فروضها التفسيرية وتقبل على أنها علم ونظريات علمية! فالذي يستجيز

اقتحام هذا الباب بالتنظير الطبيعي، أيا ما كان ما ينتهي إليه، فهو منطلق من الأساس، من اعتقاد دهري مفاده أن العالم لابد وأنه خاضع كله من أوله إلى آخره، ومن الأزل، لقانون واحد صارم لا يخرم، وهو القياس أو الاستقراء الذي جاء به من عادته القريبة! فإن كان ولابد قائلا بنشأة للعالم بكليته، فلن تكون إلا نشأة على مذهب الربوبيين الذين قالوا إنها إنما كانت نشأة طبيعية، اقتضتها السنن والطبائع المركبة سلفا في مادة موجودة سلفا، بما حقيقته أنه القول الفلسفي القديم بقدم العالم وحدوث هيئته، مع زيادة تصور إضافي صارم للنظام الطبيعي يترك العلة أو السبب المفضي إلى نشوء تلك الهيئة الجديدة مجرد فرض ذهني عدمي لا وجود له في الأعيان، ولا أثر له في شيء أصلا على الإطلاق (خلافا للعقل الفعال الذي كان الفلاسفة الأوائل القائلون بقدم العالم يثبتونه)! فعندما يؤتى لنظرية كهذه وتستبدل بعض فروضها الدهرية الصرفة تلك (تأصيلا وتفريعا) بالخالقية والتصميم وكذا، فهذا هو عين العبث، والترقيع بين الدهرية ونقيضها، وهو آية باهرة على ثيولوجيا إله الفجوات التي اعترض عليها بلانتينغا في هذا الكلام الطيب جدا الذي حرره!

والشيء نفسه يقال في نظرية الانفجار الكبير، والانتفاخ العظيم وهذه الأشياء، وفي كل فرض كوزمولوجي يؤتى به ليجعل دليلا على فعل الباري! أي فعل والفرض في النظرية أنه لا يوصف شيء في الأعيان بمعاني الزمان والمكان، وبالتأثير في موجودات العالم بصورة ما أو بأخرى، إلا وقد نشأ بالضرورة داخل الزمكان المزعوم الذي يدعى في أنطولوجيا الانفجار الكبير أنه هو ما نشأ بعد أن لم يكن؟؟ الطبيعيون حتى مع علمهم بأن هذه هي ميتافيزيقا النسبية العامة، أبوا إلا أن يتجاوزوها ويخصصوها (في سابقة لا أعرف لها نظيرا في تاريخ الفلسفة)، بميتافيزيقا أخرى قامت لديهم من نظرية ميكانيكا الكم، فتصبح نشأة الزمكان

المزعومة هي نشأة الزمان الكلاسيكي والمكان الكلاسيكي فقط كما يسمونها وليس كل ما يصح أن يقال فيه الزمان وكل ما يصح أن يقال فيه المكان، وإذن فقبل الانفجار كان المجال الكمومي الأزلي المزعوم! خرف في خرف وتناقض عميق الغور بين ميتافيزيقا أينشتاين وميتافيزيقا الكم، هم إلى اليوم يعانون منه أشد المعاناة، ومع هذا يأتي الشاب الأرعن خفيف العقل من بني جلدتنا، ليقول: برهان الانفجار الكبير على وجود الصانع، برهان المبدأ الأنثروبي على وجود الصانع، إلى غير ذلك من صور التقليد الأعمى، ثم إذا اتهم بما يقال له "إله الفجوات" أرعد وأزبد وقال: بل أنتم من تحشرون الدهرية الطبيعية والسبب الطبيعي في فجوات العلم!! أي علم يا مسكين هداك الله؟؟ أنت ابتلعت نظاما اعتقاديا دهريا صرفا وتشربت به حتى الثمالة، ثم تريد أن تؤسس عليه اعتقادا مناقضا له، وتظن أن ما ابتلعته هو العلم الذي أقحموا هم فيه عنوة ما ليس منه من الإلحاد والدهرية! فافهم وتعلم وانظر أين تضع قدميك، إن أردت الهداية للناس وصدقت في طلبها!

قوله: "هذا المنطق هو على أحسن الأحوال، نوع ضعيف أو مخفف من شبه الربوبية Semi-Deism التي تحشر النشاط الإلهي في فجوات المعرفة العلمية." قلت نعم صحيح ولا شك، هي ربوبية معدلة، وليست شبه ربوبية، بل ربوبية أدخلوا عليها استثناءات مخصوصة، وعلى مضض عند التتبع. كل اعتقاد بأن النظام الطبيعي الذي نراه من حولنا، نظام سابغ شامل للكون كله، فلا يخرج عنه موجود من موجودات العالم، هو اعتقاد ربوبي Deistic belief، لأن مجرد فرض هذه الصورة الكونية المطلقة يقتضي أن العالم محكوم كله به كالآلة التي ركبت فيها تروسها وتركت لتعمل وحدها! قياس جميع أنحاء العالم وأجزائه، من أوله إلى آخره، على هذا القدر الضئيل الذي تطاله حواسنا منه، في أنواع المواد والطبائع المركبة فيها، ما أساس

تجويزه عند الفلاسفة؟ الكفر بالغيب وما فيه! هذه هي المسلمة الأولى يا إخوان. من كان يؤمن بأن في الغيب ربا خالقا له إرادة ومشيئة وعلم وغاية وحكمة وتدبير وقدرة، يفعل ما يشاء ويختار، لا مكره له ولا سلطان عليه من فوقه، من كان يؤمن بهذا صدقا، فلن يقبل أن تتخذ بعض الطبائع والسنن السببية المعتادة لنا في دائرة خبرتنا البشرية التراكمية الضيقة، بالقياس التحكمي الصرف، شرطا وجوديا مطلقا في الزمان والمكان، لمبدأ السببية ولقيام الصفات بموصوفاتها ولوجود الأشياء في الأعيان ولتعلل كل حادث بما يعلله!! هذه السنن والقوانين هي عادتنا لأن الرب سبحانه جعلها عادة لنا، واختار سبحانه أن يجعلها كذلك! أما أن يقال إنها لابد وأنها تحكم العالم كله حكما صارما لا انخرام له، جميع السماوات والأرضين وما فيهما يخضعون لها، فبأي سلطان يحكم بهذا الإطلاق من العقل أو الدين؟ ليس سلطانا يؤتى به من عقل مسلم موحد يؤمن بالغيب وبالرب الخالق فيه سبحانه ولا شك! وإنما من عقل رجل اختار أن يعتقد أنه ليس في الغيب إلا نفس المواد ونفس تلك الطبائع المعتادة فيها في عالم الشهادة إجمالا، من أجل أن يتمكن من دحض الأساس الذي تقف عليه دعاوى المرسلين وأتباعهم ودعاوى الرؤوس الأكابر المعظمين من أهل الملل المؤلهة لشيء بالغيب أيا ما كان! يقال لهم: لا تدلنا العادة والمشاهدة في العالم إلا على اطراد هذه الطبائع والمواد التي نراها، إذ لا نرى سواها أينما ذهبنا، فأين هو ذلك الغيب العظيم الذي تزعمونه، وما دليلكم على وجوده؟؟ فعلى منطق السفسطة الوجودية الذي بدعه اليونانيون، يصبح ذلك اعتراضا نظريا وجيها، ويوضع مثبتة ذلك الغيب في موضع المتهم المطالب بالدفاع عنه نفسه وتقديم البراهين النظرية المستساغة نوعا عند القوم، لإثبات وجود ذلك الغيب ووجود من يعبدونه فيه! ومن هنا تنشأ ثيولوجيا "إله الفجوات" كما يسميها بلانتينغا! تجد نفسك يا مسكين، مقابلا

بعلم معتمد وأقيسة ونظريات باهرة لا يكذب بها إلا سفيه عندهم، وإذن فغايتك أن تلتمس لنفسك فجوة في ذلك "العلم" تحشر فيها صانعك المزعوم، إن كنت فاعلا! هذا ما سلكه المفتونون بأكاديمية أرسطو قديما، ويسلكه اليوم المفتونون بأكاديمية أينشتاين وداروين، سواء بسواء!

ثم يقول بلانتينغا [31]:

[31] *These are, broadly speaking, metaphysical differences between Christian theism and God-of-the-gaps thought; but there are equally significant epistemological differences. First, the thought that there is such a person as God is not, according to Christian theism, a hypothesis postulated to explain something or other, nor is the main reason for believing that there is such a person as God the fact that there are phenomena that elude the best efforts of current science. Rather, our knowledge of God comes by way of general revelation, which involves something like Aquinas's general knowledge of God or Calvin's sensus divinitatis, and also (and more importantly) by way of God's special revelation, in the Scriptures and through the church, of his plan for dealing with our fall into sin. God-of-the-gaps theology, therefore, is every bit as bad as McMullin, Van Till, Stek and Allen think. (Indeed, it may be worse than Van Till and Stek think, since some of the things they think -- in particular their ban on God's acting directly in nature -- seem to me to display a decided list in the direction of such theology.) Serious Christians should indeed resolutely reject this way of thinking. The Christian community knows that God is constantly active in his creation, that natural laws, if there are any, are not independent of God, and that the existence of God is certainly not a hypothesis designed to explain what science can't. Furthermore, the Christian community*

هذه فوارق ميتافيزيقية، بصورة عامة، بين الإثباتية النصرانية وبين فكر إله الفجوات. ولكن ثمة فوارق إبستمولوجية لها نفس الأهمية كذلك. فأولا، فكرة أن ثمة شخص يقال له الإله، ليست عند المثبتة النصارى، فرضية توضع من أجل تفسير شيء ما أو آخر، ولا كانت حقيقة أن بعض الظواهر قد أعيت أفضل الجهود العلمية العصرية، هي السبب الأول لإيمانهم به. وإنما تأتي معرفتنا بالإله من طريق الوحي العام، الذي يشمل شيئا كالمعرفة العامة عند أكويناس بالإله، أو الحس التأليهي عند كالفين، وكذلك (وهو الأهم) من طريق الوحي الخاص للإله، في النصوص المقدسة وعبر الكنيسة، الذي يكشف خطته للتعامل مع سقطتنا في الخطيئة. فثيولوجيا إله الفجوات، إذن، فاسدة من الوجه الذي يراه ماكولين وفان تيل وشتيك وألن. (بل لعلها أسوأ مما يظن فان تيل وشتيك، بما أن بعض الأمور التي يرونها - لا سيما منعهما من أن يعمل الإله بصورة مباشرة في الطبيعة - يبدو لي أنها تكشف ميلا في اتجاه تلك الثيولوجيا). فيجب فعلا على النصارى الجادين في نصرانيتهم أن يرفضوا هذا النمط من التفكير، رفضا حاسما. المجتمع النصراني يعلم أن الإله نشط دوما في خلقه، وأن القوانين الطبيعية، إن كان لها وجود، ليست منفصلة مستقلة عنه، وأن وجوده قطعا ليس فرضية مصممة من أجل تفسير ما يعجز العلم عن تفسيره. زد على ذلك أن المجتمع النصراني إنما يبدأ

---

begins the scientific enterprise already believing in God; it doesn't (or at any rate needn't) engage in it for apologetic reasons, either with respect to itself or with respect to non-Christians. But of course from these things it doesn't follow for an instant that the Christian scientific community should endorse methodological naturalism.

بحثه ونظره العلمي وقد سبق لديه الإيمان الجازم بوجود الإله. فليس يخرط فيه (ولا يحتاج لأن يخرط فيه) لأسباب اعتذارية، سواء لصالحهم هم أو لصالح غير النصارى. ولكن بالطبع فإنه لا يترتب على ذلك، ولا للحظة واحدة، أن المجتمع العلمي النصراني يتعين عليه أن يتبنى الطبيعية المنهجية.

قلت: سبحان الله! ليته طبق هذا الكلام على نفسه! وليت إخواننا المفتونين باعتذاريات ويليام لين كريغ يتأملون مليا في هذا الكلام! "يجب فعلا على النصارى الجادين في نصرانيتهم Serious Christians أن يرفضوا هذا النمط من التفكير رفضا حاسما!!" ونحن نقول يجب على المسلمين الصادقين في إسلامهم وتوحيدهم أن يرفضوه بشتى صوره، رفضا باتا لا تساهل فيه! ولكن إذا فهموا ذلك المسلك أو "النمط من التفكير" كما حقه أن يفهم، وجب عليهم أن يرفضوه كما حقه أن يرفض! أي يرفضوه ردا لأصوله الدهرية التي يقوم عليها، لا أن يرفعوا شعارا فلسفيا برفضه ثم عند التحقيق، تجدهم غارقين فيه كما هي حال بلانتينغا وغيره من فلاسفة القوم! نحن أناس نؤمن بالغيب، إيمانا جازما لا تساهل فيه، وهو عندنا أعظم وأقدس مما هو عليه عند هؤلاء الذين تكلفوا تلك الصور الباهتة من ترقيع النصرانية بالميثولوجيا الطبيعية، وهم يرون أنهم بذلك يدفعون تهمة التعارض بين الدين والعلم! نحن قوم نعلم أين ينتهي سلطان النظر في مستقر العادة، وأين يبدأ سلطان الخبر الغيبي الذي لا يجوز العدوان عليه! فنحن أولى من بلانتينغا بأن نلتزم ذلك المنهج الصارم في تنقية علومنا وممارستنا للعلم التجريبي من الطبيعية المنهجية، نلتزمه كما هو حقه أن يلتزم! فيا ليت قومي يعلمون!

يقول [32]:

فالمجتمع النصراني يواجه هذا السؤال: كيف يكون فهمنا الأحسن لهذا الخلق الذي خلقه الإله، والذي وضعنا في وسطه؟ وما هو أفضل طريق للمضي قدما في ذلك؟ ما نوع المعلومات التي يمكن أو ينبغي علينا أن نستعملها؟ أليس واضحا ابتداء، وعلى أي حال، أننا ينبغي أن نستعمل كل ما كان نافعا ومنيرا لطريقنا، بما في ذلك ما نعرفه سلفا عن الإله وعن علاقته بهذا العالم، وكذلك ما نعرفه من طريق الوحي الخاص (النص المقدس)؟ ألا يصح لنا، عقلا، أن نستنتج مثلا، أن الإله خلق الحياة، أو الحياة البشرية، أو شيئا آخر، خلقا خاصا؟ (لست أقول يجيب علينا أن نستنبط ذلك، وإنما أقول فقط أنه يصح لنا أن نفعل مبدئيا، وهو يتعين علينا إن كان هذا ما تفيد به الأدلة على الوجه الأرجح).

قلت: هنا يتبدى لك الاختلاط في منهج الرجل، وتطل آفة ثيولوجيا إله الفجوات برأسها في كلامه من حيث لا يشعر ولا ينتبه، وتراه يتكلم بنفس الإجمال الذي أنكرناه وأنكره هو نفسه

---

[32] *The Christian community faces this question: How shall we best understand this creation God has made, and in which he has placed us? What is the best way to proceed? What information can we or shall we use? Well, isn't it clear initially, at any rate, that we should employ whatever is useful and enlightening, including what we know about God and his relation to the world, and including what we know by way of special revelation? Couldn't we sensibly conclude, for example, that God created life, or human life, or something else specially? (I don't say we should conclude that: I say only that we could, and should if that is what the evidence most strongly suggests.)*

على صاحبه شتيك فيما مر. فأولا ما المقصود "بفهمنا لهذا الخلق الذي خلقه الإله"؟ إن كان غاية المقصود هو فهمنا لما عليه جريان السنن السببية الحالية الواقعة تحت عادتنا التراكمية فيه، فهذا لا يدخل فيه، مبدئيا، مسألة خلق الحياة وخلق البشر أصلا! هذه من مبدأ الطرح قضية غيبية مطلقة التغييب، لا يحتاج الحكم عليها بذلك إلى نظر أو استدلال! نحن ما شهدنا ذلك وما شهدنا له نظيرا في عادتنا أصلا! فكيف وبأي عقل وعلى أي أساس، نخضعه لآلة نظرية لا عمل لها عقلا إلا على مستقر العادة؟؟ هذا العدوان على الغيب هو ما ألجأكم للنظر فيما إذا كان خلق الله تعالى للأنواع الحية خلقا "مباشرا" أم جاريا على أسباب طبيعية، مع أن الفرض فيكم أنكم تؤمنون بأنه هو سبحانه خالق الأسباب الطبيعية ونظامها من الأساس، وأنه إنما قضى ذلك وأمر به حال تأسيسه لهذا العالم، وبثه أنواع الدواب فيه، لا قبل ذلك! فالسنن الطبيعية ليست هي التي خلقت الطبيعة، وليست شيئا متجاوزا منفصلا عنها أصلا حتى يكون هو ما خلقها أو خلق الحياة في الأرض، وإنما هي نظام رب العالمين وعادته في تدبير طبائع الأشياء المخلوقة وإجرائها على ما يريد سبحانه! فمن فهم القانون الطبيعي فهما صحيحا منفكا عن منطق الدهرية الطبيعيين في تصوره، ذلك المنطق الذي ولد لاهوت إله الفجوات كما سماه، لن يقول كلاما كهذا في مسألة كهذه، ولن يرفع رأسا، أصلا، بنظريات القوم في قضية نشأة الحياة والأنواع الحية من مبدأ الأمر، وإنما يضعها كلها من مبدأ الطرح تحت قدمه ولا يبالي! ليست القضية بحيث يتعين علينا أن نجمع جميع ما نعرفه من مصادر المعرفة المختلفة لدينا فيها لننظر هل تجتمع أم تختلف، وإن اختلفت فكيف نرجح، هذا يقوله من يعتبر التنظير الطبيعي مصدرا للمعرفة في هذا الباب! والذي يرى الأمر كذلك، هذا متلبس بالطبيعية المنهجية مهما أظهر عداءه لها، ويلزمه تلك الربوبية المعدلة التي وصفها بلانتينغا في كلامه الآنف! فمسألة

فهمنا للخلق هذه لا ينبغي مبدئيا، من مبدأ الطرح، أن نسمح فيها بغير نصوص الوحي مصدرا للمعرفة، إن كان المقصود ابتداء الخلق ونشأته على غير مثال سابق! لسنا مطالبين بأن نرجح بين ما عندنا من نصوص وما جاء به الطبيعيون في نظرياتهم لنعرف هل خلق الله تعالى أدم عليه السلام، مثلا، خلقا مباشرا كما يسمونه أم خلقه من ذرية نوع آخر متقدم عليه! وإنما نطالب الدهرية الطبيعيين بأن يخرجوا من تلك النظريات كلها في هذه القضية، ويذعنوا للنص الإلهي الذي صحت نسبته إلى رب العالمين تحقيقا، فإنه هو العلم الذي لا علم غيره فيها أصلا! إما هذا، وإما أن يبقى الواحد منكم منهزما مرتعد الفرائص، غاية مطمحه ومطمعه أن يأذن له السادة القائمون على الأكاديمية العصرية بأن يتخذ لنفسه مجلسا بينهم، بنظرية "علمية" محترمة، يفترض فيها أن الإله الذي يعبده هو الذي صنع هذه الأمور التي يقولون بها في نظرياتهم، أو أنه هو تفسير هذه المسألة أو تلك، لتعذر تفسيرها بما عندهم، أو لرجحان تفسيره هو على تفسيرهم، بالنظر إلى خلفيته العقدية، تماما كما كرهه الرجل واستنكره كما ترون، والله المستعان!!

ثم يقول [33]:

ألا ينبغي أن نستعمل معرفتنا بالخطيئة والخلق في السيكولوجيا والسوسيولوجيا وفي العلوم الإنسانية بعموم؟ ألا يتعين علينا أن نقيم النظريات العلمية المختلفة، من طريق خلفية معرفية

---

[33] *Shouldn't we use our knowledge of sin and creation in psychology, sociology, and the human sciences in general? Shouldn't we evaluate various scientific theories by way of a background body of belief that includes what we know about God and what we know specifically as Christians? Shouldn't we decide what needs explanation against that same background body of beliefs?*

واعتقادية تشمل ما نعرفه عن الإله وما نعرفه خصوصا من كوننا نصارى؟ ألا ينبغي كذلك أن نقرر ما يحتاج أصلا إلى أن يفترض له تفسير ما، تأسيسا على نفس الخلفية ونفس البنية الاعتقادية النصرانية؟

قلت: هذا هو المتعين على من يؤمن بالغيب ويؤمن بصحة ما جاءه من خبر بشأنه ولا شك! ولكن هذا ينقض عليك يا رجل ما حررته آنفا من جواز تناول مسألة نشأة الحياة والنوع البشري على الأرض بالتنظير الطبيعي ثم الترجيح بين ما جاءت به نظريات القوم في ذلك، وما تجدونه في نصوصكم!! فكما قلت: فينبغي أن تقرر ما يحتاج أصلا إلى أن يفترض له تفسير ما، وما لا يحتاج إلى ذلك، تأسيسا على الخلفية الاعتقادية! فكيف يعقل أن يكون خلق الرب سبحانه لهذا النظام الطبيعي نفسه، ملجئا للنظر في تفسير طبيعي نفسره به؟؟ من كان يؤمن بأن الطبيعة مخلوقة مركبة تركيبا ومحفوظة حفظا بفعل رب العالمين في هذا العالم، لن يقبل أصلا أن تطرح نشأة تلك الطبيعة نفسها للتفسير الطبيعي!! يقول [34]:

---

[34] *Well, why not? That certainly seems initially to be the rational thing to do (one should make use of all that one knows in trying to come to an understanding of some phenomenon); and it is hard to see anything like strong reasons against it. We certainly don't fall into any of the unhappy ways of thinking characteristic of God-of-the-gaps theology just by doing one of these things. In doing these things, we don't thereby commit ourselves, for example, to the idea that God does almost nothing directly in nature, or that the universe is something like a vast machine in whose workings God could intervene only with some difficulty; nor are we thereby committed to the idea that one of our main reasons for belief in God is just that there are things science can't explain, or that the idea of God is really something*

فلم لا؟ هذا قطعا يبدو مبدئيا أنه الشيء العقلاني الصحيح الذي يتعين علينا فعله (أن الإنسان يجب أن يستعمل جميع ما يعرفه في محاولته لأن يصل لفهم ظاهرة ما)، ومن الصعب أن نتصور أي اعتراضات قوية ضد ذلك المفهوم. قطعا لا نقع في أي واحد من تلك الطرق البائسة في التفكير التي تتسم بها ثيولوجيا إله الفجوات، إن التزمنا بذلك المنهج. ففي فعلنا ذلك، فإننا إذن لا نلزم أنفسنا، مثلا، بفكرة أن الإله لا يكاد يفعل شيئا في الطبيعة بصورة مباشرة، أو أن الكون يشبه أن يكون ماكينة عملاقة قد يتدخل الإله في عملها فقط لإصلاح خلل ما، ولا تلزمنا إذن فكرة أن واحدا من أسبابنا الأساسية للإيمان بالإله هي مجرد أنه توجد أمور يعجز العلم عن تفسيرها، أو أن فكرة الإله إنما هي فرضية ضخمة موضوعة من أجل تفسير تلك الأمور. ليس كذلك على الإطلاق. قطعا إن قضية إله الفجوات هذه كلها ليست إلا شبهة تمويهية في هذا السياق الذي نتكلم فيه.

قلت: بل ما دمتم لا ترون وجه الخلل المنهجي العميق في تجويز تناول قضايا الغيب المطلق في نشأة العالم ونشأة الحياة فيه بالنظر الطبيعي، فأنتم متلبسون بثيولوجيا إله الفجوات لا محالة، شعرتم بذلك أم لم تشعروا، ويلزمكم فكرة أن الإله لا يكاد يفعل شيئا في الطبيعة إلا بأسباب الطبيعة، حتى إنشاء الطبيعة نفسها ونظامها المطرد الذي نشهده من حولنا! وهي إذن تلك الماكينة العملاقة التي يتدخل فيها الإله أحيانا ولابد، إذ إن المسلمات الأولى التي أفرزت تنظير القوم في تلك الأبواب، هي نفسها التي جوزت لهم استيعابه كله بسائر تفصيلاته بنظرياتهم وأقيستهم كما فعلوا! وإذن فماذا بقي لك أنت وأمثالك؟؟ لا شيء إلا أن تلتمسوا فجوة هنا أو

---

like a large-scale hypothesis postulated to explain those things. Not at all. Indeed, the whole God-of-the-gaps issue is nothing but a red herring in the present context

هناك لتدخلوا منها بنظرية نصرانية من عندكم، تثبتون فيها فعلا مباشرا غير خاضع للقانون الطبيعي والسبب الطبيعي، وهذا ما سلكه أصحاب التطور الموجه وأصحاب نظرية التصميم الذكي على التحقيق، والله المستعان لا رب سواه! ثم إن الفجوة المزعومة هي غاية ما يسعكم التمسك به والتعلق به في إثبات ما تؤمنون به من أمر الغيب على أي حال، لأن الطريقة الدهرية (الطبيعية المنهجية) قد اكتسحت جميع الغيوب المكانية والزمانية بالفعل بنظريات وفروض وأوهام بالغة التفصيل، أنتم تقبلونها جملة وتقرون بأنها هي العلم الواجب اعتقاده ولا تجدون سببا للاعتراض عليها! فإذا كان أصل الواحد منكم وقاعدته هي أن القضية الغيبية التي لا نجد في كتبنا نصا يقرر فيها أمرا ما، فالواجب فيها قبول ما جاء به الطبيعيون من نظريات وفروض، ومتابعتهم في تصورهم إياها، كيفما اتفق له أن يكون، فأنتم لا محالة محصورون في تلك الفجوة التي تبقى لكم، إن بقي لكم شيء، تتلمسونها إذن رجاء أن يصبح لكم موطئ قدم في ذلك التصور الدهري السابغ للوجود Atheistic World View بحيث تجرؤون معه على أن تقولوا إنكم واقفون فيه على علم وعلى سبب صحيح! القوم يرون أنهم ما تركوا شيئا من تاريخ الكون وصولا إلى عصرنا الحالي، إلا تناولوه في نظرياتهم، حتى سموها بالتاريخ الطبيعي Natural History، وأنتم قبلتم منهم تلك الميثولوجيا بحذافيرها، على أنها علم صحيح جملة ونظر مقبول مبدئيا! فعندما يؤتى إلى تلك الميثولوجيا الضخمة السابغة، ثم يسقط منها عنصر من عناصرها أو يدخل في جانب من جوانبها، دعوى بسببية لا يصح فيها الوصف بأناه طبيعية Natural كمسألة الطوفان مثلا، فهذا ولا شك من محاولة استحداث فجوة في تلك الأسطورة العملاقة، رجاء إدخال شيء قد دل النص الديني عندكم عليه! وكما يسلكه كذلك من يثبتون آدم عليه السلام ويقبلون قصته في كتابهم على أنها حق كما جاء بها الخبر، وقعت تاريخيا

بالفعل كما في الخبر، ولكنها وقعت على سبيل الاستثناء من القصة الداروينية التي شملت بالتأويل التطوري كل نوع حي، فاستوعبت التاريخ الطبيعي كله من أوله إلى آخره! فكل ذلك على منطق الأكاديمية الراعية لتلك الميثولوجيا التاريخية يكون إقحاما للإله في فجواتهم، سواء كانت الفجوة فارغة عندهم من التنظير المعتمد أكاديميا، أو كانت فجوة يحفرها الواحد منكم لنفسه في أسطورتهم حفرا، رجاء أن يقيم فيها ما يعتقده من طريق النص! وهو ما لا يكون في النهاية إلا تشويها وإفسادا لما جاء به النص من جانب، لا محالة، لأنه لابد وأنه سيحاول التوفيق بينه وبين بقية الأسطورة التاريخية بكل طريق، ما دام يقول بصحتها، وسيكون كذلك تجويزا للعدوان على الغيبيات المسكوت عنها عنده بالقياس التمثيلي التحكمي على طريقة من لا يؤمنون بالغيب أصلا!!

أما أهل الحق الصارمون الجادون في اعتقادهم وإيمانهم بالغيب، فلن يقفوا ذلك الموقف الضعيف المتخاذل أمام ذلك الغزو الفكري الغوغوائي الذي جاء به هؤلاء! وإنما سيقول قائلهم بكل حزم وصرامة: ما سكت عنه الوحي في أمر الغيب المطلق، سواء كان من غيب الزمان أو المكان، فالواجب فيه التوقف والتفويض، وليس التألي عليه بالنظر والقياس كما فعل هؤلاء! فكل ما عندهم في ذلك فهو موضوع تحت الأقدام ولا كرمة! فنحن نخرج زبالتهم وخرافاتهم من هذا الباب بالكلية، ونمنعهم من الخوض فيها ابتداء، لا أننا نبتلعها جملة، ثم نقعد لننظر كيف نجمع بينها وبين ما عندنا من النصوص، رجاء أن نستخرج فجوة نسلط فيها نصوصنا وكتبنا كما هو حقها أن تتسلط! العدوان الدهري على الغيب مدفوع عندنا من مبدأ الأمر ومن باب الطرح، وليس فقط في تلك المسائل التي عندنا فيها نص وحسب! فالله نسأل

أن يهدي شبابنا من المتصدرين في تلك الأبواب لحسن الفهم وحسن المنهج، وللحزم في مواطن الحزم، والتمسك بالحق تمسكا لا يلين، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

الجزء الرابع عشر

يواصل بلانتينغا فيقول إن الحجج التي أوردها ورد عليها فيما مر من مقاله لالتزام الطبيعية المنهجية في البحث التجريبي، ليست بشيء، ولكن ثم حجتان أخريان أقوى من ذلك، يقول:[35]

لكن ثم حجتان أو مسلكان للنظر، مختلفتان تماما، هما أقوى فيما أرى، (في تسويغ) التزام الطبيعية المنهجية في ممارسة العلم. والأولى منهما خاصة، تستحق ورقة بحثية خاصة لها وحدها على الحقيقة، ولكن هنا للأسف، سأضطر لأن أكتفي بالتعريج عليها بإيجاز.

ثم يقول تحت عنوان فرعي: العلم الدوهمي Duhemian Science [36]

---

[35] *but there are two quite different, and I think, stronger arguments or lines of reasoning for embracing methodological naturalism in the practice of science. The first of these really deserves a paper all to itself; here, unfortunately, I shall have to give it relatively short shrift.*

[36] *We can approach this argument by thinking about some striking passages in Pierre Duhem's The Aim and Structure of Physical Theory.*

Duhem was both a serious Catholic and a serious scientist; he was accused (as he thought) by Abel Rey of allowing his religious and metaphysical views as a Christian to enter his physics in an improper way. Duhem repudiated this suggestion, claiming that his Christianity didn't enter his physics in an improper way, because it didn't enter his physics in any way at all. Furthermore, he thought the correct or proper way to pursue physical theory was the way in which he had

in fact done it; physical theory should be completely independent of religious or metaphysical views or commitments. Why did he think so?

For two reasons. First, he thought religion bore little relevance to physical theory: "Was it not a glaring fact to us, as to any man of good sense, that the object and nature of physical theory are things foreign to religious doctrines and without any contact with them?" (p. 278).

But there is something else, and something perhaps deeper. Although Duhem may have thought that religious doctrines had little to do with physical theory, he didn't at all think the same thing about metaphysical doctrines. In fact he believed that metaphysical doctrines had often entered deeply into physical theory. Many theoretical physicists, as he saw it, took it that the principal aim of physics is to explain observable phenomena. Explanation is a slippery notion and a complex phenomenon; but here at any rate the relevant variety of explanation involves giving an account of the phenomena, the appearances, in terms of the nature or constitution of the underlying material reality. He goes on (pp. 10-18) to give a striking illustration, recounting how atomists, Aristotelians, Newtonians, and Cartesians differ in the explanations or accounts they give of the phenomena of magnetism: atomists give the requisite explanation, naturally enough, in terms of atoms; Cartesians in terms of pure extensions; and Aristotelians in terms of matter and form. The differences among these explanations, he says, are metaphysical; they pertain to the ultimate nature or constitution of matter. But of course if the aim is to explain the phenomena in terms of the ultimate nature or constitution of matter, then it is crucially important to get the latter right, to get

the right answer to the metaphysical question "What is the nature or constitution of matter?" In this way, he says, physical theory is subordinated to metaphysics: "Therefore, if the aim of physical theories is to explain experimental laws, theoretical physics is not an autonomous science; it is subordinate to metaphysics" (p. 10 Duhem's emphasis). Well, what's the matter with that? The problem, says Duhem, is that if you think of physics in this way, then your estimate of the worth of a physical theory will depend upon the metaphysics you adopt. Physical theory depends upon metaphysics in such a way that someone who doesn't accept the metaphysics involved in a given physical theory can't accept the physical theory either. And the problem with that is that the disagreements that run riot in metaphysics will ingress into physics, so that the latter cannot be an activity we can all work at together, regardless of our metaphysical views:

Now to make physical theories depend on metaphysics is surely not the way to let them enjoy the privilege of universal consent. .... If theoretical physics is subordinated to metaphysics, the divisions separating the diverse metaphysical systems will extend into the domain of physics. A physical theory reputed to be satisfactory by the sectarians of one metaphysical school will be rejected by the partisans of another school.

Duhem goes on to quote Christian Huygens, who, as an 'atomist' rejected Newton's idea of action at a distance: "So far as concerns the cause of the tides given by Mr. Newton, I am far from satisfied, nor do I feel happy about any of his other theories built on his principle of attraction, which to me appears absurd." He

also quotes Descartes' comments on a work by Roberval who put forth a theory of universal gravitation well before Newton:

Nothing is more absurd than the assumption added to the foregoing: the author assumes that a certain property is inherent in each of the parts of the world's matter and that, by the force of this property, the parts are carried toward one another and attract each other. He also assumes that a like property inheres in each part of the earth considered in relation with the other parts of the earth, and that this property does not in any way disturb the preceding one. In order to understand this, we must not only assume that each material particle is animated, and even animated by a large number of diverse souls that do not disturb each other, but also that these souls of material particles are endowed with knowledge of a truly divine sort, so that they may know without any medium what takes place at very great distances and act accordingly.

The point Duhem makes is that if a physical theorist employs metaphysical assumptions and notions that are not accepted by other workers in the fields, and employs them in such a way that those who don't accept them can't accept his physical theory, then to that extent his work cannot be accepted by those others; and to that extent the cooperation important to science will be compromised. He therefore proposes a conception of science (of physics in particular) according to which the latter is independent of metaphysics:

... I have denied metaphysical doctrines the right to testify for or against any physical theory..... Whatever I have said of the method by which physics proceeds,

---

or the nature and scope that we must attribute to the theories it constructs, does not in any way prejudice either the metaphysical doctrines or religious beliefs of anyone who accepts my words. The believer and the nonbeliever may both work in common accord for the progress of physical science such as I have tried to define it (pp. 274-75).

So here we have another argument for methodological naturalism, and a simple, common-sense one at that: it is important that we all -- Christian, naturalist, creative anti-realist, whatever -- be able to work at physics and the other sciences together and cooperatively; therefore we shouldn't employ, in science, views, commitments and assumptions only some of us accept. That is, we shouldn't employ them in a way that would make the bit of science in question unacceptable or less acceptable to someone who didn't share the commitment or assumption in question. But then we can't employ (in that way) such ideas as that the world and things therein have been designed and created by God. Proper science, insofar as it is to be common to all of us, will have to eschew any dependence upon metaphysical and religious views held by only some of us; therefore we should endorse methodological naturalism. We do not, of course, have to be metaphysical naturalists in order to pursue Duhemian science; but if science is to be properly universal, it can't employ assumptions or commitments that are not universally shared.

This is an appealing argument for methodological naturalism. It is pragmatic, not principial: it is a good thing to do science together; we should therefore maximize the possibility of cooperation and cooperative inquiry wherever possible;

therefore we should not propose, in science, theories essentially involving beliefs that are not common to us all. "When we regard a physical theory as a hypothetical explanation of material reality, we make it dependent on metaphysics. In that way, far from giving it a form to which the greatest number of minds can give their assent, we limit its acceptance to those who acknowledge the philosophy it insists on." So we should adopt a sort of positivist (in the old sense), metaphysically noncommittal, conception of science. Science, properly done, will neither make metaphysical or religious assumptions nor have metaphysical or religious consequences.

This simplicity, to be sure, is a bit deceptive. What is really important for commonality is not the absence, from science, of hypotheses referring to God, or of metaphysics as such, or other philosophical ideas, but rather the absence of views or assumptions that divide us. If there are certain metaphysical views we all share, then there would be no reason, from this point of view, for banning those metaphysical views from science. (Thus Duhem's reason for thinking science should abstain from metaphysics is quite different from Bas van Fraassen's, whose views bear some resemblance to his.) So far as Duhem's suggestion goes, science can employ any universally accepted proposition or assumption whatever, even if in fact it is a piece of metaphysics or theology. Perhaps it is metaphysics, on some accounts anyway, to suppose that there has really been a past, or really are material objects that exist independently of human thought. If these are assumptions we all or nearly all make, then from this perspective, they can be included in science.

What sorts of propositions are they, that nearly everyone party to the scientific enterprise accepts? Here we see a link between Duhem and van Fraassen -- and also, of course, a connection with the idea that science is empirical science; science is in some special way related to the deliverances of experience, in particular the deliverances of sense. And the deliverances of sense are not, for the most part, loci of disagreement among us. In this neighborhood there is much to be said and no space to say it: I shall say just the following. Perhaps observation is, as many have told us, in some sense 'theory-laden'; but it doesn't follow that it is theory-laden in such a way as to destroy commonality. Barring exceptional circumstances, all will agree, presumably, that the pointer is between the 5 and 6 (rather than, say, the 1 and 2). Further, the theory with which observation is laden needn't in every case be such as to divide us. Still further, even where it does divide us (where, for example, the realist claims to see the trail of the electron in the cloud chamber and the empiricist sees no such thing) attention to the way in which a term like 'see' gets analogically extended can often defuse the alleged disagreement as to what gets seen.

So propositions whose truth can be determined by observation will be among those admissible to science from this perspective. Of course science employs more: it also employs the deliverances of reason, logic and mathematics--where, once more, there is little disagreement. Still other propositions are widely accepted and employed in science, although they aren't determinable by observation and go beyond logic and mathematics. We suppose it reasonable to assume that the regularities that obtain in our cosmic neighborhood also obtain in regions of the

universe spatiotemporally more remote from us; we suppose that the future will resemble the past in a way that is extremely hard to state but nonetheless real. (We don't feel obliged to repeat the experiment tomorrow, on the grounds that things might change overnight.) We also assume that various inductive policies are likely to work, that simple explanations (again, in a sense that is extraordinarily hard to explain) are to be preferred to complex ones, and so on.

According to this attractive Duhemian ideal, then, science is to be a common enterprise and is to employ (in the sense mentioned above) only propositions that are common to all or nearly all those party to it. Duhemian science, you might say, would be public science; it would be maximally inclusive and wholly neutral with respect to the world-view differences that separate us. And of course there are whole vast stretches of our cognitive economy where these world-view considerations do indeed seem to be wholly irrelevant. Anyone with decent eyesight will see that the pointer points to 7; metaphysical or theological differences have nothing to do with it. The same will hold, presumably, for a measurement of the distance from Earth to Jupiter. Anybody will see that a contradiction can't be true; again, it doesn't matter whether you are theist, or an anti-realist or a naturalist, or whatever. The same will go for a deduction of Cantor's Theorem from the axioms of ordinary set theory. (Of course disagreement may break out about those axioms.)

Duhemian science, obviously enough, would involve methodological naturalism: no hypotheses involving God or sin, or what one knows by special revelation will enter essentially into the constitution of such science. But it is crucially important

to see methodological naturalism will be just one small part of a much more inclusive constraint: not only won't science, so conceived, employ hypotheses about God, it also won't employ any hypotheses whose cogency involves or presupposes metaphysical naturalism. Nor will it employ assumptions like those, for example, that seem to underlie much cognitive science. For example, it couldn't properly assume that mind-body dualism is false, or that human beings are material objects; these are metaphysical assumptions that divide us.

Nor could it employ the deterministic assumptions that seem to underlie much social science; these beliefs also relevantly divide us. Further, many assumptions about the proper function of human beings and their faculties would have to be proscribed: for example, Simonian assumptions about what is and isn't rational, and Piagettian claims about what a properly functioning 12-year-old will or won't believe, and the assumption widely current in scientific study of religion that serious religious belief must be a manifestation of pathology or invincible ignorance. Duhemian science would also proscribe the idea that the Theory of Common Ancestry is certain, as well as the idea, widely expressed by writers on evolution, that the randomness or chance involved in genetic variation is such as to preclude human beings' having been designed -- by God or anyone else. It would also exclude McMullin's Principle of Indifference, and perhaps much more -- perhaps some principles from psychology, from sociology, from economics, and so on. Instead of speaking of 'methodological naturalism', therefore, perhaps we should speak of 'methodological neutralism', or maybe 'metaphysical neutralism'.

Duhemian science, therefore, is maximally inclusive; we can all do it together and agree on its results. But what about those who, like Simon, for example, think it is important also to do a sort of human science which starts, not from methodological neutralism, but from metaphysical naturalism? And what about those who, like the atomists, Cartesians and Aristotelians think it is important to pursue a sort of science in which the aim is successful explanation in terms of underlying unobservable realities? And what about Christians or theists, who propose to investigate human reality employing all that they know, including what they know as Christians or theists?

So far as Duhem's claims go, there is nothing improper about any of this. Should we call this kind of activity 'science'; does it deserve that honorific term? There is no reason in Duhem for a negative answer. It is important, to be sure, to see that science of this sort isn't Duhemian science and doesn't have the claim to universal assent enjoyed by the latter; but of course that is nothing against it. According to the fuller Duhemian picture, then, we would all work together on Duhemian science; but each of the groups involved -- naturalists and theists, for example, but perhaps others as well -- could then go on to incorporate Duhemian science into a fuller context that includes the metaphysical or religious principles specific to that group. Call this broader science 'Augustinian science'. Of course the motivation for doing this will vary enormously from area to area. Physics and chemistry are overwhelmingly Duhemian (of course the same might not be true for philosophy of physics); here perhaps Augustinian science would be for the most part otiose. The same goes for biological sciences; surely much that goes on

يمكننا أن ندخل إلى هذه الحجة بالتأمل في بعض النصوص الملفتة في كتاب بيير دوهيم المعنون "هدف وبنية النظرية الفيزيائية". لقد كان دوهيم كاثوليكيا صارما كما كان كذلك عالما صارما. وقد اتهمه آبل راي (فيما ظن) بالسماح لآرائه الدينية والميتافيزيقية من حيث هو نصراني، بأن تدخل إلى فيزيقاه دخولا غير مرضي. وقد دفع دوهيم هذا الزعم بادعاء أن نصرانيته لم تدخل إلى الفيزياء دخولا غير مرضي، لأنها لم تدخل إلى فيزيقاه بأيما وجه أصلا. ثم إنه كان يرى أن الطريقة الصحيحة أو المنضبطة لممارسة التنظير الفيزيائي كانت هي في الحقيقة،

---

there could be thought of as Duhemian science. On the other hand, there are also non-Duhemian elements in the neighborhood, such as those declarations of certainty and the claims that evolutionary biology shows that human and other forms of life must be seen as a result of chance (and hence can't be thought of as designed). In the human sciences, however, vast stretches are clearly non-Duhemian; it is in these areas that Augustinian science would be most relevant and important.

So return to our central question: should the Christian scientific community observe the constraints of methodological naturalism? So far as this argument is concerned, the answer seems to be: yes, of course, in those areas where Duhemian science is possible and valuable. But nothing here suggests that the Christian scientific community should not also engage in non-Duhemian Augustinian science where that is relevant. There is nothing here to suggest that if it ain't Duhemian, it ain't science.

الطريقة التي مارسها هو نفسه وتلبس بها: وهي أن النظريات الفيزيائية يجب أن تكون منفكة تماما عن أي آراء أو التزامات دينية أو ميتافيزيقية. فلماذا كان يرى هذا الرأي؟

لسببين! أولا، لأنه كان يرى أن للدين علاقة ضئيلة بالتنظير الفيزيائي. يقول: "ألم تكن حقيقة باهرة الظهور بالنسبة لنا، كما لكل رجل سليم الحس، أن موضوع وطبيعة التنظير الفيزيقي هما أمران أجنبيان عن العقائد الدينية، وبلا أي اتصال بها؟" ولكن ثمة أمر آخر، ولعله أمر أكثر عمقا. فعلى الرغم من أن دوهم ظن أن العقائد الدينية كان لها اتصال ضئيل للغاية بالتنظير الفيزيائي، إلا أنه لم يكن، بحال من الأحوال، يرى الرأي نفسه فيما يتعلق بالنظم الاعتقادية الميتافيزيقية! ففي الحقيقة فقد كان يعتقد أن تلك النظم الاعتقادية عادة ما تدخل دخولا عميقا في النظريات الفيزيائية. فإن كثيرا من الفيزيائيين النظريين، على ما رأى، كانوا يجعلونه غاية أولى للفيزياء أن تفسر الظواهر المحسوسة. والتفسير (في حقيقة الأمر) مفهوم زلق، وظاهرة بالغة التعقيد (فلسفيا). ولكن هنا، فعلى أي حال، فإن النوع ذا الصلة من أنواع التفسير، يشتمل على تقديم تقرير للظاهرة، أو لما هو ظاهر للحس منها، في ضوء طبيعة أو كيفية الواقع المادي المختبئ فيما وراءها. فهو يمضي من ص. 10 إلى 18، في تقديم شرح بارع في بيان كيف اختلف أصحاب التصور الذري، والأرسطيون، والنيوتونيون والكارتيزيون، في تفسيراتهم وتقريراتهم لظاهرة المغناطيسية. فالذريون كانوا يقدمون التفسير المطلوب، وبطبيعة الحال، في صفة الذرات، بينما قدمه الكارتيزيون في صفة الامتدادات الخالصة، وقدمه المشاؤون في صفة الهيولا والصورة. فقال إن الفوارق بين تلك التفسيرات، ميتافيزيقية صرفة. أي أنها تتعلق بالطبيعة المطلقة أو الكيفية البنيوية المطلقة للمادة (من حيث هي مادة). ولكن بالطبع فإن كان الهدف هو تفسير الظواهر (الفيزيائية) من حيث الطبيعة أو الكيفية

المطلقة للمادة، فإنه يكون من المهم أهمية كبرى أن نتحقق من صحة هذا الأخير (الكيفية المطلقة للمادة)! أي أن ننتهي إلى الجواب الصحيح للسؤال: "ما هي الطبيعة أو الكيفية المطلقة التي عليها المادة"؟. يقول: فعلى هذا، تكون النظرية الفيزيائية تابعة للميتافيزيقا: "ولهذا، فإذا كان هدف النظريات الفيزيائية أو مرامها هو أن تفسر القوانين التجريبية، فإن الفيزياء النظرية إذن لا تكون علما مستقلا، وإنما تكون تابعة للميتافيزيقا" (ص. 10). طيب، فما هو الخلل في ذلك؟ القضية، كما يقول دوهيم، هي أنك لو فكرت في الفيزياء على هذا النحو، فإن تقديرك لقيمة النظرية الفيزيائية سيتوقف على الميتافيزيقا التي تتبناها. فإن النظرية الفيزيائية تعتمد على الميتافيزيقا اعتمادا يجعل من لا يقبل الميتافيزيقا التي تقوم عليها النظرية، مضطرا لأن يرفض النظرية نفسها تبعا. والآفة في هذا الأمر، في أن الخلافات غير المنضبطة في الميتافيزيقا، لابد وأنها ستدخل بأطنابها إلى الفيزياء، إلى حد يحول بينها وبين أن تكون نشاطا جماعيا يمكننا جميعا أن نخرط فيه بصرف النظر عن آرائنا الميتافيزيقية. يقول: "والآن، فإن جعل النظريات الفيزيائية تعتمد على الميتافيزيقا، هذا قطعا ليس طريقا لجعلها تحلى بالقبول الكوني... فإذا كانت النظريات الفيزيائية تابعة للميتافيزيقا، فإن الانقسامات الفارقة بين النظم الميتافيزيقية المختلفة سوف تمتد إلى داخل وسط الفيزياء. فالنظرية الفيزيائية التي يقال إنها مرضية وكافية عند طائفة من الطوائف التي تعتنق مذهبا ميتافيزيقيا معينا، تكون مردودة عند المتحيزين لمذهب آخر." ثم يمضي دوهيم ليقتبس كلام كريستيان هويغنز، الذي رفض، لكونه ذريا (أي في تصوره الميتافيزيقي لحقيقة المادة)، فكرة نيوتن في التأثير عن بعد: "وأما فيما يتعلق بتفسير المد والجزر الذي قدمه أستاذ نيوتن، فأنا بعيد عن أن أكون راضيا عنه، ولست كذلك أشعر بالسعادة بشأن أي من نظرياته المبنية على مبدأ التجاذب هذا، الذي يبدو في نظري

أمرا سخيفا." ويقتبس (دوهيم) كذلك كلاما لديكارت فيه تعليقات على عمل روبيرفال الذي وضع نظرية للجاذبية الكونية قبل نيوتن بفترة طويلة، (حيث قال): "لا شيء أسخف من الزعم المضاف إلى ما مر، فإن الكاتب يفترض أن خاصية معينة تقوم بكل جزء من أجزاء مادة العالم، وأنه بقوة ناشئة عن تلك الخاصية، فإن تلك الأجزاء تُحمل إلى بعضها البعض، ويجذب بعضها بعضا. وهو كذلك يدعي أن خاصية مشابهة تقوم بكل جزء من أجزاء الأرض، في علاقته بالأجزاء الأخرى، وأن تلك الخاصية لا تتعارض بأيما وجه كان مع الخاصية الأولى (سالفة الذكر). فمن أجل أن نفهم ذلك، نحتاج ليس فقط لأن ندعي أن كل جسيم مادي فيه حياة، بل وأن تلك الحياة يكسبها إياه عدد كبير من الأرواح التي لا يعارض بعضها بعضا، ولكن كذلك أن تلك الأرواح في الجسيمات المادية تتمتع بمعرفة من النوع اللائق بالرب الخالق، بحيث تعرف، بلا وسيط ناقل، ما الذي يجري على مسافات بعيدة للغاية، فتتصرف بناء على ذلك."

القضية التي يحاول دوهيم أن يقررها، هي أنه لو كانت النظرية الفيزيائية توظف فروضا ومفاهيم ميتافيزيقية غير مقبولة لدى عاملين آخرين في المجال، وتوظفها بحيث أن من لم يقبلها لم يستطع أن يقبل النظرية نفسها، فإنه إلى هذا الحد لن يكون عمله التنظيري مقبولا لدى أولئك الآخرين، وإلى ذاك الحد سيفقد مبدأ التعاون بالغ الأهمية للممارسة العلمية. ولهذا فهو يقترح مفهوما للعلم (للفيزياء على وجه الخصوص) يكون به العلم مستقلا عن الميتافيزيقا. يقول: "... لقد جردت المنظومات الميتافيزيقية من الحق في أن تشهد لصالح أو ضد أي نظرية فيزيائية... فأيا ما كان ما سبق أن قلته بشأن المنهج الذي تجري عليه الفيزياء، أو بشأن الطبيعة والمجال الذي يجب أن نميز به تلك النظريات التي تنشئها الفيزياء، فإنه لا تعصب فيه

ضد النظم الاعتقادية الميتافيزيقية أو ضد العقائد الدينية التي يتعلق بها أي أحد يقبل كلامي هذا. فسواء المؤمن أو غير المؤمن فكلاهما يمكنه أن يعمل على نسق واحد وفي مجال واحد لتطوير العلم الفيزيائي، على النحو الذي حاولت أن أعرفه عليه." (ص. 274 – 275). فهنا لدينا حجة أخرى لصالح الطبيعية المنهجية، وهي بسيطة وقريبة المأخذ في الحقيقة: فمن المهم أن نتمكن نحن جميعا، نصارى، طبيعايون، لا-واقعيون مبدعون، أو أيا ما شئت، من أن نعمل في الفيزياء والعلوم الأخرى معا وبصورة تعاونية، وإذن فلا ينبغي أن نستعمل، في علومنا، آراء أو التزامات أو فروض لا يقبلها إلا بعضنا فقط دون الباقين. أي لا ينبغي أن نستعملها على نحو يجعل ذلك الجزء من العلم (الذي استعملت فيه) بحيث لا يقبله أو لا يرتضيه من لا يشاركوننا تلك الآراء والالتزامات. ولكن يترتب على ذلك أننا لن نتمكن من أن نستعمل (على هذا النحو) أفكارا كفكرة أن العالم وما فيه من الموجودات قد صممها وخلقها الإله. فالعلم اللائق، من حيث كونه مقبولا لنا جميعا، لابد أن يستغني عن أي اعتماد أو استناد إلى الآراء الميتافيزيقية أو الدينية التي لا يعتنقها إلا فئة منا. وإذن فليس أمامنا إلا أن نعتمد الطبيعية المنهجية. لسنا مطالبين، بالطبع، بأن نعتنق الطبيعية الميتافيزيقية من أجل أن نتمكن من ممارسة العلم على التصور الدوهيمي. ولكن إن كان للعلم أن يصبح لائقا للقبول عالميا، فلن يكون من المستساغ له أن يتبنى فروضا أو التزامات ليست مما يمكن أن يتفق عليه الناس جميعا.

هذه حجة جذابة لصالح الطبيعية المنهجية. فهي عملية براغماتية، وليست مبنية على مبدأ معين: (مدارها على أنه) من المستحسن لنا أن نمارس العلم معا، ولذا فعلينا أن نعظم من إمكانية التعاون والبحث التعاوني ما أمكن، ولذا فلا ينبغي أن نفرض، في العلم، نظريات تشتمل

على عقائد ليست مشتركة بيننا جميعا. (يقول:) "عندما ننظر إلى نظرية فيزيائية ما على أنها فرض تفسيري للواقع المادي، فإننا نجعلها مستندة إلى الميتافيزيقا. وبهذا، فبعيدا عن أن نعطيها قالبا يمكن أن يرتضيه العدد الأكبر من العقول، فإننا نحصر دائرة قبولها في أولئك الذين يقبلون الفلسفة التي تقوم عليها." وإذن فعلينا أن نتبنى تصورا وضعيا للعلم (في الصورة القديمة للمذهب الوضعي)، لا التزام فيه بميتافيزيقا معينة. فالعلم إذا مورس بالصورة اللائقة، فلن يستدعي أي مزاعم ميتافيزيقية أو دينية، ولن تقوم عليه تبعات ميتافيزيقية أو دينية.

هذه البساطة، في الحقيقة، خادعة نوعا ما. فالذي يهم فعليا لصيرورة العلم مقبولا في عموم الناس، ليس غياب أي فرضيات تشير إلى الإله أو إلى الميتافيزيقا على هذا النحو، أو لأي أفكار فلسفية أخرى، وإنما الذي يهم هو غياب أي آراء أو تصورات يمكن أن تفرق بين الناس. فإن وجدت تصورات ميتافيزيقية معينة بحيث نشترك فيها جميعا، فلن يوجد، إذن، سبب، من وجهة النظر هذه، لأن تمنع تلك التصورات من الدخول إلى ساحة العلم. (ولذا فالسبب الذي دعا دوهيم للقول بأن العلم يجب أن يمتنع من الميتافيزيقا، مختلف تماما عن السبب الذي عند فان فراسن، الذي شابهت أفكاره إلى حد ما أفكار دوهيم). ففي حدود اقتراح دوهيم، فإن العلم يمكنه أن يتبنى أي دعوى أو فرضية مقبولة كونيا، حتى وإن كانت في الحقيقة جزءا من الميتافيزيقا أو من الثيولوجيا. لعله يكون من الميتافيزيقا، على تصور من تصوراتها على الأقل، أن ندعي أنه قد كان ثمة ماض في الحقيقة، أو أنه يوجد على الحقيقة أشياء مادية مستقلة عن أذهان البشر (في الأعيان). فإذا كانت هذه فروضا كلنا، أو تقريبا كلنا نرتضيها، فمن وجهة نظره، يصبح من الجائز أن ندخلها في دائرة العلم.

فما هو نوع الدعاوى التي يكاد يتفق عليها الجميع، داخل الوسط العلمي؟ هنا نرى صلة بين دوهيم وفان فراسن، وكذلك، بالطبع، اتصالا بفكرة أن العلم هو علم تجريبي. العلم مرتبط بصورة خاصة بما تفيدنا به الخبرة البشرية، وبخاصة بإفادات الحواس. وإفادات الحواس هذه ليست، في أكثرها على الأقل، مواطن للنزاع فيما بيننا. وفي هذا السياق، ثمة كلام كثير يقال ولكن لا يتسع له المقام. فسأكتفي بأن أقول ما يلي. ربما كانت المشاهدة، كما أخبرنا كثيرون، مفعمة بالتنظير بصورة ما أو بأخرى. ولكن لا يلزم من ذلك أن تكون محملة بالتنظير على ذلك النحو الذي يهدم قبوليتها العامة. فباستثناء بعض الحالات الخاصة، فلعل الجميع سيتفق، فيما أظن، على أن المؤشر (أي في آلات المشاهدة القياسية في الفيزياء ونحوها) يقف في مكان ما بين 5 و6 (وليس مثلا بين 1 و2). ثم إن النظرية التي تكون المشاهدات فيها محملة بالفروض النظرية، لا يلزم أن تكون في جميع الأحوال بحيث تفرق بيننا. زد على ذلك، أنه حتى وإن كانت تفرقنا (حيث يزعم، مثلا، الواقعي أنه يرى أثر الإلكترون في غرفة السحابة أو غرفة ويلسون، بينما يزعم الإمبريقي أنه لا يرى شيئا كهذا)، فإن الانتباه إلى الطريقة التي يمدد فيها المصطلح "يرى" تمديدا قياسيا، عادة ما يمكن أن يفض النزاع المدعى بخصوص ما يشاهده الناس (الباحثون) على الحقيقة.

وإذن فالفروض التي يمكن أن نتقرر حقيقتها بالمشاهدة، ستكون ولابد ضمن الدعاوى المسموح بدخولها إلى العلم، على هذا التصور (تصور دوهيم). ولا شك أن العلم يستعمل ما هو أكثر من ذلك، فهو يستعمل كذلك إفادات العقل، والمنطق والرياضيات، حيث، من جديد، يكون الخلاف قليلا. وثم مزيد من الدعاوى التي يتسع قبولها واستعمالها في العلم، على الرغم من كونها لا يمكن إثباتها من طريق المشاهدة، وتذهب إلى ما وراء المنطق

والرياضيات. فنحن نفترض أنه أمر معقول، أن ندعي أن النظاميات التي تصح في هذا الجوار القريب من الكون، تصح كذلك في تلك المناطق من الكون البعيدة عنا زمانيا ومكانيا. ونفترض أن المستقبل سيماثل الماضي على نحو يصعب للغاية أن نقرره، ولكنه مع هذا، واقع حقيقة (فلسنا نرى أنفسنا مضطرين لإعادة تكرار التجارب غدا، على أساس أن الأمور قد تختلف بين عشية وضحاها). ونفترض كذلك أن كثيرا من السياسات الاستقرائية من المرجح أنها ستعمل، وأن التفاسير اليسيرة البسيطة (من جديد، على نحو من الصعب للغاية أن نشرحه) يجب أن تكون لها الأفضلية على التفاسير الأعقد، وهكذا. وإذن فوفقا لتلك الفكرة الجذابة لدوهيم، فإن العلم ينبغي أن يصبح ممارسة عامة، وأن يشتمل فقط (على النحو الذي ذكرناه آنفا) على تلك الفروض التي هي مقبولة لجميع من يشتغلون بالعلم تقريبا. فمن الممكن أن يقال إن العلم الدوهيمي يكون علما عاما، ويكون مشتملا (لأكبر عدد من أصحاب العقائد المختلفة)، ومحايدا تماما فيما يتعلق بالخلافات حول تصور العالم التي تفرق بين الناس. وبالطبع فهنالك مساحات واسعة جدا من اقتصادنا المعرفي لا يكون فيها ذلك التصور مؤثرا جدا. أي إنسان سليم البصر سيرى أن المؤشر يشير إلى 7، لا علاقة لهذا بالخلافات الميتافيزيقية والثيولوجية. الأمر نفسه يصح، فيما أدعي، في قياس المسافة بين الأرض والمشترى. أي أحد سيرى أن التناقض لا يمكن أن يكون حقا، ومن جديد، فلن يهم ما إذا كنت مثبتا للصانع، أو مخالفا للواقعية الطبيعية، أو طبيعانيا، أو غير ذلك. والشيء نفسه يصح أيضا في استنباط مبرهنة كانتور من مسلمات نظرية المجموعات العادية (وإن كانت الخلافات قد تنشب بشأن تلك المسلمات نفسها).

فالعلم الدوهيمي، على ما هو واضح تماما، سيشتمل على الطبيعية المنهجية: لا فرضيات يشار فيها إلى الإله أو الخطيئة الأولى، أو ما يعرفه أحدنا من طريق الوحي الخاص، ستدخل في بناء علم كهذا. ولكنه من المهم للغاية أن نرى أن الطبيعية المنهجية ستكون مجرد جزء ضئيل من قيد أوسع بكثير على شمولية العلم. فالعلم، على هذا التصور، لن يكون فقط بحيث لا تستعمل فيه الفروض بشأن الإله، بل إنه لن تستعمل فيه أي فرضيات بحيث تكون سلامتها المنطقية معتمدة على الطبيعية الميتافيزيقية. ولن تستعمل كذلك ادعاءات، مثلا، كتلك التي تكمن تحت كثير من مادة علوم الإدراك الاستعرافي. فمثلا، لن يكون من اللائق فيها أن يفترض أن ثنائية الجسد والعقل باطلة، أو أن الكائنات البشرية أشياء مادية صرفة، فإن هذه مزاعم ميتافيزيقية تفرقنا. ثم إنه كذلك لن تستعمل فيه الفروض الحتمانية التي يبدو أنها تقبع تحت العلوم الاجتماعية. فإن تلك العقائد أيضا تفرقنا نوعا ما. زد على هذا أن كثيرا من الفروض بشأن الوظيفة اللائقة بالكائنات البشرية وقدراتها الذاتية، سيتعين استبعادها، كالفروض السيمونية، على سبيل المثال، حول ما يكون عقلانيا وما لا يكون عقلانيا، ومزاعم بياغيه حول ما يعتقده الصبي السوي ابن الاثني عشر عاما وما لا يمكن أن يعتقده، والفروض السائدة بانتشار واسع في الدراسات العلمية للأديان بما مفاده أن الاعتقاد الديني الجاد لابد وأنه حالة مرضية أو جهل لا يمكن قهره. بل إن العلم الدوهيمي سيستبعد كذلك فكرة أن نظرية الأصل المشترك للكائنات الحية أمر قطعي، وكذلك تلك الفكرة التي يصرح بها كثير من الكتاب حول الارتقاء، بأن العشواء الوجودية أو الفوضى التي كان لها دور في التنوع الجيني، قد كانت بحيث تستبعد البشر من أن يكونوا قد صمموا، من قبل الإله أو غيره. وهو كذلك سيسبتعد مبدأ اللااكتراثية لماكولين، وربما الكثير فوق ذلك. لعله سيسبتعد كذلك

كثيرا من المبادئ في علم النفس وعلم الاجتماع، وفي علم الاقتصاد، وهكذا. وإذن فعوضا عن الكلام حول الطبيعية المنهجية، فلعله يتعين أن نتكلم عن الحيادية المنهجية، أو الحيادية الميتافيزيقية.

فالعلم الدوهمي، إذن، يوسع دائرة القبول العقدي غاية السعة، فكلنا يمكننا أن نمارسه معا، وأن نتفق على نتائجه. ولكن ماذا عن أولئك الذين، كسايمون، مثلا، يظنون أنه من المهم أيضا أن نمارس نوعا من العلم الإنساني بحيث يبدأ، ليس من الحيادية المنهجية، ولكن من الطبيعية المنهجية؟ وماذا عن أولئك الذين، يعتقدون، كالذريين والكارتيزيين والأرسطيين، أنه من المهم أن نطلب نوعا من العلم حيث يكون الغرض هو تقديم تفسير موفق مداره على افتراض واقع غيبي باطن غير قابل للمشاهدة؟ وماذا عن النصارى والإثباتيين الذين يلتمسون البحث في الواقع الإنساني باستعمال جميع ما يعرفونه، بما في ذلك ما عرفوه من نصرانيتهم وإثباتيتهم؟ إلى الحد الذي تبلغه مزاعم دوهيم، فإنه ليس ثمة ما يكون غير لائق في أي من هذا! فهل نسمي هذا النوع من الأنشطة "علما"؟ وهل يستحق ذلك اللقب الشرفي إذن؟ ليس ثمة سبب عند دوهيم للإجابة عن هذا بالسلب. من المهم، ولا شك، أن نرى أن العلم من هذا النوع ليس دوهيميا، وليس له ذلك القبول الكوني الذي يتمتع به العلم الدوهيمي. ولكن بالطبع ليس في هذا ما يبطله. فبحسب الصورة الدوهيمية التامة، إذن، فكلنا سنعمل معا في دائرة العلم الدوهيمي، ولكن كل فرقة من الفرق التي اشتركت في ذلك العلم، الطبيعيون والإثباتيون، مثلا، وربما آخرون كذلك، سيكون بوسعه إذن أن يمضي ليستثمر العلم الدوهيمي في سياقات أرحب، تشتمل على مبادئ ميتافيزيقية ودينية تختص بها كل فرقة منهم. ولنسم هذا العلم الأوسع بالعلم الأوغسطي. ولا شك أن الدوافع للتلبس بذلك المسعى ستتفاوت

تفاوتا كبيرا من دائرة إلى أخرى (من دوائر البحث التجريبي). فالفيزياء والكيمياء يغلب عليهما الطابع الدوهيمي (وبالطبع فقد يصح إطلاق المعنى نفسه على فلسفة الفيزياء)، ولعل العلم الأوغسطي هنا أن يكون عديم النفع. والكلام نفسه يقال على العلم البيولوجي، فلا شك أن كثيرا مما يجري هنالك، يمكن أن ينظر إليه بوصفه علما دوهيميا. ولكن من جانب آخر، فثمة عناصر غير دوهيمية في الجوار. كتلك الإعلانات التي تصدر بشأن اليقين، والادعاءات بشأن البيولوجيا الارتقائية وكيف أنها قد بينت أن الإنسان وأنواعا أخرى من الحياة يجب أن ترى على أنها نتاج الصدفة والعشواء (وإذن فلا يجوز أن ننظر إليها على أنها قد صممت). ولكن في العلوم الإنسانية، فإن ثمة مساحات واسعة من الواضح أنها غير دوهيمية. ففي هذه المساحات، يصبح العلم الأوغسطي أكثر أهمية وظهورا. وإذن، فرجوعا إلى مسألتنا الأساسية: هل يجب على المجتمع العلمي النصراني أن يخضع لقيود الطبيعية المنهجية؟ ففي حدود مبلغ هذه الحجة، يبدو أن الجواب هو: نعم، بالطبع، في تلك المساحات حيث يكون العلم الدوهيمي ممكنا وقيما. ولكن ليس هنا ثمة ما يقترح أن المجتمع العلمي النصراني يجب ألا ينخرط في علم لادوهيمي أوغسطي، حيث يكون ذلك أجدى له. ليس هنا ثمة ما يقترح أنه إن لم يكن دوهيميا فليس علما.

قلت: انتهى النقل، الذي سقته على طوله حتى تحسنوا تصور الكلام بجملته قبل أن تسمعوا جوابنا عنه.

هذه النظرية في الفرقان بين العلم اللائق Proper Science والعلم غير اللائق أو الزائف أو نحو ذلك، وعلى تعميم بلانتينغا لها، لنا أن نسميها بنظرية العقد الاجتماعي الأكاديمي Academic Social Contract Theory! فالذي حصل هنا أن بيير دوهيم لما تنبه إلى

حقيقة تغلغل الميتافيزيقا والدعاوى الميتافيزيقية العريضة تحت التنظير الفيزيائي الغربي، منذ زمان أرسطو وطاليس، ووصولا إلى نيوتن وأينشتاين، وأدرك كذلك أن الدعاوى الميتافيزيقية الواسعة فيما يقال له إجمالا تصور العالم World-View هي مما تختلف فيه الملل والنحل والأديان، ويتنازعها الناس ما بين معتقد يزعم أن ما عنده قد ثبت بوحي من خالق السماوات والأرض، ومتفلسف يطلق قياسا تكييفيا على بعض أنواع الموجودات المحسوسة، بلا برهان من جهته لترجيح شيء على شيء البتة، وبما يمكن، مبدئيا، أن نُتأول جميع المشاهدات بما يواطئه ويوافقه، لا بما يثبته أو يرجحه على خلافه، لما أدرك دوهيم أن الحال كذلك، في الطريقة الموروثة عندهم للنظر والتأمل في الواقع الفيزيقي، قال، فيما اعتمده وزاد عليه من بعده كثير من فلاسفة ما بعد الوضعية، مع أنه هو نفسه كان من فلاسفة الوضعية في مطلع القرن العشرين، وكانت له صلة وطيدة بدائرة فيينا وإرنست ماخ، قال ما حاصله: نجيز ما اتفق الناس في الأكاديمية على أنه علم معتبر، ونمنع ما كان من شأنه أن يصد كثيرا من أهل الملل والنحل والمعتقدات الميتافيزيقية الموروثة عن الانخراط في ممارسة النظر الفيزيائي! هذا هو أحد مسلكين كليين كبيرين في هذا الباب فيما جرى عليه فلاسفة النصف الثاني من القرن العشرين فيما بعد. فريق قال: نضع معيارا للقبول والرد، يكون مداره على استكشاف ما جرى عليه تأسيس البناء النظري الحالي في الأكاديمية الغربية عبر القرون، فندرس تاريخ العلم الغربي لهذه الغاية، لأجل أن نقول للباحثين وأصحاب النظريات الجديدة: نظريتكم هذه تفيد ما اتفق الناس على عده من العلم المعتبر، أم لا تفيد بذلك. وفريق قالوا: بل نمسك عن تكلف وضع المعيار أصلا، ولا نتطرق إلى ذلك لا من قريب ولا من بعيد! وإنما ندرس تاريخ العلوم لمصلحة أن نستكشف العوامل الاجتماعية المختلفة التي شكلت

التصور العلمي الحالي للعالم وللمادة وطبائعها وقوانينها المطردة، كما يدرس أصحاب العلوم الإنسانية المجتمع البشري طمعا في محاولة فهمه وفك طلاسمه، وهو ما أنشأ لديهم بالفعل فرعا جديدا في علوم الاجتماع يقال له علم اجتماع العلم Sociology of Science.

والمتدبر في هذين المسلكين بروية وتأمل، يدرك فورا أنهما ينطلقان من منطلق واحد في الحقيقة، ألا وهو الحرص على استرضاء رؤوس الأكاديميات العلمية العصرية وعدم التلبس بموقف أو مذهب فلسفي معياري يجلب على صاحبه التسفيه والسخرية والإقصاء. وإلا فكلهم أدركوا أصل الآفة ولم يشتبه عليهم سببها فيما أدعي! كل من درس تاريخ الأكاديمية الغربية وخطوات ومراحل نمو التراث العلمي الطبيعي فيها عبر القرون، بعين الفاحص المدقق المتتبع للبواعث والدوافع الفردية والجماعية وراء ما يقال له الثورات العلمية وطريقة أصحابها في إطلاق الدعاوى العريضة بشأن المغيبات unobservables إثباتا ونفيا وتفسيرا، يدرك بيقين لا يساوره الشك، أن أمثال تلك الدعاوى لا تقوم عند أصحابها المؤسسين الأوائل إلا على التحكم بالقياس، ثم تتلقى بالقبول من الأقران في الأكاديمية لا لبرهان معتبر قام عليها أو رجحها على ما كان الناس عليه قبلها، ولكن لأسباب وبواعث اجتماعية ومصالح فردية صرفة! بل إنه يدرك كذلك أن جميع المعايير التي استقرت عليها الأكاديمية في باب الترجيح بين النظريات (على هذا المفهوم الذي حرره دوهيم للنظرية العلمية ورفضه)، إنما ترجع في منتهى الأمر إلى الذوق الأكاديمي العام، وإلى ما يتفَق له أن يرى فيه الباحثون والنظار مصلحة راجحة اجتماعيا بصورة ما أو بأخرى! وقد بينت ذلك وأطلت النفس فيه في كتاب معيار النظر، عند الكلام على تلك المعايير، وبينت أنه حتى معيار قابلية التنبؤ Predictability الذي هو أقواها عندهم وأكثرها شيوعا واستعمالا، لا يجري تطبيقه في النظريات التي يكون موضوعها غيبيا مطلق

التغييب، كمسألة نشأة الكون ونشأة الأنواع الحية، وما عليه بناء وتركيب النجوم البعيدة وما به "تولد" و"تموت" ونحو ذلك مما يدور على التأويل التحكمي المحض للمشاهدات الرصدية من مبدأ الأمر إلى منتهاه، لا يجري تطبيقه في أمثال تلك المسائل إلا بنفس التحكم في التأويل! فالقاعدة أنه ما أمكن تفسيره على الوجه (أ) الموافق لما ارتضيناه واتفقنا على اعتماده أكاديميا على أنه الحق المطابق للواقع، وجب تفسيره على ذلك، أيا ما كان موضوع ذلك الواقع محل البحث والنظر! فإذا فرض الناظر مشاهدة معينة بحيث يمكن تفسيرها على الوجه (أ)، وكان موضوع النظرية من هذا الصنف مطلق التغييب، لم يعجز عن أن يتصيد مشاهدة يفسرها على الوجه (أ) دون كبير عناء، ثم يقول: لو لم يكن التفسير كما ادعيت، لما شهدنا هذا الذي نشاهده، فيما بينا في غير موضع أن حقيقته لا تجاوز ما يسميه المناطقة بمغالطة توكيد التبعة Affirming the consequent! ثم تراه ينظر في اللياقة الرياضية لذلك التفسير، فيقارن بين البدائل المطروحة من تلك الحيثية، أو من جهة عدد الفروض الغيبية التي يضطر صاحب التفسير لادعائها، فما كانت فروضه أقل عددا، كان أحرى لديه بالترجيح! ولذا ففي كثير من الأحيان ترى تلك المعايير تهمل حيث طبقت فيما يناظرها، ويطبق غيرها حيث أهمل فيما يناظرها، ولا يرون في ذلك إشكالا البتة! فمثلا كل من درس فيزياء نيوتن في الجاذبية يدرك ويعي أن جميع المشاهدات التي استند إليها أينشتاين في الانتصار لنسبيته العامة، يمكن، مبدئيا، أن تُدخل بعض التعديلات اليسيرة على معادلات نيوتن، وعلى التصور الأنطولوجي للأجرام غير المرصودة فيها ولأفلاك الكواكب ومداراتها وكذا، بحيث تبقى النظرية النيوتونية قائمة بالمطلوب من استيعاب جميع ذلك بالتفسير والتوصيف الدقيق ولا إشكال! ومع هذا، مالت الأكاديمية الغربية كلها في طرب وحماس بالغ لقبول النسبية العامة الجديدة عند أينشتاين بمجرد

أن نشرها، من قبل حتى أن يقدم ما يزعمه دعما أو إثباتا تجريبيا لها Experimental Confirmation! تحمسوا لها من مجرد التأمل في الأبواب التي تفتحها لهم فكرة أن الزمان والمكان يشكلان معا نسيجا وجوديا قائما في الأعيان، تسبح فيه جميع الموجودات، وأنه يمكن، مبدئيا، التحكم في هيئة ذلك النسيج بتركيز الطاقة والكتلة والكثافة وكذا، بما يجيز تصور واقع عجيب مثير للعاب كتاب الخيال العلمي غاية ما تكون الإثارة! واليوم أصبح عندنا أناس ينشرون أبحاثا بالغة الدقة في التعبير الرياضي، حول أفكار وإمكانيات فيزيائية مزعومة، كانوا في زمان نيوتن لا يتوقعون إن طرحوها إلا التسفيه والسخرية! فالواقع المادي كما صورته ميتافيزيقا أينشتاين الجديدة، أكثر إغراءً وإثارة بكثير ولا شك، مما كان عليه في إطار ميتافيزيقا نيوتن التي تقول بزمان مطلق ومكان مطلق لا يتأثران بشيء ولا يؤثران في شيء! لم يجرؤ أحد في خضم تلك الحماسة البالغة على أن يستوقف أولئك الحالمين التائهين، ليقول لهم: مهلا! لا معنى أصلا لأن يكون الزمان (بهذا الإطلاق) والمكان، عنصرين وجوديين في الأعيان يتركب منهما الأثير الحامل لجميع الأجسام في الكون، فيما سمي بالزمكان، فيؤثران في تلك الأجسام ويتأثران بها كما تزعمه النظرية، تماما كما أنه لا معنى لزعم أرسطو القديم بأن الزمان والمكان ليسا إلا عنصرين وجوديين خارج الذهن يقومان بالجسم الموصوف بما يدخل تحتهما من المعاني، قيام المكون المادي القابل للفك والتركيب والتبديل، فيما سماه بالعرض أو الصورة! كلتا النظريتين تعانيان من نفس الخرف ونفس المغالطة الكبرى، ولهما من اللوازم والمقتضيات الفاسدة ما يطول تحريره، مع كونه من غير الممكن أصلا ترجيح إحداهما على الأخرى بأيما وجه كان! الفارق الوحيد يا كرام، هو أن نظرية أرسطو لم تحظ بمعشار ما قدم به أينشتاين لنظريته من تجارب ذهنية وتجريدات رياضية وتأويلات للتجارب والمشاهدات

التي كانت قد تحصلت من القرن السابق عليه، وربط تأويلي محكم دقيق بين تلك الدعوى الميتافيزيقية الساقطة عنده، وبين جميع ذلك من جانب، وما انتهت إليه قوانين الميكانيكا والكهرومغناطيسية على عصره من الجانب الآخر! ولكن هذا كله لا يرفعها على نظرية أرسطو قيد أنملة عند التدبر، من حيث أرجحية مطابقة الواقع في نفس الأمر! بل تبقى كلتا الأنطولوجيتان موضوعتان تحت الأقدام من جهة المعقولية، لنفس الأسباب، ولا فرق! ولا أرتاب في أن من أراد أن يعيد بناء الفيزياء العصرية كلها على ميتافيزيقا الأجسام والأعراض الأرسطية القديمة، فلن يكون ذلك ممتنعا في حقه لا من جهة العقل ولا الحس! ولعل هذا هو ما يلزم أهل الكلام كافة على التحقيق، إن أحسنوا فهم هذا الباب، وأدركوا أن الميتافيزيقا اللاحقة تنسخ المتقدمة عليها عند القوم Supersedes it وليس أنها تكملها أو تبني عليها! فإذا كانت ميتافزيقا الجوهر والعرض هي أصل أصول الدين عندهم، فقد زالت الأكاديمية عنها من قديم وتحولت إلى غيرها! ولولا هذا ما شعر أمثال ويليام لين كريغ بالحاجة لأن يسعى في توليد براهين حدوث جديدة لإثبات الصانع، بحيث تكون ميتافيزيقاها على ما عليه الناس اليوم في ذلك! والقصد أن إعادة بناء الفيزياء كلها من أولها إلى آخرها على تصور ميتافزيقي قديم، كتصور أرسطو المذكور، ليس بممتنع عقلا. وإنما يمتنع من جهة الضرورة الاجتماعية لا غير! أنه لن يحظ من تكلف ذلك العمل بثمرة عاجلة تكافئ مبلغ الجهد المضني الذي سيضطر لبذله من أجل إتمامه! لا سيما وقد أدرك كثير من الفلاسفة أخيرا، أنه ستبقى كلتا النظريتان وغيرهما مما يناظرهما، على قدم السوية من حيث امتناع الإثبات والبرهنة من طريق الحس! تأمل اعتراض ديكارت على نظرية من نظريات الجاذبية فيما نقله دوهيم ونقله عنه بلانتينغا في الكلام المقتبس آنفا، إذ قال ديكارت: "لا شيء أسخف من الزعم المضاف إلى ما مر،

فإن الكاتب يفترض أن خاصية معينة تقوم بكل جزء من أجزاء مادة العالم، وأنه بقوة ناشئة عن تلك الخاصية، فإن تلك الأجزاء تُحمل إلى بعضها البعض، ويجذب بعضها بعضا. وهو كذلك يدعي أن خاصية مشابهة تقوم بكل جزء من أجزاء الأرض، في علاقته بالأجزاء الأخرى، وأن تلك الخاصية لا تتعارض بأيما وجه كان مع الخاصية الأولى (سالفة الذكر). فمن أجل أن نفهم ذلك، نحتاج ليس فقط لأن ندعي أن كل جسيم مادي فيه حياة، بل وأن تلك الحياة يكسبها إياه عدد كبير من الأرواح التي لا يعارض بعضها بعضا، ولكن كذلك أن تلك الأرواح في الجسيمات المادية تتمتع بمعرفة من النوع اللائق بالرب الخالق، بحيث تعرف، بلا وسيط ناقل، ما الذي يجري على مسافات بعيدة للغاية، فتتصرف بناء على ذلك."! فلماذا لا يقال، وبنفس المنطق، بل ومن باب أولى: "لا شيء أسخف من ادعاء أينشتاين أن خاصية معينة تقوم بكل جزء من أجزاء الخلاء العدمي في العالم، وأنه بقوة ذاتية ناشئة عن الأجرام السابحة في ذلك الخلاء، فإنه ينبعج وينحني لتلك الخاصية فيه، تحت تأثير الكتلة، التي هي في نفس الوقت قوة مؤثرة على ذلك الخلاء، الذي هو في نفس الوقت خليط بين الزمان والمكان في الأعيان"؟ على الأقل الخاصية الذاتية التي انتقدها ديكارت، كانت منسوبة إلى شيء وجودي من مادة كل جسم في العالم (على إطلاقاتهم اليونانية)، خلافا لخاصية أينشتاين الانبعاجية المنسوبة ليس إلى الخلاء العدمي الممتد في جهات المكان الستة المعروفة، وإنما في مخطط رباعي الأبعاد يعامل فيه الزمان معاملة البعد الفراغي الرابع، أي أنه يقدم نظريا جهتين إضافيتين (سابعة وثامنة) للامتداد الفراغي! فالتصور الأنطولوجي الذي جاء به أينشتاين هو أن هذا الحيز الذهني المحض، فيه خاصية وجودية في الأعيان تجعله يتأثر في هيئته الهندسية بكتلة الجسم الواقع عليه.

فالذي يريد أن يتجرد للحق بعيدا عن التعصب لأينشتاين، لن يملك إلا أن يشهد بأن فكرته وقياسه أسخف بأضعاف مضاعفة من القياس الذي انتقده ديكارت في النص المنقول آنفا! وأن يعترف كذلك بأنه ليس في العقلاء من يرجو أن نتمكن في يوم من الأيام من أن نرى جرم الزمان أو المكان أو "الزمكان" تحت المجهر، فنتوصل بذلك إلى إثبات وجودهما في الأعيان إثباتا حسيا، سواء على التصور الأرسطي أو الأينشتايني أو غيرهما! ولكن واقع الأمر أن ميتافيزيقا أينشتاين أرجى لأن يأتي يوم يقول فيه أحدهم، مثلا، لقد اكتشفت أخيرا طريقا للسفر إلى الزمان الماضي! أو اكتشفت محركا يمكننا به أن نطوي الفراغ أو المكان Space فنسافر عبر ملايين السنوات الضوئية دون أن ننتقل من أماكننا فعليا! وإذن تتحقق أحلامنا الدهرية في أن نغزو أنحاء الكون، وأن نجد "كواكب" أخرى كثيرة نتخير منها واحدا ليصبح هو الأرض 2.0 Earth 2.0 أو الإصدار الثاني لهذه الأرض التي نعيش عليها، كما شاعت العبارة به في أدبيات الخيال العلمي عن تلك الفكرة! لقد كانت الفيزياء في نهايات القرن التاسع عشر قد بلغت وضعا أصبح يقال فيه: لقد تم التصور واكتملت الرؤية وانتهى مطلب الفيزيائيين في محاولة فهم جميع الظواهر ذات الصلة بحياتهم اليومية، فما الذي بقي بعد؟ كان باب الإبداع في الوسط الفيزيائي قد أوشك أن ينغلق، لا سيما في مسألة الأثير الحامل للضوء وصفاته وخصائصه وكذا، إلى أن قلب أينشتاين طاولة نيوتن ميتافيزيقيا بمسألة تمدد الزمان وانكماش الأطوال في النسبية الخاصة، وقدم نظرية جديدة "تفسر" بعض خصائص الموجات الكهرومغناطيسية تفسيرا ميكانيكيا مبتكرا، في ضوء تأويل غير أثيري لتجربة ميكلسون مورلي وغيرها، يدخل الزمان والمكان معا على أنهما عاملين فيزيائيين يؤثران ويتأثران بحركة الأجسام المتحركة فيهما، فراقت الفكرة لبعض كبار الأكاديمية في ذلك الوقت كماكس

بلانك، الذي قيل فيما بعد إنه هو الذي "اكتشفه" فعليا، فانفتح بذلك بحر جديد لكل فيزيائي شاب يريد أن يضع اسمه على صفحات التاريخ! وهو ما كان بالفعل!

لهذا لم ينهض بمثل هذا الاعتراض على النسبيتين أحد ممن لهم وزن أو قيمة في أوساط الناس، إلا بعدما استقرت النسبيتان في الأكاديمية الغربية وقامت عليهما الفيزياء العصرية قياما تاما! بعدما فترت الفورة الأولى التي صاحبت مولد وانتشار النظرية وتطبيقها الآفاق، وأصبح هنالك أناس حتى من الفيزيائيين أنفسهم، يقولون: هل من بديل؟ تلك الموجودات السوداء غير المرئية التي اضطررنا لأن نزعمها كالطاقة المظلمة والمادة المظلمة والثقب الأسود، إلى آخر ذلك من فروض وجودية مظلمة غير مرئية، هل هي فعلا أحسن حالا، أنطولوجيا، من الكوكب غير المرئي الذي فرضه النيوتونيون قديما لعلاج مشكلة مدار كوكب عطارد (التي كانت من جملة ما استند إليه أينشتاين في تقوية دعائم نظريته الجديدة في الجاذبية)؟ لسان حالهم يقول: هل أفرطنا في إعمال شفرة أوكام في النظريات الأخرى، حتى إذا جئنا بها إلى نسبية أينشتاين، وجدناها قد تلف نصلها وفقد حدته، وعاد حديدة باردة لا تقطع ولا تجرح؟؟ فقط عندما بدأ السياق الاجتماعي الأكاديمي المعاصر تظهر فيه أمثال تلك الأصوات على استحياء، وبدأ الغبار يهدأ نوعا ما، وملّ القوم من كمية التأكيدات والتعضديات التجريبية العجيبة Experimental confirmations التي لم يزل الناس يبتكرونها كل يوم للنسبية العامة، رأينا من يجترئ على أن يفحص ميتافيزيقا أينشتاين فحصا نقديا، على غرار نقد الفلاسفة لميتافيزيقا أرسطو وميتافيزيقا ديكارت وميتافيزيقا نيوتن، لا قبل ذلك! ولكن كان قد فات الأوان وسبق السيف العذل! فاليوم غاية ما يجترئ عليه أي فيزيائي يريد أن يحفظ لنفسه مقعدا في أروقة الأكاديمية العصرية، أن يقول: دعونا نقترح تعديلات على النسبيتين،

بحيث لا تهدم علينا ما أسسنا، بل تضيف إليه وتزيد! أما أن نخرج من العربة بالكلية، ثم نقف في طريقها ونقول: انتبهوا، قفوا، أنظروا في أي بركة غرقتم وكيف الخروج منها، فهذا لن يجني إلا أن تدهسه تلك العربة دهسا، أو على الأقل أن يقال للأقران: انظروا إلى ذاك المسكين كيف عطل نفسه عن الترقي الأكاديمي، وأخذ يطارد طواحين الهواء! مسكين حقا! ولكن هذا إن صح في إطار الأكاديمية الفيزيائية الرسمية، فلا يلزم أن يكون الأمر كذلك في إطار أكاديمية جديدة قد استقرت أيضا اجتماعيا، وصار يقال له أكاديمية فلسفة الفيزياء! صحيح إن كثيرا من الناشرين في تلك الأكاديمية هم في الأصل فيزيائيون، إلا أنهم في تلك الساحة الموازية لأكاديمية الفيزياء، يتمتعون بقدر من التحرر من ضغط الأقران داخل الأكاديمية الفيزيائية، يمَكّنِهم من التأمل في الأصول الميتافيزيقية الأولى لهذه النظرية أو تلك، بصرف النظر عن مبلغ الانخراط في تفصيلها والتأسيس عليها عند الفيزيائيين. ولكنهم، مع ذلك، يعيشون في مجتمع قد صار العلم الطبيعي فيه وثنا يعبد، وتقدم القرابين في مذبحه، ويبذل فيه ولأجله كل غال وثمين! وصار هو الترس الاجتماعي الأعلى والأكثر صلابة ومناعة في وجوه أهل الأديان، بعد أن كانت "الفلسفة" بهذا الإطلاق، هي المتحلية بتلك المنزلة في القرون السالفة.

من ثم كان هوى الإبقاء على الوضع القائم أكاديميا Status Quo إجمالا، أعظم بكثير في قلوب الكافة، من أي هوى أو ميل لإعادة سلطان أهل الملل الكتابية المثبتة للصانع إلى نظير ما كان عليه قبل النهضة والتنوير، أو للمساهمة فيما يمكن أن يكون طريقا ممهدا لذلك! تلك نقطة في تاريخهم كلهم يفرون منها فرارهم من الأسد كما هو معلوم! ولهذا ما زلنا نسمع من أمثال عمرو شريف وباسل الطائي التحذير الخفي والصريح في كل مناسبة، من رجوع عصر

"محاكم التفتيش" والبطش بالعلماء في القرون الوسطى، إن انفتح الباب "لتطرفنا" المزعوم لأن يسود بين المسلمين! يقولون: إياكم وأدلجة العلم، وكأنه على ما هو عليه، ليس أسيرا في سجن أيديولوجيا الطبيعية الدهرية المحضة، وإنما هو جار على منهج وطريقة يقبلها جميع أهل الأديان ولا يتنازعون عليها، بدليل أنك تجد فيه النصراني واليهودي والهندوسي والمسلم والملحد كلهم يعملون على تطويره وزيادته على قدم السواء!

ولهذا، ولنفس الضغوط الاجتماعية الغالبة والدوافع الدهرية الكامنة تحتها، قصر نقد فلاسفة ما بعد الوضعية، إذ خلعوا أنفسهم من الوضعية الغالية وانفكوا منها، على مثل هذا الذي تراه في أدبياتهم، على الرغم من عمق الفحص والتحليل والتتبع التاريخي البارع عندهم للنظريات الطبيعية وتطورها وتقلبها وأسباب ذلك، ومن جزمنا بأنهم لم يخف عليهم وجه الخلل اليوناني العميق وبيت الداء المنهجي الكلي الذي ننبه نحن عليه هنا! ولهذا تراهم إذا بالغوا في النقد، لم يجدوا إلا أن يجنحوا إلى القول بنسبية الحقيقة، على غرار إطلاقات أصحاب ما بعد الحداثة أو ما يقاربها، كما سلكه ويلارد كواين وغيره، لا إلى القول بفساد علوم كاملة مما خُصِّصت له الأكاديميات الغربية عبر القرون الأخيرة، وأنفِقت ولم تزل تنفق فيه مليارات الدولارات، واستقر في عرف الناس على أنه هو العلم الذي تُدفع به خرافات أهل الأديان، وتوصد به الأبواب في وجوه الأساطير والأوهام! فهم يعلمون أن سلطان الأكاديمية الغربية التجريبية على قلوب الكافة في هذا العصر لو انهار أو زال أو انشرخ، فلن يجد الناس إلا العودة إلى الكنيسة وإلى رؤوس الملل الموروثة، يسألونهم في أمر الغيب المطلق وما فيه! وهذا هو أعظم محذور عندهم، لما يترتب عليه من انخراط في التدين والتأليه، وانهيار لأركان العلمانية العصرية، التي بذلوا من أجل تأسيسها عبر القرون الخمس الأخيرة ما بذلوا!

فالحق، وكما أطلنا النفس في بيانه في غير موضع، أن مجرد الجواز العقلي لتأويل الواقع المحسوس بما يوافق النظرية (أ) ليس دليلا ولا يجوز أن يعد دليلا على صحة النظرية (أ)! ولكن عندما يكون القوم عادمين للدليل في مسألة مهمة كأصل الكون مثلا، إلا ما يتكلفونه من التأويل فوق التأويل، فلا عجب أن يُجعل ذلك مستندا مستساغا وأن يجري عليه العمل، ثم يقال لك إذا اعترضت: لو لم نفعل، لما أمكن أن يكون لدينا علم أصلا! ويقال لك، كما سمعناه كثيرا: هذا الذي تعترض به لو طردناه كما تطرده لأسقطنا "جميع العلوم"، إلى آخر ذلك التهويش والتهويل! فإن هذا بالضبط هو ما خافه أولئك الفلاسفة من نقاد تاريخ العلوم في النصف الثاني من القرن العشرين في أوروبا، إذ علموا أنهم لو حملوا لواء الحرب على الوضع الحالي للأكاديمية الغربية لطردوا ولاحتقروا ولقوبلوا بالتسفيه والتسخيف، ولعرضوا المجتمع العصري لزوال ترس مهم من التروس التي يتترسون بها جميعا فيه في وجه مبدأ السلطان الديني على البلاد! مع أنهم حتى بما انتهوا إليه من الحكم بوجوب ترك الأمر على ما هو عليه، أعني فلاسفة ما بعد الوضعية، لا سيما توماس كوون وبول فايرابيند، فقد اتهِموا أيضا بأنهم أعداء العلم Enemies of Science، لا لشيء إلا لأن في تحليلاتهم التاريخية لأصول الثورات العلمية وبواعثها ودلالات التفاوت الميتافيزيقي العميق فيما بينها، على مبلغ مطابقتها للواقع من عدمه، في تلك التحليلات والتقريرات عندهم ما أوجب لهم الغضب والحنق والنقمة عند كهنة المعاطف البيضاء هنالك، فما تركوهم حتى أظهروا أفكارهم على أنها أفكار أناس لا خبرة لهم بالكيفية التي تعمل بها العملية البحثية الطبيعية بصورة مباشرة! مع أن توماس كوون هذا، مثلا، حصل على درجة الدكتوراه في الفيزياء النظرية من جامعة هارفارد في 1949 الميلادية!! فلم يكن دخيلا على القوم بأيما وجه كان، ولا بالذي يتكلم في الفيزياء النظرية من

خارج دائرتها التخصصية المرضية عند أرباب الأكاديمية! ولكن ما كانوا ليقبلوا، ولا ليتساهلوا مع طرح منهجي تأصيلي يهدد أساس الأكاديمية الغربية العصرية في ذلك القصر العلمي المشيد، بأن ينقلب إلى النسبية الاتفاقية Relativity of truth، أو الفردية الاتفاقية Intersubjective Reality ولو من بعيد!

فالذي أدى بهم إلى القول بنسبية الحقيقة أو بما يقتضيها أو بما يوصل إليها بوجه ما، هو، فيما أزعم، الخوف من عاقبة بيان الحقيقة على ما هي عليه في هذا الباب! فإذا كانت النظرية العلمية Scientific Theory التي تعلقت بها جماهير الناس في المجتمع في ذلك العصر على أنها هي الحق والعلم الأعلى وطوق النجاة من سلطان الكنيسة وكذا، قد تبين بالفحص الدقيق لتاريخها وتطورها وآلاتها ومنطق الترجيح والتقديم والتأخير والقبول والرد فيها، أنها لا تقرب من أن تكون حقيقة ولا أن تكون معرفة أصلا، في جانب كبير من تصورها الأنطولوجي لحقيقة ما في الأعيان، ولا في شيء منه البتة في تلك الأبواب التي يلوذ الطبيعيون والملاحدة بالعلم الطبيعي من أجل أن يغنيهم عن الاضطرار لقبول كلام أهل الملل الكتابية فيها، فما المخرج من ذلك المأزق الفكري والاجتماعي الكبير، الذي يتعرض له الواحد من هؤلاء إن أظهر للناس أن هذا ما أدته إليه سنوات من البحث والتتبع في تاريخ العلم التجريبي؟ لا مخرج إلا أن يقال إن هذه هي حقيقة المعرفة نفسها! نوسع النظرية لتشمل كل ما نقول له معرفة، فنقول إنه كله ليس في الحقيقة إلا ما ينتهي إليه الإنسان من التوفيق والملاءمة والتنسيق بين ما يشهده في الواقع، وما يقوم بنفسه من دعاوى قياسية تحكمية بشأن العالم بكليته وما ورائه، فلا يكون من فضل لأهل هذا المذهب الميتافيزيقي أو ذاك على غيرهم من أهل المذاهب الأخرى، ولا فضل لأهل الأديان كذلك، إذ تصبح حقيقة ما هم عليه من تصور، مجرد

بناء فلسفي قديم توارثوه مبثوثا في كتبهم الدينية كما تتوارث أتباع الفلاسفة نظرياتهم وتصوراتهم بشأن الغيب وما فيه، وإنما يمتاز تصور عن تصور بسلامته من التناقض الداخلي، وبتناسق أجزائه مع بعضها البعض إجمالا! هذه هي نظرية كواين التي كان دوهيم ملهما له فيها. فقد استلهم من مسألة تكافؤ دلالة الحس والتجربة Underdetermination of Scientific Theory by observation عند دوهيم، فكرته العامة في أنه ليس من الممكن إثبات أي دعوى معرفية استقلالا، أيا ما كان موضوعها، بل من الممكن لمن أراد أن يجعل نظريته العلمية مواطئة للمشاهدة أيا ما كان ما يشاهده، أن يأتي إلى بعض الدعاوى التي يعتقدها فيدخل عليها تعديلا يسيرا فتصبح تلك المشاهدة دليلا لنظريته لا دليلا على فسادها! وهذا إجمالا ما بات يعرف في الأدبيات باسم Duhem-Quine Thesis! فما دامت المشاهدة المعينة لا يمكن أن تكون دليلا مرجحا لنظرية ما على أخرى، لأن المشاهدة المستدل بها لا يمكن الاستدلال بها بمعزل عن جملة من الفروض والدعاوى النظرية التي لا تنهض المشاهدة المباشرة أيضا بإثباتها، وإنما تقوم بدورها على فروض أنطولوجية أخرى غير محسوسة، وهكذا، فلا غرو أن تفقد المنظومة بكليتها أي مرجح حسي لمذهب على مذهب أو نظرية على أخرى، فيما طرده كواين على جميع الدعاوى المعرفية المتعلقة بالواقع الخارجي بإطلاق. وهو طرد ما كان دوهيم ليوافقه عليه في الحقيقة لأن الرجل كان بحثه في دائرة الفيزياء خاصة، ولم يكن يقبل توسعة نطاقه ليشمل العلوم التجريبية كلها كما سلكه كواين، بل وكما سلكه بلانتينغا هنا فيما سماه بالعلم الدوهيمي!

ولكن القصد أن فلاسفة ما بعض الوضعية كأنما انتهوا من بحثهم في تاريخ العلوم إلى أن يقولوا: نعم النظريات الفيزيائية لا ترجيح لأنطولوجيا إحداها في الجانب المغيب عن الحس،

على ما جاءت به الأخرى، من طريق المحسوس والمشاهد، كما مثلنا هنا عليه فيما مر معك بأنطولوجيا الزمان والمكان في النسبية العامة وعند أرسطو، وكما أطال دوهيم النفس في بيانه في كتابه المشار إليه في كلام بلانتينغا! ولكن لا تجزعوا معاشر الطبيعيين، فهكذا الشأن في كل ما يدعيه الناس من دعاوى بشأن ما في الغيب بإطلاق، حتى الذين يقولون بخالق في الغيب يزعمون أنه العلة التي تفسر كل شيء! أليس وجود الباري أمرا نظريا من مبدأ الطرح؟ فإذا كان الوضع المعرفي لبراهين إثبات الصانع في الوسط الفلسفي بحيث لا يسلم منها برهان واحد من النقد والأخذ والرد والنزاع الطويل على مقدماته، وإذا دخلها الباحث أو الدارس لم يدر من أين يبدأ ولا كيف ينتهي ولا بأي شيء يخرج، فلا فرق إذن بين أهل الملل المثبتة للصانع وبين أهل المذاهب الفلسفية الدهرية من ربوبيين واتحاديين ونفاة وغيرهم، في كون الجميع في النهاية لا يزيد أساسه في قبول الاعتقاد والتسليم به إلا التنسيق الأفقي بين آحاد العقائد والأفكار والدعاوى الأخرى لديه بشأن الواقع وما فيه، بما تأتي منظومة النظر الطبيعي التجريبي العصري لتعلو فوقه جميعا، من حيث الإفادة بمعارف عملية يستعملها الناس في حياتهم فعليا! فحتى لو انتهينا، على هذا التصور، إلى القول بنسبية المعرفة وبأن حقيقة ما في الغيب يستحيل الوصول إلى معرفتها أصلا، حتى تترجح منظومة عقدية معينة على الأخرى بشيء يصلح أن يكون دليلا موضوعيا عند أي فريق من المتنازعين في ذلك، فلا يضيرنا ذلك في شيء، ما دام العلم الطبيعي الذي به نقضي مصالحنا الدنيوية قائما بالمطلوب العملي والتطبيقي على وجه التمام، وإذن فلا مانع من أن نتخذ آخر ما توصل إليه الأكاديميون فيه، كيفما اتفق له أن يكون، أساسا ومنطلقا لبناء العقائد الغيبية وتلفيقها بما يلائمه، وتنتهي القضية.

والقصد أن مذاهب فلاسفة ما بعد الوضعية، على الرغم من أن فيها كثيرا من الاقتراب إلى الحق فيما يتعلق بطبيعة النظر التجريبي وما تقوم عليه الممارسة الفعلية للتنظير التجريبي في الفيزياء خاصة وفي العلوم التجريبية بعموم، إلا أن من قرأها دون وعي وانتباه إلى مرامي أصحابها ومقاصدهم ودوافعهم الاجتماعية والدهرية، لم يسلم من الوقوع في منزلق نسبية الحقيقة عند فلاسفة ما بعد الحداثة، كما جنحوا هم إليه، ولو بالمقتضى دون التصريح! ثم إن من قرأها من المتكلمين خاصة، ورثة الطريقة اليونانية في الابتداء بنظرية في الوجود والموجود ثم تأسيس الحكم بوجود الصانع وبما يجوز له من الصفات عليها، فإنه يكون ولابد أكثر عرضة من غيره للانقلاب إلى الإلحاد والدهرية التامة، نسأل الله السلامة! لأنهم قد هجمت الطريقة الكلامية على حجية الفطرة عندهم فقضت عليها! والرجل إذا بات يرى أنه يحتاج إلى برهان من براهين الحدوث، من أجل أن يعرف كيف يعرف أن له ربا بالغيب قد خلقه، وكيف يعرف ما يجوز له وما يمتنع في حقه من أنواع المعاني والصفات، كما سلكه المتكلمون على اختلاف طوائفهم في تأسيس الدين والاعتقاد، ثم تعرض لنقد الفلاسفة لأصول ذلك البرهان وللميتافيزيقا الأرسطية القديمة التي يقوم عليها، ثم بعد ذلك وقف على كلام كواين وكوون وفايرابند وغيرهم في نسبية الحقيقة الميتافيزيقية، وأنها لا ترجيح فيها بشيء البتة، لم يجد ما يحجزه عن الانقلاب إلى الدهرية والإلحاد، إلا أن يرحمه الله!

على أي الأحوال، فهذه الدعوى التي يقررها دوهيم في هذا الكلام الذي نقله بلانيتنغا وعممه على العلوم التجريبية بإطلاق، سميتها أو مثلتها بالعقد الاجتماعي في التنظير السياسي Social Contract، لأن منطلقها العلماني هو بحذافيره منطلق أصحاب نظرية العقد والتعاقد تلك على التحقيق! فهم يقولون إنه إذا كان واقع المجتمع البشري أن الناس فيه لابد وأن تختلف في

كل شيء، بداية من حقيقة وجود الواقع الخارجي نفسه، وكنا نريد بيئة اجتماعية تسمح لهم بالاختلاف في كل شيء كما يحلو لهم، فلا يتصور ذلك إلا بأن يتفق أفراد ذلك المجتمع على ألا يكون لدين فريق منهم أو لمذهبه الميتافيزيقي الفلسفي سلطان تشريعي على بقيتهم، لمجرد أنه هو الدين الحق أو المذهب الحق، فإن كل فريق منهم يزعم لنفسه أن دينه هو الحق وعقيدته هي المطابقة للواقع تحقيقا! والخلاف بينهم لا حسم له، جريا على قواعد لعبة الجدل السفوسطائي اليوناني الذي تشربت به المجتمعات الغربية حتى الثمالة! ليس لأهل مذهب من المذاهب، في تلك البيئة الثقافية اليونانية، فضل على أهل المذهب المخالف أيا ما كان موضوعه! فبأي حق يستجيز فريق من الناس أن يتسلط على غيره من الفرق والطوائف، بدعوى أن ما عندهم هو الحق المبين الذي لا يماري فيه إلا جاحد؟؟ مخالفه لا يسلم له بذلك! والجدال على الطريقة اليونانية بين أي فريقين من فرق أهل العقائد والنحل الغيبية، لا حسم له ولو بعد مئة عاما كاملة من الجدال والمناظرة، كما هو معروف! فما الطريق إذن، عند من كانت هذه هي صورة ومنزلة النزاع في سبب وجودهم في الأرض أصلا، أنه نزاع نظري مستساغ لا تهمة فيه لأحد، ما الطريق عند من كان هذا تصوره لتلك القضايا، لبناء مجتمع واحد يتمتع فيه جميع أفراده، على اختلاف مللهم ونحلهم وتصوراتهم الغيبية، بحكومة واحدة يرتضونها جميعا ويسلمون لها قيادهم وهم راضون؟ قالوا لابد إذن من أن يتفق هؤلاء جميعا، أو من يمثلونهم وينوبون عنهم، على شريعة أو قانون يرتضونه جميعا، ليكون حاكما عليهم جميعا، فيصبح الحق المرجوع إليه في التحاكم هو ذلك القانون الموحد، كيفما اتفق لذلك الاتفاق التعاقدي الشامل أن يكون عليه! فلما اعتُرض على هذا المبدأ، كما تجده في كتاب الجمهورية لأفلاطون، منذ بداية ظهور فكرة الديموقراطية نفسها، بأن اتفاق الكافة لا يلزم أن يكون على الحق المطابق

للواقع في نفس الأمر، وإذن فلا ضمان لأن يكون ما اتفق هؤلاء على تحكيمه هو الحق، بل غالبا لن يكون كذلك، قيل ما حاصله: لا بأس، فعلى التصور العواقبي للتحسين والتقبيح العقليين، يقال إن المفسدة التي قد تترتب على كونه مخالفا للحق في نفس الأمر، أهون وأخف من المفسدة الاجتماعية المترتبة على اضطرار الكثرة والجمهرة المخالفة للحق للخضوع لقانون يكرهونه كلهم ولا ينصاعون له! لا يتصور الاستقرار والسلم الاجتماعي والحالة هذه! فالمفسدة والمصلحة هنا، في هذه الصورة من الترجيح العواقبي، مدارهما على المبدأ الإنسانوي Humanism في القيمة العليا للنوع البشري، ذلك المذهب الذي يعتقد أصحابه من الدهرية أن الواجب الأخلاقي الأعلى على المجتمع البشري أن يعيش أكبر عدد ممكن من أفراده على ما يحبون ويشتهون لأنفسهم، لا على ما يريده لهم سلطان غيبي علوي من فوقهم! ففي شريعة الإسلام، لا يُلتفت أصلا إلى المفسدة المترتبة على اضطرار أمة كاملة من المشركين من أهل الكتاب ومن كان في حكمهم، لأن تخضع بالقوة لسلطان المسلمين وهم كارهون، ما دام عند الفاتح المسلم القوة والشوكة الضامنة لإخضاعهم لذلك السلطان، لماذا؟ لأن المفسدة المترتبة على استمرار السيادة الدينية والفكرية والهيمنة للمشركين في الأرض أعظم ولا شك بأضعاف كثيرة من مجرد كراهة الناس لأن يحكمهم قوم من غير دينهم، ومما قد يترتب على ذلك من كيدهم الخفي وتآمرهم على المسلمين وكذا!

وهذه على أي حال قضية يطول الكلام عليها، وليس هاهنا محل البسط فيها، ولكن القصد أن التعاقديين في فلسفة الأخلاق والفلسفة الاجتماعية والسياسية قالوا، بالنظر إلى كفرهم بالغيب وباليوم الآخر، إن مفسدة التفريط في أسباب بناء مجتمع واحد يكون الجميع فيه على ما يحب ويشتهي لنفسه من الاعتقاد والرأي، ومن نشر ذلك في الأرض كما يحب ومن

الانتصار له بالجدال والخصومة في أيما ملأ يريد، بلا مانع ولا رادع، أرجح وأثقل في الميزان العام من مفسدة أن نكون قد اتفقنا فيما اتفقنا عليه على دعاوى باطلة مخالفة للواقع بشأن الحسن والقبح السياسيين، وما يجب أن يكون عليه الناس من سلوك عام، وما به يستحقون العقوبة والجزاء، وما يجب أن تكون عليه علاقتهم بحكامهم وبمؤسسات الدولة .. إلخ! فإذا تأملت في أصل مذهب دوهيم في التعامل مع الشق الميتافيزيقي في العلم التجريبي، الذي أدى به إلى الانتصار للطبيعية المنهجية وللتجريبية الوضعية الصارمة، على ما صوره عليه بلانتينغا وعممه تعميما، أنها هي السياسة الحسنى والمثلى في الحكم على ما يقبل وما يرد من مساهمات أفراد المجتمع الأكاديمي في بناء المحصول العلمي في الأكاديمية الفيزيائية، وجدته، وبأدنى قدر من التأمل، هو بحذافيره أصل نظرية العقد الاجتماعي العلماني سالفة الذكر! فهو يقول ما حاصله: إذا كانت النظرية الفيزيائية وظيفتها بالأساس، أن "تفسر" الواقع المادي المحسوس، بافتراض واقع مادي آخر خفي يجري جميع ما في الحس على ما اعتدناه منه بسبب كونه (أي ذلك الواقع الخفي) على ما فرضناه عليه لا على خلاف ذلك، وإذا كنا قد علمنا أنه لا طريق للترجيح في الواقع الخفي تام الخفاء Unobservable reality الذي تفرضه النظم الميتافيزيقية والاعتقادية المختلفة في تصور الغيب وما فيه، لا من طريق الحس والمشاهدة (التي لا تكون إلا مفعمة بالتأويل فوق التأويل بالضرورة Theory-laden) ولا من غيره (إذ لا سمع عنده ولا نص ولا وحي ولا شيء من ذلك تقوم به الحجة عنده في إثبات ما في الغيب، وإن كان نصرانيا!!)، فلن يكون بالوسع إذن ولا بالإمكان تحقيق مصلحة جمع الناس على اختلاف مللهم ونحلهم للتعاون وبذل الجهد في تطوير العلم الطبيعي وتنميته، إلا بأن ننحي الميتافيزيقا جانبا ونعيد تعريف النظرية على أنها مجرد ترتيب للعلاقات بين القوانين والطبائع

المادية، وليست "تفسيرا" غيبيا لها! ثم إن كنا ولابد فاعلين، فلنتفق على أن نقتصر في الجانب الميتافيزيقي في تلك الصنعة على ما يتفق عليه جميع المساهمين في العمل البحثي والأكاديمي فيها من أمر الغيب وما فيه، على اختلاف مللهم ونحلهم، كيفما اتفق له أن يكون! ولا نبالي ولا نلتفت إن نحن فعلنا ذلك، إلى ما إذا كانت الميتافيزيقا المتفق عليها بين هؤلاء جميعا مطابقة للواقع في نفس الأمر أم لا! فإن هذا سؤال لا يمكن الوصول إلى إجابته على النحو الذي نطمح إلى أن تكون الفيزياء مفيدة لنا فيه، وخلاف الفلاسفة فيه غير قابل للحسم من مبدأ الطرح!

وهذا بالجملة كان مقدمة أو إرهاصا فكريا للطرح المعياري لمنهجية البحث التجريبي والنظر الطبيعي عند فلاسفة النصف الثاني من القرن العشرين! إذ كان في حقيقته طرحا سياسيا اجتماعيا صرفا عند التدبر! فكما ذكرنا، فقد كان الأصل فيهم أن يمتنعوا عن أن يطالبوا الفيزيائيين بالخضوع لأي نظام أو منهج معياري في ممارسة البحث الطبيعي، يأتي من قبلهم (معاشر الفلاسفة) أيا ما كان، إما لأنهم كانوا قد تمت هزيمتهم النفسية والفكرية بإزاء نجاحات الأكاديمية التجريبية في تطوير الصناعات وعلاج الأمراض وتطويع أسباب الأرض لمصالح الناس، فقالوا كما قال برتراند راسل ما معناه: "قد ولى عصر الفلسفة، وجاء عصر العلم، فإذا قال العلم كلمته، وجب على الجميع أن يستمع منصتا"، وإما لأنهم كرهوا أن يعرضوا أنفسهم للتسخيف والتسفيه وأن يكون كلامهم عونا لأهل الملل الكتابية في خرق ذلك الترس الاجتماعي العلماني الذي تكلمنا عليه آنفا! ولكن مع هذا، حاول بعضهم أن يقدم معيارا كليا يرجو منه أن يعين العاملين في الأكاديميات التجريبية (والطبيعية خاصة) على أن يحفظوا

للمنظومة التاريخية لممارستهم الأكاديمية أسباب ترقيها واستقرارها ومضيها إلى المزيد من النجاحات في شتى المجالات!

فكان المدخل - على الرغم من النقد اللاذع غالبا للأسس الميتافيزيقية التي قامت عليها النظريات القديمة التي لم يعد الناس يقولون بها اليوم - أن يقال للفيزيائيين: نحن معكم! نحن منكم! لسنا دخلاء عليكم، ولا نحن قوم منقطعون عن أغراضكم وأهدافكم، منفصلون عن منطلقاتكم البحثية، فلا نبالي إن أطلنا عليكم الطريق أو عرقلنا مسيرتكم الأكاديمية! أبدا! وإنما نريد أن نكون لكم عونا على تنقية تلك المسيرة البارعة وتصفيتها من كل دخن يدخلها ومن كل دخيل عليها، وضمان استمرارها على ما كان سببا لإقبالكم جميعا عليها من الأساس! فلن نأتيكم أبدا بما يقتضي عملكم به إن عملتم، أن تزولوا عما به صرتم أساتذة كبارا في الأكاديميات الكبرى، ولا ما به قامت بين أيديكم تلك التخصصات التي توسعتم فيها وتصدرتم بها في الخلق! حاشا وكلا! وإنما جئنا ندعوكم لما يصرف عنكم ما تكرهون من منغصات الممارسة العلمية، ويعينكم على المضي قدما فيها كما وجدتموها وتدربتم عليها، ولم يزل السابق منكم يورثها للاحق إجمالا! وهل درسنا تاريخ تلك الأكاديمية وتوسعنا في دراسته كما لم يقع لأكثركم، إلا من أجل ذلك؟ هذا هو مطلبنا فاقبلوه منا إن أحببتم، أو اتركونا وشأننا في أكاديميتنا الفلسفية حيث نعمل، لا نفرض عليكم شيئا ولا تضيقون أنتم علينا، وكل يفعل ما يريد ويشتهي!

هذه هي القيمة العليا المشتركة عند جميع من تكلفوا تقديم نظريات ومبادئ كلية معيارية في قضية الفرقان بين العلم الصحيح والعلم الزائف Demarcation principles من فلاسفة ما بعد الوضعية، على اختلاف مداخلهم إلى ذلك ومذاهبهم فيه! كلهم حاصل كلامهم أن يقال لأرباب الأكاديمية الطبيعية: امضوا كما أنتم ماضون ولا تلتفتوا، فالناس جميعا على اختلاف

مللهم ونحلهم قد وافقتكم على ما أنتم عليه وارتضته منكم، وهم الآن يردون كل ما قد يظهر في أديانهم واعتقاداتهم الموروثة مما يخالف ما اتفقتم عليه، إما بالإبطال أو بالتأويل، وإذن فمن حقكم أن تتخذوا المنع الصارم من كل طرح ميتافيزيقي يخالف ما اتفقتم عليه، أيا ما كان ذلك، معيارا حاكما قاضيا على ما يصلح أن يكون علما معتبرا وما لا يصلح!

فهل دخل دوهيم (الذي كان ملهما لكواين وغيره في طريقتهم كما مر) إلى تلك الطبيعية المنهجية الصارمة من جهة أنه كان طبيعيا دهريا لا يريد للاعتقاد بوجود الباري أن يؤثر بوجه ما في مجرى العمل التنظيري في تلك العلوم، لا سيما المباحث ذات الصلة بالخلق وأصل الخلق وابتداء العالم وهذه الأمور؟ أبدا! وإنما دخل من جهة أن اتفاق الأكاديمية على ما نتفق عليه، وانخراط الناس فيها وهم راضون عن طرحها الميتافيزيقي غير معترضين عليه، مصلحة عليا يقتضيها مطلب تطوير تلك العلوم نفسها وتنميتها لتحقيق الصالح العام للبشر! فإذا كانت تلك المصلحة العليا لن تتحقق إلا بما يقال له الطبيعية المنهجية، فبها ونعمت! فبالله هل هذا معيار رجل يريد الحق ويريد للناس أن تهتدي إليه وألا تعتقد ما يخالفه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا؟؟ أبدا! وإنما هو معيار رجل يريد السلامة بنفسه من التهمة بأنه عدو للعلم، يريد تنقيته مما يخالف عقيدته هو وتصوره هو للحق، أو أيديولوجيته هو فيما ينبغي أن يكون عليه الأمر! والمحزن في الأمر أن بلانتينغا، وهو الفيلسوف النصراني، قد أدخل على تصور دوهيم من التوسعة والتعميم ما صيره أبعد عما يجب أن يكون عليه كل باحث في الطبيعيات يريد السلامة من ميتافيزيقا الطبيعيين، على أساس أن الأكاديمية الحالية على اختلاف ملل ونحل المشتغلين فيها قد اتفقت بالفعل على أمثال تلك القضايا التي كان هو يراها باعثة للنزاع، فما دامت الأكاديمية الطبيعية قد اقتحمت تلك الأبواب كلها بالنظر التجريبي واستدلت لما

جاءت به فيها بما يعدونه أدلة، فمن حقهم البقاء عليه واعتناقه على أنه حق مطابق للواقع، ولكن من حقنا نحن كذلك أن ندخل عليه التعديل أحيانا إن وجدنا فيه ما يخالف ما هو مترجح عندنا من طريق الوحي الإلهي! فما يسميه بلانتينغا بالعلم الدوهيمي هنا، يشمل جميع أنواع النظريات التي تحصلت لدى الأكاديمية الغربية العصرية في مجالات البحث التجريبي المختلفة، الطبيعية منها والإنسانية، أيا ما كان موضوعها! وهذا ليس هو طرح دوهيم أصلا عند من قرأه كما حقه أن يقرأ. لكن على أي حال، فهذه كلها أبواب فيها نظريات ومذاهب يرى بلانتينغا في تعميمه لكلام دوهيم، أنها لا خلاف عليها بين الناس مهما اختلفت مللهم ونحلهم وعقائدهم الغيبية، وفيها كذلك نظريات ومذاهب يدخلها الخلاف. فإذا انخرط الباحث النصراني في تلك الأبواب مع أصحابها من التجريبيين بأساليبهم وعلى نفس مطالبهم ومسائلهم مستدلا بما يستدلون به فيها أيا ما كان (بما في ذلك أدلتهم في مسألة النشأة وأصل العالم وأصل الأنواع الحية)، دون أن يؤسس على شيء مما في دينه، لم يضره ذلك، ولم يلزمه شيء مما تقرر في ميتافيزيقا الطبيعيين، بل يصبح بذلك منخرطا في العلم الدوهيمي المحايد دينيا بزعمه، وأما إذا انخرط فيها مؤسسا فروضه التفسيرية على عقيدته هو، فإنه يصبح ما ينتهي إليه من ذلك "علما نصرانيا" أو "علما أوغسطيا" كما سماه، ولا يضيره ذلك ولا يضير أصحاب العلم الدوهيمي كما سماه والله المستعان.

الجزء الخامس عشر

دعونا الآن نخلل ذاك النقل الطويل من المقال في مسألة العلم الدوهيمي هذه، الذي علقنا عليه تعليقا مجملا فيما مر، بتعليقات مفصلة تتميما للفائدة، فيما سميناه إجمالا بنظرية بلانتينغا في العقد الاجتماعي التجريبي! فقد جاء بلانتينغا في هذا الباب، للأسف، بتلبيس ما كان دوهيم نفسه ليقره عليه!

قول بلانتينغا: "لقد كان دوهيم كاثوليكيا صارما كما كان كذلك عالما صارما. وقد اتهمه آبل راي (فيما ظن) بالسماح لآرائه الدينية والميتافيزيقية من حيث هو نصراني، بأن تدخل إلى فيزيقاه دخولا غير مرضي. وقد دفع دوهيم هذا الزعم بادعاء أن نصرانيته لم تدخل إلى الفيزياء دخولا غير مرضي، لأنها لم تدخل إلى فيزيقاه بأيما وجه أصلا. " قلت: فهذه هي القضية بإيجاز! دخول العقائد الدينية إلى أروقة الأكاديمية التجريبية، كفر وهرطقة في دين الطبيعيين! فإذا كان جميع المنخرطين فيها حاليا، على ما هي عليه، قد اتفقوا على المنع من ذلك، فأي حيلة يملكها الباحث الكاثوليكي عندما يُتهم بأنه قد تلبس بذلك الأمر إلا التنصل منه وإظهار أنه لم يقع في ذلك أبدا؟ بل إنه إمعانا في ذلك، يتنفل ويقول: بل أنا معكم، أرى أنه لا يجوز دخول الاعتقادات الدينية غير المتفق عليها في المسيرة الحالية للأكاديمية الطبيعية إلى نظريات الفيزيائيين بأيما وجه كان! قلت: ونحن كذلك نمنع منه، ولكن ليس لأن دخول الدين في المسائل الغيبية المحضة عند الطبيعيين يفسدها عليهم، وإنما لأن دخول الطبيعيين في البحث في تلك المسائل، يفسد على الخلق عقولهم وعلى أتباع المرسلين عقيدتهم!

والحق، والتفصيل المنهجي الذي بيناه في غير هذه المادة، أننا لا نمنع من وضع الافتراضات القياسية في الغيبيات منعا مطلقا في النظريات الفيزيائية، وإنما نفرق بين أنواع المسائل التي يدخلها الغيبيات unobservables فنقول إن المسائل التي يكون موضوع البحث فيها هو الغيب المطلق التام، كقضية النشأة الأولى للكون وللأنواع الحية على الأرض، ونشأة الجبال والقارات ونشأة النجوم والمجرات وهذه الأمور، كل ذلك نمنع من طرحه للنظر الطبيعي التجريبي من مبدأ الأمر، لأنه لا قياس لشيء من تلك الحوادث على ما في عادتنا من أنواع الحوادث، من حيث الطبيعة والكيفية. وأما ما يكون موضوع البحث فيه من الغيب المطلق الجزئي، كمسألة ظاهرة التجاذب بين الأجرام مثلا Gravitation (وهي غيب جزئي من جهة أننا نرى أثر العامل السببي، وهو الانجذاب، دون أن نرى نفس ذلك العامل بأعيننا)، فنجيز فيه من وضع الفروض الغيبية ما يكون من قبيل التشبيه الأداتي Instrumental metaphor الذي لا يعامل معاملة الدعوى المطابقة للواقع، وإنما هو تشبيه يستعمل فقط لمصلحة بناء النماذج الرياضية القياسية التي تعين على مصلحة تتبع الظاهرة محل التشبيه والنمذجة والتنبؤ بها، فيقال، مثلا، إن الجاذبية تسلك كما لو كان بين الجسمين وتر يجذب بعضه بعضا، أو كما لو أن ثمة ما يدفعهما في جهة بعضهما البعض، ومن ثم توضع معادلات لتقدير "القوة الجاذبة" على ذلك الوتر، أو يبدل الأمر فيقال إن الجاذبية إنما هي تأثير انبعاج في أثير وجودي يتأثر بالكتلة، فيزداد انحناؤه حول الجسم كلما ازدادت كتلته، ثم توضع المعادلات لتقدير ذلك والتنبؤ به، وهكذا! فلا نحن نثبت أن في الغيب وترا يجذبهما، ولا أن في الغيب أثيرا ينبعج، ولا شيء من ذلك، وإنما نقول إنه يشبه أن يكون الأمر كذلك. وإنما شبهناه به لمصلحة أداتية

براغماتية صرفة. وأما ما يكون الغيب فيه غيبا نسبيا، فالفروض التفسيرية فيه إنما توضع تأسيسا على استقراء معتبر لعادة مطردة في الأشباه والنظائر ولا إشكال.

ثم إننا نقول إن الغيب المطلق لا يوصل إلى معرفته من طريق النظر الطبيعي، ولكن لا يلزم من ذلك امتناع التحصل على المعرفة بشيء مما فيه من أيما طريق آخر على الإطلاق! هذا مذهب الدهرية الذين لا يثبتون ربا بالغيب قد أرسل رسلا وأنزل كتبا، فيها من خبر الغيب ما فيها! فنحن نمنعهم منعا منهجيا من تكلف إثبات شيء في ذلك الغيب من طريقهم، إثبات اعتقاد وتصديق، ونطالبهم بأن يعتمدوا مصدر التلقي السمعي عند المسلمين على أنه هو المصدر الوحيد الصحيح للمعرفة في ذلك الباب، لأنه فعلا لا مصدر غيره، ومن نفاه لزمه الغرق في ذلك التكافؤ الدلالي الفاحش، والانتهاء إلى حيث انتهى هؤلاء بأن يقولوا: ليس يمكن التوصل إلى المعرفة بما في الغيب من أيما طريق كان، وكل ما عند الناس في ذلك سواء! لا قطعا ليس كل ما عند الناس في ذلك سواء، وإنما أنتم من أعرضتم عن خبر الوحي واتخذتموه ظهريا، فصرتم أجهل من الدابة!

فعندما يقال للناس: ازعموا ما شئتم من الدعاوى الوجودية بشأن ذلك الغيب المطلق، سواء غيب الزمان أو المكان، لا عليكم من شيء، ولكن بشرط أن يكون ما تزعمونه مطابقا أو موافقا لما اتفقت الأكاديمية الفيزيائية على اعتقاده والقول به في ذلك، فهذا هو محض الجهل والإلحاد! بل أنتم من يقال لكم: ليسَ هذا عشك فادرُجي!! وأما أن يقال لهم كما يقوله بلانتينغا: ما كان من ذلك غير مخالف لبعض المسائل المعينة في عقيدتنا فنقبله منكم ونقركم عليه وننخرط معكم فيه، إثباتا ونفيا من طريقكم، إلا أن تقرروا ما يخالف عقيدتنا فنحن نرد ولا نقبل، فهذا كالذي قال في كتاب من كتب الهندوس المقدسة عندهم، كالفيدا، مثلا،

نؤمن بها ونستدل مع الهندوس بنصوصها، إلا ما كان منها مخالفا لما في كتبنا، فنرده ولا نقبله!! كيف تؤمن بها أصلا، تستدل بها فيما ليس لديك فيه نص من كتابك يثبته أو ينفيه، والفرض أن أساس حجيتها باطل في دينك مبدئيا؟؟ أنت لا تعتقد أن هذا الكتاب موحى به من الله تعالى، فكيف تستدل بما فيه؟؟ أصل المصدرية المعرفية للكتاب واعتباره على أنه مصدر تلقي في الدين، ساقط مدفوع عندك! ليس لأنه كتاب سماوي منسوخ أو محرف، ولكن لأنه ليس كتابا سماويا أصلا!!

وهذا بالمناسبة من طوام الداعية الهندي المدعو ذاكر نايك، فهو جار على طريقة بدعية في دعوة الهندوس، يأتي إليهم بنصوص كتبهم التي تشبه أن تكون دليلا على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وهو يحفظها برقم الفقرة ورقم الصفحة عن ظهر قلب، يبهرهم بذلك، والله المستعان، فيحتج بها عليهم، كما كان يسلكه شيخه ديدات في كتب أهل الكتاب!! وهذا قياس مع فارق عظيم! فأهل الكتاب إن واطأ ما عندهم ما عندنا في أمر النبوات أو في الغيبيات، فإنه يكون ذلك دالا عندنا على أنه من كلام الأنبياء الذي بقي بين أيديهم، فنحتج به عليهم من هذه الجهة ولهذا المعنى! وأما كتب الهندوس فليس عندنا دليل على أن فيها شيء من كلام الأنبياء أصلا، ولا حتى الشبهة، كما حكم به بعض الفقهاء في المجوس، قالوا فيهم شبهة كتاب! فبأي عقل يتخذ من كلام عندهم يبدو، بالتأويل، دالا على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم أو مواطئا لشيء مما جاء به، ثم يقال إنه دليل على أن دينكم يأمركم بالدخول في ديننا؟؟ هذا كذب وتلبيس والله المستعان!

فإذا كان كتاب الهندوس، لا عبرة به ولا نرفع به رأسا في إثبات العقائد في الغيب وما فيه، مع أنهم يثبتون صانعا ما، فكيف بقوم دهرية لا أساس لهم فيما اقتحموا به هذا الباب إلا

التوهم والتخمين والتخرص والتحكم بالرأي والقياس حيث لا مدخل للقياس أصلا؟؟ المفترض فيمن يؤمن بأن كتابه يقوم بالحق في هذا الباب، الذي لا مزيد عليه، أن لا يسمح للنظار بأن يزاحموه بآرائهم أصلا، لأنه ليس مجالا للرأي والقياس من الابتداء! ومع هذا تأمل بأي شيء علق بلانتينغا! قال:

"ولكن يترتب على ذلك (أي على نزع دوهيم للقيمة المعرفية من تحت الميتافيزيقا والاعتقادات الدينية الغيبية في نفس الأمر) أننا لن نتمكن من أن نستعمل (على هذا النحو) أفكارا كفكرة أن العالم وما فيه من الموجودات قد صممها وخلقها الإله!

قلت: نستعملها في أي شيء؟؟ أن تكون فرضا تفسيريا من جملة الفروض التي نستجيز استعمالها في استكمال البناء النظري الدهري لدى القوم، لميثولوجيا الطبيعيين العصرية؟؟ في تشييد أساطير الآخرين؟؟ الله المستعان! يقول: "فالعلم اللائق، من حيث كونه مقبولا لنا جميعا، لابد أن يستغني عن أي اعتماد أو استناد إلى الآراء الميتافيزيقية أو الدينية التي لا يعتنقها إلا فئة منا. وإذن فليس أمامنا إلا أن نعتمد الطبيعية المنهجية. لسنا مطالبين، بالطبع، بأن نعتنق الطبيعية الميتافيزيقية من أجل أن نتمكن من ممارسة العلم على التصور الدوهيمي. ولكن إن كان للعلم أن يصبح لائقا للقبول عالميا، فلن يكون من المستساغ له أن يتبنى فروضا أو التزامات ليست مما يمكن أن يتفق عليه الناس جميعا." قلت: فبالله أي فروض هي تلك التي اتفق عليها الناس عالميا، بالفعل، خلال القرنين الماضيين على الأقل، بشأن غيوب السماوات والأرض، في الزمان والمكان، إن لم تكن قائمة قياما كليا على الطبيعية الميتافيزيقية؟ أنت تعتنق الطبيعية الميتافيزيقية بالفعل يا سيد بلانتينغا، شعرت أم لم تشعر! تتبعهم في باب النشأة وأصل العالم وأصل الأنواع الحية فيه، تقبل جميع ما عندهم فيه، إلا ما كان صريحا في نفي

مخلوقية آدم عليه السلام! وتوافقهم على مبدأ الطرد الكوني المطلق لجميع السنن السببية والطبائع المحسوسة في جميع أنحاء العالم طردا مطلقا بلا حد ولا قيد، في ذلك التحكم اليوناني الذي لا يجوز لمن يؤمن بغيب عظيم فيه خالقه وباريه من فوق هذا العالم، أن يقرهم عليه!

يقول: "وإذن فعلينا أن نتبنى فلسفة تقدم تصورا وضعيا للعلم (في الصورة القديمة للمذهب الوضعي)، لا التزام فيه بميتافيزيقا معينة. فالعلم إذا مورس بالصورة اللائقة، فلن يستدعي أي مزاعم ميتافيزيقية أو دينية، ولن تقوم عليه تبعات ميتافيزيقية أو دينية." قلت كيف سلمت لهذا الفصل المدعى، والحال أن موضوعات النظر الطبيعي التي توافق دوهيم على إدخالها في العلم المتجرد من المزاعم الميتافيزيقية أو الدينية، منها قضية خلق العالم والكيفية التي جرت بها حوادث تكوينه، ومنها ما وراء الكون المحسوس في جميع الجهات، بل جميع ما يجوز عقلا أن يدخل تحت معنيي الزمان والمكان وجوديا بإطلاق؟! النظريات، على ما هي عليه من تصور أنطولوجي عند أصحابها، مستغرقة بالفعل جميع ما في الأعيان! كل قانون فيزيائي وكل نظرية فيزيائية توضع من أجل أن يكون موضوعها هو كل ما يدخل في معنى الوجود في الأعيان! فإن لم تكن تجرد الصانع الذي تثبته عن كل صفة، تختزله إلى صانع الربوبيين العدمي المحض، فليس لك أن تقبل العلم الدوهيمي على أنه علم محايد لا يصادم دينك!

العجيب أن بلانتينغا لم ينتبه إلى موقف دوهيم من الكوزمولوجيا أصلا، من حيث هي مطلب بحثي يمكن أن يشتغل به الفيزيائيون! فقد كان يراها ضربا من التخرص والتحكم

بالدعاوى الميتافيزقية التي لا يمكن حسمها من طريق المشاهدة! ويظهر لك ذلك جليا من نقده على فلسفة ديكارت في الطبيعيات. فقد كتب في ذلك فيما كتب قائلا [37]:

إن الفيزيائي الذي يريد أن يتابعهم (يعني ديكارت وأتباعه) لا يبقى قادرا بعد على استعمال طرق الفيزياء اللائقة السوية بصورة حصرية ... فهو يدخل هنا إلى دائرة الكوزمولوجيا (التي كانت في زمان كتابته لهذا الكلام معدودة من أبواب التخرص والتوهم بشأن أصل العالم وصفة الكون بكليته، فقد كتب هذا الكلام قبل نشر النسبية العامة). وإذن لا يبقى له من حق بعد لأن يصم أذنيه عما تريد الميتافيزيقا أن تخبره به بشأن الطبيعة الحقيقية للمادة. وإذن، وبالتبعية، وبسبب اعتماده على الكوزمولوجيا الميتافيزقية، فإن فيزياءه ستعاني من جميع الشكوك والاضطرابات التي يعانيها ذلك المجال (يعني النظر الميتافيزيقي). فالنظريات المبنية بطريقة الكارتيزيين والذريين، ستعاني كذلك من الزيادات والتضاعفات اللانهائية

[37] *The physicist who wishes to follow them can no longer use the methods proper to physics exclusively. ... Here he enters the domain of cosmology. He no longer has the right to shut his ears to what metaphysics wishes to tell him about the real nature of matter; hence, as a consequence, through dependence on metaphysical cosmology, his physics suffers from all the uncertainties and vicissitudes of that doctrine. Theories constructed by the method of the Cartesians and atomists are also condemned to infinite multiplication and to perpetual reformulation. They do not appear to be in any state to assure consensus and continual progress to science*

والتعديلات السرمدية. فلا يبدو أنهم على هذا، قادرون على ادعاء الإجماع الأكاديمي في شيء مما ينتهون إليه، ومن ثم ضمان التطور المتواصل للعلوم.

قلت: فالرجل كان لا يرى في العلوم الكونية أو التي تقتحم أبوابا تعتمد بالكلية على النظر الميتافيزيقي الصرف، أنها من العلم اللائق أصلا، وليس أنه أيا ما كان ما يتفق عليه الناس من ميتافيزيقا معينة تحت علم من العلوم، فهو ما يجب البناء عليه لمجرد أنهم اتفقوا عليه! ولكن بلانتينغا على ما يبدو فهم كلام دوهيم لا من كتب دوهيم نفسه ولكن ممن كتبوا عنه وأسسوا على كلامه من فلاسفة ما بعد الوضعية.

ثم يمضي بلانتينغا ليفصّل ما يراه هو لازم مذهب دوهيم عند تعميمه، فيقول: "هذه البساطة، في الحقيقة، خادعة نوعا ما. فالذي يهم فعليا لصيرورة العلم مقبولا في عموم الناس، ليس غياب أي فرضيات تشير إلى الإله أو إلى الميتافيزيقا على هذا النحو، أو لأي أفكار فلسفية أخرى، وإنما الذي يهم هو غياب أي آراء أو تصورات يمكن أن تفرق بين الناس. فإن وجدت تصورات ميتافيزيقية معينة بحيث نشترك فيها جميعا، فلن يوجد، إذن، سبب، من وجهة النظر هذه، لأن تمنع تلك التصورات من الدخول إلى ساحة العلم. (ولذا فالسبب الذي دعا دوهيم للقول بأن العلم يجب أن يمتنع من الميتافيزيقا، مختلف تماما عن السبب الذي عند فان فراسن، الذي شابهت أفكاره إلى حد ما أفكار دوهيم). ففي حدود اقتراح دوهيم، فإن العلم يمكنه أن يتبنى أي دعوى أو فرضية مقبولة كونيا، حتى وإن كانت في الحقيقة جزءا من الميتافيزيقا أو من الثيولوجيا. لعله يكون من الميتافيزيقا، على تصور من تصوراتها على الأقل، أن ندعي أنه قد كان ثمة ماض في الحقيقة، أو أنه يوجد على الحقيقة أشياء مادية

مستقلة عن أذهان البشر (في الأعيان). فإذا كانت هذه فروضا كلنا، أو تقريبا كلنا نرتضيها، فمن وجهة نظره، يصبح من الجائز أن ندخلها في دائرة العلم.

فما هو نوع الدعاوى التي يكاد يتفق عليها الجميع، داخل الوسط العلمي؟ هنا نرى صلة بين دوهيم وفان فراسن، وكذلك، بالطبع، اتصالا بفكرة أن العلم هو علم تجريبي. العلم مرتبط بصورة خاصة بما تفيدنا به الخبرة البشرية، وبخاصة بإفادات الحواس. وإفادات الحواس هذه ليست، في أكثرها على الأقل، مواطن للنزاع فيما بيننا. وفي هذا السياق، ثمة كلام كثير يقال ولكن لا يتسع له المقام. فسأكتفي بأن أقول ما يلي. ربما كانت المشاهدة، كما أخبرنا كثيرون، مفعمة بالتنظير بصورة ما أو بأخرى. ولكن لا يلزم من ذلك أن تكون محملة بالتنظير على ذلك النحو الذي يهدم قبوليتها العامة. فباستثناء بعض الحالات الخاصة، فلعل الجميع سيتفق، فيما أظن، على أن المؤشر (أي في آلات المشاهدة القياسية في الفيزياء ونحوها) يقف في مكان ما بين 5 و6 (وليس مثلا بين 1 و2). ثم إن النظرية التي تكون المشاهدات فيها محملة بالفروض النظرية، لا يلزم أن تكون في جميع الأحوال بحيث تفرق بيننا. زد على ذلك، أنه حتى وإن كانت تفرقنا (حيث يزعم، مثلا، الواقعي أنه يرى أثر الإلكترون في غرفة السحابة أو غرفة ويلسون، بينما يزعم الإمبريقي أنه لا يرى شيئا كهذا)، فإن الانتباه إلى الطريقة التي يمدد فيها المصطلح "يرى" تمديدا قياسيا، عادة ما يمكن أن يفض النزاع المدعى بخصوص ما يشاهده الناس (الباحثون) على الحقيقة."

قلت: كل هذا لا عبرة به ولا التفات، لأنه لا عبرة أصلا بمذهب معياري يؤذن فيه للباحثين في الطبيعيات باقتحام الغيوب المطلقة في المكان والزمان بنظر كوني يستوعب كل موجود تصح فيه معاني الزمان والمكان، ثم يقال: بشرط ألا يقع فيه إلا ما يتفق الجميع على أنه لا

يصادم أديانهم واعتقاداتهم الغيبية التي ورثوها من كتبهم المقدسة أو من مذاهب فلسفية معينة تربوا عليها، على اختلافها وتفاوتها!! هم لن يتفقوا على منتهى تنظيرهم وثمرة عملهم المشترك في علم يكون هذا موضوعه وتلك طريقته، إلا وقد سبق منهم جميعا، بالضرورة، الخضوع لمسلمات الطبيعية الميتافيزيقية المحضة بشأن الوجود والموجود!! لابد وأنهم سيضطرون إذن لسحق كل اعتقاد ديني خبري يقوم عندهم سلفا بشأن ما في تلك الغيوب المطلقة، لصالح الأقيسة الدهرية المطلقة التي يجري عليها النظر في تلك الأبواب، على تلك الطريقة اليونانية الفاسدة التي يقرها بلانتينغا بكل أسف ولا يحرك ساكنا في الاعتراض عليها! وإلا، فإن لم يفعلوا، فهم متلبسون بالتناقض المنهجي الذي يقال له جملة "إله الفجوات"، شعروا بذلك أم لم يشعروا! فالذي يقبل نظرية داروين، مثلا، بكلتا مسلمتيها: العشوائية الوجودية والانتخاب الطبيعي، تفسيرا غيبيا لنشأة جميع الأنواع الحية، ثم يأتي ليستثني ويقول: إلا الإنسان، فإن عندي نصا على أنه مخلوق خلقا خاصا، كما هو مذهب بلانتينغا، هذا متناقض منهجيا ولا شك، لأن الأصول والمسلمات الفلسفية والميتافيزيقية الأولى التي قام عليها التصور الدارويني ملازم فلسفيا لتعريف النوع الحي عنده، وهو تفسيره الدهري الصرف لمبدأ الاستنواع الحيوي أصلا في الطبيعة Biological Speciation! كان في البدء مادة ميتة، ثم اتفق اتفاقا أن ظهرت أول خلية حية، على كيفية لم يبحث هو فيها في نظريته، وإن كان قد بحثها غيره، ثم اتفق لتلك الخلية أن ظهرت فيها آلية كيميائية للنسخ الذاتي، فتكاثرت وانتشرت، ثم اتفق بالصدفة المحضة أن حصلت طفرات عشوائية في أفراد ذلك النوع الأول أحادي الخلية فصار نوعا جديدا متعدد الخلايا، ثم طفرات أخرى تتابعت بالصدفة المحضة، أحدثت عيوبا أهلكت كثيرا من تلك الأفراد حتى اتفق لطفرات أن تظهر فتكسب ذلك النوع نظما

حيوية جديدة من جنس ما يقال له الأعضاء Organs فأصبح نوعا جديدا قادرا على التكيف، ومن ثم انتخبته الطبيعة، وهكذا، حتى استوعبت تلك الملحمة الدهرية العشوائية العبثية المحضة جميع الأنواع الحية! فإذا جاء هذا الرجل وقال أنا أقبل تلك الأسطورة بحذافيرها وآلياتها الدهرية الصرفة، إلا في آدم، لأنه عندي قد خلقه الباري خلقا خاصا كما أجد في نصوص كتابي، فهو إذن يجمع بين نظرية تقوم على أصول فلسفية تنقض عليه السبب الذي لأجله سلم لتلك النصوص ابتداء، على أنها وحي من خالق حكيم عليم لهذا العالم ولجميع ما فيه! فهو إذن يجمع بين المذهب ونقيضه من حيث لا يشعر!

والشرط الدوهيمي على ما عرضه عليه من تعميم واسع، وعلى هذا الذي بينا، يوجب عليه كما يوجب على غيره لا أن يمنعوا من دخول الاعتقادات الدينية والغيبية المتنازع فيها إلى العمل التجريبي والتنظيري من الابتداء، وإنما أن يمتنعوا من منازعة الطبيعيين الدهرية فيما يقررونه في تلك المباحث ويعتمدونه أكاديميا فيها، بدعوى أن عندهم في أديانهم ما يخالفها أو يمنع من الخوض فيها باستعمال الآلة التجريبية ابتداء!! فإذا جعلت نظرية داروين، من حيث الأصل وموضوع الطرح، علما معتبرا عند دوهيم، كما هو فهم بلانتينغا لمذهبه، وهي كذلك عند فان فراسن وغيرهما، فالواجب على الباحث النصراني إذن أن يخضع لميتافيزيقا الدهرية الطبيعيين في هذا الباب من حيث هي مصدر للتلقي المعتبر فيه، بل هي المصدر الأصلي والأول، إلا فيما قد يرى بعضهم فيما بينه وبين نفسه أن لديه نصا يخالفه. وإذن فحقيقة الاتفاق المزعوم ليس أن يتفق أهل الأديان على ألا تخالف الفروض والنظريات الطبيعية ما يعتقده أي فريق منهم في أمر الغيب وما فيه، وإنما أن يتفقوا على تسليم ذلك الباب بكليته لمسلمات الطبيعية الميتافيزقية، ومن ثم ينتهجون فيه الطبيعية المنهجية الصرفة بلا اعتراض ولا

تحفظ على ذلك المبدأ الميتافيزيقي نفسه! فمن اعترض منهم على مسألة فرعية بعينها لسبب ديني، فله إذن أن يقول إن العلم عندي ليس أن أوافقكم في هذه المسألة وإنما يحتم علي أن أخالفكم، قبلتم مني أم لم تقبلوا!

يقول بلانتينغا: "وإذن فالفروض التي يمكن أن نتقرر حقيقتها بالمشاهدة، ستكون ولابد ضمن الدعاوى المسموح بدخولها إلى العلم، على هذا التصور (تصور دوهيم). ولا شك أن العلم يستعمل ما هو أكثر من ذلك، فهو يستعمل كذلك إفادات العقل، والمنطق والرياضيات، حيث، من جديد، يكون الخلاف قليلا. وثم مزيد من الدعاوى التي يتسع قبولها واستعمالها في العلم، على الرغم من كونها لا يمكن إثباتها من طريق المشاهدة، وتذهب إلى ما وراء المنطق والرياضيات. فنحن نفترض أنه أمر معقول، أن ندعي أن النظاميات التي تصح في هذا الجوار القريب من الكون، تصح كذلك في تلك المناطق من الكون البعيدة عنا زمانيا ومكانيا."

قلت: لو وجد الرجل في كتبه ما به يثبت سماوات صلبة تعلو فوق السماء القريبة المشاهدة كما عند المسلمين، لشعر بفساد هذه المسلمة اليونانية الدهرية في طرد قياس ما في الشاهد على جميع ما في الغيب من حيث الطبائع وكيفيات المواد وما منه تتكون جميع الموجودات! فالحق أن هذا المبدأ كان من أسس ومسلمات الطبيعية المنهجية لأنه من مسلمات الدين الطبيعي، أو الطبيعية الميتافيزيقية على التحقيق! لأن الفلاسفة تعلموا على أيدي مؤسسي الأكاديمية السكولاستية قبل عدة قرون خلت، أن تكون النظرية بحيث تفسر كل موجود من حيث هو موجود في الأعيان! فالمسلمة الأولى التي ينطلق منها وجوبا في كل نظر، أن العالم ليس فيه من أوله إلى آخره إلا نظير ما هو معتاد لنا من أنواع المواد والكيفيات والسنن الكونية

والقوانين! مع أن هذا المبدأ أصلا يمنع صاحبه من أن يثبت نهاية ما أو حدا ما ينتهي عنده العالم، إذ من أين يأتي المرجح لانتهاء الوجود (الذي لا حقيقة للعالم على مذهبهم إلا أن يكون هو حيزه المكاني أو الخلاء الذي يقع فيه كل موجود) إلى حد يفصله عن اللاوجود أو العدم؟؟ لا مرجح على الإطلاق! بل يجب أن يكون العالم لا نهائيا من كل جهة، فمهما مضى الرجل مسافرا في أي جهة منه، فلابد أن يجد اطرادا مطلقا لما اعتاده من المواد والسنن والطبائع في كل جهة يسافر فيها بلا نهاية مكانية مهما طال سفره، وإن مضى فيه إلى ما لا نهاية له من امتداد الزمان! ولكن لأن أينشتاين قد أفسد تصور القوم لما يقال له الفراغ Space فجعلهم ينسبون إليه ما يسمى بهندسة الفراغ نسبة الصفة الذاتية للموصوف بها Intrinsic Property، أصبحنا نرى من يبحث منهم في "شكل" الكون وهيئته، بالنظر إلى دلالة توزيع وانتشار النجوم والأجرام في الكون المنظور على ما إذا كانت في الفراغ (أو للدقة: في الزمكان) انحناءات وجودية كبرى ناشئة عن ذلك التوزيع والانتشار أم لا! فلما رأوا أن التوزيع متعادل تقريبا في كل اتجاه، حكموا بأن الفراغ مسطح هندسيا! أي أنه إن قدرنا أن أطلقنا فيه شعاعان للضوء على التوازي، فسيبقى الشعاعان متوازيين إلى الأبد! قالوا وإذن فإما أن يكون شكل الكون مسطحا بحافة، أو أن يكون مسطحا بلا حافة (كأن يكون اسطوانيا أو ما شاكل ذلك) وإذن فإن مضيت فيه مسافرا من الأرض لمسافة كافية، فقد ترجع إلى الأرض مرة أخرى وأنت تحسب أنك ماض في طريق مستقيم لا انحناء فيه، كما يكون عليه الشأن لمن يسافر فوق جرم الأرض الكروي فيبدأ من نقطة ثم يرجع إليها! المهم أن ميتافيزيقا أينشتاين هي التي أوقعت الخلاف بينهم في القرن العشرين وما بعده حول ما إذا كان الكون نهائيا أو لانهائيا، وإلا فبعيدا عن فروضها الهندسية، ومن قبل ظهور تلك

الطريقة في الاستدلال بشأن هيئة الكون وشكله، كان الفرض عند نيوتن أنه لا نهاية له من كل جانب، لأنه لو قدرت له حافة تحيط به، للزم أن تتسبب الجاذبية في انهيار أجرامه على بعضها البعض! فهو أيضا جرى على الفرض اليوناني الأول في الطرد المطلق لعدم المرجح، ثم لما تكلف ذلك، نظر فيما أداه إليه ذلك الطرد. وهذا هو بعينه ما أدى بالقوم إلى القول ببداية في الماضي للهيئة الحالية للكون، لأنهم لما طردوا التوسع المزعوم في الماضي طردا مطلقا، لزمهم أن يتصوروا فردية نسبانية في مبتدأ الأمر، أو شيئا يبتدأ منه في ذلك التوسع على نحو ما! ولولا هذا ما قالوا بتلك البداية، ولظل الاعتقاد جاريا على قدم العالم مادة وهيئة بلا مرجح على الإطلاق لابتدائه في الماضي! ولهذا قلنا إن القائل بهذا المذهب مضطر للقول بقدم العالم، لأنه وإن كانت هيئته قد قيل فيها ببداية ما بسبب معادلات النسبية العامة، إلا أن مادته لا بداية لها من جهة قوانين ميكانيكا الكم عند أكثر الكوزمولوجيين المعاصرين!

فقول بلانتينغا بعد: "ونفترض أن المستقبل سيماثل الماضي على نحو يصعب للغاية أن نقرره، ولكنه مع هذا، واقع حقيقة (فلسنا نرى أنفسنا مضطرين لإعادة تكرار التجارب غدا، على أساس أن الأمور قد تختلف بين عشية وضحاها). ونفترض كذلك أن كثيرا من السياسات الاستقرائية من المرجح أنها ستعمل" قلت هذا فيه نوع تلبيس! إذ ليس المقصود بالاطراد المطلق الذي يشترطه الطبيعيون على أنفسهم في جهتي الزمان من أجل أن يتمكنوا من استيعاب الوجود بكليته المكانية والزمانية في نظرياتهم، أننا نتوقع غدا أن تظل القوانين الفيزيائية ماضية كما كانت عليه بالأمس!! وإنما المقصود أننا لو قدرنا أن وجدنا قبل هذا الزمان الحاضر بألف سنة أو بألف ألف سنة، أو بمليار سنة، فلا نتوقع إلا أن نجد نفس العالم بنفس القوانين ونفس السنن السببية والطبائع كما هو، ما لم تضطرنا معادلة من معادلات الفيزيائيين للحكم

بخلاف ذلك، كما وقع مع النسبية العامة! فمما يؤسف له أن يكون فيلسوف نصراني بمنزلة هذا الرجل، ويكتب في هذا الباب كلاما كهذا، من غير أن يكون قد ضبط الفهم الصحيح لهذين المبدئين الدهريين!

قوله: "وإذن فوفقا لتلك الفكرة الجذابة لدوهيم، فإن العلم ينبغي أن يصبح ممارسة عامة، وأن يشتمل فقط (على النحو الذي ذكرناه آنفا) على تلك الفروض التي هي مقبولة لجميع من يشتغلون بالعلم تقريبا."

قلت: فهو إذن اتفاق على ألا نختلف في تلك المسلمات الدهرية التي ذكرها وفيما تفضي إليه من النظريات والتصورات، لأنها إذن تكون هي العلم المقبول المعتمد، الواجب على الجميع الخضوع له! وليس اتفاقا على ألا ندخل في عملنا التجريبي عقائدنا الدينية الخاصة التي يخالفنا فيها غيرنا من الأقران في نفس المجال! ليس اتفاقا على أن نجري في الأمر على ما هو مقرر عندنا جميعا في أدياننا من غير أن نختلف فيه مع الطبيعيين الدهرية، وإنما هو اتفاق على أن نبدل أدياننا ونغيرها جميعا تمشيا مع ما قرره الفلاسفة من شروط الطبيعية المنهجية! فهي ليست عقدا اجتماعيا نتفق فيه على ما نجده كلنا في أدياننا ولا نختلف فيه، وإنما هو عقد اجتماعي يتفق فيه على أن نقبل جميعا من الطبيعيين الدهرية أن يجري النظر في تلك الصنعة على شروطهم هم في الغيوب المطلقة في هذا العالم في كل من الزمان والمكان!

تأمل كيف يقع بلانتينغا في التناقض المنهجي من حيث لا يشعر، إذ بعدما اعتمد المبدئين سالفي الذكر الذين هما من أركان الطبيعية المنهجية والميتافيزيقية الحاكمة للأكاديمية الغربية، وجعلهما من العلم المتفق عليه بين أهل الملل، يرجع بعد ليقول: "ولكنه من المهم للغاية أن

نرى أن الطبيعية المنهجية ستكون (على طريقة دوهيم) مجرد جزء ضئيل من قيد أوسع بكثير على شمولية العلم. فالعلم، على هذا التصور، لن يكون فقط بحيث لا تستعمل فيه الفروض بشأن الإله، بل إنه لن تستعمل فيه أي فرضيات بحيث تكون سلامتها المنطقية معتمدة على الطبيعية الميتافيزيقية." قلت: يا لله العجب!

قوله: "فالعلم الدوهمي، إذن، يوسع دائرة الاتفاق العقدي غاية السعة، فكلنا يمكننا أن نمارسه معا، وأن نتفق على نتائجه. ولكن ماذا عن أولئك الذين، كسايمون، مثلا، يظنون أنه من المهم أيضا أن نمارس نوعا من العلم الإنساني بحيث يبدأ، ليس من الحيادية المنهجية، ولكن من الطبيعية المنهجية؟ وماذا عن أولئك الذين، يعتقدون، كالذريين والكارتيزيين والأرسطيين، أنه من المهم أن نطلب نوعا من العلم حيث يكون الغرض هو تقديم تفسير موفق مداره على افتراض واقع غيبي باطن غير قابل للمشاهدة؟ وماذا عن النصارى والإثباتيين الذين يلتمسون البحث في الواقع الإنساني باستعمال جميع ما يعرفونه، بما في ذلك ما عرفوه من نصرانيتهم وإثباتيتهم؟ إلى الحد الذي تبلغه مزاعم دوهيم، فإنه ليس ثمة ما يكون غير لائق في أي من هذا! فهل نسمي هذا النوع من الأنشطة "علما"؟ وهل يستحق ذلك اللقب الشرفي إذن؟ ليس ثمة سبب عند دوهيم للإجابة عن هذا بالسلب. "

قلت: بل يكون علما غير لائق عنده ولا شك، أو ليس بعلم أصلا، لأنه، وكما قررته أنت في كلامك السالف، إنما أراد أن يظهر أن نصرانيته لا تدخل إلى ممارسته العلمية ولا تؤثر عليها البتة، فذهب يقرر معيارا منهجيا حاكما للفرقان بين ما يكون علما فيزيائيا لائقا وما يكون غير لائق! وإذن فكل ما يخالف شرطه فليس بعلم لائق عنده! والواقع الذي ينبغي أن ينتبه إليه بلانتينغا أنه قد صيره بهذا التعميم معيارا متناقضا فاسدا أصلا! فلا يمكن أن تكون هذه هي

موضوعات العلم الطبيعي التي يطالب دوهيم جميع أهل الملل بقبولها والخوض فيها مع الطبيعيين الدهرية، ومع هذا يقال إنه يكون إذن علما اتفاقيا حياديا لا يجد أهل الملل فيه، على اختلافها، ما ينفرهم منه أو يصدهم عن المشاركة فيه!!

قوله: من المهم، ولا شك، أن نرى أن العلم من هذا النوع ليس دوهيميا، وليس له ذلك القبول الكوني الذي يتمتع به العلم الدوهيمي. ولكن بالطبع ليس في هذا ما يبطله. فبحسب الصورة الدوهيمية التامة، إذن، فكلنا سنعمل معا في دائرة العلم الدوهيمي، ولكن كل فرقة من الفرق التي اشتركت في ذلك العلم، الطبيعيون والإثباتيون، مثلا، وربما آخرون كذلك، سيكون بوسعه إذن أن يمضي ليستثمر العلم الدوهيمي في سياقات أرحب، تشتمل على مبادئ ميتافيزيقية ودينية تختص بها كل فرقة منهم. ولنسم هذا العلم الأوسع بالعلم الأوغسطي."

قلت وهنا يظهر التخليط العميق عند الرجل في هذا الباب! فهو يتكلم وكأن الأصول الميتافيزيقية الأولى المعتمدة فعليا في الأكاديمية الغربية في العلوم الطبيعية تتفق تمام الاتفاق مع الأصول العقلية الأولى التي يقتضيها مجرد إثبات رب عليم حكيم بالغيب له تصرف في العالم ومشيئة وإرادة وتدبير دائم للخلق! وقد بينا بما لا مزيد عليه فيما نرجو، أن الأمر ليس كذلك على التحقيق! فمن أراد أن يمارس العلم الطبيعي ممارسة صحيحة تتناسق منطقيا مع اعتقاده في وجود الرب الذي نؤمن به ويفترض في أهل الكتاب أنهم يؤمنون به كذلك، أن نطرد الطبيعيين من كثير من الأبواب والمسائل التي اقتحموها بآلتهم النظرية بغير وجه حق، لا أن ننضم نحن إليهم وننخرط معهم في جميع ما خاضوا فيه، ثم ننفصل عنهم فقط عندما يتلبسون بمخالفات جزئية فرعية لما نعتقده في تلك الأبواب!!

يقول: ولا شك أن الدوافع للتلبس بذلك المسعى ستتفاوت تفاوتا كبيرا من دائرة إلى أخرى (من دوائر البحث التجريبي). فالفيزياء والكيمياء يغلب عليهما الطابع الدوهيمي (وبالطبع فقد يصح إطلاق المعنى نفسه على فلسفة الفيزياء)، ولعل العلم الأوغسطي هنا أن يكون عديم النفع. والكلام نفسه يقال على العلم البيولوجي، فلا شك أن كثيرا مما يجري هنالك، يمكن أن ينظر إليه بوصفه علما دوهيميا. ولكن من جانب آخر، فثمة عناصر غير دوهيمية في الجوار. كتلك الإعلانات التي تصدر بشأن اليقين، والادعاءات بشأن البيولوجيا الارتقائية وكيف أنها قد بينت أن الإنسان وأنواعا أخرى من الحياة يجب أن ترى على أنها نتاج الصدفة والعشواء (وإذن فلا يجوز أن ننظر إليها على أنها قد صممت). ولكن في العلوم الإنسانية، فإن ثمة مساحات واسعة من الواضح أنها غير دوهيمية. ففي هذه المساحات، يصبح العلم الأوغسطي أكثر أهمية وظهورا. وإذن، فرجوعا إلى مسألتنا الأساسية: هل يجب على المجتمع العلمي النصراني أن يخضع لقيود الطبيعية المنهجية؟ ففي حدود مبلغ هذه الحجة، يبدو أن الجواب هو: نعم، بالطبع، في تلك المساحات حيث يكون العلم الدوهيمي ممكنا وقيما. ولكن ليس هنا ثمة ما يقترح أن المجتمع العلمي النصراني يجب ألا ينخرط في علم لادوهيمي أوغسطي، حيث يكون ذلك أجدى له. ليس هنا ثمة ما يقترح أنه إن لم يكن دوهيميا فليس علما."

قلت: قد حكمت على نفسك بقبول الطبيعية المنهجية حيث لا ينبغي للمجتمع النصراني أن يقبلها من مبدأ الأمر، من حيث تحسب أنك تجريها في مجراها الصحيح! وقد بينا مرارا أن الطبيعية المنهجية إن كان المقصود منها عدم الاستناد إلى أي دعوى غيبية في التفسير بحيث تكون غير قابلة للتحقق بالحس ولو مبدئيا، إنما تصح وتقبل فقط في حالة واحدة، عندما يكون موضوع التفسير إنما هو الاستقراء في المحسوسات المعتادة والتنظير التفسيري الاستقرائي

المباشر، كأن يراد تفسير ظاهرة معينة ببيان أن وقوعها إذا وقعت يرجع إلى نظامية سببية مطردة، كلا طرفيها، السبب والمسبب، من جنس مألوفة نظائره معتادة أشباهه، فيمكن استقراء العلاقة السببية المطردة فيه على الوجه الصحيح. فإن نفس المطلب التفسيري مداره على استكشاف الأسباب التي يمكن مبدئيا للباحث أن يستعملها فيما بعد وأن يكررها لمصلحة تطبيقية معينة تراد من بحث كهذا. وهو ما بمثله تطورت جميع صور التكنولوجيا العصرية النافعة عبر القرون. أما أن يكون موضوع النظرية هو تفسير وجود ما يقال له الجاذبية بإطلاق في جميع العالم كما يزعمه القوم، ثم يقال لا نرضى من التفسيرات الغيبية إلا ما كان طبيعيا جاريا على السنن الطبيعية المعتادة أو ما يتفرع عنها، فهذا شرط فاسد باطل لا نقبله، ولو قبلناه لأدخلنا الفلسفة الطبيعية الدهرية إلى عقر دارنا ولفتحنا لأصحابها الباب ليفسدوا علينا ديننا واعتقادنا وعقولنا، كما أفسدوا على النصارى الغربيين دينهم من قبل من حيث لا يشعرون، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!

الجزء السادس عشر

يختتم بلانتينغا المقال بما ترجم له بالعنوان الفرعي "موقفات للعلم؟" Science Stoppers? فيقول [38]:

ثمة سببا آخر تبقى للقول بالطبيعية المنهجية، وهو البساطة نفسها التي نجدها في بداهتنا. فإن الإله قد خلق جميع عالمنا هذا، الجميل والقبيح معا (إذا حملنا اللفظتين على جذرهما اللغوي). فمن الأمور التي نريد أن نفعلها، من حيث نحن مخلوقون له، أن نفهم العالم الذي أحدثه، وأن نرى (في حدود قدرتنا) كيف صُنع، ما بنيته وما هيكله، وكيف يعمل. ليس هذا، ولا شك، الشيء الوحيد الذي يتعين على "أبناء الإله" أن يفعلوه بالعالم، بل يجب أيضا أن نقدره

[38] *There is still another reason for methodological naturalism; this one too is common sense simplicity itself. God has created this whole wonderful and awful (both taken in their etymological senses) world of ours. One of the things we want to do as his creatures is to understand the world he has made, see (to the extent that we can) how it is made, what its structure is, how it works. This is not, of course, the only thing God's children must do with the world; we must also appreciate it, care for it, love it, thank the Lord for it, and see his hand in it. But understanding it is valuable, and so is understanding it in a theoretical way. One way of understanding something is to see how it is made, how it is put together, and how it works. That is what goes on in natural science. The object of this science is nature; for Christians, its aim (one of its aims) is to see what the structure of this world is and how it works; this is a way of appreciating God's creation, and part of what it is to exercise the image of God in which we have been created.*

ونعتني به، ونحبه، وأن نشكر الرب عليه، وأن نستشعر يده فيه. ولكن فهمه أمر مهم، وكذلك فهمه بصورة نظرية. ومن طرق فهم الشيء، أن نرى كيف صنع، كيف جمع بعضه إلى بعض، وكيف يعمل. وهذا ما يجري في العلم الطبيعي. فموضوع ذلك العلم هو الطبيعة. وعند النصارى، فهدفه (أو من أهدافه) أن نرى ما هيكل هذا العالم، وكيف يعمل، هذا طريق لتقدير صنعة الإله، وجزء مما تقتضيه ممارسة الاتصاف بصورة الإله التي خُلقنا عليها.

قلت: هنا يحاول بلانتينغا على ما يبدو، أن يقدم جوابا للتهمة المشهورة التي يرفعها رؤوس الطبيعيين الملاحدة، كريتشارد دوكينز وغيره، ضد أهل الملل الكتابية بقولهم إنهم أصحاب طريقة توقف العلم وتقتله وتقضي عليه في مهده، إذ يقولون كلما طرأ السؤال: لماذا كان كذا (من وجودات العالم أو نظمه المطردة أو العالم بكليته) على نحو ما هو عليه لا على خلافه؟ يقولون في الجواب: لأن الإله جعله كذلك! لأنه اختار ذلك ورجحه بمشيئته، فكان كما شاء. فيقول الدهرية الطبيعيون: لكن هذا الجواب يقضي على مطلب العلم الطبيعي من مبدأ الطرح! فلو أنّا اكتفينا به لما تكلفنا شيئا من مطالب العلم الطبيعي على الإطلاق، ولما فهمنا شيئا ولا عرفنا شيئا ولا تنبأنا بشيء! فهذا قولهم: "موقفات العلم" Science Stoppers، أي المواقف الدينية التي توقف العلم والمسيرة العلمية من قبل أن تبدأ. ولهذا يعنون بلانتينغا لهذا الموضع بعلامة الاستفهام، وكأنما يقول: موقفات للعلم؟ أي موقفات؟ ليس عندنا موقفات لشيء أصلا!! بل كل ما اتفقتم على جعله من مطالب العلم وموضوعاته فهو عندنا نحن النصارى علم ومطلوب وله أسئلته المشروعة عندنا ولا إشكال! ليس عندنا ما "يوقف" العلم كما تزعمون، وإنما عندنا ما يزيده وينميه! فما هو "العلم" هذا؟ كل ما اتفقوا على جعله هو "العلم" Science من أصل موضوعه. فهذا هو جوابه هنا بإيجاز. ولكنه جواب تلبيسي غالط، مداره على إقرار

الأكاديمية الغربية على أصلهم اليوناني في طبيعة النظرية الفيزيقية Physical Theory وحقيقة موضوعها والغرض الكشفي التام من تكلف الإتيان بها عندهم!

فهو يسلم للطبيعيين الدهرية، على الأقل ولو بالاقتضاء دون التصريح، بل على خلاف التصريح، بزعمهم أنه لا يمكن لحادث من حوادث العالم، أيا ما كان، إلا أن يتعلل بطبائع المواد فيه، بوجه ما أو بآخر! لا يمكن أن يقع فيه شيء إلا ويكون له سبب طبيعي بالضرورة Natural Cause، أو جملة أسباب طبيعية، وإذن فمن أبى إلا إن يقول إن الإله الذي يعبده هو الذي جعل الأمر كذلك بمشيئته، فهو مضطر مع هذا لأن يقول: إنما جعله كذلك بصورة غير مباشرة، أي بطريق الطبائع Nature! ولا يقع شيء في العالم، أيا ما كان (خلا المعجزات التي تكون على هذا التصور الربوبي "تدخلا إلهيا")، إلا كان هو من جعله كذلك بصورة غير مباشرة! و"غير مباشرة" هذه، أي مبناها على التولد الطبيعي المعتاد، على ما استغرقته النظرية في تصور الآلة النيوتوني Mechanistic Metaphor للنظام الطبيعي استغراقا تاما! فإن لم يفعل، أو لم يسمح للباحثين في الطبائع بأن يتكلفوا طريقا إلى ذلك، فهو إذن متهم بالجهل وبالانتصار للجهل الذي يوقف المطلب العلمي ويحجز العقلاء عنه حجزا! فأهم ما يجب العناية ببيانه هنا هو أن يقال: ما هو هذا المطلب العلمي الذي نلام نحن بكوننا نوقفه ونحجز عنه، إذ نقول إن الإله الذي نؤمن به هو الذي جعل الأمر كذلك؟ ما حده وما تعريفه ومن أين لكم بتقرير ذلك، وفرضه على رؤوس الخلائق فرضا كما تفعلون؟؟ أمن وحي نزل إليكم من رب العالمين تتكلمون، أم من شيء وجدتموه في عقولكم ولا تبلغه عقول الناس ممن سواكم؟؟ بأي سلطان أوجبتم دخول كل موضوع اقتحمتموه بآلة البحث التجريبي، في إطار العلم التجريبي المعتبر، ومن ثم أنكرتم على كل من يتكلم بما يوحي، ولو من بعيد، بوجوب تفويض

العلم فيه لله تعالى، بأنه "يوقف العلم" ويقضي على المعرفة ويروج للجهل، إلى غير ذلك مما تدندنون به ليل نهار؟؟ هذه هي القضية الأولى التي يقتلها هذا الجواب من مبدئها قتلا، والله المستعان! العلم هو ما اتفقوا على جعله علما، من أصل موضوعه، أيا ما كان ذلك الموضوع، والعيب كل العيب والشين كل الشين على من قال لهم: ليس لكم في هذه المسألة أو تلك إلا أن تسلموا بأن الإله جعل الأمر كذلك وحسب، وأن نتلقوا من السمع ما جاء به فيها، إن كان من طريق لتحصيل أي معرفة فيها البتة!

فصاحب هذا الجواب يقر الأكاديمية الطبيعية، من حيث لا يشعر، على مسلمات الطريقة اليونانية الموروثة في توليد أنواع الأسئلة التي يُنتدب الباحث في الطبائعيات لتكلف الإجابة عنها! وهي نفس تلك المسلمات التي تقوم عليها الطبيعية المنهجية الدهرية التي يفترض أنه يريد نقضها وإبطالها في هذا المقال! وهو نفس الجواب الذي يفضي لا محالة إلى تسويغ تكلف التنظير فيما سماه القوم بإله الفجوات God of the Gaps، كنظرية التصميم الذكي عند دمبكسي وأصحابه مثلا، التي وضعها بلانتينغا نصب عينيه وهو يكتب هذا المقال كما مر! فنحن نقول: هي فجوات في أي شيء؟ في علم صحيح معتبر يجوز، مبدئيا، لمن يؤمن بالغيب وبالرب في الغيب، أن ينخرط معهم في استخراج جواب له يلائم عقيدته، ويتسق ويتلاءم، في نفس الوقت، مع محصول ما استقر عندهم واعتمد من دعاوى "علمية" فيه؟ الجواب لا! قطعا ليست كذلك! وإنما هي على التحقيق، وكما أطلنا النفس في بيانه هنا وفي غير موضع: فجوات في ميثولوجيا دهرية طبيعية صرفة، ليست من العلم في قبيل ولا دبير، مهما أغرق أصحابها في استعمال الطريقة العلمية Scientific Method في استظهار ما يزعمونه أدلة على ما يقولون! وأعني بالعلم هنا: كل اعتقاد يطابق الواقع بسبب صحيح (دليل)، وليس ذلك

الاسم الصناعي الأجوف الذي أحدثه ويليام هيويل في القرن التاسع عشر لأصحاب صنعة البحث في الطبائعيات إجمالا! فالأسطورة الداروينية الكبرى، كما سماها بلانتينغا نفسه في هذا المقال كما مر، ليس موضوعها، من مبدأ الطرح، مما يصح للطبائعيين أن يطرحوه للبحث والنظر من طريقهم، ولا مما يصح إعمال الآلة العلمية Scientific Method في تطلب الجواب عنه أصلا! ما نبصره ونشهده ونتتبعه في الحشوة الحية Bioshpere من تغيرات وتحولات، إنما هو تغير في إطار الأنواع القائمة سلفا، المنفصلة عن بعضها البعض بفواصل نوعية واضحة لا تداخل بينها بحال! هو من جنس الحوادث التي تجري على مفردات ذلك النظام وعناصره النوعية، في إطار الطبائع المركبة فيه سلفا! هو مركب مصنوع مقدر محفوظ، بحيث تجري فيه الحوادث والتغيرات على هذا النحو الذي نشهده وبه جرت عادتنا، لا على خلاف ذلك! فجواب السؤال لماذا كان النظام بكليته على هذا النحو، لا على خلافه، ليس من موضوع العلم الطبيعي، ولا يجوز، مبدئيا، أن يجعل كذلك! موضوع العلم التجريبي يجب أن يكون مقصورا على مجرى النظام على ما هو عليه، والتغيرات التي تدلنا العادة على جريانها فيه، لا أن يتناول ما به نشأ النظام نفسه بكليته بعد أن لم يكن في الأرض شيء منه!! كل وصول إلى تصور نشأة النظام بالقياس على سنة من السنن المركبة فيه هو نفسه حاليا، هذا محض مغالطة لا مساغ لها في العقل أصلا، ولا يتولد عنه إلا الخرافة!! فنشأة تلك الأنواع والتنوع الواسع المشاهد بينها إنما هي مما يقال فيه: الله تعلى قد اقتضت حكمته ومشيئته أن يجعل الأنواع الحية على ما نراها عليه من التنوع والتميز عن بعضها البعض، كل في بيئته ومحله، وأن يجري في إطار كل نوع منها من التغيرات والتحولات والتكيفات ما نرى منه ما نرى، وما دلتنا عليه العادة، وكل ذلك لحكم لديه لا يحصيها ولا يحيط بعلمها أحد سواه! فإن لم يأتنا النص من

السمع في تفصيل ذلك، فنحن نفوض العلم به جملة له سبحانه وجوبا وضرورة! نقول الله أعلم ونقف على ذلك، ولا يعيبنا ذلك ولا نتهم لأجله باعتماد الجهل أو الرضا به كما يتهمنا دوكينز وأمثاله! بل هذا هو العلم على التحقيق! العلم كمال العلم أن نتعلم متى تقول "لا أدري" ولا طريق لي لأن أدري! وأما الجهل، فغاية الجهل وتمامه، أن يتكلف الفيلسوف نظرية يخترعها بهواه ورأيه، بمحض التحكم بالقياس والتشبيه، في قضية غيبية مطلقة التغييب، يجزم العقلاء بأن مجرد مشابهتها للحوادث الجارية في نظام العالم الآن في الكيفية والحقيقة ممتنعة عقلا بالضرورة، ثم يقول هذا هو العلم الذي ترتضون أنتم بالجهل إن لم تقبلوه منا! يتكلف بناء النظرية لأجل أن يوهم نفسه والسفهاء ممن يتبعونه، بأنه قد كشف له من علم المغيبات ما لم تأت به الأنبياء والرسل، ولا يؤتى به إلا من طريقهم أصلا!! هذا من أحط وأفسد صور الجهل المركب على الإطلاق! رجل صاحب جهل مركب عميق الغور، يستطيل على العقلاء الذين تعلموا الحكمة من رب العالمين ومن رسله صلوات الله وسلامه عليهم، بأنهم جهال حمقى، يطالبون الناس بالرضا بالجهل إذ يردون عليه خرافته! فعندما يُرد على مثل هذا بأن يقال له: نعم ما عندك علم حقا، لا نخالفك في ذلك، معاذ الله، وإنما نطالبك بأن تأذن لنا بأن ننشر بين يديك نظرياتنا المشابهة لنظرياتك، المجانسة لها، الجارية على نفس طريقتها، في نفس الأمر، فهذا هو الخذلان بعينه والهوان بتمامه والهزيمة بحذافيرها!

قال أحدهم في كلام أرسله إلي بعض المتابعين على صفحة القناة: "العيب الوحيد في هذه النّظرة (يعني اعتقادنا بأن الأنواع الحية خلقت على ما هي عليه، لأن الرب شاء أن يجعلها كذلك لحكم وغايات لديه) أنّها تُنهي النّقاش عند هذا الحد، فمجرّد إعلان أنّ "الرّب هو الّذي فعلها" لا يقدّم تفسيرًا فعليًّا لأيّ شيء، إلّا إذا كان في استطاعتنا أيضًا تحديد "كيف" و"لماذا"

فعلها" قلت: وهذا هو الميراث الدهري اليوناني في وظيفة النظرية الطبيعية والغاية المعرفية من تكلفها! حقيقة التفسير الذي يراد من النظرية أن تقوم به، إنما هو ما يقام مقام ما عند أهل الملل الكتابية كافة، ويغني عنه، بل ويظهر على أنه هو "العلم" والمعرفة، خلافا لما عندهم! تأمل إذ يقول العيب الوحيد في أن تقول إن الله خلق الأنواع الحية على هذا النحو الذي نجدها عليه، لا على خلافه، لحكم عنده، نفوض العلم فيها له سبحانه، هو أنها تنهي النقاش! تقول له قف عندك، ولا تجاوز قدرك! وهذا أعظم ما يبغضه الفيلسوف في كبره وأنفة نفسه! هو ما يريد للنقاش والجدل إلا أن يتصل ويستمر أبدا وسرمدا! لماذا؟ لأجل أن يظل ما دام حيا متترسا بمانع عقلي مزعوم، يمنعه من الخضوع لرسل رب العالمين، بل وحبذا لو بدا ذلك المانع موجبا لأن يكون الناس تبعا له، بدلا من أن يكون هو تبعا لبعضهم! يقول: إن قلتم من طريقكم إن صانعا بالغيب قد خلق كل هذا، فلا نرضى منكم حتى تفيدونا بالكيفية التي خلق بها ما خلق! فإن جئتم في ذلك بشيء يجري على مثل أقيستنا (ومن ثم أنزلتم الصانع المزعوم هذا إلى أن يكون مجرد صانع طبيعي مماثل في الحقيقة والكيفية التي يخلق بها الخلق، لمصنوعه الطبيعي، خاضع مثله للقانون الطبيعي) فإذن، وإذن فقط، قد نرضى منكم ونقبل، ونسمي ذلك "بالتفسير العلمي"! لماذا؟ لأنه إذن لا يكون هو ذاك الرب الذي تنذروننا وتخوفوننا من غضبه علينا، الذي أرسل الرسل وأنزل الكتب وتوعد الكفار والمكذبين بالعذاب الأبدي في الآخرة! ذلك الرب البائن عن العالم المخلوق، المتعالي فوقه بذاته ومنزلته، الذي يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته، ويعلم السر في نفوسنا وأخفى! وإنما يصبح شيئا طبيعيا "فيزيائيا" من أمثالنا، يحق لنا أن نثور عليه إن أردنا، بل ولربما تغلبنا عليه إن لقيناه وصارعناه في يوم من الأيام! يكون صانعا طبيعيا خاضعا لما نخضع نحن له من سنن الطبيعة، نعم نقبل ولا

إشكال! أما ذلك الرب الذي بأمره قام "القانون الطبيعي" نفسه ابتداء، وبأمره ينقلب ويتعطل إذا شاء، يمسك الخلق عن الزوال ويقبض الناس إليه إذا ماتوا، فلا! قاعدتنا: أنه لا يكون العالم مخلوقا إلا بأن يكون خالقه منه، ولا يكون الإنسان مخلوقا إلا بأن يكون خالقه مثله في الحقيقة والكيفية وجوبا، وإلا لم يكن إثباته "تفسيرا علميا" مقبولا!! هذه هي عقلية هؤلاء، وهذا علمهم، وهذا هو شرطهم "العلمي"، فما نقول إلا حسبنا الله ونعم الوكيل!

ما هو السؤال الذي يطالبنا الطبيعيون بأن نقبل جوابهم فيه بنظرية داروين وما شاكلها؟؟ ومن أين جاء التسليم النصراني العصري بمشروعية طرح ذلك السؤال، نوعا، للنظر التجريبي الطبيعي أصلا؟؟ السؤال يا كرام، وبإيجاز، هو هذا: "ما أصل كل ما يصح في العقل أن يقال له "نوع حي" Species، وكيف نشأ بعد أن لم يكن؟" وعلى طريقة فلاسفة اليونان، يكون الإجمال في لفظة "نوع حي" متعمدا، مقصودا من أجل أن يصبح موضوع النظرية التي تُتكلف في جوابه، مستغرقا، ميتافيزيقيا، كل موجود يصح أن يقال إنه فرد من "نوع حي"، بإطلاق كوني تام! فمن طريقة القوم في النظريات أن تكون مطلقة على شرط الوجود! لا يوجد في الأعيان ما يصح أن تكون من صفته كذا وكذا مما اعتدنا نظيره في بعض الموجودات، إلا وجب أن تكون كيفيته وحقيقته على نحو من الأنحاء التي نجدها فيما شاهدنا واعتدنا أيضا! بهذا يحصل للفيلسوف مطلبه اليوناني السوفسطائي في كشف الواقع المغيب كشفا يرفعه فوق كل علم وكل عقل وكل معرفة، كما يرفع الناس الأنبياء والمرسلين ويقدمونهم ويتبعونهم وينقادون لهم تمام الانقياد! لو جعل قصارى جهده ونظره هو البحث في التغيرات الحالية الحاضرة في الحيز المتعاد من هذا العالم، وتتبع العلاقات الرابطة فيما بينها بالاستقراء واكتفى بذلك، لما حصل له ذلك المطلب! بل سيظل مضطرا للتسليم للرسل والانقياد لهم كما ينقاد

غيره، وهو في عين نفسه أكبر من هذا، نسأل الله السلامة! فهو هنا يريد البقاء على الإجمال في مصطلح "النوع الحي"، من أجل ألا يُرد عليه قياسه المطلق بأن يقال إن ما جئت به إنما هو "تفسير" للكيفية التي تنشأ بها بعض الصفات الجديدة في الأنواع القائمة، التي غايتها، إن شئنا، أن نجعلها حدوثا لبعض الأنواع الفرعية في إطار النوع الأصلي القائم لا غير! فإن هذا هو غاية ما شهدناه حقا، لم نشهد أبدا ولم نعهد ظهورا لنوع أصلي جديد بالكلية، بوظائف جديدة بالكلية، من جنس تلك الأنواع التي تجري في إطارها جميع تلك التغيرات التي تقيس أنت عليها في نظريتك! فما الذي يوجب علينا أن نسلم لك بصحة قياسك وإطلاقك فيه على كل ما يصح أن يقال له "نوع حي"، على تلك الطريقة اليونانية السفسطائية المغرقة في الجهل المركب؟ وبأي عقل نطالَب نحن بأن نسلم بأن كل ما هو "أصل" أو نشأة لنوع حي، أو ابتداء له بعد عدمه وعدم مثاله من قبله، فلابد أن يكون، بنفس الإطلاق الميتافيزيقي الفاسد هذا، على كيفية واحدة وحقيقة واحدة، بحيث يقبل القياس على ما جرت عليه عادتنا من نشأة الأنواع بعد عدمها؟؟ هذا يوجبه علينا من يقول: ليس في معنى الحدوث إلا ما هو حدوث طبيعي، أي معللا تمام التعلل بأسباب طبيعية قد اعتدنا نوعها أو نظيرها (في الحقيقة والكيفية)، وكذلك في النشأة النوعية، أيا ما كان موضوعها. فهل أنت مسَلِّم لصاحب هذه المقالة بقاعدته وأصله يا سيد بلانتينغا؟ هذا ما يلزمك تحقيقا، شعرت بذلك أم لم تشعر!

قولك: "فمن الأمور التي نريد أن نفعلها، من حيث نحن مخلوقون له، أن نفهم العالم الذي أحدثه، وأن نرى (في حدود قدرتنا) كيف صُنع، ما بنيته وما هيكله، وكيف يعمل."

قلت: نفس الإطلاق اليوناني الأعمى الذي أغرق الفلاسفة في الطبيعية المنهجية عبر القرون، وصيركم الآن أصحاب إله ناقص مضطر، عديم الخيار أو قليله، منسحب عن مجاري حوادث

العالم من حيث الأصل، مفارق لها، غايتكم أن تحاولوا "حشره" في بعض فجوات التصور الميثولوجي العصري عند القوم، بوجه ما أو بآخر، في مسع مخز غاية الخزي، والله المستعان! ما معنى "نفهم العالم" هذه؟؟ ومن الذي يملك أن يدعي لنفسه أنه يمكنه أن يفهم العالم بكليته، على هذا الإطلاق الفاحش؟؟ ليس من طريقنا ولا في قدرتنا أن نفهم العالم بكليته على هذا الإطلاق، ولا أن نقترب أصلا من ذلك ((وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً)) [الإسراء : 85]! كثير من المسلمين إذا سمع هذه الآية، فيظن أن المقصود بها ما وراء البناء الأكاديمي العصري لما يسمونه بكليته بالعلم Science على ما هو عليه ذلك البناء! فحدود علمنا بالكون هو ما قد يتفق للكوزمولوجي المعاصر، مثلا، أن يقول: نحن لا نعلم هذا الأمر ولا نجد له جوابا! ولم لا؟ أليس موضوع العلم ظاهرا من اسمه؟ علم الكونيات؟؟ فالعلم بالكون بكليته متحصل عندهم، إذن، في حدود ما انتهوا إليه ولابد! وهذا تصور فاسد، يتغافل أصحابه أو يغفلون عن طبيعة المسألة التي يسألها أصحاب هذه الصنعة الأكاديمية التخصصية العصرية، وهل موضوع كهذا يصح، من مبدأ الطرح، أن يلتمس الجواب فيه من طريق صنعة آلتها هي قياس الغائب على الشاهد أم لا يصح! القوم موضوع نظرهم هو الكون بكليته The Universe / The Cosmos! فكيف يتوصل الباحث في الطبيعيات لإطلاق حكم نظري بشأن الكون بكليته، من مبدأ الأمر؟ بتمديد الاستقراءات التي اكتسبها من مشاهدة الموجودات في نطاق العادة البشرية التراكمية، تمديدا مطلقا يستغرق الكون بكليته، وبإطلاق الأقيسة والتمثيلات للكون بكليته، على بعض الموجودات فيه، من حيث الحقيقة والكيفية والتطور وكذا! لا طريق لهم إلا هذا! أليس كذلك؟ بلى! فالسؤال الآن، وهو سؤال منهجي مهم ولا شك، هو: بأي سلطان جوزوا ذلك المسلك، وعلى أي

أساس سوغوا السعي في البحث بشأن العالم بكليته، من أوله إلى آخره، من هذين الطريقين؟ لا أساس لهذا الإطلاق والطرد التام يا إخوان إلا أن يكون الرجل منطويا على اعتقاد مفاده أنه ليس في الوجود إلا ما هو طبيعي نوعا، أي مادة مركبة فيها طبائع من جنس ما اعتدناه، بحيث تنشأ عنها آثار من جنس ما اعتدناه أيضا. فعلى هذه المقدمة الخفية فقط، يستساغ هذا الطرد والإطلاق التام في دلالة الاستقراء لما في العادة، وقياس التمثيل على ما في عالم الشهادة، ليدلنا على ما في نهاية العالم وما لا يمكننا التوصل إلى مشاهدته منه في يوم من الأيام! وإلا فما يدريهم أن الجاذبية، مثلا، من حيث هي سنة مشاهدة معتادة في الأجرام والأجسام المحسوسة من حولنا، لابد وأن تكون جارية مبدئيا، وكما اعدتناها هنا، على أي جرم أو جسم في أيما موضع من العالم، قرب أو بعد، وفي أيما زمان كذلك، مهما ضرب في الماضي السحيق أو المستقبل البعيد؟ ما الذي يوجب ذلك عندهم، ويجعله أصلا لا يتطرق إليه الشك؟؟ الذي يوجبه يا كرام، إنما هو الطريقة اليونانية في فرض قياس العقل على الوجود والموجود بإطلاق، بحيث يكون تفسير وجوده أيا ما كان، وكونه على ما هو عليه، متى كان وأينما كان، حاضرا عند الفيلسوف فيما يعلمه للناس! لا يوجد في الزمان والمكان إلا ما وجب أن تكون حقيقته وكيفيته كما يدعي! فلماذا لا يرى الفيلسوف لقياسه ولا لعقله حدا في تصور الواقع الخارجي، وفي الكلام في الموجودات وكيفياتها وحقائقها إثباتا ونفيا؟ لأنه لو فرض على نفسه ذلك الحد، لاضطر للخضوع لمن لا يريد أن يكون لهم تبعا، وإنما يريدهم جميعا تبعا له! هو يشتهي أن يكون هو الرئيس المتبوع وليس التابع المضطر للانقياد لمتبوعه، كما عليه أتباع الرسل! والطريقة اليونانية السفسطائية تلك في النظر في الواقع الخارجي، تضمن له ذلك! لابد أن يكون أول الكون كآخره، وبدايته كنهايته، نوعا، كلها مما يقبل أن تتناوله نظرية من نظرياته

بالتفسير والتكييف المطلق (منهجيا)، وإلا لاضطر للاعتراف بأن في الغيب ما لا يُعرف، مبدئيا، إلا من طريق الرسل، وإذن لاضطر لأن يكون تبعا لهم، وهو ما تفلسف ابتداء إلا ليفر من هذا! افهموا هذا بارك الله فيكم، فإنه أصل الداء ومنشأ المرض في تأسيس المدرسة الغربية في هذا الباب! لابد أن نتوصل إلى معادلة واحدة أنيقة رشيقة بحيث إذا صحت في وصف ما نتناوله عادتنا، أصبحت هي طريقنا لوصف وتصور كل ما وراءها مما يغيب عنا، بدعوى أن الاستقراء يوجب ذلك! وهذا من أفسد ما يكون! فالاستقراء يتجزأ، ويتقيد بقيود العادة، لا يكشف إلا ذلك! استقراؤك أنت لعوائد الناس ومعاملاتهم فيما بينهم، مثلا، في البلد الذي تعيش فيه، لن يفيدني بعوائد الناس في البلد التي أعيش أنا فيه! فإذا أطلقت وقلت، كما يقع كثيرا عند النظار الغربيين في العلوم الإنسانية: الإنسان يحب كذا وكذا، ويفعل كذا وكذا، ومن عادته كذا وكذا، وأنت لم تستقرئ إلا أحوال الناس في بلدك، كولاية شيكاغو مثلا (التي نشأ في جامعتها علم الاجتماع المعاصر، لا سيما في أمريكا خاصة)! فالزعم بأن استقراء الباحث أو جملة الباحثين عادتهم في إطار حيز تلك العادة التراكمية زمانا ومكانا، يفيد، من حيث الأصل، بالعلم أو حتى بالظن الراجح، بما في الزمان والمكان بإطلاق، هذا كذب على الاستقراء، وعدوان على آلة العقل البشري بكليتها! وليس جواب ذلك الإطلاق الأعمى أن نقول، كما يسلكه كثيرون: نطلق الاستقراء أولا، ثم إذا ظهر ما يدعو لتقييده قيدناه! أي مشاهدة هذه التي قد تدعوك أيها الفيزيائي المتحرم، إذا وقعت لك يوما ما، بعد إذ أطلقت نظرية فلان وفلان في الجاذبية مثلا، لتشمل العالم بكليته، على أن تقيد ذلك الإطلاق الكوني التام، فتقول حينها، قد علمت، إذن أن قانوني هذا مقيد في المكان وغير مطرد على كل مكان، أو مقيد في الزمان وغير مطلق على كل زمان؟؟ ليس في

المشاهدات ما يمكن أن يفيد بذلك أصلا! ولهذا لا يستدل القوم في هذا الباب بالمشاهدات، إلا بتأويلات متنطعة مبنية كلها على نفس النظرية التي يزعمون أن نفس المشاهدة تثبتها! وهذا منشأ الدوران في طريقتهم كما بسط الكلام عليه في غير هذا الموضع.

والقصد أننا يجب أن نستوقف هؤلاء لنقول لهم: حسبكم، لم يكن لكم، من مبدأ الطرح، أن تطرحوا سؤالا كهذا (ما حقيقة الكون وما كيفيته وما بنيته وهيكله، وما أصله ونشأته وكيف نشأ) للبحث بتلك الأدوات! لا أن نقول لهم كما يقول بلانتينغا، بنفس هذا الإطلاق اليوناني الأعمى: إن ديننا يدعونا للتفكر في خلق الله، وخلق الله هو الكون بكليته، وكما قال عمرو شريف إن دليل مشروعية علم أصل العالم وعلم أصل الأنواع عند الطبيعيين المعاصرين هو قوله تعالى: ((قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ)) الآية [العنكبوت : 20]! هذه قاضية راجعة إلى فساد أصلي عميق في الطريقة اليونانية يجب أن ننبه إليه الناس! إذ لا سلامة لهم من مداخل الدهرية والزندقة في صناعات العلم الطبيعي إلا بهذا! ولا نجاة لهم من غائلة "الطبيعية المنهجية" التي رفعت يا بروفيسور بلانتينغا عقيرتك بنقدها في هذا المقال إلا بهذا! من لم ينقض بنيان الباطل من قواعده، لم يسلم أن يكون نقده ما ينقد من فروعه، تأسيسا على نفس القواعد أو إقرارا لها، على الأقل فيما يظهر للناس!

ولهذا أنكرت على الدعاة المعاصرين المتصدرين لنقد نظرية داروين بترجمة كتب النصارى في ذلك! لماذا؟ لأن النصارى كما ترى، ليس اعتراضهم على النظرية راجعا إلى مبدأ اقتحام هذه القضية (قضية نشأة جميع الأنواع الحية بإطلاق) بأقيسة الاستقراء والتمثيل على المعتاد والمشاهد، وإنما اعتراضهم عليها راجع إلى قولهم، بعدما فرغوا من تأسيس الأسطورة بتمامها وكمالها، إنها لا محل فيها لفعل الإله الذي تؤمنون به، كما قال لابلاس عبارته الشهيرة لنابليون

بونابارت لما عرض عليه كتابه ولم يجد فيه ذكرا للإله وفعله! وهذا اعتراض متفلسف صاحب اعتقاد ربوبي Deistic من حيث الأصل، قد ارتضى ابتداء بالسببية الطبيعية المغلقة طريقا لبناء التصور النظري الكامل بشأن العالم وما فيه وما كان من ماضيه وأمر نشأته، ثم لما اشتد عليه وجعها، أخذ يتأوه ويصيح ألما ويقول: ارفعوا كلمة "عشوائي" Random من هذا المصطلح، وضعوا مكانها "إلهي" Divine إن كنتم ولابد فاعلين، حتى نسلم لكم، أو اسمحوا لنا على الأقل بأن نأتي بنظرية نسلم لكم فيها بجميع آلياتكم السببية التفسيرية التي اعتمدتموها في نفس الأمر، ولكن نضيف عليها آلية نسميها بالصمم الذكي، نتناول بها ما لم تنتهوا فيه إلى تفسير ما من طريقكم إلى الآن! فإذا فعلتم، فاقبلوا أن يكون كلا التفسيرين على السواء من حيث الجواز العلمي والعقلي، ولا تحاربونا على أننا أصحاب خرافة وأسطورة! فهؤلاء أصحاب منهج منهزم، كان نظيره من قبل منبعا للجهمية عند السابقين، واليوم يوشك أن ينبت جهمية جديدة عند المعاصرين، والله المستعان.

وهنا قد يقول القائل من أصحاب المراكز المشتغلة على تلك الترجمات: ولكن ليست كل أجوبة النصارى عن نظرية داروين هذا هو مدارها، بل منهم من يبطل آلياتها وأصولها جملة، وهذا مفيد عند الرد عليها، يقوم بالمطلوب من الاحتجاج عليهم، وأدنى أحواله أن يكون تنزلا، فلماذا تمنع من الانتفاع به؟ ويقال في الجواب: إن من شرط الجواب مع التنزل، أن يكون مسوقا في سياق يفهم منه أن هذا تنزل، وأن أصل الاعتراض على باطلهم ورده عليهم أعمق من ذلك، وأن الخلل والعيب ليس في تلك النظرية وحدها، وإنما في طريقة يونانية فاسدة هي التي أنبتت تلك النظرية وما يناظرها في غير هذا الباب بخصوصه! والنصارى ليس عندهم ذلك، بل مدار كلامهم على قبول ذلك الأصل المنهجي اليوناني الكلي، والاكتفاء بإسقاط

بعض فروعه لا غير! يقبلونه لا على سبيل التسليم مع الخصم تنزلا، ولكن على سبيل الانتهاج والإقرار!

فمثلا كتاب "أطلس الخلق" Atlas of Creation لهارون يحيى (الاتحادي الماسوني التركي عدنان أوكتار) في نقد نظرية داروين، الذي أغرق به مكتبات العالم حين أصدره، وانبهر به كثير من المسلمين للأسف، مداره على مسلكين منقولين عن النصارى إجمالا، الأول أنه ليس ثمة حفريات وسيطة بين الأنواع الأساسية التي دلت عليها الحفريات المكتشفة، والثاني أن النظرية على ما هي عليه، "غير قادرة" على تفسير كذا وكذا من المشاهدات! وسواء هذا المسلك أو ذاك، فكلاهما يقتضيان إقرار الطبيعيين على أصلهم في استعمال المنطق التفسيري! فكأنما يقول لهم: لو عثرتم على حفريات وسيطة بين هذه الأنواع التي وجدتموها، فسأصدق كلامكم وسأقبل منكم، ولكنكم لم تعثروا! ولو أنكم استطعتم أن تفسروا كذا وكذا، كما فسرتم كذا وكذا، لسلمت لكم بصحة النظرية، ولكنها ناقصة على شروطكم في قبول النظريات، لا تفسر جميع المشاهدات، وإذن فلا أقبلها! فهل المطلوب يا إخوان، هو مجرد إبطال النظرية على ما هي عليه، أم المطلوب إقامة الحق في محلها؟ نحن لماذا نتكلف نقد النظرية إذا تكلفناه؟ مراغمة لأصحابها وإظهارا للقدرة على الانتصار عليهم بنفس أدواتهم؟ هذه طلبة المتكلمة والجهمية وليست من مطالبنا! هم من لا يبالي أحدهم بأي شيء نقض باطل المخالف، ما دام سيُظهر نفسه عليه في الخصومة والمناظرة العلنية في نهاية الأمر! يناظرهم ليظهر للناس أنه أقدر منهم على توليد النظريات على طريقتهم، وأنه قادر على إثبات الحق الذي معه على طريقتهم! وأما نحن، أهل السنة، فإنما ننقض الباطل من أجل أن نبين للناس الحق الذي يجب أن يكونوا عليه، وهو ما يشتمل النقض على أصل طريقتهم نفسها! وهذا من الفوارق

المنهجية الصارمة بين طريقة أهل السنة وطريقة الفلاسفة والمتكلمين من أهل الملل! تنزل مع أهل الباطل ما شئت، ولكن يجب أن يكون ذلك في سياق يمتاز به أصل الباطل عن الحق الذي يجب أن يقوم بنفوس الناس في محله، وإلا تمحض الجواب في التلبيس! لن يسلموا لك أصلا، يا صاحب ذاك الرد الهزيل بهذا الذي تقول! لا يسلمون بأنه ليس ثمة حفريات وسطى بين الأنواع فيما اكتشفوا، ولا بأن نظريتهم لا تفسر كذا وكذا مما تدعي أنها لا تفسره! فأما الحفريات، فليست دلالتها عندهم إلا تأويلا لما هو مشاهد! ليست هي عين ما يشاهد وإنما هي تأويلهم له! والتأويل في ذاك الباب مطلق التغييب، لا زمام له ولا خطام، ولا مرجح فيه للرأي على خلافه أصلا، فيما سماه فلاسفة العلم في النصف الثاني من القرن العشرين الميلادي بتكافؤ دلالة المشاهدات Underdetermination of Theory by observation! النظرية مبناها على ادعاء أن جميع الأنواع تدرجت في التعقد والتركب، بحيث ترقت الأنواع من الأبسط إلى الأعقد، ولم تزل، عبر ملايين السنين! فكل نوع في النظرية هو وسط بين نوعين! وحفريته، على هذه، هي حفرية وسطى بين أصل تطوري وفرع تطوري جاء لاحقا!! فبأي شيء يستدلون لوقوع ذلك؟ بمجرد التقارب والتشابه الخلقي، مع التقارب الجغرافي، والترتيب الطبقي (في طبقات الأرض) لوجدان السابق واللاحق مما في نظريتهم! فإذا عثر على قطعة عظم من جمجمة ما، مثلا، في طبقة معينة، استكملوها بما يضعها في منطقة وسطى بين ما يزعمونه قبلها وما يزعمونه بعدها في السلم التطوري المزعوم! ولا مانع من أن يراجعوا ذلك مرة بعد مرة، حتى تبقى جميع المشاهدات موافقة للأصل الذي سبق منهم اعتقاده، وهو صحة ذلك السلم إجمالا! فبالله يا عقلاء، ما المنتظر من الدراونة إن هم سلموا لكم بصحة زعمكم أنه ليس في الحفريات ما يصلح أن يكون نوعا وسيطا بين نوعين مما

دفعتم به بين أيديهم؟ مزيد من التأويل المتكلف البارد لمزيد من الجيف والرمم التي يعثرون عليها هنا وهناك، لإثبات قضية لا ثبوت لها ولا انتفاء من ذلك الطريق أصلا، والله المستعان! وكذلك في مسألة أن تعقديا معينا في هذا النظام أو ذاك لم يفسره أحدهم بعد بتفسير دارويني! فكل ما يحدثه ذلك إنما هو دعوتهم لأن يتكلفوا ذلك التفسير، وإذا به يحضر وبسهولة ولا إشكال! فهل المعيار الصحيح عقلا للحكم على نظرية هذا موضوعها، بمطابقة الواقع في نفس الأمر، هو مقدار ما تستوعبه من المشاهدات بالتأويل الجائز بناؤه عليها عقلا أو استمداده منها بنحو ما، فما كان أوعب للمشاهدات كان أرجى بالقبول؟ هذا المعيار أنتم تقرونهم عليه؟؟ لو كنتم تخالفونهم فيه، ما رأيتم في هذا الذي تقولونه حجة دامغة عليهم!

في كتاب له، نشره قبل "الأطلس" هذا بثلاث سنوات، تحت عنوان "إبطال الداروينية: بيان كيف تنهار نظرية الارتقاء في ضوء العلم الحديث" Darwinism Refuted: How the Theory of Evolution Breaks down in the light of Modern Science نقل أوكتار مباشرة من كلام مايكل بيهي وأصحابه، قولهم إن داروين نفسه قد وضع لنفسه شرطا لإبطال النظرية، وهذا الشرط قد تحقق فعلا، وهو قول داروين في كتابه "في أصل الأنواع": "لو أمكن بيان أن ثمة عضو معقد يوجد في الأعيان، بحيث لا يكون من الممكن أن تكون نشأته (قد تمت) عبر عدد كبير من الخطوات التعديلية المتتابعة الضئيلة، فإن نظريتي حينئذ تسقط سقوطا مبرما".

If it could be demonstrated that any complex organ existed, which could not possibly have been formed by numerous, successive, slight modifications, my theory would absolutely break down.

فهل يمكن أصلا أن يتحقق ذلك الشرط واقعيا، بما يحصل به الإلزام العقلي الهادم لأصل النظرية، كما زعم داروين أنه يبطلها؟ الجواب لا! لا يمكن أن يتحقق أبدا! لماذا؟ لأنه ليس في مشاهدات النظرية، أصلا، ما يمكن إبطاله بمشاهدة صريحة! فالنظرية موضوعها نشأة جميع الأنواع الحية القائمة حاليا، وتلك التي انقرضت فيما مضى، والزعم بأن ذلك كله وقع وجوبا بالتدرج البطيء على خطوات، من الأحط إلى الأرقى، على أساس أن الأرقى هذا هو الأعقد من حيث البنية العضوية الظاهرة تشريحيا Morphologically or anatomically more complex! فبعيدا عن حقيقة الإجمال اليوناني المتعمد في مصطلح العضو المعقد هذه Complex Organ، فكيف يمكن عقلا، أن يثبت في ذلك الشيء الذي يقال له العضو المعقد، أنه لم يكن من الممكن عقلا أن يكون قد نشأ على خطوات متدرجة؟ النشأة المتدرجة هذه ممتنعة عقلا من جهة أخرى، وهي من جهة أنها تقتضي النقص في صانع كل كمال، وأنه يخلق الخلق منحطا أولا، قاصرا عما يتكيف به ويصبح به نوعا مستقرا في الأرض، ثم يرقيه ويحسنه فيستقر ويبقى! أما أن يشترط الرجل علينا أن نثبت في عضو مشاهد محسوس أو في نظام حيوي معقد كما يسميه، أنه محال أن "تفسر نشأته" بالتحول التدريجي بعموم، بصرف النظر عما تحول عنه، فهذا شرط واه في غاية الفساد! فهو يتحكم في الممكنات العقلية تحكما لا ثبوت له ولا انتفاء من جهة الحس! فإذا تغاضينا عن مسألة النشأة بالترقي مما هو أحط هذه، وعممنا كما عمم هو هنا بقوله "تعديلات ضيئلة متدرجة متعددة"، فإن هذا مما لا يمنع العقل أن يكون تفسيرا مطابقا للواقع في أي نظام حيوي أيا ما كان! هل يمتنع عقلا أن يكون الله تعالى قد خلق هذا النوع أو ذاك (ولا أقول جميع الأنواع، ولكن أقول نوعا معينا)، بأن أحدثه في ذرية نوع آخر، من غير أن يكون ذلك تطويرا على نوع منحط أو ترقية

أو كذا، على المعنى الدارويني؟ لا يمتنع! وكذلك فالعقل لا يمنع، أيضا، من أن يكون ما يسمونه بالخلق المباشر هو تفسير نشأة أي نظام حيوي مما يقع في عادتنا أيا ما كان! يقول لكل فرد من زوجين من النوع المعين كن فيكون، وإذا بهما بعد يتناسلان وينتشر منهما النوع! فعندما يقول الرجل إن شرط بطلان نظريتي هو أن تثبتوا لي وجود نظام حيوي معين بحيث لا يجوز عقلا أو لا يمكن تفسير نشأته بخصوصه بالطريق الذي فرضته، أي لا يكون ذلك التفسير فيه إلا باطلا معلوم البطلان، فهذا شرط فاسد قطعا إذ يقال إذن: فمن أين يعلم ذلك البطلان أو امتناع الوقوع وما طريق ثبوته، إذا كان أصل النظرية الجريان على الإمكان فقط، لا غير؟؟ إذا كانت أي مشابهة ظاهرية بين النظام الحي المفترض هذا، وبين أي نظام حيوي آخر، تكفي إذا ثبتت، لأن تكون دليلا عند الرجل على "إمكان" أن يكون ذلك النظام قد نشأ بالتطور عبر تعديلات متدرجة، فهو شرط واه لا طائل تحته، ولا فائدة فيه، والنظرية إذن مستوعبة جميع الأنواع الحية على الأرض لا محالة! وهو يعلم هذا ولا يخفى عليه، وإنما أراد أن يظهر أن نظريته تقبل النقض والإبطال من طريق المشاهدة، كما أثبتها هو من طريق المشاهدة، وليس الأمر كذلك!

فطريقة الرجل في إطلاق الحكم بأن النظرية حق، حتى يثبت وجود ذلك العضو الذي لا يمكن تفسيره من طريقها، ومن ثم يعرف بطلانها، هذه طريقة فاسدة عقلا، وبيهي، مع هذا، يقره عليها! فلو قدرنا أن كانت النظرية في هذا الباب بحيث يصح الاستدلال فيها بالاستقراء مبدئيا، فمجرد ثبوت واقعة مخالفة لمحصول الخبرة السابقة، لا يقتضي بطلان الاستقراء! وإنما يستفاد منه تقييد الاستقراء لا غير! ولهذا لم يجرؤ بيهي نفسه على نقض النظرية بتلك النظم الآلية الجزيئية الدقيقة التي ظهر له أن شرط داروين ينطبق عليها! وإنما

كانت غايته أن قال: عندي تعديل أو إضافة على النظرية، لا أنه استبدال لها! نعم، حقيقة ما جاء به بيهي، صاحب مسألة التعقيد غير القابل للاختزال Irreducible Complexity أنه إضافة إلى نظرية التطور الدارويني وليس نقضا لها أو إبدالا كما يتوهمه بعض الناس! داروين كان يرى ذلك نقضا للنظرية إن قدر ثبوته، لأنه على طريقة أسلافه من الفلاسفة، لم يكن يرى جواز نقض النظرية من طريق المشاهدة أصلا! فما دامت جميع الأنواع الحية على الأرض تتشابه في قدر ما بالضرورة، فيما هو معروف مطرد، فسيظل من الممكن ولا شك، تأويل ذلك القدر من التشابه بين أي نوعين، بالقرابة الداروينية والسلف التطوري المشترك المزعوم، بصورة ما أو بأخرى! فالنظرية تتوجه إلى تفسير كل تشابه عضوي (مورفولوجي أو جيني أو ما شئت) بجعل الأبعد شبها سلفا للأقرب شبها، ثم الأقرب والأقرب وهكذا! وهذا يسهل جدا تكلفه، على خلاف يستسيغونه في التفصيل، مع جميع ما يتصور وقوعه لنا من مشاهدة لنوع حي جديد لم نكن قد رأيناه من قبل، بالنظر إلى الاشتراك والتشابه بين صفات جميع الأنواع الحية، ضرورة تشابه الوظائف أولا، وتشابه البيئة الأرضية جملة، التي تؤوي جميع تلك الأنواع، ثانيا! أي أنك من أجل أن تبرهن على بطلان إطلاق داروين هذا (أن جميع النظم المعقدة عضويا قد تطورت من نظم أقل تعقدا قبلها)، فستحتاج إلى اكتشاف نظام عضوي ما أو كائن حي ما، بحيث لا يشبه شيئا مما سبق أن رأيناه من الأنواع الحية على الأرض بأي وجه من الوجوه، وهذا غير متصور أصلا! إما هذا وإما أن تركب آلة الزمان لتبصر بعينيك كيف نشأ أول فرد في كل نوع حي حيث نشأ، على غير مثال سابق! ولا أرتاب في أن داروين كان أذكى من أن يغفل عن حقيقة أن هذا الشرط الذي وضعه ما كان ليؤثر على استقرار نظريته واطرادها على كل نوع حي، وأنه مهما تكلف أحدهم الإتيان

بما يتحقق به ذلك الشرط فسيرد عليه لا محالة من يبطل عليه ذلك، ويبقي الأمر على إطلاقه الميتافيزيقي الأول! حتى بيهي نفسه لما ضرب مثله المشهور بالآلة الجزيئية المسماة Flagellum Motor، ظهر على أثر كلامه ذاك أكثر من بحث فيه بيان لآلات جزيئية أخرى قريبة الشبه جدا من تلك الآلة، بحيث يمكن على طريقتهم في التأويل أن يقال تحكما، إن هذه الآلة قد ظهرت بالترقي من الأولى بزيادة جزء جديد فيها لم يكن في الأولى! وهذا غاية ما شرطه داروين من أجل البقاء على نظريته: أن نتمكن من أن نبين Demonstrate "جواز" أن يكون هذا النظام العضوي المعقد قد ترقى من شبيهه، وفقط! مجرد الجواز هو دليل الوقوع! لا دليل غيره! جواز التأويل بما يوافق دعوى الوقوع، هو دليل الوقوع! نحن نرى هذا التشابه بين النظامين، بسبب أن الأول كان له سلف تطوري مشابه للآخر أو مماثل له. فما الدليل؟ الدليل هو مجرد أننا نرى ذلك التشابه! وبيهي يقرهم على ذلك منهجيا! ولهذا رأوا أنهم أخرسوه وألقموه نعلا، لما أجابوا بما أجابوا به! لأن حقيقة أن العضو أو النظام البيولوجي لا يمكن أن ينشأ ويصبح نوعا حيا دون أن تكون قد قامت به جميع الظوائف الواجبة لبقائه واستنواعه من أول يوم، هذه حقيقة بديهية لا تأثير لها على فلسفتهم في تدرج الأنواع! فهم لا يقولون إن النوع الحي يصبح نوعا حيا وهو فاقد لذلك! وإنما يقولون إنه لا يكون نوعا حيا إلا إن قام به ما يحقق له ذلك! فإذا اتفق له اتفاقا أن ظهر فيه شيء جديد، كأن يكون عضوا جديدا أو مادة جديدة أو نحو ذلك، وصلح ذلك الشيء الجديد، اتفاقا، لأن يكون عضوا جديدا بوظيفة جديدة، فإنه يصبح بذلك نوعا جديدا مستكملا، أيضا، لأسباب بقائه وانتشاره! فصحيح إن العين البشرية ما كانت لتصلح لحفظ نوعنا لو قدرنا أن كان غايتها في وجوهنا أن نميز بها بين مواضع النور والظلمة فقط، مثلا، كما زعموا أنه أصلها التطوري، إلا أن هذا

لا يمنعهم من أن يفترضوا سلسلة من أسلافنا التطورية، تبدأ بنوع منحط غاية الانحطاط (على معيارهم في الترقي والانحطاط)، بحيث لا يحتاج من وظيفة الإبصار لأكثر من أن يقدر على تمييز النور من الظلمة وحسب! وصحيح إن هذا يكون استشعارا أصلا وليس إبصارا، والزعم بأن "الاستشعار" أحط من "الإبصار"، أو أن "الإبصار" أرقى من "الاستشعار"، تحكم محض كما لا يتسع هذا المقام لبسط الكلام عليه، إلا أنهم لا يرون ذلك حاجزا لهم من افتراض سلسلة كهذه، تأويلا لمشاهدة جملة من الأنواع فيها من أنواع الآلات الباصرة والمستشعرة ما يتدرج على ما يوافق خيالهم وأسطورتهم! فوجود ذلك فعلا ووقوع مشاهدته، هو دليلهم! فهل هو دليل حقا؟ أبدا! وهل إن رأينا مشاهدة كالتي رآها بيهي واستند إليها، صح أن تكون دليلا في النقض عليهم؟ أبدا! ولنفس السبب! لأن التأويل في هذا الباب سيال مائع لا زمام له ولا خطام! ولماذا هو كذلك؟ لأنه لا استقراء في المعتاد يصلح أن يكون مرجحا بين تأويل وتأويل! لم نشهد أبدا من حوادث نشأة الأنواع الجديدة والأعضاء الجديدة ما يجعلنا نقول بالاستقراء، إن نشأة كل نوع جديد على غير مثال سابق (بهذا الإطلاق) إنما تكون على هذه الكيفية أو تلك! فإذا عدم ذلك الأساس العقلي المنهجي لاستعمال المنطق التفسيري في الأشباه والنظائر، أصبح لكل أحد أن يتأول ما يشاء بما يشاء!

والقصد أن طريقة النصارى في الرد على نظرية داروين تبدأ من التسليم للقوم بصحة أصولهم العقلية الأولى التي أسسوا عليها تلك النظرية، ومنطق الاستدلال فيها، وهذا من أفسد ما يكون من التلبيس! وها أنت ترى ثمرة ذلك وما يترتب عليه في كلام رجل يعد هو أكبر فلاسفتهم في هذا العصر قولا واحدا، وأشدهم تمسكا بأصول دينه وبتعاليم الكنيسة! فالأمر

يا إخوان، يا من هجمتم على كتب النصارى تترجمونها في هذا الباب، أدق بكثير مما تتوهمون، ولا يجوز التساهل فيه بحال، والله المستعان.

فأصل المخالفة اليونانية التي أنبتت الطبيعية الدهرية التي تنتقدها يا بلانتينغا، إنما هو تجويزهم إعمال النظر فيما تعبر عنه أنت بقولك: "وأن نرى (في حدود قدرتنا) كيف صُنع، ما بنيته وما هيكله، وكيف يعمل"! العقلاء يتكلفون من ذلك ما يحتاجون إليه وينفعهم اكتساب المعرفة به، مما موضوعه محل العادة البشرية التراكمية ومقرها لا ما يجاوز ذلك! وليس من ذلك كما لا يخفى، كيف صنع العالم نفسه، ولا بنيته وهيكله بكليته، على ما عليه الطبيعيون! ما معنى "هيكل العالم" هذا، وكيف يمكن الاستدلال عليه بما يرجى منه تحصيل معرفة مطابقة للواقع في نفس الأمر؟؟ كلام فاسد، هو به مقلد للقوم بلا تدقيق. ومن ذلك قوله: "ومن طرق فهم الشيء (يعني هنا العالم بكليته)، أن نرى كيف صنع، كيف جمع بعضه إلى بعض، وكيف يعمل." قلت هذا على أساس أن الله أشهدكم كيف صنع العالم وجمع بعضه إلى بعض أو أشهدكم نظيرا تقيسون عليه؟؟ سبحان الله!

يقول [39]: ولكن سيكون هناك تقدم ضئيل في هذه الوجهة، لو أننا أجبنا بصورة اعتيادية وفي أغلب الأحوال عن مثل السؤال: "لماذا يعمل كذا وكذا على نحو ما يعمل؟" أو "ما هو

[39] *But there will be little advance along this front if, in answer to the question, "Why does so and so work the way it does?" or "What is the explanation of so and so?" we regularly and often reply "Because God did it that way" or "Because it pleased God that it should be like that." This will often be true, but it is not the sort of answer we want at that juncture. It goes without saying that God has in one way or another brought it about that the universe displays the character it does; but*

تفسير كذا وكذا"، بأن نقول: "لأن الإله فعلها على هذا النحو" أو "لأن إرادة الإله أن يكون الأمر كذلك". هذا عادة ما يكون صحيحا، ولكنه ليس هو نوع الجواب الذي نريده في مثل هذا. فمن المسلم به أن الإله قد جعل الكون يبدو على النحو الذي هو عليه، ولكن ما نحتاج إلى أن نعرفه في العلم، هو جواب الأسئلة من مثل: "ما الذي يتركب منه هذا الشيء؟ ما هي بنيته؟ كيف يعمل؟ وما صلته بأجزاء أخرى من خلق الإله؟ فالدعاوى التي حاصلها أن الإله قد فعل هذا أو ذاك (خلق الحياة، أو خلق الحياة البشرية) بصورة مباشرة، هي، على وجه ما، موقفات للعلم. فلو كان هذا حقا، فمن المفترض أننا لن نتمكن من المضي قدما لاكتساب مزيد من المعرفة بشأن الكيفية التي تم بها ذلك، أو كيف تعمل الظاهرة محل البحث. فإذا كان الإله قد فعلها بصورة مباشرة، فلن يبقى شيء ليعرف (أي من طريقنا)! كيف حدث

---

what we want to know in science are the answers to questions like "What is this made out of? What is its structure? How does it work? How is it connected with other parts of God's creation?" Claims to the effect that God has done this or that (created life, or created human life) directly are in a sense science stoppers. If this claim is true, then presumably we can't go on to learn something further about how it was done or how the phenomenon in question works; if God did it directly, there will be nothing further to find out. How does it happen that there is such a thing as light? Well, God said, "Let there be light" and there was light. This is of course true, and of enormous importance, but taken as science it isn't helpful; it doesn't help us find out more about light, what its physical character is, how it is related to other things, and the like. Ascribing something to the direct action of God tends to cut off further inquiry.

أن وجد شيء مثل الضوء؟ حسن، لقد قال الله للضوء كن فكان! هذا حق ولا شك، ومهم للغاية، ولكن إذا أخذنا السؤال مأخذ "العلم" فإنه لا يفيد! لا يفيدنا في معرفة المزيد بشأن الضوء، ما هي خاصته الفيزيائية، وكيف يتعلق بغيره من الموجودات، وما شاكل ذلك. فنسبة الشيء إلى الفعل المباشر للإله، يبدو أنه يقطع الطريق أمام مزيد من السؤال والبحث.

قلت: هذا الكلام فيه حق صريح، وباطل صريح، وحق ملبس بباطل! فأما الحق الصريح، فهو قوله: "ما نحتاج إلى أن نعرفه في العلم، هو جواب الأسئلة من مثل: "ما الذي يتركب منه هذا الشيء؟ ما هي بنيته؟ كيف يعمل؟ وما صلته بأجزاء أخرى من خلق الإله؟" فلا شك أن مطلب العلم الطبيعي الصحيح إنما هو استكشاف السنن السببية المطردة في طبائع المواد المحيطة بنا، كيف يؤثر بعضها في بعض، وكيف يمكن الانتفاع بذلك التأثير وتسخيره بأمر خالقه فيما تنقضي به حوائج الناس. فالذي يسأل في مثل هذا يريد علما يُنتفع به في مطلب معتبر من مثل ذلك، فلا يفيده في خصوص هذا المطلب أن يقال له إن الجواب أن "الله جعلها كذلك" لأن هذا مقتضى مشيئته وحكمته! هو كذلك قطعا، ولكن ليس هذا ما يسأل السائل عنه، ويتطرق إلى معرفته بأدوات العلم التجريبي كما هو واضح. ولكن من الواضح أيضا، وبنفس الوضوح فيما أزعم، أن هذا لا يصح إلا فيما كان من مواد هذا العالم وموجوداته وحوادثه واقعا في محل عادتنا البشرية التراكمية. فمن الباطل الصريح ومن محض التلبيس استنكاره على من يجيب عن السؤال: "كيف حدث أن وجد شيء مثل الضوء؟"، بقوله: "قال الله له كن فكان"، لا معرفة لنا فيها إلا هذا، بأن هذا من "موقفات العلم" كما سماها! يقول إنه جواب: "لا يفيدنا في معرفة المزيد بشأن الضوء، ما هي خاصته الفيزيائية، وكيف يتعلق بغيره من الموجودات، وما شاكل ذلك. فنسبة الشيء إلى الفعل المباشر للإله،

يبدو أنه يقطع الطريق أمام مزيد من السؤال والبحث." قلت: فمن أين لك الزعم بأننا لو لم نعرف كيف خلق الله الضوء في العالم حين أحدثه، فسينقطع الطريق أمامنا في معرفة ما نحتاج إلى معرفته من خصائص الضوء الفيزيائية ومن تعلقه بغيره من الموجودات؟؟ هذا كلام فاسد ظاهر الفساد! لسنا نحتاج للعلم بالكيفية التي خلق الله بها شيئا من مواد هذا العالم أو أنواع الكائنات الحية فيه أو سننه السببية المركبة في مواده، حتى نتعلم كيف ننتفع بها وكيف نتتبع العلاقات السببية الرابطة فيما بينها! بل إنك لو اشترطت على الرجل أن يتعلم كيف صُنع أي شيء من الآلات العصرية التي نستعملها في يومنا وليلتنا، كالحاسوب والهاتف الذكي والتابلت والسيارة وما شاكل ذلك، من أجل أن يتمكن من الانتفاع بها، لما انتفع أكثر الناس بشيء منها أبدا، ولما استطاعوا! أنا أقطع الطريق قطعا صارما، وكما هو الواجب على كل من يؤمن إيمانا صحيحا بأن له ولهذا العالم خالقا عليما مريدا حكيما، يفعل ما يشاء ويختار، أقطع الطريق أمام من يطلب العلم التجريبي بالكيفية التي خلق الله بها الضوء في أيام الخلق الستة، وأمنع الطبيعيين من اقتحام هذا الأمر بنظرهم وقياسهم، ولا أرى في ذلك، مع هذا، ما يمنعني من الانتفاع بقوانين فيزياء الضوء والكهرومغناطيسية والليزر وهذه الأمور! فإن هذه كلها قوانين تتبعها الفيزيائيون باستقراء العادة، فلا توقف لها على مسألة ليس موضوعها داخلا في حيز العادة أصلا (وهو كيف خلق الله هذا النظام الذي نراه من حولنا)! لا تأثر للمطلب الصحيح النافع للعلم الطبيعي، بالكيفية التي خلقت بها الطبيعة نفسها على الإطلاق! فقوله: "فإذا كان الإله قد فعلها بصورة مباشرة، فلن يبقى شيء ليعرف (أي من طريقنا)!" وقوله: " فنسبة الشيء إلى الفعل المباشر للإله، يبدو أنه يقطع الطريق أمام مزيد من السؤال والبحث." هذا تلبيس واضح، وحقيقته ومقتضاه: اشتراط أن يكون كل شيء نعرفه أو نعرف

عنه أمرا ما مما في هذا العالم، قد خلقه الله بأسباب طبيعية متقدمة عليه، لا بكلمة التكوين، من أجل أن نتمكن من تحصيل معرفة به بوجه من الوجوه! وهو لا يقول بذلك، بل يأتي في الفقرة التالية مباشرة بخلاف ما يظهر من هذا الكلام، إذ يجوز وقوع أفعال إلهية في العالم بلا سبب طبيعي (ولعله يقصد بها المعجزات)! ولكن لأنه يوافق الطبيعيين الدهرية، في فتح جميع أنواع المسائل بشأن العالم للنظر الفلسفي الطبيعي مبدئيا، فلا يشعر بتناقضه في هذا الباب.

فإذا كان خلق هذا العالم ونظامه لم يقع "بصورة مباشرة"، وإنما وقع بأسباب يمكن نظريا، على قوله، أن تعرف من طريق العلم الطبيعي، فهي إذن أسباب طبيعية نوعا! وإذن فبأي عقل تكون طبائع مادة العالم التي ركبت فيها حال خلقها، هي السبب المباشر في خلق العالم بما فيه من المواد؟؟ هذا دور ظاهر! وإنما يجوز ذلك ولا يتناقض ولا يلزم الدور، على اعتقاد الدهرية القائلين بقدم مادة العالم، وأن الذي حدث وابتدأ بعد أن لم يكن إنما هو هيئته هذه التي هو عليها الآن! فهي عندهم نتاج طبائع كانت قائمة في مادة ما، متقدمة على حدوث تلك الهيئة لمواد العالم، بحيث تكون هي السبب في ذلك الحدوث وهي ما يعلل ويرجح كونه على ما هو عليه الآن لا على خلافه! فهل توافقهم على قدم المادة أو القانون الطبيعي (إجمالا)؟ أم أنك تقول بمقالة الأفلاطونيين منهم أن في الوجود قوانين طبيعية قديمة لا محل لها ولا مادة تقوم بها، وإنما هي التي تولد المواد توليدا، كما يزعمه بعضهم في قوانين فيزياء الكم، التي يفترض أنها قائمة بخلاء عدمي عندهم، فلا تزال تسري حتى على حالة افتراضية لا يكون فيها لا جسيمات ولا طاقة ولا مادة ولا شيء البتة، وإنما يكون محلها الخلاء العدمي الصرف؟؟ هؤلاء من يقولون إن الطبيعة (على صفتها وهيئتها الحالية) كانت نتاج أسباب طبيعية (من طبيعة متقدمة عليها وجوديا)، لا ابتداء لها من الأزل! فهل هذا من "العلم النصراني" عندك؟

قوله: " هذا عادة ما يكون صحيحا، " معلقا على الجواب: هذا مقتضى إرادة الإله، وهو فعل الإله، فاسد ولا شك، والصواب أن يقال: هذا لا يكون إلا صحيحا، إذ لا يقع في العالم حادث إلا وهو من إرادة الإله ومن خلقه وجوبا وضرورة، ولكن النصارى قدرية أجلاد كما هو معلوم، فالناس عندهم يخلقون أفعالهم، يستقلون بها عن إرادة الرب وخلقه، نسأل الله السلامة!

الجزء السابع عشر:

يقول بلانتينغا [40]:

وبالطبع فإن هذا إنما هو سبب لجزء فقط من الطبيعية المنهجية! فثمة طرق كثيرة مختلفة يمكن بها للنصرانية أن تدخل في نسيج العلم: (1) تقرير واستعمال فرضيات يكون فيها الإله فاعلا للأشياء مباشرة، بالطبع، ولكن أيضا (2) تقرير واستعمال فرضيات يكون فيها فاعلا للأشياء بصورة غير مباشرة، وكذلك فلدينا (3) تقييم النظريات بالنظر إلى الخلفية المعرفية التي تشتمل على الإثباتية النصرانية، وفوق ذلك لدينا (4) توظيف أمثال تلك الدعاوى كالقول بأن البشر قد خلقوا على صورة الإله، سواء بصورة مباشرة أو على سبيل الخلفية المعرفية، و(5) وفعل

---

[40] *Of course this is a reason for only part of methodological naturalism. There are several different ways in which Christianity might enter into the texture of science: (1) stating and employing hypotheses according to which God does things directly, of course, but also (2) stating and employing hypotheses according to which he does something indirectly; further, there is (3) evaluating theories with respect to background information that includes Christian theism; still further, there is (4) employing such propositions as human beings have been created in God's image, either directly or as background, and (5) doing the same for such doctrines as that of original sin, which don't involve any direct mention of God at all, and (6) deciding what needs explanation by way referring to that same background.*

الشيء نفسه باعتقادات من مثل مسألة الخطيئة الأصلية، التي لا تتضمن ذكرا مباشرا للإله أصلا، و(6) وتقرير ما يحتاج إلى التفسير، أصلا، بالرجوع إلى نفس تلك الخلفية.

قلت: خلاصة ما قاله هنا هي أنه يجب أن يكون للاعتقاد الغيبي والقيم التشريعية عند صاحب الدين صحيح النسبة إلى رب العالمين، السلطان الأعلى فوق كل مطلب من مطالب البحث التجريبي، بداية مما عده هنا على أنه القضية السادسة، في قوله: "تقرير ما يحتاج إلى تفسير أصلا"! وصدق ولا شك، هذا حق لا مرية فيه، ولكن ليته حقق في هذا الأصل كما هو حقه أن يقرر ويبين وأن يعمل به! فالحق أن نصرانيته، وحقيقة أنه تربى في مدرسة أوغسطين وغيره من فلاسفة القوم، تقعد به عن ذلك! فلو كان لديه في دينه من العلم الخبري والعلم الإنشائي التكليفي ما لدى المسلمين، لبقي في نفسه من الفطرة السوية ما يكفي، بفضل من الله ومنة، لحمله على إتمام تلك الثورة بنقض أساس النزق والكبر والاستعلاء اليوناني الموروث في هذا الباب (باب النظر في العالم بإطلاق والوجود من حيث هو، وما شاكل ذلك) نقضا جذريا قائما بالمطلوب في هذه القضية الخطيرة حق القيام! الرجل يشعر، قطعا، بحجم الآفة وأصلها اليوناني الموروث كما سيأتي، لكنه لا يجرؤ على إسقاط تراث أوغسطين نفسه، في جملة ما يقتضيه التصريح بالحق الكامل في هذه القضية المنهجية الكبرى! مهما انتقد الفيلسوف النصراني فلسفة أرسطو والميراث اليوناني في النظر إلى الوجود والعالم وما فيه وكذا، فهو مضطر لابتلاع كثير منه لا محالة، لأن كلتا الأكاديميتين الغربيتين: أكاديمية الفلسفة الطبيعية، وأكاديمية اللاهوت النصراني في الكنيسة نفسها، مؤسستان تاريخيا على ذلك التراث في طبيعة المسائل التي يجوز مبدئيا أن تطرح للنظر العقلي والاستدلال بأنواع القياس، وفي نوعية وحجم الدعاوى التي يجوز لصاحب النظر أن يطلقها في جواب تلك الأسئلة! فالحق أنه لا الباحث

الطبيعي، ولا الباحث اللاهوتي، يحق لهما، مبدئيا ومن أصل الأمر، أن يطرحا مسألة كيفية الفعل الإلهي هذه للنظر العقلي بأيما وجه كان! غاية ما يقال في هذا الباب أن الباري له أن يفعل ما يشاء إذا شاء كما يشاء سبحانه، لا يمنعه مانع ولا يحده حد! وجميع ما في العالم هو من خلقه وفعله وجوبا وضرورة! أما كيف خلق كذا وكيف خلق كذا، هل بتوسط أسباب أم بغير توسط، هل بكلمة التكوين أم بيده الشريفة أم بغير ذلك، كل هذا آخر العقل فيه التجويز، ثم الوقوف على السمع وحده لإثبات ما يأتي به في ذلك، إن جاء بشيء! ولكن لأن أكاديمية اللاهوت النصراني كانت قد قامت بالفعل على الإقرار للفيلسوف بحقه المنهجي في أن يطرح جميع أنواع المسائل وجميع أنواع الموجودات والحوادث للنظر العقلي، ولأن يكون له نظرية تفيده بما يجوز وما يجب وما يمتنع وجوده في الأعيان جملة، وقام اللاهوت النصراني عند الآباء المؤسسين للكنيسة على ابتناء الاعتقاد النصراني نفسه، أصولا وفروعا، على نظريات القوم في ذلك، كان من غير المنتظر ولا المتوقع من مثل هذا الرجل، على علو كعبه في العقليات وفي العلم بما في كتاب النصارى، وعلى فضله بين الفلاسفة، أن يجد في مقدمات نظره وبحثه ما يمكنه من الخروج من ذلك التناقض المنهجي عميق الغور الذي يعاني منه كل متكلم من أيما ملة كتابية كان. فلما كانت الأكاديمية اليونانية قد علمتهم وأورثتهم جميعا، أن موضوع النظرية الطبيعية هو الطبيعة بعمومها، والعالم بكليته، بإطلاق على شرط الوجود، بلا حد ولا قيد في زمان أو مكان، كان المبدأ والمنطلق هو الإقرار لكل من الفيلسوف واللاهوتي بالحق المنهجي في أن يبدأ بوضع تصور نظري لحقيقة العالم بكليته، وهيكله وبنيته وما تركب منه كله وما يجوز عليه وما يمتنع من أنواع الموجودات بإطلاق، كما عبر الرجل فيما مر من كلامه. بل صار اللاهوتي يرى، وكما عبر أيضا فيما مر، أن من واجب المؤمن

النصراني أن يكون هو صاحب السبق إلى هذا النوع من النظر، متقربا به إلى ربه، محققا به مقاصد الدين عندهم! أي أن طبيعة المطلب نفسها، على صورتها اليونانية الفاسدة تلك، صارت مما يطلبون به التقرب إلى ربهم، على التصور الأوغسطي! ليس المطلب، من الأصل، عند الجميع، اللاهوتي واللالاهوتي على السواء، هو العلم بما ينتفع به الناس من أنواع السنن السببية والطبائع المطردة في محل العادة من هذا العالم، وإنما هو العلم بالوجود بكليته من حيث هو، ما يجوز منه وما يجب وما يمتنع، كما كانت تبدأ به الفلاسفة قديما! لذا صار النظر الطبيعي مبدوءا به أيضا وتبعا، عبر القرون، مؤسسا على الطريقة الميتافيزيقية اليونانية، دون أن يرى اللاهوتيون أو يشعروا في ذلك بعيب ما أو بخلل ما، بوجه من الوجوه! لذا ما كان من عجب أن ترى أول من أحدث صنعة الكوزموغوني في هذا العصر، ليس أينشتاين نفسه في الحقيقة، وإنما هو القس الكاثوليكي البلجيكي جورج ليميترا الذي نشر أول نظرية "علمية" بشأن الكيفية التي خلق الله بها العالم، في عام 1931 الميلادي! فما الذي به استجاز راهب نصراني أن يفتح هذه المسألة الغيبية مطلقة التغييب للنظر التجريبي على نحو ما صنع؟ ليس تراث الأكاديمية الطبيعية وحدها منذ تأسيسها الأول في اليونان القديمة، ولكن تراث الأكاديمية اللاهوتية النصرانية كذلك، المتشرب من نفس النبع اليوناني الآسن!! إنها نفس المدرسة الأوغسطية التي لا يجد بلانتينغا في هذا المقال إلا أن يطالب أتباع ملته بالرجوع إليها! العالم كله، بمجموعه، موضوع لنظر الناظر اللاهوتي كما هو موضوع لنظر الفيلسوف، ومنه يبدأ حتى يعرف حكمة باريه وصفاته وأفعاله، خلافا للفيلسوف الذي يؤسس عليه النفي والإلحاد! فإن كان من طريق لمعرفة كيف بدأ رب العالمين خلق هذا العالم، فإن لم يكن هو النص الصريح عند اللاهوتي، فلابد أن يكون هو القياس الطبيعي المعمول به عند الفلاسفة، على صورة من

صوره! وهذا ما سلكه ليميترا في نظريته! لم يجد في دينه الذي ورثه عن آباء الكنيسة المؤسسين، ما يحجزه منهجيا عن إطلاق وطرد معادلة النسبية العامة كما طردها صاحبها من قبل، لتصف تاريخ العالم بكليته من أوله إلى آخره بإطلاق! مع أنه على منهجه هذا، يلزمه أن يقبل القول بقدم العالم، مادة وهيئة كما كان يقول به أينشتاين في أول الأمر، إن ترجح لديهم من طريقتهم، طريقة أينشتاين في ذلك، جعل الثابت الكوني بحيث تصف المعادلة عالما قديما لا ابتداء له في الماضي، ولا تغير له عبر أحقاب التاريخ! فإن قال ولكن أنا إنما ملت إلى هذه النظرية وإلى التصرف في معادلة أينشتاين بما يجعل الأمر على هذه الصورة، ليس فقط لأن المشاهدات تشير إلى ذلك ولكن أيضا لأن عندي اعتقاد سابق بأن العالم قد خلق وحدث بعد أن لم يكن، قلنا له: أنت لا تثبت الفطرة مصدرا للمعرفة في هذا الباب، فمن أين عرفت ذلك؟ إن قال مما تتابعت عليه قرون أهل ملتي من الاعتقاد الموروث، قلنا له: فقد تتابعت قرون أهل ملتك على اعتقاد أن العالم خلق على نحو مغاير تماما لما جئت به في تلك النظرية، فعلى أي أساس قبلت الاعتقاد المجمل دون تفصيله، مع أن المصدر واحد؟؟ الواقع أن ليميترا كان يقرر صراحة في كل مناسبة أن سببه في القول بتلك النظرية ليس دينيا أصلا وإنما هو فلكي فيزيائي صرف، وهذه آفة أخرى، إذ لا يرى اللاهوتي النصراني مانعا من أن يكون الأمر عنده كذلك أيضا! وصحيح إنه كان يحذر من ميل أقرانه لعدها دليلا على وجود الباري، كما كتب إلى بابا الفاتيكان في حينها يحذره من ذلك، لأنها عنده مجرد نظرية تخمينية قد تنقلب عليه غدا، فينقلب معها الإيمان بالباري، لكن القصد أن القوم قد ورثوا من آباء المدرسة اليونانية رفعهم ما يزعمونه قطع العقل، وإنما هو في الحقيقة نتاج النظر الميتافيزيقي المطلق غير المقيد في الوجود والموجود، في أنحاء الزمان والمكان، فوق ما ورثوه من كتاب

ونص وفهم لذلك النص مطلقا! وهذا من تشبعهم وفتنتهم عبر القرون بالطريقة اليونانية في تأسيس المعارف! فصحيح إن النظرية الواحدة قد يكون في تفصيلها ما يؤخذ ويرد عندهم، لكن يجب في العقل عندهم، مبدئيا، الإذعان لما تتفق عليه الأكاديمية الفلسفية في ذلك من حيث كونه هو قطع العقل ومنتهى المعرفة بما في الوجود، الذي يؤسس عليه ما سواه من مصادر المعرفة، قبولا وردا! فمن أين جاءت قوة القطع العقلي تلك تحت مبدأ النظر في الوجود بإطلاق عند الفلاسفة، الذي تأسست عليه تصوراتهم الفيزيائية عبر القرون؟ جاءت من تراث الأكاديمية اليونانية ومن نفوذ الفكر الأرسطي الذي تأسس عليه اللاهوت النصراني كله، رضي من رضي وأبى من أبى! فبلاتنغا مضطر، من حيث لا يشعر، للتسليم للفلاسفة بأصل الفساد في طريقتهم الذي به تسلطوا على أهل الملل عبر القرون! نعم هذا ما به تسلطوا على أهل الملل وعلى عقول الخلق ومعارفهم كافة، ولم يزالوا: أن الجميع مضطرون بزعمهم للتقديم لجميع المعارف والاعتقادات، دينية كانت أو غير دينية، بمثل ما أوجب الفيلسوف اليوناني الابتداء به جملة! من أراد أن يحقق معرفة ما بما في الواقع، ما في الوجود في الأعيان، فلابد أن يبدأ أولا بالنظرية الميتافيزيقية والفيزيقية معا، التي تفسر وجود الموجود في الأعيان (بإطلاق) بكيفية مخصوصة تقوم به، مما يؤتى به بنوع من أنواع القياس على شيء مما في العادة! نبدأ بذلك أولا، فيفيدنا "بالمعرفة" "بحقيقة الزمان" و"حقيقة المكان" و"حقيقة الحركة" و"حقيقة التغير" وحقيقة "الحدوث"، إلى غير ذلك من حقائق مطلقة (هي في الأصل كليات ذهنية وليست أعيانا في الخارج لا توجد في الأعيان إلا بكيفية مخصوصة تقوم بها كما تقتضيه تلك الطريقة)، ثم ننتقل بعدئذ، وبعدئذ فقط، لأن ننظر في أصل هذا العالم وما لأجله يوجد على ما هو عليه، لا على خلاف ذلك! وفي سياق ذلك، تتولد لدينا المعرفة بصفات الصانع

وأفعاله، إن كان لنا هوى وميل لإثباته جملة، وإلا فالطريقة تقتضي نفيه جملة! والذي يثبته من تلك الطريقة هو المتناقض لا محالة وليس الذي ينفيه، كما بينه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وأطال النفس فيه، رحمه الله وقدس روحه! فإذا كانت قرون اللاهوتيين قد تتابعت على اعتناق هذه الطريقة النكدة وعلى أنها هي أساس العلم وابتداء العقل، فما نستغرب من مثل بلانيتنغا أن يأتي اليوم ليجد نفسه في أزمة فكرية عميقة الغور! وأنا أكاد أجزم كما ذكرت آنفا بأنه مدرك لعمق وغور تلك الأزمة مستشعر به، فوق كثير من معاصريه، وكلامه الذي سيأتي بعد، مما يؤكد هذا الأمر في نفسي! هو يدرك حجم الثغرة الكبرى والخلل العميق في أساس البناء اللاهوتي النصراني الموروث، الأوغسطي كما يسميه، وكذلك اللاهوت الأكويني أو التوماوي أو ما شئت، ويرى تسلط الفكر اليوناني عليهما جملة، ولكن لا يدري كيف يخرج من ذلك دون أن يجد نفسه قد رمي بالهرطقة وبالعزل من الكنيسة، لما يستلزمه ذلك من انقطاع الصلة بينه وبينها البتة!

فلو أنه تجرد من ذلك الفساد العقلي والاعتقادي اليوناني كما هو حقه أن يتخلص منه، لتأسس لديه على القضية (6)، وهي قوله: "تقرير ما يحتاج إلى التفسير ابتداء"، أن العالم بكليته لا يجوز أن يكون موضوعا "للتفسير الطبيعي"، لا هو ولا نظامه المادي نفسه أو النظام الحيوي القائم فيه، بهذا الإطلاق! نتوجه بالتفسير إلى ما تدعونا الحاجة المشروعة والغاية التسخيرية من خلق العالم على ما نجده عليه، إلى تتبع أسبابه النوعية وسنن الطبائع المركبة فيه، وفقط! وأما مطلب المعرفة بما في الغيب المطلق (زمانا ومكانا) من موجود أو حادث، فلا يتطرق إليه أصلا في صنعة موضوعها قياس الغائب على الشاهد في الكيفيات والطبائع! هذا من أفسد ما يكون! وهو ما به تسلط الفلاسفة على الخلائق كما بينا. وإذن، فبعيدا عن فساد عقيدة الخطيئة

الأصلية هذه، فإن القضية (5) يصبح تقريرها كالتالي: "العقائد الغيبية التي كان مصدرها السمع، هي مصدر المعرفة المعتبر الوحيد في موضوعها، وبما أنها حق، وبما أن مقتضى الحق حق، فما كان من مقتضاها موجبا لرد أو دفع أو "إيقاف" (على عبارة الرجل هنا) البحث التجريبي في مسألة ما، فهو الحق الذي يجب إلزام الباحثين في التجريبيات بالعمل به، إن كانوا صادقين في طلب الحق والمعرفة المطابقة للواقع!" والقضية (4) تصبح صورتها: "المعرفة الثابتة سمعا بشأن الإنسان وحالته في هذا العالم، يجب أن تكون هي المرجع في قبول ورد النظريات المتعلقة بالإنسانيات كما في علم النفس والاجتماع وما شاكلهما". والقضية (3) تصبح هي الأصل المنهجي الكلي لجميع ذلك: وهو وجوب عرض جميع خطوات العمل التجريبي على المعرفة الدينية الصحيحة، فما وافقها قبل، وما خالفها رد! وأعني بالصحيحة هنا أي التي لا مدفع لها من أنواع الأدلة المعتبرة! كالخبر بأمر لا يدل الحس المباشر الصريح على خلافه، وما صح من طريق السمع على قواعد أهل الدين الحق في ذلك، فمحال أن يقع فيه ما يصادم الحس الصريح، مهما زعم الناس ذلك! نعم قد يصادم تأويلات مشتهرة مستقرة عند الباحثين في هذا الباب أو ذاك، للمشاهدة الصريحة، وإذن يكون الخطأ عندهم وفي مصدر ذلك التأويل لديهم، مهما اتفقوا عليه، لا في نفس السمع، وأما أن يصادم المشاهدة الصريحة غير المؤولة، فمحال! ودليل ذلك عندنا هو الفطرة الجلية وما استفاضت به الآيات الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم! فلا يقدم العاقل فوق ذلك شيئا أبدا! وهذا هو تحرير الأصل العقلي الصحيح تحت القانون الكلي للرازي، كما بينه شيخ الإسلام رحمه الله في تصانيفه (لا سيما في درء التعارض ونقض التأسيس)، مع تخصيصه في دائرة دلالة الحس والمحسوس التي هي موضوع البحث التجريبي دون غيرها. وأما القضيتان (1) و(2) وهما كما عبر بلانتينغا:

"(1) تقرير واستعمال فرضيات يكون فيها الإله فاعلا للأشياء مباشرة، بالطبع، ولكن أيضا (2) تقرير واستعمال فرضيات يكون فيها فاعلا للأشياء بصورة غير مباشرة" فتدفعان بالكلية! إذ لا يجوز أصلا اقتحام باب الفعل الإلهي وكيفيته، بالفرضيات التفسيرية التجريبية، من مبدأ الطرح! كيف أصلا يتصور الرجل أن يترجح لدى اللاهوتي، مثلا، أن الله خلق الإنسان بيده من طين، كما جاء النص، على ما جاء به الطبيعيون من أساطير داروينية عصرية في ذلك، أو العكس؟ فلنفرض أن ثقته في دلالة النصوص الواقعة في كتابه في هذه المسألة، على أن آدم خلق في الجنة بيد الله تعالى، مقدارها (س)، مثلا، فعلى أي أساس يقدر ثقته في صحة دعوى الدراونة في المقابل بأن أول إنسان إنما كان سليلا للقدرة العليا هنا على الأرض، على ما زعموا أن نشأة النوع كانت عليه؟ لنقل إن مقدارها هو (ص) مثلا. فالمطلوب على طريقة بلانتينغا هنا، أن يتمكن النصراني من أن يوازن بين (س) و(ص) معرفيا، فأيهما غلبت لديه في المقدار، ترجحت وبها قال! أليس كذلك؟ بلى! طيب بعيدا عن (س) وطريق القوم في تقديرها، وانخرام الباب لديهم في هذا، دعنا ننظر إلى المقدار (ص)! كيف يتصور بلانتينغا أن يكون تقديره في نظر الناظر؟ المسألة من أصلها غيب مطلق التغييب، فليس بالإمكان، عقلا، الترجيح أو الموازنة بين أي فرضية فيها وما يخالفها من جملة الفرضيات التي يولدونها هم في ذلك على طريقتهم، بالنظر إلى المشاهد والمحسوس، بل المشاهدات والمحسوسات كلها متكافئة في الدلالة على جميع ما عندهم على التحقيق! وهذه مسألة يطول الكلام عليها، ولكن قد بينت طرفا منها هنا، وبسطت الكلام عليها في غير هذه المادة. فإذا بقي الأمر في هذه النظريات على مرتبة التخمين التحكمي المحض الذي لا يمكن ترجيحه على خلافه من طريق الحس والتجريب، فبأي شيء يطمع بلانتينغا في ترجيح ما يزعمونه فيها على

ما يفترض أن النص عنده قد جاء به، أو العكس، عند عقده تلك الموازنة؟؟ مهما كثرت المشاهدات فلا ترجيح، لأنها جميعها لا تستفاد دلالتها منها مباشرة وصراحة، وإنما تستفاد من تأويل لها مداره على التفريع من نفس النظرية التحكمية التي يفترض أن تلك المشاهدات تدل على صحتها!! ليس وراء الأمر استقراء لأشباه أو نظائر تفيد بترجيح استقرائي ما! أبدا! وإنما الأمر على ما ذكرنا من دوران الاستدلال بالمحسوس! فإذا كانت الفرضية اللاهوتية (كما قد يسميها بلانتينغا، أو الأوغسطينية أو ما شئت) مفادها أن الله خلق آدم خلقا مباشرا أو خاصا أو كما يصطلحون عليه، والفرضية المقابلة هي أنه إنما خلقه من نسل نوع آخر كما عند الدراونة، فكيف يرجو هو أن يرجح بينهما؟ لا ترجيح أصلا، والحالة على ما بينا! وإنما واجبه أن يقبل ما يرى أن النص جاء به، وإن كان مقدار (س) هذه لا يبلغ إلا أن يكون ظنا ضعيفا في صحة دلالة النص على المطلوب (كما يكون عندنا في الحديث في منزلة الآحاد من درجة الحسن لغيره مثلا)! ما دام لم يترجح عليه من طبقته وجنسه من أنواع الأدلة السمعية ما يخالفه عنده، ولم يُرد هو نفسه أو يدفع من الطريق المعتبرة في الحكم على دلالة السمع، رواية أو دراية، فواجبه العمل به، وألا يلتفت إلى شيء من تلك الأوهام أصلا! ولكن لأن الرجل قد تربى على الطريقة اليونانية في تجويز النظر بأنواع القياس العقلي في تلك الأبواب الغيبية مطلقة التغييب، التي منها استقراء المحسوس، لم ير مانعا منهجيا من قبول مبدأ وضع الفرض التفسيري القياسي في هذه القضايا، وإذن يصبح الباحث النصراني عنده مطالبا

بالترجيح! ولهذا قرر القضيتين (أ) و(ب) على نحو ما قررهما، وانتصر لهما على الطبيعية المنهجية بكلام هو في نفسه حق، لكنه أراد به باطلا! فقال [41]:

والاعتبارات التي قررناها في الفقرة السابقة، غايتها أن تكون سببا في المنع من (1). ولكنها ليست حتى سببا يعتبر لذلك. فالزعم بأن كون الإله قد خلق الحياة (مثلا) قد يكون موقفا

[41] *The considerations cited in the last paragraph are at best a reason for a proscription of (1). But they aren't even much of a reason for that. The claim that God has directly created life (for example) may be a science stopper; it doesn't follow that God didn't directly create life. Obviously we have no guarantee that God has done everything by way of employing secondary causes, or in such a way as to encourage further scientific inquiry, or for our convenience as scientists, or for the benefit of the NSF. Clearly we can't sensibly insist in advance that whatever we are confronted with is to be explained in terms of something else God did; he must have done some things directly. It would be very much worth knowing (if possible) which things he did do directly; to know this would be an important part of a serious and profound knowledge of the universe. The fact that such claims are science stoppers means that as a general rule they won't be helpful; it doesn't mean that they are never true, and it doesn't mean that they can never be part of a proper scientific theory. (And of course it doesn't even bear on the other ways in which Christianity or Christian theism can be relevant to science.) It is a giant and unwarranted step from the recognition that claims of direct divine activity are science stoppers to the insistence that science must pretend that the created universe is just there, refusing to recognize that it is indeed created.*

للعلم، هذا لا يقتضي امتناع أن يكون الإله قد خلقها فعلا. من الواضح أننا ليس لدينا ضمان لكون الإله قد فعل كل شيء بطريق توظيف الأسباب الثانوية، أو على نحو يشجع على المزيد من البحث العلمي، أو بما يأتي على مزاجنا من حيث نحن علماء طبيعيون، أو لمصلحة NSF (المؤسسة الوطنية للعلوم). من الواضح أننا لا يمكننا أن نصر سلفا، بأي صورة معقولة، على أنه أيا ما كان ما يعرض لنا (من حوادث العالم) فلابد أن يكون قابلا للتفسير بشيء آخر فعله الإله أيضا، بل لابد وأن يكون قد فعل "بعض" الأشياء بصورة مباشرة. سيكون مما يستحق بشدة أن نعرفه (إن أمكن) أي الأشياء هو ما فعله بصورة مباشرة تحقيقا. فإن معرفة ذلك تكون جزءا مهما من أي معرفة جادة وعميقة بشأن الكون. وحقيقة أن أمثال هذه الدعاوى هي موقفات للعلم، تعني أنها، كقاعدة عامة، لن تكون مفيدة (للعلم)، ولكنها لا تعني أنها لا تصح أبدا، ولا تعني أنها لا يمكن أبدا أن تكون جزءا من نظرية علمية معتبرة. (وبالتأكيد فهي لا تأثير لها على الطرق الأخرى التي يمكن للنصرانية أو الإثباتية النصرانية أن تؤثر بها في العلم). وهي قفزة عملاقة لا دليل عليها أن يُنتقل من القول بأن مزاعم الفعل الإلهي المباشر في العالم هي موقفات للعلم، إلى الإصرار على أن العلم يجب أن يتعامل مع العالم المخلوق على أنه الموجود المطلق، ويرفض الاعتراف بكونه قد خُلق بالفعل.

قلت: نعم قطعا ليس لدينا ضمان على أن الإله قد فعل "كل شيء" من طريق الأسباب الثانوية، أو بالتوليد السببي من آثار الطبائع المركبة في المواد، ولكن أنت هنا تتكلم عن خلق الحياة، تضرب بها المثل، فهل خلق الحياة كلها، بهذا الإطلاق، مما يرد على العقل أصلا، أن يكون أمرا قد وقع بالتوليد من طبائع المواد القائمة حينها؟ ما هي الحياة أصلا، وكيف وبأي عقل استجاز الطبيعيون أن يقولوا بالنشأة الكيميائية للحياة على الأرض؟ هم إنما قالوا بها،

لأن مبدأ التسبب الغيبي والسببية الغيبية غير الراجعة إلى أنواع الأسباب المعتادة لهم في طبائع المواد، مردود جملة واحدة! لا يجوز عندهم أن تكون الحياة نفسها إلا ظاهرة طبيعية راجعة إلى سبب طبيعي مادي قائم بمواد هذا العالم! مع أنهم يعلمون أن الكائن الحي إذا مات، فلا يتغير فيه مما هو موضوع للحس والمشاهدة إلا أن جميع المتحركات فيه تسكن! تقف! بداية من أعضائه المشاهدة لنا، ووصولا إلى أدنى بروتين في نواة الخلية الحية في جسده! فالحياة من الكائن الحي إنما هي كالعقل من نفسه، ملكة لها سبب مطلق التغييب، ولا نرى منها إلا آثارها المحسوسة! فأثر الحياة هو الحركة الذاتية، وأثر العقل هو ما يكون في المخ من نشاط دماغي، وما يترتب عليه من أقوال وأفعال ظاهرة للمخلوق العاقل! فما هو ذلك السبب الغيبي؟ لا نعلم إلا أن الله خلق شيئا غيبيا اسمه الروح، بحيث إذا قبض من الحي، مات ذلك الحي وسكنت أعضاؤه البتة وانتهت جميع أسباب الحركة في جسده! ولكن هذا وإن كنا نعلم أن له أصلا يوجبه في الفطرة (أن يكون لنا بقاء بعد الموت، ولنفوسنا جرم وجودي لا يتأثر بقاؤه بزوال هذا الجسد)، فلا نعلمه على الحقيقة إلا من طريق السمع! وهو حقيقة وجودية لا قياس لها على شيء مما في عادتنا أصلا، لا في حقيقته ولا كيفيته ولا نشأته، ولا ما يجوز عليه وما يمتنع بحكم العادة! لا عادة أصلا! فكيف تستجيز على منهجك، طرح مبحث أصل الحياة، بهذا الإطلاق، للنظر الطبيعي والقياس الطبيعي، ولأن تكون نشأتها عن طبائع مادة هذا العالم مبدئيا؟ وهل الحركة الذاتية التي تمتاز بها المادة الحية من المادة الميتة، هذه طبع ذاتي لتلك المادة الحية نفسها، كما أن الخضوع للجاذبية، مثلا، طبع ذاتي فيها؟؟ لو كانت كذلك ما جاز أن تتعطل بالموت! والجواز هنا أعني به ما تدل عليه العادة مما هو أساس التجويز والمنع عند القوم في مثل ذلك! هم من قواعدهم المنهجية اليونانية الموروثة أن ما ثبت لجنس من

أجناس الموجودات من المعاني أو الطبائع أو الصفات، أطلق ثبوته له بلا حد أو قيد إلا ما قد يأتي من نفس نظرياتهم من التحديد والتقييد. فإذا كانت المواد المحسوسة التي يقال في وصفها إن لها كتلة ما، تخضع لظاهرة الجاذبية في عادتنا، فلابد أن جميع المواد التي توصف بأن لها كتلة بإطلاق، على شرط الوجود، أن تكون كذلك في كل مكان وزمان، ما لم يقم لديهم من نفس نظرياتهم ما يوجب التقييد، كما حصل عندما استظهر الفيزيائيون لمعادلة المجال عند أينشتاين حدا في الماضي تنكسر عنده، وقبِل هو ذلك منهم فعدل صياغتها تبعا! فإذا أبوا إلى أن يجعلوا الحياة طبعا ماديا صرفا يقوم بالمادة الحية، فما الطبع المادي الذي يوجب زوالها كلها عن جميع ما يتحرك في جسم الكائن الحي، إذا ما جاء أجله؟ ليس السبب بالضرورة إلا سببا غيبيا فائقا لتلك المادة وطبائعها المركبة فيها، متجاوزا لها بالكلية! سبب الحياة وسبب الموت جميعا، وما به تكون المادة حية أو ميتة، ليس من جنس الطبائع التي يجوز طرحها للبحث الطبيعي والتجريبي من حيث أسباب ثبوتها وانتفائها للمادة الموصوفة بها! فكيف بأصلها الذي نشأت عنه حين خلقت في أول الأمر؟؟ أو بعبارة أخرى: إذا كان قيام ما يقال له الحياة بالمادة المعينة التي توصف بأنها حية، وزوال ذلك عنها إذا زال، ليس يمكن إخضاعه "تفسيريا" لطبع قائم بالمادة نفسها، أو بغيرها من المواد المقارنة لها، بحيث يمكن التحكم في تلك الصفة من طريق التحكم في ذلك الطبع بوجه ما، كما هو الشأن في كل طبع مادي معتاد، لوضوح أنها ليست طبعا ماديا على هذا المعنى أصلا، فكيف بنشأة مطلق ما يقال له الحياة في هذا العالم؟ ثم إننا نعلم أن من الحياة ما يكون مرتبطا بروح تقوم بالنفس حال الحياة، ومنها ما يكون لا روح فيه تقبض عند الموت، كالنبات وما شاكله! فمعنى الحياة أعم من معنى الروح الملازمة لها في أجساد بعض الأنواع الحية، وهو كله مما لم نكن لنعرفه إلا

من طريق السمع وحده. نعم صدقت يا بلانتينغا في قولك إننا ليس لدينا ضمان لأن يكون الإله قد خلق كل شيء من طريق الأسباب الثانوية، ولكنا كذلك ليس لدينا داع لجعل ذلك الزعم هو الأصل كما يشعر به كلامك! بل لدينا المانع الصارم من جعل مبحث الأصل الأول أو النشأة الأولى Question of Origins خارجا بالكلية عن جنس الأسباب الطبيعية التي هي موضوع البحث التجريبي الطبيعي! وهو مانع سمعي عقلي معا، وليس مانعا سمعيا فقط! لأن نظام العالم المشاهد والمعتاد، المتمثل (في حدود دركنا) في تلك الطبائع المحسوسة المعتادة المطردة في مادة ذلك الحيز المشاهد منه، هذا كله، سواء ما كان منه مادة حية أو مادة ميتة، هو راجع وجوبا إلى بداية ما في الماضي، إلى نقطة قد أحدثه فيها خالقه بعد أن لم يكن! فمحال أن تكون الطبائع القائمة بالمواد متقدمة زمانيا، وجوديا، على المواد نفسها، فضلا عن أن تكون هي التي أنشأتها! وهذا يشمل المواد الحية والميتة جميعا! الأمر كله لابد وأنه ركب على أسباب من غير ما نعتاد له على نظير أو شبيه في الكيفية والحقيقة، فتولدت تلك الطبائع والسنن التي نحن معتادون عليها الآن، على أثر ذلك الخلق الأول والتركيب الإلهي الأول، كما جاء الخبر ببعض حوادثه في أيام الخلق الستة في نصوصنا وفي نصوص أهل الكتاب من قبل! فالعقل مانع أصلا من أن يقال في الخلق الأول هذا إنه كان له أسباب ثانوية من جنس ما يجعله الطبيعيون مادة لوضع الفروض والنظريات التفسيرية أشكالا وألوانا!

ولهذا قلت إن كلامه في هذا الموضع حق إجمالا، يراد به باطل! ويظهر لك ذلك الباطل في قوله: " سيكون مما يستحق بشدة أن نعرفه (إن أمكن) أي الأشياء هو ما فعله بصورة مباشرة تحقيقا. فإن معرفة ذلك تكون جزءا مهما من أي معرفة جادة وعميقة بشأن الكون. وحقيقة أن أمثال هذه الدعاوى هي موقفات للعلم، تعني أنها، كقاعدة عامة، لن تكون مفيدة (للعلم)،

ولكنها لا تعني أنها لا تصح أبدا، ولا تعني أنها لا يمكن أبدا أن تكون جزءا من نظرية علمية معتبرة." قلت: من الذي أجاز لك أصلا أن تتحصل على معرفة جادة وعميقة، كما وصفتها، بشأن الكون، بهذا الإطلاق، من طريق البحث الطبيعي والتجريبي، بحيث يكون جزءا أساسيا أو مهما منها، هو المعرفة بأي الأشياء في هذا العالم قد خلقه ربه بصورة مباشرة، وأيها قد خلقه بالأسباب الثانوية كما تسميها؟؟ لا يجيزه لك إلا الفيلسوف اليوناني الذي تشربت منه بهذا المطلب المعرفي المزعوم، وبتلك الطريقة الموروثة المتغلغلة في بناء أكاديميتك اللاهوتية من حيث لا تشعر! هذا لا دخول لنا فيه بأنظارنا وعقولنا أصلا من مبدأ الطرح! لسنا نحتاج لأن تكون لدينا معرفة جادة وعميقة بشأن الكون بكليته على هذا النحو، وصولا إلى الكيفية التي خلق الله بها كل شيء فيه!! ولو كنا نحتاج إلى ذلك، لجاءنا به السمع مفصلا بما يحصل به المطلوب، لأنه لا يوصل إليه أصلا إلا من طريق السمع! فالكلام بأن مثل هذا يجوز أن يدخل في جنس المطالب المحمودة التي يصح للباحث الطبيعي أن يشتغل بها مبدئيا، نصرانيا كان أو ملحدا، هذا راجع كله عند أصحابه إلى ميراث المدرسة اليونانية الأولى في طبيعة النظرية الطبيعية وحدودها وأصل موضوعها، الذي هو الوجود والموجود بإطلاق، شعروا بذلك أم لم يشعروا! فنحن نقول بل بعض هذه الدعاوى يجب أن تكون موقفات للعلم البتة، موجبات للتفويض في موضوعها، إن لم يوجد في السمع ما يفيد فيه بشيء! بمعنى أننا نمنع الطبيعيين منعا صارما من تكلف وضع نظريات فيها، لا أننا نجيز لهم ذلك ولكن نشترط عليهم أن يراعوا إثبات صانع ما في تلك النظريات بعمل ما ينسبونه إليه، حتى نقبل منهم! هذا إفساد للدين وللعلم جميعا كما بسطنا الكلام عليه في محاضرات هذه المادة!

يقول بلانتينغا [42]:

وإذن فليس ثمة الكثير الذي يمكن أن يقال لصالح الطبيعية المنهجية. فعلى أحسن صورها، فإنها فقط تخبرنا بأن العلم الدوهمي يجب أن يكون محايدا ميتافيزيقيا، وأن دعاوى الفعل الإلهي المباشر لن تفيد، في المعتاد، بعلم جيد. وحتى في هاتين الحالتين، فما يكون لدينا الداعي لفعله، ليس الحظر المبدئي، ولكن توجيه عام بأنه في بعض الأحيان يكون من الواضح جدا أنه (أي المطلب (1): توليد فروض بشأن الفعل الإلهي المباشر) غير قابل للتطبيق. فليس ثمة سبب للحظر من طرح أسئلة مثل: هل خلق الإله الحياة خلقا خاصا؟ وليس ثمة مانع من التماس جواب مثل هذا السؤال إمبريقيا. وليس ثمة مانع للحظر، مقدما، من تقرير جواب بالإثبات لهذا السؤال.

قلت: كل هذا قد بينا السبب في كون المانع فيه غير قائم عند ورثة الأكاديمية اللاهوتية الغربية من أمثال بلانتينغا وغيره! فهو منطلق في لاهوته من نفس الأساس اليوناني الذي يقوم عليه مبدأ الطبيعية المنهجية الذي يفترض فيه هنا أنه يريد النقض عليه! فكيف يرجى

---

[42] *So there is little to be said for methodological naturalism. Taken at its best, it tells us only that Duhemian science must be metaphysically neutral and that claims of direct divine action will not ordinarily make for good science. And even in these two cases, what we have reason for is not a principled proscription but a general counsel that in some circumstances is quite clearly inapplicable. There is no reason to proscribe questions like: did God create life specially? There is no reason why such a question can't be investigated empirically; and there is no reason to proscribe in advance an affirmative answer.*

منه أن ينتهي في النقض إلى القيام به بحقه؟؟ هذا غير متصور! والعجيب أنه يستشعر كما أشرت آنفا بمسألة أصل الفساد في الفكر اليوناني هذه، إذ يقول عقب هذا الموضع مباشرة [43]:

إن الفكر النصراني، وبخاصة منذ العصور الوسطى العليا، (قلت: وهي القرون الثلاثة الأولى بعد تمام الألفية الأولى بعد الميلاد)، وفي مقابل الفكر اليوناني (وبخاصة الفكر الأرسطي)،

[43] *Christian thought (particularly since the High Middle Ages) as opposed to Greek (and in particular Aristotelian thought) contains a strong tendency to see the world as through-and-through contingent. The world need not have existed; that is, God need not have created it. The world need not have had just the structure it does have; that is, God could have created it differently. This sense of the contingency of nature has been one important source of the emphasis upon the empirical character of modern science. As a sort of rough rule of thumb, we can say that it is by reason, by a priori thought, that we learn of what cannot be otherwise; it is by the senses, by way of a posteriori inquiry that we learn about what is contingent. But the world as God created it is full of contingencies. Therefore we don't merely think about it in our armchairs, trying to infer from first principles how many teeth there are in a horse's mouth; instead we take a look. The same should go for the question how God acts in the world: here we should rely less upon a priori theology and more upon empirical inquiry. We have no good grounds for insisting that God must do things one specific way; so far as we can see, he is free to do things in many different ways. So perhaps he did create human life specially; or perhaps he has done other things specially. We can't properly rule this out in advance by way of appeal to speculative theology; we should look and see.*

ينطوي على ميل قوي لرؤية العالم على أنه وجميع ما فيه ممكن الوجود. العالم ليس بحاجة لأن يكون قد وجد، أي أن الإله لا يحتاج لأن يكون قد خلقه. العالم لا يفتقر لأن يكون له الهيكل الذي هو له دون غيره، أي أن الإله قد كان من الممكن أن يخلقه على خلاف ما خلقه عليه. هذا الشعور بأصل الإمكان العقلي للطبيعة، كان مصدرا مهما للتأكيد (يعني في عصر النهضة فيما بعد) على الطبيعة الإمبريقية للعلم الحديث. فمن القواعد التي يمكن تقريرها هنا، أنه بواسطة العقل أو الفكر القبلي A-priori، فإنه يمكننا أن نتعلم بشأن الواجب العقلي (أي ما لم يكن من الممكن إلا أن يكون على ما هو عليه)، وبواسطة الحواس، والبحث البعدي A-Posteriori، نتعلم بشأن ما هو ممكن عقلا. ولكن العالم على ما خلقه عليه الإله، مشحون بالإمكانات. لذا فلا نفكر فيها فقط من أرائكنا، محاولين أن نستنبط من المبادئ الأولى، كم عدد الأسنان في فم الحصان، بدلا من أن ننهض وننظر بأعيننا. والشيء نفسه يجب أن يصح في السؤال: كيف يعمل الإله في العالم. فهنا يجب أن نقلل من اعتمادنا على الثيولوجيا القبلية A-priori theology، ونزيد من اعتمادنا على البحث الإمبريقي فيه. فليس لدينا أساس معقول للحكم والإصرار على أن الإله يجب أن يفعل الأمور على نحو معين. ففي منتهى ما يمكننا أن نراه، فإن لديه حرية أن يفعل الأمور بأساليب متعددة ومختلفة. فلربما كان بالفعل أنه خلق الحياة البشرية خلقا مخصوصا، أو ربما يصح بالفعل أنه فعل أمورا أخرى فعلا خاصا (أي بلا أسباب طبيعية ثانوية من أفعال أخرى له). لا نملك أن نمنع من ذلك ابتداء من طريق الثيولوجيا العقلية، يجب أن ننظر بأعيننا ونرى.

قلت: قوله: "إن الفكر النصراني، وبخاصة منذ العصور الوسطى العليا، (قلت: وهي القرون الثلاثة الأولى بعد تمام الألفية الأولى بعد الميلاد)، وفي مقابل الفكر اليوناني (وبخاصة الفكر

الأرسطي)، ينطوي على ميل قوي لرؤية العالم على أنه وجميع ما فيه ممكن الوجود. العالم ليس بحاجة لأن يكون قد وجد، أي أن الإله لا يحتاج لأن يكون قد خلقه. العالم لا يفتقر لأن يكون له الهيكل الذي هو له دون غيره، أي أن الإله قد كان من الممكن أن يخلقه على خلاف ما خلقه عليه." هذا الكلام يشعرك بأنه يدري منبت الفساد وأصله في الأكاديمية الغربية عبر العصور، ورجوعه إلى طريقة الفلاسفة المؤسسين لتلك الأكاديمية تاريخيا. نعم ولا شك يفترق الفكر اليوناني جملة عن فكر من يثبتون ربا خالقا لهذا العالم من أهل الملل الكتابية، في أن أهل تلك الملل يرون كل ما في الوجود من الموجودات المتعينة في الخارج، مما سوى ذات الباري سبحانه، من قبيل الممكن عقلا، أي مما يمكن وجوده كما يمكن عدمه أو ووجود خلافه بلا امتناع أو تناقض، خلافا لفلاسفة اليونان! ولكن ما السبب في تلك المخالفة وما أصلها وما منشؤها؟ أصل ذلك الخلاف إنما هو حقيقة أن اليونانيين يطلقون نظريتهم على الموجود من حيث هو موجود في الأعيان! ومحال أن يكون الوجود في الأعيان بحيث يكون كله من أوله لآخره، جميع الموجودات بإطلاق، التي هي موضوع نظرهم، من قبيل الممكن الذي يجوز عدمه! فمن أطلق منهم كلمة "العالم" وهو يقصد بها كل ما في الأعيان من الموجودات، كما هو الغالب عليهم، كان مضطرا لأن يثبت وجودا واجبا إما للعالم نفسه (على هيئته الحالية)، من حيث هو محل للممكنات، أو لمادة قديمة لم تزل تتحول من هيئة إلى هيئة ومن عالم إلى عالم، بحيث يكون وجودها نفسها، أو جود جوهرها الأصلي، هو الوجود القديم الواجب، بصورة ما أو بأخرى! ومن هنا، كان من يثبت منهم صانعا ما لهذا العالم، لا يثبته إلا وجودا زائدا عدميا، لا يزال الكون ينبثق من ذاته انبثاقا ضروريا من الأزل، دون أن يكون له مشيئة مرجحة لشيء فيه على شيء، أو إرادة أو قصد أو علم بما يجري فيه

أو شيء من ذلك! وإنما هو شيء وهمي منزه بزعمهم حتى عن مجرد أن يوجد تحقيقا في الأعيان، أو أن تقوم به الصفات! فإما أن يكون ذلك الموجود العدمي الذي ينبثق منه العالم انبثاقا، عند من لم تضطره ضغوط المجتمع الذي يعيش فيه للقول بكونه قد أحدث هذا العالم كله، مادة وهيئة، بعد عدمه، وهو في هذه الحالة لا في داخل العالم ولا خارجه، وإما أن يجعلوه هو العالم نفسه أو قانونه الطبيعي، وإما أن يجعلوه ذاتا مجردة من جميع الصفات، ولا توصف إلا بأنها أحدثت هذا العالم بجميع ما فيه وتسببت فيه، وحسب! فأين هي الآن؟ لا هي من العالم ولا هي عين العالم ولا هي خارج العالم ولا داخله! سلوب في سلوب كما هو المعتاد من طريقتهم. المهم ألا يفرض عليهم وجوده الذي يزعمون إثباته، تقييدا لإطلاقات النظرية الوجودية وتضييقا لمادتها وموضوعها من مبدأ الطرح! ولهذا إذا خاطبتهم وجدتهم يقولون في تلبيس محض: نحن ننزه الصانع الذي نثبته عن تلك الصفات البشرية التي تنسبونها إليه، هو عندنا أسمى من أن يكون له جهة أو مكان أو أن يكون في الحاضر كما نوجد نحن في الزمان، أو أن يكون فاعلا كما نتصف نحن بالفعل، مريدا كما نتصف نحن بالإرادة، متكلما كما نتصف نحن بالكلام، سميعا بصيرا كما نسمع ونبصر، إلى آخر ذلك مما يزعمونه الكمال في التنزيه، مع أنه في الحقيقة ليس إلا تنزيها لنظريتهم الشيطانية من أن يقف في وجهها حد وجودي يوجب عليهم تقييد إطلاقها الميتافيزيقي ومجال انطباقها على الموجودات!

ولكن لأن فلاسفة النصارى ما تربوا إلا في تلك المدرسة اليونانية الدهرية، واضطرتهم مجالسة القوم إلى أن يناظروهم على شروط الأكاديمية الموروثة في المناظرة والخصومة وفي الإثبات والنفي الوجوديين، لم يشعروا بأن هذا الذي ذكره بلانتينغا من نسبة الوجوب إلى العالم بكليته أو إلى شيء منه، إنما سببه هو مبدأ وطريقة النظر اليونانية في الوجود بإطلاق كما أطلنا النفس

في بيانه في هذه المادة وغيرها! فهو هنا ينكر على الفلاسفة تفكيرهم في العالم وما فيه على أساس أن النظر الاستنباطي المجرد بأقيسة الشمول وما شاكلها يوصل فيه إلى أحكام تصح دون حاجة إلى الخروج لمشاهدة الموجودات والحكم عليها عيانا، كما هو المتبع في الطريقة التجريبية، دون أن ينتبه إلى أن هذه الطريقة هي الأساس الذي اعتمده اللاهوتيون القدماء كأوغسطين وغيره في مجادلة القوم وفي إثبات وجود من صنعهم، في جملة ما استندوا إليه! وهي أساسهم في استنباط الصفات والأفعال الإلهية، وهو ما بسببه وعلى أثره قرر بلانتينغا فيما مر أنه لا إشكال في أن نضع "الفروض التفسيرية" التي تجعل طبيعة الفعل الإلهي في هذا العالم، في آحاد موجوداته، بل وفي أصله ونشأته الأولى، ونشأة الأنواع فيه، موضوعا نظريا تجريبيا، يمكن أن تميل به الأدلة الحسية إما لإثبات كونه قد تم بأسباب ومولدات ثانوية أو بأسباب مباشرة دون تلك الأسباب والمولدات! فالفلاسفة في الحقيقة لا يستغنون عن النظر في المحسوسات، كما يتوهمه كثير من الناس! ولكنهم يؤسسون على ذلك النظر، من على أرائكهم، من النظريات الكونية المطلقة على شرط الوجود، ما هو مردود عليهم من مبدأ الطرح! يقاس كل ما في الوجود على بعض ما في العادة! وإذا سئلوا، قالوا هذه دلالة الاستقراء! أم تراكم لا ترون في الاستقراء دليلا؟؟ ولهذا لا يصح ما قرره الرجل هنا من قسمة كلية بين ما يسميه الفلاسفة بالنظر القبلي A-Priori وما يسمونه بالنظر البعدي A-posteriori، فإن الفلاسفة لا يمكنهم أصلا، كما بينه شيخ الإسلام رحمه الله في مواضع عدة، أن يطلقوا أي دعوى ذات بال بشأن العالم بكليته دون أن يكون ابتداؤهم فيها بشيء مما في الحس والعادة المشاهدة! أعني بعيدا عن مسألة كونه ممكنا بكليته غير واجب، أو حادثا بكليته غير قديم (وهما من مسلمات الفطرة)، فجميع ما سوى ذلك يقال بالتأسيس على شيء

محسوس! بل حتى هاتين المسلمتين يشترطون في تأسيسهما (على أساس أن النفس البشرية السوية تخلو منهما ابتداء)، أو تأسيس خلافهما، البناء على المحسوس! وهذا هو أصل السفسطة في طريقتهم الموروثة التي تشبع بها أهل الملل تبعا إلا من رحم ربك! هم فتحوا كل شيء للاستدلال بالنظر العقلي! والنظر العقلي إما أن يكون بقياس شمول بأنواعه (ومنه الاستقراء والتفسير) أو بقياس تمثيل! وأما قياس الأولى فلا يقولون به لأنه مؤسس عند أتباع المرسلين على الفطرة التي لا يثبتونها أصلا! وهو دليل إلزام ونقض وليس دليل تأسيس لمعرفة لا قيام لها بنفس المؤمن ابتداء، كما بسطنا الكلام عليه في محله. ومن أجل أن تقيس بالشمول أو التمثيل أو حتى الاستقراء، لابد أن تبدأ أولا بمشاهدة قدر من موجودات العالم لتستخلص منه معنى كليا تفرع عليه، أو صفة تنقلها نقلا من المحسوس إلى الغائب، ومن ثم تعمم حكمك على جميع العالم! وهذا منشأ الفساد عندهم، إذ كانت دائرة الإطلاق في التعميم والاستقراء هي كل ما في الوجود، فكان ما كان من فساد أصولهم ومن تعطيلهم رب العالمين عن جميع صفاته. ولهذا نقض عليهم شيخ الإسلام ببيان أننا لا يصح أن نؤسس وجود من خلقنا على إثبات معنى الحدوث أو معنى الإمكان، بطريق النظر، للعالم بكليته! لأن هذه السفسطة، مورثة لا محالة، لتعطيل رب العالمين عما ينبني البرهان على كونه من خصائص هذا العالم، مع أن النظرية من الأصل تقوم على إطلاقه في كل موجود! فإن لم يكن مطلقا على كل موجود، فما موجب تقييده بالعالم (غيبه وشهادته) دون سواه؟ لا موجب أصلا إلا من الفطرة التي أبوا أن ينصتوا إلى صوتها في نفوسهم، واختاروا القياس والنظر بديلا لها جملة واحدة، من مبدأ الأمر! فهل المعرفة الفطرية قبلية أم بعدية، هذه قسمة سفسطائية أخرى قد أطلنا النفس في الكلام عليها في غير هذه المادة.

فقوله على سبيل التقعيد الكلي: " فمن القواعد التي يمكن تقريرها هنا، أنه بواسطة العقل أو الفكر القبلي A-priori، فإنه يمكننا أن نتعلم بشأن الواجب العقلي (أي ما لم يكن من الممكن إلا أن يكون على ما هو عليه)، وبواسطة الحواس، والبحث البعدي A-Posteriori، نتعلم بشأن ما هو ممكن عقلا." هذا من جنس ما أنكره على الفلاسفة من إطلاق الأحكام الكونية الفاحشة وهم جلوس على الأرائك، وهو فيه متشبع بالطريقة اليونانية السفسطائية من حيث لا يشعر! فالتحقيق أن نفس المصطلحين القبلي والبعدي هذين، في تعريفهما من الإجمال والتداخل والفساد، في جميع أقوال الفلاسفة فيهما، ما يوجب تركهما بالكلية! وهل تعلمنا اللغة أصلا في الصغر إلا بأن جمعنا من الحس ما استخرجنا منه تلك المعاني الكلية التي كانت هي مستندنا في الحكم على ما يسميه هنا بالضروريات والواجبات العقلية (التي لا يمكن أن تكون على خلاف ما هي عليه في الواقع)؟؟ لهذا قلنا لا يجوز نفي ما يقال له المعارف القبلية ولا إثباتها، كما اختلف فيه بعض المتفلسفة من المعاصرين من المنتسبين إلى السلفية وطريقة أهل السنة، لأن الأمر فيها مغرق في الإجمال، والقسمة نفسها لا ثمرة لها إلا السفسطة وإفساد العقل والدين على أصحابهما!

فصحيح إن العالم كما قال بلانتينغا مشحون بالإمكانات، بل لا حصر ولا إحصاء لوجوه الإمكان فيه، ولكن ليس من مطلب ولا من وظيفة العاقل من أتباع الرسل أن يتكلف إطلاق الحكم بشأن العالم بكليته في تفسير كونه على ما يجده عليه من الحال! فإنه من الأصل لا يرى منه إلا النذر اليسير، هو وجميع من سبقوه من بني جنسه! والسبب في كون طريقة الفلاسفة توجب عليهم تقديم هذا النظر الكلي الأرائكي هذا الذي ينكره عليهم الرجل في هذا الكلام، هو أنهم يجعلون العالم بكليته هو موضوع نظرهم، كما يقرهم عليه الرجل هنا ولا ينتبه

إلى مقتضاه ولازمه! ولو أنه قيد الأمر بحدود العادة ومحل الخبرة البشرية التراكمية من هذا العالم، كما هو المتعين على كل عاقل، فضلا عن كل من يثبت ربا بالغيب هو الخالق لهذا العالم على وجه مخصوص من وجوه الإمكان فيه قد ترجح على خلافه بمشيئته وإرادته سبحانه، لو أنه فعل ذلك، لصدق في قوله هنا إن الواجب على الباحث النصراني في الطبيعيات أن يتقلل من النظر الذي يسميه بالقبلي، ويستزيد مما يسميه بالبعدي، الذي هو أساس العلم التجريبي! فالتجريب على الطريقة التي تتلمذ عليها بلانتينغا نفسه في الكنيسة، إنما هو طريق لدعم وتعضيد (أو تكذيب) الإطلاقات الميتافيزيقية الكبرى التي يبدأ الناظر منها في الموجود بإطلاق وفي العالم بكليته، يطلقها وهو جالس على أريكته! وليس هو مبتدأ النظر تحقيقا عندهم فيما ورثوا وما تعلموا! لو كان مطلب القوم من النظر في الطبيعة أو في الفيزيقا هو أن يتعلموا ما به ينتفعون نفعا أداتيا عمليا صرفا مما يستفاد العلم به من طريق التجريب، لكان الأمر كذلك، ولصدقناه في هذا التقرير! ولكنهم على الطريقة الأوغسطية يحتذون تلك الطريقة الميتافيزيقية اليونانية حذو القذة بالقذة، فلا قيمة لهذا الكلام ولا يغني عنهم شيئا عند المفاصلة والتحقيق!

ثم يقول في الختام [44]:

[44] *My main point, therefore, can be summarized as follows. According to Augustine, Kuyper, and many others human history is dominated by a battle, a contest between the Civitas Dei and the City of Man. It is part of the task of the Christian academic community is to discern the limits and lineaments of this contest, to see how it plays out in intellectual life generally, and to pursue the various areas of intellectual life as citizens of the Civitas Dei. This naturally suggests pursuing science using all*

فمقصدي هنا، إذن، يمكن اختصاره فيما يلي. وفقا لأوغسطين وكويبر وكثيرين آخرين، فإن التاريخ البشري تسيطر عليه معركة، صراع بين مدينة الإله ومدينة الإنسان. وهو جزء من مهام المجتمع الأكاديمي النصراني أن يقرر حدود ومعالم ذلك الصراع، وأن يرى ما الذي يسفر عنه في الحياة الفكرية بعموم، وأن نسعى في شتى نواحي الحياة الفكرية بوصفنا مواطنين في مدينة الإله. وهذا يحدو بنا، وبصورة طبيعية، إلى أن نطلب العلم الطبيعي باستعمال جميع ما نعرف،

---

that we know: what we know about God as well as what we know about his creation, and what we know by faith as well as what we know in other ways. That natural suggestion is proscribed by the principle of Methodological Naturalism. Methodological naturalism, however, though widely accepted and indeed exalted, has little to be said for it; when examined coolly in the light of day, the arguments for it seem weak indeed. We should therefore reject it, taken in its full generality. Perhaps we should join others in Duhemian science; but we should also pursue our own Augustinian science. By way of conclusion, I call attention to something else John Stek has said:

Theology must take account of all that humanity comes to know about the world, and science must equally take account of all that we come to know about God. In fact, we cannot, without denying our being and vocation as stewards, pursue theology without bringing to that study all that we know about the world, nor can we, without denying our being and vocation as stewards, pursue science without bringing to that study all that we know about God.

Just so.

ما نعرفه بشأن الإله، وما نعرفه بشأن خلقه، وما نعرفه من طريق الإيمان، وما نعرفه بطرق أخرى. هذا التصور المعقول (للنصراني وموقفه من المسألة) ممنوع مبدئيا تحت الطبيعية المنهجية. لكن الطبيعية المنهجية، وعلى الرغم من قبولها الواسع، بل وتقديسها، ليس لها ما ينصرها عقلا. فعندما نفحصها بهدوء في وضح النهار، نجد أن الحجج الداعمة لها ضعيفة على التحقيق. ولهذا فعلينا أن نرفضها، إذا حملت على محمل التعميم التام. ربما يتعين علينا أن ننضم إلى الآخرين في العلم الدوهيمي، ولكن يجب أيضا أن نسعى في طلب علمنا الأوغسطيني الخاص بنا.

وعلى سبيل الختام، ألفت الانتباه إلى شيء آخر قاله جون شتيك! قال: "يجب على الثيولوجيا أن تأخذ في اعتبارها جميع ما تعرفه البشرية بشأن العالم، وعلى العلم أيضا، وعلى السوية، أن يأخذ في اعتباره جميع ما نعرفه عن الإله. ففي الحقيقة فإنه لا يمكننا، دون أن ننكر وجودنا ووظيفتنا من حيث نحن خلفاء لله في الأرض، أن نطلب العلم في الثيولوجيا دون أن ندخل في هذا المطلب جميع ما نعرفه بشأن العالم، ولا يمكننا في المقابل، وبدون إنكار وجودنا ووظيفتنا الاستخلافية، أن نطلب العلم الطبيعي دون إدخال ما نعرفه بشأن الإله في مطلبنا."

وهو كما قال.

انتهى نص المقال بجزئيه.

ونقول فيما نرجو أنه يتم به المقصود من التعليق على هذا المقال، إن هذا الكلام يعجبك فيه إجماله وتراك مضطرا لموافقته عليه إجمالا، بيد أنك إذا سمعت تفصيله فيه، رأيت ما مر بيانه مما يسوءك، والله المستعان. فما يسميه هنا إجمالا بالعلم الدوهمي، هذا ما ضابطه وما حدوده

الموضوعية التي يكون بها استعمال المنطق الاستقرائي وفرعه (التفسيري) معقولا مقبولا مستساغا فيه، هذا ما لو أنك حررته يا سيد بلانتينغا كما حقه أن يحرر، لتحقق لك هذا المطلب الذي تنادي به في خاتمة هذا المقال، ولصدقت في نقضك على الطبيعية المنهجية من كل وجه يجب النقض به عليها، والله الهادي إلى سواء السبيل، والحمد لله أولا وآخرا، وهو حسبنا ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.